

تَفْسِيرُ

بِتَشْيِخِ الْأَمِيرِ ابْنِ تَمِيمَةَ

الْجَامِعِ لِلْكَلامِ الْأَمِيرِ ابْنِ تَمِيمَةَ فِي التَّفْسِيرِ

جَمَعَهُ وَحَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

إِيَادُ بْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْقَسْبِيِّ

رَاجَعَهُ

عُمَانُ بْنُ مُعَلَّمٍ مَحْمُودٍ

أَشْرَفَ عَلَيْهِ طَبِيعُهُ

سَعْدُ بْنُ فَوَّازِ الصَّمِيلِ

الْجُزْءُ الْخَامِسُ

سُورَةُ الْفُرْقَانِ - سُورَةُ مُحَمَّدٍ

دَارُ ابْنِ الْجَوْزِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير
شرح الامام ابن تيمية
في الامامة والنبوة والفتنة

٥

حقوق الطبع محفوظة لدار ابن الجوزي

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٣٢هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



دار ابن الجوزي

للتشـر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تليفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوال: ٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جلة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٥٩٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت - هاتف:
٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تليفاكس:
٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:

aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

سورة الفرقان

وقال في عموم الفرقان:

(قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ١، [فذكر] الوحداية والرسالة إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُرُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ٧ ﴿يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لِمَ اتَّخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ٨ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ ٩ ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ ١٠﴾ [الفرقان]، فكل من خرج عن اتباع الرسول فهو ظالم بحسب ذلك) ١. هـ^(١).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ١.

(قال تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ١٧﴾ [الأنبياء] فاسم «الناس» و«العالمين» يدخل فيه العرب وغير العرب من الفرس، والروم، والهند والبربر) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ولفظ العبد في القرآن: يتناول من عبد الله، فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده. كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] فالاستثناء فيه منقطع، كما قاله أكثر المفسرين والعلماء، وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَسْتَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ﴾ [ص: ١٧] و﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١] ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ نَارًا مِنَّا وَنُوحًا نَذِيرًا﴾ [ص: ٤٥] ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف: ٦٥] ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] ﴿إِنَّمَا كَانَتْ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ٧﴾ [النجم] ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾. ونحو هذا كثير) ١. هـ^(٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠٧/٣٤).

(١) مجموع الفتاوى (١٢٩/٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٤٣/١، ٤٤).

وقال رحمه الله: (قال ﷺ): ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿الذِّكْرُ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْيَوْمُ ۝ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران]، قال جماهير المفسرين: هو القرآن^(١). روى ابن أبي حاتم بإسناده عن الربيع بن أنس قال: هو الفرقان فرق بين الحق والباطل. قال: وروى عن عطاء ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك، وروى بإسناده عن شيبان عن قتادة في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ قال: هو القرآن الذي أنزله الله على محمد، ففرق به بين الحق والباطل، وبيّن فيه دينه وشرع فيه شرائعه، وأحلّ حلاله وحرم حرامه، وحدّ حدوده، وأمر بطاعته ونهى عن معصيته. وعن عباد بن منصور سألت الحسن عن قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ قال: هو كتاب بحق.

و«الْفُرْقَانُ» مصدر فرق فرقاناً مثل الرجحان، والكفران، والخسران، وكذلك «القرآن» هو في الأصل مصدر قرأ قرآناً، ومنه قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝﴾ [القيامة] ويسمى الكلام المقروء نفسه «قرآناً» وهو كثير كما في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝﴾ [النحل] كما أن الكلام هو اسم مصدر كلم تكليماً، وتكلم تكلماً، ويراد به الكلام نفسه؛ وذلك لأن الإنسان إذا تكلم كان كلامه بفعل منه وحركة هي مسمى المصدر، وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفاً هو نفس التكلم، فالكلام والقول ونحو ذلك يتناول هذا وهذا؛ ولهذا كان الكلام تارة يجعل نوعاً من العمل إذا أريد به المصدر، وتارة يجعل قسيماً له إذا أريد ما يتكلم به، وهو يتناول هذا وهذا. وهذا مبسوط في غير هذا الموضوع.

والمقصود هنا أن لفظ «الفرقان» إذا أريد به المصدر كان المراد أنه أنزل الفصل والفرق بين الحق والباطل، وهذا منزل في الكتاب، فإن في الكتاب الفصل وإنزال الفرق هو إنزال الفارق، وإن أريد بالفرقان ما يفرق فهو الفارق أيضاً. فهما في المعنى سواء، وإن أريد بالفرقان نفس المصدر فيكون إنزاله كإنزال الإيمان وإنزال العدل، فإنه جعل في القلوب التفريق بين الحق والباطل بالقرآن، كما جعل فيها الإيمان والعدل، وهو ﷺ أنزل الكتاب والميزان، والميزان قد فسر بالعدل، وفسر بأنه ما يوزن به ليعرف العدل، وهو كالفرقان يفسر بالفرق، ويفسر بما يحصل به الفرق، وهما متلازمان؛ فإذا أريد الفرق نفسه فهو نتيجة الكتاب وثمرته ومقتضاه، وإذا أريد الفارق فالكتاب نفسه هو الفارق، ويكون له اسمان كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة الأخرى، سمي

كتاباً باعتبار أنه مجموع مكتوب تحفظ حروفه ويقرأ ويكتب، وسمى فرقاناً باعتبار أنه يفرق بين الحق والباطل كما تقدم، كما سمي هدى باعتبار أنه يهدي إلى الحق، وشفاء باعتبار أنه يشفي القلوب من مرض الشبهات والشهوات ونحو ذلك من أسمائه.

وكذلك أسماء «الرسول» كالمقفي، والماحي، والحاشر، وكذلك «أسماء الله الحسنی» كالرحمن، والرحيم، والملك، والحكيم، ونحو ذلك.

والعطف يكون لتغاير الأسماء والصفات، وإن كان المسمى واحداً كقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الْأَلَىٰ خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝﴾ [الأعلى] وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۝﴾ [الحديد: ٣] ونحو ذلك.

وهنا ذكر أنه نزل الكتاب، فإنه نزله متفرقاً، وأنه أنزل التوراة والإنجيل، وذكر أنه أنزل الفرقان، وقد أنزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوهُ وَاسْتَقِيمُوا﴾ [الميزان] مما يحصل به الفرقان أيضاً كما يحصل بالقرآن، وإذا أنزل القرآن حصل به الإيمان والفرقان، ونظير هذا قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا﴾ [الأنبياء: ٤٨] قيل: الفرقان هو التوراة، وقيل هو الحكم بنصره على فرعون، كما في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وكذلك قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] قيل: «النور» هو محمد عليه الصلاة والسلام، وقيل: هو الإسلام، وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] قيل: «البرهان» هو محمد، وقيل هو الحجة والدليل. وقيل: القرآن والحجة والدليل تتناول الآيات التي بعث بها محمد ﷺ؛ لكنه هناك جاء بلفظ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ و﴿جَاءَكُمْ﴾، وهنا قال: ﴿وَأُنزَلْنَا الْفُرْقَانَ﴾ جاء بلفظ الإنزال؛ فلهذا شاع بينهم أن القرآن والبرهان يحصل بالعلم والبيان كما حصل بالقرآن، ويحصل بالنظر والتمييز بين أهل الحق والباطل بأن ينجي هؤلاء وينصرهم ويعذب هؤلاء، فيكون قد فرق بين الطائفتين كما يفرق المفرق بين أولياء الله وأعدائه بالإحسان إلى هؤلاء وعقوبة هؤلاء.

وهذا كقوله في القرآن في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١] قال الوالي عن ابن عباس^(١): ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر، فرق الله فيه بين الحق والباطل.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك؛ وبذلك فسر أكثرهم: ﴿إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] كما في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] أي من كل ما ضاق على الناس، قال الوالبي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي مخرجاً، قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان كذلك، غير أن مجاهداً قال مخرجاً في الدنيا والآخرة، وروى عن الضحاك عن ابن عباس قال: نصراً، قال: وفي آخر قول ابن عباس والسدي نجاة.

وعن عروة بن الزبير ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي فصلاً بين الحق والباطل، يظهر الله به حقكم ويظفي به باطل من خالفكم، وذكر البغوي عن مقاتل بن حيان قال: مخرجاً في الدنيا من الشبهات، لكن قد يكون هذا تفسيراً لمراد مقاتل بن حيان، كما ذكر أبو الفرج بن الجوزي عن ابن عباس، ومجاهد وعكرمة، والضحاك وابن قتيبة: أنهم قالوا هو المخرج. ثم قال: والمعنى يجعل لكم مخرجاً في الدنيا من الضلال، وليس مرادهم، وإنما مرادهم المخرج المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ والفرقان المذكور في قوله: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقد ذكر عن ابن زيد أنه قال: هدى في قلوبهم يعرفون به الحق من الباطل، ونوعا الفرقان فرقان الهدى والبيان، والنصر والنجاة هما نوعاً «الظهور» في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] يظهره بالبيان والحجة والبرهان ويظهر باليد والعز والسنان.

وكذلك «السلطان» في قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] فهذا النوع وهو الحجة والعلم كما في قوله: ﴿أَمْ أَرْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٢٥] وقوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ [غافر: ٣٥] وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَرْزَلْنَا اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣].

وقد فسر «السلطان» بسلطان القدرة واليد، وفسر بالحجة والبيان فمن الفرقان ما نعته الله به في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف] ففرق بين

المعروف والمنكر، أمر بهذا ونهى عن هذا، وبين الطيب والخبيث، أحل هذا وحرم هذا. ومن «الفرقان» أنه فرق بين أهل الحق المهتدين المؤمنين المصلحين أهل الحسنات، وبين أهل الباطل الكفار الضالين المفسدين أهل السيئات، قال تعالى: ﴿أَمْ حِسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا تَهُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الباقية] وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [٣٥] ما لكم كيف تكفرون؟ [القلم]؟ وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود]؟ وقال تعالى: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [١٨] وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٥﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٥﴾ وَلَا الظُّلْمُ وَلَا الْهُورُ ﴿٢٦﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٨﴾ [فاطر] وقال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة] فهو سبحانه بين الفرق بين أشخاص أهل الطاعة لله والرسول، والمعصية لله والرسول، كما بين الفرق بين ما أمر به وبين ما نهى عنه) ا.هـ (١).

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَنْخِذْ لَكَ دَلِيلًا وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكًا فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ [٢].

(والسماوات ليست مبدعة الإبداع المعروف، وقد قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ فذكر لفظ الخلق لكل شيء، وذكر أنه قدر كل شيء تقديرًا والملائكة عندهم لم تقدر، بل ولم تخلق الخلق المعروف عند المسلمين، وهذا يدل على مناقضتهم للرسول أيضاً مع كثرة أدلة ذلك باللغة التي خوطبوا بها فهذا أصل) ا.هـ (٢).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [٤].

(١) مجموع الفتاوى (٧/١٣ - ١٤) وقد مر الكلام على الآثار في هذا المقطع في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّبِعُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾.

(٢) بغية المرئاد (٢٤٠).

(وكذلك قال بعض الناس عن القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا إِنْكَافِرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخِرُونَ...﴾، قال تعالى: ﴿...فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿١﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولِيْنَ أَكْتَبَهَا فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٢﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٣﴾، فبين سبحانه أن قول هذا من الكذب الظاهر المعلوم لأعدائه فضلاً عن أوليائه فإنهم يعلمون أنه ليس عنده أحد يعينه على ذلك، وليس في قومه ولا في بلده من يحسن ذلك ليعينه عليه فلهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾، فإن جميع أهل بلده وقومه المعادين له يعلمون أن هذا ظلم له وزور؛ ولهذا لم يقل هذا أحد من عقلائهم المعروفين، وكذلك قولهم أساطير الأولين اكتبتها فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا، فإن قومه المكذبين له يعلمون أنه ليس عنده من يملي عليه كتاباً. وقد بين ما يظهر كذبهم بقوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

فإن في القرآن من الأسرار ما لا يعلمه بشر إلا بإعلام الله إياه، فإن الله يعلم السر في السموات والأرض، ثم لما تبين بطلان قولهم هذا، ذكر ما قدحوا به في نبوته فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَسْتَبِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿٨﴾ [الفرقان]، فهذا كلام المعارضين له الذين أنكروا أكله ومشيه في الأسواق التي يباع فيها ما يؤكل وما يلبس، وقالوا: هلا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يستغني عن ذلك بكنز ينفق منه أو جنة يأكل منها، وقال الظالمون: إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٨﴾ [الإسراء]، يقول: مثلوك بالكاذب والمسحور والناقل عن غيره، وكل من هذه الأقوال يظهر كذبه لكل من عرفك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿... فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، والضال الجاهل العادل عن الطريق فلا يستطيع الطريق الموصلة إلى المقصود، بل ظهر عجزهم وانقطاعهم في المناظرة) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ومثال أقوال الكفار في الأنبياء ما ذكره تعالى في قوله تعالى: ﴿بَارِكْ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ الَّذِي لَمْ يُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا

حَيَوةً وَلَا شُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ إِفْكُ أَقْرَبَهُ وَاعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ عَفْوًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفِثُ إِلَيْهِ كِتَابًا أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ، فبين سبحانه - أن الكفار ضربوا له أمثالا كلها باطلة ضلوا فيها عن الحق، فلا يستطيعون مع الضلال سبيلا إلى الحق، وضرب الأمثال له يتضمن تمثيله بأناس آخرين، وجعله في تلك الأنواع التي ليس هو منها ولا مماثلا لأفرادها مثل قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ إِفْكُ أَقْرَبَهُ وَاعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ...﴾ ، مثلوه بالكاذب المستعين بمن يعينه على ما يفتره، ومثلوه بمن يستكتب أساطير الأولين من غيره، فتقرأ عليه طرفي النهار وهو يتعلم من أولئك ما يقوله ومثلوه بالمسحور) ١. هـ^(١).

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ .

(فحكي الله أقوالهم، مبينا لظهور كذب من قال ذلك، وأنه قول ضال حائر، قد بهر حال الرسول، فحار فلم يدر ما يقول، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَخْذُ وَلِذَا يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا شُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ إِفْكُ أَقْرَبَهُ وَاعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ عَفْوًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ ، فأخبر عن من قال ذلك، وهم يعلمون أن هذا من أظهر الكذب، فإن هذه القصص المذكورة في القرآن، لم يكن بمكة من يعرفها، فضلا عن أن يملئها، كما قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِمِيزَانِكُمْ...﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال: ﴿... مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُهَا أَنْتُمْ وَلَا قَوْمُكُمْ مِنْ قَبْلِ هَذَا...﴾ [هود: ٤٩]، ولهذا قال: ﴿أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ﴾ فأخبر أن هذا

من علم من يعلم السر، إذ كان البشر لا يعلمون ذلك إلا من جهة أخبار الأنبياء، وليس بمكة من يعلم ما أخبرت به الأنبياء.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ مَا اقْتَرَحُوهُ فَقَالَ: ﴿وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ مَعَهُ فَكُنْتَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾، أمر بالنظر في كيفية ما ضربوه من الأمثال، حيث شبهوه بمن يظهر الفرق بينه وبينه ظهوراً لا يخفى على الناظر، ولهذا قال: ﴿... فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، إذ كان ظاهراً أن هذا ضلال عن طريق الحق، فلا يستطيع الضال عن طريق الحق إليه سبيلاً) ١. هـ^(١).

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٣٣﴾﴾، قال ابن المبارك: هي الأعمال التي عملت لغير الله. وقال مجاهد: هي الأعمال التي لم تقبل) ١. هـ^(٢).

﴿وَيَوْمَ يَعْزُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

(وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْزُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ يَتَوَلَّىٰ لَيْتِي لَرَأَيْتُ أَنِّي لَمُ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٧٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٧٩﴾﴾. فلا ريب أن هذا يتناول الكافر الذي لم يؤمن بالرسول. وسبب نزول الآية كان في ذلك، فإن «الظلم المطلق» يتناول ذلك ويتناول ما دونه بحسبه) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً، كالظالم الذي يعرض على يده يقول: ﴿يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَتَوَلَّىٰ لَيْتِي لَرَأَيْتُ أَنِّي لَمُ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٧٨﴾﴾) ١. هـ^(٤).

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

(وهذه الآية ذكرها الله تعالى بعد قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴿٣١﴾﴾

(١) الجواب الصحيح (٥/٣٢٨ - ٣٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/٣٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١/٥٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/٧٣).

فبين أن من هجر القرآن فهو من أعداء الرسول، وأن هذه العداوة أمر لا بد منه، ولا مفر عنه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا حَلِيلًا ﴿٧٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٧٩﴾﴾ ا.هـ (١).

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ أخبر سبحانه أن الكفار لا يأتون بقياس عقلي لباطلهم إلا جاءه الله بالحق، وجاءه من البيان والدليل وضرب المثل بما هو أحسن تفسيراً وكشفاً للحق من قياسهم، وجميع ما تقوله الصابئة والمتفلسفة وغيرهم من حكم أو دليل يندرج فيما علمه الصحابة، وهذه الآية ذكرها الله تعالى بعد قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٨٠﴾﴾ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴿٨٢﴾﴾ فبين أن من هجر القرآن فهو من أعداء الرسول، وأن هذه العداوة أمر لا بد منه ولا مفر عنه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا حَلِيلًا ﴿٧٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٧٩﴾﴾ ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ إذ قد تكفل بذلك في حق كل من خرج عن اتباع الرسول) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ فأخبر أن المشركين لا يأتون بقياس - وأقيستهم من الباطل - إلا أتى الله بما هو الحق بكلام وقياس أحسن تفسيراً، بحيث يكون بيانه ودلالته للمطلوب أبين وأوضح وأجلى وأقرب إلى الأمور البديهية الجليلة. فهذا في جانب الحق) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ فمخالفوا الرسل ومنهم مخالفوا ما جاء به الكتاب والسنة لا يأتون بقياس يردون به بعض ما جاءت به الرسل فيكون قياساً أقاموا به باطلاً إلا جاء الله فيما بعث به الرسل بالحق وقياس أحسن تفسيراً وكشفاً وإيضاحاً للحق) ا.هـ (٥).

- | | | | |
|-----|-----------------------------|-----|-----------------------------|
| (١) | مجموع الفتاوى (١٠٦/٤). | (٢) | مجموع الفتاوى (١٠٦/٤). |
| (٣) | مجموع الفتاوى (١٢٩/٤). | (٤) | بيان تلييس الجهمية (١٤٨/١). |
| (٥) | بيان تلييس الجهمية (٢٢٧/٢). | | |

وقال رحمه الله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَنْبِيْراً﴾ ﴿٣٣﴾
 في التفسير «يعني التصوير» ا. هـ (١).

﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْتَهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٣٧﴾ .

(وقال تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْتَهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا ﴿٣٩﴾)، فأخبر أنه سبحانه ضرب الأمثال لجميع هؤلاء الذين أرسل إليهم، وأهلكهم، فلم يعاقبهم إلا بعد أن أقام عليهم الحجة) ا. هـ (٢).

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخُذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ﴿٤١﴾ .

(وهذا نظير ما ذكره الله تعالى عن المشركين بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخُذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ﴿٤١﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ يَنْخُذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ - أَي يعيبها - وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦] فكانوا ينكرون على محمد ﷺ أن يذكر آلِهتهم بما تستحقه، وهم يكفرون بذكر الرحمن ولا ينكرون ذلك) ا. هـ (٣).

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيْلًا﴾ ﴿٤٢﴾ .

(قال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي يتخذ إلهه الذي يعبده وهو ما يهواه من آلهة، ولم يقل إن هواه نفس إلهه فليس كل من يهوى شيئاً يعبده، فإن الهوى أقسام بل المراد أنه جعل المعبود الذي يعبده هو ما يهواه فكانت عبادته تابعة لهوى نفسه في العبادة فإنه لم يعبد ما يجب أن يعبد، ولا عبد العبادة التي أمر بها) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيْلًا﴾ ﴿٤٢﴾ قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركه. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] وقال عمر بن عبد العزيز: لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذا أنت لا تثاب على ما اتبعته من الحق، وتعاقب على ما خالفته وهو كما قال ﷺ لأنه في الموضوعين إنما

(١) مجموع الفتاوى (٦٧/١٤).

(٢) الجواب الصحيح (٣٨٢/٦).

(٣) الرد على الأخنائي (٢١٤ - ٢١٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٥٩٢/١٠).

قصد اتباع هواه لم يعمل لله) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ ﴿٤٣﴾ قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبهُ^(٢)) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وفي الأثر: ما تحت أديم السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٤﴾ ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٤﴾ فمن جعل ما يألوه هو ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه، أي جعل معبوده هو ما يهواه، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه فهم يتخذون أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله، ولهذا قال الخليل: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (فأما إذا أمر الله على السنة رسله بشيء فعدل عنه العبد إلى ما يحبه هو: كان عابداً لهواه، لا عابداً لله قال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ ﴿٤٣﴾؟ وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]؟ وهذا هو الذي تأله ما يهواه، لا ما يحبه الله ويرضاه. وهذا خارج عن عبادة الله إلى عبادة ما يهواه) ا. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ ﴿٤٣﴾ - إلى قوله - ﴿سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾. قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان^(٧)، وقال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رماه وعبد الآخر^(٨)، وقال الحسن البصري: ذلك المنافق نصب هواه، فما

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٤٧٩ - ٤٨٠).

(٢) مر تخريجه.

(٣) جامع الرسائل (٢/١٠٣).

(٤) جامع الرسائل (٢/٢٦٦).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/٢٦٠).

(٦) نظرية العقد (٧).

(٧) ذكر صاحب الدر (٥/٧٢) أن ابن المنذر وابن أبي حاتم أخرجاه.

(٨) تفسير ابن أبي حاتم هذه القطعة مفقودة وقد عزاه صاحب الدر (٥/٧٢) لابن عباس برواية ابن

أبي حاتم وابن مردويه.

هوى من شيء ركبته^(١)، وقال قتادة: أي والله كلما هوى شيئاً ركبته، وكلما اشتهى شيئاً أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى^(٢)، رواه ابن أبي حاتم وغيره (١.هـ).

﴿لِنُخِّىَ بِهِ بَلَدَةَ مَيْتًا وَشَقِيْمُهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيْرًا ﴿٤٤﴾﴾.

(وقد أخبر الله في غير موضع أنه يحيى بعض مخلوقاته ببعض، كما قال: ﴿لِنُخِّىَ بِهِ بَلَدَةَ مَيْتًا﴾ (١.هـ)^(٣)).

﴿فَلَا تُطْعِ الْكٰفِرِيْنَ وَجٰهَدُهُمْ بِهٖ جِهَادًا كَبِيْرًا ﴿٥٦﴾﴾.

(قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيْرًا ﴿٥٦﴾ فَلَا تُطْعِ الْكٰفِرِيْنَ وَجٰهَدُهُمْ بِهٖ جِهَادًا كَبِيْرًا ﴿٥٦﴾﴾ فأمره الله ﷻ أن يجاهد الكفار بالقرآن جهاداً كبيراً، وهذه السورة مكية نزلت بمكة، قبل أن يهاجر النبي ﷺ، وقبل أن يؤمر بالقتال، ولم يؤذن له. وإنما كان هذا الجهاد بالعلم والقلب والبيان والدعوة لا بالقتال (١.هـ)^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَلَا تُطْعِ الْكٰفِرِيْنَ وَجٰهَدُهُمْ بِهٖ جِهَادًا كَبِيْرًا ﴿٥٦﴾﴾ و«سورة الفرقان» مكية، وإنما جاهدتم باللسان والبيان؛ ولكن يكف عن الباطل، وإنما قد بين في المكية ﴿وَلَنَبَلُوْنَكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجٰهِدِيْنَ مِنْكُمْ وَالصّٰدِقِيْنَ وَنَبَلُوْا اٰخِبَارَكُمْ ﴿٦١﴾﴾ [محمد] (١.هـ)^(٥).

ذكر رحمه الله قول الرافضي ابن مطهر الحلبي ثم رد عليه:

﴿قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾﴾، في تفسير الثعلبي عن ابن سيرين قال: نزلت في النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب: زوج فاطمة علياً، وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً، ولم يثبت لغيره ذلك، فكان أفضل، فيكون هو الإمام.

والجواب من وجوه:

- (١) لفظه عند ابن أبي حاتم وابن المنذر وابن أبي شيبة (لا يهوى شيئاً إلا تبعه) الدر (٧٢/٥).
- (٢) عزاه صاحب الدر (٧٢/٥) لابن أبي حاتم وعبد بن حميد.
- (٣) مختصر الفتاوى المصرية (١٥٠). (٤) منهاج السنة النبوية (٨٦/٨).
- (٥) مجموع الفتاوى (٣٨/٢٨ - ٣٩).

أولاً: المطالبة بصحة النقل.

وثانياً: أن هذا كذب على ابن سيرين بلا شك.

وثالثاً: أن مجرد قول ابن سيرين الذي خالفه فيه الناس ليس بحجة.

الرابع: أن يقال: هذه الآية في سورة الفرقان، وهي مكية. وهذا من الآيات المكية باتفاق الناس قبل أن يتزوج علي بفاطمة، فكيف يكون ذلك قد أريد به علي وفاطمة؟!.

الخامس: أن الآية مطلقة في كل نسب وصهر، لا اختصاص لها بشخص دون شخص، ولا ريب أنها تتناول مصاهرته لعلي، كما تتناول مصاهرته لعثمان مرتين، كما تتناول مصاهرة أبي بكر وعمر للنبي ﷺ، فإن النبي ﷺ تزوج عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر من أبيهما، وزوج عثمان برقية وأم كلثوم بنتيه، وزوج علياً بفاطمة، فالمصاهرة ثابتة بينه وبين الأربعة. وروي عنه أنه قال: «لو كانت عندنا ثالثة لزوجناها عثمان»^(١)، وحينئذ فتكون المصاهرة مشتركة بين علي وغيره، فليست من خصائصه، فضلاً عن أن توجب أفضليته إمامته عليهم.

السادس: أنه لو فرض أنه أريد بذلك مصاهرة علي، فمجرد المصاهرة لا تدل على أنه أفضل من غيره باتفاق [أهل] السنة والشيعة، فإن المصاهرة، ثابتة لكل من الأربعة، مع أن بعضهم أفضل من بعض، فلو كانت المصاهرة توجب الأفضلية للزم التناقض) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وإذا كان عامة ما بين الخلق من الأسباب الكسبية التي بها يتساءلون، ويشفع بعضهم إلى بعض هي من جنس المشاركة، فالسبب الآخر هو الولادة، فالأسباب والصلات التي بينهم لا تخرج عن سبب خلقي وهو الولادة، أو سبب كسبي من جنس المشاركة، والمعاوضة، ولهذا افتتح الله سورة النساء بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجُودٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا...﴾ الآية [النساء: ١]، فإن هذه السورة ذكر فيها حكم الأسباب التي بين الناس من هذا وهذا، فذكر ما يتعلق بالولادة من القرابة والرحم، وما يتعلق بذلك من الموارث والمناكح، وكذلك ما يحصل بينهم بالعقود من المناكح والموارث والوصايا على اليتامى، فالنسب من الأول،

(١) فضائل الصحابة (٧٨٢، ٨٣١) وكلاهما فيه ضعف والله أعلم.

(٢) منهاج السنة (٧/٢٦٤ - ٢٦٥).

والصهر من الثاني، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فافتتح السورة بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدٍ﴾ ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ [النساء: ١] أي تتعاهدون به وتتعاقدون والأرحام، فدخل في الأول ما بينهم من التساؤل والتعاقد الذي يجمع المعاوضة والمشاركة ودخل في الثاني الولادة وفروعها) ١. هـ^(١).

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيَّ سَبِيلًا﴾ (٥٧) .
(وهذا الاستثناء منقطع) ١. هـ^(٢).

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُدُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ (٥٨) .
(إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه:

أحدها: أن الله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه، وهو المعين على دفع المكروه؛ فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب؛ لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب؛ فالأول من معنى الألوهية.

والثاني من معنى الربوبية؛ إذ الإله: هو الذي يؤلهه فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكراماً والرب: هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. وقوله: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤]. وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقوله: ﴿وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (٨) رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٩) [المزمل] فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين) ١. هـ^(٣).

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ (٥٩) .

(وقال القرطبي - صاحب التفسير الكبير - في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ قال: هذه «مسألة الاستواء» وللعلماء فيها كلام. فذكر قول المتكلمين. ثم

(٢) جامع المسائل (٤/٢٩٣).

(١) الاستغاثة (١/١٨٩ - ١٩٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١/٢٢).

قال: كان السلف الأول لا يقولون بنفي الجهة، ولا ينطقون بذلك. بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله؛ كما نطق به كتابه، وأخبرت به رسله. قال: ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة؛ وإنما جهلوا كيفية الاستواء. فإنه لا تعلم حقيقته.

ثم قال: - بعد أن حكى أربعة عشر قولاً -: وأظهر الأقوال ما تظاهرت عليه الآي، والأخبار، والفضلاء الأخيار: أن الله على عرشه، كما أخبر في كتابه، وعلى لسان نبيه بلا كيف. بائن من جميع خلقه. هذا مذهب السلف الصالح فيما نقله الثقات عنهم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وإلا فاسمه «الرحمن» أنزله الله لما أنكر المشركون هذا الاسم فأثبتته الله لنفسه رداً عليهم، وهذا أبلغ في كونه محكماً من هذه السورة، إذ الرد على المنكر أبلغ في إثبات نقيض قوله من جواب السائل الذي لم يرد عليه بنفي ولا إثبات، وقد قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان] وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِنَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ [الرعد] ١. هـ^(٢).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [١٦].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [١٦]. فأخبر عن امتناع الكافر عن السجود مطلقاً فيشرع السجود المقابل له، وهو مطلق السجود هناك في مقابلة المعبود الباطل وهنا في مقابلة الكافر الممتنع عن الحق) ١. هـ^(٣).

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [١٧].

(ولهذا كان النبي ﷺ إذا نام عن قيامه قضاءه من الضحى، فيصلي اثنتي عشرة ركعة، وقد جاء هذا عن عمر وغيره من الصحابة في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [١٧] ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، فيه أيضاً نحو هذه الوجوه، فإن الشاكر قد يشكر الله على نعمه وإن لم يخف، والتذكر قد يقتضي الخشية.

(١) مجموع الفتاوى (٣/٢٢٣ - ٢٢٤).

(٢) بيان تليس الجهمية (١/٤٦١).

(٣) المستدرک علی مجموع الفتاوی (مخطوط تحت الطبع).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٣/٢٠٤).

وأيضاً فإن التذكر يقتضي الخوف من العقاب وطلب الثواب فيعمل للمستقبل، والشكر على النعم الماضية.

وأيضاً فالتذكر تذكر علوم سابقة، ومنها تذكر نعم الله عليه، فهو سبب للشكر. تذكر السبب والمسبب.

وأيضاً فإن الشكر يقتضي المزيد من النعم، والتذكر قد يكون لهذا، وقد يكون خوفاً من العذاب.

وقد يكون الأمر بالعكس، فالشاكر قد يشكر الشكر الواجب لثلا يكون كفوراً فيعاقب على ترك الشكر بسلب النعمة وعقوبات أخرى، والمتذكر قد يتذكر ما أعده الله لمن أطاعه فيطيعه طلباً لرحمته.

وأيضاً فالتذكر قد يكون لفعل الواجبات التي يدفع بها العقاب، والشكور يكون للمزيد من فضله، كما في الصحيحين أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(١).

وقال ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت: إما محسن فيزداد إحساناً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعذب»^(٢)، فالمؤمن دائماً في نعمة من ربه تقتضي شكراً، وفي ذنب يحتاج إلى استغفار.

وهو في سيد الاستغفار يقول: «أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(٣).

وقد علم تحقيق قوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] فما أصابه من الحسنات هي نعم الله فتقتضي شكراً، وما أصابه من المصائب فبذنوبه تقتضي تذكراً لذنوبه يوجب توبة واستغفاراً.

وقد جعل الله ﴿أَلَيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ﴾ فيتوب ويستغفر من ذنوبه، ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ لربه على نعمه. وكل ما يفعله الله بالعبد من نعمة، وكل ما يخلفه الله، فهو نعمة الله عليه، فكلما نظر إلى ما فعله ربه شكر، وإذا نظر إلى نفسه استغفر.

(١) البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩). (٢) البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠).

(٣) مر تخريجه.

والتذكر قد يكون تذكر ذنوبه وعقاب ربه. وقد يدخل فيه تذكر آلائه ونعمه، فإن ذلك يدعو إلى الشكر. قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] في غير موضع، فقد أمر بذكر نعمه. فالمتذكر يتذكر نعم ربه، ويتذكر ذنوبه.

وأيضاً فهو ذكر الشكور لأنه مقصود لنفسه، فإن الشكر ثابت في الدنيا والآخرة. وذكر التذكر لأنه أصل للاستغفار، والشكر، وغير ذلك. فذكر المبدأ وذكر النهاية. وهذا المعنى يجمع ما قيل، والله سبحانه أعلم) ١. هـ^(١).

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿١٣﴾
 (وقال في كتابه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي بسكينة، ووقار) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿١٣﴾. قال الحسن^(٣) وغيره: «بسكينة ووقار» فأخبر أن عباد الرحمن هم هؤلاء^(٤). فإذا كان مأموراً بالسكينة والوقار في الأفعال العادية التي هي من جنس الحركة، فكيف الأفعال العبادية؟ ثم كيف بما هو فيها من جنس السكون، كالركوع والسجود؟ فإن هذه الأدلة تقتضي السكينة في الانتقال، كالرفع والخفض والنهوض والانحطاط. وأما نفس الأفعال التي هي المقصود بالانتقال، كالركوع نفسه، والسجود نفسه، والقيام والقعود أنفسهما - وهذه هي من نفسها سكون - فمن لم يسكن فيها لم يأت بها، وإنما هو بمنزلة من أهوى إلى القعود ولم يأت به، كمن مدّ يده إلى الطعام، ولم يأكل منه، أو وضعه على فيه ولم يطعمه) ١. هـ^(٥).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ﴿١٤﴾.

(وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك»^(٦). وأنزل الله تعالى تصديق

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١٨٦ - ١٨٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/٥٩٩)، وهذا القول عن الحسن وغيره نقل في شرح العمدة - الصلاة - (٥٩٩).

(٣) الطبري (١٩/٣٣).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/٥٦٥).

(٥) القواعد النورانية (٧٢).

(٦) مر تخريجه.

ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية. فمن جعل لله نداً يحبه كحب الله فهو ممن دعا مع الله إلهاً آخر، وهذا من الشرك الأكبر) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وترتيب الكبائر ثابت في الكتاب والسنة، كما في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك».

وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾.

ولهذا قال الفقهاء: أكبر الكبائر الكفر، ثم قتل النفس بغير حق، ثم الزنى. لكن النبي ﷺ ذكر لابن مسعود من جنس أعلى فأعلى: الكفر: هو أن تجعل لله نداً، بخلاف الكتابي الذي ليس بمشرك، فإنه دون ذلك، وأعظم القتل ولدك، وأعظم الزنى [الزنى] بحليلة الجار.

وهذا كما ذكرنا أن الظلم ثلاث مراتب: الشرك، ثم الظلم للخلق، ثم ظلم النفس، فالقتل من ظلم الخلق. فإذا [كان] قتلاً للولد الذي هو بعضه منك كان فيه الظلمان، والزنى هو من ظلم النفس، لكن إذا كان بحليلة الجار صار فيه الظلمان أيضاً. لكن المغلب في القتل ظلم الغير، والظلم في الزنى ظلم النفس.

ولهذا كان القود حقاً للآدمي إن شاء استوفاه وإن شاء عفا عنه، وكان حد الزنى حداً لله، ليس لآدمي فيه حق معين، لكن قد يقترن ببعض أنواع الزنى، ويقتضى أموراً تضر الناس، يكون بها أعظم من قتل لا يضر به إلا المقتول فقط.

وأيضاً فقتل النفس يدخل فيه من التأويل ما ليس يدخل في الزنى، فإن حلاله بين من حرامه، وفيه ما يشبهه. ولهذا جعل الله فيه شيئاً، ولم يجعل ذلك في الزنى بقوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ﴾ ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (في «الصحيحين»^(٣) عن عبد الله بن مسعود قال: قلت:

(١) مجموع الفتاوى (٢٥٢/١١) (١٤٥/١٧) (١٦١/١٨)، منهاج السنة (٤٤٩/٢).

(٢) الاستقامة (٤٦٨/١ - ٤٦٩).

(٣) مر تخريجه.

يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل الله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم أن تزاني بحليلة جارك». فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْكُذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخَذُّ فِيهِ مَهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٥﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧٦﴾﴾، فهذا الوعيد بتمامه على الثلاثة، ولكل عمل قسط منه؛ فلو أشرك ولم يقتل ولم يزن؛ كان عذابه دون ذلك. ولو زنى وقتل ولم يشرك؛ كان له من هذا العذاب نصيب، كما في قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَصِيبٌ عَلَىٰ عُنُقِهِ وَآعْدَةٌ لَّهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [النساء]. ولم يذكر: (أبدًا). وقد قيل: أن لفظ «التأييد» لم يجيء إلا مع الكفر) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْكُذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخَذُّ فِيهِ مَهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ فإذا كان الله يبدل سيئاتهم حسنات فالحسنات توجب مودة الله لهم، وتبديل السيئات حسنات ليس مختصاً بمن كان كافراً) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (لا يجوز تغييره بمحتمل متردد. نقول بموجبه؛ فإن عود الاستثناء عندنا إلى جميع الجمل ليس بمحتمل متردد بل هو نص أيضاً بالتفسير الأول، والدليل على ذلك غلبته على الاستعمال، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ - إلى قوله - ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضْعَفُ لَهُ الْكُذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخَذُّ فِيهِ مَهَانًا ﴿٦٨﴾﴾ - وهو عائد إلى قوله: ﴿يَلْقَى﴾ و﴿يُضْعَفُ﴾ و﴿يُخَذُّ﴾) ا. هـ^(٣).

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

(أكبر الكبائر ثلاث:

الكفر، ثم قتل النفس بغير الحق، ثم الزنى كما رتبها الله في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا

(١) مجموع الفتاوى (٧/٧٢ - ٧٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٣٠٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣١/١٦٦).

يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ^٤، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

قلت: ثم أي؟

قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك».

قلت: ثم أي؟

قال: «أن تزاني بحليلة جارك»^(١).

ولهذا الترتيب وجه معقول، وهو أن قوى الإنسان ثلاث: قوة العقل، وقوة الغضب، وقوة الشهوة.

فأعلاها القوة العقلية - التي يختص بها الإنسان دون سائر الدواب وتشركه فيها الملائكة كما قال أبو بكر عبد العزيز من أصحابنا وغيره: خلق للملائكة عقول بلا شهوة. وخلق للبهائم شهوة بلا عقل، وخلق للإنسان عقل وشهوة فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة - ومن غلبت شهوته عقله فالبهائم خير منه.

ثم القوة الغضبية التي فيها دفع المضرة، ثم القوة الشهوية التي فيها جلب المنفعة. ومن الطبائعيين من يقول: القوة الغضبية هي الحيوانية لاختصاص الحيوان بها دون النبات، والقوة الشهوية هي النباتية لاشتراك الحيوان والنبات فيها، واختصاص النبات بها دون الجماد.

لكن يقال: إن أراد أن نفس الشهوة مشتركة بين النبات والحيوان فليس كذلك، فإن النبات ليس فيه حنين ولا حركة إرادية ولا شهوة ولا غضب، وإن أراد نفس النمو والاعتناء فهذا تابع للشهوة وموجبها وله نظير في الغضب، وهو أن موجب الغضب وتابعه هو الدفع والمنع، وهذا معنى موجود في سائر الأجسام الصلبة القوية، فذات الشهوة والغضب مختص بالحي وأما موجبها من الاعتناء والدفع فمشارك بينهما، وبين النبات القوي، فقوة الدفع والمنع موجود في النبات الصلب القوي دون اللين الرطب، فتكون قوة الدفع مختصة في بعض النبات، لكنه موجود في سائر الأجسام الصلبة فينبئ الشهوة والغضب عموم وخصوص.

وسبب ذلك أن قوى الأفعال في النفس إما جذب وإما دفع، فالقوة الجاذبة الجالبة للملائم هي الشهوة وجنسها من المحبة والإرادة، ونحو ذلك.

والقوة الدافعة المانعة للمنافي هي الغضب وجنسها: ما البغض والكرهية، وهذه القوة باعتبار القدر المشترك بين الإنسان والبهائم هي مطلق الشهوة والغضب وباعتبار ما يختص به الإنسان العقل والإيمان والقوى الروحانية المعترضة.

فالكفر متعلق بالقوة العقلية الناطقة الإيمانية، ولهذا لا يوصف به من لا تمييز له. والقتل ناشئ عن القوة الغضبية وعدوان فيها، والزنى عن القوة الشهوانية.

فالكفر اعتداء وفساد في القوة العقلية الإنسانية وقتل النفس اعتداء وفساد في القوة الغضبية والزنى اعتداء وفساد في القوى الشهوانية.

ومنه وجه آخر ظاهر، أن الخلق خلقهم الله لعبادته وقوام الشخص بجسده، وقوام النوع بالنكاح والنسل فالكفر فساد المقصود الذي له خلقوا، وقتل النفس فساد النفوس الموجودة، والزنى فساد في المنتظر من النوع، فذاك إفساد الموجود وذاك إفساد لما لم يوجد بمنزلة من أفسد ما لا موجوداً، أو منع المنعقد أن يوجد، وإعدام الموجود أعظم فساداً فلهذا كان الترتيب كذلك.

ومن وجه ثالث أن الكفر فساد القلب والروح الذي هو ملك الجسد والقتل إفساد للجسد الحامل له، وإتلاف الموجود، وأما الزنى فهو فساد في صفة الوجود لا في أصله لكن هذا يختص بالزنى ومن هنا يتبين أن اللواط أعظم فساداً من الزنى.

فصل

وباعتبار القوى الثلاث انقسمت الأمم التي هي أفضل الجنس الإنساني، وهم العرب والروم والفرس فإن هذه الأمم هي التي ظهرت فيها الفضائل الإنسانية وهم سكان وسط الأرض طويلاً وعرضاً، فأما من سواهم كالسودان والترك ونحوهم فنبع.

فغلب على العرب القوة العقلية المنطقية، واشتق اسمها من وصفها، فقيل لهم: عرب من الإعراب وهو البيان والإظهار، وذلك خاصة القوة المنطقية. وغلب على الروم القوة الشهوية من الطعام والنكاح ونحوهما، واشتق اسمها من ذلك فقيل لهم: الروم يقال: رمت هذا أرومه، إذا طلبته واشتهيته وغلب على الفرس القوة الغضبية من الدفع والمنع والاستعلاء والرياسة، واشتق اسمها من ذلك فقيل: فرس.

كما يقال فرسه يفرسه إذا قهره وغلبه.

ولهذا توجد هذه الصفات الثلاث غالبية على الأمم الثلاث حاضرتها وباديتها.

ولهذا كانت العرب أفضل الأمم، وتليها الفرس لأن القوة الدفعية أرفع، وتليها

الروم.

فصل

وباعتبار هذه القوى كانت الفضائل ثلاثاً:

فضيلة العقل، والعلم، والإيمان التي هي كمال القوة المنطقية، وفضيلة الشجاعة التي هي كمال القوة الغضبية، وكمال الشجاعة هو الحلم كما قال النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

والحلم والكرم ملزومان في قرن، كما أن كمال القوة الشهوية العفة، فإذا كان الكريم عفيفاً، والسخي حليماً اعتدل الأمر.

وفضيلة السخاء والجود التي هي كمال القوة الطلبية الحبية، فإن السخاء يصدر عن اللين والسهولة ورطوبة الخلق، كما تصدر الشجاعة عن القوة والصعوبة ويس الخلق، فالقوة الغضبية هي قوة النصر والقوة الشهوية قوة الرزق، وهما المذكوران في قوله: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قریش]، والرزق والنصر مقترنان في الكتاب والسنة وكلام الناس كثيراً.

وأما الفضيلة الرابعة التي يقال لها العدالة فهي صفة منتظمة للثلاث، وهو الاعتدال فيها، وهذه الثلاث الأخيرات هي الأخلاق العملية، كما جاء من حديث سعد لما قال فيه العبيسي إنه لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، ولا يخرج في السرية.

فصل

وباعتبار القوى الثلاث كانت الأمم الثلاث: المسلمون واليهود والنصارى.

فإن المسلمين فيهم العقل والعلم والاعتدال في الأمور، فإن معجزة نبيهم هي علم الله وكلامه وهم الأمة الوسط.

وأما اليهود فأضعفت القوة الشهوية فيهم، حتى حرم عليهم من المطاعم

والملابس ما لم يحرم على غيرهم، وأمروا من الشدة والقوة بما أمروا به، ومعاصيهم غالبها من باب القسوة والشدة لا من باب الشهوة.

والنصارى أضعفت فيهم القوة الغضبية فنهوا عن الانتقام والانتصار، ولم تضعف فيهم القوة الشهوية، فلم يحرم عليهم من المطاعم ما حرم على من قبلهم، بل أحل لهم بعض الذي حرم عليهم، وظهر فيهم من الأكل والشرب والشهوات ما لم يظهر في اليهود، وفيهم من الرقة والرأفة والرحمة ما ليس في اليهود، فغالب معاصيهم من باب الشهوات لا من باب الغضب. وغالب طاعتهم من باب النصر لا من باب الرزق.

ولما كان في الصوفية والفقهاء عيسوية مشروعة أو منحرفة كان فيهم من الشهوات، ووقع فيهم من ميل إلى النساء والصبيان والأصوات المطربة ما يذمون به. ولما كان في الفقهاء موسوية مشروعة أو منحرفة كان فيهم من الغضب، ووقع فيهم من القسوة والكبر، ونحو ذلك ما يذمون به.

فصل

جنس القوة الشهوية الحب، وجنس القوة الغضبية البغض، والغضب والبغض متفقان في الاشتقاق الأكبر؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله» فإن هاتين القوتين هما الأصل.

وقال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»^(١). فالحب، والبغض هما الأصل والعطاء عن الحب وهو السخاء، والمنع عن البغض، وهو الشجاعة فأما الغضب فقد يقال: هو خصوص في البغض وهو الشدة التي تقوم في النفس التي يقترن بها غليان دم القلب لطلب الانتقام؛ وهذا هو الغضب الخاص، ولهذا تعدل طائفة من المتكلمين عن مقابلة الشهوة بالبغض إلى مقابلتها بالنفرة، ومن قابل الشهوة بالبغض فيجب أن لا يريد الغضب الخاص، فإن نسبة هذا إلى النفرة نسبة الطمع إلى الشهوة، فأما الغضب العام فهو القسوة الدافعة البغضية المقابلة للقوة الجاذبة الحبية.

فصل

فعل المأمور به صادر عن القوة الإرادية الحبية الشهوية، وترك المنهي عنه صادر عن القوة الكراهية البغضية النضبية النفرية، والأمر بالمعروف صادر عن المحبة

والإرادة، والنهي عن المنكر صادر عن البغض والكراهة، وكذلك الترغيب في المعروف، والترهيب عن المنكر والحض على هذا، والزجر عن هذا. ولهذا لا تكف النفوس عن الظلم إلا بالقوة الغضبية الدفعية، وبذلك يقوم العدل والقسط في الحكم، والقسم، وغير ذلك.

كما أن الإحسان يقوم بالقوة الجذبية الشهوية، فإن اندفاع المكروه بدون حصول المحبوب عدم، إذ لا محبوب ولا مكروه، وحصول المحبوب والمكروه وجود فاسد إذ قد حصل معاً، وهما متقابلان في الترجيح، فربما يختار بعض النفوس، هذا أو يختار بعضها هذا، وهذا عند التكافؤ، وأما المكروه اليسير مع المحبوب الكثير، فيترجح فيه الوجود، كما أنه المكروه الكثير مع المحبوب اليسير يترجح فيه العدم.

لكن لما كان المقتضى لكل واحد من المحبوب والمكروه الذي هو الخير والشر موجوداً، وبتقدير وجودهما يحصل النصر كالرزق مع الخوف، صار يعظم في الشر والطبع دفع المكروه، أما في الشر فبالثبوت، فإن اسمها في الكتاب والسنة والإجماع عظيم، والعاقبة لأهلها والثواب لهم وأما في الطبع فتعظيم النفوس لمن نصرهم بدفع الضرر عنهم من عدو أو غيره، فإن أهل الرزق معظمون لأهل النصر أكثر من تعظيم أهل النصر لأهل الرزق، وذاك - والله أعلم - لأن النصر بلا رزق ينفع، فإن الأسباب الجالبة للرزق موجودة تعمل عملها، وأما الرزق بلا نصر فلا ينفع، فإن الأسباب الناصرة تابعة، وفي هذا نظر فقد يقال: هما متقابلان فإن أهل النصر يحبون أهل الرزق أكثر مما يحب أهل الرزق لأهل النصر فإن الرزق محبوب، والنصر معظم.

وقد يقال: بل النصر أعظم كما تقدم، فإن اندفاع المكروه محبوب أيضاً، وهو لا يحصل إلا بقوة الدفع التي هي أقوى من قوة الجذب، فاختص الناصر بالتعظيم لدفعة المعارض، وأما الرازق فلا معارض له، بل له موافق، فالناصر محبوب معظم، وقد يقابل هذا بأن يقال: وفوات المحبوب مكروه أيضاً، والمحبوب لا يحصل إلا بقوة الجذب، ولا نسلم أن قوة الدفع أقوى، بل قد يكون الجذب أقوى، بل الجذب في الأصل أقوى؛ لأنه المقصود بالقصد الأول والدفع خادم تابع له، وكما أن الدفع دفع المعارض فالجاذب حصل المقتضى، وترجيح المانع على المقتضى غير حق، بل المقتضى أقوى بالقول المطلق، فإنه لا بد منه في الوجود.

وأما المانع وإنما يحتاج إليه عند ثبوت المعارض، وقد لا يكون معارض،

فالمقتضى والمحبة هو الأصل والعمدة في الحق الموجود، والحق المقصود، وأما المانع والبغضة فهو الفرع والتابع.

ولهذا كتب الله في الكتاب الموضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي. ولهذا كان الخير في أسماء الله وصفاته، وأما الشرف في الأفعال كقول: ﴿عِبَادِي أَتَىٰ أَنَا الْعَفْوَورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ [الحجر]. وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُوْرٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٦٨﴾ [المائدة].

يبقى أن يقال: فلم عظمت التقوى؟

فيقال: إنها هي تحفظ الفطرة وتمنع فسادها، واحتاج العبد إلى رعايتها لأن المحبة الفطرية لا تحتاج إلى محرك. ولهذا كان أعظم ما دعت إليه الرسل الإخلاص والنهي عن الإشراك؛ لأن الإقرار الفطري حاصل لوجود مقتضيه، وإنما يحتاج إلى إخلاصه، ودفع الشرك عنه.

ولهذا كانت حاجة الناس إلى السياسة الدافعة لظلم بعضهم عن بعض، والجالبة لمنفعة بعضهم بعضاً كما أوجب الله الزكاة النافعة وحرم الربا الضار، وأصل الدين هو عبادة الله الذي أصله الحب والإنابة والإعراض عما سواه، وهو الفطرة التي فطر عليها الناس.

وهذه المحبة التي هي أصل الدين: انحرف فيها فريق من منحرفة الموسوية من الفقهاء والمتكلمين حتى أنكروها وزعموا أن محبة الله ليست إلا إرادة عبادته، ثم كثير منهم تاركون للعمل بما أمروا به، فيأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهذا فاش فيهم وهو عدم المحبة والعمل.

وفريق من منحرفة العيسوية من الصوفية والمتعبدین خلطوها بمحبة ما يكرهه، وأنكروا البغض والكراهية، فلم ينكروا شيئاً، ولم يكرهوه، أو قصرُوا في الكراهة والإنكار، وأدخلوا فيها الصور والأصوات، ومحبة الأنداد.

ولهذا كان لغواة الأولين وصف الغضب واللعنة الناشئ عن البغض، لأن فيهم البغض دون الحب، وكان لضلال الآخرين وصف الضلال والغلو، لأن فيهم محبة لغير معبود صحيح، ففيهم طلب وبركة ومحبة، ولكن لا إلى مطلوب صحيح ولا مراد صحيح، ولا محبوب صحيح، بل قد خلطوا وغلوا وأشركوه، ففيهم محبة الحق والباطل وهو وجود المحبوب والمكروه، كما في الآخرين بغض الحق والباطل، وهو دفع المحبوب والمكروه، والله سبحانه يهديننا صراطه المستقيم.

فيحمد من هؤلاء محبة الحق والاعتراف به، ومن هؤلاء بغض الباطل وإنكاره^(١)

ا.هـ.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧).

(وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ: «إن الله يبدل لعبده التائب بدل كل سيئة حسنة»^(٢) على ظاهر قوله: «يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ»^(٣)).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٧).
(وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٦٦) ... إلى قوله: ﴿... وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾).

وروي أن ابن مسعود سمع صوت لهو فأعرض عنه، فقال النبي ﷺ: «إن كان ابن مسعود لكريمًا»^(٤).

فإذا كان الله تعالى قد مدح وأثنى [على] من أعرض عن اللغو ومر به كريمًا لم يستمعه، كيف يكون استماع كل قول ممدوحًا؟^(٥).

وقال رحمه الله: (أما الكتاب: فمما تأوله غير واحد من التابعين وغيرهم، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٧). فروى أبو بكر الخلال في الجامع^(٦) بإسناده، عن محمد بن سيرين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ قال: «هو الشعانين»^(٧).

وكذلك ذكر عن مجاهد^(٨) قال: «هو أعياد المشركين» وكذلك عن الربيع بن أنس قال: «أعياد المشركين»^(٩).

وفي معنى هذا: ما روي عن عكرمة قال: «لعب كان لهم في الجاهلية»^(١٠).

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٤٢٨ - ٤٣٩). (٢) مسلم (١٩٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/١٨).

(٤) قال صاحب الدر (٥/٨٠ - ٨١): أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر.

(٥) الاستقامة (١/٢١٧ - ٢١٨). (٦) كتاب الخلال في مسائل الإمام أحمد.

(٧) الشعانين: عيد للنصارى يقيمونه يوم الأحد السابق لعيد الفصح.

(٨) لعله عند ابن أبي حاتم وهذا الجزء مفقود.

(٩) ابن كثير (٣/٣٦٢). (١٠) القرطبي (١٣/٧٩، ٨٠).

وقال القاضي أبو يعلى: مسألة: في النهي عن حضور أعياد المشركين.

روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده في شروط أهل الذمة، عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾. قال: «عيد المشركين»^(١).

وإسناده عن أبي سنان، عن الضحاك^(٢) ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ كلام الشرك وإسناده عن جويبر عن الضحاك: «والذين لا يشهدون الزور»: قال: «أعياد المشركين» وروى بإسناده، عن عمرو بن مرة: «لا يشهدون الزور» لا يمالؤون أهل الشرك على شركهم ولا يخالطونهم^(٣).

وإسناده عن عطاء بن يسار قال: قال عمر: «إياكم ورطانة الأعاجم وأن تدخلوا على المشركين يوم عيدهم في كنائسهم»^(٤).

وقول هؤلاء التابعين: إنه أعياد الكفار ليس مخالفاً لقول بعضهم: إنه الشرك، أو صنم كان في الجاهلية. ولقول بعضهم: إنه مجالس الخنا. وقول بعضهم: أنه الغناء. لأن عادة السلف في تفسيرهم هكذا، يذكر الرجل نوعاً من أنواع المسمى لحاجة المستمع إليه، أو لينبه به على الجنس. كما لو قال العجمي: ما الخبز؟ فيعطى رغيفاً ويقال له: هذا بالإشارة إلى الجنس، لا إلى عين الرغيف.

لكن قد قال قوم: إن المراد: شهادة الزور التي هي الكذب. وهذا فيه نظر، فإنه تعالى قال: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ ولم يقل: لا يشهدون بالزور.

ووجه تفسير التابعين المذكورين: أن الزور هو المحسن المموه، حتى يظهر بخلاف ما هو عليه في الحقيقة. ومنه قوله ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»^(٥) لما كان يظهر مما يعظم به مما ليس عنده. فالشاهد بالزور يظهر كلاماً يخالف الباطن، ولهذا فسره السلف تارة بما يظهر حسنه للشبهة، أو لشهوة، وهو قبيح في الباطن فالشرك ونحوه: يظهر حسنه للشبهة، والغناء ونحوه: يظهر حسنه للشهوة.

وأما أعياد المشركين: فجمعت الشبهة والشهوة: وهي باطل: إذ لا منفعة فيها في الدين، وما فيها من اللذة العاجلة: فعاقبتها إلى ألم، فصارت زوراً، وحضورها شهودها. وإذا كان الله قد مدح ترك شهودها، الذي هو مجرد الحضور، برؤية أو سماع، فكيف

(١) «الدر المثور» (٨٠/٥). (٢) ابن جرير (١٣/١٩)، وابن كثير (٣/٣٦٢).

(٣) لم أجده لأن تفسير أبي الشيخ مفقود. (٤) عبد الرزاق (١/٤١١)، والبيهقي (٩/٢٣٤).

(٥) عبد الرزاق (٩٦٨٩).

بالموافقة بما يزيد على ذلك، من العمل الذي هو عمل الزور، لا مجرد شهوده؟

ثم مجرد هذه الآية، فيها الحمد لهؤلاء والثناء عليهم، وذلك وحده يفيد الترغيب في ترك شهود أعيادهم، وغيرها من الزور، ويقتضي الندب إلى ترك حضورها. وقد يفيد كراهة حضورها لتسمية الله لها زوراً.

فأما تحريم شهودها من هذه الآية ففيه نظر. ودلالاتها على تحريم فعلها أوجه، لأن الله تعالى سماها زوراً، وقد ذم من يقول الزور، وإن لم يضر غيره لقوله في المتظاهرين ﴿وَلِيَتَّمَّ يَفُوتُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ زُورًا﴾ [المجادلة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ففاعل الزور كذلك وقد يقال: قول الزور أبلغ من فعله ولأنهم إذا مدحهم على مجرد تركهم شهوده، دل على أن فعله مذموم عنده، معيب إذ لو كان فعله جائزاً والأفضل تركه لم يكن في مجرد شهوده أو ترك شهوده كبير مدح. إذ شهود المباحات التي لا منفعة فيها، وعدم شهودها قليل التأثير.

وقد يقال: هذا مبالغة في مدحهم، إذ كانوا لا يحضرون مجالس البطالة، وإن كانوا لا يفعلون الباطل، ولأن الله تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، فجعل هؤلاء المنعوتين هم عباد الرحمن، وعبودية الرحمن واجبة، فتكون هذه الصفات واجبة. وفيه نظر إذ قد يقال: في هذه الصفات ما لا يجب ولأن المنعوتين هم المستحقون لهذا الوصف، على وجه الحقيقة والكمال كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان الحديث»^(١) وقال: «ما تعدون المفلس فيكم»^(٢) «ما تعدون الرقوب»^(٣) ونظائره كثيرة. فسواء كانت الآية دالة على تحريم ذلك، أو على كراهته أو استحباب تركه: حصل أصل المقصود. إذ من المقصود: بيان استحباب ترك موافقتهم أيضاً، فإن بعض الناس قد يظن استحباب فعل ما فيه موافقة لهم، لما فيه من التوسيع على العيال، أو من إقرار الناس على اكتسابهم، ومصالح دنياهم. فإذا علم استحباب ترك ذلك: كان أول المقصود) ١. هـ^(٤).

قال رحمه الله: (واحتج بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ قال:

(٢) مسلم (٢٥٨١) ولفظه «أندرون ما المفلس».

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٤٢٦ - ٤٣٢).

(١) البخاري (١٤٧٩).

(٣) مسلم (٢٦٠٨).

الشعانيين وأعيادهم. وقال عبد الملك بن حبيب من أصحاب مالك في كلام له قال: فلا يعاونون على شيء من عيدهم؛ لأن ذلك من تعظيم شركهم، وعونهم على كفرهم. وينبغي للسلطين أن ينهوا المسلمين عن ذلك. وهو قول مالك وغيره: لم أعلم أنه اختلف فيه) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ قال مجاهد: أعياد المشركين، وكذلك قال الربيع بن أنس، وقال القاضي أبو يعلى: «مسألة في النهي عن حضور أعياد المشركين» وروى أبو الشيخ الاصبهاني بإسناده في شروط أهل الذمة عن الضحاك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ قال: عيد المشركين وبإسناده عن سنان عن الضحاك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ كلام المشركين. وروى بإسناده عن ابن سلام عن عمرو بن مرة ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ لا يماكثون أهل الشرك على شركهم ولا يخالطونهم) ١. هـ^(٢).

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ﴿٧٦﴾

(وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ﴿٧٦﴾)

قال ابن قتيبة: لم يتغافلوا عنها، فكأنهم صم لم يسمعوها عنم لم يروها. وقال غيره من أهل اللغة: لم يبقوا على حالهم الأولى، كأنهم لم يسمعوا، ولم يروا، وإن لم يكونوا خروا حقيقة. تقول العرب: شتمت فلاناً فقام يبكي، وقعد يندب، وأقبل يعتذر، وظل يفتخر، وإن لم يكن قام، ولا قعد^(٣).

قلت: في ذكره سبحانه لفظ الخرور دون غيره، حكمة، فإنهم لو خروا وكانوا صمًّا وعمياناً لم يكن ذلك ممدوحاً، بل معيباً. فكيف إذا كانوا صمًّا وعمياناً بلا خرور، فلا بد من شيئين: من الخرور والسجود، ولا بد من السمع والبصر لما في آياته من النور والهدى والبيان، وكذلك لما شرعت الصلاة شرع فيها القراءة، في القيام، ثم الركوع، والسجود) ١. هـ^(٤).

﴿قُلْ مَا يَعْجُبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ﴿٧٧﴾

(ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْجُبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي دعاؤكم إياه،

(١) مجموع الفتاوى (٣٢٦/٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢٧/٢٥).

(٣) زاد المسير (١١٠/٦).

(٤) مجموع الفتاوى (١٤٨/٢٣ - ١٤٩).

وقيل: دعاؤه إياكم إلى عبادته، فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول، ومحل الأول مضافاً إلى الفاعل، وهو الأرجح من القولين، وعلى هذا فالمراد به نوعي الدعاء، وهو في دعاء العبادة أظهر، أي ما يعبأ بكم لولا أنكم ترجونه، وعبادته تستلزم مسألته. فالنوعان داخلان فيه) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْْبُرُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي لو لم تدعوه كما أمر فتطيعوه فتعبدوه وتطيعوا رسله فإنه لا يعبأ بكم شيئاً) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْْبُرُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي لولا عبادتكم) ا.هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٢٣٨/١٠) (١٢/١٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٣٣/٢٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٢/٨).

سورة الشعراء

وقال في عموم السورة:

(وقال تعالى: في ال: ﴿طَسَّرَ ١١﴾ وقد افتتح كلا منهن بقصة موسى وتكليم الله إياه، وإرساله إلى فرعون، فإنها أعظم القصص كما قدمناه، فقال في سورة الشعراء المحتوية على قصص المرسلين واحداً بعد واحد، وهي «سبع»: قصة موسى وإبراهيم ونوح وهود، وصالح ولوط وشعيب، ثم قال عن القرآن: ﴿وإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٣﴾ [الشعراء] إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ١٤﴾ [الشعراء] فذكر الفرق بينه وبين من تنزل عليه الشياطين من الكهان والمتنبئين ونحوهم، وبين الشعراء؛ لأن الكاهن قد يخبر بغيب بكلام مسجوع، والشاعر أيضاً يأتي بكلام منظوم يحرك به النفوس، فإن قرين الشيطان مادته من الشيطان، ويعين الشيطان بكذبه وفجوره، والشاعر مادته من نفسه، وربما أعانه الشيطان.

فأخبر أن الشياطين إنما تنزل على من يناسبها وهو: الكاذب في قوله، الفاجر في عمله؛ بخلاف الصادق البر، وأن الشعراء إنما يحركون النفوس إلى أهوائها فيتبعهم الغاؤون، وهم الذين يتبعون الأهواء، وشهوات الغي، فنفى كلا منهما بانتفاء لازمه، وبين ما يجتمع فيه شياطين الأنس والجن) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (سورة الشعراء المحتوية على قصص المرسلين واحداً بعد واحد وهي سبع: قصة موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأما طه والشعراء مما بسط فيه قصة موسى. فالمقصود الأعظم بقصة موسى إثبات الصانع ورسالته إذ كان فرعون منكراً. ولهذا عظم ذكرها في القرآن بخلاف قصة غيره فإن فيها الرد على المشركين المقربين بالصانع ومن جعل له ولداً من المشركين وأهل الكتاب) ا.هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (١٢/١٨ - ١٩).

(٢) تفسير آيات أشكلت (٢/٧٢٧).

(٣) النبوات (١٨).

﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾

(وقال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ وما يأتيهم من ذِكْرِ مَنْ أَرْحَمَنَ مُحَمَّدٌ إِلَّا كَأَنَّهُمْ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾، فأخبر بأن المكذبين له سيئاتهم في المستقبل أخبار القرآن الذي استهزءوا به وبين أن ما أخبرهم به حق بوقوع الخبر مطابقاً للخبر، وكان الأمر كذلك ومثله قوله: ﴿سَرُّبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾﴾ [فصلت]، أخبر أنه سيريهم في أنفسهم وفي الأفاق ما يبين أن القرآن حق، بأن يروا ما أخبر به كما أخبر به، ثم قال: ﴿أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] فإنه قد يشهد للقرآن بأنه حق بالآيات البينات والبراهين الدالة على صدقه التي تبين بشهادة الرب تعالى بأنه حق فلا يحتاج مع الشهادة الحاضرة إلى انتظار الآيات المستقبلية) ا.هـ (١).

﴿أَوَّلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّ أُنْبُلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾

(قال تعالى: ﴿أَوَّلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّ أُنْبُلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ قال ابن قتيبة: من كل جنس حسن. وقال الزجاج (٢): الزوج النوع، والكريم المحمود. وقال غيرهما: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف وضرب، (كريم) حسن، من النبات مما يأكل الناس والأنعام: يقال: «نخلة كريمة» إذا طاب حملها، «وناقة كريمة» إذا كثر لبنها) ا.هـ (٣).

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾

(وكذلك قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ ليس معناه أن يحدث له سمعاً، ولا تكلف بسمع ما كان من قولهم، وقد ذهب قوم من «أهل السنة» أن الله استماعاً في ذاته، فذهبوا إلى أن ما يعقل من أنه يحدث منهم علم سمع لما كان من قول؛ لأن المخلوق إذا سمع حدث له عقد فهم عما أدركته أذنه من الصوت) ا.هـ (٤).

(وقال رحمه الله: (وكذلك قال بعضهم: إن رؤية تحدث، وقال قوم: إنما معنى ﴿وَسِرِّي﴾ [التوبة: ٩٤] و﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ إنما المسموع، والمبصر، لم يخف على عيني، ولا على سمعي، أن أدركه سمعاً وبصراً، لا بالحوادث في الله.

قال أبو عبد الله: ومن ذهب إلى أنه يحدث لله استماع مع حدوث المسموع

(١) الجواب الصحيح (١/٤١٣ - ٤١٤).

(٢) زاد المسير (٦/١١٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٢٩٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/٦٦) (٦/١٨٢).

وإبصار مع حدوث المبصر: فقد زاد على الله ما لم يقل، وإنما على العباد التسليم لما قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] ولا نزيد ما لم يقل، وإنما معنى ذلك كما قال تعالى: ﴿حَتَّى نَقَرَ﴾ [محمد: ٣١] حتى يكون المعلوم، وكذلك حتى يكون المبصر والمسموع؛ فلا يخفى على أن^(١) يعلمه موجوداً ويسمعه موجوداً؛ كما علمه بغير حادث علم في الله ولا بصر، ولا سمع ولا معنى حدث في ذات الله؛ تعالى عن الحوادث في نفسه) ا.هـ^(٢).

﴿فَأَيُّا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١١ ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ٧ ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ١٨ ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ١٩ ﴿قَالَ فَعَلْنَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ٢٥ ﴿فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٢١ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمَّتْهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ٢٧ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٢ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ٢٤ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ٢٥ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٣ ﴿قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ٢٧ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ ٢٨ ﴿قَالَ لِيْنِ اتَّخَذتَّ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ ٢٩ ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ ٣٥ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٣١ ﴿فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ٣٢ ﴿وَرَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ ٣٣ ﴿.

(وقد جاء القرآن بها في قصة فرعون فإنه كان منكراً للرب. قال تعالى: ﴿فَأَيُّا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١١ ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ٧ ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا﴾ إلى قوله - ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٢ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ٢٤ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ٢٥ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٣ ﴿قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ٢٧ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ ٢٨ ﴿قَالَ لِيْنِ اتَّخَذتَّ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ ٢٩ ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ ٣٥ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٣١ ﴿فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ٣٢ ﴿وَرَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ ٣٣ ﴿، فهنا: قد عرض عليه موسى الحجة البينة التي جعلها دليلاً على صدقه في كونه رسول رب العالمين. وفي أن له إلهاً غير فرعون يتخذه. وكذلك قال تعالى: ﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّما أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤] فبين أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة،

وذلك؛ لأن المعجزة - التي هي فعل خارق للعادة - تدل بنفسها على ثبوت الصانع، كسائر الحوادث، بل هي أخص من ذلك؛ لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة، ولهذا يسبح الرب عندها، ويمجد ويعظم ما لا يكون عند المعتاد، ويحصل في النفوس ذلة [من ذكر] عظمتها ما لا يحصل للمعتاد إذ هي آيات جديدة فتعطي حقها، وتدل بظهورها على الرسول، وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله فتتقرر بها الربوبية والرسالة، لا سيما عند من يقول دلالة المعجزة على صدق الرسول ضرورية، كما هو قول طائفة من متكلمي المعتزلة: كالجاحظ، وطوائف من غيرهم كالأشعرية والحنبلية الذين يقولون: يحصل الفرق بين المعجزة والسحر والكرامة بالضرورة) ا.هـ^(١).

وقال في قصة موسى مع فرعون:

(نفس المعجزات يعلم بها صدق الرسول المتضمن إثبات مرسله؛ لأنها دالة بنفسها على ثبوت الصانع المحدث لها، وأنه أحدثها لتصديق الرسول، وإن لم يكن قبل ذلك قد تقدم من العبد معرفة الإقرار بالصانع.

وقد يقال: إن قصة موسى في هذا الباب قال تعالى: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَمْ تُؤْتِيكُ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَيْسَتْ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْكُفْرَيْنِ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَكُمُ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لِيُنزِلْ عَلَيْنَا آيَاتِنَا مِنْ السَّمَاءِ إِنَّا نَحْنُ الْمُغْتَابُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَ فَاتِّخَذتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْتَجِبِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣١﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدَّلَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلْنَا نَبْعَثُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالَمِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ

السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيَّنَ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾
 قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا جَاهِلْتُمْ وَعَصَبْتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾
 فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْفَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَأَمْسُرُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ أَلَّذِي عَلَّمَكُمُ
 السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمَلُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْزِلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَنَّكُمْ أَجْعَبِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَى
 رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبِّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ، وفي سورة
 طه: ﴿فَأَنبَأَهُمْ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ
 رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ [طه] إلى آخر القصة.

ففرعون كان منكراً للصانع، مستفهماً عنه استفهام إنكار، سواء كان في الباطن
 مقرأ به أو لم يكن، ثم طلب من موسى آية فأظهر آيته، ودل بها على إثبات إلهية ربه
 وإثبات نبوته جميعاً.

كما قال: ﴿قَالَ لَيْنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِئْنَاكَ بِشِقْوِ
 مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢١﴾ فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ وَرَزَقَ
 يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٢٣﴾ ، ولهذا قال السحرة لما عارضوا معجزته بسحرهم، فبطل
 سحرهم، وتبين أن تلك آية لا يقدر عليها المخلوقين: ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ
 مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ فكان إيمانهم بالله لما شاهدوا معجزة موسى ﷺ، فكانت المعجزة
 مبينة للعلم بالصانع وبصدق رسوله، وذلك أن الآيات التي يستدل بها على ثبوت الصانع
 تدل المعجزة كدالاتها وأعظم) ١. هـ^(١).

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾

(قال فرعون إنكاراً وجحداً: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال موسى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ
 الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لِمَجْنُونٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾
 الآيات.

وقد ظن بعض الناس أن سؤال فرعون ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ هو سؤال عن
 ماهية الرب، كالذي يسأل عن حدود الأشياء فيقول: «ما الإنسان؟ ما الملك؟ ما
 الجنى؟» ونحو ذلك قالوا: ولما لم يكن للمسئول عنه ماهية عدل موسى عن

الجواب إلى بيان ما يعرف به وهو قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا قول قاله بعض المتأخرين وهو باطل.

فإن فرعون إنما استفهم إنكار وجحد، لم يسأل عن ماهية رب أقر بشبوته، بل كان منكرأ له جاحداً. ولهذا قال في تمام الكلام ﴿قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾، وقال: ﴿وَلِي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٧] فاستفهامه كان إنكارأ وجحدأ يقول: ليس للعالمين رب يرسلك فمن هو هذا؟ إنكارأ له.

فبين موسى أنه معروف عنده وعند الحاضرين، وأن آياته ظاهرة بينة لا يمكن معها جحده. وأنكم إنما تجحدون بألستكم ما تعرفون بقلوبكم، كما قال موسى في موضع آخر لفرعون ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل].

ولم يقل فرعون ﴿مَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فإن ﴿مَنْ﴾ سؤال عن عينه يسأل بها من عرف جنس المسؤول عنه أنه من أهل العلم وقد شك في عينه، كما يقال لرسول عرف أنه جاء من عند إنسان «من أرسلك».

وأما «ما»؟ فهي سؤال عن الوصف يقول: أي شيء هو هذا؟ وما هو هذا الذي سميته ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ذلك منكرأ له جاحداً.

فلما سأل جحدأ أجابه موسى بأنه أعرف من أن ينكر، وأظهر من أن يشك فيه ويرتاب فقال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾.

ولم يقل «موقنين بكذا وكذا» بل أطلق، فأى يقين كان لكم بشيء من الأشياء فأول اليقين بهذا الرب، كما قالت الرسل لقومهم ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وإن قلتم: لا يقين لنا بشيء من الأشياء، بل سلبنا كل علم، فهذه دعوى السفسطة العامة، ومدعيها كاذب ظاهر الكذب. فإن العلوم من لوازم كل إنسان، فكل إنسان عاقل. لا بد له من علم. ولهذا قيل في حد «العقل»: إنه علوم ضرورية، وهي التي لا يخلو منها عاقل.

فلما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وهذا من افتراء المكذبين على الرسول - لما خرجوا من عاداتهم التي هي محمودة عندهم نسبوهم إلى الجنون، ولما كانوا مظهرين للجحود بالخالق، أو للاسترابة والشك فيه - هذه حال عامتهم ودينهم، وهذا عندهم دين حسن، وإنما إلههم الذي يطيعونه فرعون - قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ

الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكَ لَمَجْنُونًا ﴿١٠﴾، فبين له موسى إنكم الذين سلبتم العقل النافع، وأنتم أحق بهذا الوصف فقال: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾.

فإن العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية، وأعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق. فلما ذكر أولاً أن من أيقن بشيء فهو موقن به، واليقين بشيء هو من لوازم العقل، بين ثانياً أن الإقرار به من لوازم العقل.

ولكن المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه، فإن لم يعمل به صاحبه قيل: إنه ليس له عقل. ويقال أيضاً لمن لم يتبع ما أيقن به: إنه ليس له يقين. فإن اليقين أيضاً يراد به العلم المستقر في القلب، ويراد به العمل بهذا العلم فلا يطلق «الموقن» إلا على من استقر في قلبه العلم والعمل.

وقوم فرعون لم يكن عندهم اتباع لما عرفوه فلم يكن لهم عقل ولا يقين وكلام موسى يقتضي الأمرين: إن كان لك يقين فقد عرفته، وإن كان لك عقل فقد عرفته، وإن ادعيت أنه لا يقين لك ولا عقل لك، فكذلك قومك، فهذا إقرار منكم بسلبكم خاصية الإنسان.

ومن يكون هكذا لا يصلح له ما أنتم عليه من دعوى الإلهية. مع أن هذا باطل منكم، فإنكم موقنون به، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وظُلُومًا﴾ [النمل: ١٤].

ولكم عقل تعرفونه به، ولكن هواكم يصدكم عن اتباع موجب العقل، وهو إرادة العلو في الأرض والفساد. فأنتم لا عقل لكم بهذا الاعتبار، كما قال أصحاب النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وقال تعالى عن الكفار: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان]. قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيحِينَ﴾ [الزخرف] والخفيف هو السفیه الذي لا يعمل بعلمه، بل يتبع هواه وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أنه ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه: إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق، فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه: فلم يكلفوا أولاً بنفس المعرفة، ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة؛ إذ كانت قلوبهم تعرفه وتقر به، وكل مولود يولد على الفطرة، لكن عرض للفطرة ما غيرها، والإنسان إذا ذكر ذكر ما في فطرته) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (كما قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ متجاهلاً أنه لا يعرفه وأنه منكور لا يعرف، فخاطبه موسى بما بين له أنه أعرف من أن ينكر وأعظم من أن يجحد فقال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ ﴿٢٦﴾ ا. هـ^(١).

قال رحمه الله: (فإن قيل: كيف يكون قوم فرعون مشركين؟ وقد أخبر الله عن فرعون أنه جحد الخالق فقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وقال عن قومه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُجْرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفِئْنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل] والإشراك لا يكون إلا من مقر بالله وإلا فالجاحد له لم يشرك به.

قيل: لم يذكر الله جحود الصانع إلا عن فرعون موسى، وأما الذين كانوا في زمن يوسف فالقرآن يدل على أنهم كانوا مقرين بالله، وهم مشركون به، ولهذا كان خطاب يوسف للملك وللعزيز ولهم: يتضمن الإقرار بوجود الصانع كقوله: ﴿أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَرِ اللَّهُ الْوَالِدُ الْفَهَارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَسَلِّهُ مَا بَالُ الْيَسُوءِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي يَكِيدُ الْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ٥٠] ﴿اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٢ - ٥٣] وقد قال مؤمن آل فرعون - حم - ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤] فهذا يقتضي: إن أولئك الذين بعث إليهم يوسف كانوا يقرون بالله.

ولهذا كان إخوة يوسف يخاطبونه قبل أن يعرفوا أنه يوسف ويظنونه من آل فرعون بخطاب يقتضي الإقرار بالصانع كقولهم: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣] وقال لهم: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧] وقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ﴾ [يوسف: ٧٩] وقالوا له: ﴿يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِضِغَعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨] وذلك أن فرعون الذي كان في زمن يوسف أكرم أبويه وأهل بيته لما قدموا إكراماً عظيماً مع علمه بدينهم واستقراء أحوال الناس يدل على ذلك. فإن جحود الصانع لم يكن ديناً غالباً على أمة من الأمم قط، وإنما كان دين

الكفار الخارجين عن الرسالة هو الإشراك، وإنما كان يجحد الصانع بعض الناس وأولئك كان علماؤهم، من الفلاسفة الصابئة المشركين، الذين يعظمون الهياكل، والكواكب والأصنام، والأخبار المروية من نقل أخبارهم وسيرهم كلها تدل على ذلك، ولكن فرعون موسى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] وهو الذي قال لهم - دون الفراعنة المتقدمين - ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] ثم قال لهم بعد ذلك: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَى﴾ ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْزَرِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات] نكال الكلمة الأولى.

ونكال الكلمة الأخيرة وكان فرعون في الباطن عارفاً بوجود الصانع وإنما استكبر كإبليس وأنكر وجوده، ولهذا قال له موسى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء] فلما أنكر الصانع، وكانت له آلهة يعبدها بقي علي عبادتها ولم يصفه الله تعالى بالشرك، وإنما وصفه بجحود الصانع وعبادة آلهة أخرى. والمنكر للصانع منهم مستكبر كثيراً ما يعبد آلهة؛ ولا يعبد الله قط؛ فإنه يقول: هذا العالم واجب الوجود بنفسه وبعض أجزائه مؤثر في بعض ويقول إنما انتفع بعبادة الكواكب والأصنام) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (لما سأله بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ قالوا: لما سأله عن الماهية، والمسؤول عنه لا ماهية له، عدل إلى ما يصلح الجواب به.

فقول هؤلاء، مع أنه خطأ، أقرب من أن يجاب عن الماهية بما ليس مطابقاً للحق. وإنما كان قول هؤلاء خطأ، لأن فرعون لم يسأل موسى سؤال مستفهم طالب للعلم بماهية المسؤول عنه، حتى يجاب جواب المستفهم السائل، كما ذكره الناس في جواب السؤال بما هو. ولكن هذا استفهام إنكار ونفي وجحود للمسؤول عنه، فإن فرعون كان مظهراً لجحد الصانع.

ولهذا قال: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وقال: ﴿يَتَهَمَتُنَّ آيِنِي صَرْمًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابِ﴾ ﴿أَسْبَابِ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر] فلما قال له موسى: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] تكلم بما هو جحد ونفي وإنكار لمسمى رب العالمين فقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كما لو ادعى على أحد مدع أن هذا ولدك أو شريكك في المال، أو أعطاك هذا المال ونحو ذلك فقال: من هو ولدي؟ ومن هو

شريكي؟ ومن هو الذي أعطاني؟ فإنه يقول ذلك على سبيل الإنكار والجحد، لا على سبيل الاستعلام والاستفهام. فإذا كان منكرًا للحق أجيب بما يقيم الحجة عليه فيقال له: هذا الذي ولدته امرأتك فلانة، أو الذي اشتريت أنت وهو المال الفلاني، أو هو الذي أقررت له بذلك، وأشهدت به عليك فلاناً وفلاناً، ونحو ذلك.

ولهذا أجابه موسى بما فيه تقرير لما أنكره وتثبيت له، فقال: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وقال؛ ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ وذلك لأن العلم بثبوت هذا الرب أمر مستقر في الفطر، مغروز في القلوب (١) هـ.

وقال رحمه الله: (ولهذا قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ على وجه الإنكار له، قال له موسى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إن كنتم موقنين ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إن كنتم تعقلون ﴿٢٨﴾، وقد زعم طائفة أن فرعون استفهم استفهام الجواب، فسأله عن الماهية، وأن المسؤول عنه لما لم يكن له ماهية عجز موسى عن الجواب.

وهذا غلط وعلى هذا التقدير يكون استفهام إنكار وجحد، كما دل سائر آيات القرآن على أن فرعون [كان] جاحداً لله نافياً له، لم يكن مثبتاً له، طالباً للعلم بماهيته.

فلهذا بين لهم موسى أنه معروف، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو، فإن هذا إنما هو سؤال عما يجهل، وهو سبحانه أعرف وأظهر وأبين من أن يجهل، بل معرفته مستقرة في الفطرة أعظم من معرفة كل معروف، وهو سبحانه له المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو في السماء إله وفي الأرض، فأهل السموات والأرض يعرفونه ويعبدونه، وإن كان أكثر أهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف]، ولهذا قالت الأنبياء ﷺ لأممهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] وهذا استفهام إنكار يتضمن النفي، ويبين أنه ليس في الله شك (٢) هـ.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾

(وأيضاً فقد أخبر الله في غير موضع من القرآن عن سجود سحرة فرعون كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وذلك سجود مع إيمانهم. وهو مما قبله الله منهم، وأدخلهم به الجنة ولم يكونوا على طهارة. وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بنسخه ولو قرئ القرآن على كفار فسجدوا لله سجود إيمان بالله ورسوله محمد ﷺ، أو رأوا آية من آيات الإيمان فسجدوا لله مؤمنين بالله ورسوله، لنفعمهم ذلك) ١. هـ^(١).

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

(وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وإنما يقال: غظته، لا يقال: غظت له) ١. هـ^(٢).

﴿فَلَمَّا تَرَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ فنفى موسى الإدراك مع إثبات الترائي، فعلم أنه قد يكون رؤية بلا إدراك والإدراك هنا هو إدراك القدرة، أي ملحوقون محاط بنا، وإذا انتفى هذا الإدراك فقد تنتفى إحاطة البصر [أيضاً] ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿فَلَمَّا تَرَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ يقول: في العون على فرعون) ١. هـ^(٤).

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾.

(ومن عادة العرب الحسنة في خطابها أنهم يحذفون من الكلام ما يكون المذكور دليلاً عليه اختصاراً، كما أنهم يوردون الكلام بزيادة تكون مبالغة في تحقيق المعنى فالأول كقوله: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ فمعلوم أن المراد فاضرب فانفلق، لكن لم يحتاج إلى ذكر ذلك في اللفظ إذ كان قوله: قلنا: اضرب. فانفلق: دليلاً على أنه ضرب وكذلك قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ تقديره بر من آمن، أو صاحب من آمن) ١. هـ^(٥).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

(١) مجموع الفتاوى (٢٨٣/٢١).

(٢) منهاج السنة (٣١٨/٢).

(٣) درء تعارض العقل (١٤٧/٦)، بيان تلبيس الجهمية (٥٥١/٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٦٦/٢٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٩١/٧).

(ولهذا يذكر سبحانه سورة الشعراء قصة موسى وإبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب ويذكر لكل نبي إهلاكه لمكذبيهم والنجاة لهم ولأتباعهم، ثم يختم القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَّحِيمٌ ﴿٨﴾ فختم القصة باسمين من أسمائه تقتضيها تلك الصفة وهو: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فانتم من أعدائه بعزته وأنجى رسله وأتباعهم برحمته) ا. هـ (١).

﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨١).

(وهذا معنى قولهم في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨١) قالوا: هو السليم مما سوى الله، أو مما سوى عبادة الله. أو مما سوى إرادة الله. أو مما سوى محبة الله. فالمعنى واحد وهذا المعنى إن سمى فناء أو لم يسم هو أول الإسلام وآخره. وباطن الدين وظاهره) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وهذا هو «القلب السليم» الذي قال الله فيه: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨١) وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك) ا. هـ (٣).

﴿إِذْ تُسَوِّدُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٨).

(وقال: ﴿فَكَبِّجُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَائِرُونَ﴾ (٩٤) وَتُؤَدُّ إِلَيْسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهَمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَأَلَّوْا إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ تُسَوِّدُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾، وقوله: ﴿إِذْ تُسَوِّدُكُمْ﴾ لم يريدوا به أنهم جعلوهم مساوين لله من كل وجه فإن هذا لم يقله أحد من بني آدم، ولا نقل عن قوم قط من الكفار أنهم قالوا: أن هذا العالم له خالقان متماثلان، حتى المجوس القائلين «بالأصلين: النور والظلمة» متفقون على أن «النور» خير يستحق أن يعبد ويحمد وأن الظلمة شريرة تستحق أن تدم وتلعن، واختلفوا هل الظلمة محدثة أو قديمة؟ على قولين، وبكل حال لم يجعلوها مثل النور من كل وجه) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (قالوا: ﴿تَأَلَّوْا إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ تُسَوِّدُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ فهذا العدل، والتسوية، والتمثيل، والإشراك هو الظلم العظيم) ا. هـ (٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٢١٨ - ٢١٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/٧٤ - ٧٥).

(١) مجموع الفتاوى (١٩/٩٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٣٣٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/٨٢).

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٥٥﴾ .

(ولهذا يقول سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٥٥﴾ لأنهم كذبوا جميع الرسل ولم يؤمنوا بأصل الرسالة) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (والإنسان قد ينكر أمراً حتى يرى واحداً من جنسه، فيقرر بالنوع ويستفيد بذلك حكماً كلياً، ولهذا يقول سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٥٥﴾ ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٣٣﴾ [الشعراء]، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٤١﴾ [الشعراء]، ونحو ذلك. وكل من هؤلاء إنما جاءه رسول واحد. لكن كانوا مكذبين بجنس الرسل، لم يكن تكذيبهم بالواحد لخصوصه وهذا بخلاف تكذيب اليهود والنصارى لمحمد ﷺ. فإنهم لم يكذبوا جنس الرسل إنما كذبوا واحداً بعينه بخلاف مشركي العرب الذين لم يعرفوا الرسل، فإن الله يحتج عليهم في القرآن بإثبات جنس الرسالة.

ولهذا يجيب سبحانه عن شبه منكري جنس الرسالة كقولهم: ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤] فيقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل] أي هذا متواتر عند أهل الكتاب، فاسألوهم عن الرسل الذين جاءتهم «أكانوا بشراً أم لا؟» وكذلك قوله: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَفُصِحَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ ﴿٨﴾ ﴿ وَاللَّيْلُ نَازِلًا مُرْسَلًا وَنُجُومٌ مُنكَرًا مَعَكًا رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ ﴿٩﴾ [الأنعام] فإنهم لا يستطيعون الأخذ عن الملك في صورته، فلو أرسلنا إليهم ملكاً لجعلناه رجلاً في صورة الإنسان، وحينئذ كان يلبس عليهم الأمر ويقولون «هو رجل» والرجل لا يكون رسولاً.

وكذلك الرسل قبله قال تعالى: ﴿ أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِثْلِكَ ﴾ [الأعراف: ٦٣] كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ [يونس: ٢] وكما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٩] ونحو ذلك) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (والإنسان قد ينكر أمراً حتى يرى واحداً من جنسه فيقرر بالنوع، ويستفيد بذلك حكماً كلياً ولهذا يقول سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٥٥﴾ ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٣٣﴾ ونحو ذلك. وكل من هؤلاء إنما جاءه رسول واحد. ولكن كانوا مكذبين بجنس الرسل، لم يكن تكذيبهم بالواحد بخصوصه) ا.هـ (٣).

(٢) الرد على المنطقيين (٣٦٩ - ٣٧٠).

(١) مجموع الفتاوى (٣٣٥/١٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٣٨/٩).

﴿ قَالُوا آتُونُنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ ﴿١٧٧﴾ .

كقولهم لنوح: ﴿آتُونُنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ ومعلوم أن اتباع الأردلين له لا يقدر في صدقه؛ لكن كرهوا مشاركة أولئك كما طلب المشركون من النبي ﷺ إبعاد الضعفاء، كسعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وخباب بن الأرت، وعمار بن ياسر، وبلال ونحوهم، وكان ذلك بمكة قبل أن يكون في الصحابة أهل الصفة، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧٦﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأنعام: ١٠١ هـ^(١)].

وقال رحمه الله: (وقد قالوا لنوح: ﴿ قَالُوا آتُونُنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ ﴿١٧٧﴾ فهذا فيه أن أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته؛ لأن حبهم للرئاسة يمنعهم ذلك. بخلاف المستضعفين وفي هذا المعنى الحديث المأثور - إن كان محفوظاً «اللهم أحيني مسكيناً، وأمّتي مسكيناً، واحشرنى في زمرة المساكين»^(٢).
فالمساكين ضد المتكبرين. وهم الخاشعون لله، المتواضعون لعظمته، الذين لا يريدون علواً في الأرض. سواء كانوا أغنياء أو فقراء) ١٠١ هـ^(٣).

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ ﴿١٧٨﴾ .

(ومثل قوله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ ﴿١٧٨﴾ يدل على أن المبني هم بنوه حيث قال: أتبنون؟ وكذلك قوله: ﴿ وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ [الشعراء: ١٤٩] هو كقوله: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنحِتُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥] وقوله: ﴿ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ [الفجر: ٩] دل على أنهم جابوا الصخر: أي قطعوه) ١٠١ هـ^(٤).

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٧٩﴾ .

(وكذلك قوله: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٧٩﴾ إلى آخر القصة، فقد واجههم بدمهم وتوبيخهم على فعل الفاحشة، ثم إن أهل الفاحشة توعدوهم وتهددوهم بإخراجهم من القرية، وهذا حال أهل الفجور إذا كان بينهم من ينهاهم طلبوا نفيه وإخراجه، وقد

(١) مجموع الفتاوى (١٩١/٧ - ١٩٢).

(٢) الترمذي (٢٣٥٢) وابن ماجه (٤١٢٦) والبيهقي (١٢/٧) والحاكم (٣٢٢/٤) والبخاري في «التاريخ الكبير» (١٩٤/٧) (٧٥/٩) والحديث حسنه بعض أهل العلم وضعفه آخرون والله أعلم.

(٣) مجموع الفتاوى (١٣٠/١١). (٤) مجموع الفتاوى (١٧/٨).

عاقب الله أهل الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوى حيث أمر بنفي الزاني ونفي المخنث؛ فمضت سنة رسول الله ﷺ بنفي هذا وهذا، وهو سبحانه أخرج المتقين من بينهم عند نزول العذاب) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٨﴾ فَانْقَبُوا إِلَيْهِمْ وَأَطَاعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴿١٦٩﴾﴾ فأمروهم بتقوى الله المتضمنة لتوبتهم من هذه الفاحشة، والخطاب وإن كان للفاعل فإنه إنما خص به لأنه صاحب الشهوة والطلب في العادة، بخلاف المفعول به، فإنه لم تخلق فيه شهوة لذلك في الأصل؛ وإن كانت قد تعرض له لمرض طارئ، أو أجر يأخذه من الفاعل، أو لغرض آخر. والله ﷻ أعلم) ١. هـ^(٢).

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

(قال لوط ﷻ: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ والقلي: بغضه وهجره، والأنبياء أولياء الله يحبون ما يحب الله ويغضون ما يبغض.

وربما قيل: القلي أشد البغض، فالله سبحانه يبغض ذلك، وهو سبحانه يبغض كل ما نهى عنه، كما أنه يحب كل ما أمر به. بل الغيرة مستلزمة لقوة البغض، إذ كل من يغار يبغض ما غار منه وليس كل من يبغض شيئاً يغار منه، فالغيرة أحض وأقوى) ١. هـ^(٣).

﴿كَذَّبَ اصْحَابُ نَجِيعِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

(وقال في موضع آخر: ﴿كَذَّبَ اصْحَابُ نَجِيعِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ فأكثر الناس يقولون: إنهم أهل مدين، ومن الناس من يجعلها قصتين) ١. هـ^(٤).

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٧٢﴾﴾.

(﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٧٢﴾﴾ أي أنه مؤتمن لا يزيد ولا ينقص؛ فإن الخائن قد يغير الرسالة) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿وَلَهُمْ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٧٤﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا بَدُلْنَا آيَةً مَكَانَ

(٢) مجموع الفتاوى (٤٠٨/١٥ - ٤٠٩).

(٤) جامع الرسائل (٦١/١).

(١) مجموع الفتاوى (٣٣٤/١٥).

(٣) جامع الرسائل (٣٨٧/٢).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٢١/١٥).

ءَايَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَيِّفُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ
الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٧﴾ وَلَقَدْ تَمَلَّكُم
أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَاتِ الْأَذَى يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبْ وَهَذَا لِسَانُ عَكَرِثٍ
مُيِّتٍ ﴿١٦٨﴾ [النحل] وقوله: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ
الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ يبين أن روح القدس نزل بآيات القرآن من ربه، وبعض الكفار لما
زعم أنه يتعلم من بشر قال الله تعالى: ﴿لِسَاتِ الْأَذَى يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يضيفون إليه
التعليم ﴿أَعْجِبْ وَهَذَا لِسَانُ عَكَرِثٍ مُيِّتٍ﴾ فدل على أن هذا اللسان العربي المبين
تعلمه من الملائكة، ولم يتعلمه من بشر ولا من تلقاء نفسه، بل جاءه به روح القدس
وروح القدس هو جبريل، وهو الروح الأمين فإنه أخبر جبريل نزل على قلبه وأخبر أن
الروح الأمين نزل به عليه، فعلم أن جبريل هو الروح الأمين وقال ها هنا أنه: ﴿نَزَّلَهُ
رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ فعلم أنه روح القدس) ١. هـ^(١).

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٦٩﴾ .

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿٥٦﴾ [القمر] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٦٩﴾
فثبوت الأعمال في الزبر وثبوت القرآن في زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوباً
عندهم في التوراة والإنجيل ولهذا قيد سبحانه هذا بلفظ «الزبر» و«الكتب» زبر. يقال:
زبرت الكتاب إذا كتبتة والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب، فالقرآن نفسه ليس عند بني
إسرائيل ولكن ذكره، كما أن محمداً نفسه ليس عندهم ولكن ذكره، فثبوت الرسول في
كتبهم كثبوت القرآن في كتبهم: بخلاف ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ وفي
المصاحف: فإن نفس القرآن أثبت فيها، فمن جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بيناً، وهذا
مبسوط في موضعه) ١. هـ^(٢).

قال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦٦﴾ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٧﴾ عَلَى
قَلْبِكَ ﴿١٦٨﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٦٩﴾ أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧٠﴾ .
فالذي في زبر الأولين ليس هو نفس القرآن المنزل على محمد ﷺ، فإن هذا القرآن لم
ينزل على أحد قبله ﷺ، ولكن في زبر الأولين ذكر القرآن وخبره كما فيها ذكر محمد ﷺ
وخبره، كما أن أفعال العباد في الزبر كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿٥٦﴾ .

[القمر] فيجب الفرق بين كون هذه الأشياء في الزبر، وبين كون الكلام نفسه في الزبر. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْمٌ كَرِيمٌ ﴿٧٨﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْتُومٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة] وقال تعالى: ﴿يَتْلُوا صُفْهُاً مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ [البينة].

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَ بِنِيبٍ إِسْرَائِيلَ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَ بِنِيبٍ إِسْرَائِيلَ ﴿١٧٧﴾﴾ وعلماء بني إسرائيل: يعلمون ذكر إرسال محمد، ونزول الوحي عليه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧]. هـ^(١).

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

(فأمره الله تبارك وتعالى أولاً بإنذار عشيرته الأقربين وهم قريش فقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، ولما أنزل الله عليه هذه الآية انطلق ﷺ إلى مكان عال فعلا عليه، ثم جعل ينادي «يا بني عبد مناف: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف: يا صباحاه يا صباحاه».

وهذه القصة رواها ابن عباس وأبو هريرة وعائشة وغيرهم في الصحيحين وغيرهما من كتب السنن والمسانيد والتفسير.

قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، ما جربنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(٢).

وقال أبو هريرة: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، فعم وخص، فقال: «يا بني كعب بن لؤي: أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب: أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المناف: أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم:

(٢) البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

(١) الجواب الصحيح (٥/٣٤٠).

أنقذوا أنفسكم من النار: يا بني عبد المطلب: أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد: أنقذي نفسك من النار. فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبليها ببلالها»^(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢).

قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية عمه رسول الله يا عباس عم رسول الله: لا أملك لكم من الله شيئاً»^(٣).

وقال ابن إسحاق: لما نزلت هذه الآية جعل النبي ﷺ ينادي: يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة - حتى عدد الأفضاخ من قريش - ثم قال: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله. فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟^(٤)، تبا لك سائر اليوم، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد] ا.هـ^(٥).

وقال شيخ الإسلام: إن من أمثلة الكذب في نزول هذه الآية فذكر:

(مثل ما رواه عبد الله في «المناقب»^(٦)): حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا شريك، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله عن علي، وحدثنا أبو خيثمة حدثنا الأسود بن عارم حدثنا شريك عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عباد بن عبد الله الأسدي عن علي قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٧) دعا رسول الله ﷺ رجلاً من أهل بيته: إن كان الرجل منهم لأكلا جذعة، وإن كان شارباً فرقاً... إلى آخر الحديث) ا.هـ^(٨).

وقال رحمه الله: (أما عترة النبي ﷺ الأقربين التي قال الله فيها: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) مسلم (٢٠٤).

(٢) مسلم (٢٠٥).

(٣) هذا في السيرة وأصله عند البخاري ومسلم.

(٤) الجواب الصحيح (٣٨٣/١ - ٣٨٧) منهاج السنة (٣٠٧/٧ - ٣١٠) مجموع الفتاوى (١٤٧/١) والرد على الأختائي (٧٤). جامع المسائل (٧٧/١) حديث فاطمة فقط.

(٥) كتاب فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل (١١٠٨)، والإسناد ضعيف من أجل يحيى الحماني وعباد بن عبد الله وشريك.

(٦) منهاج السنة (٧/٤٤٥).

﴿الْأَقْرَبِ﴾ (١٢٤) فقيل: إنها قريش كلها، لأنها لما نزلت هذه الآية عم قريشاً بالندارة، ثم خص الأقرب فالأقرب) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١٢٤) يقتضي إنذار قومه ولا ينافي أن ينذر غيرهم من العرب) ا. هـ (٢).

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٥)

(وإن غفره الله له بالتوبة منه، كما قال لنبيه: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٥) فإنه بريء من معاصي أصحابه وإن تابوا منها. وهذا كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٤) [يونس] ا. هـ (٣).

﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيْطَانُ﴾ (١٢٦)

(وقالوا للآخر: إنه يزعم أنه يوحى إليه. فقال: صدق ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَيَّ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْلِبَلُوا﴾ [الأنعام: ١٢١] فلهم وحي وتنزيل ولكن من الشياطين، كما تنزل على أشباههم من السحرة والكهان وبينهم قدر مشترك في كثير من الأمور) ا. هـ (٤).

﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيْطَانُ﴾ (١٢٦) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (١٢٧)

(قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيْطَانُ﴾ (١٢٦) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (١٢٧) والأفك الكذاب. والأثيم الفاجر) ا. هـ (٥).

وقال رحمه الله: (وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالصدق! فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» (٦).

ولهذا قال ﷺ: ﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيْطَانُ﴾ (١٢٦) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (١٢٧)، وقال: ﴿لَنْسَفَعًا بِالْأَنصَابِ﴾ (١٥) نَاصِبٍ كَذِبِي خَاطِفَةٍ﴾ (١٦) [العلق] ا. هـ (٧).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيْطَانُ﴾ (١٢٦) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ

(١) مختصر الفتاوى المصرية (٥٦٥). (٢) الجواب الصحيح (٣/١٥٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٥٤٣). (٤) بيان تليس الجهمية (٢/٥٤٠).

(٥) مجموع الفتاوى (١١/٢٩٥)، الجواب الصحيح (٥/٣٥٥).

(٦) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧). (٧) مجموع الفتاوى (٢٨/٦٧).

أَفَاكٍ أَثِيرٍ ﴿١٣٣﴾ فالأفak هو الكذاب والأثيم الفاجر كما قال: ﴿لَسْتُمْ بِأَلْبَابِيَّةٍ﴾ ﴿١٣٤﴾ ناصية كذبة خاطئة ﴿١٣٥﴾ [العلق] ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا لَنزِيلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣٧﴾ عَلَيَّ قَلِيلًا لِيُتْلَىٰ مِمَّنْ دُونِكَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٣٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿هَلْ أُتِيَكُمُ عَلَيَّ مِنْ نَزْلِ الشَّيْطَانِ ﴿١٣٩﴾ نَزَلَ عَلَيَّ كُلِّ أِفَّاكٍ أَثِيرٍ ﴿١٤٠﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبًا ﴿١٤١﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوَنُ ﴿١٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١٤٣﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١٤٤﴾، فهذا مما بين الله به الفرق بين الكاهن والنبى وبين الشاعر والنبى، لما زعم المفترون أن محمداً ﷺ شاعر وكاهن) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿١٤٥﴾ وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٤٦﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُؤُونَ ﴿١٤٧﴾، فبين أنه ما يصلح لهم النزول به، بل هم منهيون عن ذلك، وهم ممتنعون عن ذلك، لا يريدون، لمنافاته لمقصودهم، وأنهم لو أرادوا لعجزوا عن ذلك، فلم يستطيعوه، إذ كانوا معزولين عن أن يسمعه، من الملاء الأعلى، وهم إنما يقدرون على أن ينزلوا بما سمعوه لا بما لا يسمعه وذلك أن الفاعل للفعل إنما يفعله إذا كان مريداً له قادراً عليه.

فبين قوله: ﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ﴾ أنهم لا يريدون تنزيله. بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أنهم عاجزون عن تنزيله.

أما كونهم لا يريدون، فلأنه لا ينبغي لهم، (وينبغي): مضارع بغى ينبغي: أي طلب وأراد، فالذي لا ينبغي للفاعل، هو الذي لا يطلبه ولا يريده، إما لكونه ممتنعاً من ذلك، أو لكونه ممنوعاً منه، والشيطان إنما يريد الكذب الفجور، لا يريد الصدق والصلاح.

وما جاء به الرسول، مناقض لمراد الشياطين غاية المناقضة، فلم يحدث في الأرض أمر أعظم مناقضة لمراد الشياطين من إرسال محمد، فنزول القرآن عليه. فيمتنع أن تفعل الشياطين ما لا يريدون إلا نقيضه وهم أيضاً ممنوعون من ذلك بحيث لا يصلح لهم ذلك ولا يتأتى منهم، كما أن الساحر لا ينبغي له أن يكون نبياً، والمعروف بالكذب والفجور لا ينبغي له مع ذلك أن يكون نبياً، ولا أن يكون حاكماً ولا شاهداً ولا مفيتاً، إذ الكذب والفجور يناقض مقصود الحكم والشهادة والفتيا، فكذلك ما في

طبع الشيطان من إرادة الكذب والفجور يناقض أن تنزل بهذا الكلام، الذي هو في غاية الصدق والعدل، لم يشتمل على كذبة واحدة، ولا ظلم لأحد.

ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فإنهم عن سمع هذا الكلام لمعزولون، بما حرصت به السماء من الشهب) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١٣١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١٣٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كِذْبًا ﴿١٣٣﴾ وهذا بيان لأن الذي يأتيه ملك لا شيطان فإن الشيطان لا ينزل على الصادق البار ما دام صادقاً باراً إذ لا يحصل مقصوده بذلك وإنما ينزل على من يناسبه في التشيطان وهو الكاذب الأثيم والأثيم فاجر) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١٣١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١٣٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كِذْبًا ﴿١٣٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴿١٣٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٦﴾ بين سبحانه أنه ليس بكاهن تنزل عليه الشياطين ولا شاعر حيث كانوا يقولون: ساحر وشاعر فبين أن الشياطين تنزل على الكاذب الفاجر يلقون إليهم السمع وأكثرهم كاذبون فهؤلاء الكهان ونحوهم وإن كانوا يخبرون أحياناً بشيء من المغيبات ويكون صدقاً فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس عن مالك وليسوا بأنبياء ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد قد خبأت لك خبيثاً قال: هو الدخ قال له النبي ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك»^(٣) يعني إنما أنت كاهن كما قال للنبي ﷺ يأتيني صادق وكاذب وقال أرى عرشاً على الماء وذلك هو عرش الشيطان^(٤) كما ثبت مثل ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ وبين الله تعالى أن الشعراء يتبعهم الغاؤون والغاوي الذي يتبع هواه وشهوته وإن كان ذلك مضراً له في العاقبة قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٦﴾ فهذه صفة الشعراء كما أن تلك صفة من تنزل عليه الشياطين فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعلمه علم علماً يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن ولا كاذب) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (ولهذا تجد الكهان يعرفون كذب من يخبرهم كثيراً، وكذلك

(١) الجواب الصحيح (٥/٣٤٨ - ٣٥٠).

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية (٥/١٣١).

(٣) البخاري (٢/١١٧).

(٤) مسلم (٢٩٢٤).

(٥) الفتاوى (الأصفهانية) (٥/٧٩ - ٨٠).

العُباد الذين هم خطابات ومكاشفات، بعضها شيطاني، وبعضها ملكي، يتبين لهم الكذب فيما يأتيهم به الشيطان كما هو الواقع فلا يوجد شيخ عابد له حال شيطاني إلا ولا بد أن يخبره بكذب، يظهر له أنه كذب، وحينئذ: فإذا صدق هذا الكاذب في إخباره النبوة كان مصداقاً للكاذب، ولأن الصادق الذي يأتيه مخبراً له بالصدق، ناصحاً له، لا بد أن يبين له ذلك، فلا يصر على اعتقاد أن من يأتيه صادق - وهو في نفس الأمر كاذب ولا يعلم أنه كاذب - إلا من هو أفاك أثيم، والله تعالى يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ ﴿٣٦﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ فتنزلها على الأفاك الأثيم، وأما نزول الشيطان مرة أو مرتين، فقد يكون على من ليس بأفاك أثيم، فإن من لم يكن مدعياً للنبوة، لم يكن من هذا الباب، وإن كان مدعياً للنبوة فيمتنع أن يقره الصادق الذي يأتيه على ذلك، بلا لا بد أن يبين له هذا إن جوز ذلك) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ومثله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ ﴿٣٦﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٧﴾ يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٨﴾﴾ فإنما تنزلت بالسمع الذي يخلط فيه بكلمة الصدق ألف كلمة من الكذب على من هو كذاب فاجر، فيكون سماعاً للكذب من مسترقة السمع) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْزِيلَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ تَنَزَّلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٤١﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء] إلى قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ ﴿٣٦﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٧﴾ يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٨﴾﴾، بين - سبحانه - أن الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصل به غرضه، فإن الشيطان يقصد البشر: وهو الكذب والفجور، لا يقصد الصدق والعدل، فلا يقترن إلا بمن فيه كذب، إما عمداً وإما خطأً، فإن الخطأ في الدين هو من الشيطان - أيضاً - كما قال ابن مسعود - لما سئل عن مسألة -: «أقول فيها برأبي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريتان منه»^(٣).

فالرسول برئ من إنزال الشيطان عليه في العمد والخطأ، بخلاف غير الرسول، فإنه قد يخطئ ويكون خطؤه من الشيطان، وإن كان خطؤه مغفوراً له، فإذا لم يعرف له خبر أخبر به كان فيه مخطئاً، ولا أمر أمر به كان فيه فاجراً علم أن الشيطان لم ينزل عليه، وإنما ينزل عليه

(١) الجواب الصحيح (٣٠١/٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٥٣/١٤).

(٣) أبو داود (٢١١٦) وأحمد (٢٧٩/٤) والحاكم (١٨٠/٢) والحديث صحيح.

ملك كريم، ولهذا قال في الآية الأخرى عن النبي: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤١﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٣﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة] ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (والذي يدل عليه القرآن أن كل من تكلم بلا علم فأخطأ فهو كاذب كالذين حرّموا وحلّلوا وأوجبوا وإن كان الشيطان قد زين لهم ذلك وأوهمهم أنه حق ولهذا قال: ﴿هَلْ أُنثِيكُمْ عَلَىٰ مَن نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٣٣﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٤﴾ وهي تنزل على من يظن أنه يصدقها قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَعَدَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قالوا لابن عمر ولا بن عباس: إن المختار يزعم أنه ينزل عليه فقال صدق: ﴿هَلْ أُنثِيكُمْ عَلَىٰ مَن نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٣٣﴾﴾ ١. هـ^(٣)).

وقال رحمه الله: (وإخبار الكهان فيها كذب كثير والكاهن قد عرف أنه يكذب كثيراً مع فجوره قال تعالى: ﴿هَلْ أُنثِيكُمْ عَلَىٰ مَن نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٣٣﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٤﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَذِبُوكَ ﴿٣٥﴾﴾ والكهانة جنس معروف ومعروف أن الكاهن يتلقى عن الشيطان ولا بد من كذبهم وفجورهم) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (والقرآن أخبرنا بالسحر في سورة البقرة بخلاف الكاهن فإن القرآن ذكر اسمه ولو تدبروا لعلموا أن الكاهن أن الكاهن هو المذكور في قوله: ﴿هَلْ أُنثِيكُمْ عَلَىٰ مَن نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٣٣﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٤﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَذِبُوكَ ﴿٣٥﴾﴾ ١. هـ^(٥)).

وقال رحمه الله: (فنفي الله ذلك بقوله: ﴿هَلْ أُنثِيكُمْ عَلَىٰ مَن نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٣٣﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٤﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَذِبُوكَ ﴿٣٥﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إلى آخر السورة لذكر الأفاكين، وهم المسفسطون، وذكر الشعراء.

وكذلك أبو بكر الصديق قال لعمر بن الخطاب لما قال له: يا خليفة رسول الله تألف الناس، فأخذ بلحيته وقال: يا ابن الخطاب أجباراً في الجاهلية خواراً في الإسلام، علام أتألفهم؟ أعلى حديث مفترى، أم على شعر مفتعل؟^(٦) فذكر الحديث

(١) الجواب الصحيح (٥/٤٤٧ - ٤٤٨). (٢) النبوات (٢٠٢ - ٢٠٣).
(٣) الاستقامة (١/٢٦٤). (٤) النبوات (١٠٥).
(٥) النبوات (٢٧٠ - ٢٧١). (٦) مجموع الفتاوى (١٢/٢٣٩ - ٢٤٠).

المفتري، والشعر المفتعل، كما ذكر الله الأفاكين، والشعراء، وكان الإفك في القوة الخيرية والشعر في القوة العملية الطليية، فتلك ضلال وهذه غواية.

ولهذا: يقترون أحدهما بالآخر كثيراً في مثل المليين من الرهبان، وفاسدي الفقراء وغيرهم ثم لما كان الشعر مستفاداً من الشعور - فهو يفيد إشعار النفس بما يحركها، وإن لم يكن صدقاً بل يورث محبة، أو نفرة أو رغبة أو رهبة، لما فيه من التخيل وهذا خاصة الشعر - فلذلك وصفهم بأنهم يتبعهم الغاؤون.

والغي اتباع الشهوات، لأنه يحرك في الناس حركة الشهوة، والنفرة والفرح، والحزن بلا علم، وهذا هو الغي؛ بخلاف الإفك، فإن فيه إضلالاً في العلم بحيث يوجب اعتقاد الشيء، على خلاف ما هو به وإذا كانت النفس تتحرك تارة عن تصديق وإيمان، وتارة عن شعر، والثاني مذموم إلا ما استثنى منه قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: 69] فالذكر خلاف الشعر فإنه حق وعلم، يذكره القلب وذاك شعر يحرك النفس فقط.

ولهذا غلب على منحرفة المتصوفة الاعتياض بسماع القصائد والأشعار، عن سماع القرآن والذكر فإنه يعطيهم مجرد حركة حب أو غيره من غير أن يكون ذلك تابعاً لعلم وتصديق؛ ولهذا يؤثره من يؤثره على سماع القرآن، ويعتدل بأن القرآن حق نزل من حق والنفوس تحب الباطل؛ وذلك لأن القول الصدق والحق: يعطى علماً واعتقاداً بجملة القلب والنفوس المبطله لا تحب الحق) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ثم ذكر علامة من تنزل عليه الشياطين: بأنه أفاك أثيم وأن الشعراء يتبعهم الغاؤون فظاهر القرآن: ليس فيه أن الشعراء تنزل عليهم الشياطين، إلا إذا كان أحدهم كذاباً أثيماً، فالكذاب: في قوله، وخبره والأثيم: في فعله وأمره.

وذلك والله أعلم: لأن الشعر يكون من الشيطان تارة، ويكون من النفس أخرى كما أنه إذا كان حقاً يكون من روح القدس، كما قال النبي ﷺ، لما دعا لحسان بن ثابت: «اللهم أيده بروح القدس» وقال: «إهجهم وهاجهم، وجبرائيل معك» فلما نفى قسم الشيطان نفى قسم النفس ولهذا قال: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ والغي اتباع الشهوات، التي هي هوى النفس.

ولهذا قال أبو [حيان]: ما كان من نفسك، فأحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فانها عنه، وما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك: فهو من الشيطان فاستعد بالله منه فهذا والله أعلم سبب ذلك.

وأما التقسيم إلى الكاهن، والشاعر من جهة المعنى فهو والله أعلم لأن الكلام نوعان: خبر وإنشاء.

والكاهن يخبر بالغيوب مخلطاً فيه الصدق بالكذب، لا يأتون بالحق محضاً، وإذا لقي الشيطان في أمنية أحدهم شيئاً في القلب: لم ينسخ منه بل أكثرهم كاذبون كما قال تعالى، وكما بينه النبي ﷺ في حديث الكهان لما قال: «إنهم يزيدون في الكلمة مائة كذبة» بخلاف الرسول والنبي، والمحدث كما في قراءة ابن عباس وغيره: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٢].

والقراءة العامة ليس فيها المحدث؛ إذ يجوز أن يقر على بعض الخطأ، ويدخل الشيطان في أمنيته بعض ما يلقيه فلا ينسخ، بخلاف الرسول، والنبي فإنه لا بد من نسخ ما يلقي الشيطان، وأن يحكم الله آياته لأنه [حق] والمحدث مأمور بأن يعرض ما يحدثه على ما جاء به الرسول.

ولهذا ألقى الشيطان لعمر وهو محدث، في قصة الحديدية، وقصة موت النبي ﷺ، وقصة اختلافه وحكيم بن حزام في سورة الفرقان، فأزاله عنه نور النبوة، وأما الشاعر فشأنه التحريك للنفوس، فهو من باب الأمر الخاص المرغب؛ ولهذا قيل فيهم: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ فضررهم في الأعمال، لا في الاعتقادات، وأولئك ضررهم في الاعتقادات واتبعا الأعمال ولهذا قال: ﴿أَفَأَكْبِرُ أَتِيرُ﴾، ومعنى الكهانة، والشعر: موجود في كثير من المتفلسفة، والمتصوفة، والمتكلمة، والمتفقهة، والعامة والمتفكرة الخارجين عن الشريعة الذين يتكلمون بالغيوب عن كهانة ويحركون النفوس بالشعر ونحوه وهم من أتباع المتنبئين الكذابين لهم مادة من الشياطين كما قد رأينا كثيراً في أنواع من هذه الطوائف وغيرها، لمن نور الله صدره وقذف في قلبه من نوره) ا. هـ^(١).

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴿١٢٤﴾

(وعامة الأشعار التي تنشد بالأصوات لتحريك النفوس هي من هذه الأقسام

الأربعة: أشعار المحبة وهي النسيب، وأشعار الغضب والحمية وهي الحماسة والهجاء، وأشعار المصائب كالمراثي، وأشعار النعم والفرح وهي المدائح.

والشعراء جرت عادتهم أن يمشوا مع الطبع، كما قال [الله] تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١١٥﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١١٦﴾﴾ ولهذا أخبر أنهم يتبعهم الغاؤون والغوي [هو] الذي يتبع هواه بغير علم. وهذا [هو] الغي و[هو] خلاف الرشد، كما أن الضال [هو] الذي لا يعلم مصلحته وهو خلاف المهتدي (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١١٥﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١١٦﴾﴾؛ ولهذا أخبر أنهم يتبعهم الغاؤون، والغاوي: هو الذي يتبع هواه بغير علم وهذا هو الغي؛ وهو خلاف الرشد) هـ. ١ (٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى في كتابه، بعد أن قال: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٤٤﴾﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١١٥﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١١٦﴾﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنَّى يُنْقَلِبُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فلم يذم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً من الشعراء المنتصرين من بعد ما ظلموا.

ولهذا قال النبي ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من أن يمتلئ شعراً» (٣)، فذم الممتلئ بالشعر الذي لم يُستعمل بما يوجب الإيمان والعمل الصالح وذكر الله كثيراً ولم يذم الشعر مطلقاً، بل قد [يبين معنى الحديث] ما قاله الشافعي: «الشعر كلام فحسنة كحسن الكلام وقبيحة كقبيحة» هذا قوله في الشعر مع قوله في التغيير، ليبين أن إباحة أحدهما غير مستلزمة الآخر) هـ. ١ (٤).

وقال رحمه الله: (فقال في سورة الشعراء المحتوية على قصص المرسلين واحداً بعد واحد، وهي سبع: قصة موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، ثم قال عن القرآن: ﴿وَلِلَّهِ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء] إلى قوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿١١٥﴾﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١١٥﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١١٦﴾﴾، فذكر الفرق بينه وبين من [قال]: تنزل عليه

(١) الاستقامة (٢/ ٢٨١ - ٢٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٦٣).

(٣) البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٢٥٧).

(٤) الاستقامة (١/ ٢٤٢ - ٢٤٣).

الشياطين، من الكهان والمنتبين ونحوهم، وبين الشعراء، لأن الكاهن قد يخبر بغيث بكلام مسجوع، والشاعر أيضاً يأتي بكلام منظوم يحرك به النفوس، فإن قرين الشيطان مادته من الشيطان، ويعين الشيطان بكذبه وفجوره. والشاعر مادته من نفسه، وربما أعانه الشيطان، فأخبر أن الشياطين إنما تنزل على من يناسبها، وهو الكاذب في قوله، الفاجر في عمله، بخلاف الصادق البر، وأن الشعراء إنما يُحرّكون النفوس إلى أهوائها فيتبعهم الغاؤون، وهم الذين يتبعون الأهواء وشهوات الغي، [فنفى] كلاً منهما بانتفاء لازمه، وبين ما تجتمع [فيه] من شياطين الإنس والجن) ا.هـ^(١).

(١) تفسير آيات أشكلت (٢/٧٢٧ - ٧٢٨).

سورة النمل

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾﴾

(وقال ابن أبي حاتم في «تفسيره»: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا معاوية بن هشام، حدثنا شريك، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال: كان ذلك النار، قال الله من في النور، ونودي أن بورك من في النور^(١).

حدثنا علي بن الحسين. ثنا محمد بن حمزة؛ ثنا علي بن الحسين بن واقد؛ عن أبيه، عن يزيد النحوي أن عكرمة حدثني عن ابن عباس ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ قال: كان ذلك النار نوره ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي بورك من في النور ومن حول النور^(٢). وكذلك روى بإسناده من تفسير عطية عن ابن عباس: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ يعني نفسه، قال: كان نور رب العالمين في الشجرة ومن حولها^(٣).

حدثنا أبي، ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري؛ ثنا أبو معاوية؛ عن شيبان؛ عن عكرمة: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ قال: كان الله في نوره^(٤).

حدثنا أبو زرعة، ثنا ابن أبي شيبة، ثنا علي بن جعفر المدائني، عن ورقاء، عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ قال: ناداه وهو في النور^(٥).

حدثنا علي بن الحسين المنجاني؛ ثنا سعيد بن أبي مريم؛ ثنا مفضل بن أبي فضالة حدثني ابن ضمرة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، قال: إن موسى كان على شاطئ الوادي - إلى أن قال - فلما قام أبصر النار فسار إليها، فلما

(١) عزاه صاحب الدر لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم (١٠٢/٥).

(٢) عزاه صاحب الدر لابن أبي حاتم (١٠٢/٥).

(٣) ابن جرير (١٣٣/١٩ - ١٣٤).

(٤) هذه الرواية لم أجد لها، وهي عند ابن أبي حاتم.

(٥) ابن جرير (١٣٤/١٩).

أَتَاهَا ﴿تُودِي أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ ، قال: إنها لم تكن ناراً. ولكن كان نور الله وهو الذي كان في ذلك النور، وإنما كان ذلك النور منه؛ وموسى حوله^(١).

حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، ثنا مكى بن إبراهيم، ثنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب في قوله ﷻ: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ قال: النار نور الرحمة؛ قال: ضوء من الله تعالى، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ موسى والملائكة^(٢).

وروى بإسناده عن ابن عباس ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال: الملائكة^(٣). قال: وروى عن عكرمة، والحسن، وسعيد بن جبيرة، وقتادة مثل ذلك^(٤). وروى عن السدي وحده ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾، قال: كان في النار ملائكة.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي عبيدة، عن أبي موسى، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجاب النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٥) ثم قرأ أبو عبيد: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

وذكر من تفسير الوالبي عن ابن عباس: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾، يقول: قدس^(٦). وعن مجاهد: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ بوركت النار. كذلك كان يقول ابن عباس) ا. هـ^(٧).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله في قصة موسى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا تُودِي أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا تُودِي مِنْ سَلْطِي أَوْلَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا كَفَرُوا﴾ [الفصص] فهذا بين في أنه إنما ناداه حين جاء، لم يكن النداء في الأزل كما يقول الكلاية، يقولون: إن النداء قائم بذات الله في الأزل، وهو لازم لذاته لم يزل ولا يزال منادياً له، لكنه لما أتى خلق فيه إدراكاً لما كان موجوداً في الأزل) ا. هـ^(٨).

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١١﴾.

- | | | | |
|-----|-------------------------------|-----|---------------------------|
| (١) | لم أجده وهو عند ابن أبي حاتم. | (٢) | ابن جرير (١٣٤/١٩ - ١٣٥). |
| (٣) | ابن جرير (١٣٥/١٩). | (٤) | ذكر ذلك ابن كثير (٣/٣٥٧). |
| (٥) | مسلم (١٧٩). | (٦) | ابن جرير (١٩/١٣٣). |
| (٧) | مجموع الفتاوى (٥/٤٦١ - ٤٦٣). | (٨) | جامع الرسائل (٢/١١). |

(أن يقال: المراد بهذا الإرث إرث العلم والنبوة ونحو ذلك لا إرث المال. وذلك لأنه قال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾، ومعلوم أن داود كان له أولاد كثيرون غير سليمان، فلا يختص سليمان بماله، وأيضاً فليس في كونه ورث ماله صفة مدح، لا لداود ولا لسليمان، فإن اليهودي والنصراني يرث أباه ماله، والآية سيقت في بيان المدح لسليمان، وما خصه الله به من النعمة) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (أن قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾، وقوله تعالى: [عن زكريا]: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرْتُفِي وَيَرِثُ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبُ﴾ [مريم]، لا يدل على محل النزاع. لأن الإرث اسم جنس تحته أنواع، والدال على ما به الاشتراك لا يدل على ما به الامتياز. فإذا قيل: هذا حيوان، لا يدل على أنه إنسان أو فرس أو بعير. وذلك أن لفظ «الإرث» يستعمل في إرث العلم والنبوة والملك وغير ذلك من أنواع الانتقال. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] ا.هـ (٢).

﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَحِشْتُكَ مِنْ سَبِّ ابْنَيْ يَقِينٍ﴾ (سليمان) ا.هـ (٣).

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (مثل قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد أوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها) ا.هـ (٤).

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَإِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (وبهذا تميز عمن يقطع المسافة كرامة لولي، أو بتسخير الجن، كما في قصة بلقيس حيث: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَإِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَإِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فإن قطع الجسم للمسافة البعيدة إنما كان لما أوتيه سليمان من الملك، كما كانت الريح: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهِ لِحَاةٍ جِثَّتْ أَصَابَ ۖ وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِرٍ ۗ وَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص] وهذا تسخير ملكي) ا.هـ (٥).

- (١) منهاج السنة (٤/٢٢٤).
 (٢) مختصر الفتاوى المصرية (٥٦١).
 (٣) منهاج السنة (٤/٢٢٢).
 (٤) مجموع الفتاوى (٦/٣٦١).
 (٥) الجواب الصحيح (٦/١٦٧ - ١٦٨).

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ (٥٩).

قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾. قال طائفة من السلف: هم أصحاب محمد ﷺ [٥٩] ولا ريب أنهم أفضل المصطفين من هذه الأمة التي قال الله فيها: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٣) جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٤) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٥) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) [فاطر].

فأمة محمد ﷺ هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمتين قبلهم: اليهود والنصارى، وقد أخبر الله أنهم الذين اصطفى. وتواتر عن النبي ﷺ أنه قال: «خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(١) ومحمد ﷺ وأصحابه هم المصطفون من المصطفين من عباد الله) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ فإنه يدل من وجهين، من جهة أن الاصطفاء يقتضي التصفية وذلك لا يكون مع الاتفاق والإصرار على الذنب والخطأ. والثاني التسليم عليهم وذلك يقتضي سلامتهم من العيوب كما سلم على المرسلين، وعلى نوح وعلى المسيح) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ يَسْتَفْهَمُ فِيهَا كُلِّهَا؟ إنكار هل يفعل هذه الأمور أحد من الآلهة التي يعبدون من دون الله؛ فإن قوله: ﴿أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠] اسم واحد وقع صفة لإله؛ ليس هو جملة واحدة كما ظنه طائفة من المفسرين، واعتقدوا أن المعنى مع الله إله. فإن القوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى، وقد ذكر ذلك في السورة بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ فلا يفيد استفهامهم عما هم معترفون به. وأيضاً فإن جواب المستفهم عنه لا يكون إلا مفرداً، لا يكون جملة، فإذا قيل: من فعل

(٢) منهاج السنة (٢/٣٤ - ٣٥).

(١) مر تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (٢/٥٠٢).

هذا. فإنه يقال: فلان أم فلان. لا يذكر جملة؛ بل لو كان كذلك لم ينتظم الكلام ولكن المقصود أن هذه الآلهة التي تدعونها من دون الله هل هي التي فعلت هذه الأمور، أم الله وحده فعلها، فإن القوم كانوا مقرين بأن الله وحده هو الفاعل لهذه الأمور، وهذا شأن استفهام الإنكار. فإنه يتضمن نفي المستفهم عنه والإنكار على من أثبتته، والقوم كانوا معترفين بذلك لكن كانوا مع ذلك مشركين به الآلهة التي يعلمون أنها لم تفعل ذلك فأنكر عليهم ذلك وزجروا عنه. ومثل هذا في القرآن كثير.

ومن عرف هذا عرف الشرك الذي ذمه الله في كتبه وأرسل رسله جميعاً بالنهاي عنه، كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّ مِّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، والعبادة تتضمن كمال المحبة وكمال الخضوع، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَخُذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٥١] أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ بَارِدًا وَجَعَلَ فِيهَا رِزْقًا لِّكُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ اللَّهُ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ [٦١] أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ أي إله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا إله آخر مع الله.

ومن قال من المفسرين إن المراد: هل مع الله إله آخر؟ فقد غلط؛ فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى، كما قال تعالى: ﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، وقال تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ١] ا. هـ^(٢).

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٦١].

(وقوله: ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ جواب الاستفهام؛ أي إله مع الله [موجود؟] وهذا غلط، فإنهم يجعلون مع الله آلهة ويشهدون بذلك؛ لكن ما كانوا يقولون: إنهم فعلوا

ذلك، والتقرير إنما يكون لما يقرون به، وهم مقرون بأنهم لم يفعلوا. لا يقرون بأنه لم يكن معه إله) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقوله في تعديد الآيات: ﴿أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أي أفعل هذه إله مع الله؟! والمعنى ما فعلها إلا الله) ا. هـ^(٢).

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٥﴾

(وقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فاستثنى نفسه، والعالم «من في السموات والأرض». ولا يجوز أن يقال هذا استثناء منقطع، لأن المستثنى مرفوع، ولو كان منقطعاً لكان منصوباً. والمرفوع على البدل، والعامل فيه هو العالم في المبدل منه وهو بمنزلة المفرغ، كأنه قال: «لا يعلم الغيب إلا الله» فيلزم أنه داخل في «من في السموات والأرض».

وقد قدمنا أن لفظ «السماء» يتناول كل ما سما، ويدخل فيه السموات، والكرسي، والعرش، وما فوق ذلك. لأن هذا في جانب النفي، وهو لم يقل هنا: «السموات السبع بل عم بلفظ «السموات». وإذا كان لفظ «السماء» قد يراد به السحاب، ويراد به الفلك، ويراد به ما فوق العالم، ويراد به العلو مطلقاً، فال«السموات» جمع «سما» وكل من فيما يسمى «سما» وكل من فيما يسمى «أرضاً» لا يعلم الغيب إلا الله. وهو سبحانه قال: «قل لا يعلم من» ولم يقل «ما»، فإنه لما اجتمع ما يعقل وما لا يعقل غلب ما يعقل وعبر عنه ب«من» لتكون أبلغ، فإنهم مع كونهم من أهل العلم والمعرفة لا يعلم أحد منهم الغيب إلا الله.

وهذا هو الغيب المطلق عن [جميع المخلوقين] الذي قال فيه: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]. [والغيب المقيد ما عمله] بعض المخلوقات من الملائكة أو الجن أو الإنس وشهدوه، فإنما هو غيب عن غاب عنه، ليس هو غيباً عن شاهده. والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا، فيكون غيباً مقيداً - أي غيباً عن غاب عنه من المخلوقين، لا عن شاهده، ليس غيباً مطلقاً غاب عن المخلوقين قاطبة.

وقوله: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] أي عالم ما غاب عن العباد مطلقاً ومعيناً وما شهدوه، فهو سبحانه يعلم ذلك كله: (ا. هـ^(٣)).

(١) مجموع الفتاوى (١١/٦٨٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/٦٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/١٠٩ - ١١٠).

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الْقَبْرَ إِذَا دُعِيَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْرِينًا ﴿١٨﴾﴾ .

(وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ المراد: السماع المعتاد الذي يتضمن القبول والانتفاع) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (أو اعتقد أن الميت لا يسمع خطاب الحي؛ لاعتقاده أن قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ يدل على ذلك) ا.هـ (٢).

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَجَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ دَخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

(نفخة الفزع، ذكرها في سورة النمل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَجَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾) ا.هـ (٣).

﴿وَرَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَاوِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي الْأَقْنَىٰ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

(وكل ما خلقه الله فله فيه حكمة كما قال: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي الْأَقْنَىٰ كُلُّ شَيْءٍ﴾ وقال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧]. وهو سبحانه غني عن العالمين، «فالحكمة» تتضمن شيئين:

«أحدهما»: حكمة تعود إليه يحبها ويرضاها.

و«الثاني»: إلى عباده هي نعمة عليهم يفرحون بها ويلتذون بها؛ وهذا في المأمورات وفي المخلوقات) ا.هـ (٤).

(١) مختصر الفتاوى المصرية (١٨٩).
 (٢) مجموع الفتاوى (٣٤/٢٠).
 (٣) مجموع الفتاوى (٣٥/١٦).
 (٤) مجموع الفتاوى (٣٥/٨ - ٣٦).

سورة القصص

وفي عموم سورة القصص قال:

(فكل عمل يعمله العبد، ولا يكون طاعة لله وعبادة، وعملاً صالحاً فهو باطل، فإن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله وإن نال بذلك العمل رئاسة ومالاً، فغاية المترأس أن يكون كفرعون وغاية المتمول أن يكون كقارون. وقد ذكر الله في سورة القصص من قصة فرعون وقارون ما فيه عبرة لأولي الألباب) ١. هـ^(١).

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ١.

(قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ١) فوصفه بالعلو في الأرض والفساد، وقال في آخر السورة: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ لِمَنْ جَعَلَهَا لِيَذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْمُتَّقِينَ﴾ ٨٢ [القصص] ولهذا قال في حق فرعون: ﴿وكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ [غافر: ٣٧] ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ١) وروى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من في قلبه ذرة من إيمان فقال رجل: يا رسول الله! إني أحب أن يكون ثوبي حسناً، ونعلي حسناً أفمن الكبر ذاك؟ قال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٣)

(٢) جامع الرسائل (١/٢٣٢).

(١) مجموع الفتاوى (٧٦/٨).

(٣) مسلم (٩١).

فبطر الحق دفعه وجحده، وغمط الناس، احتقارهم وازدراؤهم، وهذا حال من يريد العلو والفساد.

والقسم الثاني: الذين يريدون الفساد، بلا علو، كالسراق والمجرمين من سفلة الناس.

والقسم الثالث: يريدون العلو بلا فساد، كالذين عندهم دين يريدون أن يعلوا به على غيرهم من الناس.

وأما القسم الرابع: فهم أهل الجنة، الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، مع أنهم قد يكونون أعلى من غيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَافِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَهٗ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الرَّسُولُ﴾ [المؤمنين] [المناقون: ٨] ا.هـ^(١).

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي﴾.

(فبين أنه يُلهم المؤمنين الإيمان وما ينفعهم، وذلك إحياء إليهم وإن لم يكونوا أنبياء) ا.هـ^(٢).

﴿فَالنَّقِطَةُ: أَلِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَنَا وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾.

(﴿فَالنَّقِطَةُ: أَلِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا...﴾ وإن كانت هذه لام العاقبة، فليست العاقبة منحصرة في ذلك، بل في ذلك من الإحسان إلى موسى وتربيته وغير ذلك حكم أخرى) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (إنما اللام فيه لام العاقبة كقوله: ﴿فَالنَّقِطَةُ: أَلِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وقول القائل: «الدوا للموت وابنوا للخراب». ولم يعلموا أن لام العاقبة إنما تصح ممن يكون جاهلاً بعاقبة فعله كفرعون الذي لم يكن يدري ما ينتهي

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٣٩٢ - ٣٩٣).

(٢)

جامع المسائل (٢/٢٥٦).

(٣) الجواب الصحيح (١/٤٣٦).

إليه أمر موسى) ١. هـ^(١).

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَى فَرِحًا إِنْ كَادَتْ لِتُبَدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتَكُونَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٤.

(كما قيل في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَى فَرِحًا إِنْ كَادَتْ لِتُبَدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ قالوا: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى) ١. هـ^(٢).

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَبَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ١٥.

(فإن قوله تعالى: ﴿فَاسْتَعْتَبَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ لا يقتضي أنه شرع لنا وجوباً ولا استحباباً مثل هذه الاستغاثة بل ولا يقتضي الإباحة، فإن هذا الإسرائيلي ليس ممن يحتج بأفعاله، بل ولا في الآية ما يقتضي أن هذا المستغيث بموسى كان مظلوماً، بل لعله كان ظالماً، وموسى لما أغاثه فقتل عدوه ندم على ذلك وقال: «هذا من عمل الشيطان» ثم قال: «رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له» ثم قال: «فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه، قال له موسى إنك لغوي مبين» فشهد فيه موسى بأنه غوي) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال موسى ﷺ لما ذكر الذي هو من عدوه: ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴿١٦﴾ فاعترف بظلمه نفسه فيما كان من جنابة على غيره لم يؤمر بها) ١. هـ^(٤).

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنْ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ١٦.

(وقال لموسى: ﴿إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنْ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فهذا مصلحته في أن يأمر موسى بالخروج لا في أن يعينه على ذلك، إذ لو أعانه لضره قومه) ١. هـ^(٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٢١٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٩/٢٧٨).

(١) مجموع الفتاوى (١٧/١٠٠).

(٣) الاستغاثة (١٣٩).

(٥) منهاج السنة (٣/١٧٢).

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا سَعْيَ حَتَّى يُصْدِرَ الزَّرْعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (١٣).

(وذكر في قصة موسى أنه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ الآية إلى آخر القصة. فموسى ﷺ قضى أكمل الأجلين، ولم يذكر عن هذا الشيخ أنه كان شعيباً ولا أنه كان نبياً، ولا عند أهل الكتابين أنه كان نبياً، ولا نقل عن أحد من الصحابة إن هذا الشيخ الذي صاهر موسى كان شعيباً النبي: لا عن ابن عباس ولا غيره، بل المنقول عن الصحابة أنه لم يكن هو شعيب.

قال سنيد بن داود شيخ البخاري في تفسيره بإسناده عن ابن عباس قال: اسمه يثرى^(١) قال حجاج وقال غيره: يثرون، وعن شعيب الجبائي أنه قال: اسم الجاريتين ليا وصفورة^(٢)، وامرأة موسى صفورة بنت يثرون كاهن مدين، والكاهن الحبر. وفي رواية عن ابن عباس أن اسمه يثرون أو يثرى.

وقال ابن جرير^(٣): اسم إحدى الجاريتين ليا، ويقال؛ شرفا، والأخرى صفورة، وقال أيضاً: وأما أبوهما فمختلف في اسمه، فقال بعضهم: اسمه يثرون، وقال ابن مسعود: الذي استأجر موسى ابن أخي شعيب يثرون. وقال أبو عبيدة^(٤): هو يثرون ابن أخي شعيب النبي ﷺ.

وقال آخرون: اسمه يثرى، وهو منقول عن ابن عباس.

وقال الحسن^(٥): يقولون: هو شعيب النبي، لا، ولكنه سيد أهل الماء يومئذ.

قال ابن جرير: وهذا لا يُدرك علمه إلا بخبر عن معصوم، ولا خبر في ذلك^(٦).

وقيل: اسمه أثرون.

(١) ذكره ابن جرير (٦٢/٢٠) بقوله قال آخرون بل اسمه يثرى وهذا منقول عن الثعلبي في «قصص الأنبياء» (ص ١٧٤).

(٢) ابن جرير (٦٢/٢٠). (٣) ابن جرير (٦٢/٢٠).

(٤) ذكره ابن جرير عن أبي عبيدة (٦٢/٢٠).

(٥) ابن جرير (٦٢/٢٠) وهو عند ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر (٤٠٧/٦) والعجيب أن

ابن كثير جعل هذا القول عكس ما ذهب إليه الحسن البصري (٣٨٤/٣).

(٦) ابن جرير (٦٢/٢٠).

فهذه كتب التفسير التي تروى بالأسانيد المعروفة عن النبي ﷺ والتابعين لم يذكر فيها عن أحد أنه شعيب النبي ﷺ^(١)، ولكن نقلوا بالأسانيد الثابتة عن الحسن البصري أنه قال: يقولون إنه شعيب وليس بشعيب، ولكنه سيد الماء يومئذ.

فالحسن يذكر أنه شعيب عمن لا يعرف، ويرد عليهم ذلك، ويقول: ليس هو شعيب.

وإن كان الثعلبي^(٢) قد ذكر أنه شعيب فلا يلتفت إلى قوله، فإنه ينقل الغث والسمين، فمن جزم بأنه شعيب النبي فقد قال ما ليس له به علم وما لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ولا عمن يحتج بقوله من علماء المسلمين، وخالف في ذلك ما ثبت عن ابن عباس والحسن البصري، مع مخالفته أيضاً لأهل الكتابين فإنهم متفقون على أنه ليس هو شعيب النبي، فإن ما في التوراة التي عند اليهود والإنجيل الذي عند النصارى أن اسمه يثرون، وليس لشعيب النبي عندهم ذكر في التوراة.

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن شعيباً كان عربياً، بل قد روي عن أبي ذر مرفوعاً إلى النبي ﷺ - رواه أبو حاتم وغيره - أن شعيباً كان عربياً، وكذلك هود وصالح وموسى كان عبرانياً فلم يعرف لسانه، وظاهر القرآن يدل على مخاطبة موسى للمراتين وأبيهما بغير ترجمان.

وإنما شبهة من ظن ذلك أنه وجد في القرآن قصة شعيب وإرساله إلى أهل مدين ووجد في القرآن مجيء موسى إلى مدين ومصاهرته لهذا، فظن أنه هو.

والقرآن يدل أن الله أهلك قوم شعيب بالظلة، فحينئذ لم يبق في مدين من قوم شعيب أحد، وشعيب لا يقيم بقرية ليس بها أحد، وقد ذكروا أن الأنبياء كانوا إذا هلكت أممهم ذهبوا إلى مكة فأقاموا بها إلى الموت، كما ذكر أن قبر شعيب بمكة، وقبر هود بمكة، وكذلك غيرهما.

وموسى لما جاء إلى مدين كانت معمورة بهذا الشيخ الذي صاهره، ولم يكن

(١) رغم أن أكثر المفسرين يذكرون أنه شعيب، كما ذكر ابن الجوزي والواحي والقرطبي وابن حيان وذكر ابن كثير: أن هذا هو قول الجمهور وذكر حجة هؤلاء والعكس، أما البغوي فقد ذكر القولين وذكر ابن جرير الأقوال المسندة بأنه غير ذلك، والصحيح ما أثبتته شيخ المحققين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله.

(٢) وبه تعرف أن الواحي إنما نقل عن الثعلبي كما هو معروف عنه.

هؤلاء قوم شعيب المذكورين في القرآن، بل ومن قال: إنه كان ابن أخي شعيب أو ابن عمه لم ينقل ذلك عن ثبت، والنقل الثابت عن ابن عباس لا يعارض بمثل قول هؤلاء. وما يذكرونه في عصا موسى، وأن شعيباً أعطاه إياها، وقيل: أعطاه إياها هذا الشيخ، وقيل: جبريل، وكل ذلك لا يثبت.

وعن أبي بكر - أظنه الهذلي - قال: سألت عكرمة عن عصا موسى، قال: هي عصا خرج بها آدم من الجنة، ثم قبضها بعد ذلك جبريل فلقى بها موسى ليلاً فدفعها إليه. وقال السدي^(١) في تفسيره المعروف: أمر أبو المرأتين ابنته أن يأتي موسى بعصا، وكانت تلك العصا عصا استودعها ملك في صورة رجل، إلى آخر القصة، استودعه إياها ملك في سورة رجل، وأن حماه خاصمه، وحكما بينهما رجلاً، وأن موسى أطاق حملها دون حميه، وذكر عن موسى أنه أحق بالوفاء من حميه.

ولو كان هذا هو شعيباً النبي لم ينازع موسى، ولم يندم على إعطائه إياها، ولم يحاكمه، ولم يكن موسى قبل أن ينبأ أحق بالوفاء منه، فإن شعيباً كان نبياً وموسى لم يكن نبياً؛ فلم يكن موسى قبل أن ينبأ أكمل من نبي، وما ذكره زيد من أنه كان يعرف أن موسى نبي: إن كان ثابتاً، فالأخبار والرهبان كانت عندهم علامات الأنبياء، وكانوا يخبرون بأخبارهم قبل أن يبعثوا، والله سبحانه أعلم.

فصل

وأما شياع كون حمى موسى شعيباً النبي عند كثير من الناس الذين لا خبرة لهم بحقائق العلم ودلائله وطرقه السمعية والعقلية، فهذا مما لا يغتر به عاقل، فإن غاية مثل ذلك أن يكون منقولاً عن بعض المنتسبين إلى العلم، وقد خالفه غيره من أهل العلم وقول العالم الذي يخالفه نظيره ليس حجة، بل يجب رد ما تنازعا فيه إلى الأدلة.

ومثال ذلك ما ذكره بعضهم، أو كثير منهم، من أن الرسل المذكورين في سورة يس هم من حواربي المسيح ﷺ، وأن حبيب النجار آمن بهم. وهذا أمر باطل عند أجلاء علماء المسلمين وعند أهل الكتاب، فإن الله قد أخبر عن هذه القرية التي جاءها المرسلون أنه قد أهلك فقال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً فِإِذَا هُمْ خَكِيدُونَ﴾ [يس].

وأنطاكية لما جاءها اثنان من الحوارين بعد رفع المسيح آمنوا بهما، وهي أول

(١) ابن جرير (٦٧/٢٠) تفسير السدي الكبير (٣٧٥) وعزاه المحقق لابن جرير والدر المنثور.

مدينة اتبعت المسيح، ولم يهلكهم الله بعد المسيح باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، فكيف يجوز أن يقال: هؤلاء هم رسل المسيح؟!.

وأيضاً؛ فإن الذين اتوهم كانوا اثنين من الحواريين، وأهل الكتاب معترفون بذلك، ولم يكن حبيب النجار موجوداً حينئذ، بل هؤلاء رسل أرسلهم الله قبل المسيح، وأهلك أهل تلك القرية - وقد قيل: إنها أنطاكية - وآمن حبيب بأولئك الرسل. ثم بعد هذا عمرت أنطاكية وجاءتهم رسل المسيح بعد ذلك.

والحواريون ليسوا رسل الله عند المسلمين، بل هم رسل المسيح، كالصحابة الذين كان النبي ﷺ يرسلهم إلى الملوك. ومن زعم أن هؤلاء حواريون فقد جعل للنصارى حجة لا يحسن أن يجيب عنها، وقد بسطنا ذلك في «الرد على النصارى»^(١) وبيننا أن الحواريين لم يكونوا رسلاً، فإن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله مثل إبراهيم وموسى، وقد يفضلونهم على إبراهيم وموسى، وهذا كفر عند المسلمين، وقد بينا ضلال النصارى في ذلك) ١. هـ^(٢).

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِصَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ رَبُّكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

(«جبل طور سيناء» وهو «البقعة المباركة» و«الوادي المقدس» الذي ذكره الله في كتابه، وكلم عليه كلمه موسى) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وفي السورة الأخرى: ذكر أنه ناداه من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وقوله: ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ هو بدل من قوله: ﴿مِنَ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ فالشجرة كانت فيه، وقال أيضاً: ﴿وَوَدَّيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢] والطور هو الجبل، فالنداء كان من الجانب الأيمن من الطور ومن الوادي فإن شاطئ الوادي جانبه وقال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤] أي بالجانب الغربي، وجانب المكان الغربي؛ فدل على أن هذا الجانب الأيمن هو الغربي لا

(١) أي: كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) وقد طبع في دار العاصمة المعمورة في سبعة مجلدات محققاً.

(٢) جامع الرسائل (١/٦١ - ٦٦) وهي رسالة مستقلة في إثبات أن هذا ليس النبي شعيب، نشرها الدكتور محمد رشاد سالم ﷺ.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/١١٠).

الشرقي، فذكر أن النداء كان من موضع معين وهو الوادي المقدس طوى من شاطئ الوادي الأيمن من جانب الطور الأيمن من الشجرة، وذكر أنه قربه نجياً فناده وناجاه، وذلك المنادى له، والمناجي له، وهو الله رب العالمين لا غيره، ونداؤه ومناجاته قائمة به، ليس ذلك مخلوقاً منفصلاً عنه، كما يقوله من يقول: أن الله لا يقوم به كلام؛ بل كلامه منفصل عنه مخلوق؛ وهو ﷺ ناداه وناجاه ذلك الوقت كما دل عليه القرآن لا كما يقوله من يقول: لم يزل منادياً مناجياً له ولكن ذلك الوقت خلق فيه إدراك النداء القديم الذي لم يزل ولا يزال.

فهذان قولان مبتدعان لم يقل واحداً منها أحد من السلف. وإذا كان المنادي هو الله رب العالمين، وقد ناداه من موضع معين وقربه إليه؛ دل ذلك على ما قاله السلف من قربه ودنوه من موسى ﷺ، مع أن هذا قرب مما دون السماء) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (أن الذي نادى موسى من الشجرة لم يتكلم إلا بكلام الربوبية فقال: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿٦﴾ [طه]، وسائر ما تكلم به كله يقتضي أنه كلام رب العالمين، وأما المتكلم على لسان المسيح فلم يقل كلمة من هذا أصلاً، بل كان في كلامه من الإقرار بأنه رسول، وأنه مخلوق محتاج، وأنه ابن البشر، وغير ذلك مما يناقض من كل وجه كلام المنادي لموسى من الشجرة، فمن سوى بين هذا وهذا، كان قد سوى بين رب العالمين وبين إنسان من الآدميين، وهو أضل من الذين قال الله فيهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنتَ لفي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١٧﴾ إِذْ سُوِّيَكُمْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ [الشعراء]، فإن أولئك جعلوهم أنداداً لله في بعض الأمور مع اعترافهم بأنهم مخلوقون، وهؤلاء الضلال جعلوا هذا الإنسان الذي يتكلم هو رب العالمين الذي كلم موسى من الشجرة، وقالوا: إن هذا الذي كلم العباد هو ذاك الذي نادى موسى من الشجرة) ا. هـ^(٢).

﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْمِكَ تَخْرُجُ بِيضَاءً مِنْ غَيْرِ سُورٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَّكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾.

(قال تعالى: في قصة موسى: ﴿فَذَلَّكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ في العصا واليد) ا. هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٥/٤٦٣ - ٤٦٤).

(٢) الجواب الصحيح (٤/١٦ - ١٧).

(٣) الجواب الصحيح (٥/٤١٢).

وقال رحمه الله: (وذكر في البرهان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحجة. والثاني: أنه الرسول، وذكر أنه القرآن عن قتادة. والذي رواه ابن أبي حاتم عن قتادة بالإسناد الثابت أنه بينة من الله، والبينة والحجة تتناول آيات الأنبياء التي بعثوا بها، فكل ما دل على نبوة محمد ﷺ فهو برهان، قال تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ وقال لمن قال: لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، قل: هاتوا برهانكم) ١. هـ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْرِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَمْ كَلَّ أَبْطِغْ إِلَيَّ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٨).

(ثم أخبر عن فرعون أنه طلب قتل موسى وقال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر: ٢٦]، وهذا تنبيه على أنه لم يكن مقرا بربه، ولهذا قال في تمام الكلام: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وهذا جحد صريح لإله العالمين، وهي الكلمة الأولى) ١. هـ.

﴿أَسْأَلُكَ بِدَعْوَى رَبِّكَ إِذْ تُنَادِي بِرَبِّكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ رَبِّكَ لِيَا بَنِيَّ اسْمِعُوا بَنِيَّ إِنْ سَأَلْتُمْ لِيَّ قَوْلًا لِيُؤْتِيَهُ لَكُمُ الْمَالَ إِنَّكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٢٩) ﴿إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٣٠) ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٣١) ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْنِنَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْجَبُونَ﴾ (٣٢) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٣) ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣٤) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْرِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَمْ كَلَّ أَبْطِغْ إِلَيَّ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٥) ﴿وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُوذُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلٰهًا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٦) ﴿فَأَحْذَنتُهُ وَجُوذُهُمْ فَنَبَذْتُهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٧) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ لَا يُصْرُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٣٩).

(قوله تعالى في القصص: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ وَمَلَائِيكَةُ إِنَّهُمْ

كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٠﴾ إلى قوله: ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤١﴾﴾، فأخبر سبحانه أنه أرسله إلى فرعون وقومه، وأخبر أنهم كانوا قوماً فاسقين، وأخبر أنهم: ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٍ﴾ وأخبر أن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وأنه أمر باتخاذ الصرح ليطلع إلى إله موسى، وأنه يظنه كاذباً، وأخبر أنه استكبر فرعون وجنوده، وظنوا أنهم لا يرجعون إلى الله، وأنه أخذ فرعون وجنوده فنبذهم في اليم؛ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، وأنه جعلهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وأنه أتبعهم في الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين.

فهذا نص في أن فرعون من الفاسقين، المكذبين لموسى، الظالمين، الداعين إلى النار، الملعونين في الدنيا بعد غرقهم، المقبوحين في الدار الآخرة.

وهذا نص في أن فرعون بعد غرقه ملعون، وهو في الآخرة مقبوح غير منصور، وهذا إخبار عن غاية العذاب، وهو موافق للموضع الثاني في سورة المؤمن وهو قوله: ﴿مَكْرُورًا وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر] وهذا إخبار عن فرعون وقومه؛ أنه حاق بهم سوء العذاب في البرزخ، وأنهم في القيامة يدخلون أشد العذاب، وهذه الآية إحدى ما استدل به العلماء على عذاب البرزخ.

وإنما دخلت الشبهة على هؤلاء الجهال: لما سمعوا آل فرعون، فظنوا أن فرعون خارج منهم؛ وهذا تحريف للكلم عن مواضعه، بل فرعون داخل في آل فرعون بلا نزاع بين أهل العلم بالقرآن، واللغة، يتبين ذلك بوجوه:

«أحدها»: أن لفظ آل فلان في الكتاب والسنة يدخل فيها ذلك الشخص، مثل قوله في الملائكة الذين ضافوا إبراهيم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ نَبِيًّا ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر] ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الحجر] يعني لوطاً: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢] وكذلك قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٦٢﴾﴾ [القمر]، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٦١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَاعْتَزَلْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقَدِّرٌ ﴿٦٢﴾﴾ [القمر]، ومعلوم أن لوطاً داخل في آل لوط في هذه المواضع، وكذلك فرعون: داخل في آل فرعون المكذبين

المأخوذين، ومنه قول النبي ﷺ: «قولوا اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم» وكذلك قوله: «كما باركت على آل إبراهيم»^(١)، فأبراهيم داخل في ذلك، وكذلك قوله للحسن: «إن الصدقة لا تحل لآل محمد»^(٢).

وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان القوم إذا أتوا رسول الله ﷺ بصدقة يصلي عليهم، فأتى أبي بصدقة فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(٣) وأبو أوفى هو صاحب الصدقة.

ونظير هذا الاسم أهل البيت، فإن الرجل يدخل في أهل بيته، كقول الملائكة: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ بِرَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، وقول النبي ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وذلك لأن آل الرجل من يؤول إليه، ونفسه ممن يؤول إليه، وأهل بيته هم من يأهله، وهو ممن يأهل أهل بيته.

فقد تبين أن الآية التي ظنوا أنها حجة لهم: هي حجة عليهم، في تعذيب فرعون مع سائر آل فرعون في البرزخ، وفي يوم القيامة، وبين ذلك: أن الخطاب في القصة كلها إخبار عن فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٣﴾ إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر]: إلى قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] إلى قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْلَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَاءَ طَارِجًا مِّنَ السَّمَاءِ فَطَالَعَ إِلَهُكُمْ إِلَهُهُمُ وَتَبَوَّأُوا فِيهَا دُونَ عِلِّيُّنَ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦] إلى قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر]، فأخبر عقب قوله: ﴿أَدْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر] عن محاجتهم في النار، وقول الضعفاء للذين استكبروا، وقول المستكبرين للضعفاء: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ ومعلوم أن فرعون هو رأس المستكبرين وهو الذي استخف قومه فأطاعوه، ولم يستكبر أحد استكبار فرعون، فهو أحق بهذا النعت والحكم من جميع قومه) ا.هـ^(٤).

(١) البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).

(٢) البخاري (١٤٨٥)، ومسلم (١٠٦٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨٠/٢ - ٢٨٣).

(٤) مر تخريجه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ .

(إن الله ﷻ كانت سنته قبل إنزال التوراة، إذا كذب نبي من الأنبياء ينتقم الله من أعدائه بعذاب من عنده، كما أهلك قوم نوح بالغرق، وقوم هود بالريح الصرصر، وقوم صالح بالصيحة، وقوم شعيب بالظلة، وقوم لوط بالحاصب، وقوم فرعون بالغرق قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ فلما أنزل التوراة، أمر أهل الكتاب بالجهاد، فمنهم من نكل، ومنهم من أطاع، وصار المقصود بالرسالة لا يحصل إلا بالعلم والقدرة كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿١٨﴾ [الفتح] ١. هـ^(١) .

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ فإنه قبل ذلك قد أهلك قوم فرعون وشعيب ولوط وعاد وثمود وغيرهم، ولم يهلك الكفار بجهاد المؤمنين. ولما كان موسى أفضل من هؤلاء، وكذلك محمد، وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ﴿١٥﴾ [المزمل] وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا آؤُفَىٰ مِثْلَ مَا آؤُفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا آؤُفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ﴾ [القصص: ٤٩]، وأمر الله هذين الرسولين بالجهاد على الدين. وشريعة محمد ﷺ أكمل، فلهذا كان الجهاد في أمته أعظم منه في غيرهم.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣١﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى للمنافقين: ﴿وَمَنْ نَّرَبُّكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] ١. هـ^(٢) .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ .

وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِيقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ .

(وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِيقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فنفى سبحانه شهادته لهذه الأمور الغائبة وحضوره لها، تنبيهاً للناس على أنه أخبر بالغيب الذي لم يشهده، ولم يعرفه من جهة إخبار الناس، فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك، ولا عاشر غير قومه. وكل من عرف حاله: يعلم أنه لم يتعلم شيئاً من ذلك، لا من أهل الكتاب ولا ممن نقل عن أهل الكتاب) ١. هـ^(١).

قال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِيقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ...﴾ الآية، والإنسان إنما يعلم مثل هذا بمشاهدة أو خبر، فنبهه بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ على أنه إنما علمت ذلك بإخبارنا وإيحائنا إليك وإعلامنا لك بذلك، إذ كان معلوماً عند كل من عرفه: إنه لم يسمع ذلك من بشر، وأنه لم يكن هو ولا قومه يعلمون ذلك) ١. هـ^(٢).

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ .

(ومكة لم تزل تحج إليها العرب، ولم يكن قط عند العرب توراة ولا إنجيل عربيان من عهد المسيح ﷺ بل ولا كان بمكة لا توراة ولا إنجيل، لا معرب ولا غير

معرب، ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾ (١) هـ. ١.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي موسى ومحمد، وفي القراءة الأخرى^(٢): (ساحران تظاهرا) أي التوراة والقرآن) هـ. ١.^(٣)

وقال رحمه الله: (ولهذا يقرن - سبحانه - بين التوراة والقرآن في مثل قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا...﴾، ويعني التوراة والقرآن، وفي القراءة الأخرى: (قَالُوا سَاحِرَانِ) أي محمد وموسى) هـ. ١.^(٤)

﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِمَّامَا اتَّبَعْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨١﴾﴾.

(والزبور تابع لشرع التوراة، وكذلك الإنجيل فرع على التوراة، لم ينزل كتاب مستقل إلا التوراة والقرآن كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِمَّامَا اتَّبَعْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨١﴾﴾) ولهذا يقرن سبحانه بين التوراة والقرآن كثيراً كما في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ - إلى قوله -: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢]، وقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَةٍ مِّن زَيْبِهِ وَتَتْلُو شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

قال سعيد بن جبيرة وغيره: والأحزاب هي الملل كلها، قال؛ وهذا تصديق قول النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»، وقرأ هذه الآية: ﴿... بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدُهُ...﴾ [هود: ١٧] وقالت الجن: ﴿يَقُومُونَ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ...﴾ [الأحقاف: ٣٠].

(٢) زاد المسير (٦/٢٢٧).

(١) الجواب الصحيح (٢/٨٢).

(٤) الجواب الصحيح (١/١١٨ - ١١٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٤٤).

وقال النجاشي - لما سمع القرآن - : (إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة) ا.هـ^(١) .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

(وقد بين الله أنه لم ينزل كتاباً أهدى من التوراة والقرآن، فقال تعالى: ﴿... فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ - وقرئ ساحران - قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ا.هـ^(٢) .

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ .

(والأهواء هي إرادات النفس بغير علم، فكل من فعل ما تريده نفسه بغير علم يبين أنه مصلحة فهو متبع هواه، والعلم بالذي هو مصلحة العبد عند الله في الآخرة هو [العلم] الذي [جاءت] به الرسل. قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ ا.هـ^(٣) .

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ وقال عمر بن عبد العزيز: لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذا أنت لا تثاب على ما اتبعته من الحق، وتعاقب على ما خالفته. وهو كما قال ﷺ، لأنه في الموضعين إنما قصد اتباع هواه، لم يعمل لله) ا.هـ^(٤) .

وقال رحمه الله: ﴿﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾﴾ فإن أصل الهوى هو محبة النفس، ويتبع ذلك بغضها والهوى نفسه - وهو الحب والبغض الذي في النفس - لا يلام [العبد] عليه، فإن ذلك لا يملكه، وإنما يلام على اتباعه.

كما قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] .

(١) الجواب الصحيح (٣٥١/٥ - ٣٥٣) . (٢) الجواب الصحيح (٣٥١/٢)

(٣) منهاج السنة (٣٣٠/٥) . (٤) جامع الرسائل (١٠٣/٢) .

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾.

وقال النبي ﷺ: «ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحق في الغضب والرضا، وثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»^(١).

والحب والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغض ووجد وإرادة وغير ذلك فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، بل قد يتمادى به الأمر إلى أن يتخذ إلهه هواه.

واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين. كما قال [تعالى]: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ آيَةٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٨ - ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَلِظَالِمِينَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْأَعْتَابُ لِآبَائِهِمْ لَا تَقْلُوبُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ بِلْتَمِهِمْ قُلُوبُ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَادِي وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، وقال: ﴿وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَأْتِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من [المنسويين إلى] العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد تبع هواه والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث [به] رسوله ﷺ.

(١) البزار (٨١)، والعقيلي في الضعفاء (٣٥٢) وأبو نعيم في الحلية (٣٤٣/٢) (٢٦٨/٦ - ٢٦٩) (٢١٩/٣) والحديث حسن بطرقة.

ولهذا قال [الله تعالى] في موضع: ﴿وَلَا كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال في موضع [آخر]: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ (١) هـ. ١.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٦) ﴿وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٥٧).

(وقال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ عشرون رجلاً، أو قريب من ذلك - وهو بمكة - من النصارى، حين ظهر خبره بالحبشة، فوجدوه في المجلس، فكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أديتهم، فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله ﷻ، وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا، فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به، وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره. فلما قاموا من عنده، اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، فقالوا: خبيكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لترتادوا لهم، فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم ركباً أحق منكم - أو كما قالوا لهم -، فقالوا: (سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) (٢) ويقال: فيهم نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٦) ﴿وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٥٧) ﴿...﴾ (الآية) هـ. ١. (٣).

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٦) ﴿وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٥٧) ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٥٨) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَنَّةِ﴾ (٥٩).

(وقدم إليه بمكة طائفة من أهل الكتاب من النصارى فآمنوا به، فأذاهم المشركون فصبروا واحتملوا أذاهم، فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٦) ﴿وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٥٧) ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٥٨) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ

(٢) سيرة ابن هشام (٢/٣٦٨).

(١) الاستقامة (٢/٢٢١ - ٢٢٥).

(٣) الجواب الصحيح (٥/١٨٠ - ١٨١).

أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِئِ الْجَهْلِيَّيْنَ ﴿٥٥﴾، وروى^(١) البيهقي في كتاب «دلائل النبوة وأعلام الرسالة» فقال: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو العباس محمد بن يعقوب، أنبأنا أحمد بن عبد الجبار، أنبأنا يونس عن ابن إسحاق قال: ثم قدم على رسول الله ﷺ - عشرون رجلاً - وهو بمكة أو قريب من ذلك من النصارى حين ظهر خبره في الحبشة فوجدوه في المجلس فكلموه وسألوه ورجال من قريش في أنديةهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، فقالوا: خبيكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم. ما نعلم ركباً أحق منكم أو كما قال لهم، فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا أعمالنا ولكن أعمالكم، لا نألوا لأنفسنا إلا خيراً، ويقال - والله أعلم - إن فيهم نزلت هؤلاء الآيات: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَبْنِئِ الْجَهْلِيَّيْنَ﴾ (١. هـ^(٢)).

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

(وأنزل في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وأخرجه مسلم^(٣) من حديث أبي هريرة أيضاً، وقال فيه: قال أبو طالب: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حملة على ذلك الجزع لأقررت بها عينك. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (١. هـ^(٤)).

وقال رحمه الله: (وأما قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ مع قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فقد اتفق المسلمون على أن تلك الهداية المنفية ليست هي الهداية المثبتة له لا نزاع في هذا بين أهل السنة والقدرية وأما الهداية المثبتة فهي الدعوة والبيان وهذه يشترك فيها من يحبه ومن لا يحبه فإن عليه البلاغ، وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، وقال في آخر عمره في حجة الوداع: «اللهم هل بلغت؟» قالوا: نعم قال: «اللهم اشهد»، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، وقوله:

(٢) الجواب الصحيح (١/٢٦٦ - ٢٦٩).

(١) دلائل النبوة (٢/٧٦ - ٧٧).

(٤) منهاج السنة (٤/٣٥٢).

(٣) مسلم (٢٥).

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] فإن الهداية هداية الدلالة والإرشاد بكلامه ويعلمه وأمره ونهيهِ وترغيبه وترهيبه، وأما حصول الهدى في القلب فهذا لا يقدر عليه أحد باتفاق المسلمين سنيهم وقدرتهم، لأن أحداً لا يستطيع أن يهدي القلوب ويخلق الهدى فيها غير الله، أما أهل السنة فيقولون أن الاهتداء الذي في القلب لا يقدر عليه إلا الله، ولكن العبد يقدر على أسبابه، وهو المطلوب منه بقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو المنفي عن الرسول ﷺ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وقوله: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿أَيَسَّرَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ١. هـ^(١).

﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْمُدَىٰ مَعَكَ نُنْخَلَفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُوا إِلَيْهِ نَمُوتُ كُلِّ شَيْءٍ زَرْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥٧.

(وقال تعالى: ﴿أَوْلَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُوا إِلَيْهِ نَمُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فكانوا في الجاهلية يقتل بعضهم بعضاً خارج الحرم، فإذا دخلوا الحرم، أو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجه، وكان هذا من الآيات التي جعلها الله فيه، كما قال: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] والإسلام زاد حرمة) ١. هـ^(٢).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرِيبٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنَالَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكِنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ٥٨.

(ومثل هذا قوله: ﴿بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي بطرت نفس المعيشة) ١. هـ^(٣).

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ٥٩ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِنَاءً يَعْبُدُونَ﴾ ٦٠ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ ٦١ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٦٢.

(وفي سورة القصص قال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ٦٠ قال الذين حق عليهم القول - إلى قوله - : ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ فذكر مناداتهم لتحقيق التوحيد أولاً، ثم مناداتهم ماذا أجابوا المرسلين، وذكر تباري المعبودين من العابدين ثم قال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ٦١ - إلى قوله - مَا كَانُوا

(١) الاستغاثة (٢٢٣ - ٢٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٤٣/١٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٧٠/١٦).

يَفْتَرُونَ ﴿ فذكر هناك اعتراف المشركين بالتوحيد، وهنا اعتراف المعبودين ﴾ ا.هـ^(١).

وقال في تفسير الآية (٦٢) وما بعدها:

﴿ وَقَالَ ﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧﴾ ﴾ وقوله: ﴿ أَيْفَاكَ

إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الصفات] وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿

[الزمر: ٣] ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعَهْلَ... ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٢] قال أبو قلابة^(٢):

هي لكل مبتدع من هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكل من كان أقرب إلى الشرك كان أقرب

إلى الكذب كالرافضة الذين هم أكذب طوائف أهل الأهواء وأعظمهم شركاً) ا.هـ^(٣).

﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَأما قوله: ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ ﴾ فهذا دعاء المسألة، يكتبهم الله ويخزيهم

يوم القيامة بآرائهم، أن شركائهم لا يستجيبون لهم دعوتهم، وليس المراد عبدوهم.

وهو نظير قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴿

[الكهف: ١٥٢] ﴾ ا.هـ^(٤).

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

(وقد قال سبحانه: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ ثم قال: ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ

الْخِيَرَةُ ﴾ فأخبر أنه يخلق ما يشاء ويختار. والاختيار في لغة القرآن يراد به التفضيل

والانتقاء والاصطفاء، كما قال: ﴿ فَلَمَّا أَنلَهَا نُورِيَ يُبْمُوسَى ﴿١١﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَنَا

أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٢﴾ ﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَجْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ

الْمُهِينِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الدخان] إلى قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وَأَيْنَتْنَهُمْ

مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَكُوا مُبْتَلًى ﴿٣٣﴾ ﴾ [الدخان]، وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا

بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ وَالْحَكْمَ وَالنُّورَ ﴿١٦﴾ ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَخْتَارَ

مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيمِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ومنه في الحديث: «إن الله اختار

من الأيام يوم الجمعة، ومن الشهور شهر رمضان، واختار الليالي فاختر ليلة

القدر، واختار الساعات فاختر ساعات الصلوات» رواه ابن عساكر في كتاب

(١) الرد على الأخنائي (٢٠١ - ٢٠٢). (٢) مر الكلام عليه.

(٣) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٦٧/٩ - ٦٨).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥/١٥).

«تشریف يوم الجمعة وتعظيمه» عن كعب الأحبار) ١. هـ^(١).

﴿لَنَنوُوا بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ .

قال^(٢): فإن قارون كان يعمل الكيمياء، قلت: وهذا أيضاً باطل؛ فإنه لم يقله عالم معروف، وإنما يذكره مثل الثعلبي في تفسيره عن لا يسمى. وفي تفسير الثعلبي الغث والسمين، فإنه حاطب ليل، ولو كان مال قارون من الكيمياء لم يكن له بذلك اختصاص؛ فإن الذين عملوا الكيمياء خلق كثير لا يحصون، والله سبحانه قال: ﴿وَأَيُّنَّهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ فأخبر أنه آتاه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة، والكنوز إما أن يكون هو كنزها) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (احتج به أحمد من قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ﴾ الآية [القصص: ٧٩]، قال جابر بن عبد الله: في القرمز^(٤)، وقال: إبراهيم والحسن في ثياب حمر على لفظ أحمد، وقال مجاهد: على براذين بيض عليها سروج الأرجوان عليهم المعصفرات، وكذلك ذكر قتادة وابن زيد وغيرهما: أنه خرج وعلى دوابه وجنده الأرجوان والمعصفرات قال ابن زيد: وكان ذلك أول يوم رؤيت المعصفرات فيما كان يذكر لنا^(٥)، ومعلوم أن الله ﷻ ذكر هذا في سياق الذم له والعيب لما خرج فيه من الزينة، فعلم أن الثياب الحمر معيبة عند الله مذمومة ولا معنى لكرهاتها إلا ذلك) ١. هـ^(٦).

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿٧٧﴾ .

(وقال تعالى في حق قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ قالوا: بثياب الأرجوان. ولهذا ثبت عن عبد الله بن عمرو قال: «رأى رسول الله ﷺ على ثوبين معصفرين، فقال: أن هذه من ثياب الكفار، فلا تلبسهما. قلت: أغسلهما، قال: أحرقهما»^(٧)) ١. هـ^(٨).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى في حق قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾

- | | | | |
|-----|-----------------------------|-----|------------------------------------|
| (١) | جامع الرسائل (١/١٣٧ - ١٣٨). | (٢) | القائل هو أحد رؤوس علماء الكيمياء. |
| (٣) | مجموع الفتاوى (٢٩/٣٧٧). | (٤) | ابن جرير (١٠/١٠٨). |
| (٥) | ابن جرير (١٠/١٠٨، ١٠٩). | (٦) | شرح العمدة - الصلاة (٣٧٥). |
| (٧) | مسلم (١٦٤٧). | (٨) | مجموع الفتاوى (٢٢/١٢٧ - ١٢٨). |

قالوا: ثياب الأرجوان^(١) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال المروزي صبغت بطانة جبتي حمراء، فقال: لم صبغتها حمراء؟ قلت للرقاع التي فيها. قال: وأي شيء تبالي أن يكون فيها رقع، وقال: أول من لبس الثياب الحمر قارون وآل فرعون ثم قرأ: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ قال: في ثياب حمراء؟) ا. هـ^(٣).

﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْأَخْرَجَةُ لِذَلِكَ لَا يُرِيدُونَ عُلوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فسادًا وَالْمُنْفِقِينَ﴾ (٨٢).

(وهذا دليل على أن هذا الحرص إنما ذم لأنه يفسد الدين الذي هو الإيمان والعمل الصالح، فكان ترك هذا الحرص لصالح العمل، وهذان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٨١) هَكَ عَنِّي سَطْنِيَّةٌ ﴿٨٢﴾ [الحاقة] وهما اللذان ذكرهما الله في سورة القصص حيث افتتحها بأمر فرعون، وذكر علوه في الأرض، وهو الرياسة والشرف والسلطان، ثم ذكر في آخرها قارون وما أوتيه من الأموال، وذكر عاقبة سلطان هذا وعاقبة مال هذا، ثم قال: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْأَخْرَجَةُ لِذَلِكَ لَا يُرِيدُونَ عُلوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فسادًا﴾ كحال فرعون وقارون؛ فإن جمع الأموال من غير إنفاقها في مواضعها المأمور بها وأخذها من غير وجهها هو من نوع الفساد.

وكذلك الإنسان إذا اختار السلطان لنفسه بغير العدل والحق لا يحصل إلا بفساد وظلم، وأما نفس وجود السلطان والمال الذي يبتغي به وجه الله والقيام بالحق والدار الآخرة، ويستعان به على طاعة الله، ولا يفتر القلب عن محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله، كما كان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر، ولا يصد عنه ذكر الله، فهذا من أكبر نعم الله تعالى على عبده إذا كان كذلك) ا. هـ^(٤).

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤).

قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ الآية ذكر أن المشهور عن السلف أن الحسنه «لا إله إلا الله» وأن السيئة، الشرك ثم ذكر عن السدي قال: ذلك عند الحساب ألقى

(١) ذكره ابن جرير عن قتادة (١١٥/٢٠). (٢) الاستقامة (٤٢٧/١).

(٣) شرح العمدة - الصلاة (٣٧٠ - ٣٧١) ويراجع كتاب الورع للمروزي (ص ١٧٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١٤٣/٢٠).

بدل كل حسنة عشر سيئات، فإن بقيت سيئة واحدة فجزاؤه النار إلا أن يغفر الله له. قلت تضعيف الحسنة إلى عشر وإلى سبعمئة ثابت في الصحاح، وأن السيئة مثلها، وأن الهم بالحسنة: حسنة، والهم بالسيئة لا يكتب، فأهل القول الأول قالوه لأن أعمال البر داخله في التوحيد فإنه عبادة الله بما أمر به، كما قال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الآية [البقرة: ١١٢] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَىٰ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً...﴾ الآية [إبراهيم: ٢٤] فالكلمة الطيبة هي التوحيد، وهي كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل وقت، وكذلك السيئة هي العمل لغير الله، وهذا هو الشرك، فإن الإنسان حارث همام لا بد له من عمل، ولا بد له من مقصود يعمل لأجله، وإن عمل لله ولغيره فهو شرك، والذنوب من الشرك، فإنها طاعة للشيطان، قال: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾... الآية [إبراهيم: ٢٢] و﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْتِي ۖ ءَادَمَ...﴾ الآية [يس: ٦٠] وفي الحديث «وشر الشيطان وشركه» لكن إذا كان موحداً وفعل بعض الذنوب نقص توحيده كنا قال: «لا يزنني الزاني» إلخ، ومن ليس بمؤمن فليس بمخلص، وفي الحديث «تعس عبد الدينار» وحديث أبي بكر «قل: اللهم أني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم» إله لكن لم يعدل بالله غيره فيحبه مثل حب الله بل الله أحب إليه، وأخوف عنده، وأرجأ من كل مخلوق، فقد خلص من الشرك الأكبر) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ فذكر بإسناده عن السدي: من جاء بالسيئة فجزاؤها سيئة مثلها من جميع الذنوب، وذلك عند الحساب إذا حوسب ألقى بدل كل حسنة عشر سيئات، فبقيت حسنة [واحدة] أضعفت له ودخل بها الجنة، وإن كانت سيئاته عن المقاصة إذا ألقى عشرأ بحسنة أكثر من حسناته فزادت سيئة واحدة كان جزاؤه النار إلا أن يغفر الله [سبحانه] [له] [٢] ١. هـ^(٢) ٣.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٨﴾

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال طائفة من السلف: كل عمل

(١) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٩/٦٧ - ٦٨) والأحاديث المذكورة، ستأتي إن شاء الله.

(٢) ابن أبي حاتم (سورة القصص) (رقم ٦٤٥).

(٣) تفسير آيات أشكلت (١/٣٤٣ - ٣٤٤).

باطل إلا ما أريد به وجهه، وقد قال سبحانه: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٤٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴿.

و«الإله» هو المألوه: أي المستحق لأن يؤله أي يعبد، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده، وكل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل، وفعال بمعنى مفعول مثل لفظ الركاب والحمال؛ بمعنى المركوب والمحمول. وكان الصحابة يرتجزون في حضر الخندق يقولون:

هذا الحمال لا حمال خبير هذا أبر ربنا وأطهر

وإذا قيل: هذا هو الإمام فهو الذي يستحق أن يؤتم به، كما قال تعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] فعنده بالإمامة لا ينال الظالم، فالظالم لا يجوز أن يؤتم به في ظلمه، ولا يركن إليه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَسْكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣] فمن ائتم بمن لا يصلح للإمامة فقد ظلم نفسه، فكيف بمن جعل مع الله إلهاً آخر، وعبد من لا يصلح للعبادة، والله تعالى: ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقد غلط طائفة من أهل الكلام فظنوا أن ﴿إِلَهَ﴾ بمعنى الفاعل، وجعلوا الإلهية هي القدرة والربوبية، فالإله هو القادر وهو الرب، وجعلوا العباد مألوهين كما أنهم مربوبون) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فكل معبود سوى الله فهو باطل وضال يضل عابده، ويضل عنه، ويذهب عنه، وهالك عنه، إلا وجه الله، فعبادة ما سواه فاسدة، وباطل، وضلال، والمعبود سواه فاسد.

[قال مجاهد في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال: «إلا ما أريد به وجهه»، وقال سفيان الثوري: «إلا ما ابتغى به وجهه»^(٢)، كما يقال: ما يبقى إلا الله والعمل الصالح. وفي الحديث: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم ومتعلم»، فأى شيء قصده العبد وتوجه إليه بقلبه، أو رجاءه، أو خافه، أو أحبه، أو توكل عليه، أو والاه، فإن ذلك هالك مهلك، ولا ينفعه إلا ما كان لله) ١. هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٢٠٢/١٣ - ٢٠٣).

(٢) ابن أبي حاتم سورة القصص (رقم ٦٧٧) هذا أثر مجاهد أما أثر سفيان ففي رقم (٦٧٨) وحكاه البخاري في صحيحه مقررأ.

(٣) تفسير آيات أشكلت (٤١١/١ - ٤١٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿فَلَا تَنْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣] أو ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢] فإنه ﷺ لم يكن مشركاً قط، لا سيما بعد النبوة فالأمة متفقة على أنه معصوم من الشرك بعد النبوة وقد نهى عن ذلك بعد النبوة، ونظائره كثيرة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وإذا كان المقصود هنا الكلام في تفسير الآية فنقول: تفسير الآية بما هو مأثور ومنقول عن من قاله من السلف والمفسرين من أن المعنى: كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه فإنه ذكر ذلك بعد نهيه عن الإشراك وأن يدعو معه إلهاً آخر، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقتضي أظهر الوجهين: وهو أن كل شيء هالك إلا ما كان لوجهه من الإيمان والأعمال وغيرهما، روي عن أبي العالية^(٢) قال: إلا ما أريد به وجهه، وعن جعفر الصادق: إلا دينه. ومعناها واحد. وقد روي عن عبادة بن الصامت قال: يجاء بالدينا يوم القيامة فيقال: ميزوا ما كان لله منها قال: فيماز ما كان لله منها، ثم يؤمر بسائرهما فيلقى في النار، وقد روي عن علي ما يعم: ففي تفسير الثعلبي، عن صالح بن محمد، عن سليمان بن عمرو عن سالم الأبطس، عن الحسن، وعن سعيد بن جبير، عن علي بن أبي طالب: أن رجلاً سأله فلم يعطه شيئاً فقال: أسألك بوجه الله فقال له علي: كذبت، ليس بوجه الله سألتني، إنما وجه الله الحق، ألا ترى إلى قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ يعني الحق ولكن سألتني بوجهك الخلق، وعن مجاهد، إلا هو، وعن الضحاك^(٣): كل شيء هالك إلا الله والجنة والنار والعرش. وعن ابن كيسان: إلا ملكه^(٤) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ كما قيل في تفسيرها كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه) ١. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (وعلى هذين فقد فسر قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إلا ما أريد به وجهه، وكل شيء معدوم إلا من جهته، هذا على قول، وأما القول الآخر وهو المأثور عن طائفة من السلف وبه فسره الإمام أحمد رحمه الله تعالى في رده على الجهمية والزنادقة قال أحمد: وأما قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وذلك أن الله

(١) منهاج السنة (٤٥٧/٨).

(٢) ذكر ذلك صاحب الدر (١٤٠/٥) وعزاه لعبد بن حميد ولكنه عن ابن عباس.

(٣) زاد المسير (٢٥٢/٦). (٤) ذكره البغوي بقوله وقيل (٤٥٩/٣).

(٥) بيان تلبس الجهمية (٥٨٠/١ - ٥٨١). (٦) مجموع الفتاوى (١٦٦/٨).

أَنْزَلَ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:]، فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأنزل الله تعالى أنه يخبر عن أهل السموات والأرض أنكم تموتون فقال: «كل شيء من الحيوان هالك - يعني ميتاً - إلا وجهه، فإنه حي لا يموت، فلما ذكر ذلك أيقنوا عند ذلك بالموت» ذكر ذلك في رده على الجهمية قولهم أن الجنة والنار تفتيان) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قد تكلم طائفة من المتكلمة، والمتفلسفة، والمتصوفة: في قيام الممكنات والمحدثات، بالواجب القديم؛ وهذا المعنى حق؛ فإن الله رب كل شيء، ومليكه؛ لكن يستشهدون على ذلك بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ويقولون إن معنى الآية: أن كل ممكن هو باعتبار ذاته هالك، أو هو عدم محض، ونفي صرف، وإنما له الوجود من جهة ربه، فهو هالك باعتبار ذاته، موجود بوجه ربه، أي من جهته هو موجود.

ثم منهم من قد يخرج منها إلى مذهب الجهمية، الاتحادية، والحلولية؛ فيقول: أن ذلك الوجه هو وجود الكائنات، ووجه الله هو وجوده، فيكون وجوده وجود الكائنات، لا يميز بين الوجود الواجب، والوجود الممكن - كما هو قول ابن عربي، وابن سبعين ونحوهما - وهو لازم لمن جعل وجوده وجوداً مطلقاً، لا يتميز بحقيقة تخصه سواء يجعله وجوداً مطلقاً بشرط الإطلاق - كما يزعم ابن سينا ونحوه من المتفلسفة أو جعله وجوداً مطلقاً لا بشرط - كما يقوله الاتحادية.

وهم يسلمون من القواعد العقلية - مما هو يعلم بضرورة العقل ما يوجب أن يكون الموجود - بشرط الإطلاق - إنما وجوده في الأذهان لا في الأعيان كالحيوان المطلق بشرط الإطلاق والإنسان المطلق بشرط الإطلاق ونحو ذلك. وإن المطلق لا بشرط، ليس له حقيقة، غير الوجود العيني، والذهني، ليس في الأعيان الموجودة وجود مطلق، سوى أعيانها كما ليس في هذا الإنسان وهذا الإنسان إنسان مطلق وراء هذا الإنسان؛ فيكون وجود الرب على الأول ذهني وعلى الثاني نفس وجود المخلوقات.

وقول الجهمية من المتقدمين، والمتأخرين؛ لا يخرج عن هذين القولين، وهو حقيقة التعطيل، لكن هم يثبتونه أيضاً، فيجمعون بين النفي والإثبات. فييقنون في

الحيرة؛ ولهذا يجعلون الحيرة منتهى المعرفة، ويروون عن النبي ﷺ حديثاً مكذوباً عليه: «أعلمكم بالله أشدكم حيرة» وأنه قال: «اللهم زدني فيك تحيراً» ويجمعون بين التقيضين ملتزمين لذلك.

وهذا قول القرامطة الباطنية والاتحادية، وهو لازم لقول الفلاسفة والمعتزلة وإن لم يصرح هؤلاء بالتزامه؛ بخلاف الباطنية، والاتحادية، من المتصوفة فإنهم يصرحون بالتزامه، ويذكرون ذلك عن الحلّاج.

والمقصود هنا أن يقال: أما كون وجود الخالق هو وجود المخلوق؛ فهذا كفر صريح باتفاق أهل الإيمان، وهو من أبطل الباطل في بديهية عقل كل إنسان؛ وإن كان متحلوه يزعمون أنه غاية التحقيق والعرفان، وهذا مبسوط في غير هذا الموضوع.

وأما كون المخلوق لا وجود له، إلا من الخالق سبحانه فهذا حق ثم جميع الكائنات، هو خالقها، وربها، ومليكتها، لا يكون شيء إلا بقدرته، ومشيئته وخلقها، هو خالق كل شيء ﷻ.

لكن الكلام هنا في تفسير الآية بهذا، فإن المعاني: تنقسم إلى حق وباطل.
فالباطل: لا يجوز أن يفسر به كلام الله.

والحق: إن كان هو الذي دل عليه القرآن فسر به، وإلا فليس كل معنى صحيح يفسر به اللفظ لمجرد المناسبة، كالمناسبة التي [بين] الرؤيا والتعبير؛ وإن كانت خارجة عن وجوه دلالة اللفظ، كما تفعله القرامطة والباطنية، إذ دلالة اللفظ على المعنى سمعية فلا بد أن يكون اللفظ مستعملاً في ذلك المعنى بحيث قد دل على المعنى به، لا يكفي في ذلك، بمجرد أن يصلح وضع اللفظ لذلك المعنى، إذ الألفاظ التي يصلح وضعها للمعاني ولم توضع لها: لا يحصي عددها إلا الله. وهذا عند من يعتبر المناسبة بين اللفظ والمعنى كقول طائفة من أهل الكلام والبيان، وأما عند من لا يعتبر المناسبة فكل لفظ يصلح وضعه لكل معنى؛ لا سيما إذا علم أن اللفظ موضوع لمعنى هو مستعمل فيه؛ فحملة على غير ذلك لمجرد المناسبة كذب على الله.

ثم إن كان مخالفاً لما علم من الشريعة، فهو دأب القرامطة، وإن لم يكن مخالفاً فهو حال كثير من جهال الوعاظ، والمتصوفة الذين يقولون بإشارات لا يدل اللفظ عليها نصاً ولا قياساً، وأما أرباب الإشارات الذين يثبتون ما دل اللفظ عليه، ويجعلون المعنى المشار إليه، مفهوماً من جهة القياس والاعتبار فحالهم كحال الفقهاء العالمين بالقياس

والاعتبار، وهذا حق إذا كان قياساً صحيحاً ولا فاسداً، واعتباراً مستقيماً، لا منحرفاً. وإذا كان المقصود هنا الكلام في تفسير الآية فنقول: تفسير الآية بما هو مأثور ومنقول عن من قاله من السلف، والمفسرين، من أن المعنى كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه، هو أحسن من ذلك التفسير المحدث؛ بل لا يجوز تفسير الآية بذلك التفسير المحدث، وهذا يبين بوجوه بعضها يشير إلى الرجحان، وبعضها يشير إلى البطلان.

الأول: أنه لم يقل كل شيء هالك إلا من جهته، إلا من وجهه، ولكن قال إلا وجهه. وهذا يقتضي أن ثم أشياء تهلك إلا وجهه. فإن أريد بوجهه وجوده: اقتضى أن كل ما سوى وجوده هالك، فيقتضى أن تكون المخلوقات هالكة. وليس الأمر كذلك. وهو أيضاً على قول الاتحادية؛ فإنه عندهم ما ثم إلا وجود واحد فلا يصح أن يقال كلما سوى وجوده هالك، إذ ما ثم شيء يخبر عنه بأنه سوى وجوده، إذ أصل مذهبهم نفي السوي، والغير في نفس الأمر.

وهذا يتم بالوجه الثاني: وهو أنه إذا قيل المراد بالهالك الممكن الذي لا وجود له من جهته فيكون المعنى كل شيء ليس وجوده من نفسه إلا هو. قيل: استعمال لفظ الهالك في الشيء الموجود المخلوق لأجل أن وجوده من ربه لا من نفسه: لا يعرف في اللغة لا حقيقة ولا مجازاً.

والقرآن قد فرق في اسم الهلاك بين شيء وشيء فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَمْراً هَآك لَيْسَ لَكَ وَدّاً﴾ [النساء: ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [مريم: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيَتِهَا﴾ [الإسراء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَسْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [٥٨] قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ [النمل]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقالت الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [١٦] ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ [المرسلات].

فهذه الآيات: تقتضي أن الهلاك استحالة، وفساد في الشيء الموجود، كما سنبينه

لا أنه يعني أنه ليس وجوده من نفسه، إذ جميع المخلوقات تشترك في هذا.

الوجه الثالث: أن يقال على هذا التقدير يكون المعنى أن كل ما سواه ممكن قابل للعدم، ليس وجوده من نفسه، وهذا المعنى ليس هو الذي يقصدونه. وإنما مقصودهم أن كلما سواه فوجوده منه، وبين المعنيين فرق واضح، فإن الخبر عن الشيء بأنه ممكن قابل للعدم، ليس وجوده من نفسه غير الخبر عنه، بأنه موجود وأن وجوده من الله.

الوجه الرابع: أن يقال إذا كان المراد أن كلما سواه ممكن، والضمير عائد إلى واجب الوجود - إلى الله الذي خلق الكائنات - كان هذا من باب إيضاح الواضح، فإنه من المعلوم أن كلما سوى واجب الوجود: فهو ممكن، وأن كلما هو مخلوق له فهو ممكن.

الوجه الخامس: أن يقال: اسم الوجه في الكتاب والسنة، إنما يذكر في سياق العبادة له والعمل له، والتوجه إليه، فهو مذكور في تقرير ألوهيته، وعبادته وطاعته لا في تقرير وحدانية كونه خالقاً ورباً، وذلك المعنى هو العلة الغائية، وهذا هو العلة الفاعلية، والعلة الغائية، هي المقصودة التي هي أعلى وأشرف بل هي علة فاعلية للعلة الفاعلية، ولهذا: قدمت في مثل قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاطحة] وفي مثل قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا إِتْقَانًا وَبِهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَسَوْفَ يُرِضُنَّ ﴿١١﴾﴾ [الليل]، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَىٰ حِدْدٍ، وَسَكِينًا مَبْنِيًّا وَأَسْبِرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لِرِجْوَةِ اللَّهِ لَا تَرْبُدْ، مَسْكًا جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

وإذا كان كذلك كان حمل اسم الوجه في هذه الآية: على ما يدل عليه في سائر الآيات أولى من حمله على ما يدل عليه لفظ الوجه في شيء من الكتاب والسنة، بل هذا هو الواجب دون ذلك؛ لأن هذا استعمال للفظ فيما لم يرد به الكتاب، والكتاب قد ورد بغيره حيث ذكر.

الوجه السادس: أن اسم الهلاك يراد به الفساد، وخروجه عما يقصد به ويراد، وهذا مناسب لما لا يكون لله، فإنه فاسد لا ينتفع به في الحقيقة بل هو خارج عما يجب قصده وإرادته، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتَهَوَّنَ عَنْهُ وَيَتَنَوَّنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام]، أخبر أنهم يهلكون أنفسهم بنهيهم عن الرسول، ونأيهم عنه ومعلوم أن من نأى عن

اتباع الرسول، ونهى غيره عنه - وهو الكافر - فإن هلاكه بكفره هو حصول العذاب المكروه له دون النعيم المقصود، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَمْرًا هَلَكًا﴾ [النساء: ١٧٦] هـ (١).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ بعد قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ عَابِتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَيْبِكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْمُفْكُرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴿ فإن ذكره ذلك بعد نهيه عن الإشراك، وأن يدعو معه إلهاً آخر، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقتضي أظهر الوجهين، وهو أن كل شيء هالك إلا ما كان لوجهه من الأعيان والأعمال وغيرهما..

روي عن أبي العالية قال: «إلا ما أريد به وجهه» وعن جعفر الصادق: «إلا دينه» ومعناها واحد.

وقد روي عن عبادة بن الصامت قال: «يجاء بالدينا يوم القيامة فيقال: ميزوا ما كان لله منها، قال: فيما ما كان لله منها، ثم يؤمر بسائرهما فيلقى في النار».

وقد روى عن علي ما يعم، ففي تفسير الثعلبي عن صالح بن محمد عن سليمان بن عمرو عن سالم الأفسطس عن الحسن وسعيد بن جبير عن علي بن أبي طالب: «أن رجلاً سأله، فلم يعطه شيئاً. فقال: أسألك بوجه الله فقال له علي: كذبت ليس بوجه الله سألتني، إنما وجه الله الحق، ألا ترى إلى قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ يعني الحق - ولكن سألتني بوجهك الخلق» وعن مجاهد: «إلا هو» وعن الضحاك: «كل شيء هالك إلا الله والجنة والنار، والعرش» وعن ابن كيسان: «إلا ملكه».

وذلك أن لفظ «الوجه» يشبه أن يكون في الأصل مثل الجهة، كالوعد والعدة، والوزن والزنة، والوصل والصلة، والوسم والسمة، لكن فعله حذف فإؤها وهي أخص من الفعل، كالأكل والإكله، فيكون مصدراً بمعنى التوجه والقصد، كما قال الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل (٢)

ثم أنه يسمى به المفعول، وهو المقصود المتوجه إليه، كما في اسم الخلق، ودرهم ضرب الأمير ونظائره، ويسمى به الفاعل المتوجه، كوجه الحيوان، يقال: أردت هذا الوجه، أي هذه الجهة والناحية، ومنه قوله: ﴿وَاللَّهُ الشَّرِيقُ وَالْعَرَبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَسَمَّ وَجْهَهُ﴾

(١) مجموع الفتاوى (٢/٢٥ - ٣١).

(٢) ذكره سيويه وقد نقله عنه الفراء (٢/٢٨٩) وهي في الأبيات الخمسين التي لا يعرف قائلها.

اللَّهُ ﴿البقرة: ١١٥﴾ أي قبله الله ووجهه الله، هكذا قال جمهور السلف وإن عدها بعضهم في الصفات، وقد يدل على الصفة بوجه فيه نظر، وذلك أن معنى قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا﴾ أي تتولوا، أي تتوجهوا وتستقبلوا يتعدى إلى مفعول واحد، بمعنى يتولاها، ونظير ولى وتولى: قدم وتقدم، وبين وتبين، كما قال: ﴿لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]، وقال: ﴿يَفْجِشْنَ مَبِينَةً﴾ [النساء: ١٩] وهو الوجه الذي لله، والذي أمر الله أن نستقبل. فإن قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يدل على أن وجه الله هناك من المشرق والمغرب الذي هو لله، كما في آية القبلة: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدْتُمُ عَنْ قِبَلِهِمُ آلِي كَاوُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة: ١٤٨]. فلما سألوا عن سبب التولي عن القبلة أخبر أن له المشرق والمغرب.

وأما لفظ «وجهة» مثل قوله: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيًا﴾ [البقرة: ١٤٨] فقد يظن أيضاً أنه مصدر كالوجه، كالعودة مع الوعد، وإنها تركت صحيحة فلم تحذف فاؤها، وليس كذلك.

لأنه لو كان مصدراً لحذفت واوه، وهو الجهة، وكان يقال: ولكل جهة أو وجه، وإنما الفعلة هنا بمعنى المفعول، كالقبلة والبدعة، والذبحة ونحو ذلك.

فالقبلة: ما استقبل والوجهة: ما توجه إليه، والبدعة: ما ابتدع، والذبحة: ما ذبح، ولهذا صح ولم تحذف فاؤه؛ لأن الحذف إنما هو من المصدر لا من بقية الأسماء، كالصفات وما يشبهها، مثل أسماء الأمكنة والأزمنة، والآلات والمفاعيل وغير ذلك.

وأما قول بعض الفقهاء: إن الوجه مشتق من المواجهة: فلا دليل عليه، بل قد عارضه من قال: هو مشتق من الوجاهة؛ وكلاهما ضعيف، وإنما المواجهة مشتق من الوجه، كما أن المشاهدة مشتق من الشفة، والمناظرة - بمعنى المقابلة - مشتقة من النظر، والمعانية من العين.

أما اشتقاق الوجه الذي هو المتوجه: من الوجه الذي هو التوجه؛ فهذا أشبه؛ لأن توجهه: هو فعله المختص به الذي لا يفتقر فيه إلى غيره، بخلاف المواجهة فإنها تستدعي اثنين، والإنسان هو حارث همام، وهمه هو توجهه، وإنما يتوجه بهذا العضو إلى أي شيء أرادته وتوجه إليه.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ

رَبِّهِ ﴿البقرة: ١١٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقول الخليل ونبينا والمؤمنين في الصلاة: ﴿وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿١٦﴾﴾ الآية [الأعراف]، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ﴾ [الروم: ٤٣]، وقوله: ﴿وَأَنَّ أَوَّلَ وَجْهِكُمْ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾﴾ [يونس] وقول النبي ﷺ للذي علمه دعاء النوم: «اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك»^(١)

وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

أسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا

فهذه ثلاثة ألفاظ: أسلم وجهه، ووجه وجهه، وأقام وجهه.

قال قدماء المفسرين في قوله تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ أي أخلص في دينه وعمله لله، وقال بعضهم: فوض أمره إلى الله، وقد قيل: خضع وتواضع لله.

وهذا الثالث يليق بالإسلام اللازم، فإن وجهه هو قصده، وتوجهه الذي هو أصل عمله، وهو عمل قلبه الذي هو ملك بدنه، فإذا توجه قلبه تبعه أيضاً توجه وجهه، فاستتبع القصد الذي هو الأصل من القلب، الذي هو الأصل للعمل، الذي هو تبع من الوجه وسائر البدن الذي هو تبع، فيكون قد أسلم عمله الباطن والظاهر، وأعضاءه الباطنة والظاهرة لله؛ أي سلمه له، وأخلصه لله، كما في الإسلام اللازم، وهو قوله: ﴿أَسْلَمْتُ رَبِّي الْعَلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله عن بلقيس: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقوله عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، أي متقادة مخلصه.

وكذلك توجيه الوجه للذي فطر السموات والأرض: توجيه قصده، وإرادته وعبادته، وذلك يستتبع الوجه وغيره، وإلا فمجرد توجيه العضو من غير عمل القلب لا يفيد شيئاً.

قال الزجاج^(٢) في قوله: ﴿وَجْهَتْ وَجْهِي﴾ [الأنعام: ٧٩] أي جعلت قصدي بعبادتي

وتوحيدى لله رب العالمين، وكذلك قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٩]، فإن الوجه التي هي المقاصد، والنيات التي هي عمل القلب، وهي أصل الدين: تارة تقام وتارة تزاغ كما قال النبي ﷺ: «ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه» لإقامة الوجه ضد إزاغته وإمائه، وهو الصراط المستقيم.

فإذا قوم قصده وسدده ولم ينحرف يمينا ولا شمالاً كان قصده لله رب العالمين، كما قال: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ [النور: ٣٥]. وكذلك قال الربيع بن أنس: اجعلوا سجودكم خالصاً لله، فلا تسجدوا إلا لله.

وروي عن الضحاك وابن قتيبة: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه، ولا يقولن أحدكم: أصلي في مسجدي كأنه أراد صلوا لله عند كل مسجد، لا تخصوا مسجداً دون مسجد.

وعلى هذين القولين يتوجه ما ذكرناه.

وروي عن مجاهد والسدي وابن زيد: توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة^(١).

وعلى هذا: إقامة الوجه استقبال الكعبة وهذا فيه نظر؛ فإن هذه الآية مكية، والكعبة إنما فرضت في المدينة، إلا أن يراد بإقامة الوجه الاستقبال المأمور به.

وإنما وقع النزاع هنا لقوله تعالى: ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩] بخلاف قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ [الروم: ٣٠]، فقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي دينه وإرادته وعبادته، والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى، وهو قولهم: ما أريد به وجهه، وهو نظير قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فكل معبود دون الله باطل، وكل ما لا يكون لوجهه فهو هالك فاسد باطل، وسياق الآية يدل عليه وفيه المعنى الآخر.

فإن الإلهية تستلزم الربوبية؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] وفي هذا قول آخر، يقوله كثير من أهل العلم: أن الوجه في مثل قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ [البقرة: ١١٢]، و﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس: ١٠٥]، و﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، هو

الوجه الظاهر، كما أنه كذلك بالاتفاق في قوله: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] وفي قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] وفي قوله: ﴿فَاعْبَسُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

وقد جاء الوجه في صفات الله في مواضع من الكتاب والسنة، ليس هذا موضعها.

قالوا: لكن الوجه إذا وجه: تبعه سائر الإنسان، وإذا أسلم، فقد أسلم سائر الإنسان، وإذا أقيم فقد أقيم سائرته؛ لأنه هو المتوجه أولاً من الأعضاء الظاهرة للقاصد الطالب؛ ولهذا يذكر كثيراً على وجه الاستلزام لسائر صاحبه، ويعبر به عنه، لكن هل هذا من باب الحقيقة العرفية التي تقلب الاسم من الخصوص إلى العموم، أو الحقيقة اللغوية باقية، وهو من باب الدلالة اللزومية؟ فيه قولان.

وكذلك في سائر الأعضاء، حتى لو قال لعبده: يدك، أو رجلك حر، أو قال لزوجته: يدك أو رجلك طالق إن أعطيتني ألفاً، ثم قطع العضو قبل الإعطاء، فمن قال: إن اللفظ عبارة عن الجميع أوقع الطلاق والعتق، ومن قال: إن الاسم للعضو فقط، لم يسر العتق عنده إلى سائر الجملة؛ لعدم تبعيضه. وقال: إنه لا يقع شيء في هذه الصورة.

وإلى هذا الأصل يعود معنى قول من قال: كل شيء هالك إلا وجهه، كما قد قيل في قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن]. فإن بقاء وجهه المذوى بالجلال والإكرام: هو بقاء ذاته (١) هـ.

سورة العنكبوت

في معنى «الفتنة» قال:

﴿ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢﴾ ﴾ .

(وقال تعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ، والفتنة هي الامتحان والاختبار، كما قال موسى ﷺ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ...﴾ [الأعراف:

١٥٥] أي امتحانك واختبارك، تضل بها من خالف الرسل، وتهدي بها من اتبعهم.

والفتنة للإنسان كفتنة الذهب إذا أدخل كبر الامتحان، فإنها تميز جيده من رديئه؛ فالحق كالذهب الخالص، كلما امتحن ازداد جودة، والباطل كالمغشوش المضيء، إذا امتحن ظهر فساده) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢﴾ ﴾ فبين أنه لا بد أن يفتن الناس أي يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم. يقال: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتمييزه مما اختلط به ومنه قول موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ...﴾ [الأعراف: ١٥٥] ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. فبين ﷺ: أنه أرسل رسله. والناس رجلان: رجل يقول: أنا مؤمن به مطيعه؛ فهذا لا بد أن يمتحن حتى يعلم صدقه من كذبه. ورجل مقيم على المعصية؛ فهذا قد عمل السيئات فلا يظن أن يسبقونا بل لا بد

(١) الجواب الصحيح (١/٨٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/١٨٢).

أن نأخذهم. وما لأحد من هذين القسامين. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝﴾ إلى قوله: ﴿لَيْتَسَ الْمَوْلَىٰ لِنِسِّ الْعَشِيرِ﴾ [الحج: ٨ - ١٣].

فبين سبحانه حال من يجادل في الدين بلا علم؛ والعلم: هو ما بعث الله به رسوله ﷺ وهو: السلطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر: ٥٦]؛ فمن تكلم في الدين بغير ما بعث الله به رسوله ﷺ كان متكلماً بغير علم، ومن تولاه الشيطان فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير، ومن انقاد لدين الله فقد عبد الله باليقين^(١)، بل إن أصابه ما يهواه استمر، وإن أصابه ما يخالف هواه رجع، وقد عبد الله على حرف، و«الحرف» هو: الجانب، كحرف الرغيف وحرف الجبل ليس مستقراً بإثبات، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ في الدنيا ﴿أَطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ﴾ أي محنة امتحن بها: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾، وحرف الجبل ليس مستقراً بالثبات، معناه: خسر الدنيا بما امتحن به وخسر الآخرة برجوعه عن الدين ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ الآية [الحج: ١١ - ١٣]، أي يدعو المخلوقين؛ يخافهم ويرجوهم، وهم لا يملكون له ضراً ولا نفعاً، بل ضرهم أقرب من نفعهم؛ وإن كان سبب نزولها في شخص معين أسلم وكان مشركاً فحكمها عام في كل من تناوله لفظها ومعناها إلى يوم القيامة) ا.هـ^(٢).

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ۝

(وكذلك إثبات القدرة على الخلق كقوله: ﴿وَمَا أُنشِرُ بِمُعْجِزَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ۝ والمراد التخويف بتوابع السيئات ولوازمها من العقوبة والانتقام.

وهكذا كثيراً ما يصف الرب نفسه بالعلم، وبالأعمال: تحذيراً، وتخويفاً، وترغيباً للنفوس في الخير) ا.هـ^(٣).

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ۝

(١) كذا في الأصل، ولعله حصل سقط أو إقحام.

(٢) مجموع الفتاوى (٤٠/٢٨). (٣) مجموع الفتاوى (٢٣٢/٥)، (١٢٧/٥).

(وجزاؤه على الطاعة والشكر وعلى المعصية والكفر لا يقدر أحد على مثله. فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق في معصية الخالق، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية. وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] ا.هـ (١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٣).

(ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٣) وَيَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّ لَنَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٤) فأخبر أن أئمة الضلال لا يحملون من خطايا الأتباع شيئاً، وأخبر أنهم يحملون أثقالهم، وهي أوزار الأتباع، من غير أن ينقص من أوزار الأتباع شيء؛ لأن إرادتهم كانت جازمة بذلك، وفعلوا مقدورهم، فصار لهم جزاء كل عامل؛ لأن الجزاء على العمل يستحق مع الإرادة الجازمة، وفعل المقدور منه) ا.هـ (٢).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤).

(فإذا وصل بالكلام ما يغير معناه كالشرط والاستثناء ونحوهما من التخصيصات المتصلة كقوله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كان هذا المجموع دالاً على تسعمائة وخمسين سنة بطريق الحقيقة عند جماهير الناس) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (فإن ألفاظ العدد نصوص مع جواز ورود الاستثناء عليها، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾) ا.هـ (٤).

﴿وَإِذْ هَبَسَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٥).

(وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ هَبَسَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٥) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾. فأخبر أنهم يخلقون إفكاً قبل النهي) ا.هـ (٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٧٢٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٣١/١١٣).

(١) مجموع الفتاوى (٨/٢٢٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/٢٧٧).

(٥) مجموع الفتاوى (١١/٦٨١).

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

(ومنه قول الخليل: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ ولم يقل: فابتغوا الرزق عند الله؛ لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر؛ كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله) ا. هـ (١).

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

(قال الخليل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿ أَتَلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَأَ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّكَ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

(ثم قد يقرن بالتلاوة غيرها، كقوله: ﴿أَتَلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَأَ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّكَ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ . قال أحمد بن حنبل وغيره: تلاوة الكتاب: العمل بطاعة الله كلها) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله في بيان ما انفردت به الصلاة على سائر الأعمال: (أن الله تعالى قال لنبيه: ﴿أَتَلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وتلاوة الكتاب اتباعه، والعمل بما فيه من جميع شرائع الدين، ثم قال: ﴿وَأَقْرَأَ الصَّلَاةَ﴾ فخصها بالذكر تمييزاً لها، فسبحانه خصها بالأمر بعد دخولها في عموم الأمور به) ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (فإن الصلاة، كما ذكر الله تعالى: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وهذا أمر مجرب محسوس: يجد الإنسان من نفسه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ويجد أهل هذا السماع أن نفوسهم تميل إلى الفحشاء والمنكر، ولهذا يتعاطى كل أحد من الفاحشة، حتى تعاطى كثير من المتصوفة صبغة الأحداث ومشاهدتهم) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (فإذا قال: ﴿إِنَّكَ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وقال: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] فخص بعض أنواع المنكر بالذكر وعطف أحدهما على الآخرة صارت دلالة اللفظ عليه نصاً مقصوداً بطريق المطابقة بعد

(٢) مجموع الفتاوى (١٦٨/٧).

(٤) الاستقامة (٣١٨/١ - ٣١٩).

(١) مجموع الفتاوى (١٨٣/١٠).

(٣) شرح العمدة - الصلاة (٨٨).

أن كانت بطريق العموم والتضمن سواء قيل أنه داخل في اللفظ العام أيضاً فيكون مذكوراً مرتين أو قيل أنه باقترانه بالاسم العام تبين أنه لم يدخل في الاسم العام لتغير الدلالة بالإفراد والتجرد وبالاقتراق والاجتماع كما قدمنا وهكذا اسم الإيمان فإنه تارة يذكر مفرداً مجرداً لا يقرب بالعمل الواجب فيدخل فيه العمل الواجب تضمناً ولزوماً وتارة يقرب بالعمل فيكون العمل حينئذ مذكوراً بالمطابقة والنص) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فعطف المنكر على الفحشاء، ودخل في المنكر هنا البغي) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، فإن الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع المكروه، فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصوده لذاتها. وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصوده لغيره على سبيل التبع) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (مثل ذلك قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فبين الوجهين جميعاً، فقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ بيان لما تتضمنه من دفع المفسد والمضار، فإن النفس إذا قام بها ذكر الله ودعاؤه - لا سيما على وجه الخصوص - أكسبها ذلك صبغة سالحة تنهاها عن الفحشاء والمنكر، كما يحسه الإنسان من نفسه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَسْتَمِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] فإن القلب يحصل له من الفرح والسرور وقرة العين ما يغنيه عن اللذات المكروهة، ويحصل له من الخشية والتعظيم لله والمهابة. وكل واحد من رجائه وخشيته ومحبتة ناه ينهاه.

وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بيان لما فيها من المنفعة والمصلحة أي ذكر الله الذي فيها أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإن هذا هو المقصود لنفسه، كما قال: ﴿إِذَا تَوَدَّى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، والأول تابع، فهذه المنفعة والمصلحة أعظم من دفع تلك المفسدة؛ ولهذا كان المؤمن الفاسق يؤول أمره إلى الرحمة، والمنافق المتعبد أمره صائر إلى الشقاء، فإن الإيمان بالله ورسوله هو جماع السعادة وأصلها.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٢٧٥).

(١) الفتاوى (٥/١٣١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/١٨٨).

ومن ظن أن المعنى: ولذكر الله أكبر من الصلاة فقد أخطأ؛ فإن الصلاة أفضل من الذكر المجرد بالنص والإجماع. والصلاة ذكر الله لكنها ذكر على أكمل الوجوه، فكيف يفضل ذكر الله المطلق على أفضل أنواعه؟ ومثال ذلك قوله ﷺ: «عليكم بقيام الليل! فإنه قربة إلى ربكم؛ ودأب الصالحين قبلكم، ومنهاة عن الإثم؛ ومكفرة للسيئات، ومطرقة لداعي الحسد»^(١)، فبين ما فيه من المصلحة بالقرب إلى الله وموافقة الصالحين، ومن دفع المفسدة بالنهي عن المستقبل من السيئات؛ والتكفير للماضي منها، وهو نظير الآية) ١. هـ^(٢).

قال ابن القيم:

(وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين.

إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتغالها على ذكر الله وتضمنها له. ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا أَلْوَدَّهَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وختم به الحج في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ نَسَائِكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وختم به الصلاة كقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وختم به الجمعة كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة] ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا. وإذا كان آخر كلام العبد: أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته. وهم أولو الألباب والعقول. فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ] [آل عمران].

وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقترانها بها، وأنه روحها: فإنه سبحانه قرنه

(١) الترمذي (٣٥٤٩) والبيهقي (٥٠٢/٢)، وابن نصر في قيام الليل (ص ١٨) وله شواهد عند الحاكم (٣٠٨/١) والبيهقي (٢: ٥٠٢) وابن عدي (٢٠٧/٤) والحديث حسن إن شاء الله.

(٢) مجموع الفتاوى (١٩٢/٢٠ - ١٩٣).

بالصلاة. كقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه. بل هو روح الحج، ولُبُّه ومقصوده. كما قال النبي ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار: لإقامة ذكر الله» (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ غاير بينهما وقد دخلت الفحشاء في المنكر في قوله: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ثم ذكر مع المنكر اثنين في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] جعل البغي هنا مغايراً لهما، وقد دخل في المنكر في ذينك الموضوعين) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وهذا محسوس؛ فإن الإنسان إذا قرأ القرآن وتدبره كان ذلك من أقوى الأسباب المانعة له من المعاصي أو بعضها، وكذلك الصوم جنة، وكذلك نفس الإيمان بتحريم المحرمات وبعذاب الله عليها يصد القلب عن إرادتها) ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي أن ما فيها من طاعة الله وذكره وامثال أمره أكبر من ذلك) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ أي فيها الشفاء وأكبر من ذلك) ا. هـ (٥).

بِالَّذِي أَنْزَلَ لِنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَجِدْ وَتَعْنِ لَمْ مُسْلِمُونَ ﴿٦٦﴾ .

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَجِدْ وَتَعْنِ لَمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ فالظالم لم يؤمر بجدا له بالتي هي أحسن، فمن كان ظالماً مستحقاً للقتال غير طالب للعلم والدين، فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يجادلون بالتي هي أحسن، بخلاف من طلب العلم والدين ولم يظهر منه ظلم، سواء كان قصده الاسترشاد أو كان يظن أنه على حق يقصد نصر ما يظنه حقاً، ومن كان قصده العناد يعلم أنه على باطل ويجادل عليه، فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتي هي أحسن، لكن قد نجادله بطرق أخرى نبين فيها عناده وظلمه وجهله جزاءً له بموجب عمله) ا. هـ (٦).

- (١) مدارج السالكين (٢/ ٤٢٦ - ٤٢٧).
 (٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٦٢ - ١٦٣).
 (٣) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٢٣).
 (٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٤٤).
 (٥) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٨٩).
 (٦) الجواب الصحيح (١/ ٢١٩).

وقال رحمه الله: (ويزعم من يزعم من هؤلاء أن قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [و] ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] منسوخ بآية السيف وهؤلاء أيضاً غالطون فإن الله تعالى قد أخبر عن قوم نوح وإبراهيم بمجادلتهم للكفار حتى ﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ [هود: ٣٢]، وقال عن قولم إبراهيم: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمٌ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]. وذكر محاجة إبراهيم للكافر والقرآن فيه من مناظرة الكفار والاحتجاج عليهم ما فيه شفاء وكفاية وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ليس في القرآن ما ينسخهما، ولكن بعض الناس يظن أن من المجادلة ترك الجهاد بالسيف، وكل ما كان متضمناً لترك الجهاد المأمور به فهو منسوخ بآيات السيف والجهاد. والمجادلة قد تكون مع أهل الذمة والهدنة والأمان ومن لا يجوز قتاله بالسيف وقد تكون في ابتداء الدعوة كما كان النبي ﷺ يجاهد الكفار بالقرآن وقد تكون لبيان الحق وشفاء القلوب من الشبه مع من يطلب الاستهداء والبيان، وبسط هذا له موضع آخر) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فالظالم ليس علينا أن نجادله بالتي هي أحسن) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك ذكر الكتاب المنزل، فقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ فبين أن القرآن آيات بينات في صدور الذين أتوا العلم. فإنه من أعظم الآيات البينة الدالة على صدق من جاء به، وقد اجتمع فيه من الآيات ما لم يجتمع في غيره، فإنه هو الدعوة والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه، والحكم، وهو الدعوى، وهو البينة على الدعوى، وهي الشاهد والمشهود به.

وقوله: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ سواء أريد به أنه بين في صدورهم، أو أنه محفوظ في صدورهم، أو أريد به الأمران وهو الصواب فإنه محفوظ في صدور العلماء، بين في صدورهم، يعلمون أنه الحق، كما قال: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبا: ٦] وقال: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩] ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنَ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ

لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٤﴾ [الحج] ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُمَّ وَجِدْ وَنَحْنُ لَمْ نُسَلِّمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾، فهو أمر للمؤمنين أن يقولوا الحق الذي أوجبه الله عليهم، وعلى جميع الخلق ليرضوا به الله، وتقوم به الحجة على المخالفين، فإن هذا من الجدل بالتي هي أحسن، وهو أن تقول كلاماً حقاً يلزمك، ويلزم المنازع لك أن يقوله فإن وافقك وإلا ظهر عناده وظلمه.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نُخْلِصُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾ [البقرة]، فإننا مشتركون في أنه ربنا كلنا وأن عمل كل عامل له لا لغيره.

وامتزنا نحن بأنا مخلصون له، وأنتم لستم مخلصين له. فأوجب هذا أن الحق معنا دونكم، وأن أعمالنا صالحة مقبولة، وأعمالكم مردودة.

ويشبه ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَسُبَّ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾ [آل عمران]، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يتضمن إقامة الحجة عليهم، كما كان المسيح عليه السلام يقول) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مُثَوِّبَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَعَظِيبٍ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ [المائدة: ٦٠]، فتبين أن اليهود لعنهم الله وأنهم عبدوا الطاغوت، وأنه جعل منهم القردة والخنازير، ومثل هذا في القرآن كثير. لكن قول القائل أنهم المرادون بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾. غلط بين، ولهذا كان باطلاً باتفاق المسلمين، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، نهي عن مجادلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا بالتي هي أحسن، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من الطائفتين جميعاً.

ولهذا كان الواجب على المسلمين، إذا جادلهم اليهودي والنصراني أن يجادلوه بالتي هي أحسن، إلا من ظلم من الطائفتين، فإنه يعاقب باللسان تارة وباليد أخرى،

كما أمر الله ورسوله بجهاد الظالمين من هؤلاء، فجاهد النبي ﷺ اليهود الذين كانوا بالمدينة النبوية وحولها وقريباً منها، كما جاهد بني قينقاع، والنضير، وقريظة، وأهل خيبر، وأهل وادي القرى، وغيرهم.

وكما جاهد النصارى عام تبوك غزاهم بالشام عربهم ورومهم، وأغزاهم قبل ذلك نوابه: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وأمر بغزاهم فغزاهم بعده خلفاؤه الراشدون.

والنبي ﷺ لما تقدم وفد نجران النصارى، جادلهم ﷺ في مسجده بالتي هي أحسن، ثم أمره الله سبحانه أن يدعوهم إلى المباشلة، فامتنعوا عن مباهلتهم، وأقروا بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون، كما تقدم ذكر ذلك مفصلاً فجادل بعضهم بالتي هي أحسن، والظالم منهم عاقبه وجاهده، كما عاقب الظالم من اليهود) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال مجاهد: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، قال: الذين ظلموا: من قاتلك ولم يعطك الجزية^(٢)، وفي لفظ آخر عنه قال: الذين ظلموا: منهم أهل الحرب من لا عهد لهم بالمجادلة لهم بالسيف^(٣). وفي رواية عنه قال: لا تقاتل إلا من قاتلك ولم يعطك الجزية.

وفي رواية عنه قال: من أدى منهم الجزية فلا تقولوا له إلا خيراً، وعن مجاهد: إلا بالتي هي أحسن، فإن قالوا: شراً فقولوا: خيراً^(٤).

فهذا مجاهد لا يجعلها منسوخة وهو قول أكثر المفسرين: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾، ليست منسوخة، ولكن عن قتادة قال: نسختها: ﴿وَأَقْسَلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] ولا مجادلة أشد من السيف. والأول أصح؛ لأن هؤلاء من الذين ظلموا فلا نسخ) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة: أن أهل الكتاب كانوا يقرأون التوراة ويفسرونها بالعربية، فقال النبي ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل

(١) الجواب الصحيح (٣/٨٩ - ٩٢).

(٢) ابن جرير (١/٢١).

(٣) رواه ابن جرير (٢/٢١).

(٤) يراجع الدر المنثور (٥/١٤٧) ففيه أقوال شبيهة بهذه ولعل بعضها في ابن أبي حاتم والله أعلم.

(٥) الجواب الصحيح (١/٢٤١ - ٢٤٣).

فتصدقوه، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَجِدُّ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾، فقد جاز للمسلمين سماع ما يقولونه ولم يصدقوه ولم يكذبوه) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرية، ويفسرونها بالعربية، فقال النبي ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإذا أن يحدثوكم بحق، فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل، فتصدقوه وقولوا: ... ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَجِدُّ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾» (٢) ا.هـ (٣).

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّوا بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨).

(وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّوا بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨) بين سبحانه، من حاله من يعلمه العامة والخاصة، وهو معلوم لجميع قومه الذين شاهدوه متواتر عند من غاب عنه وبلغته أخباره من جميع الناس: أنه كان أمياً لا يقرأ كتاباً، ولا يحفظ كتاباً من الكتب، لا المنزلة ولا غيرها، ولا يقرأ شيئاً مكتوباً، لا كتاباً منزلاً ولا غيره، ولا يكتب بيمينه كتاباً ولا ينسخ شيئاً من كتب الناس، المنزلة ولا غيرها) ا.هـ (٤).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠).

(وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) أوله يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إيت في ذلك لرحمة وذكري لقوم يؤمنون (٥١) قل كف بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون (٥٢) فيها بيان ما يوجب السعادة للمؤمنين وينجيهم من العذاب.

ثم قال: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنه إذا كان عالماً بالأشياء، كانت شهادته بعلم، وقد بين شهادته بالآيات الدالة على صدق الرسول، ومنها القرآن، والله أعلم) ا.هـ (٥).

﴿وَأُولَئِكَ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أُنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١).

- (١) مجموع الفتاوى (٦٣/١٩).
 (٢) البخاري (٤٤٨٥).
 (٣) الجواب الصحيح (٤٦١/٦ - ٤٦٢).
 (٤) الجواب الصحيح (٣٣٨/٥).
 (٥) مجموع الفتاوى (١٩١/١٤).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿أَوْلَتْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فزجر من لم يكتف بالكتاب المنزل) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأما نبوة محمد ﷺ فهي كافية لأمته، كما قال تعالى: ﴿أَوْلَتْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وفي النسائي وغيره أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال: أمتهوكون يا ابن الخطاب كما تهوكت اليهود والنصارى، لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم.

وفي مراسيل أبي داود: «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم أنزل إلى نبي غير نبيهم».

ونحن نعلم يقيناً بالاضطرار من دين الإسلام أن محمداً رسول الله ﷺ أوجب الله تعالى علينا طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، ولم يأمر بطاعة غيره إلا إذا وافق طاعته، لا نبياً ولا غير نبي.

ونحن إذا قلنا: شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه. فإنما ذاك لكونه مشروعاً على لسان محمد بالأدلة الدالة على ذلك. وقد علمنا بالاضطرار من دينه أن من أطاعه دخل الجنة فلا يحتاج مع ذلك إلى طاعة غيره: لا نبي ولا محدث. فلم يكن المتبعون لنبوته محتاجين إلى اتباع نبي غيره فضلاً عن محدث) ا.هـ^(٢).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٨)

(قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ فهم يفترون الكذب ويكذبون بالحق، وهذا حال المرتدين) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ويبين ذلك أن الكذب بمنزلة التكذيب له، ولهذا جمع الله بينهما بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ بل ربما كان الكاذب عليه أعظم إثمًا من المكذب له، ولهذا بدأ الله به، كما أن الصادق عليه أعظم درجة من المصدق بخبره، فإذا كان الكاذب مثل المكذب أو أعظم، والكاذب على الله

(١) مجموع الفتاوى (١٩/٦٧).

(٢) الصفدية (١/٢٥٧ - ٢٥٨)، وانظر: مجموع الفتاوى (١١/٤٢٣ - ٤٢٤).

(٣) منهاج السنة (٤/٤٩٣).

كالمكذب له، فالكاذب على الرسول كالمكذب له) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (والله قد ذم الكاذب والمكذب بالحق، لقوله في غير آية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: ٢١] ا.هـ^(٢).

قال رحمه الله: (والله تعالى أمرنا أن لا نكذب ولا نكذب بحق وإنما مدح سبحانه من يصدق فيتكلم بعلم ويصدق ما يقال له من الحق. قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴿٣٦﴾ والذي جاء بالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٢٦﴾ [الزمر] وهاتان صفتان لنوع واحد، وهو من يجيء بالصدق ويصدق بالحق إذا جاءه، فهذا هو المحمود عند الله، وأما من كذب أو كذب بما جاءه من الحق فذلك مذموم عند الله تعالى) ا.هـ^(٣).

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٩﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾ والجهد يوجب هداية السبيل إليه) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وكان ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهم يقولون: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الشجر، فإن الحق معهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾) ا.هـ^(٥).

- | | | | |
|-----|--------------------------------|-----|------------------------|
| (١) | الصارم المسلول (١٧٩). | (٢) | منهاج السنة (١٩٢/٧). |
| (٣) | الرد على المنطقيين (٢٧٤). | (٤) | مجموع الفتاوى (٣٤/٢٨). |
| (٥) | مسألة في المرابطة بالشجر (٥٠). | | |

سورة الروم

وقال في تفسير الآيات الخمسة الأولى :

(فإن الفرس المجوس، لما غلبوا الروم، ساء ذلك النبي ﷺ والمؤمنين به، وفرح بذلك مشركو العرب، وكانوا أكثر من المؤمنين؛ لأن أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من المجوس، والمجوس أقرب من المشركين منهم إلى أهل الكتاب، ووعد الله المؤمنين أن تغلب الروم بعد ذلك، وأنه يومئذ: ﴿... يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ... ﴿٢﴾ [الروم: ٤، ٥].

فأضاف النصرة إلى اسم الله، ولم يقل: بنصر الله إياهم. وذلك أنه حين ظهرت الروم على فارس، كان النبي ﷺ وأصحابه قد ظهوروا على المشركين واليهود) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ولما كان بعد عام الحديبية ومهادنة قريش أرسل ﷺ رسله إلى جميع الطوائف، فأرسل إلى النصارى: نصارى الشام ومصر، فأرسل إلى هرقل ملك الروم، وقد قيل: إن هرقل هذا هو الذي زادت النصارى له في صومهم عشرة أيام لما اقتتل الروم والفرس وقتل اليهود بعد أن كان قد أمنهم فطلبت منه النصارى قتلهم وضمنوا له أن يكفروا خطيئته بما زادوه في الصوم، وكانت الفرس مجوساً والروم نصارى، وكانت المجوس الفرس غلبت النصارى أولاً، وكان هذا في أوائل مبعث النبي ﷺ وهو بمكة وأتباعه قليل، وفرح المشركون بانتصار الفرس، لأنهم أقرب إليهم من أهل الكتاب واستاء المسلمون لذلك؛ لأن أهل الكتاب أقرب إليهم فدخل أبو بكر الصديق^(٢) ﷺ على رسول الله ﷺ وأخبره بانتصار الفرس على الروم، فأنزل الله تعالى:

﴿الْمَغْلِبَةِ الرُّومِ﴾ ﴿١﴾ فِي آدَانِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٢﴾ فِي يَضَعُ سِينَهُ﴾.

(وكان هذا مما أخبر به النبي ﷺ قبل أن يكون، فكان كما أخبر، ولما ذكر أبو بكر

(١) الجواب الصحيح (١٠٢/٥ - ١٠٣).

(٢) خير أبي بكر الصديق في الترمذي (٣١٩٣) والمسند (١/٢٧٦، ٣٠٤) والطبري وغيرهم وسنده صحيح.

الصديق رضي الله عنه كذبوه فراهنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه كما ذكر هذا المفسرون والمحدثون. قال سنيد^(١) في تفسيره - وهو شيخ البخاري - حدثنا حجاج، عن ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة بن الزبير، عن نيار بن مكرم الأسلمي أنه قال: لما أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿الْمَلَأْنَا غَلْبَتِ الرُّومِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، خرج أبو بكر وهو يقرؤها بمكة رافعاً بها صوته: ﴿الْمَلَأْنَا غَلْبَتِ الرُّومِ ۝١﴾ فِي آدَتِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٢﴾ فِي بَضْعِ سِينِكَ ۝٣﴾.

فقال له رؤوس أهل مكة: ما هذا يا ابن أبي قحافة لعله مما يأتي به صاحبك؟ قال: لا والله، ولكنه كلام الله وقوله تبارك وتعالى؛ قالوا: فذلك بيننا وبينك إن ظهرت الروم على فارس في بضع سنين، فراهنهم أبو بكر ففتح الله للروم على فارس دون التسع، فأسلم عند ذلك خلق كثير من المشركين.

قال ابن مكرم: وإنما كانت قريش تستفتح - يومئذ - بالفرس؛ لأنهم وإياهم أهل تكذيب بالبعث، وأهل أصنام، وإنما كان المؤمنون يستفتحون يومئذ بالروم؛ لأنهم وإياهم أهل نبوة وتصديق بالبعث، فأنزل الله تعالى: ﴿... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾ بِبَصَرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ... ۝٥﴾.

وهذا الحديث رواه الترمذي في جامعه فقال: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس قال: حدثني ابن أبي الزناد عن أبي الزناد عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت: ﴿الْمَلَأْنَا غَلْبَتِ الرُّومِ ۝١﴾ فِي آدَتِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٢﴾ فِي بَضْعِ سِينِكَ... ۝٣﴾، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وذلك قوله تعالى: ﴿... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾ بِبَصَرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾.

وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان يبعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة: ﴿الْمَلَأْنَا غَلْبَتِ الرُّومِ ۝١﴾ فِي آدَتِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٢﴾ فِي بَضْعِ سِينِكَ ۝٣﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ... ۝٤﴾، قال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم زعم

(١) هو الحسين بن داود المصيصي الملقب سنيد شيخ البخاري له تفسير معروف لم يصل إلينا. توفي سنة (٥٢٦هـ).

صاحبكم أن الروم ستغلب فارساً في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ فارتهن أبو بكر والمشركون فظهرت الروم على فارس في بضع سنين، وأسلم عند ذلك ناس كثير من المشركين.

قال الترمذي^(١): هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد - يعني غريباً من هذا الوجه - وإلا فهو مشهور متواتر عن أهل التفسير، والمغازي، والحديث، والفقهاء؛ والقصة متواترة عند الناس.

وقال أبو جعفر بن جرير^(٢) في تفسيره: عن سفيان، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: كان المسلمون يحبون أن تغلب الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تغلب أهل فارس؛ لأنهم أهل أوثان. قال: فذكروا ذلك لأبي بكر فذكره أبو بكر للنبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَمَنُّونَ بِأَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ في بضع سنين لله الأثر من قبل وإن بعداً ويومئذ يفرح المؤمنون ﴿١﴾، فذكره أبو بكر للمشركين، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن غلبوا كان كذا وكذا، وإن غلبوا كان لنا كذا وكذا، فجعلوا بينهم أجلاً خمس سنين، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال له: «هلا احتطت، أفلا جعلته دون العشر؟» قال سعيد بن جبير: والبضع ما دون العشر قال: فغلبت الروم ثم غلبت فذلك قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَمَنُّونَ بِأَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾... الآية.

وهذا أيضاً أخرجه الترمذي: حدثنا الحسين بن حريث، حدثنا معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق الفزاري، عن سفيان، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة.

ورواه أيضاً من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

ورواه أيضاً من حديث الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد.

وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وذهبت طائفة من العلماء إلى أن الخبر جاء بظهور الروم على فارس يوم بدر، وذهب آخرون أنه يوم الحديدية - وهذا هو الصحيح - وهرقل كان قد مشى - شكراً لله - من

حمص إلى بيت المقدس لما نصره على الفرس، فوافاه كتاب النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام عقب نصر الله للروم على فارس، وفرح النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ولهذا لما اقتتلت فارس المجوس والروم النصرارى، وكان النبي ﷺ بمكة إذ ذلك، وهو في طائفة قليلة ممن آمن به، كان هو وأصحابه يحبون أن تغلب الروم، لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تغلب فارس، لأنهم من جنسهم، ليسوا أهل كتاب، فأنزل الله في ذلك: ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ لِيَسُودُوا أُمَّةً مِنْ أُمَّةٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَاسْتَوَىٰ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ لِيُضِلَّهُمْ قَوْمَهُمْ فِي مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ وَهُمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١) ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ (٢) فِي آدَنَ الْأَرْضِ. والقصة مشهورة في كتب الحديث والتفسير والمغازي) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وفي القرآن من الإخبار بالمستقبلات، شيء كثير، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ لِيَسُودُوا أُمَّةً مِنْ أُمَّةٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَاسْتَوَىٰ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ لِيُضِلَّهُمْ قَوْمَهُمْ فِي مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ وَهُمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١) ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ (٢) فِي آدَنَ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ، فغلبت الروم فارس في بضع سنين، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فيما مضى) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما خرج على قريش فقرأ عليهم: ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ لِيَسُودُوا أُمَّةً مِنْ أُمَّةٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَاسْتَوَىٰ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ لِيُضِلَّهُمْ قَوْمَهُمْ فِي مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ وَهُمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١) ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ (٢) فِي آدَنَ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فقالوا: هذا كلامك، أم كلام صاحبك؟ فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي، ولكن كلام الله) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ لِيَسُودُوا أُمَّةً مِنْ أُمَّةٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَاسْتَوَىٰ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ لِيُضِلَّهُمْ قَوْمَهُمْ فِي مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ وَهُمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١) ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ (٢) فِي آدَنَ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ فَتَبْلُغُ أُمَّةٌ لِيُخَيَّرُوا مِنَ اللَّهِ مِمَّنْ يُنصَّرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ (٤) فإنها نزلت كما استفاض في التفسير والمغازي والحديث في اقتتال الروم النصرارى والفرس المجوس، وكانت المجوس قد غلبت النصرارى على أرض الشام وغيرها، فغلبت الروم، وفرح بذلك مشركو قريش؛ لأن المجوس إليهم أقرب من النصرارى؛ لأن كلاهما لا كتاب له، واغتم لذلك المؤمنون؛ لأن النصرارى إليهم أقرب؛ لأنهم أهل كتاب، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، فأخبره النبي ﷺ أن الروم سوف تغلب فارس بعد ذلك في بضع سنين، وناظرهم أبو بكر على هذا قبل تحريم ذلك، وظهرت الروم على فارس بعد ذلك) ١. هـ^(٥).

(١) الجواب الصحيح (١/٢٦٩ - ٢٧٨).

(٢) الاستقامة (١/٤٦٤).

(٣) الجواب الصحيح (٦/٧٠).

(٤) مجموع الفتاوى (١٢/٤٦٢)، الجواب الصحيح (٤/٣٤٨ - ٣٤٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٢/١٨٨) تلييس الجهمية (٢/٢٩٥).

وقال رحمه الله: (وثبت في المسند والترمذي وغيرهما: «أنه لما اقتتلت فارس والروم فغلبت فارس الروم وبلغ ذلك أهل مكة وكان ذلك في أول الإسلام ففرح بذلك المشركون؛ لأن المجوس أقرب إليهم من الروم، فأخبر أبو بكر بذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَمَنْ بَعْدَ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُ كُفْرِهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ عَلِيمٌ﴾ (١) في بضع سنين» فخرج أبو بكر ﷺ فراهن المشركون على أنه إن غلبت الروم في بضع سنين أخذ الرهان، وإن لم تغلب الروم أخذوا الرهان، وهذه المراهنة هي مثل المراهنة في سباق الخيل والرمي بالنشاب، وكانت جائزة لأنها مصلحة للإسلام، لأن فيها مصلحة بيان صدق الرسول ﷺ فيما أخبر به من أن الروم سيغلبون بعد ذلك، وفيها ظهور أقرب الطائفتين إلى المسلمين على أبعدهما. وهذا فعله الصديق ﷺ وأقره عليه رسول الله ﷺ ولم ينكره عليه، ولا قال: هذا ميسر وقمار. والصديق أجل قدراً من أن يقامر، فإنه لم يشرب الخمر في جاهلية ولا إسلام وهي أشهى إلى النفوس من القمار) ا.هـ (١).

﴿أُولَئِكَ يَتَفَكَّرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (٨).

(ف قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَتَفَكَّرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (٨) وهذا بعد قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦) يعلمون ظاهراً من الحيوة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٧)، ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَتَفَكَّرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾، فالضمير عائد إلى الذين يعلمون ظاهراً في الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون) ا.هـ (٢).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (١٥).

(قال أبو القاسم (٣): «وجاء عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أنه السماع من الحور العين بأصوات شهية: نحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً».

وهذا فيه أنهم ينعمون في الآخرة بالسماع، وقد تقدّم الكلام على هذا، وأن التنعم بالشيء في الآخرة لا يقتضي أن يكون عملاً حسناً أو مباحاً في الدنيا) ا.هـ (٤).

(١) مختصر الفتاوى المصرية (٥٣٣). (٢) درء تعارض العقل والنقل (٨/٨).

(٣) الرسالة للقيصري، وقد ذكر هذا المعنى عن كثير من السلف يراجع لذلك الدر المنثور (١٥٣/٥).

(٤) الاستقامة (١/٢٣٢ - ٢٣٣).

وقال رحمه الله: (ثم قال أبو القاسم: «وقال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ جاء في التفسير: أنه السماع».

قلت: فهذا قد ورد عن طائفة من السلف: أنه السماع الحسن في الجنة، وأن الحور العين يغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بأحسن منها، لكن تنعيم الله تعالى لعباده بالأصوات الحسنة في الجنة واستماعها لا يقتضي أنه يشرّع أو يبيح سماع كل صوت في الدنيا، فقد وعد في الآخرة بأشياء حرمها في الدنيا، كالخمر والحريز وأواني الذهب والفضة.

بل قال ﷺ: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»^(١) وقال: «من لبس الحريز في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»^(٢) وقال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»^(٣).

وهذه الأحاديث من الصحاح المشاهير المجمع على صحتها، فقد أخبر أنه من استعمل هذه الأمور في الدنيا: من المطعوم والملبوس وغيرها لم يستعمله في الآخرة.

فلو قيل له: هذا السماع الحسن الموعود به في الجنة هو لمن نزه مسامعه في الدنيا عن سماع الملاهي، كان هذا أشبه بالحق والسنة، وقد ورد به الأثر: «يقول الله يوم القيامة: أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشياطين؟ أدخلوهم وأسمعوهم تحميدي وتمجيدي والثناء علي، وأخبروهم أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»^(٤) ١. هـ^(٥).

﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾

(والصلاة أعظم التسبيح كما في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾^(٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾^(٨)، وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾^(٩) [طه]، وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا

(١) هذا لفظ مسلم والحديث أصله في البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٤).

(٢) البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧). (٣) البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» كما في الدر (١٥٣/٥).

(٥) الاستقامة (١/٢٣٢ - ٢٣٣).

القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا؛ ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (١٥) ﴿١٥﴾ هـ. (١).

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمْتِ وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْعَمَىٰ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١٦) ﴿١٦﴾ هـ. (٢)
 (وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمْتِ وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْعَمَىٰ﴾. ومن أنواعه أنه يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن) ا. هـ. (٢).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧) ﴿١٧﴾ هـ. (٣).

(وقد سميت الزوجة سكناً، قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، وقال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]؛ فيسكن الرجل إلى المرأة بقلبه وبدنه جميعاً) ا. هـ. (٣).

﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ قَلْبًا﴾ (١٨) ﴿١٨﴾ هـ. (٤).

(وأيضاً فإنه قد ذكر القنوت في سورة «الروم» مجرداً عن الولد، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (١٥) ﴿١٥﴾ هـ. ثم قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ قَلْبًا﴾ (١٦) ﴿١٦﴾ هـ. وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿١٧﴾ ﴿١٧﴾ هـ. فبين أن له ما في السماوات والأرض وأن كلا له قانتون، وتخصيص هذا بمن قيل إنه ولد فاسد ظاهر الفساد، وكذلك تخصيصه بالمؤمنين، فإن هذا مذكور لبيان عموم الملك والافتقار وخضوع المخلوقات كلها له، فلو خص به المؤمنون لكان ذلك عكس المقصود، وهو مثل قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] ا. هـ. (٤).

وقال رحمه الله: (وهو أحد الوجوه التي ذكرها أبو بكر بن الأنباري^(٥) في قوله: ﴿كُلُّ لَمْ يَكُنْ قَلْبًا﴾ قال: كل مخلوق قانت له باشر صنعته فيه وجرى أحكامه عليه، فذلك دليل على ذله لربه) ا. هـ. (٦).

- | | | | |
|-----|-------------------------------|-----|--------------------------|
| (١) | الجواب الصحيح (٥/ ٢٣٤ - ٢٣٥). | (٢) | مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٠). |
| (٣) | مجموع الفتاوى (٥/ ٥٧١). | (٤) | جامع الرسائل (١/ ٢٣). |
| (٥) | مر الكلام عليه في بحث القنوت. | (٦) | مجموع الفتاوى (١/ ٤٦). |

﴿وَهُوَ الَّذِي يَدُّوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧﴾﴾ .

(وذكر أحمد في ضمن هذا القياس قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ مطابق لما ذكرناه من أن الله له قياس الأولى والأحرى بالمثل الأعلى؛ إذ القياس الأولى والأحرى هو من المثل الأعلى. وأما المثل المساوي أو الناقص فليس لله بحال. ففي هذا الكلام الذي ذكره واستدل به هذه الآية تحقيق لما قدمناه من أن الأقيسة في باب صفات الله وهي أقيسة الأولى كما ذكره من هذا القياس؛ فإن العبد إذا كان هذا الكمال ثابتاً له فالله الذي له المثل الأعلى أحق بذلك) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (والله ثنى قصة فرعون في القرآن في غير موضع؛ لاحتياج الناس إلى الاعتبار بها، فإنه حصل له من الملك ودعوى الربوبية والإلهية والعلو ما لم يحصل مثله لأحد من المعطلين، وكانت عاقبته إلى ما ذكر الله تعالى، وليس لله صفة يماثله فيها غيره؛ فلهذا لم يجز أن يستعمل في حقه قياس التمثيل، ولا قياس الشمول الذي تستوي أفرادها، فإن ذلك شرك؛ إذ سوى فيه بالمخلوق؛ بل قياس الأولى. فإنه سبحانه: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو أحق من غيره بصفات الكمال، وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقد يسمّى المثل الأعلى، ويُفسر به قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي في قلوب أهل السماوات والأرض، ويقال له: المثل الحبي والمثال العلمي) ا.هـ (٣).

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

(وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي كخيفة بعضهم بعضاً) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله في التوحيد: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾)

(١) بيان تلبس الجهمية (٥٤٦/٢). (٢) مجموع الفتاوى (١٦٤/١٣).

(٣) منهاج السنة (٣٧٦/٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٥٦/٣) (٣٠٢/٣)، النبوات (٢٢٥).

أَنْفُسَكُمْ، أي كخيفة بعضكم بعضاً، كما في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥]، وفي قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، وفي قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وفي قوله: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، وفي قوله: ﴿وَلَا تَخْرُجُوا أَنْفُسَكُمْ مِن دِينِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥]، فإن المراد في هذا كله من نوع واحد.

فبين سبحانه أن المخلوق لا يكون مملوكه شريكه في ماله حتى يخاف مملوكه كما يخاف نظيره، بل تمتنعون أن يكون المملوك لكم نظيراً، فكيف ترضون أن تجعلوا ما هو مخلوق ومملوكي شريكاً لي، يدعى ويعبد كما ادعى وأُعبد؟ كما كانوا يقولون في تليبتهم: «ليك اللهم ليك، ليك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» (١) هـ.

وقال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يقول تعالى: إذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكاً له مثل نفسه فكيف تجعلون مملوكي شريكاً لي؟ وكل ما سوى الله من الملائكة والنبيين والصالحين وسائر المخلوقات هو مملوك له، وهو سبحانه لا إله إلا هو، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير) (٢) هـ.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيْتَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾، يقول تعالى: إذا كنتم أنتم لا ترضون بأن المملوك يشارك مالكة لما في ذلك من النقص والظلم، فكيف ترضون ذلك لي وأنا أحق بالكمال والغنى منكم؟.

وهذا يبين أنه تعالى أحق بكل كمال من كل أحد، وهذا كقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُرُ عَلَىٰ هُوبٍ أَمْ يُدْسِمُ فِي الْتَرَابِ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِّنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٦١﴾

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْتَقَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٧﴾ [النحل] ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٦٩﴾ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَدِيمُ وَلَكِن كَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ * مُّبِينِينَ إِلَيْهِ وَانْقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٧٢﴾﴾، بين سبحانه بالمثل الذي ضربه لهم أنه لا ينبغي أن يجعل مملوكه شريكه فقال: ﴿هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ يخاف أحدكم مملوكه كما يخاف بعضكم بعضاً، فإذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكه فكيف ترضونه لأنفسكم؟.

وهذا كما كانوا يقولون: له بنات، فقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْتَقَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل]، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُرِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْغُورِ مِنْ سُوءِ مَا بُرِّرَ بِهِ أَيَسْكُرُ عَلَىٰ هُوبٍ أَمْ يُدْسُهُ فِي التَّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل] ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾. فهم لا يرضون أن يكون مملوك أحدهم شريكه، وقد جعلوا مملوكي الرب شركاء له، فجعلوا لله ما لا يرضونه لأنفسهم من الشركاء ومن الأولاد: لا يرضون مملوكيهم أن يكونوا شركاء وقد جعلوهم لله شركاء، ولا يرضون من الأولاد بالإناث فلا يرضونها ولداً ولا نظيراً وهم جعلوا الإناث لله أولاداً ونظراء.

والنكته أن الله أجل وأعظم وأعلى وأكبر من كل شيء، وهم قد جعلوا لله ما لا يرضونه لأنفسهم) ا. هـ (٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١/١٥٦ - ١٥٧).

(١) مجموع الفتاوى (٦/٨٠ - ٨١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/٣٦٤ - ٣٦٥).

وقال رحمه الله: (ونظير ما ذكره سبحانه في الأولاد، ما ذكره في الشركاء في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، يقول تعالى: إذا كان الواحد منكم ليس له من ممتلكاته شريك في ما رزقه الله، بحيث يخاف ذلك المملوك، كما يخاف السادة بعضهم بعضاً، فكيف تجعلون لي شريكاً هو مملوكي، وتجعلونه شريكاً فيما يختص بي من العبادة والمخافة والرجاء حتى تخافوه كما تخافوني؟.

ومن المعلوم أن ملك الناس بعضهم بعضاً ملك ناقص، فإن السيد لا يملك من عبده إلا بعض منفعه، لا يملك عينه، وهو شبيه بملك الرجل بعض منافع امرأته، وملك المستأجر بعض منافع أجيره. ولهذا يُشَبَّه النكاح بملك اليمين، كما قال عمر رضي الله عنه: «النكاح رق، فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته».

وقال زيد بن ثابت: الزوج سيد في كتاب الله^(١)، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَالْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ﴾ [يوسف: ٢٥]، فإذا كان هذا الملك الناقص لا يكون المملوك فيه شريكاً للمالك، فكيف بالملك الحق التام لكل شيء؟ ملك المالك للأعيان والصفات، والمنافع والأفعال، الذي لا يخرج عن ملكه شيء بوجه من الوجوه، ولا لغيره ملك مفرد، ولا شريك في ملك ولا معاونة له بوجه من الوجوه، كيف يسوغ في مثل هذا، أن يجعل مملوكه شريكه بوجه من الوجوه؟.

والشرك نوعان: أحدهما: شرك في الربوبية، والثاني: شرك في الإلهية. فأما الأول فهو إثبات فاعل مستقل غير الله، كمن يجعل الحيوان مستقلاً بإحداث فعله، ويجعل الكواكب أو الأجسام الطبيعية، أو العقول، أو النفوس، أو الملائكة، أو غير ذلك مستقلاً بشيء من الإحداث، فهؤلاء حقيقة قولهم تعطيل الحوادث عن الفاعل، فإن كل ما يذكرونه من فعل هذه الفاعلات أمر حادث يفتقر إلى محدث يتم به إحداثه، وأمر ممكن لا بد له من واجب يتم به وجوده، وكل ما سوى الخالق القديم الواجب الوجود بنفسه مفتقر إلى غيره، فلا يتم به حدوث حادث، ولا وجود ممكن.

وجمهور العرب لم يكن شركها من هذا الوجه، بل كانت مقرة بأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه، وإنما كان النوع الثاني، فإثبات التوحيد في النوع الثاني يتضمن الأول من غير عكس.

والثاني الشرك في الإلهية، وضده هو التوحيد في الإلهية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن المشركين المقرين بأنه رب كل شيء، كانوا يتخذون آلهة يستجلبون بعبادتها المنافع، ويستدفعون بها المضار، ويتخذونها وسائل تقربهم إليه، وشفعاء يستشفعون بها إليه.

وهؤلاء خلق من خلقه، لا يملكون لأحد نفعاً ولا ضرراً إلا بإذنه، فكل ما يطلب منهم لا يكون إلا بإذنه، وهو سبحانه لم يأمر بعبادة غيره، ولم يجعل هؤلاء شفعاء ووسائل.

بل قد قال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُشْرِكُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس].

وهذا المعنى كثير في القرآن: يبين سبحانه أنه لم يشرع عبادة غيره، ولا أذن في ذلك، بل يبين أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فإنه كما يمتنع أن يكون غيره رباً فاعلاً، يمتنع أن يكون إلهاً معبوداً.

وإذا كان جعل المملوك شريكاً في الملك الناقص - بحيث يرغب إليه كما يرغب إلى المالك، ويرهب منه كما يرهب من المالك - ممتنعاً يوجب الفساد، فجعل المملوك المخلوق شريكاً لمالكة الخالق أولى بالامتناع ولزوم الفساد.

وذلك أن الذي يخافه إنما يخاف أن يضره، فإذا كان يعلم أنه لا يضره إلا بإذن الله [سبحانه، كان الله تعالى] هو الذي يجب أن يُخاف. وكذلك الذي يرجوه، إذا كان إنما يرجو نفعه، وهو لا ينفعه إلا بإذن الله، كان الله هو الذي يجب أن يرجى، إذ لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله، بخلاف مملوك البشر، فإنه - وإن كان لا يتصرف في المال إلا بإذن سيده، ولا يمنع من أذِنَ [له] سيده - فقد يمكنه معصية سيده، وإن كان في معصيته نوع من الفساد.

والخالق تعالى لا يمكن أحداً أن يفعل شيئاً إلا بمشيئته وقدرته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وفي معصية أمره الفساد الذي لا صلاح معه، فالمخلوق أعجز عن أن ينفع أو يضر بدون إذنه، من [عجز] المملوك عن النفع والضرر بدون إذن سيده، ومعصية المخلوق

لأمره، الذي أرسل به رسله، أعظم فساداً من معصية المملوك لأمر سيده) ا.هـ (١).

﴿فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَنِيئُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٤) ﴿﴾.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَنِيئُ﴾، وهذه ملة إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة. فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء. هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ قال تعالى: ﴿فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَنِيئُ﴾، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: خلقت عبادي حنفاء. فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم. وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً» (٣).

فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية، محبة له تعبه لا تشرك به شيئاً. ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف]، وتفسير هذه الآية مبسوط في غير هذا الموضع) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أخرجاه في الصحيحين، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَانِئُونَ ﴿٢١﴾﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَهُوَ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا

(١) درء تعارض العقل (٧/٣٨٩ - ٣٩٣).

(٢) الصنفية (٢/٢٦٢).

(٣) مر تخريجه.

(٤) مجموع الفتاوى (١٤/٢٩٥ - ٢٩٦).

أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١﴾ إلى قوله: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَدِئُ وَالْقَائِمُ وَالْكَرِيمُ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾، فأخبر أنه فطر عباده على إقامة الوجه حنيفاً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له فهذه من الحركة الفطرية الطبيعية المستقيمة المعتدلة للقلب، وتركها ظلم عظيم اتبع أهله أهواءهم بغير علم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (والله سبحانه فطر عباده على شيئين: إقرار قلوبهم به علماً، وعلى محبته والخضوع له عملاً وعبادة واستعانة. فهم مفطرون على العلم به والعمل له، وهو الإسلام الذي قال فيه النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» وفي رواية: «على هذه الفطرة» وفي الصحيحين عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَدِئُ الْقَائِمُ﴾ وأخرجه من حديث همام، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «من يولد يولد على هذه الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، كما تنتجون الإبل هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها. قالوا: يا رسول الله ﷺ أرأيت من يموت صغيراً؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين».

وروى البخاري من حديث شعيب بن أبي حمزة، عن الزهري قال: نصلي على كل مولود يتوفى وإن كان لغية^(٢) من أجل أنه ولد على فطرة الإسلام يدعي أبواه الإسلام أو أبوه خاصة وإن كانت أمه على غير الإسلام، وإذا استهل صارخاً، ولا نصلي على من لم يستهل من أجل أنه سقط؛ فإن أبا هريرة كان يحدث أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أخرجه البخاري من هذا الوجه، وإن كان منقطعاً لما فيه من كلام الزهري الذي فيه تفسير الحديث بأنه على فطرة الإسلام. والبخاري قد أخرجه متصلاً من حديث يونس عن الزهري عن أبي هريرة كما تقدم، وأخرجه مسلم من حديث الزهري، عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة بنحوه وفي آخره ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وأخرجه مسلم من حديث

(٢) أي: ابن زنا، وهو ضد ولد الرشدة.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٤٦).

الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فقال رجل يا رسول الله! أرأيت لو مات قبل ذلك؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين» وفي رواية ابن نمير عن الأعمش: «ما من مولود يولد إلا وهو على الملة» وفي رواية أبي معاوية عن الأعمش: «إلا على هذه الملة حتى يبين عنه لسانه» لفظ ابن أبي شيبه عنه. ولفظ أبي كريب عن أبي معاوية: «ليس من مولود ولد إلا على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه» ورواه مسلم من حديث الدراوردي، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، قال: «كل إنسان تلده أمه على الفطرة، وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم، كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان في حوضيه إلا مريم وابنها» ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، يعني: معرفة ربوبيته) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (والمقصود هنا أن القاضي أبا يعلى ونحوه ممن كان يقول أولاً: إن المعرفة لا تحصل إلا بالنظر في هذه الطريقة [وهي أول الواجبات]؛ لما ذكروا قوله ﷺ: «كلُّ مولود يولد على الفطرة»، قالوا: - واللفظ للقاضي في الفطرة - «ما الفطرة هنا؟» على روايتين عن أحمد:

«إحدهما»: الإقرار بمعرفة الله تعالى؛ وهي العهد الذي أخذه عليهم في أصلاب آبائهم، حين مسح ظهر آدم، فأخرج من ذريته إلى يوم القيامة أمثال الذر، وأشهدهم على أنفسهم. ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى، فليس أحد إلا وهو يقر بأن له صانعاً ومدبراً، وإن سمّاه بغير اسمه.

قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فكل مولود يولد على ذلك الإقرار الأول.

قال: «وليس الفطرة ههنا الإسلام، لأمرين:

«أحدهما»: أن معنى الفطرة: ابتداء الخلق. ومنه قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، أي مبتدئها وإذا كانت الفطرة هي الابتداء، وجب أن تكون تلك

(١) بيان تلبس الجهمية (٢/٤٨٠ - ٤٨١).

(٢) درء تعارض العقل (٨/٥٠٩) وهذا ليس قول شيخ الإسلام بل قول الشيخ أبي محمد بن عبد البصري.

هي التي وقعت لأول الخلق، وجرت في فطرة المعقول؛ وهو استخراجهم ذرية، لأن تلك حالة ابتدائهم، ولأنها لو كانت الفطرة هنا: الإسلام لوجب إذا ولد من بين أبوين كافرين ألا يرثهما ولا يرثانه، ما دام طفلاً، لأنه مسلم، واختلاف الدين يمنع الإرث، ولوجب ألا يصح استرقاقه، ولا يصح إسلامه بإسلام أبيه، لأنه مسلم».

قال: وهذا تأويل ابن قتيبة، ذكره في «إصلاح الغلط على أبي عبيد»، وذكره أبو عبد الله بن بطة في «الإبانة».

قال: «وليس كل من ثبتت له المعرفة حكم بإسلامه، كالبالغين من الكفار [فإن] المعرفة حاصلة لهم وليسوا بمسلمين».

قال: «وقد أوماً أحمد إلى هذا التأويل في رواية الميموني، فقال: الفطرة الأولى التي فطر الله عليها. فقال له الميموني: الفطرة: الدين؟ قال: نعم».

قال القاضي: «وأراد أحمد بالدين: المعرفة التي ذكرناها».

قال: «والرواية الثانية: الفطرة هنا: ابتداء خلقه في بطن أمه».

قال: «لأن حمله على العهد الذي أخذه عليهم؛ وهو الإقرار بمعرفة الله تعالى، حمل للفطرة على الإسلام، لأن الإقرار بالمعرفة إقرار بالإيمان، والمؤمن مسلم».

قال: «ولو كانت الفطرة الإسلام لوجب إذا ولد بين أبوين كافرين ألا يرثهما ولا يرثانه؛ لأن ذلك يمنع أن يكون الكفر خلقاً لله، وقد ثبت من أصولنا أن أفعال العباد خلق لله من طاعة ومعصية».

قال: «وقد أوماً أحمد إلى هذا في رواية علي بن سعيد، وقد سأله عن كل مولود يولد على الفطرة، فقال: على الشقاوة والسعادة».

وكذلك نقل محمد بن يحيى الكحال، أنه سأله عن كل مولود يولد على الفطرة، قال: هي التي فطر الناس عليها: شقي أو سعيد.

وكذلك نقل حنبل عنه، الفطرة التي فطر الله العباد من الشقاء والسعادة».

قال: «وهذا كله يدل من كلامه على أن المراد بالفطرة ههنا: ابتداء خلقه في بطن أمه».

قلت: أحمد لم يذكر العهد الأول، وإنما قال: الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها، وهي الدين. وقد قال في غير موضع: إن الكافر إذا مات أبواه أو أحدهما، حكم بإسلامه. واستدل بهذا الحديث: كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه

وينصّرانه ويمجّسانه. فدل على أنه فسّر الحديث: بأنه يولد على فطرة الإسلام، كما جاء ذلك مصرحاً به في الحديث: ولو لم يكن كذلك لما صحّ استدلاله بالحديث.

وقوله في موضع آخر: يولد على ما فطر عليه من شقاوة وسعادة لا ينافي ذلك، فإن الله تعالى قدّر الشقاوة والسعادة وكتبها، وقدّر أنها تكون بالأسباب التي تحصل بها، كفعل الأبوين. فتهويد الأبوين وتنصيرهما وتمجيسهما هو مما قدّره الله تعالى.

والمولود ولد على الفطرة سليماً، وولد على أنّ هذه الفطرة السليمة يغيّرها الأبوان، كما قدّر الله تعالى ذلك وكتبه. كما مثل النبي ﷺ ذلك بقوله: «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»، فبيّن أنّ البهيمة تولد سليمة، ثم يجدعها الناس، وذلك بقضاء الله وقدره، فكذلك المولود يولد على الفطرة سليماً، ثم يفسده أبواه، وذلك أيضاً بقضاء الله وقدره.

وإنما قال الأئمة: ولد على ما فطر عليه من شقاء وسعادة؛ لأن القدرية كانوا يحتجّون بهذا الحديث على أن الكفر والمعاصي ليس بقدر الله، بل مما فعله الناس، لأن كل مولود يولد خلقه الله على الفطرة، وكفّره بعد ذلك من الناس.

ولهذا قالوا لمالك بن أنس: إن القدرية يحتجّون علينا بأول الحديث، فقال: احتجّوا عليهم بآخره. وهو قوله: الله أعلم بما كانوا عاملين.

فبيّن الأئمة أنه لا حجّة فيه للقدرية، فإنهم لا يقولون إن نفس الأبوين خلقا تهوّدّه وتنصّره، بل هو تهوّد وتنصّر باختياريه، لكن كانا سبباً في ذلك بالتعليم والتلقين. فإذا أضيف إليهما بهذا الاعتبار، فلأن يضاف إلى الله الذي هو خالق كل شيء بطريق الأولى، لأن الله، وإن خلقه مولوداً على الفطرة سليماً، فقد قدّر عليه ما سيكون بعد ذلك من تغييره وعلم ذلك.

كما في الحديث الصحيح: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً، ولو بلغ لأرهق أبويه طغياناً وكفراً»^(١).

فقوله: طبع، أي طبع في الكتاب، أي قدّر وقضّي، لا أنه كان كفره موجوداً قبل أن يولد، فهو مولود على الفطرة السليمة، وعلى أنه بعد ذلك يتغيّر فيكفر، كما طبع كتابه يوم طبع.

(١) البخاري (٩١/٦ - ٩٣)، ومسلم (٢٠٥٠/٤).

ومن ظن أن المراد به الطبع على قلبه، وهو الطبع المذكور على قلوب الكفار، فهو غلط. فإن ذلك لا يقال فيه: طُبع يوم طُبع، إذ كان الطبع على قلبه إنما يوجد بعد كفره.

وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره [عن عياض بن حمار] عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه تعالى أنه قال: «خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»^(١)، وهذا صريح في أنه خلقهم على الحنيفية، وأن الشياطين اجتالتهم بعد ذلك.

وكذلك في حديث الأسود بن سريع الذي رواه أحمد وغيره، قال: بعث النبي ﷺ سرية، فأفضى بهم القتل إلى الذرية، فقال لهم النبي ﷺ: ما حملكم على قتل الذرية؟ قالوا: يا رسول الله! أليسوا أولاد المشركين؟ قال: أليس خياركم أولاد المشركين؟ ثم قام النبي ﷺ خطيباً فقال: ألا إن كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعرف عنه لسانه^(٢) فخطبته لهم بهذا الحديث عقب نهيهم عن قتل أولاد المشركين، وقوله لهم: أليس خياركم أولاد المشركين؟ يبين أنه أراد أنهم ولدوا غير كفار، ثم الكفر طراً بعد ذلك. ولو كان أراد أن المولود حين يولد يكون إما كافر وإما مسلماً على ما سبق له القدر - لم يكن فيما ذكره حجة على ما قصده ﷺ من نهيهم عن قتل أولاد المشركين.

وقد يظن بعضهم أن معنى قوله: «أليس خياركم أولاد المشركين؟» معناه: لعله أنه قد يكون سبق في علم الله أنهم لو بقوا لآمنوا، فيكون النهي راجعاً إلى هذا المعنى من التجويز. وليس هذا معنى الحديث، ولكن معناه: إن خياركم هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وهؤلاء من أولاد المشركين، فإن آباءهم كانوا كفاراً، ثم إن البنين أسلموا بعد ذلك، فلا يضر الطفل أن يكون من أولاد المشركين إذا كان مؤمناً، فإن الله إنما يجزيه بعمله لا بعمل أبويه، وهو سبحانه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ويخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن.

وهذا الحديث قد رُوي بالفاظ يفسر بعضها بعضاً؛ ففي الصحيح - واللفظ للبخاري - عن ابن شهاب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) مر تخريجه.

(٢) المسند (٤٣٥/٣) والدارمي (٢٢٣/٢) والحديث صحيح.

«ما من مولود إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ﴾، قالوا: يا رسول الله! أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: والله أعلم بما كانوا عاملين».

وفي الصحيح: قال الزهري^(١): يصلى على كل مولود متوفى وإن كان لغيبه، من أجل أنه ولد على فطرة الإسلام إذا استهل صارخاً، ولا يصلى على من لم يستهل من أجل أنه سقط، وإن أبا هريرة كان يحدث أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وفي الصحيح من رواية الأعمش^(٢): «ما من مولود يولد إلا وهو على الملة». وفي رواية أبي معاوية عنه: «إلا على هذه الملة حتى يبين عنه لسانه»، فهذا صريح في أنه يؤلّد على ملة الإسلام، كما فسّر ابن شهاب راوي الحديث، واستشهاد أبي هريرة بالآية يدل على ذلك.

قال ابن عبد البر في «التمهيد»: «روي هذا الحديث عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وغيره، فمّمّن رواه عن أبي هريرة سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وحميد بن عبد الرحمن، وأبو صالح السّمان، وعبد الرحمن الأعرج، وسعيد بن أبي سعيد، ومحمد بن سيرين»^(٣).

قال: «ورواه ابن شهاب، واختلف أصحابه في إسناده؛ منهم من رواه عن سعيد عن أبي هريرة، ومنهم من رواه عن أبي سلمة عن أبي هريرة ومنهم من رواه عن حميد عن أبي هريرة. قال محمد بن يحيى الذهلي: كل هذه صحاح عن ابن شهاب، محفوظة».

قال ابن عبد البر: «وقد سئل ابن شهاب عن رجل عليه رقبة مؤمنة أيجزئ الصبي عنه أن يعتقه وهو رضيع؟، قال: نعم لأنه ولد على الفطرة».

قال ابن عبد البر لما ذكر النزاع في تفسير هذا الحديث: «وقال آخرون: الفطرة ها هنا الإسلام، قالوا: وهو المعروف عند عامة السلف أهل التأويل، وقد أجمعوا في تأويل قوله ﷺ: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، على أن قالوا: فطرة الله: دين الله

(٢) مسلم (٤/٢٠٤٨).

(١) البخاري (٢/٩٤ - ٩٥).

(٣) تجريد التمهيد (ص ٢٩٠).

الإسلام. واحتجوا بقول أبي هريرة في هذا الحديث: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وذكروا عن عكرمة ومجاهد والحسن وإبراهيم والضحاك وقتادة^(١) في قول الله ﷻ: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ قالوا: فطرة الله: دين الله الإسلام، لا تبديل لخلق الله، قالوا: لدين الله، واحتجوا بحديث محمد بن إسحاق، عن ثور بن يزيد، عن يحيى بن جابر، عن عبد الرحمن بن عائذ الأزدي، عن عياض بن حمار المجاشعي، أن رسول الله ﷺ قال للناس يوماً: ألا أحدثكم بما حدّثني الله في الكتاب: إن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين... وأعطاهم المال حلالاً لا حرام فيه، فجعلوا ما أعطاهم الله حلالاً وحراماً... الحديث^(٢).

قال^(٣): «وكذلك روى بكر بن مهاجر، عن ثور بن يزيد بإسناده مثله في هذا الحديث: «حنفاء مسلمين».

«... قال أبو عمر: روى هذا الحديث قتادة عن مطرف بن عبد الله، عن عياض بن حمار، ولم يسمعه قتادة من مطرف، ولكن قال: حدثني ثلاثة: عقبة بن عبد الغافر، ويزيد بن عبد الله بن الشخير، والعلاء بن زياد، كلهم يقول: حدثني مطرف، عن عياض، عن النبي ﷺ، فقال فيه: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم». لم يقل: مسلمين، وكذلك رواه الحسن عن مطرف عن عياض، ورواه ابن إسحاق عمّن لا يتهم، عن قتادة بإسناده، وقال فيه: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم» ولم يقل: «مسلمين».

قال: «فدل هذا على حفظ محمد بن إسحاق وإتقانه وضبطه؛ لأنه ذكر: «مسلمين» في روايته عن ثور بن يزيد لهذا الحديث، وأسقطه من رواية قتادة، وكذلك رواه الناس عن قتادة، قصر فيه عن قوله: مسلمين، وزاد ثور بإسناده، والله أعلم».

قال: «والحنيف في كلام العرب: المستقيم المخلص، ولا استقامة أكثر من الإسلام».

قال: «وقد روي عن الحسن قال: الحنيفية: حج البيت، وهذا يدل على أنه أراد الإسلام، وكذلك روي عن الضحاك والسدي: «حنفاء» قال: حجاجا، وعن مجاهد: «حنفاء» قال: مُتَّبِعِينَ».

(١) ابن جرير (٢١/٤٠ - ٤١) أخرج كل هذه الأقوال.

(٢) الحديث في تجريد التمهيد (ص ٢٩٨). (٣) ابن عبد البر.

قال: «وهذا كله يدل على أن الحنيفية: الإسلام»، قال: «وقال أكثر العلماء: الحنيف: المخلص. وقال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِزْهِيمٌ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ﴾ [الحج: ٧٨]، [فلا وجه لإنكار من] أنكر رواية من روى: حنفاء: مسلمين.

قال الشاعر وهو الراعي^(١):

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً
عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلاً

فهذا وصف الحنيفية بالإسلام، وهو أمر واضح لا خفاء به.

قال: «ومما احتج به - من ذهب إلى أن الفطرة في هذا الحديث: الإسلام - قوله ﷻ: «خمس من الفطرة»^(٢) ويروى: «عشر من الفطرة» يعني: فطرة الإسلام».

قلت: الدلائل الدالة على أنه أراد: على فطرة الإسلام - كثيرة، كألفاظ الحديث التي في الصحيح، مثل قوله: «على الملة»، «وعلى هذه الملة» ومثل قوله في حديث عياض بن حمار: «خلقت عبادي حنفاء كلهم» وفي لفظ: «حنفاء مسلمين» ومثل تفسير أبي هريرة وغيره من رواة الحديث ذلك، وهم أعلم بما سمعوا.

وأيضاً، فإنه لو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام، لما سأله عقب ذلك: «أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير؟»؛ لأنه لو لم يكن هناك ما يغير تلك الفطرة لما سأله. والعلم القديم وما يجري مجراه لا يتغير.

وكذلك قوله: «فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»، بين فيه أنهم يغيرون [الفطرة] التي فطر [الناس] عليها.

وأيضاً، فإنه شبه ذلك بالبهيمة التي تولد مجتمعة الخلق لا نقص فيه، ثم تجدد بعد ذلك، فعلم أن التغيير وارد على الفطرة السليمة التي ولد العبد عليها.

وأيضاً، فإن الحديث مطابق للقرآن، لقوله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وهذا يعنى جميع الناس، فعلم أن الله فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة، وفطرة الله أضافها إليه إضافة مدح لا إضافة ذم فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة.

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (٥٠٨/١).

(٢) البخاري (١٦٠/٧)، ومسلم (٢٢١/١ - ٢٢٢).

يبين ذلك أنه قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وهذا نصب على المصدر الذي دلّ عليه الفعل الأول عند سيبويه وأصحابه. فدل على أن إقامة الوجه للدين حنيفاً هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، كما في نظائره، مثل قوله: ﴿كُنْتُ لِلَّهِ غَافِقًا﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح]، فهذا عندهم مصدر منصوب بفعل مضمر لازم إضماره، دلّ عليه الفعل المتقدم. كأنه قال: كتب الله ذلك عليكم، وسن الله ذلك. وكذلك هنا فطر الله الناس على ذلك: على إقامة الدين لله [حنيفاً]. وكذلك فسره السلف كما تقدم النقل عنهم.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره^(١) المشهور يقول: فسّد وجهك نحو الوجه الذي وجّهك الله يا محمد لطاعته، وهي: الدين حنيفاً. يقول: مستقيماً لدينه وطاعته. فطرة الله التي فطر الناس عليها، يقول: صنعة الله التي خلق الناس عليها، ونَصَبَ فِطْرَةَ عَلَى الْمَصْدَرِ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وذلك أن معنى ذلك: فطر الله الناس على ذلك فِطْرَةَ.

قال: «وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل». وروي «عن يونس بن عبد الأعلى، عن عبد الله بن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ قال: الإسلام، فمنذ خلقهم الله من آدم جميعاً يقرون بذلك. وقرأ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف]، فهذا قول الله كان الناس أمة واحدة يومئذ، فبعث الله النبيين بعد.

وروي بإسناده الصحيح عن ابن أبي نجیح عن مجاهد: فطرة الله، قال: الدين، الإسلام، وقال: ثنا ابن حميد، ثنا يحيى بن واضح، ثنا يونس بن أبي إسحاق، عن يزيد بن أبي مريم، قال: مرّ عمر بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث وهن المنجيات: الإخلاص: وهو الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها - والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهو العصمة. فقال عمر: صدقت.

وقال: حدثني يعقوب - يعني الدورقي - ثنا ابن عليّ ثنا أيوب عن أبي قلابة أن عمر قال لمعاذ: ما قوام هذه الأمة؟ فذكر نحوه.

قال: «وقوله: ﴿لَا بُدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾: يقول: لا تغيير لدين الله أي لا يصلح ذلك ولا ينبغي أن يفعل».

ثم ذكر بإسناده الصحيح عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد قال: لا تبديل لخلق الله. قال: لدين الله.

وروي عن عبد الله بن إدريس، عن ليث قال: أرسل مجاهد رجلاً يقال له: قاسم إلى عكرمة، يسأله عن قول الله: ﴿لَا بُدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾، فقال عكرمة: هو الخصاء. فرجع إلى مجاهد فقال: أخطأ، لا تبديل لخلق الله إنما هو الدين، ثم قرأ: ﴿لَا بُدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ أَلَيْسَ أَلْفَيْمٌ﴾، وروي عن وكيع، عن نضر بن عربي، عن عكرمة: لا تبديل لخلق الله: لدين الله.

وروي أيضاً عن حسين بن واقد عن يزيد النحوي، عن عكرمة: فطرة الله التي فطر الناس عليها، قال: الإسلام. وكذلك روي عن وكيع، عن سفيان الثوري، عن ليث، عن مجاهد قال: لدين الله. وروي عن سعيد، عن قتادة: ﴿لَا بُدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾: [أي]: لدين الله.

وكذلك روي «عن ابن عيينة، عن حميد الأعرج قال: قال سعيد بن جبير: ﴿لَا بُدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾، قال: لدين الله. وكذلك المحاربي، عن جويبر، عن الضحاک في قوله: ﴿لَا بُدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾، قال: دين الله.

وكذلك عن وكيع، عن سفيان الثوري، ومسعر، عن قيس بن مسلم، عن إبراهيم النخعي: ﴿لَا بُدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾، قال: دين الله.

وكذلك عن مغيرة، عن إبراهيم قال: لدين الله، وعن عمرو بن أبي سلمة، سألت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن قوله تعالى: ﴿لَا بُدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾. قال: لدين الله.

وروي أيضاً عن ابن عباس أنه سُئِلَ عن إخصاء البهائم فكرهه، وقال: لا تبديل لخلق الله. وعن حميد الأعرج قال: قال عكرمة: الإخصاء. وعن حفص بن غياث، عن ليث، عن مجاهد قال: الإخصاء.

قلت: مجاهد وعكرمة: رُوي عنهما القولان، إذ لا منافاة بينهما، كما قال تعالى: ﴿وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ ؕ إِذَا نَكَحَ الذَّكَرَ مِنْهُمَا فَوَلَّوْا بَاطِنَهُمَا فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [النساء: 119]، فتغيير ما خلق الله عليه عباده من الدين تغيير لخلقه، والخصاء وقطع الأذن أيضاً تغيير لخلقه.

ولهذا شبه النبي ﷺ أحدهما بالآخر في قوله: «كلّ مولود يُؤلّد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرّانه ويمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟».

فأولئك يُغيرون الدين، وهؤلاء يغيرون الصورة بالجذع والخصاء، هذا تغيير لما خلقت عليه نفسه، وهذا تغيير ما خلقت عليه بدنه.

واعلم أن هذا الحديث لما صارت القدرية يحتجون به على قولهم الفاسد، صار الناس يتأولّونه تأويلات يخرجونه [بها] عن مقتضاه.

فالقدرية من المعتزلة وغيرهم يقولون: كل مولود يولد على الإسلام، والله لا يضل أحداً، ولكن أبواه يضلّانه.

والحديث حجة عليهم من وجهين:

أحدهما: أنه عند المعتزلة ونحوهم من المتكلمين: لم يُؤلّد أحد على الإسلام أصلاً، ولا جعل الله أحداً مسلماً ولا كافراً، ولكن هذا أحدث لنفسه الكفر، وهذا أحدث لنفسه الإسلام، والله لم يفعل واحداً منهما عندهم، بلا نزاع بين القدرية، ولكن هو دعاهما إلى الإسلام، وأزاح علتها، وأعطاهما قدرة مماثلة فيهما تصلح للإيمان والكفر، ولم يختص المؤمن بسبب يقتضي حصول الإيمان، فإن ذلك عندهم غير مقدور، ولو كان مقدوراً لكان ظلماً، وهذا قول عامة المعتزلة. وإن كان بعض متأخريهم كأبي الحسين يقول: إنه خصّ المؤمن بداعي الإيمان، ويقول: عند الداعي والقدرة يجب وجود الإيمان. فهذا في الحقيقة موافق لأهل السنة. فهذا أحد الوجهين.

والثاني: أنهم يقولون: إن معرفة الله لا تحصل إلا بالنظر المشروط بالعقل، فيستحيل أن تكون المعرفة عندهم ضرورية، أو تكون من فعل الله تعالى.

وأما آخر الحديث فهو دليل على أن الله تعالى يعلم ما يصيرون إليه بعد ولادتهم على الفطرة؟ هل يبقون عليها فيكونون مؤمنين؟ أو يغيرونها فيصيرون كفاراً؟.

وإن احتجت القدرية بقوله: «فأبواه يهودانه وينصرّانه ويمجّسانه» من جهة كونه أضاف التغيير إلى الأبوين - فيقال لهم: أنتم تقولون: إنه لا يقدّر: لا الله ولا أحد من مخلوقاته، على أن يجعلهما يهوديين أو نصرانيين أو مجوسيين، بل هما فعلاً بأنفسهما ذلك، بلا قدرة من غيرهما ولا فعل من غيرهما، فحينئذ لا حجة لكم في قوله: «فأبواه يهودانه».

وأهل السنة متفقون على أن غير الله لا يقدر على جعل الهدى أو الضلال في قلب أحد. فقد اتفقت الأمة على أن المراد بذلك: دعوة الأبوين لهما إلى ذلك، وترغيبهما فيه، وتريبتهما عليه، ونحو ذلك مما يفعل المعلم والمربي مع من يُعلمه ويُربيّه، وذكر الأبوين بناءً على الغالب، إذ لكل طفل أبوان، وإلا فقد يقع ذلك من أحد الأبوين، وقد يقع من غير الأبوين حقيقةً وحكماً.

وأما غير القدرية فقال أبو عمر بن عبد البر: اختلف العلماء في الفطرة المذكورة في هذا الحديث اختلافاً كثيراً. وكذلك اختلفوا في الأطفال وحكمهم في الدنيا والآخرة. فذكر ما ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام في غريبه المشهور، قال: قال ابن المبارك: يفسره آخر الحديث: قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

قال ابن عبد البر: هكذا ذكر عن ابن المبارك، لم يزد شيئاً. وذكر عن محمد بن الحسن أنه سأله عن تأويل هذا الحديث فقال: «كان هذا القول عن النبي ﷺ قبل أن يؤمر الناس بالجهاد». [هذا ما ذكره أبو عبيد].

قال ابن عبد البر: «أما ما ذكره عن ابن المبارك فقد روي عن مالك نحوه، وليس فيه مقنع من التأويل ولا شرح موعب في أمر الأطفال، ولكنها جملة تؤدي إلى الوقوف عن القطع فيهم بكفر أو إيمان، أو جنة أو نار ما لم يبلغوا العمل».

قال: «وأما ما ذكره عن محمد بن الحسن، فأظن محمد بن الحسن حاد عن الجواب فيه: إمّا لإشكاله عليه، أو لجهله به، أو لما شاء الله. وأما قوله: إن ذلك كان من النبي ﷺ قبل أن يؤمر الناس بالجهاد، فلا أدري ما هذا. فإن كان أراد أن ذلك منسوخ، فغير جائز عند العلماء دخول النسخ في أخبار الله تعالى وأخبار رسوله، لأن المخبر بشيء، كان أو يكون، إذا رجع عن ذلك، لم يخل رجوعه عن تكذيبه لنفسه، أو غلظه فيما أخبر به، أو نسيانه. وقد جلّ الله وعصم رسوله في الشريعة والرسالة منه، وهذا لا يجهله ولا يخالف فيه أحد له أدنى فهم، فقف عليه، فإنه أمر جسيم من أصول الدين. وقول محمد بن الحسن: إن ذلك كان قبل أن يؤمر الناس بالجهاد ليس كما قال. لأن في حديث الأسود بن سريع، ما بيّن أن ذلك كان منه بعد الأمر بالجهاد».

وروي بإسناده عن الحسن، عن الأسود بن سريع، قال: قال رسول الله ﷺ: ما بال أقوام بلغوا في القتل حتى قتلوا الولدان؟ فقال رجل: أو ليس إنما هم أولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ إنه ليس من مولود يولد إلا على الفطرة حتى يبلغ فيعبر عنه لسانه. ويهوده أبواه أو ينصرانه.

قال: وروي هذا الحديث عن الحسن جماعة، منهم بكر المزني، والعلاء بن زياد، والسري بن يحيى. وقد روي عن الأحنف عن الأسود بن سريع، قال: وهو حديث بصري صحيح. قال: وروى عوف الأعرابي عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: كل مولود يولد على الفطرة. فناداه الناس: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: وأولاد المشركين.

قلت: أمّا ما ذكره عن ابن المبارك ومالك، فيمكن أن يقال: إن المقصود أن آخر الحديث يبين أن الأولاد قد سبق في علم الله ما يعملون إذا بلغوا، وأن منهم من يؤمن ويدخل الجنة، ومنهم من يكفر فيدخل النار. فلا يحتج بقوله: «كل مولود يولد على الفطرة» على نفي القدر كما احتجت به القدرية، ولا على أن أطفال الكفار كلهم في الجنة لكونهم ولدوا على الفطرة، فيكون مقصود الأئمة أن يستقر الأطفال على ما في آخر الحديث.

وأما قول محمد، فإنه رأى الشريعة قد استقرت على أن ولد اليهودي والنصراني يتبع أبويه في الدين في أحكام الدنيا، فيحكم له بحكم الكفر في أنه لا يصلّى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يرثه المسلمون، ويجوز استرقاقهم، ونحو ذلك فلم يجز لأحد أن يحتج بهذا الحديث على أن حكم الأطفال في الدنيا حكم المؤمنين حتى تعرب عنهم ألسنتهم، وهذا حق. لكن ظن أن الحديث اقتضى أن يحكم لهم في الدنيا بأحكام المؤمنين، فقال: هذا منسوخ، كان قبل الجهاد، لأنه بالجهاد أبيع استرقاق النساء والأطفال، والمؤمن لا يُسرق. ولكن كون الطفل يتبع أباه في الدين في الأحكام الدنيوية، أمر ما زال مشروعاً، وما زال الأطفال تبعاً لأبويهم في الأمور الدنيوية.

والحديث لم يقصد بيان هذه الأحكام، وإنما قصد ما وُلد عليه من الفطرة. وإذا قيل: إنه ولد على فطرة الإسلام، أو خلق حنيفاً ونحو ذلك. فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده.

فإن الله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، ولكن فطرته مقتضية موجبة لدين الإسلام، لمعرفته ومحبته.

فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضاها تحصل شيئاً بعد شيء، بحسب كمال الفطرة، إذا سَلِمَتْ عن المعارض. وليس المراد مجرد قبول الفطرة لذلك أكثر من غيره، كما أن كل مولود يولد فإنه

يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة، فيشتهي اللبن الذي يناسبه.

وهذا من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ﴿٥٥﴾ [طه] وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ ﴿١﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ﴿٢﴾ [الأعلى]، فهو سبحانه خلق الحيوان مهتدياً إلى طلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ثم هذا الحب والبغض يحصل فيه شيئاً فشيئاً بحسب حاجته. ثم قد يعرض لكثير من الأبدان ما يُفسد ما ولد عليه من الطبيعة السليمة والعادة الصحيحة.

قال ابن عبد البر: «وأما اختلاف العلماء في الفطرة المذكورة في هذا الحديث، وما كان مثله، فقالت فرقة: الفطرة في هذا الموضوع أريد بها الخِلقَة التي خُلِقَ عليها المولود من المعرفة بربه، فكأنه قال: «كل مولود يولد على خِلقَة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة» يريد خِلقَة مخالفة لخِلقَة البهائم، التي لا تصل بخِلقَتها إلى معرفة ذلك.»

«قالوا: لأن الفاطر هو الخالق»

قال: وأنكرت أن يكون المولود يفطر على إيمان أو كفر أو معرفة أو إنكار.»

قلت: صاحب هذا القول إن أراد بالفطرة التمكن من المعرفة والقدرة عليها، فهذا ضعيف. فإن مجرد القدرة على ذلك لا يقتضي أن يكون حنيفاً، ولا أن يكون على الملة، ولا يحتاج أن يذكر تغيير أبويه لفطرته، حتى يسأل عمّن مات صغيراً. ولأن القدرة هي في الكبير أكمل منها في الصغير.

وهو لما نهاهم عن قتل الصبيان، فقالوا: إنهم أولاد المشركين. قال: ليس خياركم أولاد المشركين؟ ما من مولود إلا يولد على الفطرة.

ولو أريد القدرة لكان البالغون كذلك، مع كونهم مشركين، مستوجبين للقتل.

وإن أراد بالفطرة القدرة على المعرفة مع إرادتها، فالقدرة الكاملة مع الإرادة التامة تستلزم وجود المراد المقدور، فدلّ على أنهم فطروا على القدرة على المعرفة وإرادتها وذلك مستلزم للإيمان.

قال: «وقال آخرون معنى قوله ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة، يعني البداية التي ابتدأهم عليها، يريد أنه مولود على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت، والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ من قبولهم عن آبائهم اعتقادهم»...

«قالوا: والفطرة في كلام العرب البداية. والفاطر المبدئ والمبتدئ. فكأنه

قال ﷺ: يولد على ما ابتدأه [الله] عليه من الشقاء والسعادة، وغير ذلك مما يصير إليه وقد فطره عليه. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿١٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف].

وروي بإسناده إلى ابن عباس قال: لم أدر ما فاطر السماوات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي ابتدأتها... وذكروا ما يروى عن عليّ رضي الله عنه في دعائه: اللهم جبار القلوب على فطرتها، شقيها وسعيدها.

قلت: حقيقة هذا القول أن كل مولود فإنه يولد على ما سبق في علم الله أنه صائر إليه. ومعلوم أن جميع المخلوقات بهذه المثابة، فجميع البهائم هي مولودة على ما سبق في علم الله لها. والأشجار مخلوقة على ما سبق في علم الله لها. وحينئذ فيكون كل مخلوق مخلوقاً على الفطرة.

وأيضاً فإنه لو كان المراد ذلك لم يكن لقوله: «فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» معنى، فإنهما فعلا به ما هو الفطرة التي ولد عليها، على هذا القول، فلا فرق بين التهود والتنصير حينئذ، وبين تلقين الإسلام وتعليمه، وبين تعليم سائر الصنائع، فإن ذلك كله داخل فيما سبق به العلم.

وأيضاً فتمثيله ذلك بالبهيمة التي ولدت جمعاء ثم جدعت، يبين أن أبويه غيرا ما ولد عليه.

وأيضاً فقوله: «على [هذه] الملة»، وقوله: «[إني] خلقت عبادي حنفاء» يخالف هذا. وأيضاً فلا فرق بين حال الولادة وسائر أحوال الإنسان، فإنه من حين كان جنيناً إلى ما لا نهاية له من أحواله، على ما سبق في علم الله، فتخصيص الولادة بكونها على مقتضى القدر تخصيص بغير مخصص. وقد ثبت في الصحيح أنه: قبل نفخ الروح فيه يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فلو قيل: كل مولود ينفخ فيه الروح على الفطرة، لكان أشبه بهذا المعنى، مع أن النفخ هو بعد الكتابة.

قال ابن عبد البر: «قال أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي: وهذا المذهب شبيه بما حكاه أبو عبيد عن ابن المبارك، أنه سئل عن هذا الحديث، فقال: يفسره الحديث الآخر [حين سئل عن أطفال المشركين]: الله أعلم بما كانوا عاملين».

قال المروزي: وقد كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول، ثم تركه.

قال ابن عبد البر: ما رسمه مالك في «موطأه»، وذكره في أبواب القدر، فيه من الآثار ما يدل على أن مذهبه في ذلك نحو هذا.

قلت: أئمة السنة مقصودهم أن الخلق صائرون إلى ما سبق به علم الله منهم من إيمان وكفر، كما في الحديث الآخر: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً» والطبع: الكتاب، أي كتب كافراً كما قال: «فيكتب رزقه، وأجله، وعلمه، وشقي أو سعيد»، وليس إذا كان الله قد كتبه كافراً، يقتضي أنه حين الولادة كافراً، بل يقتضي أنه لا بد أن يكفر، وذلك الكفر هو التغيير، كما أن البهيمة التي ولدت جمعاء، وقد سبق في علمه أنها تجدد، كتب أنها مجدوعة بجدد يحدث لها بعد الولادة، لا يجب أن تكون عند الولادة مجدوعة.

وكلام أحمد في أجوبة أخرى له، يدل على أن الفطرة عنده: الإسلام، كما ذكر محمد بن نصر عنه أنه آخر قوله، فإنه كان يقول: إن صبيان أهل الحرب إذا سبوا بدون الأبوين كانوا مسلمين، وإن كانوا معهما فهم على دينهما، وإن سبوا مع أحدهما، فعنه روايتان، وكان يحتج بالحديث.

قال أبو بكر الخلال في الجامع في كتاب «أحكام أهل الملل»: «أنبأ أبو بكر المروزي أن أبا عبد الله قال في سبي أهل الحرب: إنهم مسلمون إذا كانوا صغاراً، وإن كانوا مع أحد الأبوين. وكان يحتج بقول رسول الله ﷺ «فأبواه يهودانه وينصرانه...».

قال: وأما أهل الثغر فيقولون: إذا كان مع أبويه: إنهم يجبرونه على الإسلام».

قال: ونحن لا نذهب إلى هذا. قال النبي ﷺ: «فأبواه يهودانه...».

قال الخلال: أنبأ عبد الملك الميموني قال: سألت أبا عبد الله قبل الحبس - أي قبل أن يحبس أحمد في محنة الجهمية - عن الصغير [يخرج] من أرض الروم وليس معه أبواه. قال: إذا مات صلى عليه المسلمون. قلت: يُكره على الإسلام؟

قال: إذا كانوا صغاراً يصلون عليه، أكره من يليه إلا هم، وحكمه حكمهم.

قلت: فإن كان معه أبواه؟ قال: إذا كان معه أبواه - أو أحدهما - لم يكره، ودينه

على دين أبويه.

قلت: إلى أي شيء يذهب إلى حديث النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»:

حتى يكون أبواه؟ قال: نعم.

قال: وعمر بن عبد العزيز نادى^(١) به؟ قال: فرده إلى بلاد الروم إلا وحكمه حكمهم. قلت: في الحديث كان معه أبواه؟ قال: لا. وليس ينبغي إلا أن يكون معه أبواه.

قال الخلال: «ما رواه الميموني قول أول لأبي عبد الله...» «وذلك نقل إسحاق بن منصور أن أبا عبد الله قال: إذا لم يكن معه أبواه فهو مسلم. قلت: لا يجبرون على الإسلام، إذا كان معه أبواه أو أحدهما؟ قال: نعم.»

قال الخلال: «وقد روى هذه المسألة عن أبي عبد الله خلق كلهم قال: إذا كان مع أحد أبويه فهو مسلم. وهؤلاء النفر سمعوا من أبي عبد الله بعد الحبس، وبعضهم قبل وبعد، والذي أذهب إليه: ما رواه الجماعة»

وقال الخلال: «ثنا أبو بكر المروزي قال: قلت لأبي عبد الله: إني كنت بواسط، فسألوني عن الذي يموت هو وامرأته، ويدعا^(٢) طفلين ولهما عم، ما تقول فيهما؟ فإنهم قد كتبوا إلى البصرة فيها، وقالوا: إنهم قد كتبوا إليك. فقال: أكره أن أقول فيها برأي. دع حتى أنظر، لعل فيها عمّن تقدم. فلما كان بعد شهر عاودته، فقال: قد نظرت فيها فإذا قول النبي ﷺ: «فأبواه يهودانه وينصرانه...»، وهذا ليس له أبوان.

قلت: يجبر على الإسلام؟ قال: نعم، هؤلاء مسلمون، لقول النبي ﷺ...
«وكذلك نقل يعقوب بن بختان قال: قال أبو عبد الله: الذمّي إذا مات أبواه وهو صغير جبر على الإسلام. وذكر الحديث: فأبواه يهودانه وينصرانه...».

«ونقل عن عبد الكريم بن الهيثم العاقولي في المجوسيين يولد لهما ولد فيقولان: هذا مسلم، فيمكث خمس سنين، ثم يتوفى؟ قال: ذلك يدفنه المسلمون. قال النبي ﷺ: «فأبواه يهودانه وينصرانه...».

«وقال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن قوم يزوجون بناتهم من قوم، على أنه ما كان من ذكر فهو للرجل مسلم، وما كان من أنثى فهي مشركة: يهودية أو نصرانية أو مجوسية؟ فقال: يجبر هؤلاء من أبي منهم على الإسلام، لأن آباءهم مسلمون. حديث النبي ﷺ: «فأبواه يهودانه وينصرانه» يردون كلهم إلى الإسلام.»

(١) أشار محمد رشاد سالم إلى أن في نسخة ت: فادى، وهو الراجح عندي المناسب للسياق.

(٢) كذا في الأصل، والجمادّة: وَيَدْعَانِ.

ومثل هذا كثير في أجوبته، يحتج بالحديث على أن الطفل إنما يصير كافراً بأبويه، فإذا لم يكن مع أبوين كافرين فهو مسلم، فلو لم تكن الفطرة: الإسلام، لم يكن بعدم أبويه يصير مسلماً. فإن الحديث إنما دلّ على أنه يولد على الفطرة. ونقل عنه الميموني أن الفطرة هي الدين، وهي الفطرة الأولى.

قال الخلال: «أخبرني الميموني أنه قال لأبي عبد الله: كل مولود يولد على الفطرة يدخل عليه إذا كان أبواه، معناه: أن يكون حكمه حكم ما كانوا صغاراً؟ فقال لي: نعم، ولكن يدخل عليك في هذا. فتناظرنا بما يدخل عليّ من هذا القول، وبما يكون بقوله. قلت لأبي عبد الله: فما تقول أنت فيها، وإلى أي شيء تذهب؟ قال: إيش أقول أنا؟ ما أدري أخبرك هي مسلمة كما ترى، ثم قال لي: والذي يقول: كل مولود يولد على الفطرة ينظر أيضاً إلى الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها. قلت له: فما الفطرة الأولى: هي الدين؟ قال لي: نعم».

فمن الناس من يحتج بالفطرة الأولى مع قول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة». قلت لأبي عبد الله: فما تقول لأعرف قولك؟ قال: أقول: إنه على الفطرة الأولى».

فجوابه: أنه على الفطرة الأولى، وقوله: إنها الدين - يوافق القول بأنه على دين الإسلام.

وأما جواب أحمد: أنه على ما فطر عليه من شقاء وسعادة، الذي ذكر محمد بن نصر أنه كان يقول به ثم تركه، فقال الخلال: «أخبرني محمد بن يحيى الكحل، أنه قال لأبي عبد الله: كل مولود يولد على الفطرة، ما تفسيرها؟ قال: هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، شقي أو سعيد».

وكذلك نقل عنه «الفضل بن زياد، وحنبل، وأبو الحارث أنهم سمعوا أبا عبد الله في هذه المسألة، قال: الفطرة التي فطر الله العباد عليها من الشقاوة والسعادة».

وكذلك نقل: «عن علي بن سعيد أنه سأل أبا عبد الله عن كل مولود يولد على الفطرة. قال: على الشقاء والسعادة، فإليه يرجع على ما خلق».

«وعن الحسن بن ثواب قال: سألت أبا عبد الله عن أولاد المشركين. قلت: إن ابن أبي شيبه أبا بكر قال: هو على الفطرة حتى يهوده أبواه أو ينصره، فلم يعجبه شيء من هذا القول وقال: كل مولود من أطفال المشركين على الفطرة، يولد على الفطرة

التي خلقوا عليها من الشقاء والسعادة التي سبقت في أم الكتاب، ارفع ذلك إلى الأصل. هذا معناه: كل مولود يولد على الفطرة».

قلت: وأما ثبوت حكم الكفر في الآخرة للأطفال، فكان أحمد يقف فيه، تارة يقف عن الجواب، وتارة يردهم إلى العلم، كقوله: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وهذا أحسن جوابيه. كما نقل محمد بن الحكم عنه، وسأله عن أولاد المشركين، فقال: اذهب إلى قول النبي ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين»، هذا أحسن جوابيه.

ونقل عنه «أبو طالب أن أبا عبد الله سئل عن أطفال المشركين. فقال: كان ابن عباس يقول: «فأبواه يهودانه وينصرانه»، حتى سمع: «الله أعلم بما كانوا عاملين» فترك قوله.

قال أحمد: وهي صحاح، ومخرجها كلها صحاح. وكان الزهري يقول: من الحديث ما يحدث بها على وجوها».

وأما توقف أحمد في الجواب، «فنقل عنه علي بن سعيد أنه سأله عن قوله فأبواه يهودانه وينصرانه. قال: الشأن في هذا، وقد اختلف الناس، ولم نقف منها على شيء أعرفه».

وقال الخلال: «رأيت في كتاب لهارون المستملي، قال أبو عبد الله: إذا سأل الرجل عن أولاد المشركين مع آبائهم، فإنه أصل كل خصومة، ولا يسأل عنه إلا رجل الله أعلم به. قال: ونحن نمرُّ هذه الأحاديث على ما جاءت، ونسكت، لا نقول شيئاً».

«وقال المروزي: قال أبو عبد الله سأل بشر بن السري سفيان الثوري عن أطفال المشركين، فصاح به وقال: يا صبي، أنت تسأل عن هذا؟».

وكذلك نقل خطاب بن بشر، وحنبل أن أبا عبد الرحمن بن الشافعي سأل أحمد عن هذا، فنهاه، ولم ينقل أحد قط عن أحمد أنه قال: هم في النار. ولكن طائفة من أتباعه، كالقاضي أبي يعلى وغيره، لما سمعوا جوابه بأنه قال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ظنوا أن هذا من تمام حديث مروى عن خديجة رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ عن أولادها من غيره، فقال النبي ﷺ: هم في النار فقالت: بلا عمل؟ فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين. فظن هؤلاء أن أحمد أجاب بحديث خديجة، وهذا غلط على أحمد. فإن حديث خديجة هذا حديث موضوع [كذب] لا يحتاج بمثله أقل من صحب أحمد، فضلاً عن الإمام أحمد.

وأحمد إنما اعتمد على الحديث الصحيح، حديث ابن عباس، وحديث أبي هريرة، وهو في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ [أنه قال]: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّهَا﴾».

وكذلك في الصحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه سئل عن أطفال المشركين. فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين.

وقد ذكر أحمد أن ابن عباس رجع إلى هذا، بعد أن كان يقول: هم مع آبائهم. فدل على أن هذا جواب من لا يقطع بأنهم مع آبائهم.

وأبو هريرة نفسه، الذي روى هذا الحديث عن النبي ﷺ، قد ثبت عنه ما رواه غير واحد، منهم عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره وغيره، من حديث عبد الرزاق: أنبا معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الفترة والمعنوه والأصم والأبكم والشيوخ الذين لم يدركوا الإسلام، ثم أرسل إليهم رسولاً: أن ادخلوا النار، فيقولون: كيف ولم يأتنا رسل؟ قال: وأيم الله لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً^(١)، ثم يرسل إليهم [رسولاً]، فيطيعه من كان يريد أن يطيعه. ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وروي هذا الأثر عن أبي هريرة: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره من رواية محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور، عن معمر، ومن رواية القاسم، عن الحسين، عن أبي سفيان، عن معمر، وقال فيه: «والشيوخ الذين جاء الإسلام وقد خرفوا» فبين أبو هريرة أن الله لا يعذب أحداً حتى يبعث إليه رسولاً، وأنه في الآخرة يمتحن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا.

وقد روى هذا الحديث [الإمام] أحمد، عن أبي هريرة مرفوعاً إلى النبي ﷺ. وعن الأسود بن سريع أيضاً، قال أحمد في المسند: حدثنا علي بن عبد الله ثنا معاذ بن هشام ثنا أبي عن قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع: أن نبي الله ﷺ

(١) المسند (٢٤/٤) قال الهيثمي في المجمع (٧/٢١٦) بعد أن عزاه لأحمد والبخاري رجاله من طريق الأسود بن سريع وأبو هريرة رجال الصحيح وكذلك رجال البخاري والحديث صحيح، انظر لتفصيل الروايات والشواهد «الدر المنثور» (٤/١٦٩).

قال: أربعة يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب، ما أتاني لك رسول. فيأخذ موثيقهم ليطيعه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً.

وبالإسناد عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة بمثل هذا الحديث. غير أنه قال في آخره: فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن لم يدخلها يسحب إليها.

وقد جاءت بذلك عدة آثار مرفوعة إلى النبي ﷺ، وعن الصحابة والتابعين، بأنه في الآخرة يمتحن أطفال المشركين وغيرهم ممن لم تبلغه الرسالة في الدنيا، وهذا تفسير قوله: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وهذا هو الذي ذكره الأشعري [في المقالات] عن أهل السنة والحديث، وذكر أنه يذهب إليه.

وهذا التفصيل يذهب الخصومات التي كره الخوض فيه لأجلها من كرهه. فإن من قطع لهم بالنار كلهم، جاءت نصوص تدفع قوله، ومن قطع لهم بالجنة كلهم، جاءت نصوص تدفع قوله. ثم إذا قيل: هم مع آبائهم، لزم تعذيب من لم يذنب، وانفتح باب الخوض في الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والقدر والشرع، والمحبة والحكمة والرحمة. فلهذا كان أحمد يقول: هو أصل كل خصومة.

فأما جواب النبي ﷺ الذي أجاب به أحمد آخرأً، وهو قوله: «الله أعلم بما كانوا عاملين»، فإنه فصل الخطاب في هذا الباب. وهذا العلم يظهر حكمه في الآخرة، والله تعالى أعلم.

وأحمد رحمته كان متبعاً في هذا الباب وغيره لمن قبله من أئمة السنة، كما روينا عن طريق إسحاق بن راهويه، فيما ذكره ابن عبد البر وغيره.

«ثنا يحيى بن آدم، ثنا جرير بن حازم، عن أبي رجاء العطاردي: سمعت ابن عباس يقول: لا يزال أمر هذه الأمة موثياً أو مقارباً، أو كلمة تشبه هاتين، حتى يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقدر.

قال يحيى بن آدم: فذكرته لابن المبارك، فقال: أفيستكت الإنسان على الجهل؟ قلت: فتأمر بالكلام؟ فسكت.

وذكر محمد بن نصر المروزي، ثنا شيبان بن شيبه، ثنا جرير ابن حازم فذكره بإسناده. وقال: لا يزال أمر هذه الأمة مقارباً أو مواتياً ما لم يتكلموا في الولدان والقدر.

وذكر المروزي أيضاً، ثنا عمرو بن زرارة، أنبأ إسماعيل بن عليه، عن ابن عون قال: كنت عند القاسم بن محمد إذ جاءه رجل فقال: ماذا كان بين قتادة وبين حفص بن عمر في أولاد المشركين؟ قال: وتكلم ربيعة الرأي في ذلك؟ فقال القاسم: إذا الله انتهى عند شيء فانتهوا وقفوا عنده. قال: فكأنما كانت ناراً فطفئت.

قلت: ابن عباس رضي الله عنه خطب بهذه الخطبة بالبصرة، وكان عنده وعند غيره من الصحابة من العلم بما يحدث في هذه الأمة، والتحذير من أسباب الفتن، ما قد نقل إلينا، كما في الحديث الذي ذكره أحمد في رسالته للمتوكل في قصة ابن عباس مع عمر بن الخطاب، لما كثر القراء، وخوفهما من اختلاف الأمة وافتراقها، والمسائل المشككة إذا خاض فيها أكثر الناس لم يفهموا حقيقتها، وإذا تنازعوا فيها صار بينهم أهواء وظنون، وأفضى ذلك إلى الفرقة والفتنة.

ومن ذلك الحديث الذي رواه أحمد وغيره، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ خرج على أصحابه وهم يتنازعون في القدر، وقائل يقول: «ألم يقل الله كذا؟ وآخر يقول: ألم يقل الله كذا؟ فقال: أبهذا أمرتم؟ أم إلى هذا دعيتم؟ أن تضربوا كتاب الله بفضه ببعض؟ انظروا ما أمرتم به فافعلوه، وما نهيتهم عنه فاتركوه»^(١).

فهذا الحديث ونحوه مما ينهى فيه عن معارضة حق بحق، فإن ذلك يقتضي التكذيب بأحد الحقيين، أو الاشتباه والحيرة. والواجب التصديق بهذا الحق وهذا الحق، فعلى الإنسان أن يصدق بالحق الذي يقوله غيره، كما يصدق بالحق الذي يقوله هو، ليس له أن يؤمن بمعنى آية استدل بها، ويرد معنى آية استدل بها مُناظره، ولا أن يقبل الحق من طائفة، ويردّه من طائفة أخرى.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوۡلِيۡكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر]، فذم سبحانه من كذب من كذب أو كذب بحق، ولم يمدح إلا من صدق وصدق بالحق. فلو صدق الإنسان فيما يقوله، ولم يصدق بالحق الذي يقوله غيره، لم يكن ممدوحاً، حتى يكون ممن يجيء بالصدق ويصدق به، فأولئك هم المتقون.

ومسألة القدر يحتاج فيها إلى الإيمان بقدر الله، وإلى الإيمان بشرع الله. فطائفة غلب عليهم التصديق بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، فظنوا أن هذا لا يتم إلا بالتكذيب بالقدر، فأخطأوا في التكذيب به. وطائفة ظنت أن الإيمان بالقدر لا يتم إلا بأن يقول: إن الرب تعالى يخلق ويأمر لا لحكمة ولا لرحمة، ولا يسوّى بين المتماثلين، بل بإرادة ترجح أحد المتماثلين لا لمرجح. واشتركت الطائفتان في أن القادر المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح.

وهذا أصل مذهب القدرية النفاة، ولهذا قالوا: إن العبد لا يحتاج في ترجيح أحد مقدوريه على الآخر إلى مرجح يفتقر فيه إلى الله [تعالى]، وإن الله لا يمتن على المطيع بنعمة أنعم بها عليه دون العاصي صار بها مطيعاً، وتوهموا أن هذا من الظلم الذي يجب نفيه، وظن أولئك أنه لا يمكن إبطال قولهم إلا بأن يقال: الظلم ممتنع لذاته، وأنه مهما قدر من الممكنات فهو عدل، حتى تعذيب الأنبياء والصالحين، وتنعيم الكفار والفاسقين، إلى أمثال هذه الأمور التي خاض فيها الناس في القدر، وكانت من أعظم أسباب الجهل والظلم.

وكان أعظم ظهور ذلك من أهل البصرة الذين خطبهم ابن عباس، وكذلك أمر أطفال المشركين: طائفة يقولون: يعذبهم كلهم، أو يمكن تعذيبهم كلهم، بناء على المشيئة المرجحة بلا سبب ولا حكمة ولا رحمة.

وطائفة تقول: بل يدخلون الجنة مع من آمن وعمل صالحاً، بناء على رحمة بلا حكمة، وتسوية بين أولاد الكفار، وبين من آمن وعمل صالحاً ومن لم يؤمن ويعمل صالحاً، من غير اعتبار التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، فيقع الاختلاف والاشتباه والتفرق.

وهذه المسائل وغيرها قد بين الله ورسوله أمرها، فإن الله أكمل الدين، وأتم النعمة. وقد قال النبي ﷺ: «تركتمكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي

إلا هالك»^(١).

وفي الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه قال: توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً^(٢)، وقد أنزل الله كتابه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة [للمؤمنين].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]، قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه، أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

وقد قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فحكم الله بكتابه بين الناس فيما اختلفوا فيه، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فهذه النصوص وأمثالها مما يبين أن ما بعث الله به رسله، يبين للناس ما يحتاجون إليه من أمر دينهم في هذه المسائل وغيرها، لكن ليس كل واحد قد بلغته النصوص كلها، ولا كل أحد يفهم ما دلت عليه النصوص؛ فإن الله يختص من يشاء من عباده من العلم والفهم بما يشاء، فمن اشتبه عليه الأمور فتوقف لثلا يتكلم بلا علم، أو لثلا يتكلم بكلام يضر ولا ينفع فقد أحسن، ومن علم الحق بيته لمن يحتاج إليه ويتنفع بهن فهو أحسن وأحسن.

ولهذا لما روى يحيى بن آدم لابن المبارك هذا الأثر عن ابن عباس، وهو [قوله] أنه لا يزال أمر هذه الأمة موافقاً أو مقارباً، شك الراوي، حتى يتكلموا في الولدان والقدر، وكان قائل هذا يطلب من الناس السكوت مطلقاً. قال [له] ابن المبارك: أفيست الإنسان على الجهل؟ وقد صدق ابن المبارك، فقال له يحيى بن آدم: أفتأمر بالكلام؟ فسكت ابن المبارك، لأن أمره بالكلام مطلقاً يتضمن الإذن بالكلام الذي وقع من الناس، وفيه من الجهل والكذب ما ينهي عنه.

وتحقيق الأمر أن الكلام بالعلم الذي بيته الله ورسوله مأمور به، وهو الذي ينبغي للإنسان طلبه، وأما الكلام بلا علم فيدم، ومن تكلم بما يخالف الكتاب والسنة فقد

(١) مر تخريجه وهو حديث العرياض بن سارية المعروف.

(٢) مسند أحمد (١٥٣/٥) وهو صحيح، ولفظه: أذكرنا.

تكلم بلا علم، وقد يتكلم بما يظنه علماً: إما برأي رآه، وإما بنقل بلغه، ويكون كلاماً بلا علم. وهذا قد يُعذر صاحبه تارة وإن لم يتبع، وقد يذم صاحبه إذا ظلم غيره ورد الحق الذي معه بغياً.

كما ذم الله ذلك بقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، فالبغي مذموم مطلقاً. سواء كان في أن يلزم
الإنسان الناس بما لا يلزمهم، ويذمهم على تركه أو بأن يذمهم على ما هم معذورون
فيه، والله يغفر لهم خطأهم فيه، فمن ذم الناس وعاقبهم على ما لم يذمهم الله [تعالى]
ويعاقبهم عليه فقد بغى عليهم، لا سيما إذا كان ذلك لأجل هواه.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، والله تعالى قد
قال: ﴿رَحِمَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب].

فالسعيد من تاب الله عليه من جهله وظلمه، وإلا فالإنسان ظلم جهول، وإذا وقع
الظلم والجهل في الأمور العامة الكبار، أوجبت بين الناس العداوة والبغضاء، فعلى
الإنسان أن يتحرى العلم والعدل فيما يقوله في مقالات الناس، فإن الحكم بالعلم
والعدل في ذلك أولى منه في الأمور الصغار.

وقد قال النبي ﷺ: القضاة ثلاثة^(١): قاضيان في النار، وقاض في الجنة. رجل
علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل
علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار. فإذا كان هذا فيمن يقضي في درهم وثوب،
فكيف بمن يقضي في الأصول المتضمنة للكلام في رب العالمين، وخلقه وأمره، ووعده
ووعيده؟

ولهذا لما اشترك هؤلاء القدرية القائلون بأن القادر المختار يرجح أحد المثليين
على الآخر بلا مرجح في هذا الأصل، وناظروا به الملاحدة القائلين بقدوم العالم، من
الدهرية الفلاسفة وغيرهم، ورأى أولئك أن هذا ليس بعلم ولا عدل، طمعوا في هؤلاء
القدرية.

فإن الإنسان إذا اتبع العدل نصر على خصمه، وإذا خرج عنه طمع فيه خصمه،

فصار بين الفلاسفة الدهرية والمتكلمين القدرية في هذا الباب من النزاع ما استطار شرره، وإن كانت القدرية أقرب إلى العلم والعدل. ومن الناس من يحار، ومنهم من يوافق هؤلاء تارة وهؤلاء تارة، تناقضاً منه في حالين، أو جمعاً بين النقيضين في حال واحدة. ولو اتبعوا ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق، لحصل لهم من العلم والعدل ما يرفع النزاع، ويدخلهم في اتباع النص والإجماع، والكلام على هذه المسألة له موضع آخر.

والمقصود هنا تفسير قوله: «كل مولود يولد على الفطرة» وأن من قال بإثبات القدر، وأن الله كتب الشقي والسعيد، لم يمنع ذلك أن يكون وُلد على الإسلام ثم تغير بعد ذلك، كما تُولد البهيمة جمعاء ثم تُتغير بعد ذلك، فإن الله تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه، فيعلم أنه يولد سليماً ثم يتغير.

والآثار المنقولة عن السلف لا تدل إلا على هذا القول [الذي رجحناه، وهو أنهم ولدوا على الفطرة، ثم صاروا إلى ما سبق في علم الله فيهم من سعادة وشقاوة]، لا تدل على أنه حين الولادة لم يكن على فطرة سليمة مقتضية للإيمان، مستلزمة له لولا المعارض.

فروى ابن عبد البر في ضمن هذا المنقول بإسناده عن موسى بن عبيدة، سمعت محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف]، قال: من ابتداء الله خلقه [للضلالة صيِّره إلى الضلالة وإن عمل بعمل أهل الهدى، ومن ابتداء خلقه] على الهدى صيِّره إلى الهدى، وإن عمل بعمل [أهل] الضلالة، ابتداء خلق إبليس على الضلالة، وعمل بعمل السعادة مع الملائكة، ثم رده الله إلى ما ابتداء عليه خلقه من الضلالة. قال: وكان من الكافرين. وابتداء خلق السحرة على الهدى وعملوا بعمل الضلالة، ثم هداهم الله إلى الهدى والسعادة، وتوفاهم عليها مسلمين.

وبهذا الإسناد عن محمد بن كعب في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، يقول: فأقرّوا له بالإيمان والمعرفة الأرواح قبل أن تخلق أجسادها.

فهذا المنقول عن محمد بن كعب يبيّن أن الذي ابتدأهم عليه، وهو ما كتبه أنهم

صائرون إليه، قد يعملون قبل ذلك غيره، وأن من ابتدأه على الضلالة، أي كتبه أنه يموت ضالاً، فقد يكون قبل ذلك عاملاً بعمل أهل الهدى، وحينئذ من وُلد على الفطرة السليمة المقتضية للهدى، لا يمتنع أن يعرض لها ما غيرها، فيصير إلى ما سبق به القدر لها.

كما في الحديث الصحيح: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يصير بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يصير بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة»^(١).

ولهذا قال محمد بن كعب: إن جميع الذرية أقرّوا له بالإيمان والمعرفة، فأثبت هذا وهذا، إذ لا منافاة بينهما.

ثم روى ابن عبد البر بإسناده عن سعيد بن جبير [في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، قال: كما كُتِبَ عليكم تكونون.

وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: شقيّاً وسعيداً. وقال غيره عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، قال: يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً.

وقال الربيع بن أنس عن أبي العالية: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: عادوا إلى علمه فيهم، فريقاً هدى، وفريقاً حقّ عليهم الضلالة.

قلت: ما في هذه الأقوال من إثبات علم الله وقدره السابق، وأن الخلق يصيرون إلى ذلك، حق لا محالة، كما دل عليه الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة، وأما كون ذلك تفسير الآية، فهذا مقام آخر ليس هذا موضعه.

ولفظ «بدأ الله الخلق»: يراد به ابتداء تكوينهم، وهو ظاهر القرآن. وقد يراد به ابتداء أسباب خلقهم وعلامات ذلك، كما في قول السائل للنبي ﷺ: «ما كان أول أمرك؟ قال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي: رأيت أنني حين ولدتني كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام».

قال: «وقال آخرون: معنى قوله: «كل مولود يولد على الفطرة» أن الله فطرهم

(١) البخاري (١٣٥/٩)، ومسلم (٢٠٣٦/٤).

على الإنكار والمعرفة، وعلى الكفر والإيمان، فأخذ من ذرية آدم الميثاق حيث خلقهم، فقال: أأست بربكم؟ قالوا جميعاً: بلى، فأما أهل السعادة فقالوا: بلى، على معرفة له طوعاً من قلوبهم، وأما أهل الشقاء فقالوا: بلى، كرهاً غير طوع.

قالوا: ويصدق ذلك قوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، قالوا وكذلك قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف]، قال محمد بن نصر المروزي: وسمعت إسحاق بن إبراهيم - يعني ابن راهويه - يذهب إلى هذا المعنى. واحتج بقول أبي هريرة اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ آلَتِي فَطَرَهُ النَّاسَ عَلَيْهِمْ لَا تَبْدِيلَ لِمَخْلُوقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] قال إسحاق: يقول: لا تبديل للخلقة التي جبل عليها ولد آدم كلهم، يعني من الكفر والإيمان، والمعرفة والإنكار. واحتج [إسحاق] بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢] قال إسحاق: أجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد: استنطقهم وأشهدهم على أنفسهم: أأست بربكم؟ قالوا: بلى، فقال: انظروا ألا تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل.

وذكر «حديث أبي بن كعب في قصة الغلام الذي قتله الخضر. قال: وكان الظاهر ما قال موسى: أقتلت نفساً زاكية بغير نفس؟ فعلم الله الخضر ما كان الغلام عليه في الفطرة التي فطره عليها، وأنه لا تبديل لخلق الله: فأمر بقتله، لأنه كان قد طبع يوم طبع كافراً».

وروى إسحاق حديث أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: الغلام الذي قتله الخضر طبعه الله يوم طبعه كافراً. وهذا الحديث رواه مسلم.

وروى البخاري وغيره عن ابن عباس أنه كان يقرؤها: وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين. قال إسحاق: فلو ترك النبي ﷺ الناس ولم يبين لهم حكم الأطفال، لم يعرفوا المؤمنين منهم من الكافرين، لأنهم لا يدرون ما جبل كل واحد [منهم] عليه حين أخرج من ظهر آدم، فبين النبي ﷺ حكم الطفل في الدنيا [فقال]: أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، يقول: أنتم لا تعلمون ما طبع عليه في الفطرة الأولى، ولكن حكم الطفل في الدنيا حكم أبويه، فاعرفوا ذلك بالأبوين، فمن كان صغيراً بين أبوين كافرين ألحق بحكم الكفار، ومن كان صغيراً بين أبوين مسلمين ألحق بحكم الإسلام، وأما إيمان ذلك وكفره مما يصير إليه فعلم ذلك إلى الله، ويعلم ذلك

فضل الخضر موسى^(١) إذ أطلعه الله عليه في ذلك الغلام وخصّه بذلك [العلم].

قال: «ولقد سئل ابن عباس عن الولدان: ولدان المسلمين والمشركين، فقال ابن عباس: حسبك ما اختصم فيه موسى والخضر قال إسحاق: ألا ترى إلى قول عائشة حين مات صبي من الأنصار بين أبوين مسلمين.

[فقال عائشة]: طوبى له عصفور من عصافير الجنة. فرد عليها النبي ﷺ ذلك، وقال: مه يا عائشة، وما يدريك؟ إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلها، وخلق النار وخلق لها أهلها. قال إسحاق: فهذا الأصل الذي يعتمد عليه أهل العلم».

«وسئل حمّاد بن سلمة عن قول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» فقال: هذا عندنا حيث أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم».

قال ابن عبد البر: «وقال ابن قتيبة: يريد حين مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذريته إلى يوم القيامة أمثال الذرّ، وأشهدهم على أنفسهم: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى».

قلت: مقصود حمّاد وإسحاق ومالك وابن المبارك، ومن اتبعهم كابن قتيبة، وابن بطة، والقاضي أبي يعلى، وغيرهم، هو منع احتجاج القدرية بهذا الحديث على نفي القدر، وهذا مقصود صحيح. ولكن سلكوا في حصوله طرقاً بعضها صحيح وبعضها ضعيف.

كما أن النبي ﷺ لما ثبت عنه أنه قال: احتج آدم وموسى، فقال موسى: ربنا أرنا أبانا آدم الذي أخرجنا من الجنة. فقال له: أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي كلمك الله تكليماً، وخط لك التوراة بيده، فبكم تجد عليّ مكتوباً قبل أن أخلق: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].

قال: بأربعين خريفاً. قال: فحجّ آدم موسى. فهذا الحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة، وهو مروى بإسناد جيد من حديث عمر^(٢).

فلما توهم من توهم أن ظاهره أن المذنب يحتج بالقدر على من لومه على

(١) كذا في الأصل، ولعل صوابها: «وبعلم ذلك فضل الخضر موسى» أي غلبه بالفضل في هذه الخصلة، وليس تفضيلاً مطلقاً.

(٢) البخاري (١٤٨/٩) ومسلم (٤٤٢/٤) عن أبي هريرة، أما حديث عمر فهو عند أبي داود (٣١١/٤).

الذنب، اضطربوا فيه: فكذب به طائفة من القدرية كالجبائي، وتأوله طائفة من أهل السنة تأويلات ضعيفة قصداً لتصحيح الحديث، ومقصودهم صحيح. لكن طريقهم في رد قول القدرية وتفسير الحديث ضعيفة، كقول بعضهم إنما حجّه لكونه أباه، وقول الآخر: لكونه كان قد تاب، وقول الآخر: لكون الذنب كان في شريعة والملام في أخرى، وقول الآخر: حجّه لأن الاحتجاج به كان في الآخرة دون الدنيا، وقول الآخر: الاحتجاج بالقدر ينفع الخاصة المشاهدين لجريان القدر عليهم دون العامة، فإن الحديث صريح بأن آدم احتج بالقدر وحجّ به موسى.

وأيضاً فموسى أعلم من أن يلوم تائباً، وموسى وآدم أعلم من أن يظنّ أن القدر حجة لأحد في ذنب، فإن هذا لو كان حقاً لكان حجة لإبليس وفرعون، وكل كافر وفاسق.

وكذلك قول من قال: إن الاحتجاج بالقدر لا يجوز في الدنيا بل بعد الموت قول باطل، أو احتجاج الخاصة به سائغ، فإنه قول باطل، فإن الأنبياء جميعهم تابوا من ذنوبهم ولم يحتج أحد منهم بالقدر، ووقع العتب والملام بسبب الذنب، كما حقق الله ذلك في القرآن، ولكن موسى لام آدم لما حصل له وللذرية من الشقاء بالخروج من الجنة، كما في الحديث: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فلامه لأجل المصيبة التي لحقتهم بسببه، لا من جهة كونه عصى الأمر أو لم يعصه، فإن هذا أمر قد تاب الله عليه منه، واجتباه ربه وهداه، فأخبره آدم بأن القدر قد سبق بذلك، فما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]. وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، قال طائفة من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسلم. فالعبد مأمور بالصبر عند المصائب نظراً إلى القدر، وأما عند الذنوب فمأمور بالاستغفار.

فحج آدم موسى لأن ما أصابهم من المصيبة كانت مقدرة هي وسببها. فلا بد أن يصيبهم ذلك، فلا فائدة في ملام لا يدفع المصيبة المقدرة بعد وقوعها، وإنما الفائدة في الرجوع إلى الله.

ومثل هذا قول أنس في الحديث الصحيح: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين،

فما قال لي لشيء فعلته لما فعلته، ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته، وكان بعض أهله إذا عتبنى على شيء يقول: دعوه فلو قضي شيء لكان.

ومن هذا قوله في الحديث الصحيح: احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن اللو تفتح عمل الشيطان^(١).

والمقصود هنا أنهم تشعبوا في حديث الفطرة كتشعبهم في حديث الحجة. وأصل مقصودهم من الإيمان بالقدر صحيح، لكن لا يجب مع ذلك أن يفسر القرآن والحديث إلا بما هو مراد الله ورسوله، ويجب أن يتبع في ذلك ما دل عليه الدليل.

وكثيراً ما يقع لمن هو من أهل الحق - في أصل مقصوده، وقد أخطأ في بعض الأمور - هذا المجرى، مثل أن يتكلموا في مسألة، فإذا أرادوا أن يجيبوا عن حجج المنازعين ردوها رداً غير مستقيم.

وما ذكروه من أن الله فطرهم على الكفر والإيمان، والمعرفة والنكرة: إن أرادوا به أن الله سبق علمه وقدره سيؤمنون ويكفرون، ويعرفون وينكرون، وأن ذلك كان بمشيئة الله وقدرته وخلقه، فهذا حق يرده القدرية، فغلاتهم ينكرون العلم، وجمهورهم ينكرون عموم خلقه ومشيئته وقدرته، وإن أرادوا أن هذه المعرفة والنكرة كانت موجودة حين أخذ الميثاق، كما في ظاهر المنقول عن إسحاق، فهذا يتضمن شيئين:

أحدهما: أنهم حينئذ كانت المعرفة والإيمان موجوداً فيهم، كما قال ذلك طوائف من السلف، وهو الذي حكى إسحاق الإجماع عليه. والآية في تفسيرها نزاع ليس هذا موضعه، وكذلك في وجود الأرواح قبل الأجساد قولان معروفان.

لكن المقصود هنا أن هذا إن كان حقاً، فهو تأكيد لكونهم وُلدوا على تلك المعرفة والإقرار، فهذا لا يخالف ما دلت عليه الأحاديث من أنه يولد على الفطرة، وأن الله خلق خلقه حنفاء، بل هو مؤيد لذلك.

وأما قول القائل: إنهم في ذلك الإقرار انقسموا إلى: طائع وكاره، فهذا لم ينقل عن أحد من السلف فيما أعلم، إلا عن السدي في تفسيره.

قال السدي في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قالوا: لما أخرج الله آدم من الجنة، قبل أن يهبطه من السماء، مسح صفحة ظهره اليمنى، فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذرّ، فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي، ومسح صفحة ظهره اليسرى، فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذرّ، فقال: ادخلوا النار ولا أبالي.

فذلك قوله: وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال. ثم أخذ منه الميثاق فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فأطاعه طائفة طائعين وطائفة كارهين، على وجه التقية، فقال هو والملائكة: ﴿شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف الله أنه ربه وذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَهُ أَسَلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، وذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلَّغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، يعني يوم أخذ الميثاق.

فهذا الأثر إن كان حقاً ففيه أن كل ولد آدم يعرف الله، فإذا كانوا ولدوا على هذه الفطرة فقد ولدوا على المعرفة، ولكن فيه أن بعضهم أقرّ كارهاً مع المعرفة، بمنزلة الذي يعرف الحق لغيره ولا يُقرّ به إلا مكرهاً، وهذا لا يقدر في كون المعرفة فطرية، مع أن هذا لم يبلغنا إلا في هذا الأثر، ومثل هذا لا يوثق به. فإن هذا في مثل تفسير السدي، وفيه أشياء قد عُرف بطلان بعضها، إذ كان السدي - وإن كان ثقة في نفسه - فهذه الأشياء أحسن أحوالها أن تكون كالمراسيل، إن كانت أخذت عن النبي ﷺ، فكيف إذا كان فيها ما هو مأخوذ عن أهل الكتاب الذين يكذبون كثيراً؟ وقد عُرف أن فيها شيئاً كثيراً مما يُعلم أنه باطل، لا سيما ولو لم يكن في هذا إلا معارضته لسائر الآثار التي تسوّي بين جميع الناس في ذلك الإقرار.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسَلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، إنما هو في الإسلام الموجود بعد خلقهم، لم يقل: إنهم حين العهد الأول أسلموا طوعاً وكرهاً. يدل على ذلك أن ذلك الإقرار الأول جعله الله حجة عليهم عند من يشبهه، ولو كان فيهم كاره لقال: لم أقل ذلك طوعاً بل كرهاً، فلا تقوم عليه به حجة.

وأما احتجاج إسحاق رحمته الله، بقول أبي هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَىٰ فَطَرَ النَّاسِ عَلَيْهَا لَا يُبَدِّلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾.

قال إسحاق: نقول: لا تبديل للخلقة التي جُبل عليها. فهذه الآية فيها قولان: أحدهما: أن [معناه] النهي، كما تقدم عن ابن جرير أنه فسرها بالنهي، أي لا تبدلوا دين الله الذي فطر عليه عباده، وهذا قول غير واحد من المفسرين الذين لم يذكروا غيره كالثعلبي والزمخشري.

والثاني: ما قاله إسحاق: وهو أنها خبر على ظاهرها، وأن خلق الله لا يبده أحد. وظاهر اللفظ أنه خبر فلا يجعل نهياً بغير حجة، وهذا أصح.

وحينئذ فيقال: المراد ما خلقهم عليه من الفطرة لا تبدل، فلا يخلقون على غير الفطرة، لا يقع هذا قط. والمعنى أن الخلق لا يتبدل فيخلقون على غير الفطرة، ولم يرد بذلك أن الفطرة لا تتغير بعد الخلق، بل نفس الحديث يبين أنها تتغير، ولهذا شبهها بالبهيمة التي تولد جمعاء ثم تجدد، ولا تولد بهيمة قط مخصية ولا مجدوعة.

وقد قال تعالى عن الشيطان: ﴿وَلَا تُرِيَهُمْ فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]، فالله أقدر الخلق على أن يغيروا ما خلقهم عليه بقدرته ومشيتته.

وأما تبديل الخلق، بأن يخلقوا على غير تلك الفطرة، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، والله لا يفعله. كما قال: ﴿لَا يُبَدِّلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، ولم يقل: لا تغيير، فإن تبديل الشيء يكون بذهابه وحصول بدله، فلا يكون خلق بدل هذا الخلق، ولكن إذا غُيِّرَ بعد وجوده، لم يكن الخلق الموجود عند الولادة قد حصل بدله.

وأما قول القائل: لا تبديل للخلقة التي جُبل عليها ولد آدم كلهم من كفر وإيمان، فإن عنى بها أن ما سبق به القدر من الكفر والإيمان لا يقع خلافه، فهذا حق. ولكن ذلك لا يقتضي أن تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس ممتنع، ولا أنه غير مقدور، بل العبد قادر على ما أمره الله به من الإيمان، وعلى ترك ما نهاه عنه من الكفر، وعلى أن يبذل حسناته بالسيئات بالتوبة، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْفَإِنِّي لَا يُخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [النمل]، و﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وهذا التبديل كله هو بقضاء الله وقدره، وهذا بخلاف ما فطروا عليه حين الولادة، فإن ذاك خلق الله الذي لا يقدر على تبديله غيره، وهو سبحانه لا يبده قط،

بخلاف تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس، فإنه يبدله دائماً، والعبد قادر على تبديله بإقدار الله له على ذلك.

ومما يبين ذلك أنه قال تعالى: ﴿فَأَقْذِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، فهذه فطرة محمودة، أمر الله بها نبيه، فكيف يكون فيها كفر وإيمان مع أمر الله تعالى بها؟ وهل يأمر الله [تعالى] قط بالكفر؟

وقد تقدم تفسير السلف: لا تبديل لخلق الله تعالى، بأنه: دين الله، أو تبديل خلق الحيوان بالخصاء ونحوه، ولم يقل أحد منهم إن المراد: لا تبديل لأحوال العباد من إيمان إلى كفر ولا من كفر إلى إيمان، إذ تبديل ذلك موجود، ومهما وقع كان هو الذي سبق به القدر، والله تعالى عالم بما سيكون، لا يقع خلاف معلومه، لكن إذا وقع التبديل كان هو الذي علمه، وإن لم يقع كان عالماً بأنه لا يقع.

وأما قوله: الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً. فالمراد به: كُتِبَ وَخُتِمَ، وهذا من طبع الكتاب، وإلا فاستنطاقهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ليس هو طبعاً لهم، فإنه ليس بتقدير ولا خلق.

ولفظ «الطبع» لما كان يستعمله كثير من الناس في الطبيعة، التي هي بمعنى الجبلة والخليقة، ظن الظان أن هذا مراد الحديث.

وهذا الغلام الذي قتله الخضر قد يقال فيه: أنه ليس في القرآن ما يبين أنه كان غير مكلف، [بل] ولا ما يبين أنه كان غير بالغ، ولكن قال في الحديث الصحيح: الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً، ولو أدرك لأرهب أبويه طغياناً وكفراً. وهذا دليل على كونه لم يدرك بعد، فإن كان بالغاً - وقد كفر - فقد صار كافراً بلا نزاع، وإن كان مكلفاً قبل الاحتلام في تلك الشريعة، أو على قول من يقول: إن المميزين مكلفون بالإيمان قبل الاحتلام، كما قاله طوائف من أهل الكلام والفقهاء، من أصحاب أبي حنيفة وأحمد وغيرهم - أمكن أن يكون مكلفاً بالإيمان قبل البلوغ، ولو لم يكن مكلفاً، فكفر الصبي المميز صحيح عند أكثر العلماء، فإذا ارتد الصبي المميز صار مرتدأً، وإن كان أبواه مؤمنين، ويؤدب على ذلك باتفاق العلماء أعظم مما يؤدب على ترك الصلاة، لكن لا يقتل في شريعتنا حتى يبلغ.

فالغلام الذي قتله الخضر: إما أن يكون كافراً [بالغاً] كفر بعد البلوغ فيجوز قتله، وإما أن يكون كافراً قبل البلوغ وجاز قتله في تلك الشريعة، وقُتِلَ لثلاثين أبويه عن

دينهما، كما يقتل الصبي الكافر في ديننا، إذا لم يندفع ضرره عن المسلمين إلا بالقتل. بل الصبي الذي يقاتل المسلمين يقتل، فقتل الصبي الكافر المميّز يجوز لدفع صياله الذي لا يندفع إلا بالقتل. وأما قتل صبي لم يكفر بعد، بين أبوين مؤمنين، للعلم بأنه إذا بلغ كفر وفتن، فقد يقال: إنه ليس في القرآن ما يدل عليه، ولا في السنة. وقد يقال: بل في السنة ما يدل عليه، ومنه قول ابن عباس لنجدة الحروري لما سأله عن قتل الغلمان: إن علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتله وإلا فلا. رواه مسلم.

والمعلوم من الكتاب والسنة لا يعارض إلا بما يصلح أن يعارض به. ومن قال بالأول يقول: إن الله تعالى لم يأمر أن يعاقب أحد بما يعلم أنه يكون منه قبل أن يكون منه، ولا هو سبحانه يعاقب العباد بما يعلم أنهم سيعملونه حتى يفعلوه.

يقول قائل هذا القول: إنه ليس في قصة الخضر شيء من الاطلاع على الغيب الذي لا يعلمه عموم الناس، وإنما فيها علمه بأسباب لم يكن علم بها موسى، مثل علمه بأن السفينة لمساكين ووراءهم ملك ظالم، وهذا أمر يعلمه غيره. وكذلك كون الجدار كان لغلامين يتيمين، وأن أباهما كان رجلاً صالحاً، هذا مما قد يعلمه كثير من الناس، فكذا كفر الصبي مما يمكن أنه كان يعلمه كثير من الناس حتى أبواه، لكن لجهما له لا ينكران عليه، أو لا يقبل منهما الإنكار عليه.

فإن كان الأمر على ذلك، فليس في الآية حجة أصلاً، وإن كان ذلك الغلام لم يكفر بعد أصلاً، ولكن سبق في العلم أنه إذا بلغ كفر. فهذا أيضاً يبين أنه قتل قبل أن يصير كافراً، ومن قال هذا يقول: إنه قتل دفعاً لشركه.

كما قال نوح: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّي لَا تَذَر عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝١٧﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوكَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝١٨﴾ [نوح]، فقد دعا نوح ﷺ بهلاكهم لدفع شرهم في المستقبل، وعلى هذا فلم يكن قبل قيام الكفر به كافراً.

وقال ابن عباس: وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين، ظاهره أنه كان حينئذ كافراً. وأما تفسير قول النبي ﷺ: «أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» أنه أراد به مجرد الإلحاق في أحكام الدنيا، دون أن يكون أراد أنهما يغيران الفطرة، فهذا خلاف ما يدل عليه الحديث، فإنه شبه تكفير الأطفال بجذع البهائم تشبيهاً للتغيير بالتغيير. وأيضاً فإنه ذكر هذا الحديث لما قتلوا أولاد المشركين ونهاهم عن قتلهم، وقال:

أليس خياركم أولاد المشركين؟ كل مولود يولد على الفطرة. فلو أراد أنه تابع لأبويه في الدنيا لكان هذا حجة لهم، يقولون: هم كفار كأبائهم فنقتلهم.

وكون الصغير يتبع أباه في أحكام الدنيا، هو لضرورة حياته في الدنيا، فإنه لا بد له من مربٍ يربيّه، وإنما يربيّه أبواه، فكان تابِعاً لهما ضرورة، ولهذا متى سبي منفرداً عنهما صار تابِعاً لسابيه عند جمهور العلماء، كأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، وغيرهم، لكونه هو الذي يربيّه. وإذا سبي منفرداً عن أحدهما أو معهما، ففيه نزاع للعلماء.

واحتجاج الفقهاء، كأحمد وغيره، بهذا الحديث على أنه متى سبي منفرداً عن أبويه يصير مسلماً، لا يستلزم أن يكون المراد تكفير الأبوين مجرد لحاقه بهما في الدين، ولكن وجه الحجة أنه إذا ولد على الملة فإنما ينقله عنها الأبوان اللذان يغيّرانه عن الفطرة، فمتى سباه المسلمون منفرداً عنهما، لم يكن هناك من يغيّر دينه، وهو مولود على الملة الحنيفية، فيصير مسلماً بالمقتضى السالم عن المعارض، ولو كان الأبوان يجعلانه كافراً في نفس الأمر بدون تعليم وتلقين، لكان الصبي المسيبي بمنزلة البالغ الكافر.

ومعلوم أن الكافر البالغ إذا سباه المسلمون لم يصير مسلماً، لأنه صار كافراً حقيقة. فلو كان الصبي التابع لأبويه كافراً حقيقة، لم ينتقل عن الكفر بالسبأ، فعلم أنه كان يجري عليه حكم الكفر في الدنيا تبعاً لأبويه، لا لأنه صار كافراً في نفس الأمر. يبين ذلك أنه لو سباه كفار، لم يكن معه أبواه ولم يصير مسلماً، فهو هنا كافر في حكم الدنيا، وإن لم يكن أبواه هوداه ونصّراه ومجّساه.

فعلم أن المراد بالحديث أن الأبوين يلقّنه الكفر يعلمانه إياه. وذكر ﷺ الأبوين، لأنهما الأصل العام الغالب في تربية الأطفال، فإن كل طفل [غير] فلا بد له من أبوين، وهما اللذان يربيّانه مع بقائهما وقدرتهما، بخلاف ما إذا ماتا أو عجزا لسبي الولد عنهما أو غير ذلك.

ومما يبين ذلك قوله في الحديث الآخر: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإما شاكراً وإما كفوراً». فجعله على الفطرة إلى أن يعقل ويميّز، فحينئذ يثبت له أحد الأمرين، ولو كان كافراً في الباطن بكفر الأبوين، لكان ذلك من حين يولد، قبل أن يعرب عنه لسانه.

وكذلك قوله في الحديث الآخر الصحيح، حديث عياض بن حمار، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً». صريح في أنهم خلّقوا على الحنيفية، وأن الشياطين اجتالتهم وحرّمت عليهم الحلال وأمرتهم بالشرك، فلو كان الطفل يصير كافراً في نفس الأمر من حين يولد، لكونه يتبع أبويه في الدين قبل أن يعلمه أحد الكفر ويلقنه إياه، لم يكن الشياطين هم الذين غيروهم عن الحنيفية وأمروهم بالشرك، بل كانوا مشركين من حين ولدوا تبعاً لأبائهم.

ومنشأ الاشتباه في هذه المسألة اشتباه أحكام الكفر في الدنيا بأحكام الكفر في الآخرة، فإن أولاد الكفار لما كانوا يجري عليهم أحكام الكفر في أمور الدنيا، مثل ثبوت الولاية عليهم لأبائهم وحضانة آبائهم لهم، وتمكين آبائهم من تعليمهم وتأديبهم، والموارثة بينهم وبين آبائهم، واسترقاقهم إذا كان آبائهم محاربين، وغير ذلك - صار يظن أنهم كفار في نفس الأمر، كالذي تكلم بالكفر وعمل به.

ومن هنا قال من قال: إن هذا الحديث - وهو قوله: «كل مولود يولد على الفطرة» - كان قبل أن تنزل الأحكام، كما ذكره أبو عبيد، عن محمد بن الحسن. فأما إذا عرف أن كونهم وُلدوا على الفطرة لا ينافي أن يكونوا تبعاً لأبائهم في أحكام الدنيا زالت الشبهة. وقد يكون في بلاد الكفر من هو مؤمن في الباطن يكتُم إيمانه من لا يعلم المسلمون حاله، إذا قاتلوا الكفار، فيقتلونه ولا يغسل ولا يصلّي عليه ويدفن مع المشركين، وهو في الآخرة من المؤمنين أهل الجنة، كما أن المنافقين تجري عليهم في الدنيا أحكام المسلمين وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، فحكم الدار الآخرة غير حكم الدار الدنيا.

وقوله: «كل مولود يولد على الفطرة» إنما أراد به الإخبار بالحقيقة التي خلّقوا عليها، وعليها الثواب والعقاب في الآخرة، إذا عمل بموجبها وسَلِمَت عن المعارض، لم يرد به الإخبار بأحكام الدنيا، فإنه قد علم بالاضطرار من شرع الرسول أن أولاد الكفار يكونون تبعاً لأبائهم في أحكام الدنيا، وأن أولادهم لا ينتزعون منهم إذا كان للآباء ذمة، وإن كانوا محاربين استرقت أولادهم ولم يكونوا كأولاد المسلمين.

ولا نزاع بين المسلمين أن أولاد الكفار الأحياء مع آبائهم، لكن تنازعوا في

الطفل إذا مات أبواه أو أحدهما، هل يحكم بإسلامه؟ فعن أحمد أنه يحكم بإسلامه، لقوله: «فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»، فإذا مات أبواه بقي على الفطرة.

والرواية الأخرى كقول الجمهور: إنه لا يحكم بإسلامه.

وهذا القول هو الصواب، بل هو إجماع قديم من السلف والخلف، بل هو ثابت بالسنة التي لا ريب فيها.

فقد علم أن أهل الذمة كانوا على عهد النبي ﷺ بالمدينة، ووادي القرى، وخيبر، ونجران، وأرض اليمن وغير ذلك، وكان فيهم من يموت وله ولد صغير، ولم يحكم النبي ﷺ بإسلام يتامى أهل الذمة، وكذلك خلفاؤه كان أهل الذمة في زمانهم طبق الأرض بالشام ومصر والعراق وخراسان، وفيهم من يتامى أهل الذمة عدد كثير، ولم يحكموا بإسلام أحد منهم، فإن عقد الذمة اقتضى أن يتولى بعضهم بعضاً، فهم يتولون حضانة يتاماهم كما كان الأبوان يتولون حضانة أولادهما.

وأحمد رحمه الله يقول: إن الذمي إذا مات ورثه ابنه الطفل، مع قوله في إحدى الروايتين: إنه يصير مسلماً؛ لأن أهل الذمة ما زال أولادهم يرثونهم، ولأن الإسلام حصل مع استحقاق الإرث، لم يحصل قبله. والقول الآخر هو الصواب كما تقدم.

والمقصود هنا أن قوله: «كل مولود يولد على الفطرة لم يرد [به] في أحكام الدنيا، بل في نفس الأمر، وهو ما ترتب عليه الثواب والعقاب، ولهذا لما قال هذا، سألوه فقالوا: يا رسول الله! رأيت من يموت من أطفال المشركين؟ فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين. فإن من بلغ منهم فهو مسلم أو كافر، بخلاف من مات.

وقد تنازع الناس في أطفال المشركين على أقوال:

فقال طائفة: إنهم كلهم في النار. وقالت طائفة: كلهم في الجنة. وكل واحد من القولين اختاره طائفة من أصحاب أحمد. الأول: اختاره القاضي أبو يعلى وغيره، وحكوه عن أحمد، وهو غلط على أحمد كما أشرنا إليه.

والثاني: اختاره أبو الفرج بن الجوزي وغيره. ومن هؤلاء من يقول: هم خدم أهل الجنة. ومنهم من قال: هم من أهل الأعراف.

والقول الثالث: الوقف فيهم. وهذا هو الصواب الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة، وهو منصوص أحمد وغيره من الأئمة.

وذكره ابن عبد البر عن حماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وابن المبارك وإسحاق بن

راهويه. قال: وعلى ذلك أكثر أصحاب مالك، وذكر أيضاً في أطفال المسلمين نزاعاً ليس هذا موضعه.

لكن الوقف قد يُفسّر بثلاثة أمور:

أحدها: أنه لا يُعلم حكمهم، فلا يتكلم فيهم بشيء، وهذا قول طائفة من المنتسبين إلى السنة، وقد يُقال: إن كلام أحمد يدل عليه.

والثاني: أنه يجوز أن يدخل جميعهم الجنة، ويجوز أن يدخل جميعهم النار. وهذا قول طائفة من المنتسبين إلى السنة، من أهل الكلام وغيرهم، من أصحاب أبي الحسن الأشعري وغيرهم.

والثالث: التفصيل، كما دل عليه قول النبي ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين» فمن علم الله منه أنه إذا بلغ أطاع أدخله الجنة، ومن علم منه أنه يعصي أدخله النار. ثم من هؤلاء من يقول: إنه يجزيهم بمجرد علمه فيهم، كما يحكى عن أبي العلاء القشيري المالكي.

والأكثر يقولون: لا يجزى على علمه بما سيكون حتى يكون، فيمتحنهم يوم القيامة، ويمتنح سائر من لم تبلغه الدعوة في الدنيا، فمن أطاع حينئذ دخل الجنة ومن عصى دخل النار.

وهذا القول منقول عن غير واحد من السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم.

وقد روي به آثار متعددة عن النبي ﷺ حسان يصدق بعضها بعضاً، وهو الذي حكاه الأشعري في «المقالات» عن أهل السنة والحديث، وذكر أنه يذهب إليه، وعلى هذا القول تدل الأصول المعلومة بالكتاب والسنة، كما قد بسط في غير هذا الموضع، ويبيّن أن الله لا يعذب أحداً حتى يبعث إليه رسولاً.

والمقصود هنا الكلام على الأقوال المذكورة في تفسير هذا الحديث، وقد تبين ضعف قول من قال: الفطرة: الكفر والإيمان، وأن الإقرار كان من هؤلاء طوعاً، ومن هؤلاء كرهاً. ومما يضعف هذا القول قول طائفة أخرى بأن جميع أولئك كان إقرارهم جميعهم له بالربوبية من غير تفصيل بطوع وكره.

قال ابن عبد البر: «وقال آخرون: معنى الفطرة المذكورة في المولودين ما أخذ الله من ذرية آدم من الميثاق، قبل أن يخرجوا إلى الدنيا، يوم استخرج ذرية آدم من ظهره، فخطبهم: ألسن بربكم؟ قالوا: بلى»

فأقروا جميعاً له بالربوبية عن معرفة منهم به، ثم أخرجهم من أصلاب آبائهم مخلوقين مطبوعين على تلك المعرفة وذلك الإقرار.

قالوا: وليس تلك المعرفة بإيمان ولكنه إقرار من الطبيعة للرب، فطرة ألزمها قلوبهم، ثم أرسل إليهم الرسل يدعوهم إلى الاعتراف له بالربوبية والخضوع، تصديقاً بما جاءت به الرسل، فمنهم من أنكر وجحد بعد المعرفة وهو به عارف، لأنه لم يكن الله يدعو خلقه إلى الإيمان به وهو لم يعرفهم نفسه، لأنه كان حينئذ يكون قد كلفهم الإيمان بما لا يعرفون.

قالوا: وتصديق ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وذكروا ما ذكره السدي عن أصحابه كما تقدم.

وروي بإسناده في التفسير المعروف عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، في قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَنهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

قال: فجعلهم جميعاً أرواحاً، ثم صورهم، ثم استنطقهم فقال: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا، أن يقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا. قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك.

قال: فأخذ عهدهم وميثاقهم، ورفع أباهم آدم، فرأى منهم الغني والفقير، وحسن الصورة، وغير ذلك، فقال: يا رب لو سوّيت بين عبادك؟ قال: أحببت أن أشكر. [قال:]: [والأنبياء يومئذ بينهم مثل الشرج.

قال: وخصوا بميثاق آخر للرسالة أن يبلغوها.

قال: «فهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧].

قال: وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها».

قال: «وذلك قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِن عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦].

قال: «فكان في علم الله من يكذب به ومن يصدق. قال: وكان روح الله عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عهدها وميثاقها في زمن آدم». فهذا القول يحقق القول الأول في أن كل مولود يولد على الفطرة، التي هي

المعرفة بالله والإقرار به، وفيه زيادة؛ أن ذلك كان قد حصل لهم قبل الولادة حيث استخرجوا من صلب آدم. وقد فُسر «فطرة الله» في الحديث بذلك.

وأما قول صاحب هذا القول: «إن هذا الإقرار ليس هو بإيمان يستحق عليه الثواب» فهذا لا يضر، فإنه قد بين فيه أن المعرفة بالله ضرورية، وأنه بذلك صح أن يأمرهم، فإن المأمور إن لم يعرف الأمر امتنع أن يعرف أنه أمره. ولو لم تكن المعرفة ثابتة في الفطرة لكان الرسول إذا قال لقومه: أدعوكم إلى الله، لقالوا مثل ما قال فرعون: وما رب العالمين؟ إنكاراً له وجحداً، كأن يكون قولهم متوجهاً.

وفرعون لم يقل هذا لعدم معرفته في الباطن بالخالق، لكن أظهر خلاف ما في نفسه. كما قال تعالى: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتَهَا أَفُسُهم ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وكما قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي آفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُقَفِّرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُوخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم]، فأخبر [تعالى] أن أولئك المكذبين لما قالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ الآية، وهذا استفهام إنكار بمعنى النفي والإنكار على من لم يقرّ بهذا النفي.

والمعنى: ما في الله شك، وأنتم تعلمون أنه ليس في الله شك، ولكن تجحدون انتفاء الشك جحوداً تستحقون أن ينكر عليكم هذا الجحد.

فدل ذلك على أنه ليس في الله شك عند الخلق المخاطبين، وهذا يبين أنهم مفطورون على الإقرار، وإلا فالأمر النظري مستلزم للشك قبل العلم، ولا سيما إذا كانت طرقه خفية طويلة، فكل من لم يعرف تلك الطرق يشك فيه، فإن كان لا طريق للمعرفة إلا طريقة الأعراض وطريقة الوجود ونحو ذلك، فالشك في الله حاصل لمن لم يعرف هذه الطرق، وهم جمهور الخلق، بل ولأكثر من سلك هذه الطرق أيضاً إذا عرف حقيقتها.

قال ابن عبد البر: وقال آخرون في معنى قول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» لم يرد رسول الله ﷺ بذكر الفطرة ها هنا كفرةً ولا إيماناً، ولا معرفة ولا

إنكار، وإنما أراد أن كل مولود يولد على السلامة خلقة وطبعاً وبنية، ليس معها كفر ولا إيمان، ولا معرفة ولا إنكار، ثم يعتقد الكفر أو الإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا.

واحتجوا بقوله في الحديث: «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء» يعني سالمة: «هل تحسون فيها من جدعاء» يعني: مقطوعة الأذن. فمثل قلوب بني آدم بالبهايم؛ لأنها تولد كاملة الخلق، لا يتبين فيها نقصان، ثم تقطع آذانها بعد وأنوفها، فيقال: هذه بحاير وهذه سوايب، يقول: فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم، ليس لهم كفر حينئذ ولا إيمان، ولا معرفة ولا إنكار، كالبهايم السالمة، فلما بلغوا استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم، وعصم الله أقلهم، قالوا: ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر والإيمان في أولية أمرهم، ما انتقلوا عنه أبداً، وقد تجدهم يؤمنون ثم يكفرون ثم يؤمنون. قالوا: ويستحيل في العقول أن يكون الطفل في حالة ولادته يعقل كفراً أو إيماناً، لأن الله أخرجهم في حالة لا يفقهون فيها شيئاً.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، فمن لم يعلم شيئاً استحال منه كفر أو إيمان، أو معرفة أو إنكار.

قال أبو عمر: هذا القول أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الولدان عليها، وذلك أن الفطرة: السلامة والاستقامة، بدليل قوله في حديث عياض بن حمار: «إني خلقت عبادي حنفاء»، يعني على استقامة وسلامة، فكأنه - والله أعلم - أراد الذين خلصوا من الآفات كلها والزيادات، ومن المعاصي والطاعات، فلا طاعة منهم ولا معصية إذا لم يعملوا بواحدة منهما.

ومن الحجج أيضاً في هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُتِبَ تَعْمَلُونَ﴾ [التحریم: ٧] و﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ﴾ [المدثر]، ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشيء. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قلت: هذا القائل إن أراد بهذا القول أنهم خلقوا خالين من المعرفة والإنكار، من غير أن تكون الفطرة تقتضي واحداً منهما، بل يكون القلب كاللوح الذي يقبل كتابة الإيمان وكتابة الكفر، وليس هو لأحدهما أقبل منه للآخر، وهذا هو الذي يُشعر به ظاهر الكلام - هذا قول فاسد، لأنه حينئذ لا فرق بالنسبة إلى الفطرة بين المعرفة والإنكار، والتهود والتنجير والإسلام، وإنما ذلك بحسب الأسباب، فكان ينبغي أن يقال: فأبواه يسلمانه ويهودانه وينصرانه ويمجسانه، فلما ذكر أن أبويه يكفرائه، وذكر

الملل الفاسدة دون الإسلام، علم أن حكمه في حصول ذلك بسبب منفصل غير حكم الكفر.

وأيضاً فإنه على هذا التقدير لا يكون في القلب سلامة ولا عطب، ولا استقامة ولا زيغ، إذ نسبته إلى كل منهما نسبة واحدة، وليس هو بأحدهما أولى منه بالآخر، كما أن الرق قبل الكتابة فيه لا يثبت له حكم مدح كالمصحف، ولا حكم ذم كقرآن مسيلمة، والتراب قبل أن يبنى مسجداً أو كنيسة، لا يثبت له حكم واحد منهما.

ففي الجملة كل ما كان قابلاً للممدوح والمذموم على السواء، لم يستحق مدحاً ولا ذمًا. والله تعالى يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، فأمره بلزوم فطرته التي فطر الناس عليها، فكيف لا يكون فيها مدح ولا ذم؟

وأيضاً فالنبي ﷺ شبهها بالبهيمة المجتمعة الخلق، وشبه ما يطرأ عليها من الكفر بجذع الأنف والأذن. معلوم أن كمالها محمود ونقصها مذموم، فكيف تكون قبل النقص لا محمودة ولا مذمومة؟

وإن كان المراد بهذا القول ما قاله طائفة من الناس، من أن المراد: أنهم ولدوا على الفطرة السليمة، التي لو تركت مع صحتها لا اختارت المعرفة على الإنكار، والإيمان على الكفر، ولكن بما عرض من الفساد خرجت عن هذه الفطرة - فهذا القول قد يقال: إنه لا يرد عليه ما يرد على ما قبله، فإن صاحبه يقول: في الفطرة قوة يميل بها إلى المعرفة والإيمان، كما في البدن السليم قوة يحب بها الأغذية النافعة، وبهذا كانت محمودة وذم من أفسدها، لكن يقال: فهذه الفطرة التي فيها هذه القوة والقبول والاستعداد والصلاحية: هل هي كافية في حصول المعرفة، أو تقف المعرفة على أدلة يتعلمها من خارج؟

فإن كانت المعرفة تقف على أدلة يتعلمها من خارج، أمكن أن توجد تارة وتعدم أخرى، ثم ذلك السبب الخارج يمتنع أن يكون موجباً للمعرفة بنفسه، بل غايته أن يكون معرفاً ومذكراً، فعند ذلك إن وجب حصول المعرفة، كانت المعرفة واجبة الحصول عند وجود تلك الأسباب وإلا فلا، وحينئذ فلا يكون فيها إلا قبول المعرفة والإيمان، إذا وجدت من يعلمها أسباب ذلك.

ومعلوم أن فيها قبول الإنكار والكفر، إذا وجدت من يعلمها أسباب ذلك، وهو التهويد والتنصير والتمجيس، وحينئذ فلا فرق فيها بين الإيمان والكفر، والمعرفة

والإنكار، إنما فيها قوة قابلة لكل منهما واستعداد له، لكن يتوقف على المؤثر الفاعل من خارج.

وهذا هو القسم الأول الذي أبطلناه، وبيّنا أنه ليس في ذلك مدح للفطرة، وإن كان فيها قوة تقتضي المعرفة بنفسها، وإن لم يوجد من يعلمها أدلة المعرفة، لزم حصول المعرفة فيها بدون ما نسمعه من أدلة المعرفة، سواء قيل: إن المعرفة ضرورية فيها، أو قيل: إنها تحصل أسباب كالأدلة التي تنتظم في النفس، من غير أن يُسمع كلام مستدل، فإن النفس بفطرتها قد يقوم بها من النظر والاستدلال ما لا يحتاج معه إلى كلام أحد، فإن كل مولود يولد على هذه الفطرة، لزم أن يكون المقتضى للمعرفة حاصلًا لكل مولود، وهو المطلوب.

والمقتضى التام يستلزم مقتضاه، فتبين أن أحد الأمرين لازم، إما لكون الفطرة مستلزما للمعرفة، وإلا استوى الكفر والإيمان بالنسبة إليها، وذلك ينفي مدحها.

وتلخيص النكتة أن يقال: المعرفة والإيمان بالنسبة إليها ممكن بلا ريب، فإما أن تكون هي موجبة مستلزما له، وإما أن يكون ممكناً بالنسبة إليها، ليس بواجب لازم لها. فإن كان الثاني، لم يكن فرق بين الكفر والإيمان، إذ كلاهما ممكن بالنسبة إليها. فتبين أن المعرفة لازمة واجبة لها، إلا أن يعارضها معارض.

فإن قيل: ليست [موجبة] مستلزما للمعرفة، ولكنها إليها أميل، مع قبولها للنكرة. قيل: فحينئذ إذا لم تستلزم المعرفة، وجبت تارة وهدمت أخرى. وهي وحدها لا تحصلها، فلا تحصل إلا بشخص آخر كالأبوين، فيكون الإسلام كالتهود والتنصير والتمجيس.

ومعلوم أن هذه الأنواع بعضها أبعد عن الفطرة من بعض كالتمجيس، ولكن مع ذلك لما لم تكن الفطرة مقتضية لشيء منها، أضيفت إلى السبب، فإن لم تكن الفطرة مقتضية للإسلام، صار نسبتها إلى ذلك كنسبة التهود والتنصير إلى التمجيس، فوجب أن تذكر كما ذكر ذلك.

وهذا كما أن الفطرة لو لم تقتض الأكل عند الجوع - مع القدرة عليه - لم يوجد الأكل إلا بسبب منفصل.

والنبي ﷺ شبه اللبن بالفطرة، لما عرض عليه الخمر واللبن [واختار اللبن]، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولو أخذت الخمر لَغَوَتْ أمتك.

والطفل مفطور على أنه يختار شرب اللبن بنفسه، فإذا تمكن من الثدي لزم أن يرتضع لا محالة، فارتضاعه ضروري إذا لم يوجد معارض، وهو مولود على أن يرتضع، فكذا هو مولود على أن يعرف الله، والمعرفة ضرورية [له] لا محالة إذا لم يوجد معارض

وأيضاً فإن حب النفس وخضوعها لله وإخلاص الدين له، مع الكبر والشرك والنفور، إما أن يكون نسبتها إلى الفطرة سواء، أو الفطرة مقتضية للأول دون الثاني. فإن كانا سواء، لزم انتفاء المدح كما تقدم، ولم يكن فرق بين دعائها إلى الكفر ودعائها إلى الإيمان، ويكون تمجيسها كتحنيفها، وقد عرف بطلان هذا.

وإن كان فيها مقتض لهذا إما أن يكون المقتضى مستلزماً لمقتضاه عند عدم المعارض، وإما أن يكون متوقفاً على شخص خارج عنها. فإن كان الأول، ثبت أن ذلك من لوازمها، وأنها مفطورة عليه، لا تفقد إلا إذا فسدت الفطرة.

وإن قيل: إنه متوقف على شخص، فذلك الشخص هو الذي يجعلها حنيفية كما يجعلها مجوسية. وحيث فلا فرق بين هذا وهذا.

وإذا قيل: هي إلى الحنيفية أميل، كان كما يقال: هي إلى النصرانية أميل.

فتبين أن فيها قوة موجبة لحب الله، والذل له، وإخلاص الدين له، وأنها موجبة لمقتضاها إذا سلمت من المعارض، كما فيها قوة تقتضي شرب اللبن الذي فطرت على محبته وطلبه.

ومما يبين هذا أن كل حركة إرادية، فإن الموجب لها قوة في المرید، فإذا أمكن في الإنسان أن يحب الله ويعبده ويخلص له الدين، كان فيه قوة تقتضي ذلك، إذ الأفعال الإرادية لا يكون سببها إلا من نفس الحي المرید الفاعل، ولا يشترط في إرادته إلا مجرد الشعور بالمراد، فما في النفوس من قوة المحبة له - إذا شعرت به - يقتضي حبه إذا لم يحصل معارض.

وهذا موجود في محبة الأئمة والأشربة والنكاح، و[محبة] العلم، وغير ذلك. وإذا كان كذلك، وقد ثبت أن في النفس قوة المحبة لله والذل له، وإخلاص الدين له، وإن فيها قوة الشعور به لزم قطعاً وجود المحبة فيها، والذل بالفعل لوجود المقتضى الموجب إذا سلم عن المعارض، وعلم أن المعرفة والمحبة لا يشترط فيهما وجود شخص منفصل يكلمها بكلام، وإن كان وجود هذا قد يذكر ويحرك، كما لو خوطب

الجائع بوصف طعام، أو خوطب المغتلم بوصف النساء، فإن هذا مما يذكر ويحرك، لكن لا يجب ذلك في وجود الشهوة للطعام ووجود الأكل.

فكذلك الأسباب الخارجة لا يتوقف عليها وجود ما في الفطرة من الشعور بالخالق والذل له ومحبه، وإن كان ذلك مذكراً ومحركاً، أو مزيلاً للمعارض المانع، لكن المقصود أنه لا يحتاج حصول ذلك في الفطرة إليه مطلقاً.

وأيضاً فالإقرار بالصانع بدون عبادته، بالمحبة له والذل له وإخلاص الدين له، لا يكون نافعا، بل الإقرار مع البعض أعظم استحقاقاً للعذاب، فلا بد أن يكون في الفطرة مقتضى للعلم، ومقتضى للمحبة، والمحبة مشروطة بالعلم، فإن ما لا يشعر به الإنسان لا يحبه، والحب للمحوبات لا يكون بسبب من خارج، بل هو جبلي فطري، وإذا كانت المحبة جبليّة فطرية، فشرطها - وهو المعرفة أيضاً - جبليّ فطري، فلا بد أن يكون في الفطرة محبة الخالق مع الإقرار به.

وهذا أصل الحنيفية التي خلق الله خلقه عليها، وهو فطرة الله التي أمر الله بها. وأيضاً فإذا كانت المحبة فطرية، وهي مشروطة بالشعور، لزم أن يكون الشعور أيضاً فطرياً، والمحبة له أيضاً فطرية لأنها لو لم تكن فطرية، لكانت النفس قابلة لها ولضدها على السواء، وهذا ممتنع كما تقدم. وإذا كانت في الفطرة أرجح، لزم وجودها في الفطرة، وإلا كانت ممكنة الحصول وعدمه، كما في المجوسية وغيرها من الكفر، فتبقى الحنيفية مع المجوسية، كاليهودية مع المجوسية، وهذا باطل [كما تقدم].

فعلم أن الحنيفية من موجبات الفطرة ومقتضياتها، والحب لله والخضوع له والإخلاص له هو أصل أعمال الحنيفية، وذلك مستلزم للإقرار والمعرفة، ولازم اللازم، وملزوم الملزوم ملزوم، فعلم أن الفطرة ملزومة لهذه الأحوال، وهذه الأحوال لازمة لها، وهو المطلوب.

قال أبو عمر: «قد مضى في الفطرة ومعناها عند العلماء ما بلغنا عنهم والحمد لله، وأما أهل البدع فمنكرون لكل ما قاله العلماء في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]، قالوا: ما أخذ الله من آدم ولا من ذريته ميثاقاً قط قبل خلقه إياهم، وما خلقهم قط إلا في بطون أمهاتهم، وما استخراج قط من ظهر آدم ذرية تخاطب، ولو كان ذلك لأحياهم ثلاث مرات.

والقرآن قد نطق عن أهل النار: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آثْنَيْنِ وَأَحييتَنَا آثْنَيْنِ﴾ [غافر: ١١]،

من غير إنكار عليهم، وقال تعالى تصديقاً لذلك: ﴿وَكُنْتُمْ أَشْوَاتًا فَأْتَيْكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، قالوا: وكيف يخاطب الله ﷻ من لا يعقل؟ وكيف يجيب من لا عقل له؟ أم كيف يحتج عليهم بميثاق لا يذكرونه؟ أم كيف يؤاخذون بما قد نسوه ولم يذكروه، ولا يذكر أحد أن ذلك عرض له أو كان منه؟

قالوا: وإنما أراد الله بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] إخراجه إياهم في الدنيا، وخلقهم لهم وإقامة الحججة عليهم، بأن فطرهم ونبأهم فطرة: إذا بلغوا وعقلوا علموا أن الله ربهم. ثم اختلف القائلون بهذا كله في المعرفة: هل تقع ضرورة أو اكتساباً؟ على ما قد ذكرنا في غير هذا المكان.

قلت: ليس المقصود هنا الكلام على هذه الآية وتفسيرها، والكلام في معرفة حاصلة قبل الولادة أو نفيها، بل المقصود إثبات المعرفة الفطرية الحاصلة بعد الولادة، وإذا كان من نفاة الأول من يقول: إن هذه ضرورية، فكيف بمن أثبت الثنتين، وهذه الأقوال التي ذكرها منها اثنان من جنس، وهو قول من يقول: ولدوا على ما سبق به القدر، أو على ذلك، وكانوا مفطورين عليه من حين الميثاق الأول، منهم مقرّ طوعاً وكرهاً. أو اثنان من جنس، وهو قول من يقول: ولدوا قادرين على المعرفة، وقول من يقول: ولدوا قابليين لها وللتهود والتنصر، إما مع التساوي، وإما مع رجحان القبول للإسلام.

وأما قول من يقول: ولدوا على فطرة الإسلام، أو على الإقرار بالصانع، وإن لم يكن ذلك وحده إيماناً، أو على المعرفة الأولى يوم أخذ الميثاق عليهم - فهذه الثلاثة لا منافاة بينها، بل يحصل بها المقصود.

والكتاب - والسنة - دلّ على ما اتفقت عليه من كون الخلق مفطورين على دين الله، الذي هو معرفة الله والإقرار به، بمعنى أن ذلك موجب فطرتهم، وبمقتضاها يجب حصوله فيها، إذا لم يحصل ما يعوقها، فحصوله فيها لا يقف على وجود شرط، بل على انتفاء مانع.

ولهذا لم يذكر النبي ﷺ لموجب الفطرة شرطاً، بل ذكر ما يمنع موجبها، حيث قال: كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِن كَثُرَ الْكَافِرِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴿مُيَبِّنٍ إِلَيْهِ وَأَتَقْوَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا

تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ، فأخبر أن المشركين مفترقون .

ولهذا قال ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه لا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم»^(١).

وقد قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقْبِلُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْنَا﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَدْيِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون].

وأصل الدين الذي فطر الله عليه عباده، كما قال: خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. فهو يجمع أصليين:

أحدهما: عبادة الله وحده لا شريك له، وإنما يعبد بما أحبه وأمر به، وهذا هو المقصود الذي خلق الله له الخلق، وضده الشرك والبدع.

والثاني: حل الطيبات التي يستعان بها على المقصود، وهو الوسيلة. وضدها تحريم الحلال. والأول كثير في النصارى، والثاني - وهو تحريم الطيبات - كثير في اليهود، وهما جميعاً في المشركين.

ولهذا ذم الله تعالى المشركين على هذين النوعين في غير موضع من كتابه، كسورة الأنعام والأعراف، يذكر فيها ذمهم على ما حرموه من المطاعم والملابس وغير ذلك: وذمهم على ما ابتدعوه من العبادات التي لم يشرعها الله تعالى.

وفي الحديث: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»^(٢). فنعبده وحده بفعل ما أحبه، ونستعين على ذلك بما أحله.

كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون]، وهذا هو الدين الذي فطر الله عليه خلقه، فإنه محبوب لكل أحد،

فإنه يتضمن الأمر بالمعروف الذي تحبه القلوب، والنهي عن المنكر الذي تبغضه، وتحليل الطّيّبات النافعة، وتحريم الخبائث الضارة.

وهذا الذي أخبر به النبي ﷺ من أن كل مولود يولد على الفطرة، مما تقوم الأدلة العقلية على صدقه، كما أخبر الصادق المصدوق، وتبيّن أن من خالف مدلول هذا الحديث فإنه مخطئ في ذلك.

وبيان ذلك من وجوه:

أحدها: أن يقال: لا ريب أن الإنسان قد يحصل له تارة من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقاً، وتارة ما يكون باطلاً، فإن اعتقاداته قد تكون مطابقة لمعتقدهما وهو الحق، وقد تكون غير مطابقة وهو الباطل. والخبر عن هذا صدق وعن هذا كذب. والإرادات تنقسم إلى ما يوافق مصلحته، وهو جلب المنفعة له، وإلى ما لا يوافق مصلحته بل يضره.

فإن الإنسان حسّاس متحرك بالإرادة. ولهذا قال ﷺ: «أصدق الأسماء: الحارث وهّمّام، وأحبها إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن، وأقبحها: حرب ومرة»^(١)، فإن الإنسان لا بد له من حرث وهو العمل والحركة الإرادية، ولا بد له من أن يهتم بالأمور: منها ما يهتم به ويفعله، ومنها ما يهتم به ولا يفعله، فإن كان المراد موافقاً لمصلحته كانت الإرادة حسنة محمودة، وإن كان مخالفاً لمصلحته كانت الإرادة سيئة مذمومة، كمن يريد ما يضر عقله ونفسه وبدنه.

وإذا كان الإنسان تارة تكون تصديقاته وإرادته حسنة محمودة، وتارة تكون سيئة، فلا يخلو: إما أن تكون نسبة نفسه إلى النوعين نسبة واحدة، بحيث لا يترجح أحد الصنفين على الآخر بمرجح من نفسه، أو لا بد أن تكون نفسه مرّجحة لأحد النوعين.

فإن كان الأول، لزم أن لا يوجد أحد الصنفين إلا بمرجح منفصل عنه، ثم ذلك المرّجح المنفصل إذا قدّر مرجحان:

أحدهما: يربّج الصدق الذي ينفعه، والآخر: يربّج الكذب الذي يضره، فإما أن يتكافأ المرّجحان، أو يترجح أحدهما، فإن تكافأ المرّجحان لزم أن لا يحصل واحد منهما، وهو خلاف المعلوم بالضرورة، فإنا نعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن

يصدق، وأن ينتفع، وأن يكذب ويتضرر، مال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع، وإذا كان لا بد من ترجيح أحدهما فترجح الكذب الضار - مع فرض تساوي المرجحين - أولى بالامتناع من تكافيهما، فتعيّن أنه إذا تكافأ المرجحان فلا بد أن يترجح عنده الصدق والنفع، وهو المراد باعتقاد الحق وإرادة الخير.

فُعلم أن في فطرة الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة النافع، وحيثذ فالإقرار بوجود الصانع ومعرفته والإيمان به هو الحق أو نقيضه؟ والثاني معلوم الفساد قطعاً، فتعيّن الأول. وحيثذ فيجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان به.

وأيضاً فإنه مع الإقرار به، إما أن تكون محبته أنفع للعبد أو عدم محبته، والثاني معلوم الفساد. وإذا كان الأول أنفع له، كان في فطرته محبة ما ينفعه.

وأيضاً فإنه إما أن تكون عبادته [وحده] لا شريك له أكمل للناس علماً وقصدًا، أو الإشراك به. والثاني معلوم الفساد، فوجب أن يكون في فطرته مقتضى يقتضي توحيده.

وأيضاً فإما أن يكون دين الإسلام مع غيره من الأديان متماثلين، أو الإسلام مرجوحاً أو راجحاً. والأول والثاني باطلان باتفاق المسلمين، وبأدلة كثيرة، فوجب أن يكون في الفطرة مقتضى يقتضي خير الأمرين لها، وامتنع أن تكون نسبة الإسلام وسائر الملل إلى الفطرة واحدة، سواء كانت نسبة قدرة، أو نسبة قبول.

وإذا لزم أن يكون في الفطرة مرجح للحينية التي أصلها معرفة الصانع ومحبته، وإخلاص الدين له، فإما أن يكون مع ذلك لا يوجد مقتضاها إلا بسبب منفصل، مثل من يعلمه ويدعوه، أو يمكن وجود ذلك بدون هذا السبب المنفصل.

فإن كان الأول لزم أن يكون موجبها متوقفاً على مخاطب منفصل دائماً، فلا يحصل بدون البتة. ثم القول في حصول موجبها لذلك المخاطب المنفصل، كالقول في الأول، وحيثذ فيلزم التسلسل في المخاطبين، ووجود مخاطبين لا يتناهون، وهم أيضاً مخاطبون، وهذا تسلسل في الفاعلين، وهو ممتنع.

وإن كان في المخاطبين من حصل له بموجب الفطرة بلا مخاطب منفصل، دل على إمكان ذلك في الفطرة، فبطل هذا التقدير: وهو كون موجب الفطرة لا يحصل قط إلا لمخاطب منفصل. وإذا أمكن حصول موجب الفطرة بدون مخاطب منفصل، عُلم أن في الفطرة قوة تقتضي ذلك، وإن ذلك ليس موقوفاً على مخاطباً منفصل، لكن قد يكون لذلك المقتضى معارض مانع، وهذا هو الفطرة.

وهذا الدليل يقتضي أنه لا بد في الفِطْر ما يكون مستغنياً عن مخاطب منفصل في حصول موجب الفطرة، لكن لا يقتضي أن كل واحد كذلك، لكن إذا عرف أن ما جاز على أحد الإنسانين يجوز على الآخر لتمامهما في النوع، أمكن ذلك في حق كل شخص، وهو المطلوب.

الوجه الثاني: أن يقال: إذا ثبت أن نفس الفطرة مقتضية لمعرفته ومحبته، حصل المقصود بذلك، وإن لم تكن فطرة كل أحد مستقلة بتحصيل ذلك، بل يحتاج كثير منهم في حصول ذلك إلى سبب معين للفطرة: كالتعليم والتخصيص. فإن الله قد بعث الرسل، وأنزل الكتب، ودعوا الناس إلى موجب الفطرة: من معرفة الله وتوحيده، فإذا لم يحصل مانع يمنع الفطرة، وإلا استجابت لله ورسله، لما فيها من المقتضى لذلك.

ومعلوم أن قوله: كل مولود يولد على الفطرة، ليس المراد به أنه حين ولدته [أمه] يكون عارفاً بالله موحداً له؛ بحيث يعقل ذلك. فإن الله يقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

ونحن نعلم بالاضطرار أن الطفل ليس عنده معرفة بهذا الأمر، ولكن ولادته على الفطرة تقتضي أن الفطرة تقتضي ذلك، وتستوجه بحسبها. فكلما حصل فيه قوة العلم والإرادة، حصل من معرفتها بربها، ومحبتها له، ما يناسب ذلك. كما أنه وُلد على أنه يحب جلب المنافع ودفع المضار بحسبه. وحينئذ فحصول موجب الفطرة، سواء توقف على سبب، وذلك السبب موجود من خارج، أو لم يتوقف، على التقديرين يحصل المقصود.

ولكن قد يتفق لبعضها فوات الشرط أو وجود مانع، فلا يحصل مقصود الفطرة.

الوجه الثالث: أن يقال: من المعلوم أن النفوس إذا حصل لها معلّم ومخصّص، حصل لها من العلم والإرادة بحسب ذلك. ومن المعلوم أن كل نفس قابلة للعلم وإرادة الحق. لولا أن في النفس قوة تقبل ذلك، وإلا فلو علّم البهائم والجمادات وحضّضها، لم يحصل لها ما يحصل لبني آدم، والسبب في الموضوعين واحد، فعلم أن ذلك لاختلاف القوابل.

ولهذا يشترك الناس في سماع القرآن، ويتفاوتون في آثاره فيهم من العلم والحال، وهكذا في سائر الكلام. وإذا كان كذلك علم أن في النفوس قوة تقتضي العلم والإرادة.

يبين ذلك أن ذلك المرجح إذا حصل من خارج، فمعلوم أنه نفسه لا يوجب بنفسه حصول العلم والإرادة في النفس، إلا بقوة منها تقبل ذلك، وتلك القوة لا تتوقف على أخرى، وإلا لزم التسلسل الذي لا يتناهى بين طرفين متناهيين، أو الدور القَبلي، وكلاهما ممتنع بالضرورة واتفاق العقلاء.

فهذا يدل على أن في النفس قوة ترجح الدين الحق على غيره. وحيثذ فالمخاطب إنما عنده تنبيهها على ما لا تعلمه لتعلمه، أو تذكيرها بما كانت ناسية لتذكره، أو تحضيضها على ما لا تريده لتريده، ونحو ذلك.

وكل هذه الأمور يمكن أن تحصل بخواطر في النفس تقتضي تنبيهها وتذكيرها وتحضيضها. واعتبار الإنسان ذلك من نفسه يوجب علمه بذلك، فإن ما يسمعه الإنسان من كلام البشر يمكن أن يخطر له مثله في قلبه. فَعَلِمَ أن الفطرة يمكن حصول إقرارها بالصانع والمحبة والإخلاص له بدون سبب منفصل، وأنه يمكن أن تكون الذات كافية في ذلك.

ومن المعلوم أنه إذا كان المقتضى لذلك قائماً في النفس وقدر عدم المعارض، فالمقتضى السالم عن المعارض المقاوم يوجب مقتضاه، فعلم أن الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها من يفسدها كانت مقرّة بالصانع، عابدة له.

فإن قيل: هذه الخواطر التي تخطر للإنسان قد تحصل لبعض الناس دون بعض، بحسب ما يتفق من الأسباب، كما أن بعض الناس يحصل له من يخاطبه دون بعض، فليسوا مشتركين في أسباب الخواطر والخطاب.

قيل: إذا لم تكن الخواطر متوقفة على مخاطب من خارج، كانت الفطرة الإنسانية هي المقتضية لذلك، وإن كان ذلك بأسباب يحدثها الله من إلهام مَلِكٍ أو غيره، لكن المقصود أنه لا يحصل لها ذلك بواسطة تعلّم إنسان ودعائه. وهذا هو المقصود بيانه من كونها وُلدت على الفطرة، ليس المراد أنه يجب وجود الهدى لكل إنسان، فإن هذا خلاف الواقع. والحديث قد بين أن المولود يعرض له من يغيّر فطرته.

الوجه الرابع: أن يقال: هب أنه لا بد من الداعي المعلّم من خارج، لكن في النفس ما يوجب ترجيح الحق على الباطل في الاعتقادات والإرادات، وهذا كافٍ في كونها وُلدت على الفطرة.

الوجه الخامس: أن يقال: المقصود أنه إذا لم يحصل المفسد الخارج ولا المصلح الخارج، كانت الفطرة مقتضية للصالح؛ لأن المقتضى فيها للعلم والإرادة

النافعة قائم، والمانع زائل، إذ ليس في الفطرة نفسها مانع من ذلك، ومع وجود المقتضى السالم عن المعارض المقاوم، يجب وجود مقتضاه.

والأوّل استدلال بوقوع الإقرار بدون سبب منفصل على وجود المقتضى التام في الفطرة، وهذا استدلال بوجود المقتضى التام على حصول مقتضاه.

وليس المقصود هنا أن المقتضى التام يجب وجوده لكل أحد، فإن هذا ممتنع، بل إن الفطرة تقتضي وجوده، كما تقتضي فطرة الصبي شرب لبن أمه، فلو لم يعرض له مانع للزم وجود الشرب. لكن قد يعرض له مرض فيه أو في أمه أو غير ذلك، يوجب نفوره عن شرب لبنها. وحب العبد لربه هو مفطور فيه، أعظم مما فطر فيه حبه للبن أمه.

قال [الله] تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْكَدَ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فلو لم يكن المقتضى التام ممكن وجوده في الفطرة، لم يحصل موجبها إلا بمرجح من خارج، وهو خلاف الواقع، ولأنها إذا خلت عن الأسباب الخارجية، لم يكن بد من وجود صلاحها أو فسادها، والثاني ممتنع، فتعين الأوّل.

[الوجه] السادس: أن السبب الذي في الفطرة: إما أن يكون مستلزماً للمعرفة والمحبة، وإما أن يكون مقتضياً لها بدون استلزام، وعلى التقديرين يحصل المقصود.

[الوجه] السابع: أن النفس لا تخلو عن الشعور والإرادة، بل هذا الخلو ممتنع فيها. فإن الشعور والإرادة من لوازم حقيقتها، ولا يتصور أن تكون النفس إلا شاعرة مريدة، ولا يجوز أن يقال: إنها قد تخلو في حق الخالق تعالى عن الشعور بوجوده وعدمه، وعن محبته وعدم محبته. وحينئذ فلا يكون الإقرار به ومحبته من لوازم وجودها، ولو لم يكن لها معارض، بل هذا باطل.

وذلك أن النفس لها مطلوب مراد بضرورة فطرتها، وكونها مريدة من لوازم ذاتها، لا يتصور أن تكون نفس الإنسان غير مريدة.

ولهذا قال ﷺ: «أصدق الأسماء الحارث وهمّام»، وهي حيوان، وكل حيوان متحرك بالإرادة، فلا بد لها من حركة إرادية، وإذا كان كذلك فلا بد لكل مريد من مراد، والمراد إما أن يكون مراداً لنفسه أو لغيره، والمراد لغيره لا بد أن ينتهي إلى مراد لنفسه، فيمتنع أن تكون جميع المرادات مرادات لغيرها فإن هذا تسلسل في العلل الغائية، وهو ممتنع، كامتناع التسلسل في العلل الفاعلية، بل أولى.

وإذا كان لا بد للإنسان من مراد لنفسه، فهذا هو الإله الذي يألهه القلب. فإذا لا بد لكل عبد من إله. فعلم أن العبد مفطور على أن يحب إلهه. ومن الممتنع أن يكون مفطوراً على أن يأله غير الله لوجوه: منها: أن هذا خلاف الواقع.

ومنها: أنه ليس هذا المخلوق، بأن يكون إلهاً لكل الخلق، بأولى من هذا. ومنها: أن المشركين لم يتفوقوا على إله واحد، بل عبد كل قوم ما استحسوه. ومنها: أن ذلك المخلوق إن كان ميتاً فالحي أكمل من الميت، فيمتنع أن يكون الناس مفطورين على عبادة ميت، وإن كان حياً فهو أيضاً مريد، فله إله يألهه، فلو كان هذا يأله هذا، وهذا يأله هذا لزم الدور الممتنع أو التسلسل الممتنع، فلا بد لهم كلهم من إله يألهونه.

فإن قلت: ما ذكرته يستلزم أنه لا بد لكل حي من إله، أو لكل إنسان من إله، لكن لم لا يجوز أن يكون مطلوب النفس مطلق المألوه، لا مألوهاً معيناً، وجنس المراد لا مراداً معيناً؟

قيل: هذا ممتنع، فإن المراد إما أن يراد لنوعه أو لعينه، فالأول مثل كون العطشان يريد ماء، والسغبان يريد طعاماً، فأرادته هنا لم تتعلق بشيء معين، فإذا حصل عين من النوع حصل مقصوده.

والمراد لذاته لا يكون نوعاً، لأن أحد المعنيين ليس هو الآخر، فلو كان هذا مراداً لذاته، للزم أن [لا] يكون الآخر مراداً لذاته، وإذا كان المراد لذاته هو القدر المشترك بينهما، لزم أن يكون ما يختص به أحدهما ليس مراداً لذاته، وإذا لم يكن مراداً لذاته، لزم أن يكون ما يختص به كل منهما ليس مراداً لذاته.

والكلي لا وجود له في الأعيان إلا معيناً، فإذا لم يكن في المعينات ما هو مراد لذاته، لم يكن في الموجودات الخارجية ما هو مراد لذاته، فلا يكون فيها ما يجب أن يأله أحد، فضلاً عما يجب أن يأله كل أحد.

فتبين أنه لا بد من إله معين، هو المحبوب لذاته من كل حي، ومن الممتنع أن يكون هذا غير الله، فلزم أن يكون هو الله، وعلم أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، وأن كل مولود ولد على محبة هذا الإله، ومحبه مستلزمة لمعرفته، فعلم أن كل مولود ولد على محبه ومعرفة، وهو المطلوب.

وهذا الدليل يصلح أن يكون مستقلاً، وهذا بخلاف ما يراد جنسه، كالطعام والشراب، فإنه ليس في ذلك ما هو مراد لذاته، بل المراد دفع ألم الجوع والعطش، أو طلب لذة الأكل والشرب. وهذا حاصل بنوع الطعام والشراب، لا يتوقف على معين بخلاف ما هو مراد ومحجوب لذاته، فإنه لا يكون إلا معيناً.

الوجه الثامن: أن يقال: اليهود عندهم نوع من المعرفة بالحق لكن بلا عمل به، بل مع بغض له ونفور عنه واستكبار. والنصارى معهم نوع من المحبة والطلب والإرادة، لكن بلا علم، بل مع ضلال وجهل. ولهذا قال النبي ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون» رواه الترمذي وصححه^(١).

وأمرنا الله أن نقول في صلاتنا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝﴾ [الفاتحة]. آمين فإن النعمة المطلقة لا تحصل إلا بمعرفة الحق واتباعه، وإذا كان كذلك، والإنسان يحتاج إلى هذا وهذا، ففطرته السليمة: إما أن تكون مقتضية لمعرفة الحق دون العمل به، أو للعمل به دون معرفته، أو لهما، أو لا لواحد منهما.

فإن كان الرابع: فيلزم أن يستوي عندها الصدق والكذب، والاعتقاد المطابق والفاسد، وإرادة ما ينفعها وإرادة ما يضرها، وهذا خلاف ما يعلم بالحس الباطن والظاهر وبالضرورة.

وإن كان الثالث: فيلزم أن يستوي عندها مع العمل أن تعلم وأن تجهل، وأن تهتدي وأن تضل، وأن لا يكون فيها مع استواء الدواعي الظاهرة ميل إلى أحدهما، وهو أيضاً خلاف المعلوم بالحس والضرورة.

وإن كان الثاني: فيلزم أن يستوي عندها إرادة الخير النافع والشر الضار دائماً، إذا استوت الدواعي الخارجة. وهو أيضاً خلاف الحس الباطن والظاهر، وخلاف الضرورة. فتبين أنه لا يستوي عندها هذان، بل يترجح عندها هذا وهذا جميعاً.

وحينئذ فلا تكون مفطورة لا على يهودية ولا على نصرانية، فعلى المجوسية أولى، ويلزم أن تكون مفطورة على الحنيفية المتضمنة لمعرفة الحق والعمل به، وهو المطلوب) ١. هـ^(٢).

(١) مر في سورة الفاتحة.

(٢) درء تعارض العقل (٣٥٩/٨ - ٤٦٨) وهذا يعد بحثاً مستقلاً في موضوع الفطرة.

وقال رحمه الله: (وقال الشيخ أبو محمد بن عبد البصري في كتابه «في أصول السنة والتوحيد»): «فصل في الخلق على الفطرة. قال: وخلق الله الخلق على الفطرة، وهو قوله سبحانه: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وهي الإقرار له بالربوبية، مع معرفة الوحداية. وذلك أنه سبحانه خلق الخلق على علم منه بهم، مشاهد لما يؤول أمرهم وعواقبهم إليه، فخلقهم على ما علم منهم وشاء، غير مؤمنين ولا كافرين صبغة، بل مقرّين عارفين، لا موحدين ولا جاحدين. وكذلك قد روي في الأثر، يقول الله تعالى: خلقت خلقي حنفاء مقرّين، لا منكرين ولا موحدّين، وذلك إثبات ونفي الجبر، فثابت في نظره وعلمه عامة عواقبهم، وله التحكم فيهم، وهو أعدل من أن يضطرهم إلى كفر وغيره، فيبطل بذلك الكسب، وإذا بطل الكسب بطل التكليف والامتحان، إذ التكليف لا يكون جبراً، ولا يقع اضطراراً وجبراً، ولا يكون إلا اختياراً، إذ قد أمروا بها، وأنزل الكتب وأرسل الرسل. وكل ما منه حق غير عابث، عدل غير ظالم، عالم لا يخفى عليه شيء، شاء لم يزل يشاء أن يثيهم ويعاقبهم على أفعال تكون كسباً لهم.

وهو عادل في عباده: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئاً﴾ [يونس: ٤٤]، وقال عز من قائل: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، مع ما أنه لم يزل مالكا لهم، وقادراً عليهم، ومتصرفاً فيهم، لا غناء لهم عنه، ولا محيص لهم منه، فخلقهم على الفطرة كما أخبر، وخلق الأعمال كما ذكرنا، ولم يضطر أحداً إلى شيء من ذلك، ولو خلقهم كفاراً صبغة لما قال لهم: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾، إذ لا يليق بالحكيم أن يخلق صبغة ويغيّر نفس ما خلق من غير كسب.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَكَفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلُونَ لَهُ أُنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ١]، ولو خلقه كافراً لما صح منه الإيمان، وكان معذوراً مدلياً بحجته، والله تعالى يقول: ﴿لَا يَدْبِلُ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾، وكان ذلك تكليف ما لا يطاق، كما أن يصرف الأسود فيقال له أبيض، والأبيض أسود، وذلك مستحيل من حكيم.

وأما قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكَّرُ كَأَن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] يعني: «أنه خلق الكل وقد اعترفوا له بذلك، فمنهم من شكر خالقه واعترف له بالنعم، وبالإخراج من العدم إلى الوجود، فحقق فعله، وقبل من رسله، ووحد ربه، ومنهم من كفر ولم يشكر خالقه، وأشرك به ما لا يجوز له، وكذب برسله، فصار كافراً بفعله» (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وتبين أن الله ذكر إسلام الوجه له وذكر إقامة الوجه له في قوله: ﴿فَأَنزَلَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ وذكر توجيه الوجه له في قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّينِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] لأن الوجه إنما يتوجه إلى حيث توجه القلب والقلب هو الملك فإذا توجه الوجه نحو جهة كان القلب متوجهاً إليها ولا يمكن الوجه أن يتوجه بدون القلب فكان إسلام الوجه وإقامته وتوجيهه مستلزماً لإسلام القلب وإقامته وتوجيهه وذلك يستلزم إسلام كله لله وتوجيه كله لله وإقامة كله لله وبسط الكلام على ما يناسب ذلك) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وهذا التفرق والاختلاف يوجب الشرك، وينافي حقيقة التوحيد الذي هو إخلاص الدين كله [لله] كما قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، وعبادة الله وحده لا شريك له: وذلك يجمع الإيمان بكل ما أمر الله به وأخبر به - أن يكون الدين كله لله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا﴾، وذلك أنه إذا كان الدين كله لله حصل الإيمان والطاعة لكل ما أنزله وأرسل به رسله، وهذا يجمع كل حق، ويجمع عليه كل حق) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال في الآية الأخرى: ﴿فَأَنزَلَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ﴿مُيَبِّنَ إِلَيْهِ وَأَتَقُوهُ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، ﴿فَنَهَاها أن يكون من المشركين، الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، وأعاد حرف [من] ليبين أن الثاني بدل من الأول. والبدل هو المقصود بالكلام، وما قبله توطئة له) ١. هـ^(٣).

﴿مُيَبِّنَ إِلَيْهِ وَأَتَقُوهُ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

(وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا﴾ لأن التوحيد هو دين الله الذي بعث به الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا

(٢) جامع الرسائل (٢/ ٢٢٩ - ٢٣٠).

(١) النبوات (٧٠).

(٣) منهاج السنة (٥/ ٢٦٥).

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَسَتَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ [الزخرف] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم» (١) ١. هـ (٢).

﴿أَمْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾﴾

(كقوله: ﴿أَمْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وقوله: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] وقال ابن عباس «كل سلطان في القرآن فهو الحجة» (٣) ذكره البخاري في صحيحه) ١. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (والسلطان: هو الحجة المنزلة من عند الله، كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ١. هـ (٥).

وقال رحمه الله: (﴿أَمْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾﴾، والسلطان الذي يتكلم بذلك: الكتاب المنزل) ١. هـ (٦).

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾

(ومثل هذا قوله [تعالى]: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾، فأخبر أن ما يصيب به الناس من الخير فهو رحمة منه أحسن بها إلى عباده، وما أصابهم [به] من العقوبات فيذنوبهم، وتمام الكلام على هذا مبسوط في مواضع آخر) ١. هـ (٧).

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لَيْرِيُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

والتحقيق: أن الربا نوعان: جلي، وخفي.

(١) مر تخريجه. (٢) مجموع الفتاوى (٢٧/١٦٣ - ١٦٤).

(٣) مر تخريجه. (٤) مجموع الفتاوى (٩/٣٩).

(٥) درء تعارض العقل (١/٥٧).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٠/٤٢٦).

(٧) منهاج السنة (١/١٤٠ - ١٤١).

فالجلي: حرم لما فيه من الضرر والظلم.

والخفي: حرم لأنه ذريعة إلى الجلي، فربما النساء من الجلي، فإنه يضر بالمحاويج ضرراً عظيماً ظاهراً، وهذا مجرب، والغني يأكل أموال الناس بالباطل، لأن ماله ربا [من غير نفع حصل للخلق]، ولهذا جعل الله الربا ضد الصدقات، فقال: ﴿يَمَحُوقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾، وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَوُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ﴾ (١) هـ.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢) هـ.

قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ قال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فالدواب تلعن عصاة بني آدم، فتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجذبت الأرض، وقحط المطر (٣) هـ.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَلِّعُونَ﴾ (٤) هـ.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ﴾ وإقامته: توجيهه إلى الله وحده، وهو أيضاً إسلامه فإن إسلام الوجه لله يقتضي إخضاعه له، وإخلاصه له.

وفي القرآن إقامة الوجه، وفيه توجيهه لله، وإسلامه لله، وتوجيهه وإسلامه هو إقامة وهو ضد إزاغته، فلما كانت الصلاة تضمنت هذا وهذا وهو عبادته وحده وإخلاص الدين له وتوجيه الوجه إليه كما فيها هذا العدل فلا بد من هذا، ولا بد من الطمأنينة فيها (٥) هـ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦) هـ.

قاله قد جعل على نفسه حقاً. فقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧) هـ.

وقال رحمه الله: (لا ريب أن الله جعل على نفسه حقاً لعباده المؤمنين، كما قال

(١) تفسير آيات أشكلت (٥٨٩/٢). (٢) مجموع الفتاوى (٢٤/١٥).

(٣) تفسير آيات أشكلت (٤٢٦/١). (٤) مختصر الفتاوى المصرية (١٩٦).

تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وفي الصحيحين: أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل وهو رديفه: «يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليه أن لا يعذبهم»^(١) فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعد الصادق ا.ه.^(٢)

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٨).

(وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، فأخبر سبحانه أنه يبسط السحاب في السماء) ا.ه.^(٣)

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٍ﴾ (٤٩).

(وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٍ﴾ فهي من أشكل ما أورد، ومما أعضل على الناس فهمها، فقال كثير من أهل الإعراب والتفسير: أنه على التكرير المحض والتأكيد، قال الزمخشري: «من قبله» من باب التوكيد فيه: كقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الحشر: ١٧] ومعنى الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تناول وبعد فاستحكم بأسهم وتمادى إبلاسهم فكان الاستبشار بذلك على قدر اهتمامهم بذلك. هذا كلامه. وقد اشتمل على دعوتين باطلتين:

إحدهما: قوله: إنه من باب التكرير.

والثانية: تمثيله ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فإن «في» الأولى على حد قولك زيد في الدار: أي حاصل أو كائن، وأما الثانية فمعمولة للخلود وهو معنى آخر غير معنى مجرد الكون، فلما اختلف العاملان ذكر الحرفين، فلو اقتصر على أحدهما كان من باب الحذف للدلالة الآخر عليه، ومثل هذا لا يقال له تكرار، ونظير هذا أن تقول: زيد في الدار نائم فيها، أو ساكن فيها، ونحوه مما هو جملتان مقيدتان بمعنيين.

(١) مر تخريجه وهو حديث متفق عليه. (٢) اقتضاء الصراط (٢/ ٧٧٥ - ٧٧٦).

(٣) منهاج السنة (٥/ ٤٤١).

وأما قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ فليس من التكرار بل تحته معنى دقيق! والمعنى فيه: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم الودق من قبل هذا النزول لمبلسين، فهنا قبلتان: قبلية لنزوله مطلقاً، وقبلية لذلك النزول المعين أن لا يكون متقدماً على ذلك الوقت، فيسوا قبل نزوله ياسين: ياساً لعدمه مرثياً، وياساً لتأخره عن وقته؛ فقبل الأولى ظرف لليأس، وقبل الثانية ظرف للمجيء والإنزال.

ففي الآية ظرفان معمولان وفعالان مختلفان عاملان فيهما، وهما الإنزال والإبلاس، فأحد الظرفين متعلق بالإبلاس، والثاني متعلق بالنزول؛ وتمثيل هذا: أن تقول - إذا كانت معتاداً للعطاء من شخص فتأخر عن ذلك الوقت ثم أتاك به - قد كنت ياساً ا.هـ^(١).

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِينًا﴾ ﴿٥٧﴾ .

(وقد أخرجاه في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على قلب بدر فقال: «هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟» وقال: «إنهم ليسمعون الآن ما أقول» فذكر ذلك لعائشة فقالت: وهم ابن عمر. إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنهم ليعلمون الآن أن الذي قلت لهم هو الحق» ثم قرأت قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ حتى قرأت الآية ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (والنص الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم مقدم على تأويل من تأول من أصحابه وغيره، وليس في القرآن ما ينفي ذلك فإن قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ إنما أراد به السماع المعتاد، الذي ينفع صاحبه، فإن هذا مثل ضرب للكفار، والكفار تسمع الصوت، لكن لا تسمع سماع قبول بفقته واتباع، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْآزِيِّ يَنْوِي بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١] ا.هـ^(٣).

﴿وَالَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿٥٨﴾ .

(وكذلك لفظ «القوة» قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ ولفظ القوة قد يراد به ما كان في القدرة

(١) مجموع الفتاوى (٢٧٧/١٥ - ٢٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٩٧/٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٧٥/٥).

أكمل من غيره؟ فهو قدرة أرجح من غيرها، أو القدرة التامة. ولفظ «القوة» قد يعم القوة التي في الجمادات بخلاف لفظ القدرة؛ فلهذا كان المنفي بلفظ القوة أشمل وأكمل. فإذا لم تكن قوة إلا به لم تكن قدرة إلا به بطريق الأولى. وهذا باب واسع) ا.هـ^(١).

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جَحْتَهُمْ بِآيَاتِهِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ فإن الأمثال المضروبة هي «الأقيسة العقلية» سواء كانت قياس شمول، أو قياس تمثيل) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (والله تعالى قد أرسل نبيه محمداً ﷺ إلى جميع العالمين، وضرب الأمثال فيما أرسله به لجميعهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جَحْتَهُمْ﴾ فأخبر أنه ضرب لجميع الناس في هذا القرآن من كل مثل) ا.هـ^(٣).

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦١﴾﴾ فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش، وصاحب اليقين ثابت، يقال أيقن. إذا كان مستقراً، واليقين استقرار الإيمان في القلب علماً وعملاً، فقد يكون علم العبد جيداً، لكن لا تصبر على المصائب بل تطيش) ا.هـ^(٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٢٩٦).

(١) مجموع الفتاوى (٤/٢٩٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/١٠٦).

(٤) المستدرک علی مجموع الفتاوى (مخطوط تحت الطبع).

سورة لقمان

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ .

(قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قيل: أراد الغناء، وقيل أراد قصص الملوك من الكفار من الفرس) ١. هـ^(١).

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَهٗ لِيَسْمَعَهَا كَأَنَّ فِي آذَانِهِ وَقْرًا فَنَسَاهُ لِيُعَذِّبَ آلِيَهُ ﴿٧﴾﴾ .

قال رحمه الله رداً على من يقول إن المعجزات لم تتواتر عندي فلا تقوم بها الحجة عليّ: إنه (كمن يقول: «العلم بالنبوة لا يحصل إلا بعد النظر، وأنا لا أنظر، أو لا أعلم وجوب النظر حتى أنظر»).

ومن جواب هؤلاء أن حجة الله برسله قامت بالتمكن من العلم، فليس من شرط حجة الله تعالى علم المدعويين بها.

ولهذا لم يكون إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعاً من قيام حجة الله تعالى عليهم، وكذلك إعراضهم عن استماع المنقول عن الأنبياء وقراءة الآثار الماثورة عنهم لا يمنع الحجة، إذ المُكَنَّةُ حاصلة.

فلذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَهٗ لِيَسْمَعَهَا كَأَنَّ فِي آذَانِهِ وَقْرًا فَنَسَاهُ لِيُعَذِّبَ آلِيَهُ ﴿٧﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وكفى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٢٣﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا نِينَسَ كُمْ مَنِ هَدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ

﴿١٣٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٣٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٣٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٣٦﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ ﴿١٦١﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ [البقرة]، ومن هذا الباب إنكار كثير من أهل البدع والكلام والفلسفة لما يعلمه أهل الحديث والسنة والآثار النبوية والسلفية المعلومة عندهم - بل المتواترة عندهم عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين لهم بإحسان.

فإن هؤلاء يقولون: «هذه غير معلومة لنا»، كما يقول من يقول من الكفار. إن معجزات الأنبياء غير معلومة لهم. وهذا لكونهم لم يطلبوا السبب الموجب للعلم بذلك. وإلا، فلو سمعوا ما سمع أولئك وقرأوا الكتب المصنفة التي قرأها أولئك لحصل لهم من العلم ما حصل لأولئك.

و«عدم العلم» ليس «علمًا بالعدم»، و«عدم الوجدان» لا يستلزم «عدم الوجود». فهم إذا لم يعلموا ذلك لم يكن هذا علمًا منهم بعدم ذلك، ولا بعدم علم غيرهم به. بل هم كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِغَيْبِهِ وَلَمَّا يَا إِلَهُكُمْ﴾ [يونس: ٣٩].

وتكذيب من كذب بالجن هو من هذا الباب، وإلا، فليس عند المتطعب والمتفلسف دليل عقلي ينفي وجودهم. لكن غايته أنه ليس في صناعته ما يدل على وجودهم. وهذا إنما يفيد «عدم العلم»، لا «العلم بالعدم». وقد اعترف بهذا حذاق الأطباء والفلاسفة، كأبقراط وغيره، والمقصود هنا التنبيه على كليات طرق العلم التي تكلم فيها هؤلاء) ١. هـ^(١).

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي صنف كريم هو كثير المنفعة) ١. هـ^(٢).

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١١﴾

(ومنه قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾: أي مخلوقه) ا. هـ^(١).

﴿وَلَوْ قَالَ لَقَمَنْ لَابْنِهِ، وَهُوَ يَعْظُمُ يَبْقَى لَا تَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

(وفي الصحيحين^(٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله! أبنا لم يلبس إيمانه بظلم، فقال: إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾) ا. هـ^(٣).

﴿وإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، والأمة منيصة إلى الله فيجب اتباع سبيلها) ا. هـ^(٤).

﴿يَبْقَىٰ أَفْرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

(ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السنة والشريعة، والنهي عن البدعة والضلالة بحسب الإمكان، كما دل على وجوب ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

وكثير من الناس قد يرى تعارض الشريعة في ذلك فيرى أن الأمر والنهي لا يقوم إلا بفتنة، فإما أن يؤمر بهما جميعاً، أو ينهى عنهما جميعاً، وليس كذلك، بل يؤمر وينهى ويصبر عن الفتنة، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾، وقال عبادة: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيث ما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»^(٥)، فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهله، وأمرهم بالقيام بالحق) ا. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ

(١) دره تعارض العقل (٧/٢٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٢٠١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/١٧٨).

(٤) البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٧٠٩).

(٥) الاستقامة (١/٤١).

(٦) مر تخريجه.

(٧) مجموع الفتاوى (١٩/١٧٨).

(٨) الاستقامة (١/٤١).

تُطْلِمُهُ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ [الشورى]، فهناك في قول لقمان ذكر الصبر على المصيبة فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وهنا ذكر الصبر والعفو فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وذكر ذلك بقوله: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فذكر سبحانه الأصناف الثلاثة، في باب الظلم الذي يكون بغير اختيار المظلوم؛ وهم: العادل، والظالم، والمحسن.

فالعادل من انتصر بعد ظلمه وهذا جزاؤه أنه ما عليه من سبيل، فلم يكن بذلك ممدوحاً، ولكن لم يكن بذلك مذموماً. وذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فهؤلاء عليهم السبيل للعقوبة، والاقتصاص. وذكر المحسنين فقال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾. والقرآن فيه جوامع الكلم (١) هـ.

وقال رحمه الله: (ولا بد أيضاً أن يكون حليماً صبوراً على الأذى، فلا بد أن يحصل له أذى، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقِ الْمُنْكَرَ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾) هـ (٢).

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٦﴾﴾

(وقد قال [الله تعالى]: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٦﴾﴾، فأمره أن يغض من صوته، كما أمر المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم، وكما أمره أن يقصد في مشيه، وذلك كله فيما يكون باختياره لا مدخل للذة الصوت وعدم لذته في ذلك) هـ (٣).

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾﴾

(﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف]، قال ابن عباس: تسألهم من خلق السموات

(١) مجموع الفتاوى (٣٠/٣٦٧ - ٣٦٨).

(٢) الاستقامة (٢/٢٣١).

(٣) الاستقامة (٢/٢٣١).

والأرض فيقولون الله ثم يعبدون غيره^(١) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض، وخالق الأصنام، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ ا. هـ^(٣).
وقال رحمه الله: (وأما قوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ فالاستفهام عن عين الخالق للتمييز بينه وبين الآلهة التي تعبد. فإن المستفهمين بها كانوا مقرين بصفة الخالق، وإنما طلب بالاستفهام تعيينه وتمييزه، ولتقام عليهم الحجة باستحقاقه وحده العبادة.

وأما فرعون فكان منكراً للموصوف المسمى، فاستفهم بصيغة «ما» لأنه لم يكن مقراً به، طالباً لتعيينه. ولهذا كان الجواب في هذا الاستفهام بقول موسى ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشعراء: ٢٤]، وبقوله: ﴿رَبِّكُمْ وَرَبِّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] فأجاب أيضاً بالصفة. وهناك قال: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فكان الجواب بالاسم المميز للمسمى عن غيره، وكذلك قوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٨٤] - إلى تمام الآيات ا. هـ^(٤).

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، روى ابن أبي حاتم في «تفسيره» عن سليمان بن عامر، قال: سمعت الربيع بن أنس يقول: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله ربهم، كقطرة من هذه البحور كلها، وقد أنزل في ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ فبين أنها إذا كتبت بمياه البحار وأقلام الأشجار لا تنفذ، والنفاد الفراغ، فعلم أنه يكتب بعضها ويبقى منها ما لم يكتب، وهذا صريح في

(٢) مجموع الفتاوى (١٢٩/٢).

(١) مرّ تخريجه.

(٤) مجموع الفتاوى (٥٩٧/١٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢٩/٢).

(٦) الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٥١).

(٥) ابن كثير (٤٥١/٣).

أنها من الكثرة إلى أن يكتب منها ما يكتب ويبقى ما يبقى فكيف يكون إنما أراد بلفظ الكلمات كلمة واحدة لا سيما ولفظ الشجر يعم كل ما قام على ساق صلب أو غير صلب كما قال النبي ﷺ في الضالة ترد الماء وترعى الشجر حتى يلقاها ربها) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِيهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢))، وقد قال غير واحد من العلماء: إن مثل هذا الكلام يراد به الدلالة على أن كلام الله لا يتقضي ولا ينفد بل لا نهاية له، ومن قال: إنه يتكلم بمشيئته وقدرته بكلام يقوم بذاته، يقولون: إنه لا نهاية له في المستقبل) ا.هـ^(٣).

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَدْتُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾^(٤).

(وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فأخبر أنهم مقرون بربوبيته، وأنهم مخلصون له الدين إذا مسهم الضر في دعائهم واستعانتهم، ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول أغراضهم) ا.هـ^(٣).

(١) الفتاوى (التسعينية) (٢١٧/٥).

(٢) منهاج السنة (٣/٣٥٩ - ٣٦٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/١٤ - ١٥).

سورة السجدة

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ .

(قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ فأخبر تعالى أنه ليس للمخلوق من دونه ولي يلي أمورهم ولا شفيع يعينهم من دون الله) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (بخلاف قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ فإنها آية محكمة ليس فيها تشابه) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (أن القرآن يدل على أن خلق العرش قبل خلق السموات والأرض بهذه الآية التي ذكرها وبغيرها فإن قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يقتضي أنه استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض، ولم يذكر أنه خلقه حينئذ، ولو كان خلقه حينئذ لكان قد ذكر خلقه ثم استواءه عليه، ولأن ذكره للاستواء عليه دون خلقه دليل على أنه كان مخلوقاً قبل ذلك، ولأنه قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق المسلمين وأهل الكتاب أن الخلق كان في ستة أيام؛ وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] فأخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن عرشه كان حينئذ على الماء. وفي الصحيح عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الله ولا شيء، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض» (٣) قال البخاري في كتاب التوحيد والرد على الجهمية والزنادقة: باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] عن عمران بن حصين قال: «إني كنت عند النبي ﷺ إذ جاءه وفد بني تميم، فقال:

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/٣٧٨).

(١) الاستغاثة (٧٧).

(٣) البخاري (٣١٩١).

اقبلوا البشرى يا بني تميم، فقالوا: بشرتنا فأعطنا. فدخل ناس من أهل اليمن، فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم، فقالوا: قبلنا. جئناك لنفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء» (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، فهو حين خلق السموات ابتداءً إما أن يحصل منه فعل يكون هو خلقاً للسموات والأرض، وإما أن لا يحصل منه فعل، بل وجدت المخلوقات بلا فعل. ومعلوم أنه إذا كان الخالق قبل خلقها وبعده سواء، لم يجز تخصيص خلقها بوقت دون وقت بلا سبب (يوجب التخصيص) هـ. ١ (٢).

وقال رحمه الله: (قال مجاهد: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، علا على العرش. وكذلك ذكر ابن أبي حاتم في «تفسيره» في قوله: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وروى بهذا الإسناد عن أبي العالية وعن الحسن وعن الربيع مثل قول أبي العالية. وروى بإسناده ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال: في اليوم السابع (٣) هـ. ١ (٤).

وقال رحمه الله: (وقال الثعلبي: وقال الكلبي ومقاتل: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، يعني استقر، قال: وقال أبو عبيدة: صعد. وقيل: استولى. وقيل: ملك. واختار هو ما حكاه عن الفراء وجماعة أن معناه أقبل على خلق العرش وعمد إلى خلقه، قال: ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، أي عمد إلى خلق السماء.

وهذا الوجه من أضعف الوجوه؛ فإنه قد أخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض وكذلك ثبت في «صحيح البخاري» عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض» (٥). فإذا كان العرش مخلوقاً قبل خلق السموات والأرض، فكيف يكون استواؤه عمده إلى خلقه له؟ لو كان هذا يعرف في اللغة: أن استوى على كذا بمعنى أنه عمد إلى فعله، وهذا لا يعرف قط في اللغة، لا حقيقة ولا مجازاً، لا في نظم ولا في نشر.

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/٥٧٨ - ٥٧٩). (٢) جامع الرسائل (٢/٢٠).

(٣) مر في سورة البقرة تخريج أقوال الصحابة والتابعين في الاستواء.

(٤) مجموع الفتاوى (٥/٥٢٠ - ٥٢١). (٥) مرّ تخريجه.

ومن قال: استوى بمعنى عمد: ذكره في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، لأنه عدي بحرف الغاية، كما يقال: عمدت إلى كذا، وقصدت إلى كذا، ولا يقال: عمدت على كذا ولا قصدت عليه، مع أن ما ذكر في تلك الآية لا يعرف في اللغة أيضاً، ولا هو قول أحد من مفسري السلف؛ بل المفسرون من السلف قولهم بخلاف ذلك كما قدمناه عن بعضهم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾؛ فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع.

وأما نفي الشفاعة بدون إذنه: فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه، كما أن الولاية التي بإذنه ليست من دونه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُغْلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ١] هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ فالولي الذي يتولى أمرك كله، والشفيع الذي يكون شافعاً فيه أي عوناً؛ فليس للعبد دون الله من ولي يستقل ولا ظهير معين) ١. هـ^(٣).

﴿يَدْبِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

(وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة، قال سأل رجل ابن عباس عن: ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ مَسْوَةٍ﴾ فقال له ابن عباس: ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ مَسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟ فقال الرجل إنما سألتك لتحديثي فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم^(٤)) ١. هـ^(٥).

(١) مجموع الفتاوى (٥٢٠/٥ - ٥٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (١١٨/١).

(٣) مجموع الفتاوى (٧٣/١).

(٤) قال صاحب «الدر» (١٧١/٥): أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه فذكره.

(٥) مجموع الفتاوى (٣٧٢/١٣ - ٣٧٣).

وقال رحمه الله في كلامه عن الحسن والقبح: (وكذلك إذا فسّر حسنه بأنه موجود أو كمال الموجود يوصف بالحسن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ كما نعلم أن الحي أكمل من الميت في وجوده، وأن العالم أكمل من الجاهل، وإن الصادق أكمل من الكاذب - فهذا أيضاً قد يعلم بالعقل) ا.هـ^(١).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ فدل على أنه لم يؤت كل نفس هداها مع أنه قد أمر كل نفس بهداها) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] فالله تعالى قادر على ذلك، فلو شاء لفعله بقدرته، وهو لا يشاؤه) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ومثل هذا القسم ليس خيراً محضاً بل فيه مضى الإرادة والعهد، كما في الوعد) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقال وكيع بن الجراح: من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أن شيئاً من الله مخلوق. فقيل له: من أين قلت هذا؟ قال لأن الله يقول: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ ولا يكن من الله شيء مخلوق. وهذا القول قاله غير واحد من السلف) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (ولكن مقصود السلف الرد على هؤلاء الجهمية فإنهم زعموا أن القرآن خلقه الله في غيره فيكون قد ابتدأ وخرج من ذلك المحل الذي خلق فيه لا من الله، كما يقولون: كلامه لموسى خرج من الشجرة فبين السلف والأئمة أن القرآن من الله بدأ وخرج، وذكروا قوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ فأخبر أن القول منه لا من غيره من المخلوقات.

و«من» هي لا ابتداء الغاية، فإن كان المجرور بها عيناً يقوم بنفسه لم يكن صفة لله

- (١) مجموع الفتاوى (١١/٣٤٧).
 (٢) مجموع الفتاوى (٨/١٣١).
 (٣) مجموع الفتاوى (١١/٤٨٩).
 (٤) جامع المسائل (١/١٥٣).
 (٥) مجموع الفتاوى (١٢/٥١٧).

كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وقوله في المسيح: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وكذلك ما يقوم بالأعيان كقوله: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وأما إذا كان المجرور بها صفة ولم يذكر لها محل كان صفة الله كقوله: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ ا.هـ (١).

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ .

(وأيضاً فإنه سبحانه قال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ فأخبر أنه لا يكون مؤمناً إلا من سجد إذا ذكر بالآيات وسبح بحمد ربه) ا.هـ (٢).

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ .

(وفي حديث معاذ الذي قال فيه: يا رسول الله! أخبرني بعمل يدخلني الجنة: ويباعدني من النار قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ - حتى بلغ - يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى، قال: فأخذ بلسانه - فقال: اكف عليك هذا، فقلت: يا رسول الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» (٣) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (ورواه أبو بكر البزار وأبو بكر الخلال وابن بطة من حديث حذيفة بن اليمان مرفوعاً، ولم يذكر فيه هذه الزيادة، لكن قال في آخره: «فلهم في كل سبعة أيام الضعف على ما كانوا فيه - قال - وذلك قول الله في كتابه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا﴾

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٥١٨ - ٥١٩).

(٢) القواعد النورانية (٦١).

(٣) مجمع الفتاوى (١٦/٢٣)، (١١/٢٠٠).

(٤) مَرّ تخريجه.

أَخْفَى لَكُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧﴾ وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» فهذا الذي وعد الله به عباده المؤمنين لا تعلمه نفس هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، وكذلك وقت الساعة لا يعلمه إلا الله، وأشراتها، وكذلك كفيات ما يكون فيها من الحساب والصراف والميزان والحوض والثواب والعقاب لا يعلم كيفيته إلا الله، فإنه لم يخلق بعد حتى تعلمه الملائكة، ولا له نظير مطابق من كل وجه حتى يعلم به، فهو من تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (واعلم أن هنا «دلالة ثانية»، وهي دلالة العموم المعنوي وهي أقوى من دلالة العموم اللفظي، وذلك أن قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧﴾ وقد فسرت «القرة» بالنظر وغيره، فيقتضي أن النظر جزاء على عملهم، والرجال والنساء مشتركون في العمل الذي استحق به جنس الرجال الجنة؛ فإن العمل الذي يمتاز به الرجال «كالإمارة» و«النبوة» - عند الجمهور - ونحو ذلك لم تنحصر الرؤية فيه؛ بل يدخل في الرؤية من الرجال من لم يعمل عملاً يختص الرجال؛ بل اقتصر على ما فرض عليه: من الصلاة، والزكاة، وغيرهما؛ وهذا مشترك بين الفريقين) ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧﴾ قد فسر بالرؤية، وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿٣٣﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ ﴿٣٤﴾ [المطففين] فإن هذا كله يعم الرجال والنساء) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ فحقيقة ما أعده الله لأوليائه غيب عن الملائكة، وقد غيب عنهم أولاً حال آدم في النشأة الأولى وغيرها) ا. هـ (٥).

- (١) مجموع الفتاوى (٤٠٢/٦) والكلام حول حديث «رؤية المؤمنين ربهم في الجنة في مثل يوم الجمعة من أيام الدنيا» والكلام على طرقة وألفاظه وذكر أحد تلك الألفاظ.
 (٢) مجموع الفتاوى (٣٧٣/١٧).
 (٣) مجموع الفتاوى (٤٣٩/٦).
 (٤) مجموع الفتاوى (٤٣٧/٦).
 (٥) مجموع الفتاوى (٣٧٣/٤).

﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُم بِرَجْعَتِمْ﴾ (١١).

(وكذلك قوله: ﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُم بِرَجْعَتِمْ﴾ (١١) يدخل في العذاب الأدنى ما يكون بأيدي العباد، كما قد فسر بوقعة بدر^(١) بعض ما وعد الله به المشركين من العذاب) ا. هـ. (٢).

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (١٢).

(والله سبحانه وصف الأئمة بالصبر واليقين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (١٢) ا. هـ. (٣).

وقال رحمه الله: (ثم إذا علم هذين الأصلين، فلا بد أن تكون فيه إرادة جازمة على العمل بذلك، وإلا فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة. والإرادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر، ولهذا قال ﷺ: ﴿وَالْعَصْرُ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣﴾ [العصر]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (١٢) فاليقين هو العلم الثابت المستقر، والصبر [لا بد منه لتحقيق الإرادة الجازمة] ا. هـ. (٤).

وقال رحمه الله: (وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سبباً لعلو الدرجة وعظيم الأجر. كما سئل النبي ﷺ: «أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل. يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلاءه، وإن كان في دينه رقة خُفِّفَ عنه. وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على [وجه] الأرض وليس عليه خطيئة»^(٥). وحينئذ فيحتاج من الصبر إلى ما لا يحتاج إليه غيره، وذلك هو سبب الإمامة في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (١٢) ا. هـ. (٦).

(١) وهو مروى عن ابن مسعود، كما في ابن كثير (٥٠٩/٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٥/١٥). (٣) الاستقامة (٤٠/١).

(٤) جامع الرسائل (٣٢٧/٢).

(٥) الترمذي (٢٣٩٨) وأحمد (١٧٢/١) والحاكم (٤٠/١) والبيهقي في سننه (٣٧٢/٣) والحديث صحيح.

(٦) الاستقامة (٢/٢٦٠ - ٢٦١).

وقال رحمه الله: (وقد وصف الله أئمة المتقين فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿١٤﴾ فبالصبر تترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿١٤﴾، فالصبر واليقين بهما تنال الإمامة في الدين، فلما قام^(٢) بذلك قرنت باسمه من الإمامة في السنة ما شهر به وصار متبوعاً لمن بعده، كما كان تابِعاً لمن قبله) ١. هـ^(٣).

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

(والبلد الجرز يسوق إليه الماء من حيث أمطر. كما قال: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٧﴾، فالأرض الجرز لا تمطر ما يكفيها، كأرض مصر: لو أمطرت المطر المعتاد لم يكفها؛ فإنها أرض إبليز. وإن أمطرت كثيراً مثل مطر شهر خربت المساكن، فكان من حكمة الباري ورحمته أن أمطر أرضاً بعيدة، ثم ساق ذلك الماء إلى أرض مصر، فهذه الآيات يُستدل بها على علم الخالق وقدرته ومشيتته وحكمته) ١. هـ^(٤).

(١) اقتضاء الصراط (١/١٠٤).

(٢) سياق الكلام عن الإمام أحمد وذبه عن السنة وصبره على الأذى فيها.

(٣) مجموع الفتاوى (٣/٣٥٨)، جامع المسائل (١/١٦٨) قريباً منه.

(٤) منهاج السنة (٥/٤٤٣ - ٤٤٤) وقد نقل عنه ذلك ابن القيم في بدائع الفوائد (٢/٨٨).

سورة الأحزاب

وقال في عموم تفسير سورة الأحزاب:

(افتتح الله السورة بقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ آتَى اللَّهِ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وذكر في أثنائها قوله: ﴿وَنَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب] ثم قال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾. فأمره باتباع ما أوحى إليه من الكتاب والحكمة - التي هي سنته - وبأنه يتوكل على الله. فبالأولى يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وبالثانية يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. ومثل ذلك قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وهذا وإن كان مأموراً به في جميع الدين؛ فإن ذلك في الجهاد أوكد؛ لأنه يحتاج إلى أن يجاهد الكفار والمنافقين؛ وذلك لا يتم إلا بتأييد قوي من الله؛ ولهذا كان الجهاد سنام العمل، وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة. ففيه سنام المحبة، كما في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. وفيه سنام التوكل، وسنام الصبر، فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرٌ لَآخِرَةٌ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل]؛ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف].

ولهذا كان الصبر واليقين - اللذين هما أصل التوكل - يوجبان الإمامة في الدين، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [السجدة].

ولهذا كان الجهاد موجباً للهداية التي هي محيطة بأسباب العلم. كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فجعل لمن جاهد فيه

هداية جميع سبله تعالى؛ ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر فإن الحق معهم؛ لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وفي الجهاد أيضاً: حقيقة الزهد في الحياة الدنيا وفي الدار الدنيا.

وفيه أيضاً: حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله، لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هي العليا.

وأعظم مراتب الإخلاص: تسليم النفس والمال للمعبود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثِك لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]. و﴿الْجَنَّةُ﴾ اسم الدار التي حوت كل نعيم، أعلاه النظر إلى الله، إلى ما دون ذلك مما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، مما قد نعرفه وقد لا نعرفه، كما قال الله تعالى فيما رواه عنه رسوله ﷺ: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فقد تبين بعض أسباب افتتاح هذه السورة بهذا، ثم أنه تعالى قال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وكان مختصر القصة: أن المسلمين تحزب عليهم عامة المشركين الذين حولهم، وجاءوا بجموعهم إلى المدينة ليستأصلوا المؤمنين، فاجتمعت قريش وحلفاؤها من بني أسد، وأشجع، وفزارة، وغيرهم من قبائل نجد. واجتمعت أيضاً اليهود: من قريظة، والنضير. فإن بني النضير كان النبي ﷺ قد أجلاهم قبل ذلك كما ذكره الله تعالى في «سورة الحشر». فجاءوا في الأحزاب إلى قريظة وهم معاهدون للنبي ﷺ، ومجاورون له، قريباً من المدينة فلم يزلوا بهم حتى نقضت قريظة العهد، ودخلوا في الأحزاب، فاجتمعت هذه الأحزاب العظيمة، وهم بقدر المسلمين مرات متعددة، فرفع النبي ﷺ الذرية من النساء والصبيان في أطام المدينة، وهي مثل الجواسق، ولم ينقلهم إلى مواضع أخرى، وجعل ظهرهم إلى سلع وهو الجبل القريب من المدينة من ناحية الغرب والشام - وجعل بينه وبين العدو خندقاً، والعدو قد أحاط بهم من العالية والسافلة، وكان عدواً شديداً العداوة، لو تمكن من المؤمنين لكانت نكايته فيهم أعظم النكيات.

وفي هذه الحادثة تحزب هذا العدو من مغل وغيرهم من أنواع الترك، ومن فرس ومستعربة، ونحوهم من أجناس المرتدة، ومن نصارى الأرمن وغيرهم. ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين، وهو بين الإقدام والإحجام، مع قلة من بإزائهم من المسلمين. ومقصودهم الاستيلاء على الدار، واصطلام أهلها. كما نزل أولئك بنواحي المدينة بإزاء المسلمين، ودام الحصار على المسلمين عام الخندق - على ما قيل - بضعاً وعشرين ليلة. وقيل: عشرين ليلة) ١. هـ^(١).

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأُزْوَاجُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب] وفي القراءة الأخرى: «وهو أب لهم» ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأما الذين في قلوبهم مرض فقد تكرر ذكرهم في هذه السورة. فذكروا هنا، وفي قوله: ﴿لَيْنَ لَمْرَيْنِهِ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠] وفي قوله: ﴿فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وذكر الله مرض القلب في مواضع. فقال تعالى: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوْلًا دِينَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]، والمرض في القلب كالمرض في الجسد، فكما أن هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال، من غير موت، فكذلك قد يكون في القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال، من غير أن يموت القلب، سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه، أو أفسد عمله وحركته.

وذلك - كما فسروه -: هو من ضعف الإيمان؛ إما بضعف علم القلب واعتقاده وإما بضعف عمله وحركته فيدخل فيه من ضعف تصديقه، ومن غلب عليه الجبن والفرع فإن أدواء القلب من الشهوة المحرمة والحسد والجبن والبخل وغير ذلك، كلها أمراض. وكذلك الجهل والشكوك والشبهات التي فيه.

وعلى هذا فقوله: ﴿فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] هو إرادة الفجور، وشهوة الزنا، كما فسروه به. ومنه قول النبي ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل؟»^(٣)، وقد جعل الله تعالى كتابه شفاء لما في الصدور، وقال النبي ﷺ: «إنما شفاء العي السؤال»^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٤١ - ٤٤٤) وقصة الأحزاب ثابتة في كتب السيرة والتفسير والحديث. ويقصد الشيخ بالحادثة حادثة وصول التتار إلى أطراف الشام فهزمهم الله بالبرد والثلوج والمجاعة والخوف، وذلك لحسن نية المسلمين وعزم جيشهم على مقاتلة التتار، كما يذكره الشيخ في موضع آت.

(٢) جامع المسائل (٤/٢٧٤). (٣) البخاري (٣١٣٧).

(٤) أبو داود (٣٣٦) وابن ماجه (٥٧٢) وأحمد (١/٢٨٠) والحديث صحيح.

وكان يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء»^(١).

ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه، كما ذكروا أن رجلاً شكاً إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة، فقال: لو صححت لم تخف أحداً. أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك. ولهذا أوجب الله على عباده أن لا يخافوا حزب الشيطان؛ بل لا يخافون غيره تعالى (فقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ [آل عمران]، أي يخفوكم أوليائه) وقال لعموم بني إسرائيل تنبيهاً لنا: ﴿وَأَنَّى فَآرَهُبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَأَخْسَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْسَوْنَ﴾ [البقرة: ١٥٠] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَبِّسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْسَوْنَ﴾ [المائدة: ٣]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَحْزَنُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨] وقال: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقال: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوكُمْ أَوْلَكِ مَرْءٌ مَخْشَوْنَهُ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة: ١٣].

فدلت هذه الآية - وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] - على أن المرض والنفق في القلب يوجب الريب في الأنبياء الصادقة التي توجب أمن الإنسان: من الخوف، حتى يظنوا أنها كانت غروراً لهم، كما وقع في حادثتنا هذه سواء.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣] وكان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع، وجعل الخندق بينه وبين العدو، فقالت طائفة منهم: لا مقام لكم هنا؛ لكثرة العدو، فارجعوا إلى المدينة، وقيل: لا مقام لكم على دين محمد، فارجعوا إلى دين الشرك، وقيل: لا مقام لكم على القتال، فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم.

وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم، فينبغي الدخول في دولة التتار، وقال بعض الخاصة: ما بقيت أرض الشام

تسكن؛ بل ننتقل عنها، إما إلى الحجاز واليمن، وإما إلى مصر، وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء، كما قد استسلم لهم أهل العراق، والدخول تحت حكمهم.

فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة، كما قيلت في تلك. وهكذا قال طائفة من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، لأهل دمشق خاصة والشام عامة: لا مقام لكم بهذه الأرض.

ونفي المقام بها أبلغ من نفي المقام. وإن كانت قد قرئت بالضم أيضاً، فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان، فكيف يقيم به؟.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَكْبِرُونَ فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيُّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، وكان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق، والنساء والصبيان في آطام المدينة -: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة. أي مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل.

وأصل العورة: الخالي، الذي يحتاج إلى حفظ وستر. يقال: أعور مجلسك إذا ذهب ستره، أو سقط جداره. ومنه عورة العدو.

وقال مجاهد والحسن: أي ضائعة تخشى عليها السراق. وقال قتادة: قالوا: بيوتنا مما يلي العدو، فلا نأمن على أهلنا، فائذن لنا أن نذهب إليها، لحفظ النساء والصبيان. قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله يحفظها ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ فهم يقصدون الفرار من الجهاد، ويحتجون بحجة العائلة.

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة. صاروا يفرون من الثغر إلى المعازل والحصون، وإلى الأماكن البعيدة، كمصر. ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا.

وهم يكذبون في ذلك. فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق، لو دنا العدو كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ.

وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد. فكيف بمن فر بعد إرسال عياله. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب] فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها ثم طلبت منهم الفتنة - وهي الافتتان عن الدين بالكفر، أو النفاق - لأعطوا الفتنة. ولجاءوها من غير توقف.

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم. ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام - وتلك فتنة عظيمة - لكانوا معه على ذلك. كما ساعدتهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا، ما بين ترك واجبات، وفعل محرمات، إما في حق الله، وإما في حق العباد. كترك الصلاة، وشرب الخمر، وسب السلف، وسب جنود المسلمين، والتجسس لهم على المسلمين، ودلالتهم على أموال المسلمين، وحریمهم. وأخذ أموال الناس، وتعذيبهم. وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْتُونَ الْأَذْبَنَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب] وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا، قديماً وحديثاً، في هذه الغزوة. فإن في العام الماضي، وفي هذا العام: في أول الأمر، كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولا يفر، ثم فر منهزماً، لما اشتد الأمر.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب] فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل، فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون. ولذلك قال النبي ﷺ: «إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»^(١) والفرار من القتل كالفرار من الجهاد. وحرف «لن» ينفي الفعل في الزمن المستقبل. والفعل نكرة. والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها. فاقضى ذلك: أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبداً. وهذا خبر الله الصادق. فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره.

والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن. فإن هؤلاء الذين فروا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم بل خسروا الدين والدنيا، وتفاوتوا في المصائب. والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا، حتى الموت الذي فروا منه كثر فيهم، وقل في المقيمين. فما منع الهرب من شاء الله. والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد، ولا قتل؛ بل الموت قلَّ في البلد من حين خرج الفارون. وهكذا سنة الله قديماً وحديثاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يقول: لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة، ثم تموتون. فإن الموت لا بد منه. وقد حكى عن بعض الحمقى أنه

(١) البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

قال: فنحن نريد ذلك القليل. وهذا جهل منه بمعنى الآية. فإن الله لم يقل: إنهم يمتعون بالفرار قليلاً. لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبداً. ثم ذكر جواباً ثانياً. أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل. ثم ذكر جواباً ثالثاً، وهو أن الفار يأتيه ما قضي له من المضرة، ويأتي الثابت ما قضي له من المسرة. فقال: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوْءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْم مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَإِنَّا لَوَاصِقُونَ﴾ [الأحزاب].

ونظيره: قوله في سياق آيات الجهاد: ﴿أَيُّنَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِن﴾ الآية [النساء: ٧٨] وقوله: ﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ أَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَانُوا وَمَا قَاتَلُوا لِجَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران]. فمضمون الأمر: أن المنايا محتومة، فكم ممن حضر الصفوف فسلم، وكم ممن فر من المنية فصادفته، كما قال خالد بن الوليد - لما احتضر - لقد حضرت كذا وكذا صفا، وإن بيدني بضعا وثمانين، ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح، ورمية بسهم. وهأنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير. فلا نامت أعين الجبناء^(١).

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]. قال العلماء^(٢): كان المنافقين من يرجع من الخندق فيدخل المدينة، فإذا جاءهم أحد قالوا له: ويحك - اجلس، فلا تخرج. ويكتبون بذلك إلى إخوانهم الذين بالعسكر: أن اثتونا بالمدينة، فإننا ننتظركم. يشبطونهم عن القتال. وكانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بداً. فيأتون العسكر ليرى الناس وجوههم. فإذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة. فانصرف بعض من عند النبي ﷺ، فوجد أخاه لأبيه وأمه وعنده شواء ونيذ. فقال: أنت ههنا، ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف؟ فقال: هلم إلي، فقد أحيط بك وبصاحبك^(٣).

فوصف المثبتين عن الجهاد - وهم صنفان - بأنهم إما أن يكونوا في بلد الغزاة، أو في غيره، فإن كانوا فيه عوقوهم عن الجهاد بالقول، أو بالعمل، أو بهما. وإن كانوا في غيره راسلوهم، أو كاتبوهم: بأن يخرجوا إليهم من بلد الغزاة، ليكونوا معهم بالحصون، أو بالبعد. كما جرى في هذه الغزاة.

(١) الاستيعاب لابن عبد الله (١٦٩/٣) وسير أعلام النبلاء (٣٨٢/١) وفي الاستيعاب (البعير) والصحيح هو (العير).

(٢) ابن جرير (١٣٩/٢١).

(٣) ابن جرير (١٣٩/٢١).

فإن أقواماً في العسكر والمدينة وغيرها صاروا يعوقون من أراد الغزو، وأقواماً بعثوا من المعادل والحصون وغيرها إلى إخوانهم: هلمّ إلينا. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٨﴾ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ ﴿[الأحزاب] أي بخلاء عليكم بالقتال معكم، والنفقة في سبيل الله. وقال مجاهد: «بخلاء عليكم بالخير والظفر والغنيمة» وهذه حال من بخل على المؤمنين بنفسه وماله، أو شح عليهم بفضل الله: من نصره ورزقه الذي يجريه بفعل غيره. فإن أقواماً يشحون بمعروفهم، وأقواماً يشحون بمعروف الله وفضله. وهم الحساد.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْتَوَفُّ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ ﴿[الأحزاب: ١٩] من شدة الرعب الذي في قلوبهم، يشبهون المغمى عليه وقت النزح؛ فإنه يخاف ويذهل عقله، ويشخص بصره، ولا يطرف. فكذلك هؤلاء؛ لأنهم يخافون القتل، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْتَوَفُّ سَلَقُواكُمْ بِاللَّسِنَةِ حِدَادٍ﴾ ﴿[الأحزاب: ١٩] ويقال في اللغة «صلقوكم» وهو رفع الصوت بالكلام المؤذي. ومنه «الصالقة» وهي التي ترفع صوتها بالمصيبة. يقال: صلقة، وسلقة - وقد قرأ طائفة من السلف بها؛ لكنها خارجة عن المصحف - إذا خاطبه خطاباً شديداً قوياً. ويقال: خطيب مسلاق: إذا كان بليغاً في خطبته؛ لكن الشدة هنا في الشر لا في الخير. كما قال: «باللسنة حداد، أشحة على الخير» وهذا السلق باللسنة الحادة، يكون بوجوه:

تارة يقول المنافقون للمؤمنين: هذا الذي جرى علينا بشؤمكم؛ فإنكم أنتم الذين دعوتم الناس إلى هذا الدين، وقاتلتم عليه، وخالفتموهم؛ فإن هذه مقالة المنافقين للمؤمنين من الصحابة.

وتارة يقولون: أنتم الذين أشرتم علينا بالمقام هنا، والثبات بهذا الثغر إلى هذا الوقت، وإلا فلو كنا سافرنا قبل هذا لما أصابنا هذا.

وتارة يقولون - أنتم مع قلتكم وضعفكم - تريدون أن تكسروا العدو، وقد غركم دينكم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَوَالَهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿[الأنفال]، وتارة يقولون: أنتم مجانين، لا عقل لكم، تريدون أن تهلكوا أنفسكم والناس معكم، وتارة يقولون: أنواعاً من الكلام المؤذي الشديد. وهم مع ذلك أشحة على الخير، أي حراص على الغنيمة والمال الذي قد حصل لكم. قال قتادة: إن كان وقت قسمة الغنيمة، بسطوا ألسنتهم فيكم. يقولون: أعطونا، فلستم بأحق بها منا. فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق. وأما عند الغنيمة

فأشح قوم. وقيل: أشحة على الخير، أي بخلاء به، لا ينفعون، لا بنفوسهم ولا بأموالهم. وأصل الشح: شدة الحرص الذي يتولد عنه البخل والظلم: من منع الحق، وأخذ الباطل. كما قال النبي ﷺ: «إياكم والشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم. أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»^(١)؟ فهؤلاء أشحاء على إخوانهم، أي بخلاء عليهم، وأشحاء على الخير أي حراص عليه. فلا ينفقونه. كما قال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات]. ثم قال تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوتُ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَكَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب]، فوصفهم بثلاثة أوصاف:

أحدها: أنهم لفرط خوفهم يحسبون الأحزاب لم ينصرفوا عن البلد. وهذه حال الجبان الذي في قلبه مرض؛ فإن قلبه يبادر إلى تصديق الخبر المخوف، وتكذيب خبر الأمن.

الوصف الثاني: أن الأحزاب إذا جاءوا تمنوا أن لا يكونوا بينكم؛ بل يكونون في البادية بين الأعراب، يسألون عن أنباءكم: إيش خبر المدينة؟ وإيش جرى للناس؟. والوصف الثالث: أن الأحزاب إذا أتوا، وهم فيكم، لم يقاتلوا إلا قليلاً. وهذه الصفات الثلاث منطبقة على كثير من الناس في هذه الغزوة كما يعرفونه من أنفسهم، ويعرفه منهم من خبرهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب]. فأخبر سبحانه أن الذين يتلون بالعدو، كما ابتلي رسول الله ﷺ، فلهم فيه أسوة حسنة، حيث أصابهم مثل ما أصابه. فليتأسوا به في التوكل والصبر، ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها، وإهانة له. فإنه لو كان كذلك ما ابتلي بها رسول الله ﷺ خير الخلائق؛ بل بها ينال الدرجات العالية، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً. وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك فيكون في حقه عذاباً. كالكفار والمنافقين.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب]، قال العلماء: كان الله قد أنزل في

سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فبين الله سبحانه - منكرًا على من حسب خلاف ذلك - أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد أن يتلوا مثل هذه الأمم قبلهم بـ«البأساء» وهي الحاجة والفاقة. و«الضراء» وهي الوجع والمرض. و«الزلازل» وهي زلزلة العدو.

فلما جاء الأحزاب عام الخندق فرأوهم. قالوا: «هذا ما وعدنا الله ورسوله. وصدق الله ورسوله» وعلموا أن الله قد ابتلاههم بالزلازل. وأتاهم مثل الذين خلوا من قبلهم، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً لحكم الله وأمره. وهذه حال أقوام في هذه الغزوة: قالوا ذلك.

وكذلك قوله: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] أي عهده الذي عاهد الله عليه، فقاتل حتى قتل، أو عاش. و«النجب» النذر والعهد. وأصله من النحيب. وهو الصوت. ومنه: الانتحاب في البكاء، وهو الصوت الذي تكلم به في العهد. ثم لما كان عهدهم هو نذرهم الصدق في اللقاء - ومن صدق في اللقاء فقد يقتل - صار يفهم من قوله: ﴿قَضَى نَجْبَهُ﴾ أنه استشهد، لا سيما إذا كان النجب: نذر الصدق في جميع المواطن؛ فإنه لا يقضيه إلا بالموت. وقضاء النجب هو الوفاء بالعهد. كما قال تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ﴾ أي أكمل الوفاء. وذلك لمن كان عهده مطلقاً: بالموت، أو القتل.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ﴾ قضاءه، إذا كان قد وفى البعض، فهو ينتظر تمام العهد. وأصل القضاء: الإتمام والإكمال.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤]. يبين الله سبحانه أنه أتى بالأحزاب ليجزي الصادقين بصدقهم، حيث صدقوا في إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. فحصر الإيمان في المؤمنين المجاهدين، وأخبر أنهم هم الصادقون في قولهم: آمنا، لا من قال، كما قالت الأعراب؛ ﴿ءَامَنَّا﴾ والإيمان لم يدخل في قلوبهم؛ بل انقادوا واستسلموا. وأما المنافقون فهم بين أمرين: إما أن يعذبهم، وإما أن يتوب عليهم. فهذا حال الناس في الخندق وفي هذه الغزوة.

وأيضاً فإن الله تعالى ابتلى الناس بهذه الفتنة، ليجزي الصادقين بصدقهم، وهم الثابتون الصابرون لينصروا الله ورسوله، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم. ونحن نرجو من الله أن يتوب على خلق كثير من هؤلاء المذمومين؛ فإن منهم من ندم والله سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات. وقد فتح الله للتوبة باباً من قبل المغرب عرضه أربعون سنة. لا يغلقه حتى تطلع الشمس من مغربها.

وقد ذكر أهل المغازي - منهم ابن إسحاق - أن النبي ﷺ قال في الخندق: «الآن نغزوهم، ولا يغزوننا» فما غزت قريش ولا غطفان، ولا اليهود المسلمين بعدها؛ بل غزاهم المسلمون: ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة. كذلك - إن شاء الله - هؤلاء الأحزاب من المغل وأصناف الترك ومن الفرس، والمستعربة، والنصارى، ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام: الآن نغزوهم ولا يغزوننا. ويتوب الله على من يشاء من المسلمين، الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق، بأن ينيبوا إلى ربهم، ويحسن ظنهم بالإسلام، وتقوى عزيبتهم على جهاد عدوهم. فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولى الأبصار، كما قال: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتْنَةَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب].

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ریح الصبا: ریح شديدة باردة. وبما فرق به بين قلوبهم، حتى شتت شملهم، ولم ينالوا خيراً. إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة، كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين، فردهم الله بغيظهم، حيث أصابهم من الثلج العظيم، والبرد الشديد، والريح العاصف، والجوع المزعج، ما الله به عليم.

وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة. وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة. وفيه لله حكمة وسر، فلا تكرهوه. فكان من حكمته: أنه فيما قيل: أصاب قازان وجنوده، حتى أهلكهم، وهو كان فيما قيل: سبب رحيلهم. وابتلى به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه. وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب: يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى، يوم دخلت مصر عقيب العسكر، واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين، وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه. فلما ثبت الله قلوب المسلمين صرف العدو، جزاء منه،

وبياناً أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها، وإن لم يقع الفعل، وإن تباعدت الديار.

وذكر أن الله فرق بين قلوب المغل والكرج وألقى بينهم تباغضاً وتعادياً، كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وخطفان، وبين اليهود. كما ذكر ذلك أهل المغازي. فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق. بل من طالعها علم صحة ذلك، كما ذكره أهل المغازي. مثل عروة بن الزبير، والزهري، وموسى بن عقبة، وسعيد بن يحيى الأموي، ومحمد بن عائذ، ومحمد بن إسحاق، والواقدي، وغيرهم.

ثم تبقى بالشام منهم بقايا، سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم، مضافاً إلى عسكر حماة وحلب، وما هنالك. وثبت المسلمون بإزائهم.

وكانوا أكثر من المسلمين بكثير؛ لكن في ضعف شديد وتقربوا إلى حماة، وأذلهم الله تعالى، فلم يقدموا على المسلمين قط. وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم، فلم يوافقهم غيره، فجرت مناوشات صغار، كما جرى في غزوة الخندق، حيث قتل علي بن أبي طالب عليه السلام فيها عمرو بن عبد ود العامري لما اقتحم الخندق، هو ونفر قليل من المشركين.

كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين. وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهريين عليهم. وساق المسلمون خلفهم في آخر النوبات، فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات. وبعضهم في جزيرة فيها. فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم، وخالطوهم؛ وأصاب المسلمون بعضهم. وقيل: إنه غرق بعضهم.

وكان عبورهم وخلو الشام منهم في أوائل رجب، بعد أن جرى - ما بين عبور قازان أولاً وهذا العبور - رجفات ووقعات صغار، وعزمتنا على الذهاب إلى حماة غير مرة؛ لأجل الغزاة؛ لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الذين بقوا. وثبت بإزائهم المقدم الذي بحماة، ومن معهم من العسكر، ومن أتاه من دمشق، وعزموا على لقاءهم، ونالوا أجراً عظيماً. وقد قيل: إنهم كانوا عدة كمانات؛ إما ثلاثة، أو أربعة.

فكان من المقدر: إنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يلقي في قلوب عدوهم الرعب فيهربون، لكن أصابوا من البلديات بالشمال مثل «تيزين» و«الفوعة» و«معة مصرين» وغيرها ما لم يكونوا وطئوه في العام الماضي.

وقيل: إن كثيراً من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم؛ بسبب الرفض، وأن عند

بعضهم فرامين منهم، لكن هؤلاء ظلمة، ومن أعان ظالماً بلي به. والله تعالى يقول: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام].

وقد ظاهرهم على المسلمين: الذين كفروا من أهل الكتاب، من أهل «سيس» والأفرنج. فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصبيهم، وهي الحصون - ويقال للقرون: الصياصي - ويقذف في قلوبهم الرعب. وقد فتح الله تلك البلاد. ونغزوهم إن شاء الله تعالى، فنفتح أرض العراق وغيرها، وتعلو كلمة الله ويظهر دينه؛ فإن هذه الحادثة كان فيها أمور عظيمة جازت حد القياس. وخرجت عن سنن العادة. وظهر لكل ذي عقل من تأييد الله لهذا الدين، وعنايته بهذه الأمة، وحفظه للأرض التي بارك فيها للعالمين - بعد أن كاد الإسلام أن ينثلم، وكر العدو كرة فلم يلو عن... وخذل الناصرون فلم يلووا على... وتحير السائرون فلم يدروا من... ولا إلى... وانقطعت الأسباب الظاهرة. وأهطعت الأحزاب القاهرة، وانصرفت الفئة الناصرة، وتخاذلت القلوب المتناصرة وثبتت الفئة الناصرة وأيقنت بالنصر القلوب الطاهرة، واستنجزت من الله وعده العصابة المنصورة الظاهرة، ففتح الله أبواب سمواته لجنوده القاهرة، وأظهر على الحق آياته الباهرة، وأقام عمود الكتاب بعد ميله، وثبت لواء الدين بقوته وحوله، وأرغم معاطس أهل الكفر والنفاق، وجعل ذلك آية للمؤمنين إلى يوم التلاق.

فالله يتم هذه النعمة بجمع قلوب أهل الإيمان على جهاد أهل الطغيان، ويجعل هذه المنة الجسيمة مبدأ لكل منحة كريمة، وأساساً لإقامة الدعوة النبوية القويمة، ويشفي صدور المؤمنين من أعاديهم، ويمكنهم من دانيهم وقاصيهم. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

قال الشيخ رحمه الله: «كتبت أول هذا الكتاب بعد رحيل قازان وجنوده، لما رجعت من مصر في جمادي الآخرة، وأشاعوا أنه لم يبق منهم أحد. ثم لما بقيت تلك الطائفة اشتغلنا بالاهتمام بجهادهم، وقصد الذهاب إلى إخواننا بحماة. وتحريض الأمراء على ذلك، حتى جاءنا الخبر بانصراف المتبقين منهم. فكتبته في رجب والله أعلم. والحمد لله وحده. وصلى الله على أشرف الخلق محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين» (١) هـ.

وقال رحمه الله: (غزوة الأحزاب التي أنزل الله فيها «سورة الأحزاب» وهي سورة تضمنت ذكر هذه الغزاة، التي نصر الله فيها عبده ﷺ، وأعز فيها جنده المؤمنين، وهزم الأحزاب - الذين تحزبوا عليه - وحده بغير قتال؛ بل بثبات المؤمنين بإزاء عدوهم. ذكر فيها خصائص رسول الله ﷺ، وحقوقه، وحرمة، وحرمة أهل بيته، لما كان هو القلب الذي نصره الله فيها بغير قتال. كما كان ذلك في غزوتنا هذه سواء. وظهر فيها سر تأييد الدين كما ظهر في غزوة الخندق. وانقسم الناس فيها كانقسامهم عام الخندق) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله في معرض رده على قول [الرافضي ابن مطهر الحلبي]:

(إن عمراً لما قتل وانهمز المشركون واليهود.

هذا من الكذب البارد، فإن المشركين بقوا محاصرين للمسلمين بعد ذلك هم واليهود، حتى خبب بينهم نعيم بن مسعود، وأرسل الله عليهم الريح الشديدة: ريح الصبا، والملائكة من السماء.

كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١١﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٢﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١٣﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب]، وهذا يبين أن المؤمنين لم يقاتلوا فيها، وأن المشركين ما ردهم الله بقتال. وهذا هو المعلوم المتواتر عند أهل العلم بالحديث والتفسير والمغازي والسير والتاريخ.

فكيف يقال بأنه باقتتال علي وعمرو بن عبد ود وقتله له انهزم المشركون. والحديث الذي ذكره عن النبي ﷺ أنه قال: قتل علي لعمر بن عبد ود أفضل من عبادة الثقلين. من الأحاديث الموضوععة، ولذا لم يروه أحد من علماء المسلمين في شيء من الكتب التي يعتمد عليها، بل ولا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف.

وهو كذب لا يجوز نسبه إلى النبي ﷺ؛ فإنه لا يجوز أن يكون قتل كافر أفضل من عبادة الجن والإنس، فإن ذلك يدخل فيه عبادة الأنبياء. وقد قُتل من الكفار من كان

قتلة أعظم من قتل عمرو بن عبد ودّ. وعمرو هذا لم يكن فيه من معاداة النبي ﷺ ومضارّته له وللمؤمنين، مثل ما كان في صنّاديد قريش، الذين قتلوا بيدر، مثل أبي جهل، وعقبة بن أبي معيط، وشيبة بن ربيعة، والنضر بن الحارث، وأمثالهم الذين نزل فيهم القرآن. وعمرو هذا لم ينزل فيه شيء من القرآن ولا عرف له شيء ينفرد به في معاداة النبي ﷺ والمؤمنين وعمرو بن عبد ودّ هذا لم يعرف له ذكر في غزاة بدر ولا أحد ولا غير ذلك من مغازي قريش التي غزوا فيها النبي ﷺ ولا في شيء من السرايا، ولم يشتهر ذكره إلا في قصة الخندق، مع أن قصته ليست مذكورة في الصحاح ونحوها، كما نقلوا في الصحاح مبارزة الثلاثة يوم بدر إلى الثلاثة: مبارزة حمزة وعبيدة وعليّ مع عتبة وشيبة والوليد.

وكتب التفسير والحديث مملوءة بذكر المشركين الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ، مثل أبي جهل، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وغيرهم وبذكر رؤساء الكفر، مثل الوليد بن المغيرة وغيره، ولم يذكر أحد عمرو بن عبد ودّ: لا في هؤلاء ولا في هؤلاء، ولا كان من مقدّمي القتال، فكيف يكون قتل مثل هذا أفضل من عبادة الثقلين؟ ومن المنقول بالتواتر أن الجيش لم ينهزم بقتله، بل بقوا بعده محاصرين مجدين كما كانوا قبل قتله) ا.هـ^(١).

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾.

(كقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، فهذا لا يدل على أنه كان يطيعهم) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾)، وقال في أثناء السورة: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب]، فأمره سبحانه بتقواه واتباع ما يوحي إليه وأمره بالتوكل، كما جمع بين هذين الأصلين في غير موضع كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿وَبَنِّلْ إِلَيْهِ بَنِيًّا ﴿٨﴾ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل]، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١﴾﴾

[هود: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ١] هـ.^(١)

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١﴾﴾.

قال: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ علم أن الله وكيل كاف لمن توكل عليه، كما يقال في الخطبة والدعاء: الحمد لله كافي من توكل عليه.

وإذا كان كفى به وكيلاً فهذا مختص به سبحانه، ليس غيره من الموجودات كفى به وكيلاً. فإن من يتخذ وكيلاً من المخلوقين غايته أن يفعل بعض الأمور، وهو لا يفعلها إلا بإعانة الله له، وهو عاجز عن أكثر المطالب.

فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه كفى به وكيلاً، علم أنه يفعل بالمتوكل عليه ما لا يحتاج معه إلى غيره في جلب المنافع ودفع المضار، إذ لو تبقى شر لم يكن كفى به وكيلاً. وهذا يقتضي بطلان ظن من ظن أن المتوكل عليه لا يحصل له بتوكله عليه جلب منفعة ولا دفع مضرة، بل يجري عليه من القضايا ما كان يجري لو لم يتوكل عليه) ا. هـ.^(٢)

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ الَّتِي تَظَاهِرُونَ مِنْهَا أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾﴾.

(العموم إنما يكون دالاً إذا لم ينفه دليل خاص. فإن الخاص يفسر العام. وهذا المشروط قد نفاه النبي ﷺ بنهيه عن بيع الولاء وعن هبته. وقوله: «من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»^(٣) ودل الكتاب على ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ الَّتِي تَظَاهِرُونَ مِنْهَا أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾. فأوجب علينا دعاءه لأبيه الذي ولده، دون من تبناه. وحرم التبني، ثم

(٢) جامع الرسائل (١/٩٢).

(١) جامع الرسائل (١/٩١).

(٣) ابن ماجه (٢٦٠٩) وأحمد (١/٣٢٨) وابن حبان (٤١٧ - الإحسان) والحديث صحيح.

أمر عند عدم العلم بالأب بأن يدعى أخاه في الدين ومولاه، كما قال النبي ﷺ لزيد بن حارثة: «أنت أخونا ومولانا»^(١)، وقال ﷺ: «إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليكسه مما يلبس»^(٢).

فجعل سبحانه الولاء نظير النسب، وبين سبب الولاء في قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فيبين أن سبب الولاء: هو الإنعام بالإعتاق، كما أن سبب النسب هو الإنعام بالإيلاد، فإذا كان قد حرم الانتقال عن المنعم بالإيلاد. فكذلك يحرم الانتقال عن المنعم بالاعتاق لأنه في معناه، فمن اشترط على المشتري أن يعتق ويكون الولاء لغيره: فهو كمن اشترط على المستكح أنه إذا أولد كان النسب لغيره) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان»^(٤) وهو حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره.

وأجمع الصحابة وسائر أئمة المسلمين على أنه ليس كل من قال قولاً أخطأ فيه أنه يكفر بذلك، وإن كان قوله مخالفاً للسنة، فتكفير كل مخطئ خلاف الإجماع؛ لكن للناس نزاع في مسائل التكفير، قد بسطت في غير هذا الموضوع) ا.هـ^(٥).

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُنَّ أُولَىٰ مِنَ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ ﴿١﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُنَّ أُولَىٰ مِنْهُمْ﴾ وفي قراءة أبي: وهو أب لهم^(٦). والقراءة المشهورة تدل على ذلك: فإن نساءه إنما كن أمهات المؤمنين تبعاً له، فلولا أنه كالأب لم يكن نساؤه كالأمهات. والأنبياء أطباء الدين، والقرآن أنزله الله شفاء لما في الصدور، فالذي يعاقب الناس عقوبة شرعية إنما هو نائب عنه وخليفة له، فعليه أن يفعل كما يفعل على الوجه الذي فعل) ا.هـ^(٧).

- | | | | |
|-----|-------------------------------|-----|-------------------------------|
| (١) | البخاري (٣/٢٣٢). | (٢) | البخاري (١/١٤)، ومسلم (١٦٦٢). |
| (٣) | مجموع الفتاوى (٢٩/١٦٤). | (٤) | مرّ تخريجه. |
| (٥) | مجموع الفتاوى (١٠/٦٨٤ - ٦٨٥). | (٦) | ابن جرير (٢١/١٢٢). |
| (٧) | منهاج السنة (٥/٢٣٧ - ٢٣٨). | | |

وقال رحمه الله: (وأوجب على الأمة لأجله احترام أزواجه، وجعلهن أمهات في التحريم والاحترام، فقال ﷺ: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (حتى أنزل الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فصاروا بتوارثون بالقرابة. وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَكَاثُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] وهذا هو المحالفة) ا.هـ (٢).

وقال ابن القيم: (وفي كتاب الزهد للإمام أحمد: أن المسيح ﷺ قال للحواريين: «إنكم لن تلجوا ملكوت السموات حتى تولدوا مرتين».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: هي ولادة الأرواح والقلوب من الأبدان وخروجها من عالم الطبيعة، كما ولدت الأبدان من البدن وخرجت منه. والولادة الأخرى هي الولادة المعروفة. والله أعلم) ا.هـ (٣).

وقال ابن القيم: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يذكر ذلك، ويفسره بأن الولادة نوعان؛ أحدهما: هذه المعروفة. والثانية: ولادة القلب والروح وخروجهما من مشيمة النفس وظلمة الطبع.

قال: وهذه الولادة لما كانت بسبب الرسول كان كالأب للمؤمنين، وقد قرأ أبي بن كعب رضي الله عنه: (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم هو أب لهم) قال: وهذا معنى القراءة والآية في قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ إذ ثبوت أمومة أزواجه لهم فرع عن ثبوت أبوته.

قال: فالشيخ، والمعلم، والمؤدب أب الروح، والوالد أبو الجسم) ا.هـ (٤).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

(وليس للأب إلا ما يدعو به الولد له، فظهر معنى قوله تعالى: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فهو الأب الروحاني، والوالد الأب الجسماني، وهو ﷺ سبب السعادة الأبدية للمؤمن في الدنيا والآخرة، والأب سبب لوجوده في الدنيا. ومعلوم أن

(١) الصارم المسلول (٤٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٩٩/١١).

(٣) مدارج السالكين (١/٦٩ - ٧٠).

(٤) مدارج السالكين (٣/١٤٠).

الإنسان يجب عليه أن يطيع معلمه الذي يدعو إلى الخير ويأمره بما أمره الله؛ ولا يجوز له أن يطيع أباه في مخالفة هذا الداعي لأنه يدل على ما ينفعه ويقربه إلى ربه ويحصل له باتباعه السعادة الأبدية. فظهر الأب الروحاني على الأب الجثماني؛ فهذا أبوه في الدين، وذاك أبوه في الطين، وأين هذا من هذا؟!.

وأزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين في الحرمة، لا في المحرمية، ولهن من الاحترام ما ليس للأم الوالدة) ١. هـ^(١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

(قوله تعالى: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْكُمْ أُولِيَاكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١﴾﴾.

دليل على مثل معنى الحديث الصحيح: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فمن ترك مالا فلورثته، ومن ترك كلاً أو ضياعاً فعلي»^(٢).

حيث جعله الله أولى بهم من أنفسهم. ثم جعل الأقارب بعضهم أولى ببعض؛ لأن كونه أولى بهم من أنفسهم يقتضي أن يكون أولى بهم من أولي أرحامهم وذلك لا يقتضي ملك ما لهم أحياء فكذلك أمواتاً، وإنما يقتضي حمل الكل والضياع من ماله، وهو الخمس، أو خمسه أو مال الفياء كله، على الخلاف المعروف، وفيه دليل على أن الأولوية المقتضية للميراث المذكورة في قوله ﷺ: «فالأولى رجل ذكر»^(٣) مشروطة بالإيمان، وهذه الآية المقيدة تقضي على تلك المطلقة في الأنفال ثلاثة أوجه:

أحدها: أن هذه في سورة الأحزاب بعد الخندق وتلك في الأنفال عقب بدر.

الثاني: أن هذا مطلق ومقيد في حكم واحد، وسبب واحد، والحكم هنا متضمن للإباحة والاستحقاق، والتحرير على الغير، وإيجاب الإعطاء.

الثالث: أن آية الأنفال ذكر فيها الأولوية بعد أن قطع الموالاتة بين المؤمنين والكافرين أيضاً، فهي دليل ثان وهاتان الآيتان تفسر المطلق في آية الموارث، ويكون هذا تفسير القرآن بالقرآن، وإن كان قوله: «لا يرث الكافر المسلم»^(٤) موافقاً له.

(١) مختصر الفتاوى (١٧٦).

(٢) مسلم (٨٦٧).

(٣) البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤).

(٤) مرّ تخريجه.

فأما ميراث المسلم من الكافر ففيه الخلاف الشاذ فنستفيد من الآيتين أيضاً مع الحديث، ويدخل في الآيتين سائر الولايات من المناكح والأموال والعقل والموت. وفي قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْعَلُوا إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا﴾. دليل على الوصية كآيات النساء، قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مَنَهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧] دليل على أن ما أبيح له كان مباحاً لأمته؛ لأنه أخبر أن التزويج كان لمنع الحرج عن الأمة في مثل ذلك التزويج، فلولا أن فعله المباح له يقتضي الإباحة لأمته لم يحسن التعليل، وهذا ظاهر.

وأيضاً فإنه إذا كان ذلك في تزويجه امرأة الدعي الذي كان يعتقد أن تزويجها حرام، ففي ما لا شبهة فيه أولى وأيضاً إذا كان هذا في النكاح الذي خص فيه من المباحات بما لم تشركه أمته، كالنكاح بلا عدد، وتزوج الموهوبة بلا مهر، وقد بين أن إباحة عقدة النكاح دليل على إباحة ذلك لأمته، ففيما لم يظهر خصوصية فيه كالنكاح أولى وهذا يدل على أن سائر ما أبيح له مباح لأمته، إلا ما خصه الدليل من المعاملات والأطعمة واللباس، ونحو ذلك.

وأيضاً فيدل على هذا الأصل قوله: في سياق ما أحله له ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ [الأحزاب: ٥٠] من وجهين: أحدهما: أنه لما أحل له الواهبة قال: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ليبين اختصاصه بذلك، فعلم أنه حيث سكت عن الاختصاص كان الاشتراك ثابتاً، وإلا فلا معنى لتخصيص هذا الموضوع ببيان الاختصاص.

الثاني: أنه ما أحل من الأزواج ومن المملوكات ومن الأقارب أطلق، وفي الموهوبة قيدها بالخلوص له، فعلم أن سكوته عن التقييد في أولئك دليل الاشتراك.

فإن قيل: السكوت لا يدل على واحد منهما، والتقييد بالخلوص ينفي الاشتراك فتكون فائدته أن لا يظن الاشتراك بدليل منفصل، فإن التحليل له لا يدل على الاختصاص قطعاً، لكن هل يدل على الاشتراك أم لا يدل على واحد منهما؟

هذا موضع التردد، فإذا قيد بالخلوص دل على الاختصاص.

قيل: لو لم يدل على الاشتراك لم يثبت الحكم في حق الأمة لانتفاء دليله، كما أن ما سكت عنه من المحرمات لم يثبت الحكم لانتفاء دليله.

وهنا إما أن يقال: كانوا يستحلونه على الأصل وليس كذلك، لأن الفروج محظورة إلا بالتحليل الشرعي فكان يكون محظوراً عليهم فلا يحتاج إلى إخلاصه له، لو لم يكن الخطاب المطلق يقتضي الاشتراك والعموم، وأنه من باب الخاص في اللفظ العام في الحكم.

وأصل هذا أن اللفظ في اللغة قد يصير بحسب العرف الشرعي، أو غيره أخص أو أعم، فالخطاب له وإن كان خاصاً في اللفظ لغة فهو عام عرفاً، وهو مما نقل بالعرف الشرعي من الخصوص إلى العموم.

كما ينقل مثل ذلك في مخاطبات الملوك ونحو ذلك وهو كثير، كما أن العام قد يصير بالعرف خاصاً وأيضاً فإنه يبني ذلك على أصل دليل الخطاب وأن التخصيص بالذكر مع العام المقتضي للتعميم يدل على التخصيص بالحكم، فلما خص خطاب الموهوبة بذكر الخلوص دل على إنتفاء الخلوص عن الباقي وإنما انتفاء الخلوص عن الباقي بعدم ذكر الخلوص مع إثبات التحليل للرسول ﷺ، فعلم أن إثبات التحليل له مع عدم تخصصه به يقتضي العموم.

وعلى هذا فالخطاب الذي مخرجه في اللغة خاص ثلاثة أقسام:

إما أن يدل على العموم، كما في العام عرفاً، مثل خطاب الرسول، والواحد من الأمة، ومثل تنبيه الخطاب كقوله: «لا أشرب لك الماء من عطش ومثقال حبة، وقنطار، ودينار».

وإما أن يدل على اختصاص المذكور بالحكم ونفيه عما سواه، كما في مفهوم المخالفة إذا كان المقتضي للتعميم قائماً، وخص أحد الأقسام بالذكر وإما أن لا يدل على واحد منها لفظاً ثم يوجد العموم من جهة المعنى، إما من جهة قياس الأولى، وإما من جهة سائر أنواع القياس.

ويجب الفرق بين تنبيه الخطاب، وبين قياس الأولى فإن الحكم في ذلك مستفاد من اللفظ عمهما عرفاً وخطاباً وهنا مستفاد من الحكم بحيث لو دل على الحكم فعل أو إقرار، أو خطاب يقطع معه بأن المتكلم لم يرد إلا الصورة، لكان ثبوت الحكم لنوع يقتضي ثبوته لما هو أحق به منه: فالعموم هنا معنوي محض، وهناك لفظي ومعنوي، فتدبر هذا فإنه فصل بين المتنازعين من أصحابنا وغيرهم في التنبيه هل هو مستفاد من اللفظ، أو هو قياس جلي؟

لتعلم أنه قسمان: والفرق أن المستفاد من اللفظ يريد المتكلم به العموم ويمثل بواحد تنبيهاً كقول النحوي: ضرب زيد عمراً بخلاف المستفاد من المعنى.

والآية المتقدمة وهي قوله: ﴿رَوَّحْنَاكِهَا لِكَيْ لَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] تدل على أن أفعاله ﷺ تقتضي الإباحة لأتمته، مع القطع بأن الفعل في نفسه لا يعم لفظاً ووضعاً، وإنما يعم بما ثبت من أن الأصل الاشتراك والإيتاء، ويدل على ذلك أيضاً قوله في السورة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الآية [الأحزاب: ٢١]]. فإن فيها التأسى فيما أصابه.

ومتى ثبت الحكم في الإيتاء به في حكمه عندما أصابه كان كذلك فيما فعله، إذ المصاب عليه فيه واجبات ومحرمات، فدللت هذه الآية على أن الأصل مشاركته في الإيجاب والحظر، كما دلت تلك على أن الأصل مشاركته في الإحلال، قوله: ﴿قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ [الآية [الأحزاب: ٥٩]].

دليل على أن الحجاب إنما أمر به الحرائر دون الإماء لأنه خص أزواجه وبناته، ولم يقل وما ملكت يمينك وإماء أزواجك وبناتك. ثم قال: ﴿وَسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية [الأحزاب: ٥٥]] وما ملكت أيمانهم، كما لم يدخل في قوله: ﴿وَسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية [الأحزاب: ٥٥]]. حتى عطف عليه في آيتي النور والأحزاب.

وهذا قد يقال: إنما ينبني على قول من يخص ما ملكت اليمين بالإناث.

وإلا فمن قال: هي فيهما أو في الذكور ففيه نظر وأيضاً فقوله: ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلِّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦] وقوله: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢] إنما أريد به المهورات دون المملوكات، فكذلك هذا فآية الجلابيب في الأردية عند البروز من المساكن وآية الحجاب عند المخاطبة في المساكن، فهذا مع ما في الصحيح من أنه لما اصطفى صفية بنت حبي، وقالوا: «إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين، وإلا فهي مما ملكت يمينه» دل على أن الحجاب كان مختصاً بالحرائر.

وفي الحديث دليل على أن أموة المؤمنين لأزواجه دون سراريه، والقرآن ما يدل إلا على ذلك، لأنه قال: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، وقال: ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] وهذا أيضاً دليل ثالث من الآية؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] عائد إلى أزواجه، فليس للمملوكات ذكر في الخطاب، لكن إباحة سراريه من بعده في نظر^(١).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ .

(وقد قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. فأمر الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه. وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم، وذكرهم الله في آيتين من كتابه: هذه السورة، وفي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ ا. هـ^(١) .

وقال رحمه الله: (عطف الخاص على العام يكون لأسباب، تارة لكون له خاصة ليست لسائر أفراد العام، كما في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ...﴾ الآية. وتارة يكون العام فيهن إطلاق قد لا يفهم منه العموم كقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ الآية [البقرة: ٤] ا. هـ^(٢) .

وقال رحمه الله: (والقرآن قد شهد في آيتين لأولي العزم فقال في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣] فهؤلاء الخمسة أولو العزم، وهم الذين قد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحاح: أنهم يترادون الشفاعة في أهل الموقف بعد آدم، فيجب تفضيلهم على بنيتهم، وفيه تفضيل لمتقدم على متأخر، ولمتأخر على متقدم) ا. هـ^(٣) .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١﴾﴾ .

(ومن هذا الباب، نصر الله بالريح التي قال الله فيها: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١﴾﴾ ، قال مجاهد: «يعني ریح الصبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق، حتى كفات قدورهم على أفواهاها، ونزعت فساطيطهم ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾: يعني الملائكة»^(٤) .

(١) الرد على المنطقيين (٢٩١).

(٢) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٥/٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٦٩/١١).

(٤) ابن جرير (١٢٨/٢١).

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال؛ «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»^(١).

وفي المغازي والسير قصة الأحزاب، وكيف أرسلت عليهم الرياح والملائكة وانهزموا بغير قتال معروف) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله (وكان عام الخندق برد شديد، وريح شديدة منكرة، بها صرف الله الأحزاب عن المدينة، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾) ا.هـ^(٣).

﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَ﴾^(٤).

(وذكر في كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين، وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين، فقال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَ﴾^(٥) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا^(٦) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا^(٧) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا^(٨) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَفْطَارِهَا ثُمَّ سَأِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا^(٩)) ا.هـ^(٤).

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُونَ الْأَدْبُرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾^(١٠).

(ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُونَ الْأَدْبُرَ﴾ وهذا نذر) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُونَ الْأَدْبُرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾^(١١) فقد أمر سبحانه بالوفاء بالعقود، وهذا عام، وكذلك أمر بالوفاء بعهد الله وبالعهد. وقد دخل في ذلك ما عقده المرء على نفسه، بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ فدل على أن عهد الله يدخل فيه ما عقده المرء على نفسه، وإن لم يكن الله قد أمر بنفس ذلك المعهود عليه قبل العهد، كالنذر والبيع، إنما أمر بالوفاء به) ا.هـ^(٦).

(١) البخاري (٤١٠٥)، ومسلم (٩٠٠).

(٢) الجواب الصحيح (١٨٤/٦ - ١٨٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٤٤٥/٢٨).

(٤) جامع الرسائل (٣٣٣/٢).

(٥) نظرية العقد (٦٦). والنذر هو أن يلتزم لله شيئاً. ولا يلزم الشيء إلا إذا كان قربة. قاله شيخ

الإسلام في المصدر نفسه: ٢٦.

(٦) مجموع الفتاوى (١٣٨/٢٩).

وقال رحمه الله: (فمن المعاهدة بمعنى النذر: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤْتُونَ الْأَدْبِرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ ﴿١٥﴾ فإن تولية الأدبار حرام، فإذا نذر الثبات وعدم التولي توكد بالنذر، فإذا عاهد الله عليه كان أوكد وأوكد) ١. هـ^(١).

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَايًا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٧﴾.

(قال ﷺ): ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَسْتَعِينُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٧﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَايًا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾، فأخبر سبحانه أن الفرار من القتل أو الموت لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً، إذ لا بد من الموت.

وأخبر أن العبد لا يعصمه من الله [أحد] إن أراد به سوءاً أو أراد به رحمة، وليس له من دون الله ولي ولا نصير، فأين نفر من أمره وحكمه؟ ولا ملجأ منه إلا إليه، قال تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرُمَتُهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٥٥﴾ [الذاريات]، وهذا أمر يعرفه الناس من أهل طاعة الله وأهل معصيته، كما قال أبو حازم الحكيم: لما يلقي الذي لا يتقي الله من معالجه الخلق أعظم مما يلقاه الذي يتقي الله من معالجة التقوى) ١. هـ^(٢).

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿٢١﴾.

(وكذلك روى عن عطاء عن ابن عباس كما روى بإسناد عن عثمان بن عمر عن ابن جريج عن عطاء: أن رجلاً قال لابن عباس: إني نذرت أن أنحر ابني. فأمره ابن عباس بكبش، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ رواه سفيان الثوري في الجامع عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أن رجلاً أتاه فقال إني نذرت أن أنحر نفسي فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فأمره بكبش، فسئل عطاء «أين يذبح الكبش؟ قال: بمكة».

ففي تلك الرواية: أنه نذر أن يذبح ابنه. وفي هذه: نذر أن يذبح نفسه. وكذلك رواه ابن وهب عن الليث بن سعد قال: قال يحيى بن سعيد: وزعم ابن جريج أن عطاء بن أبي رباح حدثه: أن رجلاً أتى ابن عباس، فقال: إني نذرت لأنحرن نفسي.

فقال ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ثم تلا ابن عباس: ﴿وَقَدَيْتُهُ يَذْبُجُ عَظِيمٍ ﴿٧٧﴾﴾ [الصفات] ا.هـ (١).

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤْيُوكَ إِن كُنْتَن تَرِيدَن الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتَ أُمْتَعْتَكَن وَأَسْرَعْتَكَن سَرَلًا جَمِيلًا ﴿٧٨﴾﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُم وَدِيَارَهُم وَأَمْوَالَهُم﴾ [الأحزاب: ٢٧] معناه التي كانت أرضهم) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (من قال إن السراح والفراق صريح في الطلاق لأن القرآن ورد بذلك، وجعل الصريح ما استعمله القرآن فيه، كما يقوله الشافعي والقاضي وغيرهما من الأصحاب، فقوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أن هذا الأصل لا دليل عليه، بل هو فاسد؛ فإن الواقع أن الناس ينطقون بلغاتهم التي توافق لغة العرب، أو تخالفها من عربية أخرى عربياً مقرر أو مغيرة لفظاً أو معنى، أو من عربية مولدة، أو عربية معربة، تلقيت عن العجم، أو عن عجمية؛ فإن الطلاق ونحوه يثبت بجميع هذه الأنواع من اللغات إذ المدار على المعنى، ولم يحرم ذلك عليهم أو حرم عليهم فلم يلتزموه، فإن ذلك لا يوجب وقوع ما لم يوقعوه. وأيضاً فاستعمال القرآن لفظاً في معنى لا يقتضي أن ذلك اللفظ لا يحتمل غير ذلك المعنى.

الوجه الثاني: وهو القاصم أن هذه الألفاظ أكثر ما جاءت في القرآن في غير الطلاق، مثل قوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَتَمَعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، فهذا بعد التطلق البائن الذي لا عدة فيه أمر بتسريحهن مع التمتع، ولم يرد به إيقاع طلاق ثان، فإنه لا يقع ولا يؤمر به وفاقاً، وإنما أراد التخلية بالفعل وهو رفع الحبس عنها، حيث كان النكاح فيه الجمع ملكاً وحكماً، والجمع حساً وفعلاً بالحبس وكلاهما موجه، وهما متلازمان، فإذا زال الملك أمر بإزالة اليد، كما يقال في الأموال الملك والحياسة فالقبض في الموضعين تابع للعقد، فإذا رفع العقد إما بإزالة اليد التي هي القبض.

وقوله: ﴿فَتَعَالَيْتَ أُمْتَعْتَكَن وَأَسْرَعْتَكَن﴾، لا يستدل به على أن التسريح هو التطلق،

فإنه قد يريد به التخلية الفعلية، حيث قرنه بالمتاع لكن التخلية الفعلية مستلزمة للتطبيق، أو يريد به الأمرين، ولم يرد به الطلاق وحده، لأن ذلك لا يفيدهن بل يضرهن.

وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَأَنْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقوله: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢]، كذلك، فإن الرجعية إذا قاربت انقضاء العدة لا يؤمر فيها بتطبيق ثان، إذا لم يرتجعها، وإنما يؤمر بتخلية سبيلها، وهو التسريح والفراق بالأبدان بحيث لا يحبسهن، ولا يستولي عليهن، كرفع اليد عن الأموال، قوله: ﴿أَدْعُوهُنَّ لِأَبَائِهِنَّ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، نص في أنه لا حرج فيما أخطأ به من دعاء الرجل إلى غير أبيه، أو إلى غير مولاه.

ثم قد يستدل به على رفع الجناح في جميع ما أخطأ به الإنسان من قول أو عمل. إما بالعموم لفظاً؛ ويقال: ورود اللفظ العام على سبب مقارن له في الخطاب لا يوجب قصره عليه.

وإما بالعموم المعنوي بالجامع المشترك من أن الأخطاء لا تأثير لها في القلب، فيكون عمل جارحة بلا عمد قلب، والقلب هو الأصل، كما قال: «إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد»^(١).

وإذا كان الأصل لم يعمل شيئاً لم يضر عمل الفروع دونه؛ لأنه صالح لا فساد فيه، فيكون الجسد كله صالحاً، فلا يكون فاسداً، فلا يكون في ذلك إثم إذ الإثم لا يكون إلا عن فساد في الجسد، وتكون هذه الآية ردفاً لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت^(٢)، ويؤيده قوله في الإيمان: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩] فإنه إذا كان اليمين بالله - وفيها ما فيها - لا يؤاخذ فيها إلا ما كسب القلب، فغيرها من الأقوال كذلك وأولى.

وإذا كان ما حلف عليه من اليمين يظنه كما حلف فتبين بخلافه، هو من الخطأ الذي هو اللغو لأن قلبه لم يكسب مخالفة، كما لو أنه أخبر بذلك من غير يمين لم يكن عليه إثم الكاذب، كما لو دعا الرجل لغير أبيه ومولاه خطأ.

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مرّ تخريجه.

وإذا لم يكن بلا يمين عليه إثم الكاذب لم يكن مع اليمين عليه حكم الحالف المخالف، إذ اليمين على الماضي حين يؤكد بالقسم، فكذلك ما حلف الحالف عليه من المستقبل، وفعل المحلوف عليه ناسياً ليمينه، أو مخطئاً جاهلاً بأنه المحلوف عليه، لم يكسب قلبه مخالفة ولا حثاً كما أنه لو وعد بذلك من غير يمين لم يكن مخالفاً ولو أمر به فتركه كذلك لم يكن عاصياً.

وهذا دليل يتناول الطلاق وغيره، إما من جهة العموم المعنوي، أو المعنوي واللفظي. وأي فرق بين أن يقارن اللغو عقد اليمين، أو يقارن الحنث فيها، وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَيِّدُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩] أي هذا سبب المؤاخضة؛ لا أنه موجب لها بالاتفاق فيوجد الخطأ في سببها وشرطها.

ومن قال: لا لغو في الطلاق فلا حجة معه؛ بل عليه؛ لأنه لو سبق لسانه بذكر الطلاق من غير عمد القلب، لم يقع به وفاقاً، وأما إذا قصد اللفظ به هازلاً فقد عمد قلبه ذكره، كما لو عمد ذكر اليمين به^(١).

﴿يُنْسَاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

(وكذلك أزواج النبي ﷺ قال الله لهن: ﴿يُنْسَاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿٣١﴾ وهن - والله الحمد - قنتن لله ورسوله وعملن صالحاً، فاستحققن الأجر مرتين، فصرن أفضل لطاعة الأمر، لا لمجرد الأمر. ولو قدر - والعياذ بالله - أن واحدة تأتي بفاحشة مبينة لضوعف لها العذاب ضعفين) ا. هـ^(٢).

﴿يُنْسَاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿٣١﴾.

(ولما قال لأزواج النبي ﷺ: ﴿يُنْسَاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٣٠﴾، لم يمنع أن يكون كل منهن قنتن لله ورسوله وتعمل صالحاً) ا. هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٤٤٩ - ٤٥٢). (٢) منهاج السنة (٤/٦٠٥).

(٣) منهاج السنة (٤/٦٠٥).

﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسُنَّ كَأَحْمَرٍ مِنَ النَّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٣﴾﴾ .

(وكذلك ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وهو مرض الشهوة، فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾) ا. هـ^(٢).

﴿وَقَرَنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ .

(وهذا كقوله ﷺ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ فإن في ذلك ذمًا للتبرج، وذمًا لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وأما قوله^(٤): «وخالفت أمر الله في قوله تعالى: ﴿وَقَرَنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ فهي ﷺ لما لم تتبرج بتبرج الجاهلية الأولى. والأمر بالاستقرار في البيوت لا ينافي الخروج لمصلحة مأمور بها، كما لو خرجت للحج والعمرة، أو خرجت مع زوجها في سفرة، فإن هذه الآية قد نزلت في حياة النبي ﷺ، وقد سافر بهن [رسول الله ﷺ] بعد ذلك، [كما سافر] في حجة الوداع بعائشة ﷺ وغيرها، وأرسلها مع عبد الرحمن أخيها فأردفها خلفه، وأمرها من التنعيم. وحجة الوداع كانت قبل وفاة النبي ﷺ بأقل من ثلاثة أشهر بعد نزول هذه الآية، ولهذا كان أزواج النبي ﷺ يحججن كما كن يحججن معه في خلافة عمر ﷺ وغيره، وكان عمر يوكّل بقطارهن عثمان أو عبد الرحمن بن عوف، وإذا كان سفرهن لمصلحة جائزاً فعائشة اعتقدت أن ذلك السفر مصلحة للمسلمين، فتأولت في ذلك.

وهذا كما أن قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، يتضمن نهي المؤمنين

(١) مجموع الفتاوى (٩٥/١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٩٣/١٠).

(٣) اقتضاء الصراط (٢٠٦/١).

(٤) أي هذا الرافضي اللعين ابن مطهر الحلي.

عن قتل بعضهم بعضاً، كما في قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] [١] هـ.

وقال رحمه الله: (وذلك: أن الله أمر بطهارة القلب، وأمر بطهارة البدن، وكلا الطهارتين من الدين الذي أمر الله به وأوجبه. قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وقال: ﴿فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ حُرْبًا﴾ [التوبة: ١٠٨] وقال: ﴿حَذَّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [٢] هـ.

وقال رحمه الله: (الطهارة من الذنوب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَتَّاسٌ يَبْتَغُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]، وقوله: ﴿حَذَّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] [٣] هـ.

وقال رحمه الله: (وأما حديث الكساء فهو صحيح رواه أحمد والترمذي من حديث أم سلمة، ورواه مسلم في صحيحه^(٤) من حديث عائشة. قالت: «خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [٥] هـ.

وقال رحمه الله: (وقال لما ذكر ما أمر به أزواج النبي ﷺ وما نهاهم عنه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ والمعنى أنه أمركم بما يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً، فمن أطاع أمره كان مطهراً قد أذهب عنه الرجس بخلاف من عصاه) [٦] هـ.

وقال رحمه الله: (تفسير الآل، وللناس في ذلك قولان مشهوران.

أحدهما: أنهم أهل بيته الذين حرموا الصدقة، وهذا هو المنصوص عن الشافعي وأحمد، وعلى هذا ففي تحريم الصدقة على أزواجه وكونهم من أهل بيته روايتان عن أحمد:

(١) منهاج السنة (٤/٣١٧ - ٣١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١/١٥).

(٣) مختصر الفتاوى المصرية (٢٨٩).

(٤) مسلم (٤/١٨٨٣).

(٥) منهاج السنة (٥/١٣).

(٦) مجموع الفتاوى (١١/٢٦٧).

إحداهما: لسن من أهل بيته، وهو قول زيد بن أرقم الذي رواه مسلم في صحيحه عنه.

والثانية: هن من أهل بيته، لهذا الحديث فإنه قال: وعلى أزواجه وذريته» وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وقوله في قصة إبراهيم: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] وقد دخلت سارة. ولأنه استثنى امرأة لوط من آله فدل على دخولها في الآل، وحديث الكساء يدل على أن علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً أحق بالدخول في أهل البيت من غيرهم، كما أن قوله في المسجد المؤسس على التقوى: «هو مسجدي هذا»^(١) يدل على أنه أحق بذلك، وأن مسجد قباء أيضاً مؤسس على التقوى؛ كما دل عليه نزول الآية وسياقها، وكما أن أزواجه داخلات في آل بيته، كما دل عليه نزول الآية وسياقها، وقد تبين أن دخول أزواجه في آل بيته أصح، وإن كان مواليهن لا يدخلون في موالي آل بدليل الصدقة على بريرة مولاة عائشة، ونهيه عنها أبا رافع مولى العباس، وعلى هذا فال مطلب هل هم من آل ومن أهل بيته الذين تحرم عليهم الصدقة؟ على روايتين عن أحمد:

إحداهما: أنهم منهم، وهو قول الشافعي.

والثانية: ليسوا منهم، وهو مذهب أبي حنيفة ومالك.

والقول الثاني: أن آل محمد هم أمته أو الأتقياء من أمته، وهذا روى عن مالك إن صح، وقاله طائفة من أصحاب أحمد، وغيرهم. وقد يحتجون على ذلك بما روى الخلال وتام هذه أنه سئل عن آل محمد فقال: «كل مؤمن تقي»^(٢) وهذا الحديث موضوع لا أصل له. ا. هـ.^(٣)

وقال رحمه الله: (وأما آية الطهارة فليس فيها إخبار بطهارة أهل البيت وذهاب الرجس عنهم، وإنما فيها الأمر لهم بما يوجب طهارتهم وذهاب الرجس عنهم. فإن قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]،

(٢) سيأتي تخريجه بعد قليل.

(١) مرّ تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/٤٦٠ - ٤٦٢).

وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يُسَبِّحَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿١٨﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء]، فالإرادة هنا متضمنة للأمر والمحبة والرضا، وليست هي المشيئة المستلزمة لوقوع المراد؛ فإنه لو كان كذلك لكان قد طهر كل من أراد الله طهارته. وهذا على قول هؤلاء القدرية الشيعة أوجه، فإن عندهم أن الله يريد ما لا يكون، ويكون ما لا يريد.

فقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ إذا كان هذا بفعل المأمور وترك المحذور، كان ذلك متعلقاً بإرادتهم وأفعاله، فإن فعلوا ما أمروا به طهروا وإلا فلا.

وهم يقولون: إن الله لا يخلق أفعالهم، ولا يقدر على تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم، وأما المشبتون للقدر فيقولون: إن الله قادر على ذلك، فإذا ألهمهم فعل ما أمر وترك ما حظر حصلت الطهارة وذهاب الرجس.

ومما يبين أن هذا مما أمروا به لا مما أخبروا بوقوعه، ما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ أدار الكساء على علي وفاطمة وحسن وحسين، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»^(١). وهذا الحديث رواه مسلم في صحيحه عن عائشة، ورواه أهل السنن عن أم سلمة.

وهو يدل على [ضد] قول الرافضة من وجهين: أحدهما: أنه دعا لهم بذلك، وهذا دليل على أن الآية لم تخبر بوقوع ذلك، فإنه لو كان قد وقع لكان يثني على الله بوقوعه ويشكره على ذلك، لا يقتصر على مجرد الدعاء به.

والثاني: أن هذا يدل على أن الله قادر على إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم، وذلك يدل على أنه خالق أفعال العباد. ومما يبين أن الآية متضمنة للأمر والنهي قوله في سياق الكلام: ﴿يُنَسِّئُ النَّبِيَّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعِّفُ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٥﴾﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَمَلَّ صَلْبًا نَوْذَهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ يُنَسِّئُ النَّبِيَّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٢٧﴾﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ

تَبْرَحَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقَمْنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا بُتِلَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾، وهذا السياق يدل على أن ذلك أمر ونهي ويدل على أن أزواج النبي ﷺ من أهل بيته، فإن السياق إنما هو في مخاطبتهن، ويدل على أن قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ عم غير أزواجه، كعلي وفاطمة وحسن وحسين ﷺ لأنه ذكره بصيغة التذكير لما اجتمع المذكر والمؤنث، وهؤلاء خصوا بكونهم من أهل البيت من أزواجه، فلهذا خصهم بالدعاء لما أدخلهم في الكساء. كما أن مسجد قباء أسس على التقوى، ومسجده ﷺ أيضاً أسس على التقوى وهو أكمل في ذلك، فلما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٧٨﴾﴾ [التوبة] بسبب مسجد قباء، تناول اللفظ لمسجد قباء ولمسجده ﷺ بطريق الأولى.

وقد تنازع العلماء: هل أزواجه من آله؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد، أحدهما أنهن من آله وأهل بيته، كما دل على ذلك ما في الصحيحين [من] قوله: «[اللهم] صل على محمد وعلى أزواجه وذريته»^(١) وهذا مبسوط في موضع آخر) ١. هـ.^(٢).

نفى شيخ الإسلام أن يكون حديث الكساء دالاً على عصمة علي وفاطمة والحسن والحسين، قال:

(وتحقيق ذلك في مقامين أحدهما: أن قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ كقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] وكقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَهُدْيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء].

فإن إرادة الله في هذه الآيات متضمنة لمحبة الله لذلك المراد ورضاه به، وأنه شرعه للمؤمنين وأمرهم به، ليس في ذلك أنه خلق هذا المراد، ولا أنه قضاه وقدره، ولا أنه يكون لا محالة.

(١) البخاري (٤/١٤٦)، ومسلم (١/٣٠٦). (٢) منهاج السنة (٤/٢١ - ٢٤).

والدليل على ذلك أن النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» فطلب من الله لهم إذهاب الرجس والتطهير، فلو كانت الآية تتضمن إخبار الله بأنه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم، لم يحتاج إلى الطلب والدعاء.

وهذا على قول القدرية أظهر؛ فإن إرادة الله عندهم لا تتضمن وجود المراد، بل قد يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد، فليس في كونه تعالى مريداً لذلك ما يدل على وقوعه.

وهذا الرفض وأمثاله قدرية، فكيف يحتجون بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ على وقوع المراد؟ وعندهم أن الله قد أراد إيمان من على وجه الأرض فلم يقع مراده؟

وأما على قول أهل الإثبات، فالتحقيق في ذلك أن الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة شرعية دينية تتضمن محبته ورضاه، وإرادة كونية قدرية تتضمن خلقه وتقديره. الأولى مثل هؤلاء الآيات.

والثانية مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].
وقول نوح: ﴿وَلَا يَنْفَكُوا نَصِيحِي إِن أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود].

وكثير من المثبتة والقدرية يجعل الإرادة نوعاً واحداً، كما يجعلون الإرادة والمحبة شيئاً واحداً

ثم القدرية ينفون إرادته لما بين أنه مراد في آيات التقدير، وأولئك ينفون إرادته لما بين أنه مراد في آيات التشريع، فإنه عندهم كل ما قيل: «إنه مراد» فلا بد أن يكون كائناً.

والله قد أخبر أنه يريد أن يتوب على المؤمنين وأن يطهرهم، وفيهم من تاب، وفيهم من لم يتب، وفيهم من تطهر، وفيهم من لم يتطهر. وإذا كانت الآية دالة على وقوع ما أراده من التطهير وإذهاب الرجس، لم يلزم بمجرد الآية ثبوت ما ادّعاه.

ومما يبيّن ذلك أن أزواج النبي المذكورات في الآية، والكلام في الأمر بالتطهير بإيجابه، ووعدهم الثواب على فعله، والعقاب على تركه. قال تعالى: ﴿يَلْبَسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ

يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٥﴾ *
 وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا
 ﴿٣٦﴾ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنْ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ
 مَرَضٌ ﴿٣٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَطِيعَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ آمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
 وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فالخطاب كله لأزواج النبي ﷺ، ومعهن الأمر والنهي
 والوعد والوعيد. لكن لما تبين ما في هذا من المنفعة التي تعمهن وتعم غيرهن من أهل
 البيت، جاء التطهير بهذا الخطاب وغيره، وليس مختصاً بأزواجه، بل هو متناول لأهل
 البيت كلهم، وعليّ وفاطمة والحسن والحسين أخص من غيرهم بذلك، ولذلك خصهم
 النبي ﷺ بالدعاء لهم.

وهذا كما أن قوله: ﴿لَمَسْجِدُ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨]، نزلت بسبب
 مسجد قباء، لكن الحكم يتناوله ويتناول ما هو أحق منه بذلك، وهو مسجد المدينة.
 وهذا يوجّه ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه سئل عن المسجد الذي أسس
 على التقوى، فقال: «هو مسجدي هذا».

وثبت عنه في الصحيح أنه كان يأتي قباء كل سبت ماشياً وراكباً، فكان يقوم في
 مسجده يوم الجمعة، ويأتي قباء يوم السبت^(١)، وكلاهما مؤسس على التقوى.

وهكذا أزواجه وعليّ وفاطمة والحسن والحسين كلهم من أهل البيت، لكن عليّاً
 وفاطمة، والحسن والحسين أخص بذلك من أزواجه، ولهذا خصهم بالدعاء. وقد تنازع
 الناس في آل محمد: من هم؟ فقيل: هم أمته. وهذا قول طائفة من أصحاب مالك
 وأحمد وغيرهم.

وقيل: المتقون من أمته. ورووا حديثاً: «آل محمد كل مؤمن تقى» رواه الخلال
 وتّمّام في «الفوائد» له^(٢)، وقد احتج به طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم، وهو حديث
 موضوع. وبنى على ذلك طائفة من الصوفية أن آل محمد هم خواصّ الأولياء، كما ذكر
 الحكيم الترمذي.

(١) مرّ تخريجه.

(٢) فوائد تمام (١٦٤٨ - الترتيب) والعقيلي (٢٨٧/٤) والكامل (٤٩/٧) والبيهقي في سننه (٢/١٥٢) والطبراني في الصغير (١١٥/١) والأوسط والديلمي في مسند الفردوس والحديث أقرب ما يكون للموضوع والضعيف جداً.

والصحيح أن آل محمد هم أهل بيته، وهذا هو المنقول عن الشافعي وأحمد، وهو اختيار الشريف أبي جعفر وغيرهم. لكن هل أزواجه من أهل بيته؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد:

أحدهما: أنهن لسن من أهل البيت. ويروى هذا عن زيد بن أرقم.

والثاني - وهو الصحيح -: أن أزواجه من آله.

فإنه قد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه علمهم الصلاة عليه: «اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته»^(١).

ولأن امرأة إبراهيم من آله وأهل بيته، وامرأة لوط من آله وأهل بيته، بدلالة القرآن. فكيف لا يكون أزواج محمد من آله وأهل بيته؟

ولأن هذه الآية تدلّ على أنهن من أهل بيته، وإلا لم يكن لذكر ذلك في الكلام

معنى.

وأما الأتقياء من أمته فهم أولياؤه. كما ثبت في الصحيح أنه قال: «إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، وإنما وليي الله وصالح المؤمنين»^(٢) فبيّن أن أولياءه صالح المؤمنين.

وكذلك في حديث آخر: «أن أوليائي المتقون حيث كانوا وأين كانوا»^(٣).

وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَهَّرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤]، وفي الصحاح عنه أنه قال: «وددت أني رأيت إخواني» قالوا: أولسنا إخوانك؟ قال: «بل أنتم أصحابي، وإخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني»^(٤).

وإذا كان كذلك فأولياؤه المتقون بينه وبينهم قرابة الدين والإيمان والتقوى. وهذه القرابة الدينية أعظم من القرابة الطينية، والقرب بين القلوب والأرواح أعظم من القرب بين الأبدان.

ولهذا كان أفضل الخلق أولياؤه المتقون. وأما أقرابه ففيهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر. فإن كان فاضلاً منهم كعلي رضي الله عنه وجعفر والحسن والحسين، فتفضيلهم

(١) البخاري (١٤٦/٤)، ومسلم (٣٠٦/١). (٢) البخاري (٦/٨)، ومسلم (١٩٧/١).

(٣) أحمد (٢٣٥/٥) والحديث صحيح. (٤) مسلم (٢١٨/١).

بما فيهم من الإيمان والتقوى، وهم أولياؤه بهذا الاعتبار، لا بمجرد النسب، فأولياؤه أعظم درجة من آله، وإن صلى على آله تبعاً له لم يقتض ذلك أن يكونوا أفضل من أوليائه الذين لم يصل عليهم فإن الأنبياء والمرسلين هم من أوليائه، وهم أفضل من أهل بيته، وإن لم يدخلوا في الصلاة معه تبعاً، فالمفضول قد يختص بأمر، ولا يلزم أن يكون أفضل من الفاضل.

ودليل ذلك أن أزواجه هم ممن يصلي عليه، كما ثبت ذلك في الصحيحين، فقد ثبت باتفاق الناس كلهم أن الأنبياء أفضل منهن كلهن.

فإن قيل: فهب أن القرآن لا يدل على وقوع ما أريد من التطهير وإذهاب الرجس، لكن دعاء النبي ﷺ لهم بذلك يدل على وقوعه، فإنه دعاءه مستجاب.

قيل: المقصود أن القرآن لا يدل ما ادّعه من ثبوت الطهارة وإذهاب الرجس، فضلاً عن أن يدل على العصمة والإمامة.

وأما الاستدلال بالحديث فذلك مقام آخر.

ثم نقول في المقام الثاني: هب أن القرآن دل على طهارتهم وإذهاب الرجس عنهم، كما أن الدعاء المستجاب لا بد أن يتحقق معه طهارة المدعو لهم وإذهاب الرجس عنهم، لكن ليس في ذلك ما يدل على العصمة من الخطأ.

والدليل عليه أن الله لم يرد بما أمر به أزواج النبي ﷺ أن لا يصدر من واحدة منهن خطأ، فإن الخطأ مغفور لهن ولغيرهن. وسياق الآية يقتضي أنه يريد ليذهب عنهم الرجس - الذي هو الخبث كالفواحش - ويطهرهم تطهيراً من الفواحش وغيرها من الذنوب.

والتطهير من الذنب على وجهين: كما في قوله: ﴿وَيَا بَكَ فَطَفِّرْ﴾ [المدثر]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]، فإنه قال فيها: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، والتطهير عن الذنب إما بأن لا يفعله العبد، وإما بأن يتوب منه كما في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

[لكن] ما أمر الله به من الطهارة ابتداء وإرادة فإنه يتضمن نهيهِ عن الفاحشة، لا يتضمن الإذن فيها بحال، لكن هو سبحانه ينهى عنها، ويأمر من فعلها بأن يتوب منها.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما

باعدت بين المشرق والمغرب، واغسلني بالثلج والبرد والماء البارد، اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس»^(١).

وفي الصحيحين أنه قال لعائشة رضي الله عنها في قصة الإفك قبل أن يعلم النبي براءتها، وكان قد ارتاب في أمرها، فقال: «يا عائشة إن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت [بذنب]^(٢) فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه».

وبالجملة لفظ «الرجس» أصله القذر ويراد به الشرك، كقوله: ﴿فَاجْتَبِئُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] ويراد به الخبائث المحرمة، كالمطعمات والمشروبات، كقوله: ﴿قُلْ لَا أَعْبُدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مَحْرَمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْفَنَرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَهْوَاجُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠]، وإذ هاب ذلك إذهاب لكاه. ونحن نعلم أن الله أذهب عن أولئك السادة الشرك والخبائث.

ولفظ «الرجس» عام يقتضي أن الله [يريد] أن يذهب جميع الرجس، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بذلك.

وأما قوله: ﴿وَيَطْهَرُكَ تَطْهِيرًا﴾ فهو سؤال مطلق بما يسمى طهارة. وبعض الناس يزعم أن هذا مطلق، فيكتفي فيه بفرد من أفراد الطهارة، ويقول مثل ذلك في قوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، ونحو ذلك.

والتحقيق أنه أمر بمسمى الاعتبار الذي يقال عند الإطلاق، كما إذا قيل: أكرم هذا، أي افعل معه ما يسمى عند الإطلاق إكراماً. وكذلك ما يسمى عند الإطلاق اعتباراً. والإنسان لا يسمى معتبراً إذا اعتبر في قصة وترك ذلك في نظيرها، وكذلك لا يقال: هو طاهر، أو متطهراً، إذا كان متطهراً من شيء متنجساً بنظيره.

ولفظ «الطاهر» كلفظ الطيب. قال تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦]، كما قال: ﴿الْحَيِّثُ لِلْحَيِّثِينَ وَالْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ﴾ [النور: ٢٦]، وقد روي أنه قال لعمار: «ائذنوا له مرحباً بالطيب المطيب»^(٣).

(١) البخاري (١/١٤٥)، ومسلم (١/٤١٩). (٢) هذا في قصة الإفك المعروفة.

(٣) ابن ماجه (١٤٦) والحديث صحيح.

وهذا أيضاً كلفظ «المتقي» ولفظ «المزكي». قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿٢﴾﴾ [الشمس]، وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿٤﴾﴾ [الأعلى]، وقال: ﴿وَأَوْلَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

وليس من شرط المتقين ونحوهم أن لا يقع منهم ذنب، ولا أن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب. فإن هذا لو كان كذلك لم يكن في الأمة متق، بل من تاب من ذنوبه دخل في المتقين، ومن فعل ما يكفر سيئاته دخل في المتقين، كما قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء]، فدعاء النبي ﷺ بأن يطهرهم تطهيراً، كدعائه بأن يزكيهم ويطيبهم ويجعلهم متقين ونحو ذلك. ومعلوم أن من استقر أمره على ذلك، فهو داخل في هذا، لا تكون الطهارة التي دعا بها لهم بأعظم مما دعا به لنفسه. وقد قال: «اللهم طهرني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد». فمن وقع ذنبه مغفوراً أو مكفراً فقد طهره الله منه تطهيراً، ولكن من مات متوسجاً بذنوبه، فإنه لن يطهر منها في حياته.

وقد يكون من تمام تطهيرهم صيانتهم عن الصدقة التي هي أوساخ الناس. والنبي ﷺ إذا دعا بدعاء أجابه الله بحسب استعداد المحل، فإذا استغفر للمؤمنين والمؤمنات، لم يلزم أن لا يوجد مؤمن مذنب، فإن هذا لو كان واقعاً لما عذب مؤمن، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل يغفر الله لهذا بالتوبة، ولهذا بالحسنات الماحية، ويغفر الله لهذا ذنوباً كثيرة، وإن واحدة بأخرى.

وبالجملة فالتطهير الذي أَرَادَهُ اللهُ، والذي دعا به النبي ﷺ، ليس هو العصمة بالاتفاق، فإن أهل السنة عندهم لا معصوم إلا النبي ﷺ. والشيعه يقولون: لا معصوم غير النبي ﷺ والإمام. فقد وقع الاتفاق على انتفاء العصمة المختصة بالنبي ﷺ والإمام عن أزواجه وبناته وغيرهن من النساء) ١. هـ^(١).

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٢٤﴾﴾. (وقوله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ وذلك أن التلاوة عليهم وتزكيتهم أمر عام لجميع المؤمنين؛ فإن التلاوة هي تبليغ كلامه تعالى إليهم وهذا

لا بد منه لكل مؤمن، وتزكيتهم هو جعل أنفسهم زكية بالعمل الصالح الناشئ عن الآيات التي سمعوها وتليت عليهم، فالأول سمعهم، والثاني طاعتهم والمؤمنون يقولون سمعنا وأطعنا. الأول علمهم والثاني عملهم، والإيمان قول وعمل، فإذا سمعوا آيات الله وعوها بقلوبهم وأحبوها وعملوا به) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأمر أزواج نبيه بذكر ذلك فقال: ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾، فأيات الله هي القرآن، إذ كان نفس القرآن يدل على أنه منزل من الله، فهو علامة ودلالة على منزله، و«الحكمة» قال غير واحد من السلف: هي السنة. وقال رحمه الله طائفة كمالك وغيره: «هي معرفة الدين والعمل به» وقيل غير ذلك، وكل ذلك حق. فهي تتضمن التمييز بين الأمور والمحظور؛ والحق والباطل؛ وتعليم الحق دون الباطل، وهذه السنة التي فرق بها بين الحق والباطل، وبين الأعمال الحسنة من القبيحة؛ والخير من الشر، وقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(٢) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد تبين أن الله تعالى أنزل عليه الكتاب والحكمة، وأمر أزواج نبيه ﷺ أن يذكرن ما تلى في بيوتهن [من آيات الله والحكمة] وقد قال غير واحد من السلف: إن «الحكمة» هي السنة؛ وقد قال ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»^(٤).

فما ثبت عنه من السنة فعلينا اتباعه؛ سواء قيل أنه في القرآن؛ ولم نفهمه نحن، أو قيل ليس في القرآن؛ كما أن ما اتفق عليه السابقون الأولون، والذين اتبعوهم بإحسان؛ فعلينا أن نتبعهم فيه؛ سواء قيل أنه كان منصوصاً في السنة ولم يبلغنا ذلك، أو قيل أنه مما استنبطوه واستخرجوه باجتهادهم من الكتاب والسنة) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾. وقد قال غير واحد من العلماء: منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي^(٦) وغيرهم «الحكمة»: هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من

(١) مجموع الفتاوى (٣٨٩/١٥).

(٢) مَرَّ تَخْرِيجِهِ.

(٣) مجموع الفتاوى (١٧٥/١٩).

(٤) أبو داود (٣٨٠٤، ٤٦٠٤) وأحمد (٤/١٣٠) والحديث صحيح.

(٥) مجموع الفتاوى (١٦٣/٥ - ١٦٤).

(٦) مَرَّ تَخْرِيجِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ.

الكتاب والحكمة، والكتاب: القرآن وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة) ١. هـ^(١).

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِغِينَ وَالصَّابِغَاتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

(وقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ فإنه [من صدق و] صبر ولم يسلم ولم يؤمن لم يكن ممن أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (فإذا ذكر لفظ الإسلام مع الإيمان تميز أحدهما عن الآخر كما في حديث جبريل، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾) ١. هـ^(٣).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

(﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ولا ينبغي لمؤمن أن يختار لنفسه غير ما اختاره الله ورسوله) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ هو يتناول ما نهى عنه، أقوى مما يتناول ما أمر به، فإنه قال في الحديث الصحيح: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه. وإذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم»^(٥)) ١. هـ^(٦).

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَخْفَى لَهُمَا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَ لِلْكِ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

(﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ فبين أن سبب الولاء هو الإنعام بالإعتاق، كما أن سبب النسب هو الإنعام بالإيلاد) ١. هـ^(٧).

(١) مجموع الفتاوى (٦/١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/٢٧٥).

(٣) شرح العمدة - الحج (١/٤٤٣).

(٤) البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٩/١٦٥).

(٦) مجموع الفتاوى (١٦/١٢٨).

(٧) شرح العمدة - الحج (١/٤٤٣).

(٨) مجموع الفتاوى (١١/٦٧٤).

وقال رحمه الله: (كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ ولم يكن هناك طلاق) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها: لو كان محمد كاتماً شيئاً من الوحي لكتتم هذه الآية: ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال له النبي ﷺ: «اتق الله وأمسك عليك زوجك» وقيل: أن الله قد كان أعلمه أنه سيتزوجها، وكتتم هذا الإعلام عن الناس^(٣)، فعاتبه الله على كتمانها، فقال: ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ من إعلام الله لك بذلك. وقيل: بل الذي أخفاه أنه إن طلقها تزوجها) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، فذكر أنه أحل ذلك له، ليكون حلالاً لأُمَّته ولما خصه بالتحليل قال: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] فكيف يقال: إن هذه الكاف لم تتناوله؟) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ الآية فبين أن في تزويجه بامرأة دعيه من الحكمة رفع الحرج عن المؤمنين في تزويجهم بنساء أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (قال ﷺ: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ فأباح له أن يتزوج امرأة دعيه ليرفع الحرج عن المؤمنين في أزواج أدعيائهم، فعلم أن ما فعله كان لنا مباحاً أن نفعله) ا.هـ^(٧).

وقال رحمه الله: (ما ثبت في حق النبي ﷺ من الأحكام ثبت في حق أمته وبالعكس، فإن الله إذا أمره بأمر تناول الأمة، كما قد عرف في عبارة الشرع، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾)

- | | |
|-----------------------------------|-----------------------------|
| (١) مجموع الفتاوى (١٠٠/٣٣). | (٢) مجموع الفتاوى (١٠/٢٩٢). |
| (٣) ابن جرير (١٣/٢٢). | (٤) مجموع الفتاوى (١٥٠/٣٢). |
| (٥) منهاج السنة (٤/٢٠٦). | (٦) الاستغاثة (٣٦٧). |
| (٧) مجموع الفتاوى (٢٢/٣٢١ - ٣٢٢). | |

أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا فَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴿١٧٨﴾ إِلَّا إِذَا دَلَّ دَلِيلٌ خَاصٌّ عَلَى اخْتِصَاصِهِ دُونَ الْأُمَّةِ (١) هـ. ١. هـ. (١).
 ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿١٧٩﴾﴾ .

(وكما قال قبل هذا: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿١٧٨﴾﴾ - لم يقل هنا «ولن تجد» لأن هذه سنة شرعية لا ترى بالمشاهدة، بل تعلم بالوحي. بخلاف نصره للمؤمنين وعقوبته للمنذرين، فإنه أمر مشاهد فلن يوجد منتقياً) هـ. ١. هـ. (٢).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾. فهنا المراد به الأمور به ليس المراد به أمره الذي هو كلامه. وهذه الآية التي احتج بها هؤلاء تضمنت الشرع وهو الأمر والقدر، وقد ضل في هذا الموضوع فريقان:

«الجهمية» الذين يقولون: كلام الله مخلوق، ويحتجون بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾. ويقولون: ما كان مقدوراً فهو مخلوق. وهؤلاء «الحلولية» الضالون الذين يجعلون فعل العباد قديماً بأنه أمر الله وقدره وأمره وقدره غير مخلوق) هـ. ١. هـ. (٣).

وقال رحمه الله: (ويراد به الأمور به، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾، ﴿أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، فالأول هو من كلام الله وصفاته، والثاني مفعول ذلك وموجبه ومقتضاه) هـ. ١. هـ. (٤).

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٨٠﴾﴾ .

(والعالم بالفتح مثل الخاتم ما يعلم به كما أن الخاتم ما يختم به وهو بمعنى العالم، ويسمى كل صنف من المخلوقات عالماً لأنه علم وبرهان على الخالق تعالى بخلاف العالم بالكسر فإنه الذي يعلم كالخاتم بالكسر فإنه الذي يختم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ لأنه ختمهم كما يسمى الماحي والحاشر والعاقب. وقد قرئ وخاتم أي ختموا) هـ. ١. هـ. (٥).

(٢) الرد على المنطقيين (٣٩٠).

(٤) درء تعارض العقل (٧/٢٦١).

(١) طريق الوصول (٢٠٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٤١٢/٨).

(٥) النبوات (١٨٠).

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُكُمْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (٤٢).

(ومحمد ﷺ قد أخبر الله عنه أنه يصلى عليه هو وملائكته فلم تكن فضيلته بمجرد كون الأمة يصلون عليه، بل إن الله وملائكته يصلون عليه بخصوصه وإن كان الله وملائكته يصلون على المؤمنين عموماً ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُكُمْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، ويصلون على معلم الناس الخير كما في الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير»^(١) ومحمد ﷺ لما كان أكمل الناس فيما يستحق به الصلاة من الإيمان وتعليم الخير وغير ذلك كان له من الصلاة عليه خيراً وأمراً خاصة لا يوجد مثلها لغيره ﷺ) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال ابن بطة: «سمعت أبا عمر الزاهد اللغوي يقول: سمعت أبا العباس أحمد بن يحيى بلغنا يقول في قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (٤٢) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ» أجمع أهل اللغة أن اللقاء هنا لا يكون إلا معاينة ونظرة بالأبصار) ا. هـ^(٣).

﴿يَأْتِيهَا النَّوَىٰ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٤٦).

(قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٤٦) والمخالف له يدعو إلى غير الله بغير إذن الله. ومن اتبع الرسول ﷺ فإنه إنما يدعو إلى الله ورسوله. وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بأمره وما أنزله من العلم) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقد قال الله لنبيه ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ فهو داع إلى الله بإذن الله لا من تلقاء نفسه بل بأمر الله له) ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٤٦)، فسماه الله سراجاً منيراً، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً، والسراج المنير أكمل من السراج الوهاج، فإن الوهاج له حرارة تؤذي، والمنير يهتدي بنوره من غير أذى بوجهه) ا. هـ^(٦).

(١) مرّ تخريجه.

(٢) طريق الوصول (٢٠٦ - ٢٠٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٤٨٨ - ٤٨٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/٤٢٦ - ٤٢٧).

(٥) الاستغاثة (١٤٣).

(٦) الجواب الصحيح (٣/٣٧٢).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٤٥) وداعياً إلى الله بإذنيه وسراجاً منيراً ﴿٤٦﴾ ومعلوم أنه ﷺ لم يكن السراج المعروف، وإنما سمي سراجاً بالهدى الذي جاء به؛ ووضوح أدلته بمنزلة السراج المنير.

وقال رحمه الله: (في الصحيح^(١)) عن عطاء بن يسار أنه سأل عبد الله بن عمر وروى عبد الله بن سلام أنه قيل له أخبرنا ببعض صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٤٥) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٤٥) وداعياً إلى الله بإذنيه وسراجاً منيراً ﴿٤٦﴾ فأخبره أنه أرسله داعياً إليه بإذنه، فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع. والشرك بدعة، والمبتدع يؤول إلى الشرك، ولم يوجد مبتدع إلا وفيه نوع من الشرك كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْكَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة] وكان من إشراكهم بهم أنهم أحلوا لهم الحرام فأتاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فأتاعوهم) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٤٥) وداعياً إلى الله بإذنيه وسراجاً منيراً ﴿٤٦﴾ فأخبر أنه أرسله شاهداً، كما قال: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولما دفن النبي ﷺ شهداء أحد قال: «أما أنا فشاهد على هؤلاء»^(٤). وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ بالوعد والوعيد، و﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ بالأمر والنهي) ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقد سمي الله الشمس سراجاً وهاجاً وسماه سراجاً منيراً، ونعمة الله بالسراج المنير أنعم من نعمته بالسراج الوهاج من وجوه؛ منها أن السراج

(٢) النبوات (٢٧٢).

(٤) البخاري (١٣٤٧).

(١) البخاري (٢١٢٥).

(٣) اقتضاء الصراط (٢/٨٣٥).

(٥) الرد على المنطقيين (٥٣٧ - ٥٣٨).

الوهاب لصلاح بعض الأمور الدنيوية، وهي فانية منقضية، والسراج المنير لصلاح الدين والآخرة مع صلاح الدنيا. فإن وجود الشمس لا ينتفع به الآدميون في الدنيا إلا أن يكون لهم اجتماع وتعاون [في ال] مصالح وذلك لا يتم إلا بشريعة تقيم بينهم قانون العدل. ولم يطرق الوجود شريعة أعظم من شريعته ﷺ فما يحصل بها من صلاح الناس في المعاد بعض نعمة منها خير من الدنيا وما فيها، وأما ما يحصل بها من صلاح القلوب والأرواح والأبدان بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة والهدى ودين الحق فهذا لا يحصل لا بشمس ولا بنحوها، وكذلك ما يحصل بها بعد الموت من السعادة الأبدية التي لا نسبة لخير الدنيا إليها كما قال ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع»^(١)، وهذا باب يطول وصفه) ا.هـ^(٢).

﴿وَلَا تُطِيعُ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ وَدَعَّ اٰذُنَهُمْ تَوَكَّلْ عَلٰى اللّٰهِ وَكَفٰى بِاللّٰهِ وَكِيلًا﴾

(قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ وَدَعَّ اٰذُنَهُمْ تَوَكَّلْ عَلٰى اللّٰهِ وَكَفٰى بِاللّٰهِ وَكِيلًا﴾)، وهذه السورة نزلت بالمدينة بعد الخندق، فأمره الله في تلك الحال أن يترك أذى الكافرين والمنافقين له، فلا يكافئهم عليه لما يتولد في مكافأتهم من الفتنة، ولم يزل الأمر كذلك حتى فتحت مكة، ودخلت العرب في دين الله قاطبة، ثم أخذ النبي عليه الصلاة والسلام في غزو الروم، وأنزل الله تبارك وتعالى سورة براءة، وكمل شرائع الدين من الجهاد والحج والأمر بالمعروف، فكان كمال الدين حين نزل قوله تعالى: ﴿اَيُّوْمَ اٰكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنََكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، قبل الوفاة بأقل من ثلاثة أشهر، ولما نزلت براءة أمره الله بنبذ العهود التي كانت للمشركين وقال فيها: ﴿يٰٓاَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ وَاَعْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وهذه ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ وَدَعَّ اٰذُنَهُمْ﴾، وذلك أنه لم يبق حينئذ للمنافق من يعينه لو أقيم عليه الحد، ولم يبق حول المدينة من الكفار من يتحدث بأن محمداً ﷺ يقتل أصحابه، فأمره الله بجهادهم والإغلاظ عليهم.

وقد ذكر أهل العلم أن آية الأحزاب منسوخة بهذه الآية ونحوها، وقال في الأحزاب: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنٰفِقُوْنَ وَالَّذِيْنَ فِيْ قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجُوْنَ فِي الْمَدِيْنَةِ لَنَنْزِعَنَّكَ

(١) الترمذي (٢٣٢٣) وأحمد (٢٢٩/٤) وابن سعد في الطبقات (٤٠/٦) والحميدي (٨٥٥) والحاكم (٣١٩/٤) وهو صحيح.

(٢) الاستغاثة (١١٢).

بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا ﴿الاحزاب﴾،
 فعلم أنهم كانوا يفعلون أشياء إذ ذاك إن لم ينتهوا عنها أقبلوا عليها في المستقبل لما
 أعز الله دينه ونصر رسوله.

فحيث ما كان للمنافق ظهور وتخاف من إقامة الحدّ عليه فتنة أكبر من بقاءه عملنا
 بآية: ﴿وَدَعْ أَدْنَاهُمْ﴾، كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم
 والصفح، وحيث ما حصل القوة والعز خوطينا بقوله: ﴿جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾
 [التوبة: ٧٣] ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قد قدمنا أن النبي ﷺ كان يسمع من الكفار والمنافقين في أول
 الإسلام أذى كثيراً، وكان يصبر عليه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ
 وَدَعْ أَدْنَاهُمْ﴾، لأن إقامة الحدود عليهم كان يفضي إلى فتنة عظيمة ومفسدة أعظم من
 مفسدة الصبر على كلماتهم) ا.هـ^(٢).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ
 عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤١﴾﴾.

(لفظ السراح والفراق في القرآن مستعمل في غير الطلاق قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ تَعُدُّوهنَّ
 فَمَعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤١﴾﴾، فأمر بتسريحهن بعد الطلاق قبل الدخول، وهو
 طلاق بائن لا رجعة فيه، وليس التسريح هنا تطلقاً باتفاق المسلمين، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا
 طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَانِسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ
 بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢]، فلفظ الفراق والسراح ليس المراد به هنا الطلاق، فأما المطلقة
 الرجعية فهو مخير بين ارتجاعها وبين تخلية سبيلها، لا يحتاج إلى طلاق ثان) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ فبين سبحانه أن العدة للرجل على المطلقة إذا
 وجبت؛ فإذا مسها كان له عليها العدة لأجل مسه لها، وكان له الرجعة عليها، ولها
 بإزاء ذلك النفقة والسكنى، كما لها متاع لأجل الطلاق) ا.هـ^(٤).

(١) الصارم المسلول (٣٦٦ - ٣٦٧).

(٢) الصارم المسلول (٢٣١).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٣٦/٢٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٤٠/٣٢ - ٣٤١).

وقال رحمه الله: (وأما الجمهور فقالوا: العدة فيها حق لآدمي. واستدلوا بقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ الآية. قالوا: فقد نفى الله أن يكون للرجال على النساء عدة في هذا الموضع؛ وليس هنا عدة لغير الرجال، فعلم أن العدة فيها حق للرجال حيث وجبت، إذ لو لم يكن كذلك لم يكن في نفي أن يكون للرجال عليهن عدة ما ينفي أن يكون لله عدة، فلو كانت العدة حقاً محضاً لله لم يقل: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ إذ لا عدة لهم لا في هذا الموضع ولا غيره، ولو كانت العدة نوعين نوعاً لله، ونوعاً فيه حق للأزواج: لم يكن في نفي عدة الأزواج ما ينفي العدة الأخرى، فدل القرآن على أن العدة حيث وجبت ففيها حق للأزواج، وحينئذ فإذا كانت العدة فيها حق لرجلين لم يدخل حق أحدهما في الآخر؛ فإن حقوق الأدميين لا تتداخل، كما لو كان لرجلين دينان على واحد، أو كان لهما عنده أمانة، أو غضب؛ فإن عليه أن يعطي كل ذي حق حقه. فهذا الذي قاله الجمهور من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم.

واحتجوا على أبي حنيفة بأنه يقول: لو تزوج المسلم ذمية وجبت عليها العدة حقاً محضاً للزوج؛ لأن الذمية لا تؤاخذ بحق الله؛ ولهذا لا يوجبها إذا كان زوجها ذمياً، وهم لا يعتقدون وجوب العدة، وهذا الذي قاله له الأكثرون حسن، موافق لدلالة القرآن، ولما قضى به الخلفاء الراشدون لا سيما ولم يثبت عن غيرهم خلافه؛ وإن ثبت فإن الخلفاء الراشدين إذا خالفهم غيرهم كان قولهم هو الراجح؛ لأن النبي ﷺ قال: «عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي: تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»^(١).

لكن من تمام كون العدة حقاً للرجل أن يكون له فيها حق على المرأة وهو ثبوت الرجعة كما قال تعالى: ﴿وَالطَّلَاقُ يُرَبِّصُكَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْعَابِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿وَيَعْلَمَنَّ أَحَقُّ بِرَبِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فأمرهن بالتربص؛ وجعل الرجل أحق بردها في مدة التربص، وليس في القرآن طلاقاً إلا طلاق رجعي؛ إلا الثالثة المذكورة في قوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَقِّ تَنْكِحِ زَوْجًا غَيْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وذلك طلاق أوجب تحريمها فلا تحل له بعقد يكون برضاها ورضا

(١) أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٨) وابن ماجه (٤٤) وأحمد (١٢٦/٤ - ١٢٧) والبخاري (١٢٧) والبيهقي (١٠٢) والسنن لابن أبي عاصم (١٧/١، ٢٩) والحديث صحيح.

وليها؛ فكيف تباح بالرجعة...؟! أما المرأة التي تباح لزوجها في العدة فإن زوجها أحق برجعته في العدة بدون عقد، وليس في القرآن طلاق بائن تباح فيه بعقد ولا يكون الزوج أحق به؛ بل متى كانت حلالاً له كان أحق بها (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وأيضاً فإنه قد قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسِرَّوهُنَّ سِرَّامًا جَمِيلًا﴾، فأمر بتمتع المطلقات قبل المسيس، ولم يخص ذلك بمن لم يفرض لها، مع أن غالب النساء يطلقهن بعد الفرض (٢) هـ.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فهؤلاء «الأصناف الأربعة» هي المباحات من الأقارب، فيباحن من الرضاة. وإذا كان المرتضع ابناً للمرأة وزوجها فأولاده أولاد أولادهما، ويحرم على أولاده ما يحرم على الأولاد من النسب. فهذه الجهات الثلاث منها تنتشر حرمة الرضاع (٣) هـ.

وقال رحمه الله: (بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. فأحل سبحانه لنبيه ﷺ من النساء أجناساً أربعة؛ ولم يجعل خالصاً له من دون المؤمنين إلا الموهوبة؛ التي تهب نفسها للنبي؛ فجعل هذه من خصائصه: له أن يتزوج الموهوبة بلا مهر، وليس هذا لغيره باتفاق المسلمين؛ بل ليس لغيره أن يستحل بضع امرأة إلا مع وجوب مهر، كما قال تعالى: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/٣٤٦ - ٢٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢/٢٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٨/٣٤).

ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴿النساء: ٢٤﴾ [٢٤] هـ. ١ (١).

وقال رحمه الله: (إن الله تعالى لم يخص رسوله ﷺ إلا بنكاح الموهوبة بقوله: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فدل ذلك على أن سائر ما أحله لنبيه ﷺ حلال لأتمته، وقد دل على ذلك قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] فلما أحل امرأة المتبني، لا سيما للنبي ﷺ ليكون ذلك إحلالاً للمؤمنين: دل ذلك على أن الإحلال له إحلال لأتمته؛ وقد أباح له من أقاربه بنات العم والعمات؛ وبنات الخال والخالات؛ وتخصيصهن بالذكر يدل على تحريم ما سواهن؛ لا سيما وقد قال بعد ذلك: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءَ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢] أي من بعد هؤلاء اللاتي أحللناهن لك وهن المذكورات في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ﴾ [النساء: ٢٣]، فدخل في «الأمهات» أم أبيه، وأم أمه وإن علت بلا نزاع أعلمه بين العلماء. وكذلك دخل في «البنات» بنت ابنة، وبنت ابن ابنته وإن سفلت بلا نزاع أعلمه. وكذلك دخل في «الأخوات» الأخت من الأبوين، والأب، والأم. ودخل في «العمات» و«الخالات» عمات الأبوين، وخالات الأبوين. وفي «بنات الأخ، والأخت» ولد الأخوة وإن سفلن، فإذا حرم عليه أصوله وفروعه وفروع أصوله البعيدة؛ دون بنات العم والعمات وبنات الخال والخالات) هـ. ١ (٢).

وقال رحمه الله: (قوله في رواية أبي الحارث: إذا وهبت نفسها لرجل فليس بنكاح؛ فإن الله تعالى قال: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا إنما هو نص على منع ما كان من خصائص النبي ﷺ، وهو النكاح بغير مهر) هـ. ١ (٣).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فجعل إباحة الواهبة نفسها له خالصة له من دون المؤمنين ومن هذا ما ثبت في الصحيح أنه بلغه إن قوماً تنزهوا عن أشياء فعلها فقال: «والله إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده») هـ. ١ (٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢/٦٤ - ٦٥).

(٤) الاستغاثة (٣٦٧).

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/٦٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٩/١٠).

وقال رحمه الله: (ولما خصه ببعض الأحكام قال: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فلما أحل له أن ينكح الموهوبة بين أن ذلك خالص له من دون المؤمنين، فليس لأحد أن ينكح امرأة بلا مهر غيره ﷺ) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (فإن الله تعالى قال: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذا إنما هو نص على منع ما كان من خصائص النبي ﷺ، وهو النكاح بغير مهر) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، أي أوحينا وحرمنا قبل. وهنا المراد به سنته في رسله: أنه أباح لهم الأزواج وغيرها، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، وأنه لا حرج عليهم في ذلك، فلم يكن محمد ﷺ بدعاً من الرسل، ولم يقل هنا: ولن تجد لستتنا تبديلاً، فإنه لا نبي بعد محمد) ا. هـ (٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِهَا إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِجَدِيدٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَتْ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَعِجُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجُ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (٥٣).

(ولا يرد على هذا قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ - إلى قوله - إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَعِجُ مِنْكُمْ، فإن المؤذي له هنا إطالتهم الجلوس في المنزل، واستئناسهم للحديث، لا أنهم آذوا النبي ﷺ).

والفعل إذا آذى النبي من غير أن يعلم صاحبه أنه يؤذيه ولم يقصد صاحبه أذاه فإنه يُنهي عنه ويكون معصية كرفع الصوت فوق صوته، فأما إذا قصد أذاه وكان مما يؤذيه وصاحبه يعلم أنه يؤذيه وأقدم عليه مع استحضار هذا العلم فهذا الذي يوجب الكفر وحبوط العمل) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ

(٢) القواعد النورانية (١٢٩).

(١) مجموع الفتاوى (٣٢٢/٢٢).

(٤) الصارم المسلول (٦٢ - ٦٣).

(٣) جامع الرسائل (٥٠/١).

فَأَنْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعِينِينَ لِحَدِيثٍ^(١). فإن الانتشار هنا قبل ذلك لم يكن واجباً، فإنه أذن لهم في الدخول، لم يوجه عليهم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال في الآية: ﴿ذَلِكُمْ أَزْوَاجُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وقال في آية الحجاب: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾^(٢) فنهى عن هذا سداً للذريعة؛ لا أنه عورة مطلقة لا في الصلاة ولا غيرها، فهذا هذا) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ فإن ذلك مجانبة لأسباب الريبة، وذلك من نوع مجانبة الذنوب والبعد عنها ومباعدتها، فأخبر أن ذلك أظهر لقلوب الطائفتين) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (أن الله سبحانه قال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، فحرم على الأمة أن تنكح أزواجه من بعده، لأن ذلك يؤذيه، وجعله عظيماً عند الله تعظيماً لحرمة، وقد ذكر أن هذه الآية نزلت لما قال بعض الناس: لو قد توفي رسول الله ﷺ: «تزوجت عائشة»، ثم إن من نكح أزواجه أو سرايريه فإن عقوبته القتل، جزاء له بما انتهك من حرمة، فالشاتم له أولى.

والدليل على ذلك ما روى مسلم^(٤) في صحيحه عن زهير عن عقان عن حماد عن ثابت عن أنس أن رجلاً كان يُتهم بأم ولد النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لعلي: «اذهب فاضرب عنقه» فأتاه عليّ، فإذا هو في ركيّ يتبرد، فقال له علي: اخرج، فناوله يده، فأخرجه، فإذا هو محبوب ليس له ذكر، فكفت عليّ، ثم أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله، إنه لمحبوب، ما له ذكر.

فهذا الرجل أمر النبي ﷺ بضرب عنقه لما قد استحل من حرمة، ولم يأمر بإقامة حدّ الزنا؛ لأن إقامة حدّ الزنا ليس هو ضرب الرقبة، بل إن كان محصناً رجم، وإن كان غير محصن جلد، ولا يقام عليه الحدّ إلا بأربعة شهداء أو بالإقرار المعترف، فلما أمر النبي ﷺ بضرب عنقه من غير تفصيل بين أن يكون محصناً أو غير محصن علم أن قتله لما انتهكه من حرمة، ولعله قد شهد عنده شاهدان أنهما رأياه يباشر هذه المرأة، أو شهدا بنحو ذلك، فأمر بقتله، فلما تبين أنه كان محبوباً علم أن المفسدة مأمونة منه، أو أنه بعث علياً ليرى القصة، فإن كان ما بلغه عنه حقاً قتله، ولهذا قال في هذه القصة

(٢) مجموع الفتاوى (١١٨/٢٢).

(٤) مسلم (٢٧٧١).

(١) الرد على الأخنائي (٨٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٨٧/١٥).

أو غيرها. «أكون كالسكة المحماة أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب».

ويدل على ذلك أن النبي ﷺ تزوج قبلة بنت قيس^(١) بن معدي كرب أخت الأشعث، ومات قبل أن يدخل بها، وقبل أن تقدم عليه، وقيل: إنه خيرها بين أن يضرب عليها الحجاب وتحرم على المؤمنين وبين أن يطلقها فتكح من شاءت، فاختارت النكاح، فقالوا: فلما مات النبي تزوجها عكرمة بن أبي جهل بحضرموت، فبلغ أبا بكر، فقال: لقد هممت أن أحرق عليهما بيتهما، فقال عمر: ما هي من أمهات المؤمنين، ولا دخل بها، ولا ضرب عليها الحجاب وقيل: إنها ارتدت، فاحتج عمر على أبي بكر أنها ليست من أزواج النبي ﷺ بارتدادها.

فوجه الدلالة أن الصديق ﷺ عزم على تحريقها وتحريق من تزوجها. لما رأى أنها من أزواج النبي ﷺ، حتى ناظره عمر أنها ليست من أزواجه، فكف عنها لذلك، فعلم أنهم كانوا يرون قتل من استحل حرمة رسول الله ﷺ.

ولا يقال: إن ذلك حدّ الزنا لأنها كانت محرمة عليه، ومن تزوج ذات محرم حدّ حدّ الزنا أو قتل؛ لوجهين:
أحدهما: أن حدّ الزنا الرجم.

الثاني: أن ذلك الحد يفترق إلى ثبوت الوطاء بيينة أو إقرار، فلما أراد تحريق البيت مع جواز ألا يكون غشيها علم أن ذلك عقوبة ما انتهكه من حرمة رسول الله ﷺ (١. هـ^(٢)).

وقال رحمه الله: (والذي يثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن النكاح ينعقد بدون فرض المهر. أي بدون تقديره؛ لا أنه ينعقد مع نفيه؛ بل قد قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠] لما جوز للنبي ﷺ أن يتزوج بلا مهر فرض عليهم أن لا يتزوجوا بلا مهر) ١. هـ^(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥١).
(وقد ثبت عن النبي ﷺ من وجوه صحاح أن الله لما أنزل عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥١) سأل الصحابة كيف يصلون عليه؟ فقال: قولوا: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد

(٢) الصارم المسلول (٦٣ - ٦٤).

(١) الإصابة (١١٦٦١).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٤٤/٢٩).

كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد) ١. هـ^(١).

(وذلك أن الله تعالى أمر في كتابه بالصلاة والسلام عليه مخصوصاً بذلك فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ٥٦) فهنا أخبر وأمر. وأما في حق عموم المؤمنين فأخبر ولم يأمر فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ولهذا إذا ذكر الخطباء ذلك قالوا: إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكته، وأيه بالمؤمنين من بريته، أي قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. فإن صلاته تعالى على المؤمنين بدأ فيها بنفسه، وثنى بملائكته، لكن لم يؤيه فيها بالمؤمنين من بريته. وقد جاء في الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير»^(٢) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وفي الحديث «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير» وذلك أن هذا بتعليمه الخير يخرج الناس من الظلمات إلى النور، والجزاء من جنس العمل، ولهذا كان الرسول أحق الناس بكمال هذه الصلاة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (ومحمد ﷺ قد أخبر الله [عنه] أنه يصلى عليه هو وملائكته بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، فلم تكن فضيلته بمجرد كون الأمة يصلون عليه، بل بأن الله تعالى وملائكته يصلون عليه بخصوص، وإن كان الله وملائكته يصلون على المؤمنين عموماً، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، ويصلون على معلمي الناس الخير، كما في الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير» ١. هـ^(٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ٥٧) .
 (قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، وهذه الآية توجب قتل من آذى الله ورسوله كما سيأتي إن شاء الله تعالى تقريره، والعهد لا يعصم من ذلك؛ لأننا لم نعهدهم على أن يؤذوا الله ورسوله.

ويوضح ذلك قول النبي: «من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله»^(٦)

(١) جامع المسائل (٣/٧٦ - ٧٧).

(٢) الترمذي (٢٨٢٥) والطبراني (٧٩١٢)، والحديث صحيح.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/٤٠٨).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/٥٢٥).

(٥) منهاج السنة (٤/٦٠٤).

(٦) البخاري (٢٠٣١) مسلم (١٨٠١).

فندب المسلمين إلى يهودي كان معاهداً لأجل أنه آذى الله ورسوله، فدل ذلك على أنه لا يوصف كل ذمي بأنه يؤذي الله ورسوله، وإلا لم يكن فرق بينه وبين غيره، ولا يصح أن يقال: اليهود ملعونون في الدنيا والآخرة مع إقرارهم على ما يوجب ذلك، لأننا لم نقرهم على إظهار آذى الله ورسوله، وإنما أقررناهم على أن يفعلوا بينهم كما هو من دينهم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ويدل على ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخرها، فإنها تدل على قتل من يؤذي الله كما تدل على قتل من يؤذي رسوله، والأذى المطلق إنما هو باللسان) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وإذا لم يسم الفاعل جاز أن يلعنهم غير الله من الملائكة والناس، وجاز أن يلعنهم الله في وقت ويلعنهم بعض خلقه في وقت وجاز أن الله يتولى لعنة بعضهم وهو من كان قذفه طعناً في الدين، ويتولى خلقه لعنة الآخرين، وإذا كان اللاعن مخلوقاً فلعنه قد يكون بمعنى الدعاء عليهم، وقد يكون بمعنى أنهم يبعدونهم عن رحمة الله) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ومما يؤيد الفرق أنه قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ﴿٥٧﴾ ولم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ﴿٣٧﴾ [النساء] وقوله: ﴿وَحُدُوا جِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢] وقوله: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠] ﴿إِنَّمَا نُطِلُّ لَهُمْ زِينَةً وَإِنَّمَا كَانُوا أَصْحَابَ لُغْمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٨] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿٥٧﴾ [الحج] ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿٦١﴾ [الجاثية]، ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ لِّلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥]، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿١١﴾ [المجادلة] ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (والدليل عليه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي

(١) الصارم المسلول (٣١).

(٢) الصارم المسلول (٥٥٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٦٥ - ٣٦٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٦٦/١٥ - ٣٦٧).

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ، فعلق اللعنة في الدنيا والآخرة والعذاب المهين بنفس أذى الله ورسوله، فعلم أنه موجب ذلك) ا.هـ^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا كَتَبْنَا لَهُمْ قَدِّحًا بِهِنَّ وَإِنَّمَا مُّهِينًا ﴿٥٨﴾﴾ .

(وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا كَتَبْنَا لَهُمْ قَدِّحًا بِهِنَّ وَإِنَّمَا مُّهِينًا ﴿٥٨﴾﴾ ، وهم صدور المؤمنين فإنهم هم المواجهون بالخطاب في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ، حيث ذكرت، ولم يكتسبوا ما يوجب آذاهم، لأن الله سبحانه رضي عنهم رضاً مطلقاً بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ هَاجِرِينَ وَالنَّاصِرِينَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا كَتَبْنَا لَهُمْ قَدِّحًا بِهِنَّ وَإِنَّمَا مُّهِينًا ﴿٥٨﴾﴾ ، فمن آذى مؤمناً: حياً أو ميتاً بغير ذنب يوجب ذلك، فقد دخل في هذه الآية، ومن كان مجتهداً لا إثم عليه، فإذا آذاه مؤذ فقد آذاه بغير ما اكتسب، ومن كان مذنباً - وقد تاب من ذنبه، أو غفر له بسبب آخر بحيث لم يبق عليه عقوبة - فأذاه مؤذ فقد آذاه بغير ما اكتسب، وإن حصل له بفعله مصيبة) ا.هـ^(٣).

(قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا كَتَبْنَا لَهُمْ قَدِّحًا بِهِنَّ وَإِنَّمَا مُّهِينًا ﴿٥٨﴾﴾ ودلالاتها من وجوه:

أحدها: أنه قرن آذاه بأذاه كما قرن طاعته بطاعته، فمن آذاه فقد آذى الله تعالى، وقد جاء ذلك منصوباً عنه، ومن آذى الله فهو كافر حلال الدّم، يبين ذلك أن الله تعالى جعل محبة الله ورسوله وإرضاء الله ورسوله وطاعة الله ورسوله شيئاً واحداً فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَءَابَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية [التوبة: ٢٤]،

(٢) الصارم المسلول (٥٧٤).

(١) الصارم المسلول (٢٩٧).

(٣) منهاج السنة (١٣٥/٥).

وقال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] في مواضع متعددة، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢] فوحد الضمير، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال ﷺ: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١].

وجعل شقاق الله ورسوله ومحادة الله ورسوله وأذى الله ورسوله ومعصية الله ورسوله شيئاً واحداً، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاؤُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُسَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٦٣]، وقال: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية [النساء: ١٤].

وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وأن جهة حرمة الله تعالى ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله؛ لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة الرسول، ليس لأحد منهم طريق غيره، ولا سبب سواه، وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور.

وثانيها: أنه فرق بين آذى الله ورسوله وبين آذى المؤمنين والمؤمنات، فجعل على هذا أنه قد احتمل ﴿بُهْتِنًا وَإِنَّمَا مُهِينًا﴾ وجعل على ذلك اللعنة في الدنيا والآخرة وأعد له العذاب المهين، ومعلوم أن آذى المؤمنين قد يكون من كبائر الإثم وفيه الجلد، وليس فوق ذلك إلا الكفر والقتل.

الثالث: أنه ذكر أنه لعنهم في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً، واللعن: الإبعاد عن الرحمة، ومن طرده عن رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلا كافراً، فإن المؤمن يقرب إليها بعض الأوقات، ولا يكون مباح الدم؛ لأن حقن الدم رحمة عظيمة من الله؛ فلا يثبت في حقه.

ويؤيد ذلك قوله: ﴿لَيْنٌ لِّمَنْ يَنْتَهَىٰ عَنِ الْمُنْفِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٢٠] ملعونين آتينا قفوا أخذوا وقتلوا قفوا [٢١] [الأحزاب]، فإن أخذهم وتقتيلهم والله أعلم بيان صفة لعنهم، وذكر لحكمه، فلا موضع له من الإعراب، وليس بحال ثانية؛ لأنهم إذا جاوروه ملعونين ولم يظهر أثر لعنهم في الدنيا لم يكن في ذلك وعيد لهم، بل تلك اللعنة ثابتة قبل هذا

الوعيد وبعده، فلا بدّ أن يكون هذا الأخذ والتقتيل من آثار اللعنة التي وعدوها، فثبت في حقّ من لعنه الله في الدنيا والآخرة.

ويؤيده قول النبي ﷺ: «لعن المؤمن كقتله»^(١) متفق عليه، فإذا كان الله قد لعن هذا في الدنيا والآخرة فهو كقتله؛ فعلم أن قتله مباح.

قيل: واللّعن إنما يستوجه من هو كافر، لكن ليس هذا جيداً على الإطلاق.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاتِ وَالطُّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُم نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء]، ولو كان معصوم الدم يجب على المسلمين نصره ولكان له نصير.

يوضح ذلك أنه قد نزل في شأن ابن الأشرف، وكان من لعنته أن قتل؛ لأنه كان يؤذي الله ورسوله.

واعلم أنه لا يرد على هذا أنه قد لعن من لا يجوز قتله، لوجوه:

أحدها: أن هذا قيل فيه «لعنه الله في الدنيا والآخرة» فبين أنه سبحانه أقصاه عن رحمته في الدارين، وسائر الملعونين إنما قيل فيهم «لعنه الله» أو «عليه لعنة الله» وذلك يحصل بإقصائه عن الرحمة في وقت من الأوقات، وفرق بين من لعنه الله أو عليه لعنة مؤبّدة عامة ومن لعنه لعناً مطلقاً.

الثاني: أن سائر الذين لعنهم الله في كتابه - مثل الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، ومثل الظالمين الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، ومثل من يقتل مؤمناً متعمداً - إما كافر أو مباح الدم، بخلاف بعض من لعن في السنة.

الثالث: أن هذه الصيغة خبر عن لعنة الله له، ولهذا عطف عليه ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وعامة الملعونين الذين لا يقتلون أو لا يكفرون إنما لعنوا بصيغة الدعاء، مثل قوله ﷺ: «لعن الله من غير منار الأرض»^(٢). و«لعن الله السارق»^(٣). و«لعن الله أكل الربا ومؤكله»^(٤) ونحو ذلك.

لكن الذي يرد على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ

(١) البخاري (٣٢/٨)، ومسلم (١١٠). (٢) مسلم (١٩٧٨).
 (٣) البخاري (٦٧٩٩)، ومسلم (١٦٨٧). (٤) البخاري (١٧/٧).

لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ [النور]، فإن في هذه الآية ذكر لعنتهم في الدنيا والآخرة، مع أن مجرد القذف ليس بكفر ولا يبيح الدم.

والجواب عن هذه الآية من طريقين مجمل ومفصل:

أما المجمل فهو أن قذف المؤمن المجرد هو نوع من أذاه، وإذا كان كذباً فهو بهتان عظيم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور].

والقرآن قد نص على الفرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾، فلا يجوز أن يكون مجرد أذى المؤمنين بغير حق موجباً لعنة الله في الدنيا والآخرة وللعذاب المهين؛ إذ لو كان كذلك لم يفرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين، ولم يخصص مؤذي الله ورسوله باللعنة المذكورة، ويجعل جزاء مؤذي المؤمنين أنه احتمال بهتاناً وإثماً مبيناً كما قال في موضع آخر: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء]، كيف والعليم الحكيم إذا توعد على الخطيئة زاجراً عنها فلا بد أن يذكر أقصى ما يخاف على صاحبها، فإذا ذكر خطيئتين إحداهما أكبر من الأخرى متوعداً عليهما زاجراً عنهما، ثم ذكر في إحداهما جزاء عنها، وذكر في الأخرى ما هو دون ذلك، ثم ذكر هذه الخطيئة في موضع آخر متوعداً عليها بالعذاب الأدنى بعينه علم أن جزاء الكبرى لا يستوجب بتلك التي هي أدنى منها.

فهذا دليل يبين لك أن لعنة الله في الدنيا والآخرة وإعداده العذاب المهين لا يستوجبه مجرد القذف الذي ليس فيه أذى الله ورسوله، وهذا كاف في اطراد الدلالة وسلامتها عن النقص.

وأما الجواب المفصل فمن ثلاثة أوجه:

أحدها: أن هذه الآية في أزواج النبي ﷺ خاصة، في قول كثير من أهل العلم.

فروى هشيم عن العوام بن حوشب حدثنا شيخ من بني كاهل قال: فسّر ابن عباس^(١) سورة النور، فلما أتى على هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ

الْمُؤْمِنَاتِ ﴿ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [النور: ٢٣] قَالَ: هَذَا فِي شَأْنِ عَائِشَةَ وَأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً، وَهِيَ مَبْهَمَةٌ لَيْسَ فِيهَا تَوْبَةٌ، وَمَنْ قَذَفَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ تَوْبَةً؛ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ [النور: ٥] فَجَعَلَ لَهُؤُلَاءِ تَوْبَةً، وَلَمْ يَجْعَلْ لِأَوْلَئِكَ تَوْبَةً؛ قَالَ: فَهَمَّ رَجُلٌ أَنْ يَقُومَ فَيَقْبَلَ رَأْسَهُ مِنْ حَسَنِ مَا فَسَّرَ.

وقال أبو سعيد الأشج: حدثنا عبد الله بن خراش عن العوام عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ﴾ نزلت في عائشة رضي الله عنها، واللعنة في المنافقين عامة.

فقد بين ابن عباس أن هذه الآية إنما نزلت فيمن يقذف عائشة وأمهاة المؤمنين؛ لما في قذفهن من الطعن على رسول الله ﷺ وعيبه، فإن قذف المرأة أذى لزوجها كما هو أذى لابنها؛ لأنه نسبة له إلى الديانة وإظهار لفساد فراشه، فإن زنا امرأته يؤذيه أذى عظيماً، ولهذا جوّز له الشارع أن يقذفها إذا زنت، ودرأ الحد عنه باللعان، ولم يبح لغيره أن يقذف امرأة بحال.

ولعل ما يلحق بعض الناس من العار والخزي بقذف أهله أعظم مما يلحقه لو كان هو المقذوف، ولهذا ذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين المنصوصتين عنه إلى أن من قذف امرأة غير محصنة كالأمة والذمية ولها زوج أو ولد محصن حدّ لقذفها؛ لما ألحقه من العار بولدها وزوجها المحصنين.

والرواية الأخرى عنه - وهو قول الأكثرين - أنه لا حدّ عليه؛ لأنه أذى لهما لا قذف لهما، والحدّ التام إنما يجب بالقذف، وفي جانب النبي ﷺ أذاه كقذفه، ومن يقصد عيب النبي ﷺ يعيب أزواجه فهو منافق، وهذا معنى قول ابن عباس: اللعنة في المنافقين عامة.

وقد وافق ابن عباس^(١) على هذا جماعة؛ فروى الإمام أحمد والأشج عن خصيف قال: سألت سعيد بن جبير، فقلت: الزنا أشدّ أو قذف المحصنة؟ قال: لا، الزنا؛ قال: قلت: وإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ٢٣]، فقال: إنما كان هذا في عائشة خاصة.

وروى أحمد بإسناده عن أبي الجوزاء في هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِئَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال: هذه لأمهات المؤمنين خاصة^(١).

وروى الأشج بإسناده عن الضحاك في هذه الآية قال: هن نساء النبي ﷺ.

وقال معمر عن الكلبي: إنما عني بهذه الآية أزواج النبي ﷺ، فأما من رمى امرأة من المسلمين فهو فاسق كما قال تعالى، أو يتوب.

ووجه هذا ما تقدم من أن لعنة الله في الدنيا والآخرة لا تستوجب بمجرد القذف، فتكون اللام في قوله: ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِئَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ لتعريف المعهود، والمعهود هنا أزواج النبي ﷺ، لأن الكلام في قصة الإفك ووقوع من وقع في أم المؤمنين عائشة، أو تقصير اللفظ العام على سببه للدليل الذي يوجب ذلك.

ويؤيد هذا القول أن الله سبحانه رتب هذا الوعيد على قذف محصنات غافلات مؤمنات، وقال في أول السورة: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَبْوَابِهَا فَعَلَّادُهُمْ ثَمَنَيْنِ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٤]، فرتب الجلد وردّ الشهادة والفسق على مجرد قذف المحصنات؛ فلا بد أن تكون المحصنات الغافلات المؤمنات لهنّ مزية على مجرد المحصنات، وذلك - والله أعلم - لأن أزواج النبي ﷺ مشهود لهن بالإيمان لأنهنّ أمهات المؤمنين وهنّ أزواج نبيه في الدنيا والآخرة، وعوام المسلمات إنما يعلم منهن في الغالب ظاهر الإيمان، ولأن الله قال في قصة عائشة: ﴿وَالَّذِي قَوْلُكَ كَبِيرٌ مِنْهُمْ لَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]، فتخصيصه بتولي كبره دون غيره دليل على اختصاصه بالعذاب العظيم، وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَكُتُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]، فعلم أن العذاب العظيم لا يمس كل من قذف، وإنما يمس متولي كبره فقط، وقال هنا: ﴿وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣] فعلم أنه الذي رمى أمهات المؤمنين ويعيب بذلك رسول الله وتولى كبر الإفك، وهذه صفة المنافق ابن أبي

واعلم أنه على هذا القول تكون هذه الآية حجة أيضاً موافقة لتلك الآية؛ لأنه لما كان رمى أمهات المؤمنين أذى للنبي ﷺ فلعن صاحبه في الدنيا والآخرة، ولهذا قال ابن عباس: «ليس فيها توبة» لأن مؤذي النبي ﷺ لا تقبل توبته إذا تاب من القذف حتى يسلم إسلاماً جديداً، وعلى هذا فرميهن نفاق مبيح للدم إذا قصد به أذى النبي ﷺ،

أو أذاهن بعد العلم بأنهن أزواجه في الآخرة؛ فإنه ما لعنت امرأة نبي قط .

ومما يدل على أن قذفهن أذى للنبي ﷺ ما خرّجناه في الصحيحين في حديث الإفك عن عائشة قالت: فقام رسول الله ﷺ فاستعذر عبد الله بن أبي بن سلول، قالت: «فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فو الله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرک منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک، فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله؛ فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين؛ قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

وفي رواية أخرى صحيحة قالت لما ذكر من شأني الذي ذكر، وما علمت به، قام رسول الله ﷺ في خطيباً، وما علمت به، فتشهد وحمد وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، أشيروا عليّ في أناس أبنوا أهلي، وأيم الله ما علمت على أهلي سوءاً قط، وأبنوهم، بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ولا دخل بيتي قط إلا وأنا حاضر، ولا كنت في سفر إلا غاب معي، فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله مرني أن أضرب أعناقهم .

فقوله: «من يعذرني» أي من ينصفني ويقيم عذري إذا انتصفت منه لما بلغني من أذاه في أهل بيتي والله لهم، فثبت أنه ﷺ قد تأذى بذلك تأدياً استعذر منه، وقال المؤمنون الذين لم تأخذهم حمية: «مرنا نضرب أعناقهم؛ فإننا نعذرک إذا أمرتنا بضرب أعناقهم» ولم ينكر النبي ﷺ على سعد استثماره في ضرب أعناقهم، وقوله: إنك معذور إذا فعلت ذلك .

بقي أن يقال: فقد كان من أهل الإفك مسطح وحسان وحمئة، ولم يرموا بنفاق، ولم يقتل النبي ﷺ أحداً بذلك السبب، بل قد اختلف في جلدتهم .
وجوابه: أن هؤلاء لم يقصدوا أذى النبي ﷺ، ولم يظهر منهم دليل على أذاه،

بخلاف ابن أبي الذي إنما كان قصده أذاه، لم يكن إذ ذاك قد ثبت عندهم أي أزواجه في الدنيا هن أزواج له في الآخرة، وكان وقوع ذلك من أزواجه ممكناً في العقل، ولذلك توقف النبي ﷺ في القصة، حتى استشار علياً وزيداً، وحتى سأل بريرة، فلم يحكم بنفاق من لم يقصد أذى النبي ﷺ لإمكان أن يطلق المرأة المقدوفة، فأما بعد أن ثبت أنهن أزواجه في الآخرة وأنهن أمهات المؤمنين فقد فهن أذى له بكل حال، ولا يجوز - مع ذلك - أن تقع منهن فاحشة، لأن في ذلك جواز أن يقيم الرسول مع امرأة بغي، وأن تكون أم المؤمنين موسومة بذلك، وهذا باطل، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾﴾ [النور]، وسنذكر إن شاء الله تعالى في آخر الكتاب كلام الفقهاء فيمن قذف نساءه وأنه معدود من أذاه.

والوجه الثاني: أن الآية عامة، قال الضحاك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِئَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني به أزواج النبي ﷺ خاصة، ويقول آخرون: يعني أزواج المؤمنين عامة.

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: قذف المحصنات من الموجبات، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الآية [النور: ٢٣]. وعن عمرو بن قيس قال: قذف المحصنة يحبط عمل تسعين سنة، رواهما الأشج؛ وهذا قول كثير من الناس ووجه ظاهر الخطاب فإنه عام، فيجب إجراؤه على عمومه، إذ لا موجب لخصوصه، وليس هو مختصاً بنفس السبب بالاتفاق، لأن حكم غير عائشة من أزواج النبي ﷺ داخل في العموم، وليس هو من السبب، ولأنه لفظ جمع والسبب في واحدة، ولأن قصر عمومات القرآن على أسباب نزولها باطل، فإن عامة الآيات نزلت بأسباب اقتضت ذلك وعلم أن شيئاً منها لم يقصر على سببه، والفرق بين الآيتين أنه في أول السورة ذكر العقوبات المشروعة على أيدي المكلفين من الجلد وردّ الشهادة والتفسيق، وهنا ذكر العقوبات الواقعة من الله سبحانه وهي اللعنة في الدارين والعذاب العظيم.

وروي عن النبي ﷺ من غير وجه وعن أصحابه أن قذف المحصنات من الكبائر، وفي لفظ في الصحيح «قذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وكان بعضهم يتأول على ذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِئَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

ثم اختلف هؤلاء:

فقال أبو حمزة الثمالي: بلغنا أنها نزلت في مشركي أهل مكة؛ إذ كان بينهم وبين

رسول الله ﷺ عهد، فكانت المرأة إذا خرجت إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة وقالوا: إنما خرجت تفجر؛ فعلى هذا يكون فيمن قذف المؤمنات قذفاً يصدّهنّ به عن الإيمان، ويقصد بذلك ذمّ المؤمنين لينقّر الناس عن الإسلام كما فعل كعب بن الأشرف، وعلى هذا فمن فعل ذلك فهو كافر، وهو بمنزلة من سبّ النبي ﷺ.

وقوله: «إنها نزلت زمن العهد» يعني - والله أعلم - أنه عنى بها مثل أولئك المشركين المعاهدين، وإلا فهذه الآية نزلت ليالي الإفك، وكان الإفك في غزوة بني المصطلق قبل الخندق، والهدنة كانت بعد ذلك بستين.

ومنهم من أجراها على ظاهرها وعمومها؛ لأنّ سبب نزولها قذف عائشة، وكان فيمن قذفها مؤمن ومنافق، وسبب النزول لا بد أن يندرج في العموم ولأنه لا موجب لتحصيلها.

والجواب على هذا التقدير أنه سبحانه قال هنا: ﴿لِيُتُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ٢٣] على بناء الفعل للمفعول، ولم يسمّ اللاعن، وقال هناك: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وإذا لم يسمّ الفاعل جاز أن يلعنهم غير الله من الملائكة والناس، وجاز أن يلعنهم الله في وقت ويلعنهم بعض خلقه في وقت، وجاز أن يتولى الله لعنة بعضهم، وهو من كان قذفه طعناً في الدين، ويتولى خلقه لعنة الآخرين، وإذا كان اللاعن مخلوقاً فلعنته قد تكون بمعنى الدعاء عليهم، وقد تكون بمعنى أنهم يبعدون عن رحمة الله.

ويؤيد هذا أن الرجل إذا قذف امرأته تلاعنا، وقال الزوج في الخامسة: «لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين» فهو يدعو على نفسه إن كان كاذباً في القذف أن يلعنه الله، كما أمر الله رسوله أن يباهل من حاجه في المسيح بعد ما جاءه من العلم بأن يبتهلوا فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين؛ فهذا مما يلعن به القاذف، ومما يلعن به أن يجلد وأن ترد شهادته ويفسّق؛ فإنه عقوبة له وإقصاء له عن مواطن الأمن والقبول وهي من رحمة الله، وهذا بخلاف من أخبر الله أنه لعنه في الدنيا والآخرة؛ فإن لعنة الله له توجب زوال النصر عنه من كل وجه، وبعده عن أسباب الرحمة في الدارين.

ومما يؤيد الفرق أنه قال هنا: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، ولم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ

يَالْبُخْلِ وَرَكْشُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٧٧﴾ [النساء]،
 وقوله: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقوله: ﴿إِنَّمَا
 نُمَلِّئُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ [الحج]، وقوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا
 شَيْئًا أَخَذَهَا حُزُواً أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١﴾ [الجاثية]، وقوله: ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ بَيِّنَاتٍ
 وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥]، وقوله: ﴿أَتَعْدُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ
 عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ [المجادلة]، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ
 حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٤﴾ [النساء]. فهي والله أعلم
 فيمن جحد الفرائض، واستخف بها، على أنه لم يذكر أن العذاب أعد له.

وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيداً للمؤمنين في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ
 لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦١﴾ [الأنفال]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ [النور]، وفي المحارب: ﴿ذَٰلِكَ
 لَهُمْ جَزَاؤُهُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣] وفي القتال:
 ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وقوله: ﴿وَلَا نُنَاجِدُ
 أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَاقَدِمَ بَعْدَ بُتُوبِهَا وَتَدُوقُوا السَّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ [النحل]، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]،
 وذلك لأن الإهانة إذلال وتحقير وخزي، وذلك قدر زائد على ألم العذاب، فقد يعذب
 الرجل الكريم ولا يهان.

فلما قال في هذه الآية: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ علم أنه من جنس العذاب الذي
 توعد به الكفار والمنافقين، ولما قال هناك: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣] جاز أن
 يكون من جنس العذاب في قوله: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤].

ومما يبين الفرق أيضاً أنه ﷻ هنا: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾، والعذاب إنما أعد
 للكافرين، فإن جهنم لهم خلقت؛ لأنهم لا بد أن يدخلوها، وما هم منها بمخرجين،
 وأهل الكبائر من المؤمنين يجوز أن لا يدخلوها إذا غفر الله لهم، وإذا دخلوها فإنهم
 يخرجون منها ولو بعد حين.

قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران]، فأمر سبحانه
 المؤمنين أن لا يأكلوا الربا، وأن يتقوا الله، وأن يتقوا النار التي أعدت للكافرين؛ فعلم

أنه يخاف عليهم من دخول النار إذا أكلوا الربا وفعلوا المعاصي مع أنها معدة للكفار، لا لهم، وكذلك جاء في الحديث «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون» وأما أقوام لهم ذنوب يصيبهم سفع من نار ثم يخرجهم الله منها. وهذا كما أن الجنة أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء، وإن كان يدخلها الأبناء بعمل آبائهم، ويدخلها قوم بالشفاعة، وقوم بالرحمة، وينشئ الله لما فضل منها خلقاً آخر في الدار الآخرة فيدخلهم إياها، وذلك لأن الشيء إنما يعد لمن يستوجه ويستحقه، ولمن هو أولى الناس به، ثم قد يدخل معه غيره بطريق التسع أو لسبب آخر) ١. هـ^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾.

قال رحمه الله: (وعلى وجوب احترامهن؛ فهن أمهات المؤمنين في الحرمة والتحريم، ولسن أمهات المؤمنين في المحرمية، فلا يجوز لغير أقاربهن الخلو بهن، ولا السفر بهن، كما يخلو الرجل ويسافر بذوات محارمه.

ولهذا أمرن بالحجاب، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاحَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وحقيقة الأمر: أن الله جعل الزينة زينتين: زينة ظاهرة، وزينة غير ظاهرة، وجوز لها إبداء زينتها الظاهرة لغير الزوج، وذوي المحارم، وكانوا قبل أن تنزل آية الحجاب كان النساء يخرجن بلا جلباب يرى الرجل وجهها ويديها، وكان إذ ذلك يجوز لها أن تظهر الوجه والكفين، وكان حينئذ يجوز النظر إليها لأنه يجوز لها إظهاره، ثم لما أنزل الله ﷻ آية الحجاب قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ حجب النساء عن الرجال وكان ذلك لما تزوج زينب بنت جحش، فأرخی الستر، ومنع النساء أن ينظرن، ولما اصطفى صفية بنت حيي بعد

(١) الصارم المسلول (٤٥ - ٥٩) وقد مرّ بنا المقطع في سورة النور.

(٢) منهاج السنة (٤/٣٦٩).

ذلك عام خبير قالوا: إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين، وإلا فهي مما ملكت يمينه، فحجبها.

فلما أمر الله أن لا يسألن إلا من وراء حجاب، وأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يدين عليهن من جلابيبهن - و«الجلباب» هو الملاءة، وهو الذي يسميه ابن مسعود وغيره الرداء، وتسميه العامة الإزار، وهو الإزار الكبير الذي يغطي رأسها وسائر بدنها. وقد حكى أبو عبيد وغيره: أنها تدنيه من فوق رأسها فلا تظهر إلا عينها، ومن جنسه النقاب: فكان النساء ينتقبن. وفي الصحيح أن المحرمة لا تنتقب. ولا تلبس القفازين فإذا كن مأمورات بالجلباب لثلا يعرفن، وهو ستر الوجه، أو ستر الوجه بالنقاب: كان الوجه والبدن من الزينة التي أمرت ألا تظهرها للأجانب، فما بقي محل للأجانب النظر إلا إلى الثياب الظاهرة، فابن مسعود ذكر آخر الأمرين وابن عباس ذكر أول الأمرين.

وعلى هذا فقوله: ﴿أَوْ يُسَآئِبَهُنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ [النور: ٣١] يدل على أن لها أن تبدي الزينة الباطنة لمملوكها. وفيه قولان: قيل المراد الإماء، والإماء الكتابيات. كما قاله ابن المسيب، ورجحه أحمد وغيره وقيل: هو المملوك الرجل: كما قاله ابن عباس وغيره، وهو الرواية الأخرى عن أحمد.

فهذا يقتضي جواز نظر العبد إلى مولاته، وقد جاءت بذلك أحاديث، وهذا لأجل الحاجة؛ لأنها محتاجة إلى مخاطبة عبدها، أكثر من حاجتها إلى رؤية الشاهد والمعامل والخطب، فإذا جاز نظر أولئك، فنظر العبد أولى، وليس في هذا ما يوجب أن يكون محرماً يسافر بها.

كغير أولى الإربة؛ فإنهم يجوز لهم النظر، وليسوا محارم يسافرون بها، فليس كل من جاز له النظر جاز له السفر بها، ولا الخلوة بها؛ بل عبدها ينظر إليها للحاجة، وإن كان لا يخلو بها، ولا يسافر بها فإنه لم يدخل في قوله ﷺ: «لا تسافر امرأة إلا مع زوج أو ذي محرم» فإنه يجوز له أن يتزوجها إذا عتق، كما يجوز لزوج أختها أن يتزوجها إذا طلق أختها، والمحرم من تحرم عليه على التأيد؛ ولهذا قال ابن عمر: سفر المرأة مع عبدها ضيعة.

فالآية رخصت في إبداء الزينة لذوي المحارم وغيرهم، وحديث السفر ليس فيه إلا ذوي المحارم، وذكر في الآية نساءهن. أو ما ملكت أيمنهن، وغير أولى الإربة،

وهي لا تسافر معهم. وقوله: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ قال: احتراز عن النساء المشركات. فلا تكون المشركة قابلة للمسلمة، ولا تدخل معهن الحمام، لكن قد كن النسوة اليهوديات يدخلن على عائشة وغيرها. فيرين وجهها ويديها، بخلاف الرجال فيكون هذا في الزينة الظاهرة في حق النساء الذميات، وليس للذميات أن يطلعن على الزينة الباطنة. ويكون الظهور والبطون بحسب ما يجوز لها إظهاره: ولهذا كان أقربها تبدي لهن الباطنة. وللزوج خاصة ليست للأقارب، وقوله: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِحُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُوهِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] دليل على أنها تغطي العنق. فيكون من الباطن لا الظاهر، ما فيه من القلادة وغيرها) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِأَزْوَجِكُ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْعَىٰ أَنْ يُعْرَفَنَ فَلَا يُؤْذِنُ﴾ الآية، والجلابيب هي: الملاحف التي تعم الرأس والبدن وتسميها العامة: الأزر، وتسمى الجلباب: الملاعة، ومنه قول النبي ﷺ: «لتلبسها أختها من جلبابها»^(٢) أي لتعيرها طرف الجلباب تلتحف به فتلتحف امرأتان بجلباب واحد، فاخص الله سبحانه بالأمر بإدناء الجلابيب أزواج النبي ﷺ وبنااته ونساء المؤمنين ولم يذكر إماءه ولا إماء المؤمنين، ولسن داخلات في نساء المؤمنين، بدليل أن قوله تعالى: ﴿يُنَسِّئُ النَّبِيَّ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وقوله: ﴿لَلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦] وقوله: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢] إنما عنى الأزواج خاصة وإذا لم يكن داخلات في الأمر بالالتحاف بقين على أصل الإباحة لا سيما وتخصيص المذكورات بالحكم يدل على انتفائه فيما سواهن) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (والله تعالى قد بين هذا المقصود أيضاً، بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِأَزْوَجِكُ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْعَىٰ أَنْ يُعْرَفَنَ فَلَا يُؤْذِنُ﴾ فجعل كونهن يعرفن باللباس الفارق أمر مقصود) ١. هـ^(٤).

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾ ﴿١١﴾

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْأَنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٢﴾ ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾ ﴿١٣﴾ سُنَّةَ اللَّهِ

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/١١٠ - ١١٢).

(٢) متفق عليه.

(٣) شرح العمدة - الصلاة (٣٧٠ - ٣٧١).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/٢٠ - ٢٤).

فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٦﴾، وهذه الآية أنزلها الله قبل الأحزاب، وظهور الإسلام، وذل المنافقين فلم يستطيعوا أن يظهروا بعد هذا ما كان يظهرونه قبل ذلك، قبل بدر وبعدها، قبل أحد وبعدها، فأخفوا النفاق وكتموه؛ فلهذا لم يقتلهم النبي ﷺ.

وبهذا يجيب من لم يقتل الزنادقة، ويقول: إذا أخفوا زندقته لم يمكن قتلهم، ولكن إذا أظهرها قتلوا بهذه الآية؛ بقوله: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُحْذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾ ﴿١٦﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٦﴾ قال قتادة^(١): ذكر لنا أن المنافقين كانوا يظهرون ما في أنفسهم من النفاق؛ فأوعدهم الله بهذه الآية، فلما أوعدهم بهذه الآية أسروا ذلك وكتموه ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ يقول: هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق. قال مقاتل ابن حيان: قوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني كما قُتِلَ أهل بدر وأسروا فذلك قوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾، قال السدي: كان النفاق على «ثلاثة أوجه»:

«نفاق» مثل نفاق عبد الله بن أبي، وعبد الله بن نفيل، ومالك بن داعس، فكان هؤلاء وجوهاً من وجوه الأنصار، فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنا يصونون بذلك أنفسهم. ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: الزناة. إن وجدوه عملوا به وإن لم يجدوه لم يتبعوه.

و«نفاق» يكابرون النساء مكابرة. وهم هؤلاء الذين يجلسون على الطريق، ثم قال: ﴿مَلْعُونِينَ﴾ ثم فصلت الآية ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ يعملون هذا العمل مكابرة النساء. قال السدي: هذا حكم في القرآن ليس يعمل به، لو أن رجلاً أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم؛ أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم. قال السدي: قوله: ﴿سُنَّةَ﴾ كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم. قال: فمن كابر امرأة على نفسها فقتل فليس على قاتله دية لأنه مكابر^(٢).

قلت: هذا على وجهين:

«أحدهما» أن يقتل دفعاً لصوله عنها، مثل أن يقهرها فهذا دخل في قوله: «من قتل دون حرمة فهو شهيد»^(٣)، وهذه لها أن تدفعه بالقتل؛ لكن إذا طاعت ففيه نزاع

(١) ابن جرير (٤٩/٢٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر (٥/٢٢٢ - ٢٢٣).

(٣) النسائي (١١٦/٧) والترمذي (١٤١٨) والحديث صحيح.

وتفصيل، وفيه قضيتان عن عمر وعلي معروفتان، وأما إذا فجر بها مستكراً ولم تجد من يعينها عليه فهؤلاء نوعان:

«أحدهما»: أن يكون له شوكة كالمحاربين لأخذ المال، وهؤلاء محاربون للفاحشة فيقتلوا. قال السدي قد قاله غيره. وذكر أبو اللوبي أن هذه جرت عنده ورأى أن هؤلاء أحق بأن يكونوا محاربين.

والثاني» أن لا يكونوا ذوي شوكة، بل يفعلون ذلك غيلة واحتيالاً، حتى إذا صارت عندهم المرأة أكرهوها فهذا المحارب غيلة كما قال السدي يقتل أيضاً. وإن كانوا جماعة في المصر، فهم كالمحاربين في المصر، وهذه المسائل لها مواضع أخرى.

والمقصود» أن الله أخبر أن سنته لن تبدل ولن تتحول، وسنته عادته التي يسوى فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي، وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة؛ ولهذا قال: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ﴾ [القم: ٤٣]؟ وقال: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْرَجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢]، أي أشباههم ونظراءهم، وقال: ﴿وَإِذَا الْنُفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير]، قرن النظر بنظيره، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال: ﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ أَسْوَءَ حَسَنَةٍ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرْهَؤُنَا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفْرًا بِكُرْبِنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْفُتُورُ وَالْبَعْضَاءُ أَبَدًا﴾ [المتحنة: ٤]، وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهْجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة].

فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجْهَهُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر]، وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة]، فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم؛ وهم خير الناس بعد الأنبياء، فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس، وأولئك خير أمة محمد، كما ثبت في الصحاح من غير وجه أن النبي ﷺ قال: «خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(١) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الآية، كما أصاب من قبلهم من أهل الكتاب، فإن الله أخرجهم، فإن لم ينته غي هؤلاء، بل أظهروا الكفر كما أظهره أولئك - أخرجناهم كما أخرجناهم بخلاف ما إذا كتموه.

وهذه السنة تتضمن أن كل من جاور الرسول ﷺ متى أظهر مخالفته مكن الله الرسول من إخراجهم. وهذه في أهل العهد والمنافقين، وقد يقال: هي لهم مع المؤمنين (أبدأ) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأما قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قد قال أبو رزين: «هذا شيء واحد، هم المنافقون»، وكذلك قال مجاهد: «كل هؤلاء منافقون» فيكون من باب عطف الخاص على العام، كقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقال سلمة بن كهيل وعكرمة^(٢): «الذين في قلوبهم مرض أصحاب الفواحش والزناة» ومعلوم أن من أظهر الفاحشة لم يكن بد من إقامة الحد عليه، فكذلك من أظهر النفاق ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (بل قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ مَلْعُونَاتٌ آتَيْنَا نَقْفُوا أُحْذُوا وَقَتَلُوا نَفْسِيًّا ﴿١١﴾، فانتهوا عن إظهار النفاق وانقمعوا) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (فإنه قال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مَلْعُونَاتٌ آتَيْنَا نَقْفُوا أُحْذُوا وَقَتَلُوا نَفْسِيًّا﴾، وهو يقتضي أن من لم ينته فإنه يؤخذ ويقتل؛ فعلم أن الانتهاء العاصم ما كان قبل الأخذ.

وأيضاً؛ فإنه جعل ذلك تفسيراً للعن؛ فعلم أن الملعون متى أخذ قتل إذا لم يكن انتهى قبل الأخذ؛ وهذا ملعون؛ فدخل في الآية) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ مَلْعُونَاتٌ آتَيْنَا نَقْفُوا أُحْذُوا وَقَتَلُوا نَفْسِيًّا ﴿١١﴾ الآية، فعلم أنهم كانوا يفعلون أشياء إذ ذاك إن لم ينتهوا عنها قبلوا عليها

(١) جامع الرسائل (١/٥١).

(٢) قول عكرمة عند ابن جرير (٤٧/٢٢) أما بقية الآثار فلم أجدها.

(٣) الصارم المسلول (٣٥٧). (٤) منهاج السنة (٦/٣٢٢).

(٥) الصارم المسلول (٣٤٦).

في المستقبل لما أعز الله دينه ونصر رسوله) ا.ه (١).

وقال رحمه الله: (ويؤيد ذلك قوله: ﴿لَيْن لَرِ يَنْبَهَ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦١﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ ﴿٦٢﴾، فإن أخذهم وتقتيلهم والله أعلم بيان صفة لعنهم، وذكر لحكمه، فلا موضع له من الإعراب، وليس بحال ثانية؛ لأنهم إذا جاوروه ملعونين ولم يظهر أثر لعنهم في الدنيا لم يكن في ذلك وعيد لهم، بل تلك اللعنة ثابتة قبل هذا الوعيد وبعده؛ فلا بد أن يكون هذا الأخذ والتقتيل من آثار اللعنة التي وعدوها، فيثبت في حق من لعنه الله في الدنيا والآخرة) ا.ه (٢).

وقال رحمه الله: (ويدل على ذلك قوله: ﴿لَيْن لَرِ يَنْبَهَ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦١﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ ﴿٦٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾، دلت هذه الآية على المناقنين إذا لم ينتهوا فإن الله يغري نبيه بهم، وأنهم لا يجاورونه بعد الإغراء بهم إلا قليلاً، وأن ذلك في حال كونهم ملعونين، أينما وجدوا وأصيبوا أسروا وقتلوا، وإنما يكون ذلك إذا أظهروا النفاق؛ لأنه ما دام مكتوماً لا يمكن قتلهم) ا.ه (٣).

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿٦٣﴾.

(ولكن العادة التي لا تنتقض بحال ما أخبر الله أنها لا تنتقض، كقوله تعالى: ﴿لَيْن لَرِ يَنْبَهَ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦١﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ ﴿٦٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿٦٣﴾، وقال: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوثُ وَإِلَّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٦٤﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿٦٥﴾، وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِبْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٦٦﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ﴿٦٧﴾ [فاطر].

(٢) الصارم المسلول (٤٦).

(١) الصارم المسلول (٣٦٦).

(٣) الصارم المسلول (٣٥٦).

فهذه سنة الله وعادته في نصر عباده المؤمنين - إذا قاموا بالواجب - على الكافرين، وانتقامه وعقوبته للكافرين الذين بلغتهم الرسل بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين. هي سنة الله التي لا توجد منتقضة قط وكما قال قبل هذا: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، لم يقل هنا «ولن تجد» لأن هذه سنة شرعية لا ترى بالمشاهدة، بل تعلم بالوحي. بخلاف نصره للمؤمنين وعقوبته للمنذرين، فإنه أمر مشاهد فلن يوجد منتقضا.

وقد أراد بعض الملاحدة كالسهروردي المقتول في كتابه «المبدأ والمعاد» الذي سماه «الألواح العمادية» أن يجعل له دليلاً من القرآن والسنة على إلحاده. فاستدل بهذه الآية على أن العالم لا يتغير، بل لا تزال الشمس تطلع وتغرب لأنها عادة الله. فيقال له: انخراق العادات أمر معلوم بالحس والمشاهدة بالجملة. وقد أخبر في غير موضع أنه سبحانه لم يخلق العالم عبثاً وباطلاً، بل لأجل الجزاء. فكان هذا من سنته الجميلة، وهو جزاؤه الناس بأعمالهم في الدار الآخرة، كما أخبر به من نصر أوليائه وعقوبة أعدائه. فبعث الناس للجزاء هو من هذه السنة. وهو لم يخبر بأن كل عادة لا تنتقض، بل أخبر عن السنة التي هي عواقب أفعال العباد بإثابته أوليائه ونصرهم على الأعداء. فهذه هي التي أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل، كما قال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وذلك لأن العادة تتبع إرادة الفاعل، وإرادة الفاعل الحكيم هي إرادة حكيمة، فتسوى بين المماثلات، ولن يوجد لهذه السنة تبديل ولا تحويل، وهو إكرام أهل ولايته وطاعته ونصر رسله والذين آمنوا على المكذبين. فهذه السنة تقتضيها حكمته سبحانه، فلا انتقاض له، بخلاف ما اقتضت حكمته تغييره. فذاك، تغييره من الحكمة أيضاً ومن سنته التي لا يوجد لها تبديل ولا تحويل. لكن في هذه الآيات رد على من يجعله يفعل بمجرد إرادة ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح. فإن هؤلاء ليس عندهم له سنة لا تتبدل، ولا حكمة تقصد وهذا خلاف النصوص والعقول. فإن السنة تقتضي تماثل الأحاد، وأن حكم الشيء حكم نظيره، فيقتضي التسوية بين المتماثلات. وهذا خلاف قولهم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وكذلك قال في المنافقين - وهم الكفار في الباطن دون الظاهر - ومن فيه شعبة نفاق: ﴿لَنْ لَرَّ بَيْنَهُ الْمُنْتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُؤُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦٥﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا ﴿٦٦﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٧﴾)، والسنة هي العادة فهذه عادة الله المعلومة، فإذا نصر من ادعى النبوة وأتباعه على من خالفه، إما ظاهراً وباطناً، وإما باطناً، نصراً مستقراً، كان ذلك دليلاً على أنه نبي صادق، إذ كانت سنة الله وعادته نصر المؤمنين بالأنبياء الصادقين على الكافرين والمنافقين، كما أن سنته تأييدهم بالآيات البينات وهذه منها) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (والرب تعالى في الحقيقة لا ينقص عادته التي هي سنته التي قال فيها: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿٦٧﴾ وقال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين فهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصه بها قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره ويختص به) ا.هـ (٢).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ ﴿٦٩﴾ .
 (وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾، ومع هذا فأذى موسى بذلك أذى لا يشهد به صريح العقل، فلو كان ما أخبرهم به مما يناقض صريح العقل لكان أذاه بالقدح في ذلك أبين وأظهر وأولى أن يستعمله من يريد الأذى له) ا.هـ (٣).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿٧٥﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿٧٦﴾ .

(قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿٧٥﴾، والسديد: الساد الصواب المطابق للحق من غير زيادة ولا نقصان، وهو العدل والصدق، بخلاف من أراد أن يفرق بين المتماثلين ويجعلهما مختلفين؛ بل متضادين؛ فإن قوله ليس بسديد. وهذا يبسط في موضعه) ا.هـ (٤).

(١) الجواب الصحيح (٦/٤٢٠ - ٤٢١). (٢) النبوات (٢١٩).
 (٣) درء تعارض العقل (٧/٧٩). (٤) مجموع الفتاوى (٢٠/٤٨٥).

وقال رحمه الله: (فقوله: ﴿آتَقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ومثل قوله: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] وقوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٧٥﴾ [البقرة]، فعطف قولهم على الإيمان كما عطف القول السديد على التقوى؛ ومعلوم أن التقوى إذا أطلقت دخل فيها القول السديد) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (من اقتصد في قوله وتحرى القول السديد. فإن الله يصلح عمله، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٦﴾ يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾) ١. هـ^(٢).

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٧﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٨﴾﴾.

(أنه قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٧﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية.

فقد أخبر الله عن جنس الإنسان أنه ظلوم جهول، واستثنى من العذاب من تاب. ونصوص الكتاب صريحة في أن كل بني آدم لا بد أن يتوب. وهذه المسألة متعلقة بمسألة العصمة: هل الأنبياء معصومون من الذنوب أم لا فيحتاجون إلى توبة؟ والكلام فيها مبسوط قد تقدم) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، فالظلوم غاو والجهول ضال إلا من تاب الله عليه) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (فإنه سبحانه لم يجعل علينا في الدين من حرج، وإنما بعث نبينا ﷺ بالحنيفية السمحة. فالسبب الأول: هو الظلم. والسبب الثاني: هو عدم العلم.

(٢) مجموع الفتاوى (١٤٥/٤).

(٤) منهاج السنة (١٩/١).

(١) مجموع الفتاوى (١٦٤/٧).

(٣) منهاج السنة (٢٨٧/٨).

والظلم والجهل هما وصف للإنسان المذكور في قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، مع أن الجهل والظلم متقاربان، لكن الجاهل لا يدري أنه ظالم، والظالم جهل الحقيقة المانعة له من العلم) هـ. ١ (٢).

وقال رحمه الله: (فإن الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، فبظلمه يكون غاوياً، وبجهله يكون ضالاً، وكثيراً ما يجمع بين الأمرين فيكون ضالاً في شيء غاوياً في شيء آخر، إذ هو ظلم جهول) هـ. ١ (٣).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، فتارة يجهل وتارة يظلم، ذلك في قوة علمه وهذا في قوة عمله) هـ. ١ (٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا لِيُعَذِّبَ جَهُولًا اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٥)، فغاية كل مؤمن التوبة) هـ. ١ (٥).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، مع أن الجهل والظلم متقاربان لكن الجاهل لا يدري أنه ظالم والظالم جهل الحقيقة المانعة له من العلم) هـ. ١ (٦).

وقال رحمه الله: (ولكن الإنسان كما قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا لِيُعَذِّبَ جَهُولًا اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٦)، فهو ظالم جاهل إلا من تاب الله عليه) هـ. ١ (٧).

- | | |
|----------------------------------|------------------------------|
| (٢) جامع الرسائل (٢/ ١٨٠ - ١٨١). | (١) القواعد النورانية (١٥٣). |
| (٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٤٦). | (٣) جامع الرسائل (١/ ٢٢٩). |
| (٦) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٤٤). | (٥) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٨٨). |
| | (٧) منهاج السنة (٤/ ٣٤٢). |

سورة سبأ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ .

(قال تعالى: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن] فأمره أن يقسم على ما سيكون، وكذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ كما أمره أن يقسم على الحاضر في قوله: ﴿وَيَسْتَدْرِكُ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] ا.هـ^(١) .

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض) ا.هـ^(٢) .

﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلِ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ .

(وقال تعالى: ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلِ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ ، فمن أوتي العلم رأى أن ما أنزل إليه من ربه هو الحق، وأما من كان عنده ما يظنه علماً - وهو جهل - فذاك يرى الأمر على خلاف ما هو عليه، مثل من زاغ فأزاغ الله قلبه، وكان في قلبه مرض، فزاده الله مرضاً، وممن يقبل الله أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ومن الصم البكم العمي الذين لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهدى، أو لم يكونوا يعقلون بحال.

وأمثال هؤلاء قال تعالى [فيهم]: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُؤْدٌ وَيَكْفُرُوا فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام]، وقد ضرب الله مثل هؤلاء وهؤلاء في غير موضع من القرآن كسورة النور وغيرها) ا.هـ^(٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٣٦).

(١) مجموع الفتاوى (٧/٤٦٠).

(٣) درء تعارض العقل (٧/٤٠ - ٤١).

﴿أَنْ أَعْمَلَ سَدِغَتٍ وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١).

(ولهذا قال الله لداود: ﴿وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ﴾، أي لا تدق المسمار فيقلق، ولا تغلظه فيفصم، واجعله بقدر) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (فإن اللفظ كان بقوله: ﴿وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ﴾ أي اجعل ذلك بقدر، ولا تزد ولا تنقص) ا.هـ (٢).

﴿يَعْمَلُونَ لَكُمْ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا مَا لَكُمْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٣).

(كما يوجد في القرآن من أوزان الشعر، ولم يقصد به الشعر، كقوله تعالى: ﴿وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ...﴾، وقوله: ﴿يَتَىٰ عِبَادِي أَيُّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر]، ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَرَدَكَ﴾ [الأنبياء] ﴿أَلَيْسَ أَتَقَضَّ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح]، ونحو ذلك) ا.هـ (٣).

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَبِيلًا فِيهَا لِيَالِي وَيَأْمَأْمَأِ مِئِينَ﴾ (٤).

(وقوله تعالى في قصة سبأ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ وهما كانا بين اليمن مساكن سبأ وبين منتهى الشام من العمارة القديمة، كما قد ذكره العلماء) ا.هـ (٤).

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٥).

(وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٥) ولا نفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن لهم، وقالت طائفة من السلف (٥): كان أقوام يدعون المسيح، والعزيز، والملائكة: فبين الله لهم أن الملائكة والأنبياء، لا يملكون كشف الضر عنهم ولا

(١) مجموع الفتاوى (١٣٤/١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٤١٠/١١).

(٣) منهاج السنة (٥٣/٨ - ٥٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٥٠٦/٢٧).

(٥) هذا تفسير آية الإسراء ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ...﴾ أما هذه فليس هذا من تفسيرها.

تحويلاً، وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٧﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، فقد تهدد سبحانه من دعا شيئاً من دون الله، وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركاً في ملكه، وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين؛ فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات: رغبة ورهبة وعبادة واستعانة، ولم يبق إلا الشفاعة وهي حق؛ لكن قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٧﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، أخبر سبحانه أن ما يدعى من دونه ليس له مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا شرك في ملك، ولا أعانة على شيء. وهذه الوجوه الثلاثة: هي التي ثبت بها حق الغير؛ فإنه إما أن يكون مالكاً للشيء مستقلاً بملكه، أو يكون مشاركاً له فيه نظير، أو لا ذا ولا ذاك، فيكون معيناً لصاحبه: كالوزير والمشير والمعلم والمنجد والناصر، فبين سبحانه أنه ليس لغيره ملك لمثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا لغيره شرك في ذلك لا قليل ولا كثير، فلا يملكون شيئاً؛ ولا لهم شرك في شيء؛ ولا له سبحانه ظهير: وهو المظاهر المعاون، فليس له وزير ولا مشير ولا ظهير، وهذا كما قال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وِليٌّ مِنَ الدُّنْيَا وَكَرِيمٌ تَكْوِيماً﴾ [الإسراء] ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٧﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ فنفي عما سواه كل ما يتعلق به المشركون. فنفي أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك، أو يكون عوناً لله ولم يبق إلا الشفاعة؛ فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال تعالى عن الملائكة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]

(٢) مجموع الفتاوى (١/٢٩٤).

(١) مجموع الفتاوى (١/١٢٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/٥١٩ - ٥٢٠).

وقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يُأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ﴿٣١﴾ [النجم].

فهذه «الشفاعة» التي يظنها المشركون؛ هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن. وأما ما أخبر به النبي ﷺ أنه يكون. فأخبر: «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً. فإذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه؛ يقال له: أي محمد! ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع. فيقول: أي رب امتي! فيحد له حداً فيدخلهم الجنة»^(١). وكذلك في الثانية وكذلك في الثالثة، وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»^(٢). فتلك «الشفاعة» هي لأهل الإخلاص بإذن الله، ليست لمن أشرك بالله، ولا تكون إلا بإذن الله ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وجمع بين الشرك والشفاعة في قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْقَالَ ذَرِّفْ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكِ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهْرٍ﴾ ﴿٣٢﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَ لَمْ. فهذه الأربعة هي التي يمكن أن يكون لهم بها تعلق. الأول: ملك شيء ولو قل، الثاني: شركهم في شيء من الملك، فلا ملك ولا شركة ولا معاونة يصير بها نداً، فإذا انتفت الثلاثة: بقيت الشفاعة فعلقها بالمشيئة) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وهذا كما قال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْقَالَ ذَرِّفْ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكِ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهْرٍ﴾ ﴿٣٣﴾ فنفى الملك مطلقاً. ثم قال: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَ لَمْ﴾ فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناءه. لم يثبت أن مخلوقاً يملك الشفاعة. بل هو سبحانه له الملك وله الحمد. لا شريك له في الملك قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ الَّذِي لَمْ يُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْذْ وَلَكَا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ ﴿٢﴾ [الفرقان] ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْقَالَ

(١) الحديث هو حديث الشفاعة المتفق عليه. (٢) البخاري (١/١٩٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/٧٧ - ٧٨).

(٤) مجموع الفتاوى (١/١١٤).

(٥) مجموع الفتاوى (١٤/٤٠٦).

ذَرَّفَ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُم مِّنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٧﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوذِيَ لَكُمْ ﴿٢٨﴾ بين سبحانه ضلال الذين يدعون المخلوق من الملائكة والأنبياء وغيرهم فبين، أن المخلوقين لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ثم بين أنه لا شركة لهم، ثم بين أنه لا عون له ولا ظهير؛ لأن أهل الشرك يشبهون الخالق بالمخلوق. كما يقول بعضهم: إذا كانت لك حاجة استوصي الشيخ فلان؛ فإنك تجده، أو توجه إلى ضريحه خطوات وناده، يا شيخ! يقضي حاجتك، وهذا غلط، لا يحل فعله وإن كان من هؤلاء الداعين لغير الله من يرى صورة المدعو أحياناً فذلك شيطان تمثل له. كما وقع مثل هذا لعدد كثير.

ونظير هذا قول بعض الجهال من أتباع الشيخ عدي^(١) وغيره، كل رزق لا يجيء على يد الشيخ لا أريده. والعجب من ذي عقل سليم يستوحي من هو ميت، يستغيث به، ولا يستغيث بالحي الذي لا يموت، ويقوي الوهم عنده أنه لولا استغاثته بالشيخ الميت لما قضيت حاجته. فهذا حرام فعله.

ويقول أحدهم: إذا كانت لك حاجة إلى ملك توصلت إليه بأعوانه، فهكذا يتوسل إليه بالشيخ، وهذا كلام أهل الشرك والضلال، فإن الملك لا يعلم حوائج رعيته، ولا يقدر على قضائها وحده، ولا يريد ذلك إلا لغرض يحصل له بسبب ذلك، والله أعلم بكل شيء، يعلم السر وأخفى، وهو على كل شيء قدير، فالأسباب منه وإليه، وما من سبب من الأسباب إلا دائر موقوف على أسباب أخرى، وله معارضات، فالنار لا تحرق إلا إذا كان المحل قابلاً، فلا تحرق السمندل، وإذا شاء الله منع أثرها كما فعل بإبراهيم عليه السلام.

وأما مشيئة الرب فلا تحتاج إلى غيره ولا مانع لها، بل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وهو سبحانه أرحم من الوالدة بولدها: يحسن إليهم ويرحمهم، ويكشف ضرهم، مع غناه عنهم، وافتقارهم إليه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فنفى الرب هذا كله فلم يبق إلا الشفاعة، فقال: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوذِيَ لَكُمْ﴾ وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فهو الذي يأذن في الشفاعة، وهو الذي يقبلها، فالجميع منه وحده، وكلما كان الرجل أعظم إخلاصاً:

(١) هو الشيخ عدي بن مسافر.

كانت شفاعة الرسول أقرب إليه . قال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»^(١) ا. هـ.^(٢)

وقال رحمه الله: (شرك في ربوبيته: بأن يجعل لغيره معه تدبيراً ما، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾^(٣)، فبين سبحانه أنهم لا يملكون ذرة استقلالاً، ولا يشركونه في شيء من ذلك، ولا يعينونه على ملكه، ومن لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً، فقد انقطعت علاقته) ا. هـ.^(٣)

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾^(٣) وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(٤) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٥) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٦) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾^(٧)، فإنه لما دعاهم إلى التوحيد وبين أن ما يدعونه من دون الله لا يملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا هو شريك، ولا هو ظهير ولا ينفع شفيع إلا بإذنه، نفى بذلك جميع وجوه الشرك، فإن ما يشرك به إما أن يكون له ملك أو شريك في الملك، أو يكون معيناً، فإذا انتفت الثلاثة لم يبق إلا الشفاعة التي هي دعاء لك ومسألة، وتلك لا تنفع عنده، إلا لمن أذن له.

ثم ذكر بعد هذا أنه لا رازق يرزق من السماء والأرض إلا الله دل بهذا وهذا على التوحيد. كما في قوله: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ يَّعْمَلَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾^(٨) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾^(٩) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا بِسَوْفٍ تَعْمَلُونَ﴾^(١٠) [النحل]، فلما ذكر ما دل على وجوب توحيده، وبيان أن أهل التوحيد هم على الهدى، وأن أهل الشرك على الضلال قال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

(٢) مجموع الفتاوى (١١/٥٢٦ - ٥٢٨).

(١) مرّ تخريجه.

(٣) اقتضاء الصراط (٢/٧٠٣).

يقول: إن أحد الفريقين أهل التوحيد الذين لا يعبدون إلا الله، وأهل الشرك لعلى هدى أو في ضلال مبین.

وهذا من الإنصاف في الخطاب الذي كل من سمعه من ولي وعدو قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك، كما يقول العادل الذي ظهر عدله للظالم الذي ظهر ظلمه: الظالم إما أنا وإما أنت، لا للشك في الأمر الظاهر، ولكن لبيان أن أحدنا ظالم ظاهر الظلم، وهو أنت لا أنا.

فإنه إذا قيل: أهل التوحيد الذين يعبدون الله على هدى، أو في ضلال مبین، وأهل الشرك الذين يعبدون ما لا يضر ولا ينفع على هدى أو في ضلال مبین تبين أن أهل التوحيد على الهدى، وأهل الشرك على الضلال، وهذا مما يعلمه جميع الملل من المسلمين واليهود والنصارى، يعلمون أن أهل التوحيد على الهدى، وأهل الشرك على الضلال.

وفي القرآن في بيان مثل هذا ما لا يحصى إلا بكلفة، بل قطب القرآن وسائر الكتب ومدارها على عبادة الله وحده، فكيف يقال إن الرسول كان يشك هل المهتدى هم أهل التوحيد أم أهل الشرك؟ وهو يقول هذا إلا من هو في غاية الجهل والعناد، ثم الآية خطاب للمشركين ليست خطاباً للنصارى خصوصاً) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهيرٍ ۗ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾. فبين سبحانه أن من دعي من دون الله من جميع المخلوقات من الملائكة والبشر وغيرهم أنهم لا يملكون مثقال ذرة في ملكه، وأنه ليس له شريك في ملكه، بل هو سبحانه له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وأنه ليس له عون يعاونه كما يكون للملك أعوان وظهراء، وإن الشفعاء عنده لا يشفعون إلا لمن ارتضى، فنفى بذلك وجوه الشرك.

وذلك أن من يدعون من دونه! إما أن لا يكون مالكا، وإما أن لا يكون مالكا وإذا لم يكن مالكا فإما أن يكون شريكاً، وإما أن لا يكون شريكاً، وإذا لم يكن شريكاً فإما أن يكون معاوناً وإما أن يكون سائلاً طالباً، فالأقسام الأول الثلاثة وهي: الملك،

والشركة والمعاونة منتفية، وأما الرابع فلا يكون إلا من بعد إذنه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٧٧﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، بين سبحانه أن كل ما يدعى من دونه من الملائكة والبشر وغيرهم ليس لهم مثقال ذرة في السموات والأرض ولا لهم نصيب فيهما، وليس لله ظهير يعاونه من خلقه، وهذه الأقسام الثلاثة هي التي تحصل مع المخلوقين: إما أن يكون غيره ملك دونه، أو يكون شريكاً له، أو يكون معيناً وظهيراً له، والرب تعالى ليس له من خلقه مالك ولا شريك ولا ظهير. لم يبق إلا الشفاعة وهو دعاء الشافع وسؤاله الله في المشفوع له، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (٢) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٧٧﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ فتبين أن من دعى في زعمهم من دون الله فإنه لا يملك شيئاً ولا له شرك مع الله ولا هو معين ولا ظهير، ولم يبق إلا الشفاعة فقال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] هـ. ١. (٣)

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَقًّا إِذَا فُرِغَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٧٣)

(وقال مسروق عن ابن مسعود: إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئاً، فإذا فرغ عن قلوبهم وسكن الصوت عرفوا أنه الحق، ونادوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ (٤)، ويذكر عن جابر بن عبد الله بن أنيس سمعت النبي ﷺ يقول: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان» (٥).

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٦٥ - ٦٦). (٢) الرد على الأخنائي (٧).

(٣) الرد على الأخنائي (٨٤ - ٨٥)، مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٨٠).

(٤) أبو داود (٤٧٣٨) مرفوعاً، وورد موقوفاً في البخاري (٩/ ١٤١).

(٥) البخاري (٩/ ١٤١).

وذكر حديث أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير»^(١) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(٣))، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة عن الصحابة والتابعين في تفسير هذه الآية بأن الملائكة إذا سمعوا تكلم الله بالوحي صعقوا، فإذا أزيل الفزع عنهم ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(٤) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وكلام «البخاري» في «كتاب خلق الأفعال»^(٤) صريح في أن الله يتكلم بصوت، وفرق بين صوت الله وأصوات العباد. وذكر في ذلك عدة أحاديث عن النبي ﷺ. وكذلك ترجم في كتاب الصحيح باب في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وذكر ما دل على أن الله يتكلم بصوت وهو القدر) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (روى بإسناده حديث عبد الله بن أنيس قال سمعت النبي ﷺ يقول: يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة واحد من أهل النار يطلبه بمظلمة»^(٦)) وذكر الحديث الذي رواه أيضاً في صحيحه في هذا المعنى في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ الآية عن أبي سعيد قال: «قال رسول الله ﷺ يوم القيامة يا آدم فيقول: لبيك وسعديك، فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار قال: يا رب ما بعث النار قال: من كل ألف أراه قال تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحامل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد»، وذكر البخاري حديث ابن مسعود الذي استشهد به أحمد وذكر الحديث الذي رواه في صحيحه عن عكرمة قال سمعت أبا هريرة يقول أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله

(١) مرّ تخريجه.

(٢) درء تعارض العقل (٢/٢٩٩ - ٣٠٠)، الفتاوى (٥/٨٤).

(٣) الصفدية (٢/٢٨٩).

(٤) خلق أفعال العباد (ص ١٩٤).

(٥) مجموع الفتاوى (٦/٥٢٧ - ٥٢٨).

(٦) مرّ تخريجه.

الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وهذا الحديث رواه في صحيحه وقال حدثنا عبدان عن أبي حمزة عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: من كان يحدثنا بهذه الآية لولا ابن مسعود سألناه ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال سمع أهل السموات صلصلة مثل صلصلة السلسلة على الصفوان فيخرون حتى إذا فزع عن قلوبهم سكن الصوت عرفوا أنه الوحي ونادوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾، وقال: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا مسلم عن مسروق عن عبد الله بهذا.

وقال حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو [قال سمعت عكرمة يقول:] سمعت أبا هريرة يقول: أن نبي الله قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة أجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على الصفوان فإذا ﴿فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ الكبير قال: وقال: الحكم بن أبان حدثني عكرمة عن ابن عباس إذا قضى الله أمراً تكلم رجفت السموات والأرض والجبال وخرت الملائكة كلهم سجداً.

حدثنا عمرو بن زرارة حدثنا زياد عن محمد بن إسحاق حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري عن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب عن عبد الله بن عباس عن نفر من الأنصار أن رسول الله ﷺ قال لهم: «ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به قالوا: كنا يا رسول الله نقول حين رأيناها يرمى بها: مات ملك، ولد مولود، مات مولود، فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك كذلك ولكن الله إذا قضى في خلقه أمراً يسمعه أهل العرش فيسبحون فيسبح من تحتهم بتسبيحهم فيسبح من تحت ذلك فلم يزل التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا حتى يقول بعضهم لبعض لم سبحتم؟ فيقولون: سبح من فوقنا فسبحنا بتسبيحهم. فيقولون: أفلا تسألون من فوقكم مم سبحوا؟ فيسألونهم فيقولون: قضى الله في خلقه كذا وكذا الأمر الذي كان، فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا، فيتحدثون به فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم منهم واختلاف، ثم يأتون به إلى الكهان من أهل الأرض، فيحدثونهم فيخطئون

ويصيبون، فتحدث به الكهان ثم أن الله حجب الشياطين عن السماء بهذه النجوم وانقطعت الكهانة اليوم فلا كهانة^(١) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ولم يثبت سبحانه إلا الشفاعة، لكن أثبت شفاعة مفيدة^(٣))، ليست هي الشفاعة التي يظنها المشركون، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾﴾ وقد جاءت الأحاديث الصحيحة والآثار عن الصحابة والتابعين تخبر بما يوافق تفسير هذه الآية من حال الملائكة مع الله، كما وصفهم تعالى في الآية الأخرى فقال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ لَا يَسْئُرُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء].

ففي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والبخاري وغيرهما عن ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ. قال: «إن الله إذا قضى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان. فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، وهم هكذا - ووصف [سفيان] بيده فأقامها منحرفة. فربما أدرك الشهاب المسترق قبل أن يرمى بها [إلى صاحبه] فيُحرقه، وربما لم يدرکه، فيرمى بها إلى الذي يليه، ثم يرمى بها إلى الذي يليه إلى الذي يليه، ثم يلقىها إلى الأرض، فتلقى على لسان الساحر أو لسان الكاهن، فيكذب عليها مائة كذبة، فيقولون: قد أخبر يوم كذا وكذا بكذا وكذا بوجودناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء».

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره، عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن عبد الله بن عباس: حدثني رجل من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رُمى بنجم فاستنار. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما كنتم تقولون لهذا في الجاهلية؟» قالوا: كنا نقول ولد عظيم، أو مات عظيم» قال: «فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبحة حملة العرش، قم سبحة أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا، ثم يقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: «ماذا قال ربكم؟» قالوا: «الحق وهو العلي الكبير»، فيقولون كذا وكذا. فيخبر أهل السموات بعضهم بعضاً حتى يبلغ الخبر أهل السماء

(١) البخاري (٦/٨٠ - ٨١)، ومسلم (٤/١٧٥٠ - ١٧٥١).

(٢) الفتاوى (التسعينية) (٥/١٣٧ - ١٣٨). (٣) كذا في الأصل، ولعلها «مقيّدة».

الدنيا، فتخطف الجن السمع، فيلقونه إلى أوليائه مظن فيلقون إلى أوليائهم، فَيَرْمُونَ. فما جاءوا به على وجهه فهو الحق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون».

وكذلك في الحديث الآخر المعروف من رواية نعيم بن حماد، عن الوليد بن مسلم، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن أبي زكريا، عن رجاء بن حيوة، عن النواس بن سمعان قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحى بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة، أو قال رعدة شديدة من خوف الله. فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخرروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل على الملائكة، كلما مرّ بسماء سأله ملائكتها: «ماذا قال ربنا، يا جبريل؟» فيقول: «قال الحق وهو العلي الكبير». فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله من السماء والأرض. وقد رواه ابن أبي حاتم، والطبري، وغيرهما.

وقوله: ﴿فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾، أي أزال عنها الفزع. وكذلك قال غير واحد من السلف: «جُلِّيَ عَنْ قُلُوبِهِمْ»^(١) وهذا كما يقال: «قَرَّدَ البعير» إذا أزال عنه القُراد، ويقال: تحرَّج، وتحوَّب، وتأنَّم، وتحنَّث، إذا أزال عنه الحرج، والحبوب، والإثم، والحنث.

وروى ابن أبي حاتم^(٢)، ثنا الحسن بن محمد الواسطي، ثنا يزيد بن هارون، عن شريك، عن يزيد بن أبي زياد، عن مقسم، عن ابن عباس في قوله: ﴿حَقَّ إِذَا فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: كان إذا نزل الوحي كان صوته كوقع الحديد على الصفوان. قال: فيصعق أهل السماء، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالت الرسل: الحق وهو العلي الكبير. وقال عن الحارث الدمشقي، ثنا أبي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس^(٣): ﴿حَقَّ إِذَا فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبِّكُمْ﴾ قال: تنزل الأمر إلى السماء الدنيا له وقعة كوقعة السلسلة الصخرة فيفزع له جميع أهل السموات فيقولون: ماذا قال ربكم؟ ثم يرجعون إلى على أنفسهم فيقولون: الحق، وهو العلي الكبير.

ويروى من تفسير عطية عن ابن عباس^(٤): ﴿حَقَّ إِذَا فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية. قال:

(١) ابن جرير (٩٠/٢٢) عن ابن عباس. (٢) ابن أبي حاتم كما في «الدر» (٢٣٥/٥).

(٣) ابن أبي حاتم وعبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر (٢٣٥/٥).

(٤) ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر (٢٣٥/٥).

لما أوحى الله إلى محمد دعا الرسول من الملائكة ليعثه بالوحي سمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي. فلما كشف عن قلوبهم سألوها عما قال الله، فقالوا الحق، وعلموا أن الله لا يقول إلا حقاً وأنه منجزه. قال ابن عباس: وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا. فلما سمعوه خروا سجداً. فلما رفعوا رؤوسهم ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، وبإسناده من تفسير قتادة رواية عبد الرزاق، عن معمر^(١)، عنه: ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: لما كانت الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد ﷺ فنزل الوحي مثل صوت الحديد. فأفزع الملائكة ذلك، فقال الله: ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ - يقول: حتى إذا جلى عن قلوبهم - ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ويروى بإسناده من تفسير الوالبي، عن ابن عباس ﴿فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: جلى عن قلوبهم^(٢) قال: وروى عن ابن عمر، وأبي عبد الرحمن السلمي، والشعبي، والضحاك، والحسن، وإبراهيم النخعي، وقتادة، مثل ذلك^(٣).

وقد روى أحمد^(٤) وغيره، عن أبي معاوية أو عبد الرحمن، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صوته كجرّ السلسلة على الصفا، فيصعقون لذلك ويخرون سجداً، فإذا علموا أنه وحي فزع عن قلوبهم - قال: فيردّ إليهم - فنأدى أهل السموات بعضهم بعضاً: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وقد رواه أبو داود في سننه مرفوعاً إلى النبي ﷺ^(٥).

وهذا الذي جاء به الكتاب والسنة والآثار مما يصيب الملائكة عند سماع الوحي إذا قضى الله الأمر يتناول ما يقتضيه بخلقه وبقدره، وما يقضيه بشره وبأمره. فإنهم ذكروا ذلك عند تكلمه بالقرآن، وعند ما يقضيه من الحوادث التي يسمع بعضها مسترق السمع ويخبر بها الكهان. ومسترق السمع وهذا الصنف هو الغالب. فإن إرسال رسول من البشر قليل بالنسبة إلى هذه الحوادث) ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (ثم قال: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن

(١) عبد الرزاق في تفسيره (٢/٢ - ١٣٠ - ١٣١).

(٢) ابن جرير (٢٢/٩٠).

(٣) هذا كلام ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٤) السنة لعبد الله بن أحمد رقم (٥٣٦) وقد أخرجه أبو داود مرفوعاً كما مر (٤٧٣٨) وقد علقه البخاري.

(٥) البخاري معلقاً (١٣/٤٥٢ - الفتح).
(٦) الرد على المنطقيين (٥٣٠ - ٥٣٤).

عكرمة، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان [قال علي] وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبِّكُمْ﴾ قال: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ أَلْعَلُّ الْكَبِيرُ﴾ قال علي: وحدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة بهذا. قال سفيان: قال عمرو: سمعت عكرمة، حدثنا أبو هريرة. قال علي: قلت لسفيان: قال: سمعت عكرمة قال: سمعت أبا هريرة قال: نعم قلت لسفيان إن إنساناً روى عن عمرو عن عكرمة عن أبي هريرة يرفعه أنه قرأ فزع قال سفيان هكذا قرأ عمرو فلا أدري سمعه هكذا أم لا قال سفيان وهي قراءة اتنا. وما ذكره أحمد من الفترة وتكلمة بالوحي بعدها قاله طوائف من السلف كما ذكره عبد الرازق في تفسيره أنبأنا معمر عن قتادة والكلبي في قوله: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قالوا: لما كانت الفترة بين عيسى ومحمد فنزل الوحي قال قتادة: نزل مثل صوت الحديد على الصخر فأفزع الملائكة ذلك، فقال: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يقول إذا جلى عن قلوبهم ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبِّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ أَلْعَلُّ الْكَبِيرُ﴾ وهذه الآية وما فيها من الأحاديث المتعددة في الصحاح والسنن والمسند والآثار المأثورة عن السلف في تفسيرها فيها أصول من أصول الإيمان يبين بها ضلال من خالف ذلك من المتفلسفة الصابئة والجهمية ونحو هؤلاء ففيها ما دل عليه القرآن من أن الملائكة لا يشفعون إلا بعد أن يأذن الله لهم، فضلاً عن أن يتصرفوا ابتداء كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٧﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء] وقال: ﴿وَكَرَّمْنَا فِي السَّمَاءِ لِمَنْ نَشَاءُ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضُ﴾ ﴿٢١﴾ [النجم] وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿٢٨﴾ [النبا] فأخبر سبحانه أنهم لا يسبقونه بالقول ولا يعملون إلا بأمره وأنهم لا يتكلمون بالشفاعة إلا بعد أن يأذن الله لهم وأنهم مع ذلك لا يعلمون ما قال: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي جلى عن قلوبهم فأزيل الفزع كما يقال قردت البعير إذا أزلت قراده وتحوب وتحرج وتأثم وتحنت إذا أزال عن نفسه الحوب والأثم والخرج والحنث فإذا أزيل الفزع عن قلوبهم قالوا حينئذ ﴿قَالَ رَبِّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾.

وفي كل ذلك تكذيب للمتفلسفة من الصابئة ونحوهم ومن أتباعهم من أصناف المتكلمة والمتصوفة والمتفهمة الذين خلطوا الحنيفية بالصابئية فيما يزعمونه من تعظيم العقول والنفوس التي يزعمون أنها هي الملائكة وأنها متولدة عن الله لازمة لذاته وهي المدبرة للعالم بطريق التولد والتعليل لا بأمر من الله وإذن يكون إذا شاء بل يجعلون الذي يسمونه العقل الفعال هو المدبر لهذا العالم من غير أن يحدث الله نفسه شيئاً أصلاً ولهذا عبد هؤلاء الملائكة والكواكب وعظموا ذلك جداً وهذه النصوص المتواترة تكذبهم وتبين بعدهم عن الحق بمراتب متعددة خمسة وأكثر.

فإن المرتبة الأولى: أن الملائكة هل تتصرف وتتكلم كما يفعل ذلك سائر الأحياء بغير إذن من الله وأمر وقول وإن كان الله خالق أفعالهم كما هو خالق أفعال الحيوان كله فإن الحيوان من الجن والإنس والبهائم وإن كان الله خالق أفعالهم فإن أفعالهم قد تكون معصية وقد تكون غير مأمور بها ولا منهي عنها بل يتصرفون بموجب إرادتهم وإن كانت مخلوقة والملائكة ليسوا كذلك بل لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون فلا يفعلون ما يكون من جنس المباحات والمنهيات بل لا يفعلون إلا ما هو من الطاعات.

والمرتبة الثانية: أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى فلا يشفعون عنده لمن لا يحب الشفاعة له كما قد يفعله بعض من يدعو الله بما لا يحبه.

والمرتبة الثالثة: أنهم أيضاً لا يتدوّن بالشفاعة فلا يشفعون إلا بعد أن يأذن لهم في الشفاعة.

والمرتبة الرابعة: أنهم لا يستأذنون في أن يشفعوا إذ هم لا يسبقونه بالقول بل هو يأذن لهم في الشفاعة ابتداءً فيأمرهم بها فيفعلونها عبادة لله وطاعة.

والمرتبة الخامسة: أنهم يسجدون إذا سمعوا كلامه وأمره وأذنه ولم يطبقوا فهمه ابتداءً، بل خضعت وفرعت وضربت بأجنحتها وصعقت وسجدت، فإذا فرغ عن قلوبهم فجلى عنهم الفزع، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فهذه حالهم عند تكلمه بالوحي، وأما وحي كلامه الذي يبعث به رسله كما أنزل القرآن وأما أمره الذي يقضي به من أمر بكونه فذلك حاصل في أمر التشريع وأمر التكوين ولهذا قال ﷺ: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَ لَهُ حَوْجٌ إِذَا فُرِغَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ (حتى) حرف غاية يكون ما بعدها داخلاً فيما قبلها ليست بمنزلة (إلى) التي قد يكون ما بعدها خارجاً عما قبلها كما في قوله: ﴿ثُمَّ أَتَوْا النَّبِيَّ إِلَى النَّبِيِّ﴾ [البقرة: ١٨٧] وهي

سواء كانت حرف عطف أو حرف جر تتضمن ذلك وما بعدها يكون النهاية التي ينبه بها على ما قبلها فتقول قدم الحجاج حتى المشاة فقدم المشاة تنبيه على قدوم الركاب وتقول أكلت السمكة حتى رأسها فأكل رأسها تنبيه على غيره فإن أكل رؤوس السمك قد يبقى في العادة.

وهذه الآية أخبر فيها سبحانه أنه ليس لغيره ملك ولا شرك في الملك ولا معاونة له ولا شفاعاة إلا بعد إذنه فقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَال ذَرِّقْ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ثم قال: ﴿حَقِّقْ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ والضمير في قوله (عن قلوبهم) يعود إلى ما دل عليه قوله من أذن له فإن الملائكة يدخلون في قوله (من أذن له) ودل عليه قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ﴾ فإن الملائكة تدخل في ذلك، فسلبهم الملك والشركة والمعاونة والشفاعة إلا بإذنه، ثم بين ذلك حتى أنه إذا تكلم لا يشبتون لكلامه ولا يستقرون بل يفزعون ولا يفهمون، ثم إذا أزيل عنهم الفزع يقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ وذلك أن ما بعد (حتى) هنا جملة تامة وهو قوله: ﴿إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ والعامل في (إذا) هو قوله: ﴿قَالُوا مَاذَا﴾ وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان متضمن معنى الشرط، أي لما زال الفزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم والغاية بعد حتى يكون مفرداً كما تقدم، ويكون جملة ومنه قوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٦٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ﴿٦٧﴾﴾ حَقِّقْ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينُ ﴿٢٤﴾﴾ [الزحرف] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَقِّقْ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] فأخبر عن ضلال أولئك إلى تلك الغاية وعن تسيير هؤلاء إلى هذه الغاية وكذلك قوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْأَجْنِ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ آخِثًا حَقِّقْ إِذَا أَدْرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٣٨] الآية، وكذلك قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَقِّقْ إِذَا فَرِحُوا﴾ [الأنعام: ٤٤]، وكذلك قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴿[يوسف]﴾ ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ لم يعد إلى «الشفعاء» بل عاد إلى المذكورين في قوله: ﴿وَمَا لَمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكِ وَمَا لَمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ﴾ ثم بين أن هذا منف ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ فلا يعلمون ماذا قال، حتى يفزع عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه؟ ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكِ وَمَا لَمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدَبَ اللَّهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿١٨﴾، وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ويصعقون، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾». وهذا المعنى ثابت عن النبي ﷺ من غير وجه رواه البخاري من حديث أبي هريرة ورواه مسلم عن ابن عباس عن رجال من الأنصار (٣) وهو معروف من حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ، وهو عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً، وعن ابن عباس وغيره، وفيه بيان أنه لا تنفع الشفاعة عند الله إلا لمن أذن له، فلا بد من إذن مجرد التوجه إليه ينفع المشفوع له، وذلك يقتضي تجدد إذن للشفعاء، وعندهم أنه لا يحدث من الله شيء للوسائط، بل هي متولدة عنه لازمة لذاته أزلاً وأبدأ، وفيه أنه يفزع عن قلوب الملائكة أي يزال الفرع عنها) ا. هـ (٤).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾.

(فأما محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فهو رسول الله ﷺ إلى جميع الثقيلين: الجن والإنس، عربهم وعجمهم، دانيهم وقاصيهم، ملوكهم ورعيتهم، زهادهم وغير زهادهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُنَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال النبي ﷺ: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس

(١) الفتاوى (التسعينية) (٥/١١٤ - ١١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/٣٨٩).

(٣) البخاري (٤٨٠٠)، ومسلم (٤/١٧٥٠).

(٤) الصلفية (١/٢١٢ - ٢١٣).

عامّة» وهو خاتم الرسل، ليس بعده نبي ينتظر، ولا كتاب يرتقب، بل هو آخر الأنبياء، والكتاب الذي أنزل عليه مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه) ا. هـ (١).

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كَرُّ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٥﴾﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾﴾.

(والمشركون الذين وصفهم الله بالشرك أصلهم صنفان: قوم نوح، وقوم إبراهيم: فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين، ثم صوروا تماثيلهم، ثم عبدوهم.

وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر.

وكل من هؤلاء يعبدون الجن، فإن الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة، وإن كانوا في الحقيقة إنما يعبدون الجن، فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كَرُّ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٥﴾﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾﴾، والملائكة لا تعينهم على الشرك لا في المحيا ولا في الممات، ولا يرضون بذلك، ولكن الشياطين قد تعينهم وتتصور لهم في صور الآدميين فيرونهم بأعينهم ويقول أحدهم: أنا إبراهيم، أنا المسيح، أنا محمد، أنا الخضر، أنا أبو بكر، أنا عمر، أنا عثمان، أنا علي، أنا الشيخ فلان) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كَرُّ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٥﴾﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾﴾؛ يعني أن الملائكة لم تأمرهم بذلك، وإنما أمرتهم بذلك الجن، ليكونوا عابدين للشياطين التي تتمثل لهم كما يكون للأصنام شياطين) ا. هـ (٣).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بَرِيءًا أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلِكُمْ وَمِنْ فَرْدَيْكُمْ لَتَنفَكِرُوا مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

(ومحمد بعثه الله بين يدي الساعة، كما قال: بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصابعه، السبابة والوسطى). وكان إذا ذكر الساعة، علا صوته، واحمرّ وجهه، واشتد

(٢) مجموع الفتاوى (١/١٥٧).

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/٥٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/١٣٥).

غضبه، كأنه منذر جيش. وقال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، وقال: «أنا النذير العريان»^(١) ١. هـ^(٢).

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾^(٥٥).
 (وقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢] نظير قوله: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي﴾، ففي هاتين الآيتين بيّن سبحانه أن الإيمان والهدى حصل بالوحي النازل، لا بمجرد العقل الذي كان حاصلًا قبل الوحي) ١. هـ^(٣).

(١) البخاري (٦٣٨٢).

(٢) الجواب الصحيح (٥/٢٩٥ - ٢٩٦).

(٣) درء تعارض العقل (٧/٤٥٦ - ٤٥٧).

سورة فاطر

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾ .

(وأما أهل التوحيد الذين يعبدون الله مخلصين له الدين فإن في قلوبهم محبة الله لا يماثله فيها غيره، ولهذا كان الرب محموداً حمداً مطلقاً على كل ما فعله، وحمداً خاصاً على إحسانه إلى الحامد، فهذا حمد الشكر، والأول حمده على كل ما فعله كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، والحمد ضد الذم، والحمد خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته والذم خبر بمساوئ المذموم مقرون ببيغضه، فلا يكون حمد لمحمود إلا مع محبته ولا يكون ذم لمذموم إلا مع بغضه، وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبتدئها) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا﴾، وكما قال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات] ا.هـ^(٣) .
وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن من أعمال الملائكة وعبادتهم وحركاتهم كلامهم وأصنافهم ما ينافي أصولهم ويبطلها، وكذلك قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من نار وخلق آدم مما وصف لكم») ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال أبو القاسم القشيري^(٥): «وإن حسن الصوت مما أنعم الله

(٢) درء تعارض العقل (٣٥٩/٨).

(٤) بغية المرئاد (٢٣٨).

(١) منهاج السنة (٤٠٤/٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١١٩/٤).

(٥) القشيري في الرسالة، الاستقامة (٦٤١/٢).

[تعالى به] على صاحبه من الناس»، قال الله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ قيل في التفسير: من ذلك الصوت الحسن. واذم الله سبحانه الصوت الفظيع، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

قلت: كون الشيء نعمة لا يقتضي استباحة استعماله فيما شاء [الإنسان من المعاصي] [ولا يقتضي إلا] حسن استعماله، بل النعم المستعملة في طاعة الله يحمدها صاحبها عليها، ويكون ذلك شكراً لله يوجب المزيد من فضله، فهذا يقتضي حسن استعمال [الصوت الحسن] في قراءة القرآن، كما كان أبو موسى الأشعري يفعل، وكما كان النبي ﷺ يستمع لقراءته، وقال: «مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك. فقال: لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً»^(١) وقال: «لقد أوتي هذا زمزماً من مزامير آل داود»^(٢) ١. هـ^(٣).

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٤).
قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعذ بالله من الشيطان الرجيم فإن قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم، وتزيده يقيناً وطمانينة وشفاء) ١. هـ^(٤).

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(٥).

وقال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.
فالأول: حال المغضوب عليهم: الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه، كما هو موجود في اليهود) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وقد قيل في هذه الآية أن المحذوف: أفمن زين له سوء عمله فرأى الباطل حقاً، والقيح حسناً كمن هداه الله فرأى الحق حقاً والباطل باطلاً والقيح قبيحاً

- (١) هذه الزيادة ذكرها ابن الأثير في جامع الأصول (٥٣/١٠ - ٥٤) وقال الحميدي: زاد البرقاني: قلت: والله يا رسول الله لو علمت أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيراً قال وحكي أن مسلماً أخرجه ولم نجده في المطبوع ولعله يقصد أصل الحديث كما سيأتي.
(٢) البخاري (١٩٥/٦)، ومسلم (٥٤٦/١). (٣) الاستقامة (١/٣٣١ - ٣٣٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٧/٢٨٣). (٥) مجموع الفتاوى (٤/٢٠٠).

والحسن حسناً؟ وقيل: جوابه تحت قوله: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ لكن يرد عليه أن يقال: الاستفهام ما معناه إلا أن تقدر، أي هذا تقدر أن تهديه أو ربك؟ أو تقدر أن تجزيه كما قال: ﴿أَرَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ [الفرقان] ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وكما قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] وعلى هذا يكون معناها كمعنى قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَةٍ مِّن زُرِّيهِ كَمَنْ زُرِين لَّمْ سَوِّهُ عَلَيْهِ﴾ [محمد: ١٤] ا. هـ (١).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [١٦].

(ولهذا يجعل الكلام قسيماً للعمل ليس قسماً منه في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (من قال حسناً وعمل غير صالح رد الله عليه قوله، ومن قال حسناً وعمل صالحاً رفعه العمل، ذلك بأن الله يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ورواه ابن بطة من الوجهين) ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (فالأول كما يقول: الإيمان قول وعمل. ومنه قوله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»^(٤))، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ [يونس: ٦١] وأمثال ذلك مما يفرق بين القول والعمل. وأما دخول القول في العمل ففي مثل قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَذَّهِنَّ أَجْمَعِينَ﴾ [عنا كانوا يعملون^(٥)] [الحجر]، وقد فسروه بقول لا إله إلا الله. ولما سئل ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله» مع قوله: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله؛ وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»^(٥) ونظائر ذلك متعددة) ا. هـ (٦).

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١١].

(١) مجموع الفتاوى (٧٩/١٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٧٥/١٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٩٤/٧).

(٤) البخاري (٦٣٥).

(٥) البخاري (٩)، ومسلم (٥٨).

(٦) مجموع الفتاوى (٥٦٢/١٢ - ٥٦٣).

(روى الترمذي «إن الله أرى آدم ابنه داود فأعجبه، فسأل عن عمره؟ فقال: أربعين سنة فوهبه آدم من عمره ستين سنة، وكتب عليه بذلك كتاباً، ثم بعد ذلك أنكر ونسي، فجحد، فجحدت ذريته»^(١))، فقد علم أن الله قدر له أربعين سنة بلا سبب وعلم أنه يحصل له ستون بسبب هبة أبيه له.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، فمن الناس من فسر التعمير والنقص بذلك. ومنهم من فسره: بأنه يبقيه عمراً طويلاً وينقص شخصاً آخر عما عمر هذا، فيكون بالنسبة إلى شخصين) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأما قوله: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ فقد قيل أن المراد الجنس أي ما يعمر من عمر إنسان، ولا ينقص من عمر إنسان، ثم التعمير والتقصير يراد به شيان:

أحدهما: «أن هذا يطول عمره، وهذا يقصر عمره فيكون تقصيره نقصاً له بالنسبة إلى غيره، كما أن المعمر يطول عمره، وهذا يقصر عمره، فيكون تقصيره نقصاً له بالنسبة إلى غيره، كما أن التعمير زيادة بالنسبة إلى آخر.

وقد يراد بالنقص التقصير من العمر المكتوب، كما يراد بالزيادة الزيادة في العمر المكتوب. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»^(٣) وقد قال بعض الناس: إن المراد به البركة في العمر، بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير، قالوا: لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان.

فيقال لهؤلاء: تلك البركة، وهي الزيادة في العمل، والنفعة. هي أيضاً مقدرة مكتوبة، وتتناول لجميع الأشياء.

والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة. فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب وأن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب.

ونظير هذا ما في الترمذي^(٤) وغيره عن النبي ﷺ: «أن آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته فأراه إياهم، فرأى فيهم رجلاً له بصيص فقال من هذا يا

(١) الترمذي (٣٠٧٦)، وأحمد (٢٥١/١)، ٢٩٩، (٣٧١) والحديث صحيح.

(٢) مختصر الفتاوى المصرية (١٨٨). (٣) البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

(٤) مرّ تخريجه.

رب؟ فقال: ابنك داود. قال: فكم عمره؟ قال: أربعون سنة. قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنة، قال: فقد وهبت له من عمري ستين سنة فكتب عليه كتاب وشهدت عليه الملائكة فلما حضرته الوفاة قال قد بقي من عمري ستون سنة، قالوا: وهبتها لابنك داود فأنكر ذلك فأخرجوا الكتاب قال النبي ﷺ فَنَسِيَ آدَمَ فَنَسِيَتْ ذَرِيَّتَهُ، وَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذَرِيَّتَهُ» وروى أنه كمل لآدم عمره، ولداود عمره.

فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنة ثم جعله ستين وهذا معنى ما روى عن عمر أنه قال: اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيداً فإنك تمحو ما تشاء وتثبت^(١).

والله سبحانه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إياه بعد ذلك والملائكة لا علم إلا ما علمهم الله؛ والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها فلهذا قال العلماء: أن المحو والإثبات في صحف الملائكة، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالماً به، فلا محو فيه ولا إثبات، وأما اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين. والله سبحانه وتعالى أعلم) ١. هـ^(٢).

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ (١٤)

(والله سبحانه قد عاب في كتابه من يدعو من لا يستجيب له دعاءه، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٤) **﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾** (١٤) هذا مع أن الأصنام موجودة، وكان يكون فيها أحياناً شياطين تتراءى لهم وتخاطبهم) ١. هـ^(٣).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَلِمَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَنَّ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ ۗ وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ (٨)

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/٤٩٠ - ٤٩٢).

(١) ابن جرير.

(٣) منهاج السنة (١/٤٦).

(ولو قدر أن يزيد قتل الحسين لم يكن ذنب ابنه ذنباً له؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُزِدْ وَارِثَهُ وَزَرَّ أُخْرَى﴾ وقد اتفق الناس على أن معاوية رضي الله عنه يزيد برعاية حق الحسين وتعظيم قدره) ١. هـ^(١).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ ١١.

(وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ ١١) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٥﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿١٦﴾ فبين أن البصير أكمل، والنور أكمل، والظل أكمل. وحينئذ فالمتصف به أولى. ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] ١. هـ^(٢).

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ١٢.

(وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ١٢) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرٌ ﴿١٦﴾، أخبر أنه ليس أمة من الأمم إلا خلا فيها نذير، كما قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [النحل: ٣١].

ثم أخبر أن الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر والكتاب المنير، وهذا من عطف الخاص على العام، لاختصاصه بوصف يختص به، كقوله: ﴿وَمَلَكِكُمْ فِي رُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] فإن الزبر من البينات، والكتاب المنير من الزبر، وهو كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: ١٧]، فإن الهدى من العلم، والكتاب المنير من الهدى.

وبين أنه أخذ الذين كفروا بهم، وهذا أنزله ليعين عاقبة المكذبين ولهذا بنى الفعل للفاعل فقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهذه السورة مكية) ١. هـ^(٣).

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالذُّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ١٧.

(ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٣٨٣ - ٣٨٤).

(١) منهاج السنة (٤/٤٧٢).

(٣) الجواب الصحيح (٦/٣٨٣ - ٣٨٤).

والمعنى أنه لا يخشاه إلا عالم: فقد أخبر الله أن كل من خشى الله فهو عالم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنْتِ عَائَةَ أَيْلِ سَالِحًا وَقَائِمًا يَحْذُرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

والخشية أبداً متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطاً، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً؛ فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله. وقد روى عن أبي حيان التيمي^(١) أنه قال: «العلماء ثلاثة» فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله، وعالم بالله عالم بأمر الله. فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه، وفي «الصحیح» عن النبي ﷺ أنه قال: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده»^(٢).

وإذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون في الكتاب والسنة، لم يكونوا مستحقين للذم وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَكُلُّكُم لَظَلِيمٌ﴾ [١٦] ﴿وَلَسَخِّنَّاكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [٤] [إبراهيم]، وقوله: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [٤١] [الرحمن] فوعده بنصر الدنيا وبشواب الآخرة لأهل الخوف، وذلك إنما يكون لأنهم أدوا الواجب فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب، ولهذا يقال للفاجر: لا يخاف الله) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وكل من خشيه، وأطاعه، وترك معصيته: فهو عالم. كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنْتِ عَائَةَ أَيْلِ سَالِحًا وَقَائِمًا يَحْذُرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال رجل للشعبي: أيها العالم. فقال: إنما العالم من يخشى الله^(٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ يقتضي أن كل من خشى الله فهو عالم فإنه لا يخشاه إلا عالم. ويقتضي أيضاً: أن العالم من يخشى الله كما قال السلف.

قال ابن مسعود «كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار جهلاً»^(٥).

ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين حصر الأول في الثاني. وهو مطرد، وحصر

(١) روي عن سفيان بن عيينة قال: «كان يقال نقلاً عن بعض الفقهاء...» كما في شعب الإيمان (١٩١٩).

(٢) مسلم (١١١٠). (٣) مجموع الفتاوى (٧/٢١ - ٢٢).

(٤) مر الكلام عليه في سورة البقرة. (٥) مر الكلام عليه في سورة البقرة.

الثاني في الأول نحو قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ﴾ [يس: ١١] وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَهَا﴾ ﴿٥٥﴾ [النازعات] وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ [التجاف] جنوبهم عن الْمَضَاجِعِ ﴿[السجدة].

وذلك: أنه أثبت الخشية للعلماء. ونفاها عن غيرهم. وهذا كاستثناء فإنه من النفي: إثبات عند جمهور العلماء كقولنا «لا إله إلا الله» وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْسِيمًا﴾ ﴿٣٣﴾ [الفرقان].

وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه. لم يثبت له ما ذكر. ولن ينفع عنه.

وهؤلاء يقولون ذلك في صيغة الحصر بطريق الأولى. فيقولون: نفي الخشية عن غير العلماء. ولم يثبتها لهم.

والصواب: قول الجمهور. أن هذا كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِمَتَرٍ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣] فإنه ينفي التحريم عن غير هذه الأصناف ويثبتها لها، لكن أثبتها للجنس. أو لكل واحد واحد من العلماء؟ كما يقال: إنما يحج المسلمون. ولا يحج إلا مسلم. وذلك أن المستثنى هل هو مقتض أو شرط؟.

ففي هذه الآية وأمثالها: هو مقتض، فهو عام. فإن العلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخوف، فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات. وترك السيئات. وكل عاص فهو جاهل. ليس بتام العلم يبين ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل، وعدم العلم. وإذا كان كذلك فعدم العلم ليس شيئاً موجوداً بل هو مثل عدم القدرة وعدم السمع والبصر. وسائر الأعدام.

والعدم: لا فاعل له. وليس هو شيئاً، وإنما الشيء الموجود والله تعالى خالق كل شيء فلا يجوز أن يضاف العدم المحض إلى الله لكن قد يقترن به ما هو موجود.

فإذ لم يكن عالماً بالله، لا يدعو إلى الحسنات وترك السيئات.

والنفس بطبعها متحولة. فإنها حية والإرادة والحركة الإرادية من لوازم الحياة ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح «أصدق الأسماء: حارث وهمام» فكل آدمي حارث وهمام أي عامل كاسب وهو همام أي يهيم ويريد فهو متحرك بالإرادة.

وقد جاء في الحديث: «مثل القلب: مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة والقلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً»^(١).

فلما كانت الإرادة والعمل من لوازم ذاتها فإذا هداها الله: علمها ما ينفعها وما يضرها. فأرادت ما ينفعها، وتركت ما يضرها) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فلا يخشاه إلا عالم فكل خاش لله فهو عالم. هذا منطوق الآية.

وقال السلف وأكثر العلماء إنها تدل على أن كل عالم فإنه يخشى الله، كما دل غيرها على أن كل من عصى الله فهو جاهل.

كما قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد عن قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ [النساء: ١٧] فقالوا لي: «كل من عصى الله فهو جاهل» وكذلك قال مجاهد والحسن البصري^(٣) وغيرهم من العلماء التابعين ومن بعدهم.

وذلك أن الحصر في معنى الاستثناء، والاستثناء من النفي إثبات عند جمهور العلماء فنفي الخشية عن من ليس من العلماء؛ وهم العلماء به الذين يؤمنون بما جاءت به الرسل، يخافونه.

قال تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنْتٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وأثبتها للعلماء.

فكل عالم يخشاه. فمن لم يخش الله فليس من العلماء، بل من الجهال، كما قال عبد الله بن مسعود: «كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً»^(٤) وقال رجل للشعبي: «أيها العالم» فقال: «إنما العالم من يخشى الله»^(٥) ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (منه قول ابن مسعود: كفى بخشية الله علماً وكفى بالإغترار بالله جهلاً، وقيل للشعبي: أيها العالم! فقال: العالم من يخشى الله، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وقال أبو حيان التيمي: «العلماء ثلاثة» عالم بالله؛ وبأمر الله؛ وعالم بالله ليس عالماً بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله فالعالم بالله الذي يخشاه، والعالم بأمر الله الذي يعلم حدوده وفرائضه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا

- | | |
|------------------|-----------------------------------|
| (١) مرّ تخريجه. | (٢) مجموع الفتاوى (١٤/٢٩٢ - ٢٩٥). |
| (٣) مرّ تخريجها. | (٤) مرّ تخريجها. |
| (٥) مرّ تخريجها. | (٦) مجموع الفتاوى (١٦/١٧٧ - ١٧٩). |

يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿١﴾ وهذا يدل على أن كل من خشي الله فهو عالم وهو محق ولا يدل على أن كل عالم يخشاه؛ لكن لما كان العلم به موجبا للخشية عند عدم المعارض كان عدمه دليلاً على ضعف الأصل؛ إذ لو قوي لدفع المعارض) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال طائفة من السلف: العلماء به فإن من جعله غير قادر على إحداث فعل، ولا تغيير شيء من العالم، بل لزمه ما لا يمكنه مفارقتة: لم يخشه إنما يخشى الكواكب والأفلاك التي تفعل الآثار الأرضية عنده أو ما كان نحو ذلك، ولهذا عبدها هؤلاء من دون الله ولهذا كان دعاؤهم لها وخشيتهم منها) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وخشيته من الله لكمال علمه؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾) ا.هـ (٣).

وقال الحافظ ابن رجب:

(الوجه الثالث: أن (إن) المكفوفة (بما) استعملت في الحصر فصارت حقيقة عرفية فيه واللفظ يصير له بالاستعمال معنى غير ما كان يقتضيه أصل الوضع وهكذا يقال في الاشتثناء فإنه وإن كان في الأصل للإخراج من الحكم لكن صار حقيقة عرفية في مناقضة المستثنى فيه وهذا شبيه بنقل اللفظ عن المعنى الخاص إلى العام إذا صار حقيقة عرفية فيه لقولهم «لا أشرب له شربة ماء» ونحو ذلك ولنقل الأمثال السائرة ونحوها مما ليس هذا موضوع بسطه وهذا الجواب ذكره أبو العباس ابن تيمية في بعض كلامه القديم وهو يقتضي أن دلالة (إنما) على الحصر إنما هو بطريق العرف والاستعمال لا بأصل وضع اللغة. وهو قول حكاه غيره في المسألة) ا.هـ (٤).

وقال ابن رجب: (وأما دلالة الآية على الثالث وهو نفي العلم من غير أهل الخشية فمن جهة الحصر أيضاً فإن الحصر المعروف المطرد فهو حصر الأول في الثاني وهو هنا حصر الخشية في العلماء وأما حصر الثاني في الأول فقد ذكره الشيخ أبو العباس ابن تيمية رحمته الله) ا.هـ (٥).

(١) مجموع الفتاوى (٥٣٩/٧). (٢) درء تعارض العقل (٣٨٢/١٠).

(٣) منهاج السنة (١٣/٦).

(٤) تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ لابن رجب (٣٧).

(٥) تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ لابن رجب (٤٤).

وقال ابن رجب: (والجهة الثانية: أن المحصور هل هو مقتضى للمحصور فيه أو هو شرط له قال الشيخ أبو العباس رحمته الله وفي هذه الآية وأمثالها هو مقتضى فهو عام فإن العلم بما أُنذرت به الرسل يوجب الخوف ومراده بالمقتضى - العلة المقتضية - وهي التي يتوقف تأثيرها على وجود شروط وانتفاء موانع كأسباب الوعد والوعيد ونحوهما فإنها مقتضيات وهي عامة ومراده بالشرط ما يتوقف تأثير السبب عليه بعد وجود السبب وهو الذي يلزم من عدمه عدم المشروط ولا يلزم من وجوده وجود المشروط كالإسلام بالنسبة إلى الحج والمانع بخلاف الشرط وهو ما يلزم من وجوده العدم ولا يلزم من عدمه الوجود وهذا الفرق بين السبب والشرط وعدم المانع إنما يتم على قول من يجوز تخصيص العلة وأما من لا يسمى علة عندهم الشرط وعدم المانع من جملة أجزاء العلة والمقصود هنا أن العلم إذا كان سبباً مقتضياً للخشية كان ثبوت الخشية عاماً لجميع أفراد العلماء لا يتخلف إلا لوجود مانع ونحوه) ١. هـ^(١).

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا فُجُورٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾، فقد قسم سبحانه الأمة التي أورثها الكتاب واصطفاهـا «ثلاثة أصناف»: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة في حديث جبريل: «الإسلام» و«الإيمان» و«الإحسان» كما سنذكره إن شاء الله ومعلوم أن الظالم لنفسه إن أريد به من اجتنب الكبائر والتائب من جميع الذنوب فذلك مقتصد أو سابق، فإنه ليس أحد من بني آدم يخلو عن ذنب، لكن من تاب كان مقتصداً، أو سابقاً كذلك من اجتنب الكبائر كفرت عنه السيئات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ جَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] فلا بد أن يكون هناك ظالم لنفسه موعود بالجنة ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقُونَ﴾ لابن رجب (٤٧ - ٤٨).

ذكر: أن ما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب مما يجزى به، ويكفر عنه خطاياها كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها»^(١) وفي المسند وغيره أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر: يا رسول الله! جاءت قاصمة الظهر، وأينا لم يعمل سوءاً فقال: «يا أبا بكر ألسنتنصب؟ ألسنتنحزن؟ ألسنتنصيبك اللأواء؟ فذلك مما تجزون به»^(٢) ا. هـ^(٣).

قال رحمه الله: (وهكذا جاء القرآن، فجعل الأمة على هذه الأصناف الثلاثة. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِرُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [٣٣]) فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان هو الظالم لنفسه، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذي أدى الواجب وترك المحرم والسابق بالخيرات هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه.

وقد ذكر الله سبحانه تقسيم الناس في المعاد إلى هذه الثلاثة في سورة (الواقعة) (والمطففين) و(هل أتى) وذكر الكفار أيضاً، وأما هنا فجعل التقسيم للمصطفين من عباده) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقد ذكر الله تعالى: «أولياءه» المقتصدين والسابقين في سورة فاطر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِرُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [٣٣] جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ [٣٤] وَقَالُوا لَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ [٣٥] الَّذِي أَطَّلَعْنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ [٣٦]) لكن هذه الأصناف الثلاثة في هذه الآية هم أمة محمد ﷺ خاصة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِرُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [٣٣]، وأمة محمد ﷺ هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمم المتقدمة، وليس ذلك مختصاً بحفاظ القرآن؛ بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء، وقسمهم إلى ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق؛ بخلاف الآيات التي في الواقعة والمطففين والانفطار، فإنه

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٨٥ - ٤٨٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٨).

دخل فيه جميع الأمم المتقدمة كافرهم ومؤمنهم، وهذا التقسيم لأمة محمد ﷺ
 في «الظالم لنفسه» أصحاب الذنوب المصرون عليها، ومن تاب من ذنبه أي ذنب كان
 توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين، و«المقتصد» المؤدي للفرائض المجتنب
 للمحارم و«السابق للخيرات» هو المؤدي للفرائض والنوافل، كما في تلك الآيات،
 ومن تاب من ذنبه أي ذنب كان توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين
 والمقتصدين كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالْفُرْءِ وَالْكُظَيْنِ الْفَيْضِ
 وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ
 ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ
 يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 وَيَقَمُّ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ [آل عمران] و«المقتصد» المؤدي للفرائض المجتنب للمحارم،
 و«السابق بالخيرات» هو المؤدي للفرائض والنوافل كما في تلك الآيات.

وقوله: ﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ مما يستدل به أهل السنة على أنه لا يخلد في النار
 أحد من أهل التوحيد.

وأما دخول كثير من أهل الكبائر النار فهذا مما تواترت به السنن عن النبي ﷺ
 كما تواترت بخروجهم من النار وشفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر وإخراج من
 يخرج من النار بشفاعة نبينا ﷺ وشفاعة غيره. فمن قال: إن أهل الكبائر مخلدون في
 النار وتأول الآية على أن السابقين هم الذين يدخلونها وأن المقتصد أو الظالم لنفسه لا
 يدخلها، كما تأوله من المعتزلة فهو مقابل بتأويل المرجئة الذين لا يقطعون بدخول أحد
 من أهل الكبائر النار، ويزعمون أنه^(١) أهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير
 عذاب، وكلاهما مخالف للسنن المتواترة عن النبي ﷺ وإجماع سلف الأمة وأئمتها.

وقد دل على فساد قول «الطائفتين» قول الله تعالى في آيتين من كتابه وهو قوله
 تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] فأخبر
 تعالى أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه لمن يشاء، ولا يجوز أن يراد بذلك
 التائب كما يقوله من يقول من المعتزلة لأن الشرك يغفره الله لمن تاب وما دون الشرك

(١) كذا في الأصل، ولعل اسم «أن» ضمير الشأن.

يغفره الله أيضاً للتائب فلا تعلق بالمشيئة؛ ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَفْتُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٧﴾ [الزمر]. فهنا عمم المغفرة وأطلقها، فإن الله يغفر للعبد أي ذنب تاب منه، فمن تاب من الشرك غفر الله له، ومن تاب من الكبائر غفر الله له، وأي ذنب تاب العبد منه غفر الله له. ففي آية التوبة عمم وأطلق، وفي تلك الآية خصص وعلق فخص الشرك بأنه لا يغفره، وعلق ما سواه على المشيئة ومن الشرك التعطيل للخالق وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب. ونبه بالشرك على ما هو أعظم منه كتعطيل الخالق، أو يجوز أن لا يعذب بذنب؛ فإنه لو كان كذلك لما ذكر أنه يغفر البعض دون البعض، ولو كان كل ظالم لنفسه مغفوراً له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم يعلق ذلك بالمشيئة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] دليل على أنه يغفر البعض دون البعض، فبطل النفي والوقف العام) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (ما نقل في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للوجبات، والمنتهك للمحرمات والمقتصد يتناول فاعل الواجبات، وتارك المحرمات، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات. فالمقتصدون هم أصحاب اليمين، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿١١﴾ [الواقعة].

ثم إن كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل: السابق الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصرار، ويقول الآخر: السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة فإنه ذكر المحسن بالصدقة، والظالم بأكل الربا، والعاذل بالبيع، والناس في الأموال إما محسن، وإما عاذل، وإما ظالم، فالسابق المحسن بأداء المستحبات مع الواجبات، والظالم أكل الربا أو مانع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة، ولا يأكل الربا وأمثال هذه الأقاويل) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (ومن هذا ما جاء عنهم في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾

وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴿١﴾، فالقول الجامع أن «الظالم لنفسه» هو المفرد بترك مأمور أو فعل محذور و«المقتصد»: القائم بأداء الواجبات وترك المحرمات، و«السابق بالخيرات»: بمنزلة المقرب الذي يتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض حتى يحبه الحق. ثم إن كلاً منهم يذكر نوعاً من هذا. فإذا قال القائل: «الظالم» المؤخر للصلاة عن وقتها، و«المقتصد» المصلي لها في وقتها، و«السابق» المصلي لها في أول وقتها حيث يكون التقديم أفضل.

وقال آخر: «الظالم لنفسه» هو البخيل الذي لا يصل رحمه ولا يؤدي زكاة ماله، و«المقتصد» القائم بما يجب عليه من الزكاة وصلة الرحم وقرى الضيف والإعطاء في النائبة، و«السابق» الفاعل المستحب بعد الواجب كما فعل (الصديق الأكبر) حين جاء بماله كله؛ ولم يكن مع هذا يأخذ من أحد شيئاً.

وقال آخر: «الظالم لنفسه» الذي يصوم عن الطعام، لا عن الآثام، و«المقتصد» الذي يصوم عن الطعام والآثام و«السابق» الذي يصوم عن كل ما لا يقربه إلى الله تعالى - وأمثال ذلك - لم يكن هذه الأقوال متنافية بل كل ذكر نوعاً مما تناولته الآية) ١. هـ (١).

وقال رحمه الله: (فقد بين النبي ﷺ أن أولياء الله نوعان: المقربون السابقون، والأبرار أصحاب اليمين، هم الذين تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض. والآخرهم هم المؤدون للفرائض المجتنبون للمحارم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَتَبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴿١﴾ فالظالم لنفسه: هو صاحب الذنوب والخطايا؛ والمقتصد هو الذي يفعل مما فرضه الله عليه ويترك ما حرّمه الله عليه؛ والسابق بالخيرات: هو الذي لا يزال يتقرب إلى الله بما يقدر عليه من النوافل بعد الفرائض، وهؤلاء هم المتبعون لخاتم المرسلين وإمام المتقين وأفضل خلق الله أجمعين محمد ﷺ تسليماً) ١. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَتَبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١﴾ والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه) ١. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَتَبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ

(١) مجموع الفتاوى (١٦١/٥ - ١٦٢).

(٢) جامع المسائل (١/٨٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٧).

ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مَّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴿١﴾. فهذا ظلم لنفسه مقرون بغيره، فلا يدخل فيه الشرك الأكبر) ١. هـ (١).

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧﴾﴾.

(والتذكر اسم جامع لكل ما أمر الله بتذكيره، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي قامت الحجة عليكم بالندير الذي جاءكم، وبتعميركم عمراً يتسع للتذكر) ١. هـ (٢).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُم كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَبُدُّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤﴾﴾.

(فطالبهم [بحجة] عقلية عيانية وبحجة سمعية شرعية فقال: ﴿أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾، ثم قال: ﴿أَمْ آتَيْنَهُم كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾، كما قال هناك: ﴿أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾، ثم قال: ﴿أَتُنذِرِي يَكْتَسِبُ مِنَ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُنذِرِي مَن عَلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٤]، فالكتاب المنزل؛ والأشارة ما يؤثر عن الأنبياء بالرواية والإسناد. وقد يقيد في الكتب؛ فلهذا فسر بالرواية وفسر بالخط) ١. هـ (٣).

﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِن إِيحَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٣﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾، فأخبر أن الكفار لا ينظرون إلا سنة الأولين، ولا يوجد لسنة الله تبديل، تستبدل بغيرها، ولا تتحول، فكيف النصر للكفار على المؤمنين الذين يستحقون هذا الاسم؟) ١. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (ولكن العادة التي لا تنتقض بحال ما أخبر الله أنها لا

(١) مجموع الفتاوى (٧/٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/١٨٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/٤٢٥ - ٤٢٦).

(٤) الجواب الصحيح (٦/٤٢٠).

تنتقض، كقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنْتَفِقُوا وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُثَفُوا أُخَذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا ﴿١٦﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب] [و] قال: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلْيًا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح]، وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، فهذه سنة الله وعادته في نصر عباده المؤمنين - إذا قاموا بالواجب - على الكافرين، وانتقامه وعقوبته للكافرين الذين بلغتهم الرسل بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين. هي سنة الله التي لا توجد منتقضة قط. وكما قال قبل هذا: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿١٧٨﴾﴾ [الأحزاب]. لم يقل هنا «ولن تجد» لأن هذه سنة شرعية لا ترى بالمشاهدة، بل تعلم بالوحي. بخلاف نصره للمؤمنين وعقوبته للمنذرين، فإنه أمر مشاهد، فلن يوجد منتقضا.

وقد أراد بعض الملاحدة كالسهروردي المقتول في كتابه «المبدأ والمعاد» الذي سماه «الألواح العمدانية» أن يجعل له دليلاً من القرآن والسنة على إلحاده. فاستدل بهذه الآية على أن العالم لا يتغير، بل لا تزال الشمس تطلع وتغرب لأنها عادة الله. فيقال له: انخراق العادات أمر معلوم بالحس والمشاهدة بالجملة. وقد أخبر في غير موضع أنه سبحانه لم يخلق العالم عبثاً وباطلاً، بل لأجل الجزاء. فكان هذا من سنته الجميلة، وهو جزاؤه الناس بأعمالهم في الدار الآخرة، كما أخبر به من نصر أوليائه وعقوبة أعدائه. فبعث الناس للجزاء هو من هذه السنة. وهو لم يخبر بأن كل عادة لا تنتقض، بل أخبر عن السنة التي هي عواقب أفعال العباد بإثابته أوليائه ونصرهم على الأعداء. فهذه هي التي أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل، كما قال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

وذلك لأن العادة تتبع إرادة الفاعل، وإرادة الفاعل الحكيم هي إرادة حكيمة، فتسوى بين المتماثلات، ولن يوجد لهذه السنة تبديل ولا تحويل، وهو إكرام أهل ولايته وطاعته ونصر رسله والذين آمنوا على المكذبين. فهذه السنة تقتضيها حكمته سبحانه،

فلا انتقاض لها، بخلاف ما اقتضت حكمته تغييره. فذاك، تغييره من الحكمة أيضاً ومن سنته التي لا يوجد لها تبديل ولا تحويل. لكن في هذه الآيات رد على من يجعله يفعل بمجرد إرادة ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح. فإن هؤلاء ليس عندهم له سنة لا تبدل، ولا حكمة تقصد. وهذا خلاف النصوص والعقول. فإن السنة تقتضي تماثل الأحاد، وأن حكم الشيء حكم نظيره، فيقتضى التسوية بين المتماثلات. وهذا خلاف قولهم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ولكن في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ حجة للجمهور القائلين بالحكمة، فإن أصحاب المشيئة المجردة يجوزون نقض كل عادة، ولكن يقولون: إنما نعلم ما يكون بالخبر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ دليل على أن هذا من مقتضى حكمته، وأنه يقضي في الأمور المتماثلة بقضاء تماثل لا بقضاء مخالف، فإذا كان قد نصر المؤمنين لأنهم مؤمنون، كان هذا موجباً لنصرهم حيث وجد هذا الوصف، بخلاف ما إذا عصوا ونقضوا إيمانهم^(٢) كيوم أحمد فإن الذنب كان لهم، ولهذا قال: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فعم كل سنة له، وهو يعم سنته في خلقه وأمره، في الطبيعيات والدينيات... ١. هـ^(٣).

(١) الرد على المنطقيين (٣٩٠ - ٣٩١).

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «نقضوا إيمانهم» أو «نقضوا أيمانهم».

(٣) جامع الرسائل (١/٥٤).

سورة يس

وقال في عموم السورة:

(والرسل المذكورون في سورة «يس» هم ثلاثة، وكان في القرية رجل آمن بهم، وهذه وإن كانت أنطاكية فكان هذا الإرسال قبل المسيح، والمسيح ﷺ ذهب إلى أنطاكية اثنان من أصحابه بعد رفعه إلى السماء ولم يعزوا بثالث ولا كان حبيب النجار موجوداً إذ ذلك، وآمن أهل أنطاكية بالمسيح ﷺ وهي أول مدينة آمنت به كما قد بسط في غير هذا الموضع) ا.هـ^(١).

﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿١﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٤﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾﴾

(وقال في سورة يس: ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾﴾، ذكر تعالى في هذه الآيات الثلاث نعمته على هؤلاء وحجته عليهم بإرساله، وذكر بعض حكمته في إرساله، وذلك لا يقتضي أنه لم يرسل إلّا لهذا بل مثل هذا كثير معروف في لسان العرب وغيرهم) ا.هـ^(٢).

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾﴾

(﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾ فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين، وأحقهم بالإنذار، فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانقضاء إنذار من سواهم) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (أن قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾﴾ يقتضي أنه ينذر الأميين، وليس فيه أنه لا ينذر غيرهم) ا.هـ^(٤).

(٢) الجواب الصحيح (١/٤٢٨).

(١) الجواب الصحيح (٢/٩٦ - ٩٧).

(٤) الجواب الصحيح (٣/١٥٢).

(٣) الجواب الصحيح (١/٤٣٩).

وقال في رده على النصارى في زعمهم أن رسول الله بعث للأمين فقط:

(فإن قيل: فقد سكت عن ما سوى الأمين في هذا، فيشعر بالنفي بدليل الخطاب الذي يسمى مفهوم المخالفة. قيل: ذاك إنما يدل إذا لم يكن في التخصيص فائدة سوى الاختصاص بالحكم، ولم يكن هنا تصريح بأن حكم المسكوت كحكم المنطوق، وهنا لما بعث الله محمداً ﷺ، أمره أن ينذر عشيرته الأقربين أولاً، ثم ينذر العرب الأمين، ثم أهل الكتاب والمجوس وغيرهم، وقد تقدم بسط هذا) ا.هـ^(١).

وفي رده على النصارى الذين زعموا أن المرسلين هنا الحواريون:

(أنه ليس في القرآن آية تنطق بأن الحواريين رسل الله، بل ولا صرح في القرآن بأنه أرسلهم، لكن قال في سورة يس: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِشَالِكٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ مِثْلَنَا وَمَا أُنزِلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفِقُونَ أَنْفِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مِن لَّا يَسْتَأْذِنُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهِتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدَنَّ الرَّحْمَنُ يَضِرَّ لَّا تَنْفَعُ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْفِقُونَ ﴿٢٣﴾ إِنْ لِي إِذًا لِي ضَلَالٌ مُّبِينٌ ﴿٢٤﴾ إِنْ تِ أَمْسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَنْحَسِرُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾، فهذا كلام الله ليس فيه ذكر أن هؤلاء المرسلين كانوا من الحواريين، ولا أن الذين أرسلوا إليهم آمنوا بهم، وفيه أن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم هؤلاء الثلاثة أنزل الله عليهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون.

وقد ذكر طائفة من المفسرين، أن هؤلاء كانوا من الحواريين، وأن القرية إنطاكية وأن هذا الرجل اسمه حبيب النجار، ثم إن بعضهم يقول: إن المسيح أرسلهم في حياته، لكن المعروف عند النصارى، أن أهل إنطاكية آمنوا بالحواريين واتبعواهم لم يهلك الله أهل إنطاكية.

(١) الجواب الصحيح (٣/١٥٢ - ١٥٣).

والقرآن يدل على أن الله أهلك هذا الرجل الذي آمن بالرسول.

وأيضاً فالنصارى يقولون: إنما جاءوا إلى أهل إنطاكية بعد رفع المسيح، وأن الذين جاءوا كانوا اثنين لم يكن لهما ثالث. قيل:

أحدهما: شمعون الصفا، والآخر: بولص، ويقولون: إن أهل إنطاكية آمنوا بهم، ولا يذكرون حبيب النجار، ولا مجيء رجل من أقصى المدينة، بل يقولون: إن شمعون وبولص، دعوا الله حتى أحيا ابن الملك، فالأمر المنقول عند النصارى، أن هؤلاء المذكورين في القرآن، ليسوا من الحواريين، وهذا أصح القولين عند علماء المسلمين، وأئمة المفسرين وذكروا أن المذكورين في القرآن في سورة يس، ليسوا من الحواريين، بل كانوا قبل المسيح، وسموهم بأسماء غير الحواريين، كما ذكر محمد بن إسحاق، قال سلمة بن الفضل: كان من حديث صاحب يس فيما حدثني محمد بن إسحاق، عن ابن عباس، وعن كعب، وعن وهب بن منبه، أنه كان رجلاً من أهل إنطاكية، وكان اسمه حبيباً، وكان يعمل الحرير، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان منزله عند باب من أبواب المدينة، يتاجر وكان مؤمناً ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمسى فيما يذكرون فيقسمه نصفين، فيطعم نصفه عياله، ويتصدق بنصفه وكان بالمدينة التي هو بها، مدينة إنطاكية، فرعون من الفراعنة يقال له: إنطخس بن أنطخس، يعبد الأصنام، صاحب شرك، فبعث الله إليه المرسلين وهم ثلاثة: صادق وصدوق، وشلوم، فقدم الله إليه وإلى أهل المدينة منهم اثنين فكذبوهما، ثم عزز الله بالثالث.

وروى الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٢﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ...﴾، لكي تكون الحجة عليهم أشد، فأتوا أهل القرية فدعوهم إلى الله وحده، وعبادته لا شريك له، فكذبوهم، فأتوا على رجل في ناحية القرية في زرع له فسألهم الرجل: ما أنتم؟ قالوا: نحن رسل رب العالمين، أرسلنا إلى أهل هذه القرية ندعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قال لهم: أتسألون على ذلك أجراً؟ قالوا: لا. قال: فألقى ما في يده، ثم أتى أهل المدينة فقال: ﴿يَقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٤﴾﴾، وهذا القول هو الصواب، وأن هؤلاء المرسلين كانوا رسلاً لله قبل المسيح، وأنهم كانوا قد أرسلوا إلى إنطاكية وآمن بهم حبيب النجار، فهم كانوا قبل

المسيح، ولم تؤمن أهل المدينة بالرسول بل أهلكهم الله تعالى كما أخبر في القرآن ثم بعد هذا عمرت إنطاكية وكان أهلها مشركين حتى جاءهم من جاءهم من الحواريين فأمنوا بالمسيح على أيديهم ودخلوا في دين المسيح.

ويقال: إن إنطاكية أول المدائن الكبار الذين آمنوا بالمسيح ﷺ، وذلك بعد رفعه إلى السماء. ولكن ظن من ظن من المفسرين أن المذكورين في القرآن هم رسل المسيح. وهم من الحواريين وهذا غلط لوجه:

منها: أن الله قد ذكر في كتابه أنه أهلك الذين جاءتهم الرسل، وأهل إنطاكية لما جاءهم من دعاهم إلى دين المسيح آمنوا ولم يهلكوا.

ومنها: أن الرسل في القرآن ثلاثة، وجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى، والذين جاءوا من أتباع المسيح كانوا اثنين، ولم يأتهم رجل يسعى، لا حبيب ولا غيره.

ومنها: أن هؤلاء جاءوا بعد المسيح فلم يكن الله أرسلهم، وهذا كما أن الله ذكر في القرآن أنه أهلك أهل مدين بالظلة لما جاءهم شعيب. وذكر في القرآن أن موسى أتاها وتزوج بنت واحد منها فظن بعض الناس أنه شعيب النبي، وهذا غلط عند علماء المسلمين مثل ابن عباس، والحسن البصري، وابن جريج وغيرهم كلهم ذكروا أن الذي صاهره موسى ليس هو شعيباً النبي، وحكى أنه شعيب عمن لا يعرف من العلماء ولم يثبت عن أحد من الصحابة والتابعين، كما بسطناه في موضعه.

وأهل الكتاب يقرون بأن الذي صاهره موسى ليس هو شعيباً بل رجل من أهل مدين، ومنهم من يقول: إنها غير مدين التي أهلك الله أهلها، والله أعلم.

وكذلك ذكر المفسرون في المرسلين هل أرسلهم الله، أو أرسلهم المسيح؟ قولين: أحدهما: أن الله هو الذي أرسلهم.

قال أبو الفرج ابن الجوزي: وهذا ظاهر القرآن، وهو مروى عن ابن عباس وكعب، ووهب بن منبه قال: وقال المفسرون في قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أخذ جبريل بعضادتي باب المدينة وصاح بهم صيحة واحدة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حس كالنار إذا أطفئت وذلك قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ حَمِيدُونَ﴾ أي ساكنون كهيئة الرماد الخامد^(١).

(١) زاد المسير (٧/١١ - ١٤).

ومعلوم عند الناس أن أهل إنطاكية لم يصبهم ذلك بعد مبعث المسيح بل آمنوا قبل أن يُبدّل دينه، وكانوا مسلمين مؤمنين به على دينه إلى أن تبدل دينه بعد ذلك، ومما يبين ذلك أن المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبي الأمم بعذاب من السماء يعمهم، كما أهلك قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون وغيرهم، بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار، كما أمر بني إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة، وهذه القرية أهلك الله أهلها بعذاب من السماء، فدل ذلك على أن هؤلاء الرسل المذكورين في يس كانوا قبل موسى ﷺ وأيضاً فإن الله لم يذكر في القرآن رسولا أرسله غيره، وإنما ذكر الرسل الذين أرسلهم هو، وأيضاً فإنه قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِكِ﴾ فأخبر أنه أرسلهم، كما أخبر أنه أرسل نوحاً وموسى وغيرهما وفي الآية: ﴿قَالُوا مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ومثل هذا هو خطاب المشركين لمن قال: إن الله أرسله وأنزل عليه الوحي لا لمن جاء رسولا من عند رسول، وقد قال بعد هذا: ﴿يَحْزَنُونَ عَلَى الْبَيْدِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٥)، وهذا إنما هو في الرسل الذين جاءهم من عند الله لا من عند رسله. وأيضاً: فإن الله ضرب هذا مثلاً لمن أرسل إليه محمداً ﷺ يحذرهم أن ينتقم الله منهم، كما انتقم من هؤلاء، ومحمد إنما يضرب له المثل برسول نظيره لا بمن أصحابه أفضل منهم، فإن أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً أفضل من الحواريين باتفاق علماء المسلمين، ولم يبعث الله بعد المسيح رسولا بل جعل ذلك الزمان زمان فترة كقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، وأيضاً فإنه قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِكِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ (١٦) قَالُوا مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا، ولو كانوا رسل رسول لكان التكذيب لمن أرسلهم، ولم يكن في قولهم: إن أنتم إلا بشر مثلنا شبهة، فإن أحداً لا ينكر أن يكون رسل رسل الله بشراً، وإنما أنكروا أن يكون رسول الله بشراً، وأيضاً فلو كان التكذيب لهما وهما رسل الرسول لأمكنهما أن يقولوا: فأرسلوا إلى من أرسلنا، أو إلى أصحابه فإنهم يعلمون صدقنا في البلاغ عنه، بخلاف ما إذا كانا رسل الله، وأيضاً فقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾. صريح في أن الله هو المرسل ومن أرسلهم غيره إنما أرسلهم ذلك لم يرسلهم الله كما لا يقال لمن أرسله محمد بن عبد الله أنهم رسل الله فلا يقال لدحية بن خليفة الكلبي أن الله أرسله، ولا يقال ذلك للمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن حذافة وأمثالهما

ممن أرسلهم الرسول وذلك أن النبي ﷺ أرسل رسله إلى ملوك الأرض، كما أرسل دحية بن خليفة إلى قيصر وأرسل عبد الله بن حذافة إلى كسرى، وأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، كما تقدم ذكر ذلك.

ومعلوم أنه لا يقال في هؤلاء إن الله أرسلهم، ولا يسمون عند المسلمين رسل الله، ولا يجوز باتفاق المسلمين أن يقال هؤلاء داخلون في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فإذا كانت رسل محمد ﷺ لم يتناولهم اسم رسل الله في الكتاب الذي جاء به. فكيف يجوز أن يقال: إن هذا الاسم يتناول رسل رسول غيره، والمقصود هنا بيان معاني القرآن وما أراده الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [١٢] إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ، هل مراد الله ورسوله محمد ﷺ من أرسلهم الله، أو من أرسلهم رسوله، وقد علم يقيناً أن محمداً ﷺ لم يدخل في مثل هذا فمن قال: إن محمداً ﷺ أراد بذلك من أرسله رسول فقد كذب على محمد ﷺ عمداً أو خطأ) ١. هـ^(١).

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ [١٢]

(قال الضحاك^(٢): في قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] يقول: من قبل الله، ما أصابكم من أمر فمن الله. بما كسبت أيديكم، وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس^(٣): «معاييكم»، وقال قتادة^(٤): «عملكم عند الله».

وفي رواية غير علي^(٥): عملكم عند الله ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٤٧]، أي يتبلون بطاعة الله ومعصيته. رواهما ابن أبي حاتم وغيره، وعن ابن إسحاق قال: قالت الرسل ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾: أي أعمالكم.

فقد فسروا «الطائر» بالأعمال وجزائها لأنهم كانوا يقولون: إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم، فبين الله سبحانه: أن طائرهم - وهو الأعمال وجزاؤها - هو عند الله. وهو معهم. فهو معهم لأن أعمالهم وما قدر من جزائها معهم كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] وهو من الله، لأن الله

(١) الجواب الصحيح (٢/٢٤٤ - ٢٥٥).

(٢) لم أجده ولعله عند ابن أبي حاتم، وهذا القسم من المفقود.

(٣) ابن جرير (١٧١/١٩) ولفظه مصائبكم والله أعلم.

(٤) ابن جرير (١٧١/١٩) في المطبوع «علمكم» والله أعلم.

(٥) لم أجده ولعله عند ابن أبي حاتم، وعلي يعني ابن أبي طلحة.

تعالى قدر تلك المصائب بأعمالهم. فمن عنده تنزل عليهم المصائب، جزاء على أعمالهم، لا بسبب الرسل وأتباعهم) ا. هـ^(١).

﴿إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١٤﴾ .

(وقال صاحب يس: ﴿أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً إِنْ يُرِدُنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ ﴿١٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٤﴾ ، ولهذا يأمر الله بالتوكل عليه وحده في غير موضع. وفي الأثر: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَحْيِي بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُدُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ ﴿٥٨﴾ [الفرقان] ا. هـ^(٢).

قال رحمه الله راداً على النصارى:

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾ ﴿١٦﴾ .

(وأما شياع كون حمى موسى شعبياً النبي عند كثير من الناس الذين لا خبرة لهم بحقائق العلم ودلائله وطرقه السمعية والعقلية، فهذا مما لا يغتر به عاقل، فإن غاية مثل ذلك أن يكون منقولاً عن بعض المنتسبين إلى العلم، وقد خالفه غيره من أهل العلم وقول العالم الذي يخالفه نظيره ليس حجة، بل يجب رد ما تنازعا فيه إلى الأدلة.

ومثال ذلك ما ذكره بعضهم، أو كثير منهم، من أن الرسل المذكورين في سورة يس هم من حواربي المسيح ﷺ وأن حبيباً النجار آمن بهم وهذا أمر باطل عند أجلاء علماء المسلمين وعند أهل الكتاب، فإن الله قد أخبر عن هذه القرية التي جاءها المرسلون أنه قد أهلك أهلها فقال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ، وأنطاكية لما جاءها اثنان من الحواريين بعد رفع المسيح آمنوا بهما، وهي أول مدينة اتبعت المسيح، ولم يهلكهم الله بعد المسيح باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، فكيف يجوز أن يقال: هؤلاء هم رسل المسيح؟! .

وأيضاً، فإن الذين أتوهم كانوا اثنين من الحواريين، وأهل الكتاب معترفون بذلك، ولم يكن حبيب النجار موجوداً حينئذ، بل هؤلاء رسل أرسلهم الله قبل المسيح، وأهلك أهل تلك القرية - وقد قيل: إنها إنطاكية وآمن حبيب بأولئك الرسل. ثم بعد هذا عمرت أنطاكية وجاءتهم رسل المسيح بعد ذلك.

والحواريون ليسوا رسل الله عند المسلمين، بل هم رسل المسيح، كالصحابة الذين كان النبي ﷺ يرسلهم إلى الملوك. ومن زعم أن هؤلاء حواريون فقد جعل للنصارى حجة لا يحسن أن يجيب عنها، وقد بسطنا ذلك في «الرد على النصارى»^(١) وبيننا أن الحواريين لم يكونوا رسلاً، فإن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله مثل إبراهيم وموسى، وقد يفضلونهم على إبراهيم وموسى، وهذا كفر عند المسلمين، وقد بينا ضلال النصارى في ذلك) ا.هـ^(٢).

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

(وقد ثبت في الصحيحين عن أبي ذر أنه قال: «كنت في المسجد حين وجبت الشمس، فقال: يا أبا ذر تدري أين تذهب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي الله ﷻ فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فترجع إلى مطلعها فذلك مستقرها. ثم قرأ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾»^(٣).

فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح بسجود الشمس إذا غربت واستئذنانها، وكذلك قال أبو العالية وغيره. قال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعها، ومعلوم أن الشمس لا تزال في الفلك كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء]، فهي لا تزال تسبح في الفلك، وهي تسجد لله وتستأذنه كل ليلة كما أخبر النبي ﷺ، فهي تسجد سجوداً يناسبها، وتخضع له وتخضع، كما يخضع ويخضع كل ساجد من الملائكة والجن والإنس) ا.هـ^(٤).

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾

(وأما لفظ «القديم» فهو في اللغة المشهورة التي خاطبنا بها الأنبياء يراد به ما كان متقدماً على غيره تقدماً زمانياً، سواء سبقه عدم أو لم يسبقه، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وقال تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]. وقال

(١) وهو كتاب «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» مطبوع في سبع مجلدات.

(٢) جامع الرسائل (١/٦٥ - ٦٦). (٣) البخاري (٩/١٢٥)، ومسلم (١/٩٦).

(٤) جامع الرسائل (١/٣٥ - ٣٦).

الخليل: ﴿قَالَ أَفَرَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء] فهذا كان القديم الأزلي الذي لم يزل موجوداً، ولم يسبقه عدم، أحق باسم القديم من غيره) ١. هـ^(١).

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٤﴾﴾. (ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قال ابن عباس: في فلكة كفلكة المغزل. ومنه قولهم: تفلك ثدي الجارية إذا استدار. وأهل الهيئة والحساب متفقون على ذلك) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٤﴾﴾، تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقد ذكر الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره: ثنا أبي - يعني الإمام أبا حاتم الرازي، ثنا نصر بن علي حدثني أبي، عن شعبة بن الحجاج، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قال: في فلكة مثل فلكة المغزل.

وذكر عن أحمد الزبيرى، عن شريك، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: يسبحون، قال: يدورون في أبواب السماء كما يدور المغزل في الفلكة.

وقال: ثنا الحسن بن الحسن، ثنا إبراهيم بن عبد الله بن الهروي، ثنا حجاج، عن أبي جريح، أخبرني عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهداً يقول: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قال: النجوم، والشمس، والقمر، فلكة كفلكة المغزل وقال مثل ذلك الحسين يعني مجاهد: حسابان الرحي، وهو سفودها القائم الذي يدور عليه و«الحسابان» في اللغة: سهام قصار، الواحدة «حسابنة» وكان مجاهد يفسر قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥١﴾﴾ [الرحمن] بهذا وقال غيره: هو من «الحساب» قيل: هو مصدر وقيل: جمع «حساب» كشهاب وشهبان.

قال مجاهد: ولا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا تدور الفلكة إلا بالمغزل؛ ولا

(١) الجواب الصحيح (٤/٤٨٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/١٥٠)، وقد مرّ تخريج قول ابن عباس.

يدور الحسبان إلا بالرحى، ولا يدور الرحي إلا بالحسبان. قال: فكذلك النجوم، والشمس، والقمر، هي في فلك لا يَدْمَنُ إلا به، ولا يدوم إلا بهن قال: فنقر بأصبعه. قال: فقال مجاهد: «يَدْمَنُ كَذَلِكَ»، كما نقر قال: فالحسبان والفلك يصيران إلى شيء واحد غير أن الحسبان في الرحي والفلك في المغزل كل ذلك عن مجاهد.

قلت: قوله: «لا يدوم إلا به»، أي لا يدور إلا به. ومنه «الدوام» بالضم والتشديد - وهي فلكة يرميها الصبي بخيط، فتدوم على الأرض أي تدور ومنه تدويم الطير، وهو تحليقه، وهو دورانه في طيرانه ليرتفع إلى السماء وقوله: نقر «بأصبعه»، يعني: نقر بها من الأرض وأدارها ليشبه بذلك دوران الفلك.

وقال ابن أبي حاتم: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، ثنا ابن وهب ثنا السري بن يحيى، قال سألت رجل الحسن البصري عن قوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قال: يعني استدارتهم.

وقال بنده: ثنا أبي، ثنا عبيد الله بن عائشة، ثنا عبد الواحد بن زياد، ثنا أبو روق، سمعت الضحاك في قوله: كل في فلك يسبحون، قال: يدور ويذهب.

ثنا أبي مسروق بن المرزبان، ثنا يحيى بن أبي زائدة، ثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: كل في فلك يسبحون قال: الفلك كحديدة الرحي (يعني قطب كحديدة الرحي). وهو قطب الرحي، وهو السفود القائم الذي يسمى أيضاً «حساباً».

علي بن الحسين بن جنيد، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا مروان بن معاوية، عن جويبر، عن الضحاك في فلك يسبحون، قال: «الفلك» السرعة والجري في الاستدارة، و«يسبحون» يعملون. يريد أن لفظ «الفلك» يدل على الاستدارة وعلى سرعة الحركة كما في دوران فلكة المغزل ودوران الرحي.

وقال ثنا: أبي، ثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: «في فلك»، يقول: دوران، وقوله «يسبحون»، يعني يجرون.

وعن إياس بن معاوية، قال: السماء على الأرض مثل القبة.

وقد بسط القول في ذلك بدلائله من الكتاب والسنة في غير هذا الموضع.

ولفظ «الفلك» في لغة العرب يدل على الاستدارة. قال الجوهري: «فلكة المغزل»، سميت بذلك لاستدارتها. و«الفلكة» قطعة من الأرض أو الرمل تستدير وترتفع على ما حولها والجمع فلك.

وقال: ومنه قيل: فلك ثدي الجارية تفليكاً، وتفلك: استدار. قلت: و«السباحة» تتضمن الجري بسرعة كما ذكر ذلك أهل اللغة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيِلُ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾) قال ابن عباس: في فلكة مثل فلكة المغزل، وهكذا هو في «لسان العرب»، الفلك الشيء المستدير.

ومنه يقال: تفلك ثدي الجارية إذا استدار. قال تعالى: ﴿يَكْوَرُ آيِلٌ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ آتْهَارٌ عَلَى آيِلٍ﴾ [الزمر: ٥] والتكوير هو التدوير. ومنه قيل: كار العمامة، وكورها، إذا أدارها ومنه قيل: للكرة كرة، وهي الجسم المستدير، ولهذا يقال: للإفلاك كروية الشكل؛ لأن أصل الكرة كورة، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، وكورت الكارة إذا دورتها، ومنه الحديث: «إن الشمس والقمر يكوران يوم القيامة كأنهما ثوران في نار جهنم»^(٢) وقال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن] مثل حسابان الرحا، وقال: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣] وهذا إنما يكون فيما يستدير من أشكال الأجسام دون المضلعات من المثلث، أو المربع، أو غيرها، فإنه يتفاوت لأن زواياه مخالفة لقوائمه، والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحي، ليس بعضها مخالفاً لبعض) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ولفظ «الفلك» يدل على الاستدارة مطلقاً؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ آيِلٌ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾) [الأنبياء] وقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيِلُ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: يقتضي أنها في فلك مستدير مطلقاً، كما قال ابن عباس رضي الله عنه: في فلكة مثل فلكة المغزل) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيِلُ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾) و«الفلك» هو المستدير كما ذكر ذلك من ذكره من الصحابة والتابعين، وغيرهم من علماء المسلمين والمستدير يظهر شيئاً بعد شيء، فيراه القريب منه قبل البعيد عنه والله أعلم) ١. هـ^(٥).

(١) الرد على المنطقيين (٢٦١ - ٢٦٤)، وقد مرت هذه القطعة مع تخريج رواياتها.

(٢) الحديث بهذا اللفظ رواه الطحاوي في مشكل الآثار (٦٧/١) ورواه مختصراً البخاري (٣٢٠٠) والحديث صحيح بكلا اللفظين.

(٣) مجموع الفتاوى (١٩٣/٢٥ - ١٩٤). (٤) مجموع الفتاوى (٥٥٧/٦).

(٥) مجموع الفتاوى (٦٠١/٦).

وقال رحمه الله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: في فلكة مثل فلكة المغزل.

فقد أخبر تعالى أن الليل والنهار والشمس والقمر: في الفلك، و«الفلك» هو السموات عند أكثر العلماء؛ بدليل أن الله ذكر في هاتين الآيتين أن الشمس والقمر في الفلك وقال في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴿[نوح] فأخبر أنه جعل الشمس والقمر في السموات.

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام] بين أنه خلق السموات والأرض، وأنه خلق الظلمات والنور؛ لأن الجعل هو التصيير يقال: جعل كذا إذا صيره فذكر أنه خلق السموات والأرض وأنه جعل الظلمات والنور لأن الظلمات والنور مجعولة من الشمس والقمر: المخلوقة في السموات؛ وليس الظلمات والنور والليل والنهار جسماً قائماً بنفسه، ولكنه صفة وعرض قائم بغيره «فالنور» هو شعاع الشمس وضوءها الذي ينشره الله في الخواء، وعلى الأرض.

وأما «الظلمة في الليل» فقد قيل: هي كذلك، وقيل هي أمر وجودي، فهذا الليل وهذا النهار اللذان يختلفان علينا، اللذان يولج الله أحدهما في الآخر، فيولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخلف أحدهما الآخر، يتعاقبان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ بين سبحانه أنه جعل لكل شيء قدراً واحداً لا يتعداه.

فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر وتلحقه، بل لها مجرى قدره الله لها، وللقمر مجرى قدره الله له، كما قال تعالى: ﴿وَعَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا نَمَلُّهُمُ اللَّيْلَ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ثُمَّ قَالَ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي لا يفوته ويتقدم أمامه حتى يكون بينهما برزخ؛ بل هو متصل به لا هذا ينفصل عن هذا ولا هذا ينفصل عن هذا ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١)، قال ابن عباس وغيره: في فلكة، مثل فلكة المغزل) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي لا يتقدم عليه، بحيث يكون بينهما انفصال. بل كل منهما متصل بالآخر) ا.هـ^(٢).

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾^(٣).

قال رحمه الله: (وصار هذا كقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾^(٤) ومعلوم أن السفن إنما ينجر خشبها، ويركبها بنو آدم، فالفلك معمولة لهم، كما هي الأصنام معمولة لهم وكذلك سائر ما يصنعونه من الثياب والأطعمة والأبنية، فإذا كان الله قد أخبر أنه خلق الفلك المشحون، وجعل ذلك من آياته، ومما أنعم الله به على عباده، علم أنه خالق أفعالهم.

وعلى قول القدرية لم يخلق إلا الخشب الذي يصلح أن يكون سفناً وغير سفن. ومعلوم أن مجرد خلق المادة لا يوجب خلق الصورة التي حصلت بأفعال بني آدم إن لم يكن خالقاً للصورة) ا.هـ^(٣).

﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾^(٥).

وقال رحمه الله في صدد إثباته رؤية النساء لربهم في الجنة (الجواب الثالث: أنه قد جاءت الأحاديث برؤية الله في غير هذين الموطنين، منها: ما رواه ابن ماجه في «سننه» والدارقطني في «الرؤية» عن الفضل بن عيسى الرقاشي، عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى أشرف عليهم! فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة! وهو قول الله: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾^(٥) فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما دام الله بين أظهرهم حتى يحتجب عنهم، وتبقى فيهم بركته ونوره).

ورويناه من طريق أخرى معروفة إلى سلمة بن شبيب حدثنا بشر بن حجر حدثنا عبد الله بن عبيد الله عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أهل الجنة في ملكهم ونيعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك

(١) درء تعارض العقل (٣/٧ - ٤).

(٢) الجواب الصحيح (٤/٤٨٥).

(٣) منهاج السنة (٣/٢٦١).

وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم! فيقول: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨)، فينظرون إليه وينظر إليهم فلا يلتفتون إلى شيء من الملك والنعيم حتى يحتجب عنهم، قال: فيبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم» (١) ا. هـ. (٢).

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٦١).
 (ألا ترى أن الله قال للذين فرطوا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ وإنما كانت عبادتهم الشيطان أنهم أطاعوه في دينهم) ا. هـ. (٣).
 وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٦١) وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)، وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان، وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة والأنبياء) ا. هـ. (٤).
 ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (٦٦).

قال رحمه الله: (وكذلك لما قالوا عن محمد إنه شاعر فإن الشعراء جنس معروفون في الناس. وقالوا إنه كاهن؛ وشبهة الشعر أن القرآن كلام موزون والشعر موزون؛ وشبهة الكهانة أن الكاهن يخبر ببعض الأمور الغائبة فذكر الله تعالى الفرق بين هذين وبين النبي فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ﴾ (٦٦) نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٦٦) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرَهُمْ كَذِبُونَ (٦٦) ثم قال: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٦٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٦٦) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٦٦) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرٍ كَبِيرٍ﴾ [الشعراء] ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (٦٦) وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا نُوْمِنُونَ﴾ (٦٦) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ (٦٦) نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٦) [الحاقة] ولهذا لما عرض الكفار على كبيرهم الوحيد أن يقولوا (٥) للناس هو شاعر ومجنون وساحر وكاهن صار يبين لهم أن هذه أقوال فاسدة، وأن الفرق معروف بينه وبين هذه الأجناس) ا. هـ. (٦).

(١) ابن ماجه (١٨٤) والحديث ضعيف، راجع البوصيري في مصباح الزجاجة (١/٨٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٤٤٨ - ٤٤٩). (٣) مجموع الفتاوى (٦/٢٩٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٤/٢٨٣).

(٥) كذا في الأصل، والضمير راجع إلى الكفار.

(٦) النبوات (٢٠).

﴿إِنذِرْ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيَى الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٥).

(وهكذا قوله: ﴿إِنذِرْ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ الإنذار التام، فإن الحي يقبله ولهذا قال: ﴿وَيَحْيَى الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فهم لم يقبلوا الإنذار. ومثله قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخَشِنَهَا﴾ (٤٥) (١) هـ.

﴿أَوْلَرَبِّرَبِّوَأَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَكَوْنَ﴾ (٧٦).

(والفرق بين قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتَ يَدَيْكَ﴾ [ص: ٧٥] وقوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا﴾ من وجهين:

«أحدهما»: أنه هنا أضاف الفعل إليه وبين أنه خلقه بيديه، وهناك أضاف الفعل إلى الأيدي.

«الثاني»: أن من لغة العرب أنهم يضعون اسم الجمع موضع التثنية إذا أمن اللبس، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] أي يديهما، وقوله: ﴿فَقَدْ صَعَتَ قُلُوبُكُمْ﴾ [التحریم: ٤] أي قلباكما، فكذلك قوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا﴾ (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَلَكَوْنَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]، أي مطيقين فدل على أنهم صاروا مقرنين مطيقين لما سخرها لهم فهو معنى قوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَلَكَوْنَ﴾ (١) هـ.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعَظْمَاءَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُجِيبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠).

قال رحمه الله بعد كلام: (ثم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ وهذه مقدمة معلومة بالبديهة - ولهذا جاء فيها باستفهام التقرير الدال على أن ذلك مستقر معلوم عند المخاطب، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان] ثم بين قدرته العامة بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨١)، وفي هذا الموضوع وغيره من القرآن من

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٣٧٠).

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٥٥٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/١٦).

الأسرار وبيان الأدلة القطعية على المطالب الدينية ما ليس هذا موضعه وإنما الغرض التنبه) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وكذلك لما أخبرهم بالمعاد عارضوه بعقولهم، وقد ذكر الله تعالى من حججهم التي احتجوا بها في إنكار المعاد ما هو مذكور في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ ١. هـ^(٢).

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِينُ مَلَائِكَتِهِ كُلِّ لَشَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

(وكذلك ما ذكر في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن قول الله تعالى: ﴿مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ قياس حذفت إحدى مقدمتي لظهورها، والأخرى سالبة كلية قرن معها دليلها وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ وهذا استفهام إنكار متضمن للنفي، أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم، فإن كونها رميمًا يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي مبناها على الحرارة والرطوبة، وتفرق أجزائه واختلاطها بغيرها، ولنحو ذلك من الشبهات.

والتقدير: هذه العظام رميم، ولا أحد يحيي العظام وهي رميم، فلا أحد يحييها.

ولكن هذه السالبة كاذبة، ومضمونها امتناع الإحياء، فبين سبحانه إمكانه من

وجوه ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال: ﴿يُحْيِيهَا الَّتِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقد أنشأها من التراب، ثم قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء أو استحاله، ثم قال: ﴿الَّتِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ فبين أنه أخرج النار الحارة اليابسة من البارد الرطب، وذلك أبلغ في المنافاة، لأن اجتماع الحرارة والرطوبة أيسر من اجتماع الحرارة واليبوسة، إذ الرطوبة تقبل من الانفعال ما لا تقبله اليبوسة، ولهذا كان تسخين الهواء والماء أيسر من تسخين التراب، وإن كانت النار نفسها حارة يابسة، فإنها جسم بسيط واليبس ضد الرطوبة، والرطوبة يعني بها البلة كرطوبة الماء ويعني بها سرعة الانفعال، فيدخل في ذلك الهواء، فكذلك يعني باليبس عدم البلة، فتكون النار يابسة، ويراد باليبس بطء الشكل والانفعال، فيكون التراب يابساً دون النار، فالتراب فيه اليبس بالمعنيين، بخلاف النار، لكن الحيوان الذي فيه حرارة ورطوبة يكون من العناصر الثلاثة: التراب، والماء والهواء.

وأما الجزء الناري فللناس فيه قولان: قيل: فيه حرارة نارية، وإن لم يكن فيه جزء من النار وقيل: بل فيه جزء من النار.

وعلى كل تقدير فتكون الحيوان من العناصر أولى بالإمكان من تكوُّن النار من الشجر الأخضر، فالقادر على أن يخلق من الشجر الأخضر ناراً أو بالقدرة أن يخلق من التراب حيواناً، فإن هذا معتاد، وإن كان ذلك بما يُضم إليه من الأجزاء الهوائية والمائية والمقصود الجمع في المولدات. ثم قال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾، وهذه مقدمة معلومة بالبداهة. ولهذا جاء فيه باستفهام التقرير الدال على أن ذلك مستقر معلوم عند المخاطب، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْسِيمًا﴾ [الفرقان] ثم بين قدرته العامة بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٧).

وفي هذا الموضوع وغيره من القرآن من الأسرار وبيان الأدلة القطعية على المطالب الدينية ما ليس هذا موضعه، وإنما الغرض التنبيه) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُنحِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾، قال غير واحد من المفسرين هما شجرتان يقال لأحدهما: المرخ، والأخرى العفار. فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهو أنثى - فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى، وتقول العرب في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار وقال بعض الناس في كل شجرة نار إلا العناب، ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُؤْقِدُونَ﴾ فذلك زنادهم.

وقد قال أهل اللغة الجوهري وغيره: الزند العود الذي يقدح به النار، وهو الأعلى والزنده السفلى فيها ثقب، وهي الأنثى، فإذا اجتمعا قيل زندان) ا. هـ^(١).

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ فنفس تلك الأجزاء التي خرجت من الشجر الأخضر جعلها الله ناراً من غير أن يكون كان في الشجر الأخضر نار أصلاً، كما لم يكن في الشجرة ثمرة أصلاً، ولا كان في بطن المرأة جنين أصلاً؛ بل خلق هذا الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا وبما ضمه إلى هذا من مواد آخر، وكذلك الإعادة يعيده بعد أن يبلى كله إلى عجب الذنب. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق ابن آدم، ومنه يركب»^(٢) ا. هـ^(٣).

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨١﴾﴾.

كذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨١﴾﴾، «فإذا» ظرف لما يستقبل من الزمان فدل على أنه إذا أراد كونه قال له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤) ا. هـ^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٢٤١ - ٢٤٢).

(٢) البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/٢٤٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/٤٤٦).

وقال رحمه الله: (وقد احتج كثير منهم، كسفيان بن عيينة، وأحمد بن حنبل، ونعيم بن حماد والبويطي صاحب الشافعي وغيرهم على أن القرآن غير مخلوق بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧)، فلو كان «كن» مخلوقة لزم أن لا يوجد شيء من المخلوقات، لأن «كن» تكون مخلوقة بكن أخرى وهلمّ جرا، فلا يوجد شيء) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (والتحقيق أن الشيء اسم لما يوجد في الأعيان. ولما يتصور في الأذهان. فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء في التقدير والعلم والكتاب، وإن لم يكن شيئاً في الخارج ومنه قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧) ولفظ الشيء في الآية يتناول هذا وهذا. فهو على كل شيء ما وجد وكل ما تصوره الذهن موجوداً، إن تصور أن يكون موجوداً قدير، لا يستثني من ذلك شيء، ولا يزداد عليه شيء كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ سُئِيَ بِآنِهِ﴾ (٤١) [القيامة] وقال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] وقد ثبت في الصحيحين: أنها لما نزلت قال النبي ﷺ: «أعوذ بوجهك» فلما نزل: ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شِعَابًا﴾ الآية، قال: «هاتان أهون» فهو قادر على الأولتين وإن لم يفعلهما وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلِنَّا عَلَيَّ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ (٨٧) [المؤمنون].

قال المفسرون: لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشاً، وتهلك مواشيكم، وتخرب أراضيتكم، ومعلوم أنه لم يذهب به وهذا كقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٨٧) إلى قوله: ﴿وَيَجْمَعُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ﴾ (٨٧) [الواقعة] وهذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله. فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاباً وهو لم يفعله ومثله هذا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدْيَهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣] فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها، فلو لم يكن قادراً عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ولهذا استدل غير واحد من أئمة المسلمين على أن كلام الله غير مخلوق بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧)،

فإن النص دل على أنه لا يخلق شيئاً حتى يقول له: «كُن» فيكون، فلو كان «كن» مخلوقاً لزم أن يخلقه بكن، وكذلك هذا يجب أن يكون مخلوقاً بكلمة أخرى، وهذا يستلزم التسلسل في أصل الخلق، والتسلسل في التأثير وهو ممتنع لذاته فإنه إذا لم يخلق شيئاً أصلاً حتى يخلق قبل ذلك شيئاً آخر، كان هذا ممتنعاً لذاته، فكان وجود مخلوق قبل أن يوجد مخلوق أصلاً فيه جمع بين النقيضين، بخلاف ما إذا قيل: إنه لا يخلق مخلوقاً معيناً حتى يخلق مخلوقاً معيناً، فإن هذا ليس بممتنع، كما أنه لا يخلق المولود من غيره حتى يخلق الوالد) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٧﴾ وهذا عند أكثر العلماء هو خطاب يكون لمن يعلمه الرب تعالى في نفسه، وإن لم يوجد بعد. ومن قال إنه عبارة عن سرعة التكوين، فقد خالف مفهوم الخطاب وحمّل الآية على ذلك يستدعي استعمال الخطاب في مثل هذا المعنى، وأن هذا من اللغة التي نزل بها القرآن، وإلا فليس لأحد أن يحمل خطاب الله ورسوله على ما يخطر له، بل القرآن نزل بلغة العرب، بل بلغة قريش وقد علمت العادة المعروفة في خطاب الله ورسوله، فليس لأحد أن يخرج عنها) ا.هـ^(٢).

(١) الصفدية (٢/١٢١ - ١٢٢).

(٢) منهاج السنة (٣/٣٦٨ - ٣٦٩).

سورة الصافات

﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا﴾ ﴿١﴾ .

(وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا تصفون كما تصفت الملائكة عند ربها؟» قالوا: وكيف تصفت الملائكة عند ربها؟ قال: «يسدون الأول، فالأول، ويتراصون في الصف»، وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا﴾ ﴿١﴾ فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ ، ولقوله عنهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الصافات] ا. هـ^(١) .

﴿إِنَّا زَيْنًا أَلْمِيَّةَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾ ﴿١﴾ .

(وأما النجوم فإن الله أخبر أنها زينة للسماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَلْمِيَّةَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾ ﴿١﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ [الملك: ٥]، فقال بعض من قال: إن الأفلاك غير السموات، وإن المراد بالسماء الدنيا هنا الفلك الثامن، الذي يذكر أهل الهيئة أن الكواكب الثابتة فيه، وادعوا أن تلك هي السموات العلى، وأن الأفلاك هي السموات الدنيا، ولكن هذا قول مبني على أصل ضعيف. وأيضاً فإن الذي نشهده هو الكواكب) ا. هـ^(٢) .

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ .

وقال رحمه الله: (وقد أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم تعجبوا من التوحيد ومن النبوة ومن المعاد فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَيَسْتَفْتُونَ أَكْفُرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿١٩﴾ أَجْعَلِ الْأَلهَةَ إِلَهًا وَجِدًّا إِنَّا هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٢٠﴾) [ص] فذكر تعجبهم من التوحيد والنبوة) ا. هـ^(٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٥٩٤).

(١) الرد على المنطقيين (٤٩٧).

(٣) النبوات (١٦٤).

قال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ على قراءة الضم^(١)، فهنا هو عجب من كفرهم مع وضوح الأدلة) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (إن شريحاً أنكر قراءة من قرأ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾، وقال: إن الله لا يعجب، فبلغ ذلك إبراهيم النخعي، فقال: إنما شريح يعجبه علمه، كان عبد الله أعلم منه - أو قال: أفقه منه^(٣) - وكان يقرأ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾، فأنكر على شريح إنكاره، مع أن شريحاً من أعظم الناس قدراً عند المسلمين؛ ونظائر هذا متعددة) ا.هـ^(٤).

﴿ اٰخِشْرُوا الَّذِيْنَ ظَلَمْتُمْ وَاَزْوٰجَهُمْ وَمَا كَانُوْا يَعْبُدُوْنَ ﴾ (٣٧)

قال تعالى: ﴿ اٰخِشْرُوا الَّذِيْنَ ظَلَمْتُمْ وَاَزْوٰجَهُمْ ﴾ أي أشباههم، ونظراءهم) ا.هـ^(٥).

قال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿ اٰخِشْرُوا الَّذِيْنَ ظَلَمْتُمْ وَاَزْوٰجَهُمْ ﴾ أي عشراءهم وقرناءهم وأشباههم ونظراءهم، ولهذا يقال: المستمع شريك المعتاب) ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (مثل قوله: ﴿ اٰخِشْرُوا الَّذِيْنَ ظَلَمْتُمْ وَاَزْوٰجَهُمْ ﴾ أي وأشباههم ونظراءهم، والزوج أعم من النكاح المعروف قال تعالى: ﴿ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ اِنْثًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَوْرَ ﴾ (٤٦) أو يَزُوْجُهُمْ ذَكَرًا وَاِنْتًا [الشورى]، وقال: ﴿وَإِذَا التَّقْوُسُ زُوِّجَتْ ﴾ (٧) [التكوير]، وقال: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَیْعٍ﴾ [الحج: ٥] و﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيْمٍ﴾ [الشعراء: ٧]، وقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقًا زَوْجِيْنٍ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقال: ﴿جَعَلَ فِيْهَا زَوْجِيْنِ اٰنثِيْنِ﴾ [الرعد: ٣]، وقال: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ اَزْوَاجًا ﴾ (٨) [النبا]، وقال: ﴿اٰخِشْرُوا الَّذِيْنَ ظَلَمْتُمْ وَاَزْوٰجَهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] ا.هـ^(٧).

وقال رحمه الله: (وأما لفظ «الظلم المطلق». فيدخل فيه الكفر وسائر الذنوب،

(١) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف، وقرأ الباقون بفتح التاء. انظر النشر في القراءات العشر (٣٥٦/٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢٣/٦).

(٣) قال صاحب الدر (٢٧٢/٥): أخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في (الأسماء والصفات) وذكره.

(٤) درء تعارض العقل (٢٧٣/١)، مجموع الفتاوى (٢٢٩/٣ - ٢٣٠) (٤٩٢/١٢).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٠٥/٢٤). (٦) مجموع الفتاوى (٣١٥/١٥).

(٧) مجموع الفتاوى (٣٢٦/١٥ - ٣٢٧).

قال تعالى: ﴿أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٣) من دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٤﴾ وَقَفُوهُمْ إِتْمَ مَسْئُولُونَ ﴿٢٥﴾ قال عمر بن الخطاب: ونظراؤهم. وهذا ثابت عن عمر^(١)، وروي ذلك عنه مرفوعاً. وكذلك قال ابن عباس^(٢): وأشباههم. وكذلك قال قتادة^(٣) والكلبي: كل من عمل بمثل عملهم؛ فأهل الخمر مع أهل الخمر، وأهل الزنا مع أهل الزنا. وعن الضحاك ومقاتل: قرناؤهم من الشياطين؛ كل كافر معه شيطانه في سلسلة، وهذا كقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٧) [التكوير]. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الفاجر مع الفاجر، والصالح مع الصالح. قال ابن عباس: وذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة.

وقال الحسن^(٤) وقاتدة^(٥): ألحق كل امرئ بشيعته؛ اليهودي مع اليهود، والنصراني مع النصراني. وقال الربيع بن خيثم^(٦): يحشر المرء مع صاحب عمله، وهذا كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، قال: «المرء مع من أحب»^(٧). وقال: «الأرواح جنود مجتدة؛ فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(٨). وقال: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»^(٩).

وزوج الشيء نظيره، وسمي الصنف زوجاً؛ لتشابه أفرادها، كقوله: ﴿فَأَبْنِئْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ كَرِيمٍ﴾ [القمان: ١٠]. وقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩١) [الذاريات]. قال غير واحد من المفسرين: صنفين ونوعين مختلفين: السماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والبر والبحر، والسهل والجبل، والشتاء والصيف، والجن والإنس، والكفر والإيمان، والسعادة والشقاوة، والحق والباطل، والذكر والأنثى، والنور والظلمة، والحلو والمر، وأشياء ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن خالق الأزواج واحد وليس المراد أنه يحشر معهم زوجاتهم مطلقاً؛ فإن المرأة

- (١) عن عمر عند ابن جرير (٤٦/٢٣) ورواه عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وابن منيع في مسنده وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في البعث (الدر) (٥/ ٢٧٢ - ٢٧٣).
- (٢) ابن جرير (٤٦/٢٣ - ٤٧).
- (٣) ابن جرير (٤٧/٢٣).
- (٤) وجدت قولاً آخر للحسن قال أزواجهم المشركات.
- (٥) ابن جرير (٤٧/٢٣).
- (٦) كذا في الأصل، وصوابه بتقديم المثلة.
- (٧) البخاري (٦١٦٧)، ومسلم (٢٦٣٩).
- (٨) مسلم (٢٦٣٨).
- (٩) أبو داود (٤٨١٢) الترمذي (٢٤٨٤) وأحمد (٣٠٣/٢، ٣٣٤)، أبو داود الطيالسي (٢١٠٧) والحاكم (١٧١/٤)، والبيهقي في الآداب (ص ٥٧) والحديث صحيح.

الصالحة قد يكون زوجها فاجراً: بل كافراً، كامراً فرعون. وكذلك الرجل الصالح، قد تكون امرأته فاجرة، بل كافرة، كامراً نوح ولوط. لكن إذا كانت المرأة على دين زوجها؛ دخلت في عموم الأزواج، ولهذا قال الحسن البصري: وأزواجهم المشركات^(١).

فلا ريب أن هذه الآية تناولت الكفار، كما دلّ عليه سياق الآية. وقد تقدم كلام المفسرين أنه يدخل فيها الزناة مع الزناة وأهل الخمر مع أهل الخمر. وكذلك الأثر المروي: (إذا كان يوم القيامة قيل: أين الظلمة وأعوانهم؟ - أو قال: وأشباههم - فيجمعون في توابيت من نار ثم يقذف بهم في النار). وقد قال غير واحد من السلف: أعوان الظلمة من أعانهم. ولو أنه لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً، ومنهم من كان يقول: بل من يغسل ثيابهم من أعوانهم. وأعوانهم: هم من أزواجهم المذكورين في الآية؛ فإن المعين على البر والتقوى من أهل ذلك، والمعين على الإثم والعدوان من أهل ذلك.

قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِمَّا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِمَّا وَمِنْهَا﴾ [النساء: ٨٥] والشافع الذي يعين غيره، فيصير معه شفعاً بعد أن كان وتراً؛ ولهذا فسرت «الشفاعة الحسنة» بإعانة المؤمنين على الجهاد، و«الشفاعة السيئة» بإعانة الكفار على قتال المؤمنين، كما ذكر ذلك ابن جرير، وأبو سليمان.

وفسرت «الشفاعة الحسنة» بشفاعة الإنسان للإنسان ليجتلب له نفعاً، أو يخلصه من بلاء، كما قال الحسن ومجاهد، وقتادة وابن زيد؛ فالشفاعة الحسنة إعانة على خير يحبه الله ورسوله؛ من نفع من يستحق النفع ودفع الضر عن من يستحق دفع الضرر عنه. و«الشفاعة السيئة» إعانتته على ما يكرهه الله ورسوله، كالشفاعة التي فيها ظلم الإنسان، أو منع الإحسان الذي يستحقه. وفسرت الشفاعة الحسنة بالدعاء للمؤمنين، والسيئة بالدعاء عليهم، وفسر الشفاعة الحسنة بالإصلاح بين اثنين، وكل هذا صحيح. فالشافع زوج المشفوع له إذ المشفوع عنده من الخلق إما أن يعينه على بر وتقوى، وأما أن يعينه على إثم وعدوان. وكان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة قال لأصحابه: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء».

وتمام الكلام يبين أن الآية - وإن تناولت الظالم الذي ظلم بكفره - فهي أيضاً متناولة ما دون ذلك، وإن قيل فيها: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ فقد ثبت في «الصحیح» عن النبي ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القليفة تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»، وثبت عنه في الصحیح أنه قال: «ما من صاحب كنز إلى جعل له كنزه يوم القيامة شجاعاً أقرع يأخذ بلهزمته أنا مالك، أنا كنزك».

وفي لفظ: «إلا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع يفر منه وهو يتبعه، حتى يطوقه في عنقه»، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِجُلُوبِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وفي حديث آخر: «مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع يتبع صاحبه حيثما ذهب، وهو يفر منه: هذا مالك الذي كنت تبخل به، فإذا رأى أنه لا بد له منه، أدخل يده في فيه، فيقضمها كما يقضم الفحل». وفي رواية: «فلا يزال يتبعه فيلقمه يده فيقضمها، ثم يلقمه سائر جسده» (١) هـ.

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾). فإن هؤلاء والذين أمرهم بهذا هم جميعاً معذبون، وقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدْوَانٌ﴾ [الأنبياء: ١٧٨]. وإنما يخرج من هذا من عبد مع كراهته لأن يعبد ويطاع في معصية الله. فهم الذين سبقت له الحسنی، كالمریح والعزیر وغيرهما، فأولئك (مبعدون).

وأما من رضي بأن يعبد ويطاع في معصية الله، فهو مستحق للوعيد، ولو لم يأمر بذلك، فكيف إذا أمر؟! وكذلك من أمر غيره بأن يعبد غير الله، وهذا من «أزواجهم» فإن «أزواجهم» قد يكونون رؤساء لهم، وقد يكونون أتباعاً، وهم أزواج وأشباه لتشابههم في الدين، وسياق الآية يدل على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [١٧٧] مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَنَّةِ [١٧٨]. قال ابن عباس: دلوهم. وقال الضحاک مثله. وقال ابن كيسان: قدموهم. والمعنى: قودوهم كما يقود الهادي لمن يهديه، ولهذا تسمى الأعناق الهوادي، لأنها تقود سائر البدن، وتسمى أوائل الوحش الهوادي.

﴿وَقَفُّوا بِإِثْمِهِمْ مَسْغُولُونَ﴾ [١٤] مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ [١٥] [الصفات]، أي كما كنتم تتناصرون في الدنيا على الباطل ﴿بَلْ هُمْ آيَوْمَ مَسْتَسْلِمُونَ﴾ [١٦] وَأَقْبَلْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِيْسَاءُ لَوْلَا [١٧] قَالُوا إِنَّكُمْ

كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَلذٰٓئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَبْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غٰٓوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُونَ ۗ أَلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ [الصافات]، وقال تعالى:

﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِهْتُم لَأُخْرِهْتُمْ لَوْلَا آلُكُمْ لَمُنَّا فَاتَمَّ بِكُمْ عَذَابُ يَوْمِكُمْ إِنَّكُمْ لَعُنْتُمْ فَذُوقُوا كُلَّ ضِعْفٍ وَلٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُخْرِهْتُمْ لَأُخْرِهْتُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحٰٓجَّوْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَآءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ قَالِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا أَخْمَضُ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِالْ كُفْرِ تَجْرِمِينَ ﴿٦٢﴾ وَقَالِ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾ [سبأ]، وقوله في سياق الآية: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ولا ريب أنها تتناول «الشركين»: الأصغر والأكبر، وتتناول أيضاً من استكبر عما أمره الله به من طاعته؛ فإن ذلك من تحقيق قول لا إله إلا الله؛ فإن الإله هو المستحق للعبادة، فكل ما يعبد به الله فهو من تمام تأله العباد له فمن استكبر عن بعض عبادته سامعاً مطيعاً في ذلك لغيره؛ لم يحقق قول: لا إله إلا الله في هذا المقام.

وهؤلاء الذين اتخذوا أحمبارهم وربهانهم أرباباً - حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، يكونون على وجهين:

«أحدهما»: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل؛ فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً - وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم - فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين، واعتقد ما قاله ذلك، دون ما قاله الله ورسوله؛ مشركاً مثل هؤلاء.

فهذا خطاب عن المشركين المكذّبين بيوم الدين، وهؤلاء يسألون عن توحيد الله والإيمان برسله واليوم الآخر. وأي مدخل لحب عليّ في سؤال هؤلاء؟ تراهم لو أحبّوه مع هذا الكفر والشرك أكان ذلك ينفعهم؟ أو تراهم لو أبغضوه أين كان بغضهم له في بغضهم لأنبياء الله وكتابه ودينه؟

وما يفسر القرآن بهذا، ويقول: النبي ﷺ فسره بمثل هذا، إلا زنديق ملحد، متلاعب بالدين، قادح في دين الإسلام، أو مفرط في الجهل، لا يدري ما يقول. وأي فرق بين حب عليّ وطلحة والزبير وسعد وأبي بكر وعمر وعثمان؟!.

ولو قال قائل: إنهم مسؤولون عن حب أبي بكر، لم يكن قوله أبعد من قول من قال: عن حب عليّ، ولا في الآية ما يدلّ على أن ذلك القول أرجح، بل دلالتها على ثبوتها وانتفائها سواء، والأدلة الدالة على وجوب حب أبي بكر أقوى.

الرابع: أن قوله: «مسؤولون» لفظ مطلق لم يُوصل [به] ضمير يخصه بشيء، وليس في السياق ما يقتضي ذكر حب عليّ، فدعوى المدعي دلالة اللفظ على سؤالهم عن حب عليّ من أعظم الكذب والبهتان.

الخامس: أنه لو ادّعى مدّع أنهم مسؤولون عن حب أبي بكر وعمر، لم يكن إبطال ذلك بوجه، إلا وإبطال السؤال عن حب عليّ أقوى وأظهر) ١. هـ^(١).

﴿وَقَفُّوهُمْ إِنِّم مَسْئُولُونَ﴾ ﴿١٤﴾

(وقد روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: قال رجل لابن عباس أي أجد في القرآن أشياء تختلف على قال: ﴿فَلَا أَسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهُ رَئِيًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فقد كتموا، في هذه الآية ﴿أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿دَحَلَهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٠] فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ثم قال: ﴿أَيُّنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى ﴿طَائِفِينَ﴾ [فصلت: ٩ - ١١] فذكر في هذه الآية خلق الأرض قبل السماء، وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] عزيزاً حكيماً سمياً بصيراً فكأنه كان ثم مضى فقال: لا أنساب في النفخة الأولى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فلا أنساب عند ذلك ولا يتساءلون في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما

قوله ما كنا مشركين ولا يكتُمون الله حديثاً فإن الله لا يغفر^(١) لأهل الإخلاص ذنوبهم قال المشركون تعالوا نقل لم نكن مشركين فختم على أفواههم فننطق أيديهم فعند ذلك عرفوا أن الله لا يكتُم حديثاً وعنده ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية. وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الأرض ودحاها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلقت السموات في يومين وكان الله غفوراً رحيماً سمي نفسه ذلك وذلك قوله: إني لم أزل كذلك فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب فيه الذي أراد فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله، هكذا رواه البخاري مختصراً. ورواه البرقاني في صحيحه من الطريق الذي أخرجها البخاري بعينها من طريق شيخ البخاري بعينه بالفاظه التامة أن ابن عباس جاءه رجل فقال: يا ابن عباس إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ فقد وقع ذلك في صدري، فقال ابن عباس: أتكذيب، فقال الرجل: ما هو بتكذيب ولكن اختلاف قال: فهل ما وقع في نفسك، فقال له الرجل: أسمع الله يقول: ﴿فَلَا أَسْأَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال في آية أخرى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [٥٥] [الصفات] وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] وقال في آية أخرى: ﴿وَاللَّهُ رَيْنًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقد كتموا في هذه الآية وفي قوله: ﴿أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ [١٧] رَفَعَ سَتَكَهَا فَسَوَّيَهَا [١٨] وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ حُضْنَهَا [١٩] وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا [٢٠] [النازعات]، فذكر في هذه الآية (خلق السماء قبل الأرض) وقال في الآية الأخرى: ﴿أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنٍ وَجَعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [١] وَجَعَلَ فِيهَا رِيسًا مِنْ قَوْفِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِلسَّائِلِينَ [٢] ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [٣] [فصلت]، وقوله: وكان الله غفوراً رحيماً، وكان الله عزيزاً حكيماً، وكان الله سميعاً بصيراً، وكأنه كان ثم انقضى فقال ابن عباس: هات ما في نفسك من هذا فقال السائل: إذا أنبأتني بهذا فحسبي. قال ابن عباس: قوله: ﴿فَلَا أَسْأَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فهذا في النفخة الأولى ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴿فَلَا أَسْأَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾، ثم إذا كان في النفخة الأخرى قاموا ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [٥٥] [الصفات] وأما قول الله ﷻ: ﴿رَيْنًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقوله:

(١) كذا في الأصل، والصواب: «يغفر» على الإثبات.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٢٤] فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِحْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ لَا يَتَعَاظَمُ عَلَيْهِ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ وَلَا يَغْفِرُ شُرَكَاءَ فَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ قَالُوا: إِنَّ رَبَّنَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَلَا يَغْفِرُ الشُّرْكَ تَعَالَوْا نَقُولُ: إِنَّا كُنَّا أَهْلَ ذُنُوبٍ وَلَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَمَا إِذَا كُتِمُوا الشُّرْكَ فَاخْتَمِ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَيَخْتَمِ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَتَنْطِقَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَعِنْدَ ذَلِكَ عَرَفَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُكْتَمُ حَدِيثًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٤] وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَرِ الْأَنْمَاءَ بَنَاتِهَا﴾ ﴿٧﴾ رَفَعَ سَمْعَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٩﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿١٠﴾ [النازعات] فَإِنَّهُ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرِينَ يَعْنِي ثُمَّ دَحَى الْأَرْضَ، وَدَحِيَّهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى وَشَقَّ فِيهَا الْأَنْهَارَ وَجَعَلَ فِيهَا السَّبِيلَ وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالرَّمَالَ وَالْأَكَامَ وَمَا فِيهَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرِينَ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿١٠﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿أَيْنُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَصَمَّعُلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ﴾ ﴿١١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي آيَاتٍ سَوَاءٍ لِلْسَّالِطِينَ ﴿١٢﴾ [فصلت] وَجَعَلَتِ السَّمَوَاتِ فِي يَوْمَيْنِ آخَرِينَ وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا غَفُورًا رَحِيمًا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ نَفْسَهُ ذَلِكَ وَسَمَّى نَفْسَهُ ذَلِكَ وَلَمْ يَنْحَلْهُ أَحَدٌ غَيْرَهُ ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٧] أَي لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَحْفَظْ عَنِّي مَا حَدَّثْتُكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ أَشْبَاهُ مَا حَدَّثْتُكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْزِلْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ وَلَكِنَّ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ فَلَا يَخْتَلِفُ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ فَإِنَّ كَلَامًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهَكَذَا رَوَاهُ يَعْقُوبُ بْنُ سَفْيَانَ فِي تَارِيخِهِ عَنِ الشَّيْخِ الْبُخَارِيِّ كَمَا رَوَاهُ الْبِرْقَانِيُّ، وَإِنَّمَا يَخْتَلِفَانِ فِي يَسِيرٍ مِنَ الْأَحْرَفِ (١) هـ.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ هُرًّا أَبَايْنَ﴾ ﴿٧﴾

(وإنما النسل لنوح وجميع الناس من أولاده وهم ثلاثة: سام وحام ويافت، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ هُرًّا أَبَايْنَ﴾ ﴿٧﴾. فلم يجعل باقياً إلا ذريته، وكما روي ذلك عن النبي ﷺ: «أن أولاده ثلاثة» (٢). رواه أحمد وغيره (٣) هـ.

(١) الفتاوى (التسعينية) (٥٤/٥ - ٥٦) وقد مرّ هذا المقطع عدّة مرات مع تخريجه.

(٢) أحمد (٢٠١٢٠) رواه الطبراني (٢٥٤/٧) (١٤٦/١٨) والبزار (٢١٨) والحاكم (٥٤٦/٢) وابن عدي (١١٠١/٣) (٤٦٣/٤)، وأسانيدنا ضعيفة لا تثبت.

(٣) مجموع الفتاوى (٩٣/٧).

﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيْفَاكَ ءِالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَنَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَى ءَالِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا نَطْفُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ .

وكذلك قول الخليل لقومه أيضاً: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيْفَاكَ ءِالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ . فهذا كله يبين ما كانوا عليه قبل النهي، وقبل إنكاره عليهم، ولهذا استفهم استفهام منكر، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي وخلق ما تنحتون. فكيف يجوز أن تعبدوا ما تصنعونه بأيديكم؟ وتدعون رب العالمين) ١. هـ^(١) .

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ .

(ومنه قول النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلهن في ذات الله: قوله لسارة: أختي، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُمْ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾»^(٢)، وهذه الثلاثة معاريض) ١. هـ^(٣) .

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ .

وقال تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ف«ما» بمعنى «الذي» ومن جعلها مصدرية فقد غلط) ١. هـ^(٤) .

وقال رحمه الله: (ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ فإنه في أصح القولين (ما) بمعنى الذي، والمراد به ما تنحتونه من الأصنام كما قال تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي والله خلقكم وخلق الأصنام التي تنحتونها) ١. هـ^(٥) .

وقال رحمه الله: (ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي والأصنام التي تعملونها وتنحتونها فجعل ما في الأصنام من التآليف معمولاً لهم كما جعل تأليف السفينة مصنوعاً لهم وهذا كثير) ١. هـ^(٦) .

- | | | | |
|-----|------------------------|-----|------------------------------|
| (١) | مجموع الفتاوى (٦٨١/١١) | (٢) | البخاري (٣٣٥٧)، ومسلم (٢٣٧١) |
| (٣) | مجموع الفتاوى (٢٢٣/٢٨) | (٤) | مجموع الفتاوى (٧٩/٨) |
| (٥) | مجموع الفتاوى (١٢١/٨) | (٦) | النبوات (٢٥٨) |

وقال رحمه الله: («وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾، فإن طائفة من المثبتة للقدر قالوا: إن «ما» ها هنا مصدرية، وأن المراد: خلقكم وخلق أعمالكم، وهذا ضعيف جداً.

والصواب أن «ما» ها هنا بمعنى «الذي»، وأن المراد: والله خلقكم والأصنام التي تعملونها، كما في حديث حذيفة عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق كل صانع وصنعيته»، وأنه قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ فذمهم وأنكر عليهم عبادة ما ينحتونه من الأصنام، ثم ذكر أن الله خلق العابد والمعبود المنحوت.

وهو سبحانه الذي يستحق أن يُعبد، ولو أريد: والله خلقكم وأعمالكم كلها، لم يكن هذا مناسباً، فإنه قد ذمهم على العبادة، وهي من أعمالهم، فلم يكن في ذكر كونه خالقاً لأعمالهم ما يناسب الذم، بل هو إلى العذر أقرب.

ولكن هذه الآية تدل على أنه خالق لأعمال العباد من وجه آخر، وهو أنه إذا خلق المعمول الذي عملوه، وهو الصنم المنحوت، فقد خلق التاليف القائم به، وذلك مسبب من عمل ابن آدم، وخالق المسبب خالق السبب بطريق أولى) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأما جوابه عن احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ٩٦)، بأن المراد بذلك الأصنام، فلا ننازعه في أن المراد بذلك الأصنام، فإن هذا هو أصح القولين. و«ما» بمعنى «الذي» ومن قالها: إنها مصدرية، والمراد: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ٩٦) فهو ضعيف، فإن سياق الكلام إنما يدل على الأول، لأنه قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾، فأنكر عليهم عبادة المنحوت، فالمناسب أن يذكر ما يتعلق بالمنحوت، وأنه مخلوق لله.

والتقدير: والله خلق العابد والمعبود. ولأنه لو قال: والله خلقكم وعملكم، لم يكن في هذا ما يقتضي ذمهم على الشرك، بل قد يقال: إنه إقامة عذر لهم.

وذلك لأن «الواو» في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ٩٦) واو الحال. والحال هنا شبه الظرف، كلاهما قد يتضمن معنى التعليل.

كما يقال: أتذم فلاناً وهو رجل صالح وتسيء إليه وهو محسن إليك؟ فتقرر بذلك ما يوجب ذمه ونهيه عما أنكرته عليه.

وهو سبحانه ينكر عليهم عبادة ما ينحتون، فذكر قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ متضمناً ما يوجب ذمهم على ذلك ونهيهم عنه، وذلك كون الله تعالى خلق معمولهم، ولو أريد: والله خلقكم وعملكم الذي هو الكفر وغيره، لم يكن في ذلك ما يناسب ذمهم، ولم يكن في بيان خلق الله تعالى لأفعال عباده ما يوجب ذمهم على الشرك.

لكن يقال: هذه الآية تدل على أن أعمال العباد مخلوقة؛ لأنه قال: والله خلقكم والذي تعملونه من الأصنام، والأصنام كانوا ينحتونها، فلا يخلو: إما أن يكون المراد خلقه لها قبل النحت والعمل، أو قبل ذلك وبعده.

فإن كان المراد ذكر كونها مخلوقة قبل ذلك، لم يكن فيها حجة على أن المخلوق هو المعمول المنحوت. لكن المخلوق ما لم يُعمل ولم ينحت.

وإن كان المراد خلقها بعد العمل والنحت، فمن المعلوم أن النحت الذي فيها [هو] أثرهم وعملهم.

وعند القدرية أن المتولد عن فعل العبد فعُله لا فعل الله، فيكون هذا النحت والتصوير فعلهم لا فعل الله. فإذا ثبت أن الله خلقها بما فيها من التصوير والنحت، ثبت أنه خالق ما تولد عن فعلهم، والمتولد لازم للفعل المباشر وملزوم له، وخلق أحد المتلازمين يستلزم خلق الآخر، فدللت الآية أنه خالق أفعالهم القائمة بهم، وخالق ما تولد عنها، وخالق الأعيان التي قام بها المتولد، ولا يمكن أن يكون أحد المتلازمين عن الرب والآخر عن غيره، فإنه يلزم افتقاره إلى غيره.

وأيضاً نفس حركاتهم تدخل في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ فإن أعراضهم داخله في مسمى أسمائهم، فالله تعالى خلق الإنسان بجميع أعراضه، وحركاته من أعراضه. فقد تبين أنه خلق أعمالهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ وما تولد عنها من النحت والتصوير بقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فثبت أنها دالة على أنه خالق هذا وهذا، وهو المطلوب. مع أن الآيات الدالة على خلق أعمال العباد كثيرة، كما تقدم التنبيه عليها، [لكن خلقه للمصنوعات مثل الفلك والأبنية واللباس، هو نظير خلق المنحوتات، كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) [يسر]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بِأَسْكُمُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ

عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ [النحل: ١. هـ^(١)].

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

(ولهذا أمر إبراهيم الخليل بذبح ابنه، فإنه كان قد سأل الله أن يهبه إياه، ولم يكن له ابن غيره. فإن الذبيح هو إسماعيل على أصح القولين للعلماء وقول أكثرهم، كما دل عليه الكتاب والسنة. فقال الخليل: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾﴾ قال الله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١١٤﴾﴾، والغلام الحليم إسماعيل، وأما إسحاق فقال فيه: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿١١٥﴾﴾ [الذاريات: ٢٨]، وإسحاق بُشِّرَ به سارة أيضاً لما غارت من هاجر، والله ذكر قصته بعد قصة الذبيح، فإنه لما ذكر قصة الذبيح قال بعدها: وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين.

والمقصود هنا أن الله أمر الخليل بذبح ابنه - بكره - امتحاناً له وابتلاءً ليخرج من قلبه محبة ما سوى الله ليطمئن كونه خليلاً بذلك، فهذا هو الكمال) ١. هـ^(٢).

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١١٤﴾﴾.

(وكذلك سمى الله نفسه عليمًا حليماً، وسمى بعض عباده عليمًا فقال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ يعني إسحاق، وسمى آخر حليماً فقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١١٤﴾﴾ يعني إسماعيل، وليس العليم كالعليم، ولا الحليم كالحليم) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ومما يدل على أنه إسماعيل قصة الذبيح المذكورة في سورة الصافات. قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١١٤﴾﴾، وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ الحلم، وأنه يكون حليماً. وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الصافات: ١٠٢]؟ وقيل: لم ينعت الله الأنبياء بأقل من الحلم، وذلك لعزة وجوده، ولقد نعت إبراهيم به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿١١٥﴾﴾ [هود]، لأن الحادثة شهدت بحلمها: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَنْتَهِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٦﴾﴾ فَمَا أَسْلَمَا وَتَلَّمَ لِلْجَبِينِ ﴿١١٧﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَكْفُرًا بِآبَائِهِمْ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْءٌ بَلَّغُوا الْمَيْمُتِ ﴿١١٦﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ بِذَبْحِ عَظِيمٍ ﴿١١٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٨﴾ سَلَّمَ عَلَيَّ إِزْهِيمَ ﴿١١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ

(٢) الرد على المنطقيين (٥١٧ - ٥١٨).

(١) منهاج السنة (٣/ ٣٣٦ - ٣٣٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٣).

عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٧﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٨﴾ [الصفافات]، فهذه القصة تدل على أنه إسماعيل من وجوه:

أحدها: أنه بشره بالذبيح وذكر قصته أولاً، فلما استوفى ذلك قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٧﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾، فبين أنهما بشارتان: بشارة بالذبيح، وبشارة ثانية بإسحاق، وهذا بين.

الثاني: أنه لم يذكر قصة الذبيح في القرآن إلا في هذا الموضع، وفي سائر المواضع يذكر البشارة بإسحاق خاصة، كما في سورة هود: من قوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا تُهَيِّئُ لِنُجُوتِكُمْ فَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [هود]، فلو كان الذبيح إسحاق لكان خلفاً للوعد في يعقوب. وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَنْخَفُ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلَيْهِ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَرٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ [الذاريات]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٢﴾ قَالَ أُبَشِّرُمُوهَا أَنْ مَسَّتِ الْكَبْرَ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ [الحجر]، ولم يذكر أنه الذبيح، ثم لما ذكر البشارتين جميعاً: البشارة بالذبيح والبشارة بإسحاق بعده، كان هذا من الأدلة على أن إسحاق ليس هو الذبيح.

ويؤيد ذلك ذكر هبته وهبة، يعقوب لإبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿٦٧﴾ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٦٨﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الثُّبُوتَ وَالْكِتَابَ وَعَاطَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾ [العنكبوت]، ولم يذكر الله الذبيح.

الوجه الثالث: أنه ذكر في الذبيح أنه غلام حليم، ولما ذكر البشارة بإسحاق ذكر البشارة بغلام عليم في غير هذا الموضع، والتخصيص لا بد له من حكمة، وهذا مما يقوي اقتران الوصفين، والحلم هو مناسب للصبر الذي هو خلق الذبيح.

وإسماعيل وصف بالصبر في قوله تعالى: ﴿وَأَذَكَّرَ إِسْمَاعِيلَ وَأَلْيَسَ وَذَا الْكُفْلَ كُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ [ص]، وهذا أيضاً وجه ثالث فإنه قال في الذبيح: ﴿يَتَأْتِيَ أَعْمَلَ مَا تُوَمَّرُ

(١) كذا في الأصل، والآية المقصودة هي قوله تعالى: ﴿وَأَسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكُفْلَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ»، وقد وصف الله إسماعيل أنه من الصابرين، ووصف الله تعالى إسماعيل أيضاً بصدق الوعد في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به.

«الوجه الرابع»: أن البشارة بإسحاق كانت معجزة؛ لأن العجوز عقيم؛ ولهذا قال الخليل ﷺ: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا تَبَشَّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]، وقالت امرأته: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، وقد سبق أن البشارة بإسحاق في حال الكبر، وكانت البشارة مشتركة بين إبراهيم وامرأته.

وأما البشارة بالذبيح فكانت لإبراهيم ﷺ، وامتحن بذبحه دون الأم المبشرة به، وهذا مما يوافق ما نقل عن النبي ﷺ وأصحابه في الصحيح وغيره: من أن إسماعيل لما ولدته هاجر غارت سارة، فذهب إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة، وهناك أمر بالذبح، وهذا مما يؤيد أن هذا الذبيح دون ذلك.

ومما يدل على أن الذبيح ليس هو إسحاق أن الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فكيف يأمر بعد ذلك بذبحه؟ والبشارة ببيعقوب تقتضي أن إسحاق يعيش ويولد له يعقوب، ولا خلاف بين الناس أن قصة الذبيح كانت قبل ولادة يعقوب، بل يعقوب إنما ولد بعد موت إبراهيم ﷺ، وقصة الذبيح كانت في حياة إبراهيم بلا ريب.

ومما يدل على ذلك: أن قصة الذبيح كانت بمكة، والنبي ﷺ لما فتح مكة كان قرنا الكبش في الكعبة، فقال النبي ﷺ للسادن: «إني أمرت أن تخمر قرني الكبش فإنه لا ينبغي أن يكون في القبلة ما يلهي المصلي»^(١).

ولهذا جعلت منى محلاً للنسك من عهد إبراهيم وإسماعيل ﷺ وهما اللذان بنيا البيت بنص القرآن.

ولم ينقل أحد أن إسحاق ذهب إلى مكة، لا من أهل الكتاب، ولا غيرهم، لكن بعض المؤمنين من أهل الكتاب يزعمون أن قصة الذبح كانت بالشام، فهذا افتراء، فإن هذا لو كان ببعض جبال الشام لعرف ذلك الجبل، وربما جعل منسكاً كما جعل المسجد الذي بناه إبراهيم وما حوله من المشاعر.

وفي المسألة دلائل أخرى على ما ذكرناه، وأسئلة أوردها طائفة كابن جرير،

والقاضي أبي يعلى، والسهيلي، ولكن لا يتسع هذا الموضوع لذكرها والجواب عنها، والله عز وجل أعلم (١) هـ.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَاءِ آيَةً أَدَّبُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَكَّابِتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ .

فإن رؤيا الأنبياء وحي معصوم، كما قال ابن عباس وعبيد بن عمير وغيرهما: «رؤيا الأنبياء وحي»^(٢)، وقرأ قول إبراهيم ﷺ: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَاءِ آيَةً أَدَّبُكَ﴾ (١) هـ.^(٣)

﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَكُنَّا لِلْجَبِينِ ﴿١٦٣﴾﴾ .

قال: ﴿وَكُنَّا لِلْجَبِينِ﴾ أي على الجبين (٤) هـ.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَكُنَّا لِلْجَبِينِ ﴿١٦٣﴾ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّابِرْهِمُ ﴿١٦٤﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُو الْبَلْتُوا الْمَيْنُ ﴿١٦٦﴾ وَفَدَيْتُهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٧﴾﴾ .

كأمر الله ﷻ للخليل ﷺ بذبح ابنه، وكان المراد طاعة إبراهيم وبذل ذبح ابنه في محبة الله، وأن يكون طاعة الله ومحبيه ومراده أحب إليه من الابن، فلما حصل هذا المراد، فداه الله بالذبح العظيم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَكُنَّا لِلْجَبِينِ ﴿١٦٣﴾ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّابِرْهِمُ ﴿١٦٤﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُو الْبَلْتُوا الْمَيْنُ ﴿١٦٦﴾ وَفَدَيْتُهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٧﴾﴾ (١) هـ.^(٥)

﴿وَفَدَيْتُهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٧﴾﴾ .

(وقال يعقوب بن بُحَيَّان: سئل أحمد عن رجل حلف بنحر ولده؟ قال: يذبح كبشاً ويتصدق بلحمه. وتلا: ﴿وَفَدَيْتُهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٧﴾﴾، وقال حنبل قال عمى: في رجل، قال: ولدي نحير فحث قال: عليه أن يذبح كبشاً يطعمه المساكين، يروى عن عبد الله بن عباس في رجل نذر أن ينحر نفسه، فقال له: (اذهب فانحر نفسك، ثم قال: أين الرجل؟ فأدركوه. قال: فاذهب فانحر مائة من الإبل في ثلاثة سنين في كل سنة ثلاثاً وثلاثين)، ثم قال بعد: فأمره بكبش، لقوله تعالى: ﴿وَفَدَيْتُهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٧﴾﴾ .

- (١) مجموع الفتاوى (٤/٣٣٢ - ٣٣٦). وانظر أيضاً مختصر الفتاوى المصرية (٥٢٣ - ٥٢٥).
- (٢) لم أجد من خرجه، أما قوله: «رؤيا الأنبياء وحي» فهو حديث ثابت.
- (٣) الرد على المنطقيين (٤٨٦)، مجموع الفتاوى (١٧/٥٣٢).
- (٤) مجموع الفتاوى (٢٣/١٥٧).
- (٥) مناهج السنة (٣/٢٠٢ - ٢٠٣).

وقال أبو طالب: سمعت أحمد يقول في رجل حلف أن ينحر ولده، فقال: عليه كبش يذبحه ويتصدق بلحمه: قال الله: ﴿وَقَدَيْنَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ﴾ (١٧) وقول ابن عباس: لو ذكرت الكبش) ١. هـ^(١).

﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٨).

(وكذلك ذكر مثل ذلك في قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، ومن ذلك: ما جعله من اللعنة الشائعة لمن كذبهم، ومن لسان الصدق والثناء والدعاء لهم، ولمن آمن بهم، كما قال تعالى في قصة نوح: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) سَلَّمَ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) [الصافات]، وكذلك في قصة إبراهيم: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٨) سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٨) أي تركنا هذا القول الذي يقوله المتأخرون. وكذلك في قصة موسى وهارون: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٩) سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (١٩) [الصافات] و﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٢٠) [الصافات] ١. هـ^(٢).

﴿وَلَا تَكْفُرْ لِلَّذِينَ اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢١).

(وقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ﴾ (٢١) وَلَا تَكْفُرْ لِلَّذِينَ اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢١) أَي تَمْرُونَ عَلَيْهِمْ نَهَاراً بِالصَّبَاحِ وَبِاللَّيْلِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢١) ١. هـ^(٣).
﴿فَاسْتَفْتِهِم أَلَيْسَ الْبُنَاتُ لَهُنَّ الْبُتُونُ﴾ (٢٢) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (٢٢) أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ (٢٢) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (٢٢) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٢٢).

(وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًا﴾ (٢٣) فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا﴾ (٢٣) فَالَّتِلْكَ ذِكْرًا﴾ (٢٣)، وقوله في آخر السورة: ﴿فَاسْتَفْتِهِم أَلَيْسَ الْبُنَاتُ لَهُنَّ الْبُتُونُ﴾ (٢٢) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (٢٢) أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ (٢٢) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (٢٢) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٢٢) - إلى قوله - ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (٢٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافَّاتُ﴾ (٢٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (٢٤) فأخبر أن الملائكة صافون يسبحون وأنها صافات صفاً زاجرات زجراً، وهذا مناقض لقولهم فإن العقول العشرة لا تصطف، بل بعضهم فوق بعض في المرتبة والتعلق مع امتناع المصافة عليها عندهم، والأعراض القائمة بالنفس يمتنع وصفها بما ذكره ﴿صَفَّاتٍ﴾ من الاصطفاة والزجر والتلاوة وغير ذلك من الصفات) ١. هـ^(٤).

(٢) الجواب الصحيح (٦/٣٨٨).

(١) نظرية العقد (١٠٥).

(٤) الصفدية (١/٢٠٧ - ٢٠٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/٩٨).

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (١٥٨).

(وأما قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا﴾ فقول هو قولهم: الملائكة بنات الله، وسمى الملائكة جنا لاجتنانهم عن الأبصار، وهو قول مجاهد وقتادة، وقيل قالوا لحي من الملائكة يقال لهم الجن، ومنهم إبليس وهم بنات الله^(١)، وقال الكلبي^(٢) قالوا - لعنهم الله -، بل تزوج من الجن فخرج بينهما الملائكة) ١. هـ^(٣).

وقال القاسمي رحمه الله:

(وكذلك قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية في الفتاوى المصرية: وقيل: إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار. سموا «جناً» لاستتارهم عن الأعين، فإبليس كان منهم، الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا﴾، وهو قولهم: الملائكة بنات الله. ولما أخرجه الله من الملائكة جعل له ذرية) ١. هـ^(٤).

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١١٤) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافِرُونَ﴾ (١١٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسْتَحِقُونَ﴾ (١١٦).

(وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا تصفون كما تُصِف الملائكة عند ربها؟» قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يسدون الأول، فالأول، ويتراصون في الصف»^(٥)، وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَالصَّفَقَاتُ صَفًا﴾ (١) ﴿فَالزَّجْرَاتُ زَجْرًا﴾ (٢) ﴿فَالنَّالِيَاتُ ذِكْرًا﴾ (٣) ولقوله عنهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١١٤) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافِرُونَ﴾ (١١٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسْتَحِقُونَ﴾ (١١٦) ١. هـ^(٦).

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْثَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١).

(فإن لفظها: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْثَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَكُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢) ﴿وَإِنَّا جُنْدَنَا لَهُمُ الْفَالِقُونَ﴾ (١٧٣)، فالكلمة التي سبقت لعباده المرسلين قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢)، أخبر أنه سبق منه كلمة لعباده المرسلين لينصرنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٧١) [طه]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١٧٢) [هود]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (١٧١) [غافر]، وقوله:

(١) ابن جرير (١٠٨/٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/٢٧١ - ٢٧٢).

(٣) مسلم (٤٣٠).

(٤) زاد المسير (٩١/٧).

(٥) أورده القاسمي في تفسيره (١٠٤/٢).

(٦) الرد على المنطقيين (٤٩٧).

﴿وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْنَا لَأَبْرَأُوا لِمُتَّبِعِي آلِ فِرْعَوْنَ وَمِمَّنْ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ حَتَّىٰ لَبِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الشورى: ١٤]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة].

والكلمة في لغة العرب: هي الجملة المفيدة سواء كانت جملة اسمية أو فعلية، وهي القول التام، وكذلك الكلام عندهم هو الجملة التامة.

قال سيبويه: واعلم أنهم يحكون بالقول ما كان كلاماً ولا يحكون به ما كان قولاً. ولكن النحاة اصطلاحوا على أن يسموا ما تسميه العرب حرفاً يسمونه كلمة مثل زيد وعمرو، ومثل: قعد وذهب، وكل حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، مثل: إن وثم، وهل ولعل.

قال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [٤] ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف]، فسمى هذه الجملة كلمة.

وقال تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وهو قول: لا إله إلا الله، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْزَمَهُمْ كَلِمَةَ الْفُرْقَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

وقال النبي ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١)، وقال ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(٢).

وقال النبي ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»^(٣)، ولما شاع عند المشتغلين بالنحو استعمال لفظ الكلمة في الاسم أو الفعل، وحرف المعنى صاروا يظنون أن هذا هو كلام العرب ثم لما وجد بعضهم ما سمعه من كلام العرب أنه يراد بالكلمة الجملة التامة صار يقول:

وكلمة بها كلام قد يؤم^(٤)

.....

(١) البخاري (٦٦٨٢)، ومسلم (٢٠٧٢/٤). (٢) البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٣٧٥٧).

(٣) البخاري (٦٥٦٣)، ومسلم (١٠١٦). (٤) هذا عجز بيت شعر في ألفية ابن مالك.

فيجعل ذلك من القليل .

ومنهم من يجعل ذلك مجازاً^(١)، وليس الأمر كذلك، بل هذا اصطلاح هؤلاء النحاة، فإن العرب لم يعرف عنهم أنهم استعملوا لفظ الكلمة والكلام إلا في الجملة التامة، وهكذا نقل عنهم أئمة النحو كسيبويه وغيره .

فكيف يقال: إن هذا هو المجاز، وإن هذا قليل وكثير .

كما أن لفظ القديم في لغة العرب هو المتقدم على غيره كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيحُونًا هَذَا أَفَنُكَّ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء].

ثم إن من أهل الكلام من خص لفظ القديم بما لم يسبقه عدم، أو ما لم يسبقه غيره، وصار هذا عندهم هو حقيقة اللفظ، حتى صار كثير منهم يظن أن استعمال القديم في المتقدم على غيره مطلقاً مجاز .

فتبين أن مراده تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ من جنس قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزِمَامِكَ ﴿١٢٩﴾﴾ [طه: ١٢٩].

فسبق منه كلمته بما سيكون من نصر المرسلين، وملء جهنم من الجنة والناس أجمعين ونحو ذلك، فحرف هؤلاء الضلال لفظ الآية فقالوا: ﴿لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ وجعلوا ﴿كَلِمَةً﴾ [آل عمران: ٦٤] هي المسيح وليس في اللفظ ما يدل على ذلك بوجه من الوجوه، ولا في كون المسيح سبق لعبادنا المرسلين معنى صحيح، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَكُلُّهُمْ لَمُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [٧٦] ١. هـ^(٢).

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧٨﴾﴾ .

(ولما قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧٨﴾﴾ كان تنزيهه عما وصفوه به متضمناً لعظمته اللازمة لذلك النفي) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي عما يصفه الكفار

(٢) الجواب الصحيح (٣/ ٢٦٤ - ٢٧٠).

(١) كذا في الأصل .

(٣) درء تعارض العقل (٦/ ١٧٧ - ١٧٨).

المخالفون للرسول: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ لسلامة ما قالوه من النقص والعيب: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فالرسول وصفوا الله بصفات الكمال، ونزهوه عن النقائص المناقضة للكمال، ونزهوه عن أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال، وأثبتوا له صفات الكمال على وجه التفصيل، ونفوا عنه التمثيل، فأتوا بإثبات مفصل، ونفي مجمل) ا.هـ^(١).

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧١﴾.

وقال رحمه الله: (ولهذا قال ﷺ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٢﴾ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول، وسلم على المرسلين، لسلامة ما قالوه عن النقص والعيب) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وإن الرسول صلوات الله عليهم جاءوا بنفي مجمل وإثبات مفصل؛ ولهذا قال ﷺ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٢﴾ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وطريقة الرسل هي ما جاء بها القرآن، والله تعالى في القرآن يثبت الصفات على وجه التفصيل وينفي عنه - على طريق الإجمال - التشبيه والتمثيل) ا.هـ^(٣).

(١) الجواب الصحيح (٤/٤٠٥ - ٤٠٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/١٣٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٥٣٧).

سورة ص

وفي أسباب نزول سورة (ص) قال:

(وروى أبو حاتم في صحيحه عن ابن عباس، قال؛ «مرض أبو طالب فأتته قريش، وأتاه النبي ﷺ يعود، وعند رأسه مقعد رجل، فقام أبو جهل فقعد فيه، فشكوا رسول الله ﷺ إلى أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك يقع في آلهتنا. قال: ما شأن قومك يشكونك يا ابن أخي؟ قال: يا عم، إنما أردتهم على كلمة واحدة، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية» فقال: وما هي؟ قال؛ «لا إله إلا الله». فقاموا، فقالوا: «أجعل الآلهة إلهاً واحداً...»؟ قال؛ ونزلت: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿١﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ ﴿٢﴾ (١) ا. هـ (٢).

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ ﴿٣﴾. (يقولون في قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ﴾ أي مع نعاجه) ا. هـ (٣). وقال رحمه الله: (كذلك قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ﴾ فإنه ضمن معنى الضم والجمع فعدي بحرف الغاية مع أن معنى السؤال موجود) ا. هـ (٤).

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ ﴿٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقِيلَ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٤﴾.

قال رحمه الله: (كما أخبر الله تعالى أن داود خرّ راکعاً وأناب، وكما شرع للمسلمين أن يستغفروا في سجودهم).

- (١) الإمام أحمد (١/٢٢٧ - ٢٢٨) ويشهد له ما عند الترمذي (٣٢٣٢) والطبري (٢٣/١٢٥) والحاكم (٢/٤٣٢) والبيهقي (٩/١٨٨) وابن إسحاق في السيرة كما في ابن هشام (٢/٤٤٢ - ٤٤٤)، والحديث حسن إن شاء الله.
- (٢) الجواب الصحيح (٦/١٣٠ - ١٣١). (٣) مجموع الفتاوى (١٣/٣٤٢).
- (٤) الاستغاثة (٨٢).

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، أوله وآخره، علانيته وسره»^(١). وكان أيضاً يقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، ومعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢). وكان يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي؛ يتأول القرآن^(٣).

وثبت في الصحيح لمسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثرُوا الدعاء»^(٤). وفي الصحيح أيضاً لمسلم عن ابن عباس قال: كشف النبي ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر فقال: «يا أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له، ألا وإني نُهيت أن أقرأ القرآن راکعاً أو ساجداً. فأما الركوع فعظموا فهي الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمّن أن يستجاب لكم»^(٥).

ففي هذين الحديثين أنه خص السجود بالأمر بالدعاء فيه. ولهذا كان من أهل العلم من يكره الدعاء في الركوع دون السجود.

وحينئذ فأمرهم بالاستغفار وقولهم حطة في السجود أشبه، فلم يثبت لنا إلى الآن أن الركوع يُسمى سجوداً بخلاف العكس فإنه قال في حق داود: ﴿وَحَرَ رَاكِعًا وَأَنَابًا﴾ وقد ثبت بالنص الصحيح واتفاق الناس أن داود سجد، كما قال النبي ﷺ: «نبىكم ممن أمر أن يقتدى به، سجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ»^(٦). وفي صحيح مسلم عنه أيضاً قال: «رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها»^(٧) وفي الترمذي وغيره عن ابن عباس قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأنني أصلي خلف شجرة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذكراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود؛ فقرأ النبي ﷺ سجدة ص ثم سجد، فسمعتته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل من قول الشجرة»^(٨).

(١) مسلم (٥٠/٢).

(٢) البخاري (١٥٩/٢)، ومسلم (٥٠/٢).

(٣) مسلم (٤٨/٢).

(٤) مسلم (٥١/٢).

(٥) مسلم (٤٨/٢).

(٦) مسلم (٤٨/٢).

(٧) هو في البخاري (٤٠/٢) وليس في مسلم.

(٨) الترمذي وابن ماجه وقد حسنه الألباني.

والآثار عن السلف متواترة بأن داود سجد، فكل ساجد راعع، وليس كل راعع ساجداً، فإنه إذا سجد من قيام انحنى الراكع وزاد فإنه يصير ساجداً، ولو صلى قاعداً أيضاً انحنى انحناء الركوع وزاد فإنه يصير ساجداً، فالساجد راعع وزيادة، فلهذا جاز أن يُسمّى راععاً وأن يُجعل الركوع نوعين: ركوعاً خفيفاً، وركوعاً تاماً، فالقيام هو السجود، بخلاف لفظ السجود فإنه إنما يستعمل في غاية الذل والخضوع، وهذه حال الساجد لا الراكع.

لكن ليس من شرط السجود مطلقاً أن يصل إلى الأرض، فقد ثبت في الأحاديث أن النبي ﷺ كان يصلي على راحلته قبل أي وجه توجهت به، ويوتر عليها، غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة.

وقد اتفق المسلمون على أن المسافر الراكب يتطوع على راحلته ويجعل سجوده أخفض من ركوعه وإن كان لا يسجد على مستقر، وكذلك الخائف، قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩]، يصلي إلى القبلة وإلى غير القبلة، ويومئ بالركوع والسجود ولا يصل إلى الأرض.

فعلم أن الهيئة المأمور بها في السجود على الأرض وعلى سبعة أعضاء هي أكمل سجود ابن آدم، وله سجود لا يسجد فيه على الأرض ولا على سبعة، بل يخفض فيه برأسه أكثر من خفض الركوع، ولهذا كان عند جمهور العلماء لو ركع في سجود التلاوة بدلاً عن السجود لم يجزه، ولكن إذا كانت السجدة في آخر السورة فله أن يفعل كما ذكره ابن مسعود أن يكتفي بسجود الصلاة فإنه ليس بينه وبينه إلا الركوع، وهذا ظاهر مذهب أحمد ومذهب أبي حنيفة وغيرهما، لكن قيل: إنه جعل الركوع مكان السجود، والصحيح أنه إنما جعل سجود الصلاة المجزئ كما لو قرأ، فإن الركوع عمل فيه فلم يجعل فصلاً، لا سيما وهو مقدمة للسجود، ومن الناس من قال في قصة داود إنه خرّ ساجداً بعدما كان راععاً. وذكر أن الحسين بن الفضل قال لأبي عبد الله بن طاهر عن قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ [ص: ٢٤]، هل يقال للراكع: خرّ؟ قال: لا ومعناه فخر بعدما كان راععاً، أي سجد. وهذا قول ضعيف، والقرآن إنما فيه: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ لم يقل: خر بعد ما كان راععاً، ولا كان داود حين تحاكموا إليه راععاً، بل كان قاعداً معتدلاً أو قائماً فخر ساجداً، وسؤال ابن طاهر إنما يتوجه إذا أريد بالركوع انحناء القائم كركوع الصلاة، وهذا لا يقال فيه خرّ.

والمراد هنا السجود بالسنة واتفاق العلماء، فالمراد خرّ ساجداً، وسمّاه ركوعاً لأن كل ساجد راكع لا سيما إذا كان قائماً، وسجود التلاوة من قيام أفضل، ولعل داود سجد من قيام، وقيل: خر راكعاً ليبين أن سجوده كان من قيام وهو أكمل، ولفظ «خر» يدل على أنه وصل إلى الأرض فجمع له معنى السجود والركوع، والسجود عبادة تُفعل مجردة عن الصلاة كسجود الشجرة وسجود داود وسجود التلاوة والشكر وسجود الآيات) ١. هـ^(١).

﴿فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَكَابٍ ﴿١٥﴾﴾ .

(والصفاني^(٢)) ومن فوجه إلى عكرمة روى لهم مسلم في صحيحه وعكرمة روى له البخاري في صحيحه وروى الثوري وحماد بن سلمة وسفيان بن عيينة بعضهم عن ابن أبي نجیح وبعضهم عن منصور عن مجاهد عن عبيد بن عمير^(٣) في قوله في قصة داود: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَكَابٍ﴾ قال: «يدنيه حتى يمس بعضه» وهذا متواتر عن هؤلاء. وممن رواه الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل في كتاب «السنة» حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد عن عبيد بن عمير ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قال: ذكر الدنو منه حتى إنه يمس بعضه) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾، أي خليفة عنك من الخلق، ليس المراد أنه خليفة عن الله) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (اتباع الهوى يكون في الحب والبغض، كقوله تعالى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٣١﴾﴾، فهنا يكون اتباع الهوى هو ما يخالف الحق في الحكم) ١. هـ^(٦).

﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٣١﴾﴾ .

(١) جامع الرسائل (١/٣٢ - ٣٦).

(٢) كذا بالأصل، والصواب بالغين المعجمة، وهو محمد بن إسحاق، أبو بكر.

(٣) أخرجه عبد بن حميد وذكره كما في الدر (٥/٣٠٦).

(٤) الفتاوى (٥/٧٣).

(٥) منهاج السنة (١/٥٠٩).

(٦) جامع الرسائل (٢/٢٠٥).

(ومجرد الحب والبغض هوى: لكن المحرم اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله ولهذا قال [الله لنبيه داود]: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، فأخبر أن من اتبع هواه أضله ذلك عن سبيل الله، وهو هداة الذي بعث به رسوله، وهو السبيل إليه) ١. هـ^(١).

﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ١٨ ﴿.

(وأما أهل البر والتقوى فلا يعاقبهم البتة. قال تعالى: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْمُفْسِدِينَ﴾ ١٨ ﴿، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ١٨ ﴿، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجنابة: ٢١] (٢١) ١. هـ^(٢).

﴿كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَذَّبُوا ءَابَتِهِمْ﴾ ١٩ ﴿.

(ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره بل قال: ﴿كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَذَّبُوا ءَابَتِهِمْ﴾، وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات وما لا يعقل له معنى لا يتدبر) ١. هـ^(٣).

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ٢٠ ﴿.

(وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عفريتاً من الجن جاء يفتك بي البارحة ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله ﷻ منه فدعته فأردت أن أخذه فأربطه إلى سارية من المسجد حتى تصبحوا فتتنظروا إليه، ثم ذكرت قول سليمان ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ فرده الله تعالى خاسئاً».

وعن عائشة أن النبي ﷺ كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه ﷻ فصرعه فخرقه، قال رسول الله ﷺ: «حتى وجدت برد لسانه على يدي، ولولا دعوة سليمان لأصبح موثقاً حتى يراه الناس». أخرجه النسائي وإسناده على شرط البخاري كما ذكر ذلك أبو عبد الله

(١) الاستقامة (٢/٢٢٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨ - ١٣٤)، الاستقامة (٢/٢٢٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/٢٧٥).

المقدسي في مختاره الذي هو خير من صحيح الحاكم. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ كان يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل» رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه.

وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء أنه قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك» ثم قال: «ألعنك بلعنة الله ثلاثاً» وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من صلاته قلنا: يا رسول الله سمعناك تقول شيئاً في الصلاة لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك. قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فاستأخر. ثم أردت أن أخذه ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان المدينة^(١)» ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (فالنبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما الصلاة والسلام قال الله تعالى في قصة سليمان الذي ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنَّا بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ﴿٢٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٢٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٢٧﴾ وَمَآخِرِينَ مُمْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَانْتُنَّ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٩﴾) أي أعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك، فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه ويترك ما حرم الله عليه ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه ويختار من غير إثم عليه.

وأما العبد الرسول فلا يعطي أحداً إلا بأمر ربه ولا يعطي من يشاء ويحرم [من يشاء بل روى عنه] أنه قال: «إني والله لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً، إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت»، ولهذا يضيف الله الأموال الشرعية إلى الله والرسول كقوله تعالى: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]، وقوله تعالى: ﴿مَّا آفَاةَ اللَّهِ عَلَى رُسُلِهِ مِن أَهْلِ الْقُرَىٰ قُلْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الحشر: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ﴾

(١) البخاري (٤٨٠٨)، ومسلم (٥٤١) أما بقية الروايات فموجودة كما ذكرها شيخ الإسلام.

(٢) مجموع الفتاوى (١٧٠/١١ - ١٧١).

وَلِلرَّسُولِ ﴿الأنفال: ٤١﴾ ا. ه. (١).

﴿فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخِرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ .

(وأما التسخير الذي سخره لسليمان فلم يكن لغيره من الأنبياء فضلاً عن من ليس بنبي وقد سأل ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ ، قال تعالى: ﴿فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخِرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَلِسْتِمْنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يُفْضُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَلِسْتِمْنَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِ ابْتِغَى مِنْ بَيْنِهِمْ عَنَّا آثِرًا نَدْفَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٧٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَتَمَثَّلَ بِحُفَّانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣١﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةً الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتِهِمْ فَلَمَّا خَرَ تَيِّبَتِ لِجَنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤٠﴾﴾ [سبا]، وكذلك ما ذكره من قول العفريت له ﴿أَنَا إِلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ فهذه الطاعة من التسخير بغير اختيارهم في مثل هذه الأعمال الظاهرة العظيمة ليس مما فعلته بأحد من الإنس وكان ذلك بغير أن يفعل شيئاً مما يهوونه من العزائم والأقسام والطلاسم الشركية كما يزعم الكفار أن سليمان سخرهم بهذا فنزله الله من ذلك بقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَئِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرَةَ﴾ [البقرة: ١٠٢] ا. ه. (٢).

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ .

(قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ ، قالوا: معناه أعط من شئت، وامنع من شئت، لا نحاسبك) ا. ه. (٣).

(١) مجموع الفتاوى (١١/١٨٠ - ١٨١) . (٢) النبوات (٢١١) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٤٦٨) ، (١٠/٢٨١) ، جامع الرسائل (٢/٨٨) .

وقال رحمه الله: (قيل لسليمان: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٦٩﴾ فهذا نبي ملك. فالملك هنا قسيم العبد الرسول، كما قيل للنبي ﷺ: «اختر إما عبداً رسولاً، وإما نبياً ملكاً»^(١) ١. هـ.^(٢)

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٤٤﴾ .

قال رحمه الله: (فإن قيل: فهذا الذي ذكرتموه من الأدلة على بطلان الحيل معارض بما يدل على جوازها وهو قوله سبحانه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ فقد أذن الله سبحانه لنبيه أيوب عليه السلام أن يتحلل من يمينه بالضرب بالضغث وقد كان في ظاهر الأمر عليه أن يضرب ضربات متفرقة وهذا نوع من الحيلة فنحن نقيس سائر الباب على هذا (قلنا) أولاً: ليس هذا مما نحن فيه فإن الفقهاء في موجب هذه اليمين في شرعنا عند الإطلاق على قولين (أحدهما) قول من يقول موجبها الضرب مجموعاً أو مفزقاً ثم منهم من يشترط مع الجميع الوصول إلى الضروب فعلى هذا تكون هذه الفتيا موجب هذا اللفظ عند الإطلاق وليس هذا بحيلة إنما الحيلة أن يصرف اللفظ عن موجهه عند الإطلاق (والثاني) أن موجهه الضرب المفزق فإذا كان هذا موجب شرعنا لم يصح الاحتجاج علينا بما يخالف شرعنا لأن شرع من قبلنا إنما يكون شرعاً لنا إذا لم يجيء شرعنا بخلافه (وقلنا ثانياً:) من تأمل الآية علم أن هذه الفتيا خاصة الحكم فإنها لو كانت عامة في حق كل أحد لم يخف على نبي كريم موجب يمينه ولم يكن في اقتصاصها علينا كبير عبرة وإنما يقص ما خرج عن نظائره ليعتبر به أما ما كان مقتضى العبارة والقياس فلا يقص ولأنه قد قال عقيب هذه الفتيا إنا وجدناه صابراً وهذه الجملة خرجت مخرج التعليل كما في نظائره فعلم أن الله إنما أفتاه بهذا جزاء له على صبره تخفيفاً عنه ورحمة به لأن هذا هو موجب هذه اليمين (وقلنا ثالثاً:) معلوم أن الله سبحانه إنما أفتاه بهذا لثلاث أسباب كما أخبر الله وكما نقل أهل التفسير أنه كان قد حلف لئن شفاه الله سبحانه ليضربنها مائة سوط لما تمثل لها الشيطان وأمرها بنوع من الشرك لم تفتن له لتأمر به أيوب وهذا يدل على أن كفارة الأيمان لم تكن مشروعة

(١) أحمد في مسنده (٢٣١/٢) وهناد في «الزهد» (٧٩٦) وأبو يعلى (٦١٠٥)، وابن حبان (٢٨٠)، ٦٣٦٥ - الإحسان) البزار (٢٤٦٢) - الزوائد) والحديث صحيح، راجع السلسلة الصحيحة (١٠٠٢) وفتح الباري (٥٤١/٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٤/٣٥).

في تلك الشريعة بل ليس في اليمين إلا البر أو الحنث كما هو في النذر نذر التبرر في شريعتنا وكما قالت عائشة رضي الله عنها: كان أبو بكر لا يحنث في يمينه حتى أنزل الله كفارة اليمين فعلم أنها لم تكن مشروعة في أول الإسلام وإذا كان كذلك فصار كأنه قد نذر ضربها وهو نذر لا يجب الوفاء به لما فيه من الضرر عليها ولا يغني عنه كفارة يمين لأن تكفير النذر فرع تكفير اليمين فإذا لم يكن هذا مشروعاً فذاك أولى والواجب بالنذر يحتذى به حذو الواجب بالشرع فإذا كان الضرر الواجب بالشرع في الحد يجب تفرقه إذا كان المضروب صحيحاً ويضرب بعثكول النخل ونحوه إذا كان مريضاً بأيوساً منه عند الجماعة أو مريضاً على الإطلاق عند بعضهم كما جاءت بذلك السنة عن رسول الله ﷺ جاز أن يقام الواجب بالنذر مقام ذلك وقد كانت امرأة أيوب امرأة ضعيفة وكريمة على ربها فخفف عنها الواجب بالنذر بجمع الضربات كما يخفف عن المريض ونحوه. ألا ترى أن السنة قد جاءت فيمن نذر الصدقة بجميع ماله أنه يجزيه الثلث أقيم في النذر الثلث مقام الجميع كما أقيم مقامه في الوصية وغيرها لما في إخراج الجميع من الضرر وجاءت السنة فيمن نذرت الحج ماشية أن تركب وتهدي إقامة لترك بعض الواجب بالنذر مقام ترك بعض الواجب بالشرع من المناسك وأفتى ابن عباس وغيره فيمن نذر ذبح ابنه بشاة إقامة لذبح الشاة مقام ذبح الابن كما شرع ذلك للخليل ﷺ وأفتى أيضاً فيمن نذر أن يطوف على أربع بأن يطوف أسبوعين إقامة لأحد الأسبوعين مقام طواف اليمين وهذا كثير فكانت قصة أيوب والله أعلم من هذا الباب. وغير مستكثر في واجبات الشريعة أن يخفف الله الشيء عند المشقة بفعل ما يشبهه من بعض الوجوه كما في الإبدال وغيرها ولكن مثل هذا لا يحتاج إليه في شريعتنا؛ لأن رجلاً لو حلف أن يضرب امرأته أمكنه أن يكفر يمينه من غير احتياج إلى تخفيف الضرب ولو نذر ذلك فأقصى ما عليه كفارة يمين عند الإمام أحمد وغيره ممن يقرون بكفارة اليمين في نذر المعصية والمباح أو يقال لا شيء عليه بالكلية، وهذا معنى حسن لمن تأمله (ومما يوضح ذلك) أن المطلق من كلام الآدميين محمول على ما فسر به المطلق من كلام الشارع خصوصاً في الأيمان فإن الرجوع فيها إلى عرف الخطاب شرعاً أو عادة أولى من الرجوع فيها إلى موجب اللفظ في أصل اللغة ثم إن الله سبحانه لما قال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَاجْلِدُوهُمْ نَعْنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] فهم المسلمون من ذلك أن الزاني والقاذف إذا كان

صحيحاً لم يجز ضربه إلا مفرقاً وإن كان مريضاً مأيوساً من برئه ضرب بعثكول النخل ونحوه وإن كان مرجو البرء فهل يؤخر إقامة الحد عليه أو يقام على الخلاف المشهور فكيف يقال إن الحالف ليضربن يكون موجب يمينه الضرب المجموع مع صحة المضروب وجَلَدِهِ، هذا خلاف القاعدة، فعلم أن قصة أيوب كان فيها معنى يوجب جواز الجمع وإن كان ذلك ليس موجب الإطلاق وهو المقصود وإنما ذكرنا هذا المختصر لأن عمدة المحتالين ما تأولوا عليه هذه الآية ولا يخفى فساد تأويلهم لمن تأمل) ا. هـ (١).

﴿وَأَذْكُرْ عِبَدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ﴿٤٥﴾ .

(وقد قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ﴿٤٥﴾ فذكر النوعين قال الوالبي عن ابن عباس (٢) يقول: أولوا القوة في العبادة، قال ابن أبي حاتم (٣): وروي عن سعيد بن جبيرة وعطاء الخراساني والحسن والضحاك والسدي وقتادة وأبي سنان ومبشر بن عبيد نحو ذلك. و(الأبصار) قال: الأبصار الفقه في الدين (٤). وقال مجاهد (٥): ﴿الْأَبْصَارُ﴾ الصواب في الحكم. وعن سعيد بن جبيرة (٦) قال: البصيرة بدين الله وكتابه. وعن عطاء الخراساني: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ قال: أولوا القوة في العبادة والبصر والعلم بأمر الله، وعن مجاهد وروى عن قتادة (٧) قال: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين) ا. هـ (٨).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ﴿٤٥﴾ فوصفهم بالقوة في العمل والبصيرة في العلم، وأصل القوة قوة القلب الموجبة لمحبة الخير وبغض الشر، فإن المؤمن قوته في قلبه، وضعفه في جسمه والمنافق قوته في جسمه وضعفه في قلبه فالإيمان لا بد فيه من هذين الأصلين: التصديق بالحق والمحبة له؛ فهذا أصل القول، وهذا أصل العمل) ا. هـ (٩).

وقال رحمه الله: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ﴿٤٥﴾

- | | | | |
|-----|-------------------------------------------|-----|-------------------------------|
| (١) | الفتاوى (٣/ ١٥٠ - ١٥٢). | (٢) | ابن جرير (٢٣/ ١٧٠). |
| (٣) | ابن أبي حاتم وغير موجود. | (٦) | بلفظ آخر في الدر (٥/ ٣١٨). |
| (٤) | هذا تابع لكلام ابن عباس من رواية الوالبي. | (٧) | ابن جرير (٢٣/ ١٧٠). |
| (٥) | بلفظ آخر عند ابن جرير (٢٣/ ١٧٠). | (٨) | مجموع الفتاوى (١٩/ ١٧٠). |
| (٦) | ابن جرير (٢٣/ ١٧٠). | (٩) | مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٠ - ٥٤١). |

فالأيدي القوة في أمر الله، والأبصار البصائر في دين الله، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه) ا.هـ^(١).

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مَّفْنَنَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ (٥١).

قوله: ﴿مَّفْنَنَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ أي أبوابها) ا.هـ^(٢).

﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٥٢).

وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٥٢). فالدائم الذي لا ينفد - أي لا ينقضي - هو النوع، وإلا فكل فرد من أفرادها نافذ منقض ليس بدائم) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٥٢)، وقال تعالى: ﴿أَكُلْهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] إلى غير ذلك من النصوص الدالة على بقاء نعيم الجنة) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَكُلْهَا دَائِمًا﴾، وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٥٢)، فالجنس دائم لا نفاذ له، وكل واحد واحد من أفراد الرزق المأكل ينفد لا يدوم) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وعلى هذا فهؤلاء لا ينازعون في الانتهاء بهذا المعنى، بل يقولون: كل ما مضى من الحوادث فقد انتهى وانقضى وانصرم وفرغ.

وهذا هو الذي نفاه الله عن كلماته، وعن نعيم أهل الجنة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٥٢) ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٥٢)، والمراد أن نوعه لا ينفد، وإن كان كل جزء منه ينفد، أي ينقضي وينصرم) ا.هـ^(٧).

وقال رحمه الله: (فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٥٢) فأخبر أنه: لا ينفد، فلا يكون له انقضاء، ولا فراغ وآخر ينتهي عنده) ا.هـ^(٨).

(١) مجموع الفتاوى (٩٢/٤ - ٩٣)، منهاج السنة (١٣/٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٥٥٠/٢١). (٣) منهاج السنة (٣١٠/١).

(٤) منهاج السنة (٣١٠/١).

(٥) درء تعارض العقل (٣٤٤/٨) (١٥٢/٩)، طريق الوصول (١٩٣).

(٦) درء تعارض (١٨١/٩). (٧) منهاج السنة (١٥٤/٢).

(٨) الرد على من قال بفساد الجنة والنار (٥٢).

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِدِينَ﴾ (٧٦).

(وقد قال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (٧٦) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِدِينَ ﴿٧٦﴾، فأمرهم بالسجود له إكراماً لما شرفه الله بنفخ الروح فيه، وإن كان مخلوقاً من طين، والملائكة مخلوقون من نور، وإبليس مخلوق من نار، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «خلق الله الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» (١) ١. هـ (٢).

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ (٧٧).

(إن إبليس كفر، كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ (٧٧)، فلو قدر أنه كان له عمل صالح حبط بكفره. كذلك غيره إذا كفر حبط عمله، فأين تشبيه المؤمنين بهذا؟! ١. هـ (٣).

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغٰلِينَ﴾ (٧٨).

(إنه مخلوق بيدي الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾ (٧٨) ١. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (والمتاؤلون للصفات الذين حرفوا الكلم عن مواضعه وألحدوا في أسمائه وآياته تأولوا قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾ على هذا كله، فقالوا: إن المراد نعمته، أي نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، وقالوا: بقدرته وقالوا: اللفظ كناية عن نفس الجود؛ من غير أن يكون هناك يد حقيقة؛ بل هذه اللفظة قد صارت حقيقية في العطاء والجود. وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾ أي خلقته أنا، وإن لم يكن هناك يد حقيقية، قلت له: فهذه تأويلاتهم؟ قال: نعم، قلت له: فننظر فيما قدمنا:

(المقام الأول): أن لفظ «اليدين» بصيغة التثنية لم يستعمل في النعمة ولا في القدرة؛ لأن من لغة القوم استعمال الواحد في الجمع كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ﴾ [العصر]، ولفظ الجمع في الواحد كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ إِنْ أَرَادُوا أَنْ يَنْظُرُوا لَجِنًا غٰلِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولفظ الجمع في الاثنين كقوله: ﴿صَعَتَ قُلُوبُهُمْ كُلًّا﴾ [التحریم: ٤]؛ أما

(٢) منهاج السنة (٢/٤٣٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٦/١٥).

(١) مسلم (٢/٢٢٩٤).

(٣) منهاج السنة (٤/٧٤).

استعمال لفظ الواحد في الاثنين، أو الاثنين في الواحد فلا أصل له؛ لأن هذه الألفاظ عدد وهي نصوص في معناها لا يتجاوز بها، ولا يجوز أن يقال: عندي رجل ويعني رجلين، ولا عندي رجلان ويعني به الجنس؛ لأن اسم الواحد يدل على الجنس والجنس فيه شياخ، وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس والجنس يحصل بحصول الواحد.

فقوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّْ﴾ لا يجوز أن يراد به القدرة؛ لأن القدرة صفة واحدة؛ ولا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد.

ولا يجوز أن يراد به النعمة لأن نعم الله لا تحصى؛ فلا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية.

ولا يجوز أن يكون ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّْ﴾ لأنهم إذا أرادوا ذلك أضافوا الفعل إلى اليد فتكون إضافته إلى اليد إضافة له إلى الفعل، كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، ﴿قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، ومنه قوله: ﴿وَمِمَّا عَمِلْتَ آيَاتِنَا أَنْعَمْنَا﴾ [يس: ٧١].

أما إذا أضاف الفعل إلى الفاعل، وعدى الفعل إلى اليد بحرف الباء كقوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّْ﴾ فإنه نص في أنه فعل الفعل بيديه ولهذا لا يجوز لمن تكلم أو مشى: أن يقال فعلت هذا بيدك، ويقال: هذا فعلته يداك، لأن مجرد قوله: فعلت كاف في الإضافة إلى الفاعل، فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان ذلك زيادة محضة من غير فائدة، ولست تجد في كلام العرب ولا العجم - إن شاء الله تعالى - أن فصيحاً يقول: فعلت هذا بيدي، أو فلان فعل هذا بيديه، إلا ويكون فعله بيديه حقيقة. ولا يجوز أن يكون لا يد له، أو أن يكون له يد والفعل وقع بغيرها) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (والفرق بين قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّْ﴾ وقوله: ﴿وَمِمَّا عَمِلْتَ آيَاتِنَا﴾ من وجهين:

(أحدهما): أنه هنا أضاف الفعل إليه وبيّن أنه خلقه بيديه، وهناك أضاف الفعل إلى الأيدي.

(الثاني): أن من لغة العرب أنهم يضعون اسم الجمع موضع التثنية إذا أمن اللبس، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] أي يديهما،

وقوله: ﴿فَقَدْ صَعَتِ قُلُوبُكُمْ﴾ [التحریم: ٤] أي قلباكم، فكذلك قوله: ﴿مِمَّا عَمِلْتُمْ أَيْدِيَانَا﴾ (١) هـ.

وقال رحمه الله نقلاً عن إبانة أبي الحسن الأشعري: (ويقال لأهل البدع: لم زعمتم أن معنى قوله: ﴿يَدَيْ﴾ نعمتي؟ أزعمتم ذلك إجماعاً أو لغة؟ فلا تجدون ذلك في إجماع ولا في لغة. فإن قالوا: قلنا ذلك من القياس. قيل لهم: من أين وجدتم في القياس أن قول الله ﷻ: ﴿خَلَقْتُ يَدَيْ﴾ لا يكون معناه إلا نعمتي؟ ومن أين يمكن أن يعلم العقل أن يفسر لفظة كذا وكذا، مع أننا رأينا الله ﷻ قد قال في كتابه الناطق على لسان نبيه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، ولولا أن القرآن بلسان العرب ما جاز أن تتدبره، ولا أن تعرف العرب معانيه إذا سمعته، فلما كان من لا يحسن كلام العرب لا يحسنه وإنما يعرفه العرب إذا سمعوه علم أنهم علموه؛ لأنه بلسانهم نزل.

قال: وقد اعتل معتل بقول الله ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيْدِي﴾ [الذريات: ٤٧] قال الأيدي القوة، فوجب أن يكون معنى قوله: ﴿يَدَيْ﴾ أي بقدرتي. قيل لهم: هذا التأويل فاسد من وجوه:

(أحدها) أن الأيد ليس بجمع اليد؛ لأن جمع يد أيدي، وجمع اليد التي هي نعمة أيادي، والله ﷻ لم يقل «بأيدي» ولا قال: «بأيادي» وإنما قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيْ﴾ فبطل أن يكون معنى قوله: ﴿يَدَيْ﴾ معنى قوله: ﴿بَيْنَهُمَا بِأَيْدِي﴾.

وأيضاً فلو أراد القوة لكان معنى ذلك بقدرتي، وهذا ناقض لقول مخالفينا ومجانب لمذاهبهم؛ لأنهم لا يثبتون قدرة الله ﷻ، فكيف يثبتون قدرتين؟!

وأيضاً فلو كان الله ﷻ عنى بقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيْ﴾ القدرة لم يكن لآدم على إبليس في ذلك مزية، والله ﷻ أراد أن يرى فضل آدم ﷺ إذ خلقه بيديه دونه، فلو كان خالقاً لإبليس بيده كما خلق آدم بيده لم يكن لتفضيله عليه بذلك وجه، وكان إبليس يقول محتجاً على ربه ﷻ فقد خلقتني بيديك كما خلقت آدم بها، فلما أراد الله تفضيله عليه بذلك قال له موبخاً على استكباره على آدم أن يسجد له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيْ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ فدل ذلك على أنه ليس معنى الآية القدرة كان الله

ﷻ قد خلق الأشياء جميعها بقدرته، وأنه إنما أراد إثبات «يدي» لم يشارك إبليس لآدم في أنه خلق بهما.

قال: وليس يخلو قول الله ﷻ: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ أن يكون يعني بذلك إثبات يدين نعمتين، أو يكون معنى ذلك إثبات يدين جارحتين، أو يكون معنى ذلك إثبات يدين قدرتين، أو يكون معناه إثبات يدين ليسا نعمتين، ولا جارحتين ولا قدرتين، ولا يوصفان إلا كما وصف الله. ولا يجوز أن يكون معنى ذلك نعمتين؛ لأنه لا يجوز أن يقول القائل: عملت بيدي. وهو يعني نعمتي، ولا يجوز أن يعني عندنا ولا عند خصومنا جارحتين، ولا يجوز عند خصومنا أن يعني قدرتين؛ لأنهم لا يثبتون قدرة واحدة فكيف يثبتون قدرتين؟! وإذا فسدت الأقسام الثلاثة صح القسم الرابع وهو أن معنى قوله ﷻ: ﴿يَدَيَّ﴾ إثبات يدين ليستا قدرتين ولا نعمتين ولا جارحتين ولا يوصفان إلا أن يقال: إنهما يدان ليست كالأيدي خارجاً عن سائر الوجوه الثلاثة التي سلفت.

وأيضاً فلو كان معنى قوله: ﴿يَدَيَّ﴾ نعمتي لكان لا فضيلة لآدم ﷺ على إبليس في ذلك على مذاهب مخالفتنا؛ لأن الله قد ابتدأ بنعمة على قولهم كما ابتدأ بذلك لآدم فليس تخلو النعمتان أن تكونا هما بدن آدم، أو تكونا عرضين خلقا في آدم. فإن كان عنى بذلك بدن آدم فالأبدان عند مخالفتنا من المعتزلة جنس واحد، وإذا كان الأبدان عندهم جنساً واحداً فقد حصل في جسد إبليس على مذاهبهم من النعمة ما حصل في جسد آدم، وكذلك إن كان عنى عرضين فليس من عرض فعله في بدن آدم من كون أو حياة أو قوة أو غير ذلك إلا وقد فعل من جنسه عندهم في بدن إبليس، فهذا [لا] يوجب الأفضلية لآدم على إبليس في ذلك، والله ﷻ إنما احتج على إبليس بذلك ليدله أن لآدم في ذلك الفضيلة، فدل على ما قلناه على أن الله ﷻ قال: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ لم يعن نعمتي.

ويقال لهم: ما أنكرتم أن يكون الله ﷻ عنى بقوله «يدي» يدين ليستا نعمتين؟ فإذا قالوا: لأن اليدين إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة قيل لهم: ولم قضيتم أن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة؟ فإن قالوا رجعنا إلى الشاهد وإلى ما نجد فيما بيننا مخلوقاً فوجدنا ذلك إذا لم يكن نعمة في الشاهد لم يكن إلا جارحة. قيل لهم: إن كان رجوعكم إلى الشاهد وعليه عملتم وبه قضيتم على الله ﷻ فكذلك لم تجدوا حياً من

الخلق إلا جسماً لحماً ودماً فاقضوا بذلك على ربكم تعالى؛ وإلا كنتم لقولكم تاركين، ولا اعتلالكم ناقضين. وإن أثبتتم حياً لا كالأحياء فلم أنكرتم أن تكون اليدان التي أخبر الله عنهما يدين ليستا جارحتين ولا نعمتين ولا كالأيدي؟! وكذلك يقال: لم تجدوا مدبراً حكيماً إلا إنساناً وأثبتم الباري مدبراً حكيماً ليس كالإنسان، وخالفتم الشاهد، فقد نقضتم اعتلالكم فلا تمنعوا من إثبات يدين ليسا نعمتين ولا جارحتين ولا كالأيدي من أجل أن ذلك خلاف الشاهد.

فإن قالوا: فإذا أثبتم الله «يدين» لقوله سبحانه: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ فلم لا أثبتم له أيدي لقوله سبحانه: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيَاتِنَا﴾ [يس: ٧١]؟ قيل له: قد أجمع على بطلان قول من قال ذلك، فوجب أن يكون الله ﷻ ذكر أيدي ورجع إلى إثبات يدين؛ لأن الدليل قد دلّ على صحة الإجماع، وإذا كان الإجماع صحيحاً وجب أن يرجع من قوله «أيدي» إلى «يدين» لأن القرآن على ظاهره، ولا يزول عن ظاهره إلا بحجة، فوجدنا حجة أولنا بها الأيدي على الظاهر إلى ظاهر آخر، ووجب أن يكون الظاهر الآخر على حقيقة لا يزول عنه إلا بحجة.

فإن قال قائل: إذا ذكر الله الأيدي وأراد يدين فما أنكرتم أن يكون ذكر الأيدي ويريد يداً واحدة؟ قيل له: ذكر الله ﷻ أيدي وأراد يدين لأنهم أجمعوا على بطلان قول من قال أيدي كثيرة، وقول من قال يد واحدة؛ فقلنا يدان؛ لأن القرآن على ظاهره إلا أن تقوم حجة بأن يكون على خلاف ظاهره.

فإن قال قائل: ما أنكرتم أن يكون قوله سبحانه: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيَاتِنَا﴾ على المجاز؟ قيل له حكم كلام الله على ظاهره وحقيقته، ولا يخرج الشيء عن ظاهره إلى المجاز إلا بحجة، ألا ترون أنه إذا كان ظاهر الكلام عموم فإذا ورد بلفظ العموم والمراد به الخصوص فليس على حقيقة الظاهر، وليس يجوز أن يعدل بما ظاهره العموم بغير حجة، فكذاك قوله ﷻ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ على ظاهره من إثبات الأيدي، ولا يجوز أن يعدل به عن ظاهره «الأيدي» إلى ما ادعاه خصومنا بغير حجة، فلو كان ذلك جائزاً لجاز لمدع أن يدعي أن ما ظاهره العموم فهو على الخصوص، وما ظاهره الخصوص فهو على العموم بغير حجة، وإذا لم يجز هذا لمدعيه بغير برهان لم يجز لكم ما ادعيتموه، وأنه محال أن يكون مجازاً بغير حجة؛ بل واجب أن يكون: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ إثبات يدين لله ﷻ في غير نعمتين إذا كانت النعمتان لا يجوز عند أهل

اللسان أن يقول قائلهم: فعلت بيدي وهو يعني نعمتي) ا.هـ^(١).

﴿قَالَ فِعْرِيكَ لِأَعْوِيَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

(والشياطين شياطين الإنس والجن، والعبادة فيها الرغبة والرهبة. قال تعالى: ﴿مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْهِ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فِعْرِيكَ لِأَعْوِيَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص] فاقسم الشيطان ﴿لَأَعْوِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

وقد أخبر الله أنه ليس له سلطان على هؤلاء فقال في الحجر: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر]، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر] قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع في أقوى القولين، إذ العباد هم العابدون، لا المعبودون. كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الإنسان]، وقال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [يَعْقُوبُ] لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص].

وإذا كان عباد الله المخلصون ليس عليهم سلطان، وأن سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، وقد أقسم أن يغويهم إلا عباد الله المخلصين، وأخبر الله أن سلطانه ليس على عباد الله، بل على من اتبعه من الغاوين.

والغِي: اتِّبَاعُ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ الْحُبَّ لغيرِ اللَّهِ كحُبِّ الْأَنْدَادِ، وَذَلِكَ هُوَ الشَّرْكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ

مُشْرِكُونَ ﴿١٣٧﴾ [النحل]، فبيّن أن صاحب الإخلاص، ما دام صادقاً في إخلاصه، فإنه يعتصم من هذا الغي وهذا الشرك، وإن الغي هو يضعف الإخلاص، ويقوّي هواه الشرك) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وكذلك لفظ: «الغي» إذا أطلق تناول كل معصية لله كما في قوله عن الشيطان: ﴿لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ا.هـ^(٢).

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾.

قال رحمه الله: (فإن العبد يقول الحق والباطل، وأما الرب ﷻ فهو يقول الحق ويهدي السبيل، كما قال تعالى: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ ا.هـ^(٣).

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ فلا بد أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه، مع أنه معترف بالرب؛ مقرر بوجوده، وإنما أبى واستكبر عن الطاعة؛ والعبادة؛ والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل، والغاية؛ ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر، والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذي هو إنايته إلى الله، وخشيته له، حتى يكون عابداً له) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾، فقد أقسم سبحانه أنه يملؤها من إبليس وأتباعه، وإنما أتباعه من أطاعه، فمن لم يعمل ذنباً لم يطعه، فلا يكون ممن تُملأ به النار، وإذا مُلئت بأتباعه لم يكن لغيرهم فيها موضع) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾، فلو دخلها أحد من غير أتباعه لم تمتلئ منهم؛ ولهذا ثبت في الصحيحين في حديث تحاج الجنة والنار من حديث أبي هريرة وأنس: «أن النار لا تمتلئ ممن كان ألقى فيها حتى ينزوي بعضها إلى بعض، وتقول قط قط! بعد قولها: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] وأما الجنة فيبقى فيها فضل عمن يدخلها من أهل الدنيا، فينشئ الله لها خلقاً آخر» ا.هـ^(٦).

(١) جامع الرسائل (٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٦٧).

(٣) القواعد النورانية (٨٣).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ١٣).

(٥) منهاج السنة (٥/ ١٠٠).

(٦) البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

(٧) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٤١).

وقال رحمه الله: (وهذا وإن كان قد قاله طوائف منتسبة إلى السنة، فالذي دلّ عليه الكتاب والسنة أن الله لا يدخل النار إلا من عصاه، كما قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥) فلا بد أن يملأ جهنم من اتباع إبليس، فإذا امتلأت لم يكن غيرهم فيها موضع، فمن لم يتبع إبليس لم يدخل النار) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال في القرآن: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥) فأقسم سبحانه أنه لا بد أن يملأ جهنم من إبليس وأتباعه. وأتباعه: هم العصاة، ولا معصية إلا بعد التكليف) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥) وأخبر أنه يملؤها منه ومن أتباعه وهذا يبين أنه لا يدخلها إلا من اتبعه، فعلم أن من يدخلها من الكفار والفساق من أتباع إبليس؛ ومعلوم أن الكفار ليسوا بمؤمنين، ولا عارفين الله معرفة يكونون بها مؤمنين)^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى في خطابه لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥)، فأقسم أنه لا بد أن يملأها منه ومن أتباعه، فدل ذلك على أنه لا يدخلها إلا من اتبع الشيطان، إذ لو دخلها غيرهم لامتلأت من هؤلاء وهؤلاء، وهو خلاف النص) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى في خطابه لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥) فأخبر أنه يملؤها بإبليس ومن اتبعه؛ فإذا ملئت بهم لم يدخلها غيرهم) ا.هـ^(٥).

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

(وكذلك التذكير عام وخاص، فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد، وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة. قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]. ثم قال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ١٨]، فذكر العام والخاص) ا.هـ^(٦).

- | | |
|-----------------------------|----------------------------------|
| (١) مجموع الفتاوى (٣٧٢/٢٤). | (٢) مختصر الفتاوى المصرية (٦٤٣). |
| (٣) مجموع الفتاوى (٢٣٦/٤). | (٤) الصفدية (٣٠٤/٢). |
| (٥) مجموع الفتاوى (١٨٧/١١). | (٦) مجموع الفتاوى (١٥٧/١٦). |

سورة الزمر

وقال في عموم سورة الزمر:

(قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿٣﴾﴾ [الزمر] والسورة كلها عامتها في هذا المعنى. كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر] إلى قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْهُ مُخْلِصًا لِمِ دِينِي ﴿١٣﴾﴾ [الزمر] إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر: ٣٦] إلى قوله: ﴿قُلْ أَوْفَى بِهِ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]. إلى قوله: ﴿أَمْ أَلْمَزْتَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ يَلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر] إلى قوله: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدْ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر] إلى قوله: ﴿بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر] ا. هـ^(١).

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾.

(وقال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾. الضمير يتناول اللفظ والمعنى جميعاً لا سيما ما في قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾؛ فإن الكتاب عند من يقول: «إنَّ كلام الله هو المعنى دون الحروف» اسم للنظم العربي، والكلام عنده اسم للمعنى، والقرآن مشترك بينهما؛ فلفظ الكتاب يتناول اللفظ العربي باتفاق الناس.

فإذا أخبر أن ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ علم أن النظم العربي منزل من الله وذلك يدل على ما قال السلف: أنه منه بدأ، أي هو الذي تكلم به. وهذا «جواب مختصر» عن سؤال السائل بحسب ما احتملته هذه الورقة؛ إذ الكلام على ذلك مبسوط في

مواضع آخر، والله أعلم والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وحسبنا الله ونعم الوكيل) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وفيها

قولان:

«أحدهما» لا حذف في الكلام، بل قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ مبتدأ وخبره ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

والثاني» أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هذا ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ وعلى كلا القولين فقد ثبت أنه منزل منه) ا.هـ^(٢).

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

(فإنه قال في أول هذه السورة: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ فذكر في السورة كلامه ودينه: الكلم الطيب، والعمل الصالح) ا.هـ^(٣).

﴿١﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

(قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. ذكر سبحانه هذا بعد قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾) ا.هـ^(٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٢٤٧).

(٤) الرد على المنطقيين (٥٢٧).

(١) مجموع الفتاوى (٦/٥٤٤).

(٣) الاستقامة (١/٢٢٢ - ٢٢٣).

وقال رحمه الله: (إن مشركي العرب وغيرهم - ممن يُقرّ بأن الربّ فاعل بمشيئته وقدرته، وأنه خالق كل شيء، وأن السموات والأرض مخلوقة لله، ليست مقارنة له في الوجود دائمة بدوامه - كانوا يعبدون غير الله ليقربوهم إليه زلفى، ويتخذونهم شفعاء يشفعون لهم عند الله، بمعنى أنهم يدعون الله لهم فيجيب الله دعاءهم له. وهؤلاء المشركون الذين بين القرآن كفرهم وجاهدهم رسول الله ﷺ على شركهم.

قال تعالى: ﴿رَسَبُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء] قالت طائفة من السلف^(١): كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء، فقال تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم يتوسلون إليّ كما تتوسلون إليّ، ويرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْقَالَ ذَرُّوْا فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰوٰتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ آرَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ومثل هذا في القرآن كثير والعرب كانوا - مع شركهم وكفرهم - يقولون: «إن الملائكة مخلوقون». وكان من يقول منهم «إن الملائكة بنات» يقولون أيضاً «إنهم محدثون» ويقولون: «إنه صاهر إلى الجنّ، فولدت له الملائكة».

(١) مرّ الكلام عليه في سورة الإسراء.

وقولهم من جنس قول النصارى في أن المسيح ابنُ الله، مع أن مريم أمه. ولهذا قرن سبحانه بين هؤلاء وهؤلاء، وقول هؤلاء الفلاسفة شرّ من قول هؤلاء كلهم) ا. هـ (١).

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾ ﴾ .

(قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ والتكوير هو التدوير. ومنه قيل: كار العمامة، وكورها، إذا أدارها. ومنه قيل: للكرة كرة، وهي الجسم المستدير، ولهذا يقال: للإفلاك كروية الشكل؛ لأن أصل الكرة كورة، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، وكورت الكارة إذا دورتها، ومنه الحديث: «إن الشمس والقمر يكوران يوم القيامة كأنهما ثوران في نار جهنم» (٢) وقال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن] مثل حسابان الرحا، وقال: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣] وهذا إنما يكون فيما يستدير من أشكال الأجسام دون المضلعات من المثلث، أو المربع، أو غيرها، فإنه يتفاوت لأن زواياه مخالفة لقوائمه، والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحي، ليس بعضه مخالفاً لبعض) ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ قالوا: «التكوير» التدوير، يقال: كورت العمامة، وكورتها إذا دورتها، ويقال: للمستدير كارة، وأصله «كورة» تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً.

ويقال أيضاً: «كرة» وأصله كورة، وإنما حذفت عين الكلمة كما قيل في ثبة وقلة) ا. هـ (٤).

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ زَوْجِكُمْ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾ .

(قال قطرب (٥) عَلَّاهُ: معناه جعله نزلاً، كما يقال: أنزل الأمر على فلان نزلاً حسناً

(١) الرد على المنطقيين (١٠١ - ١٠٢).

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (١٩٣/٢٥ - ١٩٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٥٨٧/٦ - ٥٨٨).

(٥) هو محمد بن المستنير البصري أبو علي صاحب سيبويه من النحويين توفي سنة (٢٠٧ هـ) (إنباه

الرواة) (٢١٩/٣).

أي جعله نزلاً. قال ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ آزْوَاجٍ﴾ وهذا ضعيف؛ فإن النزول إنما يطلق على ما يؤكل لا على ما يقاتل به قال الله تعالى: ﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ حَمِيرٍ﴾ [الواقعة] والضيافة سميت نزلاً لأن العادة أن الضيف يكون ركباً فينزل في مكان يؤتي إليه بضيافته فيه فسميت نزلاً لأجل نزوله ونزل ببني فلان ضيف؛ ولهذا قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩] لأنه كان ركباً في السفينة، وسميت المواضع التي ينزل بها المسافرون منازل لأنهم يكونون ركباً فينزلون والمشاة تبع للركبان وتسمى المساكن منازل) ١. هـ^(١).

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧).

(وكذلك قوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ علق الرضا بشكرهم وجعله مجزوماً جزاء له، وجزاء الشرط لا يكون إلا بعده) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾: علق الرضا به تعليق الجزاء بالشرط والمسبب بالسبب والجزاء إنما يكون بعد الشرط) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وكذلك قوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ علق الرضا بشكرهم وجعله مجزوماً جزاء له، وجزاء الشرط لا يكون إلا بعده) ١. هـ^(٤).

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ (٨).

(وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ (٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٢٢٦).

(٤) جامع الرسائل (٢/١٥).

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٢٥٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/٤٤٥).

وقوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله لدفعه عنه، كما قال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام].

فدعا الله سبحانه حزبين: حزباً لا يدعونه في الضراء. ولا يتوبون إليه. وحزباً يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه، فإذا كشف الضر عنهم أعرضوا عنه وأشركوا به) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَنَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾).

فقوله سبحانه: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾: أي نسي ما كان يدعو الله إليه. وهو الحاجة التي طلبها، فإن دعاءه كان إليها أي توجهه إليها، وقصده، فهي الغاية التي كان يقصدها. وإذا كانت ما مصدرية، كان تقديره نسي كونه يدعو الله إلى حاجته. كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسْمُومًا﴾ [يونس: ١٢] لكن على هذا يبقى الضمير في إليه عائداً على غير المذكور، بخلاف ما إذا جعلت بمعنى الذي فإن التقدير نسي حاجته الذي دعاني إليها من قبل، فنسي دعاءه الله الذي كان سبب الحاجة، وإلى حرف الغاية. كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام]، فقد أخبر تعالى: أنه يكشف ما يدعون إليه؛ وهي الشدة التي دعوا إليها) ا. هـ (٢).

﴿أَمَنْ هُوَ قَنْتِ عَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾﴾.

(فلما كان لفظ القنوت هو إدامة الطاعة، سمي كل تطويل في قيام أو ركوع أو سجود قنوتاً. كما قال تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنْتِ عَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾) ا. هـ (٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٣٨٦ - ٣٨٧).

(١) مجموع الفتاوى (١٤/٣٧٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٣/١٠١).

وقال رحمه الله: (فإن القنوت هو دوام العبادة والطاعة، ويقال لمن أطال السجود: إنه قانت. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فجعله قانتاً في حال السجود، كما هو قانت في حال القيام، وقدم السجود على القيام) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (القنوت هو إدامة العبادة، سواء كان في حال القيام، أو الركوع أو السجود. كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ فسماه قانتاً في حال سجوده، كما سماه قانتاً في حال قيامه) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (أن الذي يعلم أكمل من الذي لا يعلم، كما أن الذي يقدر أكمل من الذي لا يقدر ولهذا يذكر سبحانه هذه القضية بخطاب استفهام الإنكار الذي يبين أنها مستقرة في الفطر، وأن النافي لها قال قولاً منكراً في الفطر. كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإنه يدل على أنه لا يستوي الذي يعلم والذي لا يعلم، ويدل على أن التسوية منكورة في الفطر، تُنكر على من سَوَّى بينهما) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (تفضيل بني آدم عليهم بالعلم حين سألهم الله ﷻ عن علم الأسماء فلم يجيبوه؛ واعترفوا أنهم لا يحسنونها فأنبأنا آدم بذلك، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ وهذا يبين أن العالم أكمل ممن لا يعلم) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وأما الناسي والمخطئ فإنه لم يكن قد أتى بالعلم والاعتقاد والإرادة، فلا يثاب على هذه الأمور التي لم تكن له، بل يكون الذي حصل له ذلك أفضل منه بها، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، [فنفى المساواة بين الذي يعلم والذي لا يعلم مطلقاً، لم يستثن المعذور كما استثني في تفضيل المجاهد على القاعد المعذور].

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٢٧٣).

(٤) مجموع الفتاوى (٤/٣٦٨).

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/٧٠).

(٣) درء تعارض العقل (١٠/١٥٣).

(٥) مجموع الفتاوى (٦/٨١).

وكذلك سائر ما في القرآن من نحو هذا، كقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۗ وَلَا الْأَضَلُّ وَلَا الْمُرُورُ ۗ وَلَا الْحَرُورُ ۗ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر]، وقوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْبَرَ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]، وقوله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] ا. هـ (١).

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۗ﴾

(خير الكلام كلام الله، وأصل العمل الصالح عبادة الله وحده لا شريك له كما في قوله: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لِمَنْ رِئِي ۗ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۗ﴾ [الزمر] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۗ﴾ [الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۗ] ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۗ﴾ [الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ...])، فاقضى أن غيرهم لم يهده، وهذا يقتضي وجوب الأخذ بالأحسن، وهو مشكل، وقد تكلم الناس فيه) ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وهو قد استدل بقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ على العموم، وهو حجة على صدق ذلك كما تقدم).

وقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، كقوله في هذه السورة: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥]، فهذه الكلمة مثل هذه الكلمة سواء بسواء) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (قد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ والمراد بالقول القرآن، كما فسره بذلك سلف الأمة وأئمتها، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ۗ﴾ [المؤمنون] واللام لتعريف القول المعهود، فإن السورة كلها إنما تضمنت مدح القرآن واستماعه وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضع،

(١) جامع الرسائل (١/ ٢٤٢ - ٢٤٣).

(٢) الاستقامة (١/ ٢٢٣).

(٣) الجواب الصحيح (٦/ ١٧).

(٤) الاستقامة (١/ ٢٣١).

وبينا فساد قول من استدل بهذه على سماع الغنا وغيره، وجعلها عامة، وبينا أن تعميمها في كل قول باطل بإجماع المسلمين.

وهنا سؤال مشهور وهو أنه قال: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ فقد قسم القول إلى حسن وأحسن، والقرآن كله متبع وهذا حجتهم. فيقال: الجواب من ثلاثة أوجه: إلزام وحل.

«الأول» أن هذا مثل قوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥] ومثل قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَفْهُوقَ وَآمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] فقد أمر المؤمنين باتباع أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، وأمر بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسن التوراة، وهذا أبلغ من تلك الآية، فإن تلك إنما فيها مدح باتباع الأحسن، ولا ريب أن القرآن فيه الخبر والأمر بالحسن والأحسن، واتباع القول إنما هو العمل بمقتضاه، ومقتضاه فيه حسن وأحسن، وليس كله أحسن وإن كان القرآن في نفسه أحسن الحديث، ففرق بين حسن الكلام بالنسبة إلى غيره من الكلام، وبين حسنه بالنسبة إلى مقتضاه المأمور والمخبر عنه.

«الوجه الثاني» أن يقال: إنه قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر] والقرآن تضمن خبراً وأمراً، فالخبر عن الأبرار والمقربين، وعن الكفار والفجار، فلا ريب أن اتباع الصنفين حسن، واتباع المقربين أحسن، والأمر يتضمن الأمر بالواجبات والمستحبات، ولا ريب أن الاختصار على فعل الواجبات حسن وفعل المستحبات معها أحسن، ومن اتبع الأحسن فاقتدى بالمقربين وتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض كان أحق بالبشرى.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥] ﴿وَأَمْرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] هو أيضاً أمر بذلك، لكن الأمر يعم أمر الإيجاب والاستحباب، فهم مأمورون بما في ذلك من واجب أمر إيجاب، وبما فيه من مستحب أمر استحباب، كما هم مأمورون مثل ذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] وقوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] والمعروف يتناول القسمين. وقوله: ﴿وَأَقْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧] وهو يعم القسمين: وقوله: ﴿أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧] وأمثال ذلك.

وقال شيخ الإسلام رحمته الله:

فصل

في السماع

(أصل السماع الذي أمر الله به، هو سماع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، سماع فقه وقبول، ولهذا انقسم الناس فيه أربعة أصناف: صنف معرض ممتنع عن سماعه، وصنف سمع الصوت ولم يفقه المعنى، وصنف فقهه ولكنه لم يقبله، والرابع الذي سمعه سماع فقه وقبول^(١)).

قال شيخ الإسلام رحمته الله:

فصل

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾﴾.

(فأخبر سبحانه أنه يسلك الماء النازل من السماء ينابيع، والينابيع جمع ينبوع وهو منبع الماء، كالعين والبئر، فدل القرآن على أن ماء السماء تنبع منه الأرض، والاعتبار يدل على ذلك، فإنه إذا كثرت السماء كثرت الينابيع، وإذا قل قلت).

وماء السماء ينزل من السحاب، والله ينشئه من الهواء الذي في الجو، وما يتصاعد من الأبخرة.

وليس في القرآن أن جميع ما ينبع يكون من ماء السماء، ولا هذا أيضاً معلوماً بالاعتبار، فإن الماء قد ينبع من بطون الجبال، ويكون فيها أبخرة منها الماء، والأبخرة وغيرها من الأهوية قد تستحيل، كما إذا أخذ إناء فوضع فيه ثلج، فإنه يبقى ما أحاط به ماء وهو هواء استحال ماء، وليس ذلك من ماء السماء، فعلم أنه ممكن أن يكون في الأرض ملء ليس من السماء، فلا يجزم بأن جميع المياه من ماء السماء، وإن كان غالبها من ماء السماء. والله أعلم^(٢).

﴿أَفَمَنْ سَرَّحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْفُتَيَّةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/١٦ - ١٧).

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٥ - ٨).

(قال أبو القاسم الأنصاري: ولا اختلاف بين أصحابنا في المعنى فقد سمي الله تعالى الإيمان نوراً فقال: ﴿أَمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾) ١. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿أَمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ فمدح الله الإسلام بمثل ما مدح به الإيمان. وجعله اسم ثناء وتزكية فأخبر أن من أسلم فهو على نور من ربه وهدى، وأخبر أنه دينه الذي ارتضاه، وما ارتضاه فقد أحبه وامتدحه، ألا ترى أن أنبياء الله ورسله رغبوا فيه إليه وسألوه إياه. فقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّلَاحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وقال: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١] وقال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنِ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آل عمران: ٢٠] وقال في موضع آخر: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧] فحكم الله بأن من أسلم فقد اهتدى، ومن آمن فقد اهتدى، فسوى بينهما) ١. هـ (٢).

﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي فَنَقَّعَرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَآ لَمْ يَهْدِ لَهُ مِن هَادٍ (١٣٢)﴾

(فمن تدبر القرآن: تبين له أنه كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي﴾ يشبه بعضه بعضاً. ويصدق بعضه بعضاً. ليس بمختلف ولا يمتناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وهو «مثاني» يثني الله فيه الأقسام. ويستوفيهها.

والحقائق: إما متماثلة؛ وهي «المتشابهة». وإما مماثلة؛ وهي: الأصناف والأقسام والأنواع، وهي «المثاني».

و«التشبية» يراد بها: جنس التعديد. من غير اقتصار على اثنين فقط كما في قوله تعالى: ﴿أَتَجِبَ الْبَصَرَ كَرْتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] يراد به: مطلق العدد، كما تقول: قلت له مرة بعد مرة. تريد: جنس العدد. وتقول: هو يقول كذا، ويقول كذا. وإن كان قد قال مرات،

كقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه «جعل يقول بين السجدين: رب اغفر لي. رب اغفر لي»^(١) لم يرد: أن هذا قاله مرتين فقط، كما يظنه بعض الناس الغالطين، بل يريد: أنه جعل يثني هذا القول، ويردده، ويكرره، كما كان يثني لفظ التسبيح.

وقد قال حذيفة رضي الله عنه في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم «إنه ركع نحواً من قيامه، يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم» وذكر أنه: «سجد نحواً من قيامه، يقول في سجوده: رب اغفر لي. رب اغفر لي».

وقد صرح في الحديث الصحيح «أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة والنساء وآل عمران»^(٢) فإنه قام بهذه السور كلها. وذكر «أنه كان يقول: سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى»^(٣).

فعلم أنه أراد بثنية اللفظ: جنس التعداد والتكرار، لا الاختصار على مرتين. فإن «الاثنتين» أول العدد الكثير. فذكر أول الأعداد، يعني أنه عدد هذا اللفظ، لم يقتصر على مرة واحدة. فالثنوية التعديد. والتعديد يكون للأقسام المختلفة.

وليس في القرآن تكرار محض، بل لا بد من فوائد في كل خطاب. ف«المتشابه» في النظائر المتماثلة. و«المثاني» في الأنواع.

وتكون الثنية في المتشابه، أي هذا المعنى قد ثنى في القرآن لفوائد آخر. و«المثاني» تعم هذا وهذا، و«السبع المثاني» لتضمنها هذا وهذا. وبسط هذا له موضع آخر) ١هـ.^(٤)

وقال رحمه الله: (ومن تدبر القرآن وجد بعضه يفسر بعضاً، فإنه كما قال ابن عباس في رواية الوالبي: مشتمل على الأقسام، والأمثال، وهو تفسير: ﴿مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾).

ولهذا جاء كتاب الله جامعاً. كما قال صلى الله عليه وسلم: «أعطيت جوامع الكلم»^(٥) وقال تعالى: ﴿كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾ فالتشابه يكون في الأمثال، والمثاني في الأقسام، فإن الثنية في مطلق التعديد. كما قد قيل في قوله: ﴿أَنْجِ الْبَصَرَ كَرِيمًا﴾ [الملك: ٤] وكما في قول حذيفة «كنا نقول بين السجدين: رب اغفر لي رب اغفر لي»^(٦) وكما يقال: فعلت

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) مجموع الفتاوى (١٤/٤٠٧ - ٤٠٩).

(٥) مسلم (٥٢٣).

(٦) مرّ تخريجه.

هذا مرة بعد مرة، فتثنية اللفظ يراد به التعديد، لأن العدد ما زاد على الواحد، وهو أول التثنية، وكذلك تثيت الثوب، أعم من أن يكون مرتين فقط أو مطلق العدد، فهو جميعه متشابه، يصدق بعضه بعضاً، لبس مختلفاً، بل كل خبر وأمر منه يشابه الخبر، لاتحاد مقصود الأمرين، ولاتحاد الحقيقة التي إليها مرجع الموجودات.

فلما كانت الحقائق المقصودة والموجودة ترجع إلى أصل واحد، وهو الله سبحانه. كان الكلام الحق فيها خيراً. وأمراً متشابهاً، ليس بمنزلة المختلف المتناقض، كما يوجد في كلام أكثر البشر، والمصنفون - الكبار منهم - يقولون شيئاً ثم ينقضونه، وهو جميعه مثنائي؛ لأنه استوفيت فيه الأقسام المختلفة، فإن الله يقول: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] فذكر الزوجين مثنائي، والأخبار عن الحقائق بما هي عليه بحيث يحكم على الشيء بحكم نظيره، وهو حكم على المعنى الواحد المشترك خيراً أو طلباً خطاب متشابه، فهو متشابه مثنائي) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (كقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ والآثار السلفية تدل على ذلك.

والسلف كانوا مقرين بأن القرآن أحسن الحديث، وأحسن القصص، كما أنه المهيم على ما بين يديه من كتب السماء، فكيف يقال: إن كلام الله كله لا فضل لبعضه على بعض! روى ابن أبي حاتم عن المسعودي^(٢) عن القاسم أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا: حدثنا يا رسول الله! فأنزل الله: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] ثم ملوا ملة فقالوا: حدثنا يا رسول الله، فنزلت: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، ثم ملوا ملة فقالوا: حدثنا يا رسول الله، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وقد روى أبو عبيد في «فضائل القرآن» عن بعض التابعين فقال حدثنا حجاج عن المسعودي عن عون بن عبد الله بن عتبة قال: مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة فقالوا: يا رسول الله! حدثنا، فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ قال: ثم نعتة فقال: ﴿كُنْبًا مُنْشِبَهَا مَثَانِي نَفْسَعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، قال: ثم ملوا ملة أخرى فقالوا: يا رسول الله! حدثنا شيئاً فوق الحديث ودون القرآن، يعنون القصص، فأنزل الله: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا

أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَظِيمِ ﴿٢٢﴾ [يوسف] قال: فإن أرادوا الحديث دلهم على أحسن الحديث، وإن أرادوا القصص دلهم على أحسن القصص (١) هـ.

وقال رحمه الله: (و ضد هذا هو التشابه العام الذي وصف الله به القرآن في قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾، وهذا ليس هو التشابه الخاص الذي وصف الله تعالى به بعض القرآن في قوله: ﴿وَمِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرَى مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فإن ذلك التشابه العام يراد به التناسب والتصادق والاتلاف) (٢) هـ.

وقال رحمه الله: (وقد روي عن مجاهد وعكرمة: المحكم ما فيه من الحلال والحرام، وما سوى ذلك متشابه يصدق بعضه بعضاً. فعلى هذا القول يكون المتشابه هو المذكور في قوله: ﴿كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾. والحلال مخالف للحرام، وهذا على قول مجاهد: إن العلماء يعلمون تأويله؛ لكن تفسير المتشابه بهذا مع أن كل القرآن متشابه، وهنا خص البعض به فيستدل به على ضعف هذا القول) (٣) هـ.

وقال رحمه الله: (وفي قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَشَرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ فوصفه هنا كله بأنه متشابه، أي متفق غير مختلف، يصدق بعضه بعضاً) (٤) هـ.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَشَرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقَلْبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾. فأخبر أنه أحسن الحديث، فدل على أنه أحسن من سائر الأحاديث المنزلة من عند الله وغير المنزلة) (٥) هـ.

وقال رحمه الله: (ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَشَرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقَلْبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾) (٦) هـ.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

- (١) مجموع الفتاوى (٣٩/١٧ - ٤٠). (٢) درء تعارض العقل (١/٢٧٤).
 (٣) مجموع الفتاوى (٣٨٨/١٧)، مرّ تخريج الآثار بذلك في سورة آل عمران.
 (٤) مجموع الفتاوى (٣٨٤/١٧). (٥) مجموع الفتاوى (١١/١٧).
 (٦) مجموع الفتاوى (١١/٢٩٧).

(ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٧٧) قرءاناً عربياً غير ذي عوجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧٨﴾ فذكر القرآن، وبين أنه قدّر فيه من جميع المقاييس والأمثال المضروبة لأجل التذکر، فدعا هنا إلى التذکر والاعتبار بما فيه من الأمثال، وذلك يتضمن النظر والاستدلال والكلام المشروع، كما أنه في الآية الأولى أثنى على أهل السماع له والوجد، وذلك يتضمن السماع والوجد المشروع) ١. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله في كتابه التي قال فيها: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾، فإن الأمثال المضروبة هي الأقيسة العقلية، سواء كانت قياس شمول، أو قياس تمثيل، ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين، وهو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية، وإن كان لفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك، كما سمى الله آيتي موسى برهانين: ﴿فَذَلِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٢٢] ١. هـ (٢).

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَلْحَدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمِيَّتُونَ ﴿٧٩﴾

(ولفظ الإسلام: يتضمن الاستسلام والانقياد، ويتضمن الإخلاص من قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه، وهذا حقيقة قولنا: «لا إله إلا الله» فمن استسلم لله ولغيره فهو مشرك، والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته، وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦٠) [غافر].

وثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان. فقيل له يا رسول الله: الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، أفمن الكبر ذاك؟ فقال: لا. إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» (٣) بطر الحق: جحده ودفعه، وغمط الناس: ازدراؤهم واحتقارهم) ١. هـ (٤).

(١) الاستقامة (١/٢٢٤). (٢) درء تعارض العقل (١/٢٩). (٣) مرّ تخريجه. (٤) اقتضاء الصراط (٢/٨٣٦ - ٨٣٧).

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٣٢).

(ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ فذم سبحانه من كذب أو كذب بحق، ولم يمدح إلا من صدق وصدق بالحق. فلو صدق الإنسان فيما يقوله، ولم يُصدق بالحق الذي يقوله غيره، لم يكن ممدوحاً، حتى يكون ممن يجيء بالصدق ويصدق به، فأولئك هم المتقون) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (ثم قال بعد ذلك: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾، ذكر البخاري في صحيحه تفسير مجاهد - وهو أصح تفسير التابعين - قال: «والذي جاء بالصدق: القرآن، وصدق به: المؤمن، يجيء يوم القيامة يقول: هذا الذي أعطيتني عملت بما فيه» (٢). فذكر الصدق والمصدق به مثباً عليه، وذكر الكاذب والمكذب للحق، وهما نوعان من القول ملعونان هما وأهلهما، فكيف يكون مثباً على من استمعهما؟) ا.هـ (٣).

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٣٣).

(وقد ذكر الله تعالى الذين وعدهم الحسنى فلم ينف عنهم الذنوب فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٣٣) - إلى قوله - لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴿ فذكر المغفرة والتكفير) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٣٣) لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ فقد وصفهم الله بأنهم هم المتقون. و«المتقون» هم أولياء الله، ومع هذا فأخبر أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، وهذا أمر متفق عليه بين أهل العلم والأيمان) ا.هـ (٥).

- (١) درء تعارض العقل (٤٠٤/٨). (٢) البخاري (٤٠٩/٨ - الفتح). (٣) الاستقامة (٢٢٤/١ - ٢٢٥). (٤) مختصر الفتاوى المصرية (١٠٨). (٥) مجموع الفتاوى (٦٧/١١).

وقال رحمه الله: (والله تعالى أمرنا أن لا نكذب ولا نكذب بحق). وإنما مدح سبحانه من يصدق فيتكلم بعلم ويصدق ما يقال له من الحق. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۗ﴾ [العنكبوت]. ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۗ﴾، وهاتان صفتان لنوع واحد، وهو من يجيء بالصدق ويصدق بالحق إذا جاءه، فهذا هو المحمود عند الله. وأما من كذب أو كذب بما جاءه من الحق فذلك مذموم عند الله تعالى) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله راداً على الرافضة:

(والثابت عن مجاهد خلاف هذا، وهو أن الصدق هو القرآن، والذي صدق به هو المؤمن الذي عمل به، فجعلها عامة. رواه الطبري [وغيره]^(٢)).

عن مجاهد قال: هم أهل القرآن يجيئون [به] يوم القيامة، فيقولون: هذا الذي أعطيتمونا قد اتبعنا ما فيه. ورواه أبو سعيد الأشج، قال: حدثنا ابن إدريس، عن ليث^(٣)، عن مجاهد فذكره. وحدثنا المحاربي، عن جوير، عن الضحاك^(٤): وصدق به. قال: المؤمنون جميعاً. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: وصدق به. قال: رسول الله ﷺ^(٥).

الوجه الثاني: أن هذا معارض بما هو أشهر منه عند أهل التفسير، وهو أن الذي جاء بالصدق: محمد، والذي صدق به: أبو بكر، فإن هذا يقوله طائفة، وذكره الطبري بإسناده إلى علي^(٦). قال: جاء به محمد وصدق به أبو بكر. وفي هذا حكاية ذكرها بعضهم عن أبي بكر عبد العزيز بن جعفر غلام أبي بكر الخلال^(٧): أن سائلاً سأله عن هذه الآية، فقال له هو - أو بعض الحاضرين -: نزلت في أبي بكر. فقال السائل: بل في علي؟.

(١) الرد على المنطقيين (٢٧٤).

(٢) البخاري كما مر، والطبري (٤/٢٤).

(٣) ابن كثير (٤/٥٣).

(٤) «زاد المسير» (٧/١٨٢).

(٥) ابن جرير (٣/٢٤).

(٦) ابن جرير (٣/٢٤).

(٧) هو عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزيد المعروف بـ«غلام الخلال» كنيته أبو بكر من الحنابلة معروف له «تفسير القرآن» و«الشافعي» و«التنبيه في الفقه» و«الخلاص مع الشافعي» ولد سنة (٢٨٥) وتوفي سنة (٣٦٣) والحكاية هذه ذكرها صاحب «المقصد الأرشد» (٢/١٢٦) وغيره.

فقال أبو بكر بن جعفر: اقرأ ما بعدها: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ الآية، فبهت السائل.

الثالث: أن يُقال: لفظ الآية عام مطلق لا يختص بأبي بكر ولا بعلي، بل كل من دخل في عمومها دخل في حكمها. ولا ريب أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً أحق هذه الأمة بالدخول فيها، لكنها لا تختص بهم. وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ الآية، فقد ذم الله ﷻ الكاذب على الله والمكذب بالصدق، وهذا ذم عام.

والرافضة أعظم أهل البدع دخولاً في هذا الوصف المذموم؛ فإنهم أعظم الطوائف افتراءً للكذب على الله، وأعظمهم تكذيباً بالصدق لما جاءهم، وأبعد الطوائف عن المجيء بالصدق والتصديق به.

وأهل السنة المحضة أولى الطوائف بهذا؛ فإنهم يصدقون ويصدقون بالحق في كل ما جاء به، ليس لهم هوى إلا مع الحق.

والله تعالى مدح الصادق فيما يجيء به، والمصدق بهذا الحق. فهذا مدح للنبي ﷺ، ولكل من آمن به وبما جاء به. وهو سبحانه لم يقل: والذي جاء بالصدق والذي صدق به، فلم يجعلهما صنفين، بل جعلهما صنفاً واحداً، لأن المراد مدح النوع الذي يجيء بالصدق، ويصدق بالصدق، فهو ممدوح على اجتماع الوصفين، على أن لا يكون من شأنه إلا أن يجيء بالصدق، ومن شأنه أن يصدق بالصدق.

وقوله: ﴿جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ اسم جنس لكل صدق، وإن كان القرآن أحق بالدخول في ذلك من غيره، ولذلك صدق به أي بجنس الصدق وقد يكون الصدق الذي صدق به ليس هو عين الصدق الذي جاء به، كما تقول: فلان يسمع الحق، ويقول الحق ويقبله، ويأمر بالعدل ويعمل به.

أي هو موصوف بقول الحق لغيره، وقبول الحق من غيره، وأنه يجمع بين الأمر بالعدل والعمل به. وإن كان كثير من العدل الذي يأمر به، ليس هو عين العدل الذي يعمل به.

فلما ذم الله سبحانه من اتصف بأحد الوصفين: الكذب على الله، والتكذيب بالحق، إذ كل منهما يستحق به الذم، مدح ضدهما الخالي عنهما، بأن يكون يجيء

بالصدق لا بالكذب، وأن يكون مع ذلك مصدقاً بالحق، لا يكون ممن يقوله هو، وإذا قاله غيره لم يصدقه، فإن من الناس من يصدق ولا يكذب، لكن يكره أن غيره يقوم مقامه في ذلك حسداً ومنافسة، فيكذب غيره في صدقه أو لا يصدقه، بل يعرض عنه. وفيهم من يصدق طائفة فيما قالت، قبل أن يعلم ما قالوه: أصدق هو أم كذب؟ والطائفة الأخرى لا يصدقها فيما تقول وإن كان صادقاً، بل إما أن يصدقها وإما أن يعرض عنها.

وهذا موجود في عامة أهل الأهواء: تجد كثيراً منهم صادقاً فيما ينقله، لكن ما ينقله عن طائفته يعرض عنه، فلا يدخل هذا في المدح، بل في الذم، لأنه لم يصدق بالحق الذي جاءه.

والله قد ذم الكاذب والمكذب بالحق، لقوله في غير آية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: ٢١].

ولهذا لما كان مما وصف الله به الأنبياء، الذين هم أحق الناس بهذه الصفة، أم كلاً منهم يجيء بالصدق فلا يكذب، فكل منهم صادق في نفسه مصدق لغيره.

ولما كان قوله: ﴿وَالَّذِي﴾ صنفاً من الأصناف لا يقصد به واحد بعينه، أعاد الضمير بصيغة الجمع فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وأنت تجد كثيراً من المنتسبين إلى علم ودين لا يكذبون فيما يقولونه، بل لا يقولون إلا الصدق، لكن لا يقبلون ما يخبر به غيرهم من الصدق، بل يحملهم الهوى والجهل على تكذيب غيرهم وإن كان صادقاً: إما تكذيب نظيره، وإما تكذيب من ليس من طائفته.

ونفس تكذيب الصادق هو من الكذب، ولهذا قرنه بالكاذب على الله، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ فكلهما كاذب: [هذا كاذب] فيما يخبر به عن الله، وهذا كاذب فيما يخبر به عن المخبر عن الله.

والنصارى يكثر فيهم المفترون للكذب على الله، واليهود يكثر فيهم المكذبون بالحق. وهو سبحانه ذكر المكذب بالصدق نوعاً ثانياً، لأنه أولاً لم يذكر جميع أنواع الكذب، بل ذكر من كذب على الله. وأنت إذا تدبرت هذا، وعلمت أن كل واحد من الكذب على الله والتكذيب بالصدق مذموم، وأن المدح لا يستحقه إلا من كان آتياً بالصدق مصدقاً للصدق، علمت أن هذا مما هدى الله به عباده إلى صراطه المستقيم.

وإذا تأملت هذا، تبين لك أن كثيراً من الشر - أو أكثره - يقع من أحد هذين، فتجد إحدى الطائفتين، أو الرجلين من الناس، لا يكذب فيما يخبر به من العلم، لكن لا يقبل ما تأتي به الطائفة الأخرى، فربما جمع بين الكذب على الله والتكذيب بالصدق.

وهذا وإن كان يوجد في عامة الطوائف شيء منه فليس في الطوائف أدخل في ذلك من الرافضة؛ فإنها أعظم الطوائف كذباً على الله، وعلى رسوله، وعلى الصحابة وعلى ذوي القربى. وكذلك هم من أعظم الطوائف تكذيباً بالصدق، فيكذبون بالصدق الثابت المعلوم من المنقول الصحيح والمعقول الصريح.

فهذه الآية - والله الحمد - ما فيها من مدح فهو يشتمل على الصحابة الذين افترت عليهم الرافضة وظلمتهم، فإنهم جاءوا بالصدق وصدقوا به، وهم من أعظم أهل الأرض دخولاً في ذلك، وعليهم منهم، وما فيها من ذم فالرافضة أدخل الناس فيه، فهي حجة عليهم من الطرفين، وليس فيها حجة على اختصاص عليّ دون الخلفاء الثلاثة بشيء، فهي حجة عليهم من كل وجه، ولا حجة لهم فيها بحال) ا. هـ^(١).

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ هذا في الذنوب المحققة) ا. هـ^(٢).

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٦٦﴾﴾.

(وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ فهو وحده كاف عبده) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، فبين أن الله يكفي عبده: الذي يعبده، الذي هو من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، الذين هم من عباده المخلصين، الذين هم من عباد الرحمن، الذين يمشون على الأرض هوناً، الذين هم من عباد الله الذين يشربون من عين يفجرونها تفجيراً) ا. هـ^(٤).

(١) منهاج السنة (٧/ ١٨٨ - ١٩٤).

(٢) الرد على الأخنائي (٢١٣).

(٣) مختصر الفتاوى المصرية (٤٨٣).

(٤) جامع الرسائل (١/ ٩٥).

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتْ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١).

(ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتْ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١)، فأخبر أنه أنزل القول الذي هو الكتاب بالحق، وأن المهتدي لنفسه هداة، وضلاله على نفسه، والرسول ليس بوكيل عليهم، يحصي أعمالهم ويجزئهم عليها، بل إلى الله إياهم، وعلى الله حسابهم) ا.هـ (١).

﴿ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا فِيمَسِّكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢).

(ومن هذا قول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ ﴾؛ فإنه سبحانه يتوفاها برسله كما قال: ﴿ تَوَقَّاهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام: ٦١]، ﴿ يَتَوَقَّاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ [السجدة: ١١]؛ فإنه يتوفاها برسله الذين مقدمهم ملك الموت) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ ﴾؛ فإنه سبحانه يتوفاها برسله الذين مقدمهم ملك الموت، كما قال: ﴿ تَوَقَّاهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام: ٦١] ﴿ قُلْ يَتَوَقَّاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ [السجدة: ١١] وكذلك ذوات الملائكة تقرب من المحتضر) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا فِيمَسِّكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ والمقبوض المتوفى هي الروح، كما في صحيح مسلم عن أم سلمة قالت: دخل رسول الله ﷺ، على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: إن الروح قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون: ثم قال: «اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين؟، واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه» (٤).

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تروا أن الإنسان إذا مات شخص بصره! قالوا: بلى. قال: «فذلك حين يتبع بصره نفسه» (٥) فسماه تارة روحاً، وتارة نفساً.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٢٣٥).

(٤) مسلم (٩٢٠).

(١) الاستقامة (١/٢٢٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/١٢٨).

(٥) مسلم (٩٢١).

وروى أحمد بن حنبل، وابن ماجه: عن عباد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا حَضَرْتُمْ مَوْتَاكُمْ فَأَغْمِضُوا الْبَصَرَ؛ فَإِنَّ الْبَصَرَ يَتَّبِعُ الرُّوحَ، وَقَوْلُوا خَيْرًا، فَإِنَّهُ يُؤْمِنُ عَلَى مَا يَقُولُ أَهْلُ الْمَيْتِ»^(١) ١. هـ.^(٢)

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣)) فأخبر سبحانه أنه يتوفى الأنفس حين النوم وحين الموت، وأن ما يتوفاه حين النوم منه ما يقضي عليه الموت في نومه ومنه ما يرسله. وبسبب تجرّدها عن البدن يحصل لها من العلم ما يلقيه الله إليها، إما بواسطة الملك الذي يريها ويحدّثها من الرؤيا، وإما بغير ذلك) ١. هـ.^(٣)

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال ابن عباس وأكثر المفسرين: يقبضها قبضين: قبض الموت، وقبض النوم ثم في النوم يقبض التي تموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى حتى يأتي أجلها وقت الموت^(٤)) ١. هـ.^(٥)

وقال رحمه الله: (وروينا عن الحافظ أبي عبد الله محمد بن منده في كتاب «الروح والنفس» حدثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم، ثنا عبد الله بن الحسن الحراني، ثنا أحمد ابن شعيب، ثنا موسى بن أيمن، عن مطرف، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ قال: تلتقي أرواح الأحياء في المنام بأرواح الموتى ويتساءلون بينهم؛ فيمسك الله أرواح الموتى، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها^(٦)).

وروى الحافظ أبو محمد بن أبي حاتم في «تفسيره»، حدثنا عبد الله بن سليمان، ثنا الحسن، ثنا عامر عن الفرات؛ ثنا أسباط عن السدي ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾.

(١) ابن ماجه (١٤٥٥) أحمد (١٢٥/٤) والحاكم (٣٥٢/١) والحديث حسن إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة (٩١/١) والحديث حسن إن شاء الله.

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٢٢٥ - ٢٢٦).

(٣) الرد على المنطقيين (٤٨٥)، جامع المسائل (٤/٢٣٦) قريباً منه.

(٤) ابن كثير (٤/٥٥). (٥) مجموع الفتاوى (٩/٢٨٩).

(٦) قال صاحب الدر (٥/٣٢٩): أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في العظمة والعباد في المختارة عن ابن عباس، وذكره.

قال: يتوفاها في منامها. قال: فتلتقي روح الحي وروح الميت فيتذاكران ويتعارفان. قال: فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجله في الدنيا. قال: وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس^(١).

وهذا أحد القولين وهو أن قوله: ﴿فِيْمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ أريد بها أن من مات قبل ذلك لقي روح الحي.

والقول الثاني - وعليه الأكثرون - أن كلا من النفسين: الممسكة والمرسلة توفيتا وفاة النوم، وأما التي توفيت وفاة الموت فتلك قسم ثالث؛ وهي التي قدمها بقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وعلى هذا يدل الكتاب والسنة؛ فإن الله قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ فذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاهها بالنوم، وأما التي توفاهها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا إرسال، ولا ذكر في الآية التقاء الموتى بالنيام. والتحقيق أن الآية تتناول النوعين؛ فإن الله ذكر توفيتين: توفي الموت، وتوفي النوم، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى.

ومعلوم أنه يمسك كل ميتة سواء ماتت في النوم أو قبل ذلك؛ ويرسل من لم تمت. وقوله: ﴿يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ يتناول ما ماتت في اليقظة وما ماتت في النوم؛ فلما ذكر التوفيتين ذكر أنه يمسكها في أحد التوفيتين ويرسلها في الأخرى؛ وهذا ظاهر اللفظ ومدلوله بلا تكلف. وما ذكر من التقاء أرواح النيام والموتى لا ينافي ما في الآية؛ وليس في لفظها دلالة عليه؛ لكن قوله: ﴿فِيْمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ يقتضي أن يمسكها لا يرسلها كما يرسل النائمة؛ سواء توفاهها في اليقظة أو في النوم؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاهها؛ لك مماتها ومحياها؛ فإن أمسكتها فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(٢) فوصفها بأنها في حال توفي النوم إما ممسكة وإما مرسله.

(١) ابن جرير (٧/٢٤)، وابن كثير (٥٥/٤) وتفسير السدي الكبير (ص ٤١٨).

(٢) هذا ملفق بين حديثين أما الأول فرواه مسلم (٢٧١٢) ولفظه: «اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاهها، لك مماتها ومحياها، إن أحييتها...» أما الحديث الآخر فرواه البخاري (٧٣٩٣)، مسلم (٢٧١٤) ولفظه: «اللهم ربي وضعت جنبي... فإن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»

وقال ابن أبي حاتم: ثنا أبي، ثنا عمر بن عثمان؛ ثنا بقية؛ ثنا صفوان بن عمرو، حدثني سليم بن عامر الحضرمي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أعجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال! فتكون رؤياه كأخذ باليد، ويرى الرجل الشيء؛ فلا تكون رؤياه شيئاً؛ فقال علي بن أبي طالب: أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين؟ إن الله يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ فالله يتوفى الأنفس كلها، فما رأت - وهي عنده في السماء - فهو الرؤيا الصادقة، وما رأت - إذا أرسلت إلى أجسادها - تلتقتها الشياطين في الهواء فكذبتها، فأخبرتها بالأباطيل وكذبت فيها؛ فعجب عمر من قوله ^(١).

وذكر هذا أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن منده في كتاب «الروح والنفس» وقال: هذا خبر مشهور عن صفوان بن عمرو وغيره ولفظه. قال علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين! يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، والأرواح يعرج بها في منامها، فما رأت وهي في السماء فهو الحق، فإذا ردت إلى أجسادها تلتقتها الشياطين في الهواء فكذبتها. فما رأت من ذلك فهو الباطل.

قال الإمام أبو عبد الله بن منده: وروى عن أبي الدرداء قال؛ روي ابن لهيعة عن عثمان بن نعيم الرعيني، عن أبي عثمان الأصبحي، عن أبي الدرداء قال: إذا نام الإنسان عرج بروحه حتى يؤتى بها العرش قال: فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود، وإن كان جنباً لم يؤذن لها بالسجود. رواه زيد بن الحباب وغيره.

وروى ابن منده حديث علي وعمر رضي الله عنهما مرفوعاً، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، ثنا محمد بن شعيب، ثنا ابن عياش بن أبي إسماعيل، وأنا الحسن بن علي، أنا عبد الرحمن بن محمد، ثنا قتيبة والرازي ثنا محمد بن حميد ثنا أبو زهير وعبد الرحمن بن مغراء الدوسي، ثنا الأزهر بن عبد الله الأزدي، عن محمد بن عجلان، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه قال: لقي عمر بن الخطاب علي بن أبي طالب فقال: يا أبا الحسن! ربما شهدت وغبنا وربما شهدنا وغبت، ثلاثة أشياء

أسألك عنهن، فهل عندك منهن علم؟ فقال علي بن أبي طالب: وما هن؟ قال: الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيراً؛ والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شراً. فقال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الأرواح جنود مجندة تلتقي في الهواء، فتشام، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف قال عمر: واحدة. قال عمر: والرجل يحدث الحديث إذ نسيه، وبينما هو قد نسيه إذ ذكره. فقال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، وبينما القمر يضيء إذ تجللته سحابة فأظلم؛ إذ تجلت عنه فأضاء؛ وبينما القلب يتحدث إذ تجللته فنسي، إذ تجلت عنه فذكر». قال عمر: اثنان. قال: والرجل يرى الرؤيا: فمنها ما يصدق، ومنها ما يكذب. فقال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد ينام فيمتملى نوماً إلا عرج بروحه إلى العرش فالذي لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تصدق، والذي يستيقظ دون العرش فهي الرؤيا التي تكذب. فقال عمر: ثلاث كنت في طلبهن؛ فالحمد لله الذي أصبتهن قبل الموت.

ورواه من وجه ثالث: أن ابن عباس سأل عنه عمر، فقال: حدثنا أحمد بن سليمان بن أيوب، ثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد، ثنا آدم بن أبي إياس ثنا إسماعيل بن عياش، عن ثعلبة بن مسلم الخثعي عن ابن أبي طلحة القرشي أن ابن عباس ؓ قال لعمر بن الخطاب ؓ: يا أمير المؤمنين! أشياء أسألك عنها؟ قال: سل عما شئت؛ فقال: يا أمير المؤمنين! مم يذكر الرجل، ومم ينسى؟ ومم تصدق الرؤيا، ومما تكذب؟ فقال له: عمر أما قولك مم يذكر الرجل ومم ينسى؛ فإن على القلب طخاة مثل طخاة القمر، فإذا غشت القلب نسي ابن آدم، فإذا تجلت عن القلب ذكر ما كان ينسى. وأما مم تصدق الرؤيا ومم تكذب؛ فإن الله يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ فمن دخل منها في ملكوت السماء فهي التي تصدق، وما كان منها دون ملكوت السماء فهي التي تكذب.

قلت: وفي هذين الطريقتين ذكر أن التي تكذب ما لم يكمل وصولها إلى العلو. وفي الأول ذكر أن ذلك يكون مما يحصل بعد رجوعها. وكلا الأمرين ممكن؛ فإن الحكم يختلف لفوات شرطه، أو وجود مانعه عن ذلك.

قال عكرمة ومجاهد: إذا نام الإنسان فإن له سبباً تجري فيه الروح، وأصله في الجسد؛ فتبلغ حيث شاء الله، فما دام ذاهباً فإن الإنسان نائم. فإذا رجع إلى البدن انتبه

الإنسان؛ فكان بمنزلة شعاع هو ساقط بالأرض وأصله متصل بالشمس.

قال ابن منده: وأخبرت عن عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي، عن علي بن يزيد السمرقندي - وكان من أهل العلم والأدب وله بصر بالطب والتعبير - قال: إن الأرواح تمتد من منخر الإنسان، ومراكبها وأصلها في بدن الإنسان، فلو خرج الروح لمات، كما أن السراج لو فرقت بينها وبين الفتيلة لطفئت. ألا ترى أن تركب النار في الفتيلة، وضوءها وشعاعها ملأ البيت، فكذلك الروح تمتد من منخر الإنسان في منامه حتى تأتي السماء، وتجول في البلدان، وتلتقي مع أرواح الموتى. فإذا رآها الملك الموكل بأرواح العباد أراه ما أحب أن يراه وكان المرء في اليقظة عاقلاً ذكياً صدوقاً لا يلتفت في اليقظة إلى شيء من الباطل رجع إليه روحه، فأدى إلى قلبه الصدق بما أراه الله ﷻ على حسب صدقه. وإن كان خفيفاً نزيحاً يحب الباطل والنظر إليه، فإذا نام وأراه الله أمراً من خير أو شر رجع روحه، فحيث ما رأى شيئاً من مخاريق الشيطان أو باطلاً وقف عليه كما يقف في يقظته، وكذلك يؤدي إلى قلبه فلا يعقل ما رأى، لأنه خلط الحق بالباطل؛ فلا يمكن معبر يعبر له، وقد اختلط الحق بالباطل. قال الإمام ابن منده: ومما يشهد لهذا الكلام ما ذكرناه عن عمر وعلي وأبي الدرداء رضي الله عنهم.

قلت: وخرج ابن قتيبة في كتاب «تعبير الرؤيا»، قال: حدثني حسين بن حسن المرزوي، أخبرنا ابن المبارك عبد الله، ثنا المبارك عن الحسن أنه قال: انبئت أن العبد إذا نام وهو ساجد يقول الله تبارك وتعالى: «انظروا إلى عبدي، روحه عندي وجسده في طاعتي» (١) ١. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فبين أنه يتوفى الأنفس على نوعين: فيتوفاهما حين الموت. ويتوفى الأنفس التي لم تمت بالنوم ثم إذا ناموا فمن مات في منامه أمسك نفسه. ومن لم يمت أرسل نفسه.

ولهذا كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك

(١) تمام في الفوائد (٣٤٣ - تربية) مرفوعاً بسند ضعيف جداً، والحديث أخرجه أحمد من كلام الحسن في (الزهد) (٢٨٠) وسنده صحيح والحديث لا يصح مرفوعاً، بل هو من كلام الحسن أو غيره.

(٢) مجموع الفتاوى (٤٥١/٥ - ٤٥٨).

أرفعه، فإن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(١) ١. هـ.^(٢).

قال ابن القيم:

(وهذا أحد القولين في الآية وهو أن الممسكة من تُؤْفِيَتْ وفاة الموت أولاً، والمرسلة من تُؤْفِيَتْ وفاة النوم، والمعنى على هذا القول أن يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى.

والقول الثاني في الآية أن الممسكة والمرسلة في الآية كلاهما تُؤْفِيْ وفاة النوم؛ فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكملها. واختار شيخ الإسلام هذا القول وقال: عليه يدل القرآن والسنة. قال: فإنه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفأها وفاة النوم، وأما التي توفأها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال، بل هي قسم ثالث.

والذي يترجح هو القول الأول لأنه سبحانه أخبر بوفاتين وفاة كبرى وهي وفاة الموت ووفاة صغرى وهي وفاة النوم، وقسم الأرواح قسمين: قسماً قضى عليها بالموت فأمسكها عنده وهي التي توفأها وفاة الموت، وقسماً لها بقية أجل فردأها إلى جسدها إلى استكمال أجلها؛ وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولاً فهذه ممسكة وهذه مرسلة، وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفأها في منامها. فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين: وفاة موت ووفاة نوم لم يقل ﴿وَأَلَّتْ لَدَ تَمَّتْ فِي مَنَامِهَا﴾، فإنها من حين قبضت ماتت، وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك: ﴿فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ (١. هـ.^(٣)).

﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٢).

(قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾

(١) البخاري (٧٣٩٣)، ومسلم (٢٧١٤). (٢) مجموع الفتاوى (٢٧٥/٤).

(٣) الروح (٣١).

إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تُصْرَبُونَ﴾، فهذا السياق مع سبب نزول الآية يبين أن المعنى لا ييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت، فإن الله سبحانه لا يتعاضمه ذنب أن يغفر لعبده التائب. وقد دخل في هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب، فإن الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وقال في الآية الأخرى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَفَلَّحُواكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١] وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَسْتَغْفِرُونَ؟ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠٦] هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأما قوله: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فتلك في حق التائبين؛ ولهذا عم وأطلق، وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها) هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال في حق التائبين ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾) ثبت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ إن كل من تاب تاب الله عليه) هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ولكن الوعيد الموجود في الكتاب والسنة قد بين الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ أنه لا يلحق التائب بقوله: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي لمن تاب) هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وذلك أن الله قال: ﴿يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وهذا لمن تاب، فكل من تاب تاب الله عليه؛ ولو كان ذنبه أعظم الذنوب، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فهذا في حق من لم يتب) هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وأما التوبة فإنه قال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾) هـ^(٥).

(١) مجموع الفتاوى (١٨٥/١٨ - ١٨٦). (٢) مجموع الفتاوى (٥١/١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٩٠/٣ - ٢٩١).

(٤) مجموع الفتاوى (٥٤١/٤) (٦٤٨/١١، ٦٦٣) (١٧٢/٣٤).

(٥) مجموع الفتاوى (٦٨٣/٧).

وهذه لمن تاب. [ولهذا قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ بل توبوا إليه]، وقال بعدها: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر] وأما الاستغفار بدون التوبة، فهذا لا يستلزم المغفرة، ولكن هو سبب من الأسباب) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾) وهذه الآية عامة مطلقة؛ لأنها للتائبين) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾) فهنا عَمَّ المغفرة وأطلقها، فإن الله يغفر للعبد أي ذنب تاب منه، فمن تاب من الشرك غفر الله له، ومن تاب من الكبائر غفر الله له، وأي ذنب تاب العبد منه غفر الله له، ففي آية التوبة عَمَّ وأطلق) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك لفظ «الذنوب» إذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم، كما في قوله: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾) ا.هـ (٤).

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾
 قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ فينب قلبه إلى الله ويسلم له) ا.هـ (٥).

وقال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية الحراني قدس الله روحه:

(قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾) ﴿٥٤﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ، وقد ذكرنا في غير موضع أن هذه الآي في حق التائبين، وأما آية النساء [وهي] قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) منهاج السنة (٦/٢١١ - ٢١٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/٣٥٨) (٤/٤٧٥، ٥٢٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/١٨٥). (٤) مجموع الفتاوى (٧/١٦٥ - ١٦٦).

(٥) مجموع الفتاوى (٨/٣٥٢).

لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿٤٨﴾ [النساء: ٤٨] فلا يجوز أن تكون في حق التائبين، كما يقوله من يقوله من المعتزلة، فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضاً بنصوص القرآن واتفاق المسلمين، وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد، وتلك الآية فيها تعميم وإطلاق، هذه خص فيها الشرك بأنه لا يغفره، وما عداه لم يجزم بمغفرته، بل علقه بالمشيئة فقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

وقد ذكرنا في غير موضع أن هذه كما ترد على الوعيدية من الخوارج والمعتزلة، فهي ترد أيضاً على المرجئة الواقفية، الذين يقولون: يجوز أن يعذب كل فاسق فلا يغفر لأحد، ويجوز أن يغفر للجميع فإنه قد قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فأثبت أن ما دون ذلك هو مغفور لكن لمن يشاء، فلو كان لا يغفره لأحد بطل قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ ولو كان يغفره لكل أحد بطل قوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فلما أثبت أنه يغفر ما دون ذلك وأن المغفرة هي لمن يشاء دل ذلك على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك، لكنه لبعض الناس، وحينئذ فمن غفر له لم يعذب، ومن لم يغفر له عذب، وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة، وهو القطع بأن بعض عصاة الأمة يدخل النار وبعضهم يغفر له، لكن هل ذلك على وجه الموازنة والحكمة أو لا اعتبار بالموازنة؟ فيه قولان للمتتبعين إلى السنة من أصحابنا وغيرهم، بناء على أصل الأفعال الإلهية هل يعتبر فيها الحكمة والعدل، وأيضاً فمسألة الجزاء فيها نصوص كثيرة دلت على الموازنة، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن قوله [تعالى]: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى، وإن عظمت الذنوب وكثرت فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله تعالى، وإن عظمت ذنوبه، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله، قال بعض السلف: إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يحرضهم على معاصي الله^(١).

والقنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له، إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ولا يغفر له ذنوبه، وإما بأن يقول أن نفسه لا تطاوعه على التوبة، بل هو مغلوب معها، والشيطان ونفسه قد استحوذ عليه فهو ييأس من توبة نفسه، وإن كان يعلم أنه إذا تاب

(١) الدارمي (٨٩/١) وابن الضريس في فضائل القرآن (٩٥) عن علي بن أبي طالب.

غفر الله له، وهذا يعتري كثيراً من الناس، والقنوط يحصل بهذا تارة وبهذا تارة: فالأول كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين [نفساً] أن الله لا يغفر له فقتله وكمل به مائة، ثم دل على عالم [آخر] فأناه فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته.

والحديث في الصحيحين. والثاني كالذي يرى للتوبة شروطاً كثيرة، ويقال له لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فيأس من أن يتوب.

وقد تنازع الناس في العبد هل يصير في حال تمتنع منه التوبة إذا أرادها [أم لا]؟، والصواب الذي عليه أهل السنة والجمهور أن التوبة ممكنة من كل ذنب [لمن أرادها]، وممكن أن الله يغفره، وقد فرضوا في ذلك من توسط أرضاً مغصوبة، ومن توسط جرحى فكيف ما تحرك قتل بعضهم، فقيل هذا لا طريق له إلى التوبة، والصحيح أن هذا [وغيره] إذا تاب قبل الله توبته.

أما من توسط الأرض المغصوبة فهذا خروجه بنية تخلية المكان وتسليمه إلى مستحقيه ليس منهيّاً عنه ولا محرماً، بل الفقهاء متفقون على أن من غصب داراً وترك فيها قماشه وماله إذا أمر بتسليمها إلى مستحقيها فإنه يؤمر بالخروج منها، ويأخرج أهله وماله منها، وإن كان ذلك نوع تصرف فيها، لكنه لأجل إخلائها.

والمشرك إذا دخل الحرم أمر بالخروج منه وإن كان فيه مرور فيه، ومثل هذا حديث الأعرابي المتفق على صحته لما بال في المسجد فقام الناس إليه. فقال النبي ﷺ: «لا تزرموه» أي لا تقطعوا عليه بوله، وأمرهم أن يصبوا على بوله دلواً من ماء^(١)، فهو لما بدأ بالبول كان إتمامه [في محله الذي بال فيه] خيراً من أن يقطعوه، فيلوث ثيابه وبدنه وإفضاء النجاسة إلى أمكنة أخرى من المسجد فينجسها، ولو زنا رجل بامرأة ثم تاب قبل أن ينزع ذكره منها ثم نزع لم يكن مذنباً بالنزع، وهل هو وطء؟ فيه قولان هما روايتان عن أحمد، وكذلك الذين يقولون، إذا طلع الفجر وهو مجامع، لهم في النزع قولان في مذهب أحمد، وغيره وكذلك إذا حلف بالطلاق الثلاث أن لا يطأ امرأته، فالذين يقولون: إنه يقع به الطلاق الثلاث إذا وطئها تنازعوا هل يجوز له وطؤها؟ على قولين: هما روايتان عن أحمد:

«أحدهما» يجوز كقول الشافعي.

«الثاني» لا يجوز كقول مالك، فإنه يقول: إذا أجزت الوطاء لزم أن يبأشرها في حال النزع وهي محرمة، وهذا إنما يجوز للضرورة لا يجوز ابتداءً، وذلك يقول النزع ليس بمحرم.

وأما على ما نصرناه فلا يحتاج إلى شيء من هذه المسائل، فإن الحالف إذا حنث يكفر يمينه ولا يلزمه الطلاق الثلاث، وما فعله الناس حال التبين من أكل وجماع فلا بأس به، لقوله: ﴿حَقٌّ يَبَيِّنُ﴾ [البقرة: ١٨٧].

والمقصود أنه لا يجوز أن يقنط أحد، ولا يقنط أحداً من رحمة الله، فإن الله نهى عن ذلك، وأخبر أنه يغفر الذنوب جميعاً.

فإن قيل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ معه عموم على وجه الإخبار، فدل على أن الله يغفر كل ذنب، ومعلوم أنه لم يرد أن من أذنب من كافر وغيره فإنه يغفر له، ولا يعذبه لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة [والحس] والتواتر والقرآن والإجماع. إذ كان الله أهلك أمماً كثيرة بذنوبها، ومن هذه الأمة من عذب بذنوبه إما قدراً وإما شرعاً في الدنيا قبل الآخرة.

وقد قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة] فهذا يقتضي أن هذه الآية ليست على ظاهرها: بل المراد أن الله قد يغفر الذنوب جميعاً. أي ذلك مما قد يفعله أو أنه يغفره لكل تائب، لكن يقال: فلم أتى بصيغة الجزم والإطلاق في موضع التردد والتقييد؟ قيل بل الآية على مقتضاها فإن الله أخبر أنه يغفر جميع الذنوب، ولم يذكر أنه يغفر لكل مذنب، بل قد ذكر في غير موضع أنه لا يغفر لمن مات كافراً، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [١٤] [محمّد].

وقال في حق المنافقين: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] لكن هذا اللفظ العام في الذنوب هو مطلق في المذنبين، فالمذنب لم يتعرض له بنفي ولا إثبات، لكن يجوز أن يكون مغفوراً له، ويجوز أن لا يكون مغفوراً له، إن أتى بما يوجب المغفرة غفر له، وإن أصر على ما يناقضها لم يغفر له.

وأما جنس الذنب فإن الله يغفره في الجملة سواء كان كفراً أو شركاً وغيرهما؛

يغفرها لمن تاب منها، ليس في الوجود ذنب لا يغفره الرب تعالى [بحال]، بل ما من ذنب إلا والله تعالى يغفره في الجملة.

وهذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعاً، وفيها رد على طوائف، رد على من يقول إن الداعي إلى البدعة [لا يغفر له] لا تقبل توبته، ويحتجون بحديث إسرائيلي، فيه: «أنه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت؟» وهذا يقوله طائفة ممن ينتسب إلى السنة والحديث وليسوا من العلماء بذلك، كأبي علي الأهوازي وأمثاله ممن لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة، وما يحتج به وما لا يحتج به، بل يروون كل ما في الباب محتجين به.

وقد حكى هذا طائفة قولاً في مذهب أحمد أو رواية عنه، وظاهر مذهبه مع مذاهب سائر أئمة المسلمين أنه يقبل توبته كما تقبل توبة الداعي إلى الكفر، وتوبة من فتن الناس عن دينهم.

وقد تاب قادة الأحزاب: مثل أبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل، وكانوا من أحسن الناس إسلاماً وغفر الله لهم. قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] و[كذلك] عمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر والإيذاء للمسلمين، وقد قال له النبي ﷺ لما أسلم: «يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما كان قبله؟»^(١).

وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَانَ رَبِّهِمْ أَلْوَسِيلًا أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] قال كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم أولئك الجن والإنس يعبدونهم، ففي هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم [لهم] بعد الإسلام لهم، وإن كانوا هم أضلوهم أولاً.

وأيضاً فالداعي إلى الكفر والبدعة وإن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه، لكونه قبل من هذا واتبعه، وهذا عليه وزره ووزر من اتبعه إلى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم، فإذا تاب [هذا] من ذنبه لم يبق عليه وزره [ووزر من اتبعه] ولا ما حمله هو لأجل إضلالهم، وأما هم فسواء تاب [من أضلهم] أو لم يتب حالهم واحد،

ولكن توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى، كما تاب كثير من الكفار وأهل البدع، وصاروا دعاة إلى الإسلام والسنة، وسحرة فرعون كانوا أئمة في الكفر [وتعليم السحر وتعلمه] ثم أسلموا وختم الله لهم بخير.

ومن ذلك توبة قاتل النفس، والجمهور على أنها مقبولة، وقال ابن عباس: لا تقبل، وعن أحمد روايتان، وحديث قاتل التسعة والتسعين في الصحيحين يرد ذلك وهو دليل على قبول توبته، وهذه الآية تدل على ذلك، وآية النساء إنما فيها وعيد قاتل النفس إذا لم يتب كسائر وعيد القرآن كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ﴿١٦﴾ [النساء] ومع هذا فهذا إذا لم يتب، وكل وعيد في القرآن فهو مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس، فبأي وجه يكون وعيد القاتل لاحقاً به وإن تاب؟ هذا في غاية الضعف، ولكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل، بل التوبة تسقط حق الله [تعالى] والمقتول له مطالبته بحقه، وهذا صحيح في جميع حقوق الأدميين حتى الدين، فإن في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين»^(١) لكن حق الأدمي يعطاه من حسنات القاتل.

فمن تمام التوبة أن يكثر من الحسنات ليوفي غرماءه وتبقى له بقية يدخل بها الجنة. ولعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول، فلا بد أن يبقى له سيئات يعذب بها، وهذا الذي قاله قد يقع من بعض الناس، فيبقى الكلام فيمن تاب وأخلص، وعجز عن حسنات تعادل حق المظلوم، هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به؟ وهذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث ابن عباس، لكن هذا كله لا ينافي موجب الآية، وهو أن الله تعالى يغفر كل ذنب، الشرك والقتل والزنا، وغير ذلك من حيث الجملة، فهي عامة في الأفعال مطلقة في الأشخاص.

ومثل هذا قوله: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] عام في الأشخاص مطلق في الأحوال. وكذلك قوله: ﴿وَأَمْسَحُوا رُءُوسِكُمْ وَأَرْسُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبِيِّنَ﴾ [المائدة: ٦] عام في الأرجل، لكنه مطلق في أحوال الأرجل، إذ قد تكون ظاهرة وقد تكون مستورة بالخف واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَزْوَاجِكُمْ﴾ [النساء: ١١] عام في الأولاد مطلق في الأحوال، إذ قد يكون الولد موافقاً في الدين ومخالفاً وحرماً وعبداً واللفظ لم يتعرض للأحوال.

وكذلك قوله: ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾ عام في الذنوب مطلق في أحوالها، فإن الذنب قد يكون صاحبه تائباً منه، وقد يكون مصراً عليه، واللفظ لم يتعرض لذلك، بل الكلام يبين أن الذنب يغفر في حال دون حال، فإن الله أمر بفعل ما تغفر به الذنوب، ونهى عما به يحصل العذاب يوم القيامة بلا مغفرة، فقال: ﴿وَأَيُّبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّعِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي حُبِّ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ فهذا إخبار منه تعالى أنه يوم القيامة يعذب نفوساً لم يغفر لها، كالتي كذبت بآياته واستكبرت عن التوبة والإنابة إليه ولم تعمل صالحاً تنجو به من عذابه، ومثل هذه الذنوب التي عذبت بها تلك النفوس غفرها الله لآخرين لأنهم تابوا منها، وأتابوا، وعملوا الصالحات.

فإن قيل فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَّن تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَّن يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿٦٧﴾﴾ [النساء] قيل: إن القرآن قد بين توبة الكافر وإن كان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨١﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّنَّ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران]. وقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ أي أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧] فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالاً، لا يحصل له الهدى إلى أي دين ارتد «والمقصود» أن هؤلاء لا يهديهم الله ولا يغفر لهم إلا أن يتوبوا.

أحسن في الإسلام لم يؤخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر^(١) فلو قال: إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم، كان هؤلاء هم الذين ذكروهم في آل عمران فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [آل عمران: ٩٠] بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك، وهو المرتد التائب، فهذا إذا كفر وازداد كفراً لم يغفر له كفره السابق أيضاً، فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفراً فلا يدخلون في الآية.

والفقهاء إذا تنازعوا في قبول التوبة ممن تكررت رده أو قبول توبة الزنديق، فذاك إنما هو في الحكم الظاهر، لأنه لا يوثق بتوبته، أما إذا قدر أنه أخلص التوبة لله في الباطن فإنه يدخل في قوله: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ونحن حقيقة قولنا أن التائب لا يعذب لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا شرعاً ولا قدراً، والعقوبات التي تقام من حد أو تعزير إما أن يثبت سببها بالبينة مثل قيام البينة بأنه زنى أو سرق أو شرب، فهذا إذا أظهر التوبة لم يوثق بها، ولو درى الحد بإظهار هذا لم يقيم حد، فإنه كل من تقام عليه البينة يقول قد تبت، وإن كان تائباً في الباطن كان الحد مكفراً وكان مأجوراً على صبره، وأما إذا جاء هو بنفسه فاعترف وجاء تائباً، فهذا لا يجب أن يقام عليه الحد في ظاهر مذهب أحمد، نص عليه في غير موضع. وهي من مسائل التعليق، واحتج عليه القاضي بعدة أحاديث، وحديث الذي قال: «أصبحت حداً فأقمه علي فأقيمت الصلاة»^(٢) يدخل في هذا؛ لأنه جاء تائباً، وإن شهد على نفسه كما شهد ماعز والغامدية واختار إقامة الحد أقيم عليه وإلا فلا، كما في حديث ماعز «فهلأ تركتموه؟»^(٣) والغامدية ردها مرة بعد مرة. فالإمام والناس ليس عليهم إقامة الحد على مثل هذا، ولكن هو إذا طلب ذلك أقيم عليه كالذي يذنب سراً، وليس على أحد أن يقيم [عليه حداً، لكن إذا اختار هو أن يعترف ويقام عليه الحد أقيم وإن لم يكن تائباً وهذا كقتل]^(٤) الذي ينغمس في العدو

(١) البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (الإيمان ١٨٩ - ١٩٠).

(٢) البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (التوبة - ٤٤).

(٣) أبو داود (٤٤٢٠)، الترمذي (١٤٢٨) والحديث صحيح.

(٤) ما بين الأقواس مأخوذ من نسخة «ف» التي أشار إليها المحقق.

وهو مما يرفع الله به درجته كما قال النبي ﷺ: «لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له. وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله؟!»^(١).

وقد قيل في ما عرّفه رجوع عن الإقرار، وهذا هو أحد القولين في مذهب أحمد وغيره، وهو ضعيف والأول أجود، وهؤلاء يقولون: سقط الحد لكونه رجوع عن الإقرار، ويقولون رجوعه عن الإقرار مقبول، وهو ضعيف، بل فرق بين من أقر تائباً [وبين] من أقر غير تائب، فإسقاط العقوبة بالتوبة - كما دلت عليه النصوص - أولى من إسقاطها بالرجوع عن الإقرار، والإقرار شهادة منه على نفسه، ولو قبل الرجوع لما قام حد بإقرار، فإذا لم تقبل التوبة بعد الإقرار مع أنه قد يكون صادقاً فالرجوع الذي هو فيه كاذب أولى، والله سبحانه أعلم) ١. هـ^(٢).

﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٥٥)

(ولهذا أمر - تعالى - أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا. فالأحسن: إما واجب، وإما مستحب، قال تعالى: ﴿... فَخُذْهَا يَقْوَاهُ وَأُمِّرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا...﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾، فأمر باتباع الأحسن والأخذ به) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (فقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾، هو أمر بالأحسن من فعل مأمور أو ترك المحذور، وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب، فإن كلاهما أحسن من المحرم والمكروه. لكن يكون الأمر أمر إيجاب، وأمر استحباب، كما أمر بالإحسان في قوله تعالى: ﴿... وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والإحسان منه واجب، ومنه مستحب) ١. هـ^(٤).

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِنِ السَّخِرِينَ﴾ (٥١)

(وأما قولهم (وجنب) فإنه لا يعرف عالم مشهور عند المسلمين، ولا طائفة مشهورة من طوائف المسلمين، أثبتوا لله جنباً، نظير جنب الإنسان، وهذا اللفظ جاء في القرآن في قوله: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ فليس في مجرد

(١) الحديث في مسلم وقد مرّ تخريجه. (٢) تفسير آيات أشكلت (١/٢٩٣ - ٣٣٤).

(٣) الجواب الصحيح (٦/١٧). (٤) الجواب الصحيح (٦/٢١).

الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق كقوله تعالى: (بيت الله)^(١)، ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ [الصفات: ٤٠]، بل وكذلك روح الله^(٢) عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم.

ولكن إذا أضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره، مثل كلام الله وعلم الله، ويد الله ونحو ذلك، كان صفة له.

وفي القرآن ما يبين أنه ليس المراد بالجنب ما هو نظير جنب الإنسان فإنه قال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾، والتفريط ليس في شيء من صفات الله ﷻ.

والإنسان إذا قال: فلان قد فرط في جنب فلان أو جانبه، لا يريد به أن التفريط وقع في شيء من نفس ذلك الشخص، بل يريد به أنه فرط في جهته وفي حقه. فإذا كان هذا اللفظ إذا أضيف إلى المخلوق، لا يكون ظاهره أن التفريط في نفس جنب الإنسان المتصل بأضلاعه، بل ذلك التفريط لم يلاصقه، فكيف يظن أن ظاهره في حق الله، أن التفريط كان في ذاته.

وجنب الشيء وجانبه، قد يراد به منتهاه وحده، ويسمى جنب الإنسان جنباً بهذا الاعتبار، قال تعالى: ﴿تَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(٣).

وإذا قدر أن الإضافة هنا تتضمن صفة الله، كان الكلام في هذا الكلام في سائر ما يضاف إليه تعالى من الصفات، وفي التوراة من ذلك نظير ما في القرآن) ا.هـ^(٤).

﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٧٧).

(وفي قوله: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قد علم أن الخالق ليس هو المخلوق،

(١) ليس في كتاب الله (بيت الله) والذي ورد ﴿بيتي﴾.

(٢) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، وقد فُسر بأنه جبريل، نفخ في مريم فحملت بالمسيح.

(٤) الجواب الصحيح (٤/٤١٥ - ٤١٧).

(٣) البخاري (١١١/٥).

وأنه لا يتناوله الاسم، وإنما دخل في كل شيء مخلوق: وهي الحادثات جميعها) ١. هـ^(١).

﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ عَبْدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿١٤﴾.

(وقوله: ﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ عَبْدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ خطاب لكل من عبد غير الله وإن كان قد قدر له أن يتوب فيما بعد. وكذلك كل مؤمن يخاطب بهذا من عبد غير الله) ١. هـ^(٢).

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾.

(وقد احتج جماعة من أصحابنا على ذلك بقوله ﷻ: ﴿لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ بناء على أن الردة تحبط العمل بمجرد ما فإن الموت عليها في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ فَمُتَّ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، لا يكون إلا لمن مات مرتداً؛ لأن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وهذا ليس لمن مات على عمل صالح لأنه إذا عاد إلى الإسلام فقد غفر له الارتداد الماضي) ١. هـ^(٤).

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٦﴾.

(فقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فمن هذه عظمتها يمتنع أن يحصره شيء من مخلوقاته. وعن النبي ﷺ في تفسير هذه الآية أحاديث صحيحة اتفق أهل العلم بالحديث على صحتها وتلقيها بالقبول والتصديق. والله سبحانه وتعالى أعلم... ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/٥٤٤).

(٤) شرح العمدة - الصلاة (٣٩).

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٣٣١).

(٣) شرح العمدة - الطهارة (٣٢٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٥/٥٨٢).

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَمِينَهُ ﴿١﴾، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه ما يوافق ذلك، مثل حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماوات يمينه، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟ وفي رواية -: إنها تكون بيده مثل الكرة في يد الصبيان. وروى ما هو أقل من ذلك»^(١).

والمقصود أنه إذا كان الله أعظم وأكبر وأجل من أن يقدر العباد قدره، أو تدركه أبصارهم، أو يحيطون^(٢) به علماً، وأمكن أن تكون السماوات والأرض في قبضته لم يجب - والحال هذه - أن يكون تحت العالم، أو تحت شيء منه، فإن الواحد من الأدميين إذا قبض قبضة أو بندقة أو حمصة أو حبة خردل، وأحاط^(٣) بها بغير ذلك، لم يجز أن يقال: إن أحد جانبيها فوقه، لكون يده لما أحاطت بها كان منها الجانب الأسفل يلي يديه من جهة سفليها، ولو قدر من جعلها فوق بعضها بهذا الاعتبار، لم يكن هذا صفة نقص بل صفة كمال.

وكذلك أمثال ذلك من إحاطة المخلوق ببعض المخلوقات، كإحاطة الإنسان بما في جوفه، وإحاطة البيت بما فيه، وإحاطة السماء بما فيها من الشمس والقمر والكواكب، فإذا كانت هذه المحيطات لا يجوز أن يُقال: إنها تحت المحاط، وأن ذلك نقص، مع كون المحيط يحيط به غيره، فالعالي الأعلى المحيط بكل شيء، الذي تكون الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات يمينه، كيف يجب أن يكون تحت شيء مما هو عالٍ عليه أو محيط به، ويكون ذلك نقصاً ممتنعاً!

وقد ذكر أن بعض المشايخ سئل عن تقريب ذلك إلى العقل، فقال للسائل: إذا كان بائناً كبير، وقد أمسك برجله حمصة أليس يكون ممسكاً لها في حال طيرانه، وهو فوقها ومحيط بها؟ فإذا كان مثل هذا ممكناً في المخلوق، فكيف يتعذر في الخالق؟ ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَمِينَهُ﴾ وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، من حديث

(١) البخاري (٦٥١٩)، ومسلم (٢٧٨٧). (٢) كذا في الأصل.

(٣) لعل صوابها: «أو أحاط». (٤) درء تعارض العقل (٦/٣٣٩ - ٣٤٠).

أبي هريرة، وابن عمر وابن مسعود، وابن عباس، ما يوافق مضمون هذه الآية، وأن الله تعالى يقبض العالم العلوي والسفلي، ويمسكه ويهزه، ويقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله في كلامه على بقاء العرش: (وقال تعالى لما أخرج بالقيامة: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماوات بيمينه، ثم يقول أنا الملك، أين ملوك الأرض»^(٢) وفي الصحيحين أيضاً عن ابن عمر واللفظ لمسلم قال قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون»^(٣) وفي الصحيحين أيضاً عن عبد الله مسعود قال: «جاء خبر إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد - أو يا أبا القاسم - إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن ويقول أنا الملك أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال وتصديقاً له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٤) وفي الصحيحين أيضاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفأها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة قال فأتى رجل من اليهود فقال بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة قال: بلى، قال تكون الأرض خبزة واحدة كما قال رسول الله ﷺ فنظر رسول الله ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه فقال ألا أخبرك بأدامهم قال بلى، قال أدامهم بالام ونون، قالوا ما هذا؟ قال: ثور، ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً»^(٥) وفي الصحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس بها علمٌ لأحد»^(٦) وفي الصحيحين عن عائشة قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ

(١) درء تعارض العقل (٤/٥٧ - ٥٨).

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) البخاري (٧٤٥١)، مسلم (٢٧٨٦).

(٥) البخاري (١٣٥/٨)، مسلم (٢٧٩٢).

(٦) البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

وَالسَّمَوَاتِ ﴿٤٨﴾ [إبراهيم: ٤٨] فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله، فقال: على الصراط^(١). ثم إنه ﷺ لما أخبر بقبضه الأرض وطيه للسموات بيمينه ذكر نفخ الصور وصعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله، ثم ذكر النفخة الثانية التي يقومون بها، وذكر أنه تشرق الأرض بنور ربها، وأنه يوضع الكتاب ويجاء بالنبیین والشهداء، وأنه توفي كل نفس ما عملت، وذكر سوق الكفار إلى النار، وذكر سوق المؤمنين إلى الجنة - إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَرَبِّيَ الْمَلَكُ حَافِيَتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر]، ولم يكن العرش داخلًا فيما يقبض ويطوي ويبدل ويغير كما قال في الآية: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿٧٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٧٥﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿٧٦﴾ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الحاقة] ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٧﴾﴾؟!، وهذه الآية مما تبين خطأ هؤلاء، فإنه ﷺ قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٧﴾﴾، وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه، ويقول أنا الملك أنا الملك! أين ملوك الأرض؟!».

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أبلغ من ذلك، والسياق لمسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟!» رواه عن أبي بكر بن أبي شيبة، ورواه عثمان بن أبي شيبة قال: «يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون، ثم يطوي الأرضين ثم يأخذهن بشماله فيقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

وفي حديث عبد الله بن مقسم عن عبد الله بن عمر، قال: رأيت النبي ﷺ على المنبر، وهو يقول: «يأخذ الجبار سماواته وأرضه - وقبض بيده وجعل يقبضها ويسطها - ويقول: أنا الرحمن، أنا الملك، أنا القدوس، أنا السلام، أنا المؤمن، أنا المهيمن،

أنا العزيز، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تك شيئاً، أنا الذي أعيدها، أين الجبارون أين المتكبرون؟ ويتميل رسول الله على يمينه وعلى شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى أنني أقول أساقط هو برسول الله ﷺ؟» رواه ابن منده، وابن خزيمة، وعثمان بن سعيد الدارمي، وسعيد بن منصور وغيرهم من الأئمة الحفاظ النقاد الجهابذة.

فإذا كان سبحانه يطوي السماوات كلها بيمينه، وهذا قدرها عنده - كما قال ابن عباس رضي الله عنه: ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم، وهو سبحانه بين لنا من عظمته بقدر ما نعقله، كما قال عبد العزيز الماجشون: والله ما دلهم على عظيم ما وصف من نفسه، وما تحيط به قبضته إلا صغر نظيرها منهم عندهم - إن ذلك الذي ألقى في روعهم وخلق على معرفته قلوبهم وقد قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قال ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا أبو زرعة ثنا منجاب بن الحارث ثنا بشر بن عمار عن أبي روق عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﷺ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال: «لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً» فمن هذه عظمته كيف يحصره مخلوق من المخلوقات سماء أو غير سماء؟ حتى يقال إنه إذا نزل إلى السماء الدنيا صار العرش فوقه أو يصير شيء من المخلوقات يحصره ويحيط به ﷺ. (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وقالوا: ليس هذا لفظ التوراة المنزلة، وأما ما في التوراة من إثبات الصفات، فلم ينكر النبي ﷺ شيئاً من ذلك، بل كان علماء اليهود إذا ذكروا شيئاً من ذلك يقرهم عليه، ويصدقهم عليه، كما في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، أن حبراً من اليهود جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد إن الله ﷻ يوم القيامة يحمل السماوات على إصبع، والأرض على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك» قال: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجده تعجباً وتصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ...﴾ الآية، وفي التوراة: «إن الله كتب التوراة بإصبعه» (٢) هـ.

(١) مجموع الفتاوى (٥/٤٨٠ - ٤٨٢) والأحاديث التي فيها مرّ تخريجها.

(٢) الجواب الصحيح (٤/٤١٩ - ٤٢٠) والحديث مرّ تخريجها.

وقال رحمه الله: (ويقولون لك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ قال ابن عباس: ما السماوات السبع والأرضون السبع وما بينهما في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم. أو كما قال) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ولهذا لم يكن النبي ﷺ والصحابة والتابعون يعظمون الرب بشيء من ذلك^(٢))، ولا يوجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا في آثار الأنبياء وسلف الأمة وأئمتها شيء من ذلك، بل أعظم ما نقل عن النبي ﷺ في تعظيم الرب وتمجيده يوم قرأ على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ كما روى ذلك أبو هريرة وعبد الله بن عمر، والحديث في الصحيحين، والآية دلت على عظم قدر الرب الذي يقبض الأرض ويطوي السماوات بيمينه، وهذا وصف لأمر وجودية تقتضي عظمة القدرة؛ بخلاف السلوب المحض، ففي حديث ابن عمر الذي في الصحيح قال: «سمعت رسول الله ﷺ [قال] يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيديه وقبض كفيه أو قال بيديه فجعل يقبضهما ويبسطهما، ثم يقول أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون، ويميل رسول الله ﷺ عن يمينه وشماله حتى نظرت إلى المنبر من أسفل شيء حتى إنني لأقول أساقط هو برسول الله ﷺ» ومن حديث عمر بن حمزة قال قال سالم أخبرني عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون، ثم يطوي الأرضين ثم يأخذهن» وفي الصحيحين عن سعيد عن ابن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماوات بيمينه ثم قال: أنا الملك، أين ملوك الأرض» وروى أبو الشيخ وغيره عن ابن عباس قال: ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم. وفي لفظ: إنها لتغيب في يده حتى لا يرى طرفها) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ فإن المتأخرين وإن كان فيهم من حرف فقال قبضته قدرته وبيمينه بقوته أو بقسمه أو غير ذلك فقد استفاضت الأحاديث الصحيحة التي رواها خيار الصحابة وعلمائهم وخيار التابعين وعلمائهم بما يوافق ظاهر الآية

(١) بيان تلييس الجهمية (٣١٢/٢) والأثر مرّ تخريجه.

(٢) يعني سلب الصفات ونفيها.

(٣) بيان تلييس الجهمية (٩٧/١ - ٩٨) والأحاديث مرّ تخريجه.

ويفصل المعنى كحديث أبي هريرة المتفق عليه وحديث عبد الله بن عمر المتفق عليه وحديث ابن مسعود في قصة الحبر المتفق عليه وحديث ابن عباس الذي رواه الترمذي وصححه وكذلك أنه خلق آدم بيديه وغير ذلك من الآيات) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود أن حبراً من اليهود لما أخبر النبي ﷺ أن الله يوم القيامة يُمسك السماوات على أصبع والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع. والشجر والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك، أما الملك - ضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾، وهذا الحديث رواه من هو من أعلم الصحابة وأعظمهم اختصاصاً بالنبي ﷺ: عبد الله بن مسعود، ورواه عنه وعن أصحابه من هو من أجل التابعين وأتباع التابعين قدراً، ورواه أيضاً عبد الله بن عباس الذي هو أعلم الصحابة في زمانه، وأصحاب ابن مسعود وابن عباس من أعظم التابعين علماً وقدراً عند الأمة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، وفيهما أيضاً من حديث ابن عمر في تفسير هذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما يناسب هذا الحديث) ا.هـ^(٢).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَظُرُونَ﴾.

قال رحمه الله: (ونفخة الصعق والقيام ذكرهما في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَظُرُونَ﴾) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وسئل شيخ الإسلام ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال المفسرون: مات من الفزع وشدة الصوت ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أخبرنا أبو الفتح محمد بن علي الكوفي الصوفي، أنا أبو الحسن علي بن الحسن التميمي، ثنا محمد بن إسحاق الرملي، ثنا هشام بن عمار، ثنا إسماعيل بن عياش عن عمر بن محمد، عن زيد بن أسلم عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية:

(١) الفتاوى (التسعينية) (٢٤٨/٥).

(٢) درء تعارض العقل (٧٩/٥ - ٨٠) والأحاديث مَرَّ تخريجها.

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/١٦ - ٣٦).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ من الذي لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء، متقلدين سيوفهم حول العرش، وهذا قول سعيد بن جبير، وعطاء [و] ابن عباس، وقال مقاتل والسدي والكلبي: هو جبريل وميكائيل وأسرافيل، وملك الموت ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ يعني الخلق كلهم قيام على أرجلهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾^(١) ما يقال لهم، وما يؤمرون به^(٢)، هذا كلام الواحدي في كتاب «كتاب الوسيط» بينوا لنا حقيقة الصعوق، هل يطلق على الموت في حق المذكورين؟ وحقيقة الاستثناء؟

فأجاب: الحمد لله. الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة، وحتى عزرائيل ملك الموت، وروي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، والمسلمون واليهود والنصارى متفقون على إمكان ذلك، وقدرة الله عليه، وإنما يخالف في ذلك طوائف من المتفلسفة أتباع أرسطو وأمثالهم، ممن زعم أن الملائكة هي العقول والنفوس، وأنه لا يمكن موتها بحال، بل هي عندهم آلهة وأرباب هذا العالم.

والقرآن وسائر الكتب تنطق بأن الملائكة عبيد مدبرون، كما قال سبحانه: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ [النساء]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٣١﴾ لَا يَسْـَٔفُونَ بِالَّذِينَ لَبِئْسَ مَا بَدَأَ لِيُخَلِّقَهُمْ وَلَٰكِن مَّا بَدَأَهُمْ فَلَا يَسْفَهُونَ ﴿٣٢﴾ إِلَّا لِمَنْ أَرَادْنَا أَنْ يَبْدَأَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضُ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفْقِي سَفَعْتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضُ ﴿٣١﴾﴾ [النجم] والله ﷻ قادر على أن يميتهم ثم يحييهم، كما هو قادر على إماتة البشر والجن، ثم إحيائهم، وقد قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه من غير واحد من أصحابه، أنه قال: «إن الله إذا تكلم بالوحي أخذ الملائكة غشي» وفي رواية «إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا» وفي رواية «سمعت الملائكة كجر السلسلة على صفوان. فيصعقون، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا. قال: ربكم؟ قالوا: الحق. فينادون: الحق، الحق»^(٣).

(١) بعد كلمة (ينظرون) ينتظرون.

(٢) الوسيط للواحدي (٣/٥٩٣ - ٥٩٤) والحديث المذكور ذكره الطبري (٢٤/٢٠) والحاكم (٢/

٢٥٣) وذكره ابن كثير عن أبي يعلى وأعله بإسماعيل بن عياش فإنه مجهول.

(٣) مرّ تخريجه.

فقد أخبر في هذه الأحاديث الصحيحة أنهم يصعقون صعوق الغشي فإذا جاز عليهم صعوق الغشي جاز عليهم صعوق الموت، وهؤلاء المتفلسفة لا يجوزون لا هذا ولا هذا، وصعوق الغشي هو مثل صعوق موسى ﷺ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَعَلْنَا رَبُّهُ الْجَبَلِ جَمَلًا دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والقرآن قد أخبر بثلاث نفخات:

نفخة الفزع، ذكرها في سورة النمل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧] ونفخة الصعق والقيام ذكرهما في قوله: ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ﴾ ﴿١٨﴾.

وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل من استثناءه الله، فإن الله أطلق في كتابه. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى آخذاً بساق العرش، فلا أدري هل أفاق قبلي أم كان ممن استثناءه الله؟^(١) وهذه الصعقة قد قيل إنها رابعة، وقيل إنها من المذكورات في القرآن، وبكل حال، النبي ﷺ قد توقف في موسى هل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناءه الله أم لا؟

فإذا كان النبي ﷺ لم يجزم بكل من استثناءه الله لم يمكننا أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بقرب الساعة، وأعيان الأنبياء، وأمثال ذلك مما لم يخبر به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر، والله أعلم وصلى الله على محمد وصحبه وسلم تسليماً) ا. هـ.^(٢)

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالْبَنِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالْبَنِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾.

قال: وهذا دليل على أنه إذا جاءهم وجلس على كرسیه أشرفت الأرض كلها بأنواره) ا. هـ.^(٣)

(١) مرّ تخريجه.

(٢) هذا النص في مجموع الفتاوى (٣٣/١٦ - ٣٦). ونفس هذا الجواب مع اختلاف في السؤال ورد في مجموع الفتاوى (٤/٢٥٩ - ٢٦١).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/١٦٦).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فدل على أن القضاء بينهم بغير القسط ظلم، والله منزه عنه) ا.هـ (١).

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا﴾ الآيات. وقال تعالى: ﴿كَلِمًا أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمُ خَزَنَتَهَا﴾ [الملك: ٨] الآيتين. فدلّت هذه الآيات على أن من أتاه الرسول فخالفه فقد وجب عليه العذاب وإن لم يأته إمام ولا قياس. وأنه لا يعذب أحد حتى يأتيه الرسول وإن أتاه إمام أو قياس) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وأما قوله: ﴿وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، فهذا مختص بالكفار. وهو الوعيد المتضمن الجزاء على الأعمال، كما قال تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص] ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾. فلقد اعترفوا بأن الرسل أتتهم وتلت عليهم آيات ربهم وأنذرتهم لقاء يومهم هذا؛ فقد عرفوا الله ورسوله واليوم الآخر وهم في الآخرة كفار) ا.هـ (٤).

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِن حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

(قال القاضي: ورأيت بخط أبي إسحاق، أنا أبو بكر أحمد بن نصر الرفاه، سمعت أبا بكر بن أبي داود سمعت أبي يقول: جاء رجل إلى أحمد بن حنبل فقال له: الله تبارك وتعالى حد؟ قال: نعم، لا يعلمه إلا هو. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِن حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ يقول: محققين) ا.هـ (٥).

(١) منهاج السنة (١/١٣٥). (٢) مجموع الفتاوى (١٩/٦٧ - ٦٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٥٩٣). (٤) مجموع الفتاوى (٧/١٥٠ - ١٥١).

(٥) بيان تلبيس الجهمية (٢/١٧٣) (١/٤٣٠، ٤٣٦).

سورة غافر

وقال في عموم سورة غافر:

(وقد ذكر في السورة: «حم غافر» من حال مخالفي الرسل من الملوك والعلماء ومجادلتهم ما فيه عبرة، مثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِسَالِفِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، ومثل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦١]، إلى قوله: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]، وكذلك في سورة الأنعام والأعراف وعامة السور المكية وطائفة من السور المدنية؛ فإنها تشتمل على خطاب هؤلاء وضرب المقاييس والأمثال لهم، وذكر قصصهم وقصص الأنبياء وأتباعهم معهم؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]... فأخبر بما مكنوا فيه من أصناف الإدراكات والحركات، وأخبر أن ذلك لم يغن عنهم شيئاً حيث جحدوا بآيات الله والرسالة؛ ولهذا حدثني ابن الشيخ الفقيه الخضري عن والده شيخ الحنفية في زمنه قال: كان فقهاء بخارى يقولون في ابن سينا: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١]، والقوة تعم قوة الإدراك النظرية، وقوة الحركة العملية، وقال في الآية الأخرى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] فأخبر بفضلهم في الكم والكيف، وأنهم أشد في أنفسهم وفي آثارهم في الأرض) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد علم بالاضطرار من دين أهل الملل المسلمين، واليهود، والنصارى: أن فرعون من أكفر الخلق بالله؛ بل لم يقص الله في القرآن قصة كافر باسمه الخاص، أعظم من قصة فرعون، ولا ذكر عن أحد من الكفار من كفره، وطغيانه وعلوه: أعظم مما ذكر عن فرعون.

وأخبر عنه وعن قومه أنهم يدخلون أشد العذاب، فإن لفظ آل فرعون: كلفظ آل

إبراهيم، وآل لوط، وآل داود، وآل أبي أوفى، يدخل فيها المضاف باتفاق الناس، فإذا جاءوا إلى أعظم عدو لله من الإنس، أو من هو من أعظم أعدائه: فجعلوه مصيباً، محقاً فيما كفره به الله: علم أن ما قالوه أعظم من كفر اليهود والنصارى، فكيف بسائر مقالاتهم؟) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْيَلْدِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيَجْدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝﴾ [غافر] - إلى قوله - ﴿الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝﴾ [غافر] والسلطان هو الوحي المنزل من عند الله، كما ذكر ذلك في غير موضع كقوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ۝﴾ [الروم] وقوله: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] وقال ابن عباس: «كل سلطان في القرآن فهو الحجة»^(٢) ذكره البخاري في صحيحه.

وقد ذكر في هذه السورة «سورة حم غافر» من حال مخالفي الرسل من الملوك والعلماء مثل مقول الفلاسفة وعلمائهم ومجادلتهم استكبارهم ما فيه عبرة:

مثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كَبْرٌ مَّا هُمْ بِسَالِفِينَ﴾ [غافر: ٥٦] ومثل قوله: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصْرَفُونَ ۝ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَإِذَا أُرْسِلُوا بِهِ رَسُولًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾ [غافر: ٧٥] إذ الأغلل في أعناقهم والسلسل يسحبون ۝ في العيب ثمر في النار يسجرون ۝﴾ [غافر: ٧٦] - إلى قوله - ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِذَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ۝﴾ [غافر] وختم السورة بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣] ا. هـ^(٣).

﴿حَمَّ ۝ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝﴾

(وقد كان بعض الصحابة ظن أن الخمر حُرِّمت على العامة دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات فشرها متأولاً، فأحضره عمر، واتفق هو وأئمة الصحابة كعلي وغيره

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مجموع الفتاوى (١٢٥/٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٨/٩ - ٣٩).

على أنهم إن أصرُّوا على استحلالها كفروا، وإن أقرُّوا بالتحريم جلدوا، فأقرُّوا بالتحريم. ثم حصل لذلك نوع من اليأس والقنوط لما فعل، فكتب إليه عمر: ﴿حَمَّ ①﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ③ وأظنه قال؛ ما أدري أي ذنبك أعظم؟! : استحلالك الرجس، أم يأسك من رحمة الله ④(١)؟ . ا. هـ. ②(٢).

﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑤﴾ .

(قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية. وقال سبحانه: ﴿وَيَجْمَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]. فأخبر أن للعرش حملة اليوم ويوم القيامة، وأن حملته ومن حوله يسبحونه ويستغفرون للمؤمنين) . ا. هـ. ③(٣).

وقال رحمه الله: (فإن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فأخبر أن له حملة لا واحداً، وأنهم كلهم مؤمنون مسبحون بحمد ربهم، مستغفرون للذين آمنوا) . ا. هـ. ④(٤).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑤﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑥﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ ⑦. فقد أخبر سبحانه أن الملائكة يدعون للمؤمنين بالمغفرة، ووقاية العذاب، ودخول الجنة، ودعاء الملائكة ليس عملاً للعبد) . ا. هـ. ⑤(٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ⑧﴾ .

قال رحمه الله: (وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ⑧﴾، فهذا يدل على أن حبه ومقته، جزاء لعملهم وأنه يحبهم إذا التقوا وقاتلوا؛ ولهذا رغبتهم في العمل بذلك، كما يرغبهم بسائر

(٢) الاستقامة (٢/١٩٠).

(١) مرّ تخريجه.

(٤) منهاج السنة (٧/٢٦١).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٥٥٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٤/٣٠٦ - ٣٠٧).

ما يعدهم به؛ وجزاء العمل بعد العمل، وكذلك قوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾؛ فإنه سبحانه يمقتهم إذ يدعون إلى الإيمان فيكفرون) ا.هـ^(١).

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ ﴿١١﴾ .
 (قيل يسمى ذلك موتاً. وتأولوا على ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾: قيل إن الحياة الأولى في هذه الدار، والحياة الثانية في القبر.

والموتة الثانية في القبر، والصحيح أن هذه الآية كقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فالموتة الأولى قبل هذه الحياة، والموتة الثانية بعد هذه الحياة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بعد الموت. قال تعالى: ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٥٥﴾ [طه]، وقال: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنهَا تُخْرَجُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الأعراف]. فالروح تتصل بالبدن متى شاء الله تعالى، وتفارقه متى شاء الله تعالى، لا توقت ذلك بمرة ولا مرتين، والنوم أخو الموت) ا.هـ^(٢).

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ ﴿١٦﴾ .
 (وفي قوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾: إنما يتعظ من يرجع إلى الطاعة. وهذا لأن التذکر التام التأثر بما تذكره: فإن تذكر محبوباً طلبه، وإن تذكر مرهوباً هرب منه، ومنه قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦٦] ا.هـ^(٣).

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ .

(وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ هو دعاء العبادة، والمعنى: اعبدوه وحده وأخلصوا عبادته، لا تعبدوا معه غيره) ا.هـ^(٤).

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِن أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ﴿١٨﴾ .

(وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِن أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ فجعل إنذارهم بالتوحيد كالإنذار بيوم التلاق، وكلاهما عرفوه بالوحي) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِن أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن

(١) مجموع الفتاوى (٧/٤٤٣ - ٤٤٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٢٧٤ - ٢٧٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/٢٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥/١٣).

(٥) مجموع الفتاوى (١٥/٣١).

عِبَادِهِ يُنْزِلُ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١﴾، فسمى الملك روحاً وسمى ما ينزل به المَلَكُ روحاً، وهما متلازمان، والمسيح ﷺ مؤيداً بهذا وهذا.

ولهذا قال كثير من المفسرين: إنه جبريل، وقال بعضهم: إنه الوحي، وهذا كلفظ الناموس يراد به صاحب سر الخير كما يراد بالجاسوس صاحب سر الشر فيكون الناموس جبريل، ويراد به الكتاب الذي نزل به وما فيه من الأمر والنهي والشرع، ولما قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى»^(١)، فسر الناموس بهذا وهذا، وهما متلازمان) ١. هـ^(٢).

﴿وَأَوَّلَ مَا سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٦١﴾﴾.

قال رحمه الله: (وقال الله تعالى: ﴿وَأَوَّلَ مَا سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، والقوة تعم قوة الإدراك النظرية وقوة الحركة العملية، وقال في الآية الأخرى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢] فأخبر بفضلهم في الكم والكيف، وأنهم أشد في أنفسهم، وفي آثارهم في الأرض) ١. هـ^(٣).

﴿وَأَوَّلَ مَا سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٦١﴾﴾

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦٢﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٦٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٦٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٦٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٦٧﴾﴾.

(وفرعون كان أعظم كفراً من هؤلاء؟ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٦٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٦٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم

(٢) الجواب الصحيح (٢/١٨٧).

(١) متفق عليه.

(٣) مجموع الفتاوى (٩/٤٠).

بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُمْ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿٢٨﴾، إلى قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي لِي صَرَخًا لَعَلِّي آتِبُغَ الْأَسْبَابَ ﴿٢٩﴾ أَتَسْبَبُ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٠﴾، أخبر الله ﷻ أن فرعون ومن ذكر معه قال إن موسى ساحرٌ كذابٌ، وهذا من أعظم أنواع الكفر.

ثم أخبر الله أنه أمر بقتل أولاد الذين آمنوا معه لينفروا عن الإيمان معه كيدا لموسى. قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥]، فدل على أنهم من الكافرين الذين كيدهم في ضلال، فوصفهم بالتكذيب وبالكفر جميعاً، وإن كان التكذيب مشتملاً مستلزماً للكفر، كما أن الرسالة مستلزمة للنبوة، والنبوة مستلزمة للولاية) ا.هـ (١).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

(ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فهو من آل فرعون وهو مؤمن) ا.هـ (٢). وقال رحمه الله: (ومن شجاعة الصديق ما في الصحيحين عن عروة بن الزبير قال: سألتُ عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: رأيت عُقبة بن أبي مُعيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر فدفعه عنه، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾) (٣) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾

(١) جامع الرسائل (١/٢١٠ - ٢١١).

(٢)

منهاج السنة (٥/١٢٠).

(٣) هو في البخاري (١٠/٥) فحسب، والله أعلم.

(٤) منهاج السنة (٨/٨٥).

أَنْقَلْتُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ
 وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضَ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿١٨﴾
 يَقُومُ لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا
 أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿١٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
 مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ
 ﴿٢١﴾ وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٢٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُ مِنْ أَرْضِهِمْ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ
 يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّكُمْ وَمَا
 جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكَ فُلْتُمْ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ
 هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ
 وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ ابْنِي
 لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٢٦﴾ اسْتَبَدَّ السَّمْعَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا
 وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٧﴾
 وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٨﴾ يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
 مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٢٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ
 صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ
 ﴿٣٠﴾ وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٣١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ
 وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقْدَرِ ﴿٣٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
 لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنْتَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ
 ﴿٣٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٤﴾ فَوَقَدَهُ اللَّهُ
 سَعَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِقَالَ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٣٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا
 وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٣٦﴾ [غافر]، فقد أخبر - سبحانه - أنه
 حاق بال فرعون سوء العذاب، وأخبر أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتُم إيمانه
 وأنه خاطبهم بالخطاب الذي ذكره، فهو من آل فرعون باعتبار النسب والجنس والظاهر،
 وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب وكذلك امرأة فرعون ليست من آل
 فرعون هؤلاء) ١. هـ (١).

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿٣٥﴾ .

قال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿يَقْوِمُ إِيَّاهُ خَافٍ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (١٥) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَكَادَ وَتَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿١٦﴾، بين أن هذا العقاب لم يكن ظلاماً، بل هو لاستحقاقهم ذلك: (١) هـ.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقْوِمُ إِيَّاهُ خَافٍ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (١٦) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَكَادَ وَتَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿١٧﴾.

قال رحمه الله: (وقال مؤمن آل فرعون ﴿يَقْوِمُ إِيَّاهُ خَافٍ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَكَادَ وَتَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿١٦﴾) وقال تعالى: ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١] والدأب العادة في ثلاثة مواضع قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٧) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨﴾ [آل عمران] قال ابن قتيبة وغيره الدأب العادة ومعناه كعادة آل فرعون يريد كفر اليهود كل فريق بنبيهم وقال الزجاج هو الاجتهاد معناه أي دأب هؤلاء وهو اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النبي كتظاهر آل فرعون على موسى، وقال عطاء والكسائي وأبو عبيدة كسنة آل فرعون وقال النضر بن شميل كعادة آل فرعون يريد عادة هؤلاء الكفار في تكذيب الرسل وجحود الحق كعادة آل فرعون، وقال طائفة نظم الآية إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النعمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الأمم الخالية أخذناهم فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم. وفي تفسير أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس كدأب آل فرعون قال كصنيع آل فرعون. قال ابن أبي حاتم وروي عن مجاهد والضحاك وأبي مالك وعكرمة نحو ذلك قال: وروي عن الربيع بن أنس كسبه آل فرعون وعن السدي قال: ذكر الذين كفروا كمثلي الذين من قبلهم في التكذيب والجحود (قلت) فهؤلاء جعلوا الشبيه في العمل فإن لفظ الدأب يدل عليه قال الجوهري دأب فلان في عمله أي جد وتعب دأباً ودؤوباً فهو دئب وأدأبته أنا والدائبان الليل والنهار قال والدأب يعني بالتسكين العادة والشأن وقد يحرك. قال الفراء: أصله من دأبت إلا أن العرب حولت معناه إلى الشأن قلت: الزجاج جعل ما في القرآن من الدأب الذي هو الاجتهاد. والصواب ما قاله الجمهور أن الدأب بالتسكين هو العادة وهو غير الدأب بالتحريك إذا زاد اللفظ زاد المعنى والذي في

القرآن مسكن ما علمنا أحداً قرأه بالتحريك، وهذا معروف في اللغة يقال: فلان دأبه كذا وكذا أي هذا عادته وعمله الملازم له وإن لم يكن في ذلك تعب واجتهاد ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، والدائب نظير الدائم والباء والميم متقاربتان ومنه اللازم واللازم قال ابن عطية دائبين أي متمادين ومنه قول النبي ﷺ لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش إليه «إن هذا الجمل شكى إليّ أنك تجيعه وتدئبه» أي تديمه في العمل له والخدمة قال وظاهر الآية أن معناه دائبين في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التي لا تحصى كثيرة قال وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان يرفعه إلى ابن عباس أنه قال: معناه دائبين في طاعة الله قال: وهذا قول إن كان يراد به طاعة انقيادهما للتسخير فذلك موجود في طاعة قوله وسخر وإن كان يراد به أنها طاعة مقدورة كطاعة العبادة من البشر فهذا بعيد قلت ليس هذا بعيد بل عليه دلت الأدلة الكثيرة كما هو مذكور في مواضع وقالت طائفة منهم البغوي وهذا لفظه دائبين يجريان فيما يعود إلى مصالح عباد الله لا يفتران. قال ابن عباس دؤوبهما في طاعة الله ولفظ أبي الفرج دائبين في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره لا يفتران، قال ومعنى الدؤوب مرور الشيء على عادة جارية فيه. قلت: وإذا كان دأبهم هو عادتهم وعملهم الذي كانوا مصرين عليه، فالمقصود أن هؤلاء أشبهوهم في العمل فيشبهونهم في الجزاء فيحقيق بهم ما حاق بأولئك هذا هو المقصود ليس المقصود التشبيه في الجزاء كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ﴿١٠﴾ كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ [آل عمران] أي فهؤلاء لا تدفع عنهم أموالهم وأولادهم عذاب الله إذ جاءهم كدأب آل فرعون، وكذلك قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ إلى قوله: ﴿كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَمْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَاثِبٍ ظَالِمِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ [الأنفال]، فهذا كله يقتضي التشبيه في العذاب وأما الطائفة الأخرى فجعلوا الدأب نفس فعل الرب بهم وعقوبته لهم قال مكي بن أبي طالب الكاف في كدأب في مواضع نصب نعت لمحذوف تقديره غيرناهم كما غيروا تغييراً مثل عادتنا في آل فرعون، ومثلها الآية الأولى إلا أن الأولى للعادة في العذاب تقديره فعلنا بهم ذلك فعلاً مثل عادتنا في آل فرعون وقد جمع بعضهم بين المعنيين فقال أبو الفرج: ﴿كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأنفال: ٥٢] أي

كعاداتهم والمعنى كذب أولئك فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك قلت: الدأب العادة، وهو مصدر يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى، فإذا أضيف إلى الفاعل كان المعنى كفعل آل فرعون وإذا أضيف إلى المفعول كان المعنى كعاداتهم في العذاب والمصائب التي نزلت بهم يقال هذه عادة هؤلاء لما فعلوه ولما يصيهم وهي عادة الرب وسنته فيهم والتحقيق أن اللفظ يتناول الأمرين جميعاً وقد تقدم عن الفراء والجوهري أن الدأب العادة والشأن وهذا كقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران]، روى ابن أبي حاتم بالإسناد المعروف عن مجاهد ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ من الكفار والمؤمنين في الخير والشر وعن أبي إسحاق أي قد مضت مني وقائع نقمة في أهل التكذيب لرسلي والشرك بي عاد وشمود وقوم لوط وأصحاب مدين فأروا مثلات قد مضت مني فيهم فقد فسرت السنن بأعمالهم وبجزائهم، قال البغوي: معنى الآية قد مضت وسلفت مني فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة بإمهالي واستدراجي إياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لإهلاكهم وإدالة أنبيائي فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين أي آخر المكذبين منهم قال: وهذا في حزب واحد، يقول: فأنا أمهلهم وأستدرجهم حتى يبلغ أجلي الذي أجلت من نصرة النبي وأوليائه وهلاك أعدائه. قلت: ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٦١﴾﴾ [الحج]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَّا ظُلْمًا ﴿١٠١﴾﴾ [الروم]، وقوله في الآية الأخرى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر] فهذا كله يبين أن سنة الله وعادته مطردة لا تنتقض في إكرام مصدقي الرسل وإهانة مكذبيهم) ا. هـ^(١).

(١) النبوات (٢٥٠ - ٢٥٣) وجميع الآثار والأحاديث في هذا المقطع قد مرّت وخرجتها هناك.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٥﴾﴾ .

قال رحمه الله: (وقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٥﴾﴾، والسلطان هو الكتاب المنزل من السماء. كما ذكر ذلك غير واحد من المفسرين) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، والسلطان الذي أتاهم هو الحجة الآتية من عند الله، كما قال: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم] ١. هـ^(٢) .

وقال رحمه الله: (لهذا كان هؤلاء من ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ إذ السلطان هو كتاب الله، فمن جادل بغير سلطان من الله كان ممن ذمه الله في الكتاب، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٥﴾﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ فَاسْتَغْزِبُوا بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّامِعُونَ ﴿٥١﴾﴾ [غافر] ١. هـ^(٣) .

وقال رحمه الله: (وفي قوله: ﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ بيان أنه لا يجوز أن يعارض كتاب الله بغير كتاب الله، لا بفعل أحد ولا أمره، لا دولة ولا سياسة، فإنه حال الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم؛ ولكن يجوز أن يكون في آيات الله ناسخ ومنسوخ، فيعارض منسوخه بناسخه، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وكما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدَهُمْ عَن قِبَلِهِمْ آلِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة]، ونظائره متعددة) ١. هـ^(٤) .

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٥﴾﴾، بعد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِقَوْلِهِمْ إِذْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٥﴾﴾، إلى

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/٢٠٧) . (٢) منهاج السنة (٧/٦٠) .

(٣) بيان تليس الجهمية (٢/٦١) . (٤) مجموع الفتاوى (١٩/٧٨ - ٧٩) .

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ يَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقًّا إِذَا هَلَكَ فَلَنْتُمْ أَنْ يَبْعَكَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ الآية. يُخَوِّفُهُمْ بِمِثْلِ عَقُوبَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا لِلْأُمَّمِ الْكَافِرَةِ قَبْلَهُمْ، وَخَوِّفُهُمْ بِمَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وهذا فيه بيان إخباره بيوم القيامة، وهو ممن آمن بموسى، كما قد قرناه في غير هذا الموضوع: أن جميع الرسل أخبرت بيوم القيامة خلاف ما تزعم طوائف من الفلاسفة وأهل الكلام: أن المعاد الجسماني لم يخبر به إلا محمدٌ وعيسى، ونحو ذلك.

ثم قال المؤمن: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ يَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقًّا إِذَا هَلَكَ فَلَنْتُمْ أَنْ يَبْعَكَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِقٌ مُرْتَابٌ ﴿٢٤﴾﴾ لأن الريب عدم العلم، وهذا حال أهل الضلال.

وقال هناك: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾. لأنه أخبر بجدهم في آيات الله بغير سلطان أتاها، وهذه حال المتكلمين بغير علم، لطلب العلو والفساد.

كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي سُذُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيئَةٍ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥١﴾﴾.

ولهذا قال في هؤلاء المجادلين: ﴿كِبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الصف: ٣]، أي كِبْرٌ مَقْتُهُمْ - أو كِبْرٌ هَذَا الْمَقْتِ، أو كِبْرٌ هَذَا الْجِدَالِ، أو هَذَا الْفِعْلِ - مَقْتًا أَي مَمْقُوقًا. كما قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، وكما قال تعالى: ﴿يَسْئَلُ الظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

فإن المخصوص بالمدح والذم في هذا الباب كثيراً ما يكون مضمراً إذا تقدم ما يعود الضمير إليه والمدح يراد به الرجل كما تقول: نعم رجلاً زيداً. ونعم رجلاً، وزيدٌ نعم رجلاً.

والمقت يراد به نفس المقت، ويراد به الممقوت، كما في الخلق ونظائره. ومثله قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾﴾ كِبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ [الصف: ١] أي كِبْرٌ مَمْقُوتًا، أي كِبْرٌ مَمْقُوتًا.

والمقتُ البغضُ الشديد، وهو من جنس الغضب المناسب لحال هؤلاء. كما قال في اليهود: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقد وصفهم بنحو مما وصف عدوهم فرعون، فقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي

الْكَلْبِ لِنَفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَلْعَنَ عَلْوًا كَبِيرًا ﴿٤١﴾ [الإسراء]، فوصفهم بالفساد في الأرض والعلو. كما أن ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَخِيهِنَّ إِسَاءَةً لَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٢﴾ [القصص]، وختم السورة بقوله: ﴿تِلْكَ الْأْدَارُ الْأَخْرَىٰ جَعَلْنَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عَلْوًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِبِينَ ﴿٤٣﴾ [القصص].

وهذا مما يبين أن قوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ مبتدأ، ليس بدلاً من قوله: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، فإنه سبحانه وصف هؤلاء بغير ما وصف هؤلاء، ويؤيد هذا أنه ابتداءً قد قال في الأخرى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾. وقال قبل هذه الآية: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤] وقد يقال: يُمكن اجتماع الوصفين: الريب، والجدل بغير علم. كما هو الواقع في طوائف كثيرة، كما يجتمع الغضب والضلال.

وقد يقال: الآية تحتل الوقف وتحتمل الابتداء، وقد يكون هذا قراءتين، فتسوغ كل منهما، ويكون له وصف صحيح، كما في نظائره.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن الحارث عن علي عن النبي ﷺ، ورواه أبو نُعَيْمٍ الأصفهاني وغيره من طرق عديدة عن علي عن النبي ﷺ: في القرآن، الحديث المعروف. قال: قلت يا رسول الله: ستكون فتنة، فما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفضل ليس بالهزل، من تركه من جبارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله»، وهو حبلُ الله المتين، وهو الذكرُ الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم. وهو الذي لا تزيع به الأهواء، ولا تختلف به الآراء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراطٍ مستقيم^(١).

فقوله: (من تركه من جبارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله) يناسب قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، وكذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾، فذكر ضلال الأول وذكر تجبر الثاني، وذلك

لأن الأول مرتاب؛ ففاته العلم، حيث ابتغى الهدى في غيره، والثاني جبار عمل بخلاف ما فيه فقصمه الله. وهذان الوصفان يجمعان العلم والعمل.

وفي ذلك بيان أن كل علم دين لا يُطلب من القرآن فهو ضلال، كفساد كلام الفلاسفة والمتكلمة والمتصوفة والمتفقهة، وكل عاقل يترك كتاب الله مريداً للعلو في الأرض والفساد فإن الله يقصمه. فالضالُّ لم يحصل له المطلوب بل يُعذَّب بالعمل الذي لا فائدة فيه. والجبار حصل لذة فقصمه الله عليها، فهذا عُذَّب بإزاء لذاته التي طلبها بالباطل، وذلك يُعذَّب بسعيه الباطل الذي لم يُفدُه.

والمقصود هنا أنه سبحانه في هاتين الآيتين بيّن من يجادل في آيات الله بغير سلطان أتاهم. وقد بيّن في غير موضع أن السلطان هو الحجة، وهو الكتاب المنزّل، كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُونَ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم]، وقيل: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، في غير موضع.

وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ يَقُولُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ وَلَدَّ اللَّهُ... ﴿ إلى قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَنْتُمْ بِكَيْدِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الصفات]، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْطَانٌ يُسْتَعِينُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعِينَهُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ [الطور: ٣٨]، وقال: ﴿أَنْتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [القلم].

وإذا كان كذلك، ففي هذا بيان أنه لا يجوز لأحد أن يعارض كتاب الله بغير كتاب، فمن عارض كتاب الله وجادل فيه بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة، أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواق. من غير أن يأتي على ما يقوله بكتاب منزل - فقد جادل في آيات الله بغير سلطان. هذه حال الكفار الذين قال فيهم: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤] فهذه حال من يجادل في آيات الله مطلقاً.

ومن المعلوم أن الذي يجادل في جميع آيات الله لا يجادل بسلطان، فإن السلطان من آيات الله، وإنما الذي يجادل في آيات الله بسلطان، يكون قد جادل في بعض آيات الله ببعض آيات الله.

وهذه الحال يُحمدُ منها أن تكون إحدى الآيتين ناسخة لها، أو مفسرة لها بما يخالف ظاهرها، وإن كان السلف يسمون الجميع نسخاً.

ولهذا لم يكن السلف من الصحابة والتابعين يتركون دلالة آية من كتاب الله إلا بما يسمونه نسخاً. ولم يكن في عهدهم كُتُبٌ في ذلك إلا كتب الناسخ والمنسوخ؛ لأن

ذلك غايته أن نجادل في آيات الله بسُلطان، كجدالنا مع أهل التوراة والإنجيل - وهما من آيات الله - بالقرآن، الذي أنزله الله مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهَيِّمناً عليه.

فأما مُعارضة القرآن بمعقول أو قياس فهذا لم يكن يستحلّه أحد من السلف، وإنما ابتُدِع ذلك لما ظهرت الجهمية والمعتزلة ونحوهم، ممن بنّوا أصول دينهم على ما سمّوه معقولاً وردّوا القرآن إليه وقالوا: إذا تعارض العقل والشرع إما أن يُفوّض أو يُتأوّل، فهؤلاء من أعظم المجادلين في آيات الله بغير سلطانٍ أتاهاهم.

وأما تسمية المتأخرين تخصيصاً وتقييداً ونحو ذلك مما فيه صرف الظواهر، فهو داخل في مسمى النسخ عند المتقدمين. وعلى هذا الاصطلاح فيدخل النسخ في الأخبار كما يدخل في الأوامر. وإنما النسخ الخاص الذي هو رفع الحكم. فلا بد في الخبر عن أمر مستقر.

وأما ما يدخل في الخبر عن إنشاء أمر، فيكون لدخوله في الإنشاء: إنشاء الأمر والنهي، وإنشاء الوعيد، عند من يُجوّز النسخ فيه، كآخر البقرة، على ما رُوي عن جمهور السلف) ١. هـ^(١).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنُ آيِنِ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾﴾.

(وكذلك قول فرعون: ﴿يَهْمَنُنُ آيِنِ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾﴾ سَبَبِ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ هذا أبلغ في كون موسى صرح له بأن إلهه فوق السماوات حتى قصد تكذيبه بالفعل من الإخبار عن ذلك بلفظ موسى) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (والمقصود هنا بيان أن هؤلاء الذين يدعون التحقيق والمعرفة والولاية القائلين بوحدة الوجود أصل قولهم قول الباطنية من الفلاسفة والقرامطة وأمثالهم، وأن هؤلاء من جنس فرعون، لكن هؤلاء أجهل من فرعون، وفرعون أعظم عناداً منهم، فإن فرعون كان في الباطن مقرأً بالصانع المبين للأفلاك، ولكن أظهر الإنكار طلباً للعلو والفساد، وأظهر أن ما قاله موسى لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنُ آيِنِ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾﴾ سَبَبِ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾، وأما هؤلاء فإنهم عند أنفسهم مقرّون بالصانع مثبتون له، لكن لم يثبتوه مبيناً للعالم، بل جعلوا وجوده وجود العالم، أو جعلوه حالاً في العالم. وقولهم

مضطرب متناقض، فإنهم مترددون بين الاتحاد والحلول. وأصل ضلالهم إنكارهم مباينة الصانع للعالم، وصارت قلوبهم تطلب موجوداً، وهي تأبى أن يكون مبايناً للعالم، فصاروا يطلبونه في العالم، أو يجعلون وجوده هو وجود العالم، فيجعلونه إما العالم وإما جزءاً منه وإما صفة له، وإما أن يقولوا: هو العالم، ليس هو العالم، فيجمعوا بين المتناقضين. وهو حقيقة قول ابن عربي فإنه يجعل وجوده وجود العالم، ويقول: إن ذات الشيء غير وجوده) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فإن فرعون كذب موسى فيما أخبر به: من أن ربه هو الأعلى وأنه كلمه كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أُنْثَىٰ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ الْأَسْبَابَ ۖ﴾^(٣٦) أَتْلُجُ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ وهو قد كذب موسى في أن الله كلمه) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكان فرعون جاحداً للرب، فلولا أن موسى أخبره أن ربه فوق العالم لما قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ﴾^(٣٧) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَكُنْ وَقَدَرُونَ فَقَالُوا سَدْحٌ كَذَابٌ ۖ﴾^(٣٨) إلى قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أُنْثَىٰ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ الْأَسْبَابَ ۖ﴾^(٣٩) أَتْلُجُ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

فأخبر عقب قوله: ﴿أَدْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ عن محاجتهم في النار، وقول الضعفاء للذين استكبروا، وقول المستكبرين للضعفاء: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ ومعلوم أن فرعون هو رأس المستكبرين، وهو الذي استخفت قومه فأطاعوه، ولم يستكبر أحد استكبار فرعون، فهو أحق بهذا النعت والحكم من جميع قومه) ا.هـ^(٤).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْقُورُ اتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۖ﴾^(٤٠).

(١) الصفدية (١/ ٢٦٢ - ٢٦٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٧٣).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٨٢ - ٢٨٣).

(وهذا المعنى هو الذي قاله العبد الصالح حيث قال: ﴿يَقَوْمِ أَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ فأخبر أن الدنيا متاع تتمتع بها إلى غيرها، وإن الآخرة هي المستقر) ا.هـ (١).

﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثْمِهِمْ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾

(قوله: ﴿وَحَاقَ بِإِثْمِهِمْ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ وهذا إخبار عن فرعون وقومه؛ أنه حاق بهم سوء العذاب في البرزخ، وأنهم في القيامة يدخلون أشد العذاب، وهذه الآية إحدى ما استدلل به العلماء على عذاب البرزخ) ا.هـ (٢).

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾

(قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن هذا وعد وخبر ليس فيه قسم، لكنه مؤكد باللام التي يمكن أن تكون جواب قسم) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: وهذا مما يدل على أن الانتصار الذي كان يحصل له في حياة النبي ﷺ كان نصراً من الله لرسوله، ولمن قاتل معه على دينه. فإن الله يقول: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وكذلك نصر محمداً ومن اتبعه، على من كذبه من قومه، ونصر نوحاً على من كفر به، ونصر المسيح على من كذبه، ونصر سائر الرسل وأتباعهم المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ ا.هـ (٥).

وقال رحمه الله: (ومعلوم أن نصر الله نصر إكرام ومحبة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وهذا غاية المدح لأبي بكر، إذ دل على أنه ممن شهد له الرسول بالإيمان، المقتضي نصر الله له مع رسوله، وكان متضمناً شهادة الرسول له بكمال الإيمان المقتضي نصر الله له مع رسوله في مثل هذه الحال التي بين الله فيها غناه عن الخلق) ا.هـ (٦).

(١) الاستقامة (١٥٢/٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/٢٨٠ - ٢٨١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/٥٢٦).

(٤) منهاج السنة (٨/٩٠).

(٥) الجواب الصحيح (٦/٣٩٥).

(٦) منهاج السنة (٨/٣٨١).

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾ .

(وقال سبحانه لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾ فأمره بالصبر، وأخبره أنّ وعد الله حق، وأمره أن يستغفر لذنبه) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (لنبيه ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فأمره بالصبر على المصائب والاستغفار من الخطيئات) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فالمؤمن مأمور أن يصبر على المصائب، ويستغفر من الذنوب والمعائب) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فيجمع بين طاعة الأمر والصبر على المصائب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَبْغُضُنَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال يوسف ﷺ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] ا.هـ^(٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِغِيهِ فَاسْتَغْزِبُوا بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّكِينُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ .

(وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِغِيهِ﴾، والسلطان: هو الكتاب المنزل من السماء، فكل من عارض كتاب الله المنزل بغير كتاب الذي قد يكون ناسخاً له أو مفسراً له، كان قد جادل في آيات الله بغير سلطان أتاه) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (ثم الأنبياء - صلوات الله عليهم - كملوا للناس الأمرين، فدلواهم على الأدلة العقلية التي بها تعلم المطالب الإلهية التي يمكنهم علمهم بها بالنظر والاستدلال، وأخبروهم مع ذلك من تفاصيل الغيب بما يعجزون عن معرفته بمجرد نظرهم واستدلالهم).

(٢) الاستقامة (١/٣٨٨).

(١) الاستقامة (١/٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠٩/٢) (١٠٩/٨، ٢٤١/٨، ٣٠٣ - ٣٠٤) (٢٥٩/١١) منهاج السنة (٣/٧٨).

(٥) درء تعارض (١/١٩٠).

(٤) الاستقامة (٢/٧٩ - ٨٠).

وليس تعليم الأنبياء - صلوات الله عليهم - مقصوراً على مجرد الخبر، كما يظنه كثير من النظار. بل هم بينوا من البراهين العقلية التي بها تعلم العلوم الإلهية ما لا يوجد عند هؤلاء البتة. فتعليمهم - صلوات الله عليهم - جامع للأدلة العقلية والسمعية جميعاً بخلاف الذين خالفوهم. فإن تعليمهم غير مفيد للأدلة العقلية والسمعية مع ما في نفوسهم من الكبر الذي ما هم ببالغيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي سُؤْدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْقِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكُم مَّ هُوَ السَّكِينُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [غافر]، ومثل هذا كثير في القرآن) ا. هـ^(١).

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

(ولفظ الإسلام: يتضمن الاستسلام والانقياد، ويتضمن الإخلاص، من قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩] فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه، وهذا حقيقة قولنا: (لا إله إلا الله) فمن استسلم لله ولغيره فهو مشرك، والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته، وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

وثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان. فقليل له يا رسول الله: الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، أفمن الكبر ذاك؟ فقال: لا. إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٢) بطر الحق: جحده ودفعه، وغمط الناس: ازدراؤهم واحتقارهم) ا. هـ^(٣).

(١) الرد على المنطقيين (٣٢٣ - ٣٢٤).

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٨٣٦/٢ - ٨٣٧).

وقال رحمه الله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فإنه فُسر بالمسألة وبالعبادة) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إلى أمثال ذلك مما يبين أنه سخط على الكفار لما كفروا، ورضي عن المؤمنين لما آمنوا) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد فسر قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بالوجهين، قيل: اعبدوني وامثلوا أمري استجب لكم. كما قال تعالى: ﴿وَأَسْتَجِبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أي يستجيب لهم، وهو معروف في اللغة يقال: استجابة، واستجاب له كما قال الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب
وقيل: سلوني أعطكم) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (فالكبر المباین للإيمان لا يدخل صاحبه الجنة كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ومن هذا كبر إبليس، وكبر فرعون وغيرهما ممن كان كبره منافياً للإيمان، وكذلك كبر اليهود والذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فالدعاء يتضمن النوعين، وهو في دعاء العبادة أظهر؛ ولهذا أعقبه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ الآية. ويفسر الدعاء في الآية بهذا وهذا.

وروى الترمذي عن النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - على المنبر - «إن الدعاء هو العبادة»^(٥). ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية قال الترمذي حديث حسن صحيح) ا. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿١٦﴾، وهؤلاء مستكبرون عن عبادة الله،

(١) شرح العمدة - الصلاة (٢٨).

(٢) مجمع الفتاوى (٢٣٩/١٠).

(٣) مجمع الفتاوى (٦٧٧/٧).

(٤) مجمع الفتاوى (٢٦٧/٤) وأحمد (٣٨٢٨)، وابن ماجه (٣٢٤٧) وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٢٦٧/٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (١٨٥) والحاكم (٤٩١/١) والتحديث صحيح.

(٥) مجمع الفتاوى (١٢/١٥).

(٦) مجمع الفتاوى (١٢/١٥).

بل وعن جنس العبادة مطلقاً، وهم ممن يتناولوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ﴾ (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وقال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أهل السنن: أبو داود وغيره: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقد فسر هذا الحديث مع القرآن بكلا النوعين: قيل: (ادعوني) أي اعبدوني وأطيعوا أمري - أستجيب دعاءكم. وقيل: سلوني أعطكم، وكلا المعنيين حق. وفي الصحيحين في قول النبي ﷺ في حديث النزول: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، حتى يطلع الفجر» فذكر أولاً: إجابة الدعاء، ثم ذكر السائل والمغفرة للمستغفر، فهذا جلب المنفعة، وهذا دفع المضرة، وكلاهما مقصود الداعي المجاب) ا. هـ (٢).

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٥)

قال تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وكان ابن عباس (٣) يقول: إذا قلت: لا إله إلا الله فقل: الحمد لله رب العالمين؛ يتأول هذه الآية) ا. هـ (٤).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨٣) ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ الَّذِي كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٥).

قال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿سَبَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ فأخبر عن الأمم المكذبين للرسول، أنهم آمنوا عند رؤية البأس، وأنه لم يك ينفعهم إيمانهم حينئذ، وأن هذه سنة الله الخالية في عباده) ا. هـ (٥).

(١) الصلفية (٢/٢٥١).

(٢) اقتضاء الصراط (٢/٦٠).

(٣) ابن جرير (٢٤/٨١).

(٤) منهاج السنة (٥/٤٠٦)، وقریباً منه في جامع الرسائل (١/١٠٨)، جامع المسائل (٣/٢٨٦) قريباً منه.

(٥) مجموع الفتاوى (٤/٢٨٤).

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ .

قال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ إلى آخر السورة، فأخبر هنا بمثل ما أخبر به في الأعراف، وأن هؤلاء المعرضين عما جاءت به الرسل لما رأوا بأس الله وحدوا الله وتركوا الشرك فلم ينفعهم ذلك. وكذلك أخبر عن فرعون وهو كافر بالتوحيد والرسالة: أنه لما أدركه الغرق: ﴿قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ﴾ [يونس: ٩٠] الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآيتين) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (إلى قوله في آخر السورة: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿٨٧﴾، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن هذه الآية تتناول الفلاسفة) ١. هـ^(٢).

﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَنَّتْ اللَّهُ إِلَيْهِ قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ .

(وقال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَنَّتْ اللَّهُ إِلَيْهِ قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾، فأخبر أن سنته في عباده أنه لا ينفع الإيمان بعد رؤية البأس؛ فكيف بعد الموت؟ ونحو ذلك من النصوص) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ الآية. بين أن التوبة بعد رؤية البأس لا تنفع، وأن هذه سنة الله التي قد حلت في عباده؛ كفرعون وغيره) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَأْتَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَخْفَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسًا قَالُوا ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَنَّتْ اللَّهُ إِلَيْهِ قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾، فأخبر ﷺ أن الكفار لم يك ينفعهم إيمانهم حين رأوا البأس، وأخبر

(٢) الصفدية (٢/٢٤٧).

(١) مجموع الفتاوى (١٨/٥٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٨/١٩٠ - ١٩١).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/٣٢٥).

أن هذه سنته التي قد خلت في عبادته، ليبين أن هذه عادته سبحانه في المستقدمين والمستأخرين، كما قال ﷺ: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨] ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (كذلك قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٧) إلى قوله: ﴿الْكَافِرُونَ﴾، فأخبر هنا بمثل ما أخبر به في الأعراف: أن هؤلاء المعرضين عما جاءت به الرسل لما رأوا بأس الله وحدوا الله، وتركوا الشرك فلم ينفعهم ذلك) ا. هـ^(٢).

(١) جامع الرسائل (٢٠٨/١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/٩).

سورة فصلت

وقال في عموم سورة فصلت:

فصل

سورة «حم السجدة» مشتملة على تقرير أمر القرآن بما تضمنه أصول الإيمان، التي هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. بذلك فُتحت وبذلك ختمت كما أن سورة الشورى أيضاً بدأت بالوحي وختمت بالوحي المتضمن للقرآن والإيمان، قال تعالى: ﴿حَمْدٌ لِلَّهِ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كَتَبْنَا فُصِّلَتْ آيَاتِنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾ [فصلت] في ذكر القرآن ومستمعيه إلى قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] يتضمن الإخلاص والتوحيد والنبوة، وجماع الأمر الاستقامة إليه والاستغفار كما في قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩] وكما قال: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُوِثُوا إِلَىٰ اللَّهِ إِخْلَاصًا﴾ [هود: ٣]. ودم المشركين الذين لا يؤتون الزكاة، فإن الشرك ضد الاستقامة إليه التي هي الإخلاص كما فسر أبو بكر الصديق قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] قال: استقاموا إليه فلم يلتفتوا يمينا ولا شمالا.

فإن المستقيم ضد الزائع، فالمستقيم إليه ضد الزائع عنه المشرك به وعدم إيتاء الزكاة - وهو ما تزكو به النفوس من الذنوب فتصير زكية - ضد الاستغفار الذي يمحو الذنوب، فتزكو النفوس، ففي ذلك جمع بين الإخلاص والعمل الصالح، وهو الإيمان والعمل الصالح، وإسلام الوجه لله مع الإحسان، وكل واحد من التوبة والصدقة يمحو الذنوب، كما قال النبي ﷺ: «الصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفىء الماء النار»^(١) ولهذا قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُونَ كَنْزُورَ النَّفْسِ الَّتِي حَفَّتْ خُبَايَاهُ لَمْ تَكُنْ لِآلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] ثم ذكر تقرير الربوبية بخلق

(١) الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٣١/٥) والحديث صحيح.

السموات والأرض وما فيهما وبدء العالم، ثم ذكر أخبار الأشقياء والسعداء في الدنيا والآخرة فذكر الوعيد في الدنيا بقصص الأمم المتقدمة، وفي الآخرة يذكر ما يكون يوم القيامة.

فقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ [فصلت: ١٣ - ١٩] فيشبهه والله أعلم أي أنذرتكم يوم يحشر وقد يقال: واذكر يوم الحشر إلى قوله ثم استقاموا، فإنه ذكر حشر حالهم في الدنيا والآخرة، كما بين سوء منقلب أولئك في الدنيا والآخرة، ثم ذكر الدين المأمور به وهو الخلق العظيم وهو دين الإسلام ليجمع بين إسلام الوجه لله وبين العمل الصالح، بين القصد والعمل، ملة إبراهيم ودين محمد ﷺ تسليماً ثم قرر البعث بالدليل، ثم عاد إلى مخاطبة الكافرين بالذكر وتقرير أمره فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَوْنَ عَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٠] - إلى قوله - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت] إلى قوله: وهو كان المقصود بالكلام هنا - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ [فصلت] فإن الضمير عائد إلى الكتاب وهو القرآن ثم قال: ﴿سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت].

فالضمير في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] هو الضمير في قوله: ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ [فصلت: ٥٢] وذلك هو القرآن، أي حتى يتبين لهم أن الكتاب هو الحق لا ما خالفه، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي أو لم يكف شهادته عليه أنه منزل من عند الله، من الآيات المترتبة في الآفاق وفي الأنفس كما قال: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكِ الْمَكِينِ يُشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء] وشهادة الله تعالى بعلمه به، أي يعلم أن هذا كلامه، وإن المبلغ صادق وقبل كونهم لا يقدر على الإتيان بمثله ولا بمثل عشر سور منه ولا سورة واحدة، وما امتاز به من الوصف الذي مايز به كلام المخلوقين بما هو معلوم بالعقل والفطرة، كما أصاب عتبة بن ربيعة ونحو من أكابر عقلاء لما سمعوا منه: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت] وكما قال فيه عاقلهم وفيلسوفهم ورئيسهم الوليد بن المغيرة وغير ذلك، قال: الكفاية هنا تشبه الكفاية في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١] فنزول الكتاب يتلى عليهم آية كافية وهو شهادة الله بما أخبر فيه وبأن الرسول رسوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت].

شَقِيءٌ شَهِيدٌ ﴿﴾ فهذا ونحوه طرق يُعلم بها شهادة الله، وثم طرق أخرى، وهي إخبار رسل الله المتقدمين وإخبار أممهم عنهم بمثل ما أخبر به هذا الرسول فلذلك قال: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ﴾ [البقرة: ١١٤] إلى قوله: ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

والقرآن قد أخبر الله فيه بأمور، وإخباره بها شهادته بها، وكفى بالله شهيداً، فمن إخباره وشهادته بما شهد به من أمر الربوبية والرسالة والثواب والعقاب وأحوال أوليائه وأعدائه وهو الطريق السمعية وقد قال: ﴿سَتْرِيهِنَّ أَيْبَتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] فهذه الطريق البصرية التي قد تسمى العقل وهو أن يرد في أنفسهم وفي الأفاق ما يدل على مثل ما دل عليه القرآن فيروا حال المؤمنين بمحمد وحال الكافرين به كما أخبروا به عن المتقدمين، ويروا أيضاً حالهم إذا آمنوا أو كفروا ويروا أيضاً الدلائل الدالة على وحدانية الخالق وصفاته التي شهد بها الرب.

فالكلام في شيئين: في أن القرآن منزل من عند الله، وهذا قد شهد به الله بما أتى به. وسنريهم آيات بما يرونها تبين أنه منزل من عند الله.

الثاني: الكلام فيما أخبر به القرآن أيضاً كما تقدم.

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ﴾ يتناول:

• نسبته إلى الله.

• إنه صدق في نفسه.

والله شهد بالأميرين وقد أرى آياته على الأمرين) ١. هـ^(١).

وقال في أسباب نزول هذه السورة:

(قال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر، وعلمت من ذلك علماً، فما يخفى عليّ إن كان كذلك. فأتاه فلما خرج إليه قال أنت - يا محمد - خير أم هاشم وأنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا فإن كنت إنما بك الرياسة، عقدنا لك الرياسة فكنت رأسنا ما بقيت وإن كان بك الباه،

(١) المستدرک علی مجموع الفتاوى (تحت الطبع).

زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت. وإن كان بك المال، جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعد، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، فما فرغ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿حَمَّ ① تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ②﴾ كَتَبْتُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③﴾ [فصلت] إلى قوله: ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ﴾ [فصلت: ١٣].

فأمسك عتبة على فيه وناشد بالرحم أن يكف، ورجع إلى أهله، فلم يخرج إلى قريش، فاحتبس عنهم عتبة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه فاتاه أبو جهل فقال: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد فغضب وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً وقال: لقد علمتم أنني من أكثر قريش مالاً ولكني أتيت وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر: ﴿حَمَّ ① تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ②﴾ كَتَبْتُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③﴾ إلى قوله: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

فأمسكت فيه، وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب، رواه أبو بكر أحمد بن مردويه في كتاب التفسير عن محمد بن فضيل عن الأجلح عن الذيال بن حرملة عنه، ورواه يحيى بن معين عن محمد بن فضيل، ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده ورواه عبد بن حميد عن شيخ أبي يعلى ابن أبي شيبه.

وفي بعض الطرق: «إن كنت تزعم أن هؤلاء خيراً^(١) منك فقد عبدوا الآلهة. وإن كنت تزعم أنك خيراً^(١) منهم فتكلم وحتى نسمع» ورواه ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن زياد مولى لبني هاشم عن محمد بن كعب، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً حليماً.

«وذكر الحديث» إلى أن قال لما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنني والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصيبه العرب فقد كفيتموه

(١) كذا في الأصل، والجماعة الرفع.

بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم. ثم ذكر شعر أبي طالب يمدح عتبة فيما قال^(١) ا. هـ^(٢).

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ ءَاذَانِنَا وَقَدْ أَمَرْنَا بِمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَأَنَّا وَعَمَلِنَا عَلَيْهِ نَبِئِينَ مَلَأْنَا بَغْيًا وَكُفْرًا وَكِبْرًا وَجَمَلًا وَإِنَّا عَمِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

(أخبر عنهم حيث قالوا: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ ءَاذَانِنَا وَقَدْ أَمَرْنَا بِمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَأَنَّا وَعَمَلِنَا عَلَيْهِ نَبِئِينَ مَلَأْنَا بَغْيًا وَكُفْرًا وَكِبْرًا وَجَمَلًا وَإِنَّا عَمِلُونَ﴾ فذكروا الموانع على القلوب والسمع والأبصار، وأبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص؛ لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم، لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح) ا. هـ^(٣).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكَبِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

قال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي لا يأتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والإيمان) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وهي عند المفسرين التوحيد) ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وأصل الزكاة التوحيد والإخلاص، كما فسرها بذلك أكابر السلف) ا. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (وكذلك قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال: هم الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. ورؤي عن عكرمة نحو ذلك. وقال قتادة: لا يقرّون بها ولا يؤمنون بها. وكذلك قال السدي: لا يدينون بها ولو زكوا وهم مشركون لم ينفعهم، وقال معاوية بن قرّة: ليسوا من أهلها) ا. هـ^(٧).

(١) راجع السيرة لابن هشام (١/٢٩١ - ٢٩٩).

(٢) الجواب الصحيح (٥/٣٦٧ - ٣٧١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/١٠٤).

(٤) الجواب الصحيح (٦/٢٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٧/٢٩٩).

(٦) جامع المسائل (٣/٢٨٢).

(٧) مجموع الفتاوى (١٧/١٤٥ - ١٤٦).

وقال رحمه الله: (وكذلك قالوا في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۖ﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿١﴾ قال ابن عباس^(١): لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد: لا يزكون أعمالهم أي ليست زاكية، وقيل: لا يطهرونها بالإخلاص، كأنه أراد - والله أعلم - أهل الرياء، فإنه شرك، وعن الحسن: لا يؤمنون بالزكاة، ولا يقرون بها. وعن الضحاك: لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة وعن ابن السائب: لا يعطون زكاة أموالهم. قال: كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون^(٢).

و«التحقيق» أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة كقوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزُكَّى﴾ [النازعات: ١٨] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى] والصدقة المفروضة لم تكن فرضت عند نزولها) ١. هـ^(٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٨﴾. مثل قوله تعالى في آيتين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٨﴾، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين،] كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم] ^(٤).

قال عامة المفسرين: غير مقطوع، ولا منقوص.

وذكروا عن ابن عباس أنه قال: غير مقطوع.

وعن مقاتل: غير منقوص أيضاً:

قال عامة المفسرين: غير مقطوع ولا منقوص كما قال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾

﴿٢﴾ [القلم] قالوا ومنه المنون، لأنه يقطع عمر الإنسان. وعن مجاهد غير محسوب» وهذا يوافق ذلك، لأن ما ينتهي مقدر محسوب، بخلاف ما لا نهاية له فإنه غير محسوب.

وقد شدَّ بعض الناس فقال: غير ممنون عليهم من جنس قوله: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْأَلُوا قُلَّ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وهذا القول مع مخالفته لأقوال السلف والجمهور هو خطأ لوجوه:

«أحدها»: أن الله يمن علينا بكل نعمة أنعم بها علينا حتى بالإيمان والعمل

(١) ابن جرير (٩٢/٢٤).

(٢) كل الأقوال الباقية في زاد المسير (٧/٢٤١ - ٢٤٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٦٣٣). (٤) وهذه الأقوال ستأتي في سورة التين.

الصالح قال تعالى: ﴿يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمُ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْ صَادِقِينَ ﴿٧٧﴾ [الحجرات]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال أهل الجنة ما أخبر الله تعالى به في قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِيْ أَهْلِنَا مُتَشَفِّينَ ﴿٧٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٧٧﴾ [الطور]، وهذا كقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴿٤٣﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِزْقِعُمَا رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٥٧﴾ [الصافات] وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يدخل أحد منكم بعمله الجنة» قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(١)، والله تعالى في غير موضع يذكر آلاءه وإحسانه ونعمه على عباده، ويأمرهم أن يذكروها، ويأمرهم أن يشكروها والعبد قد نهى أن يمن بصدقته بقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] لأن المتصدق في الحقيقة إنما أحسن إلى نفسه لا إلى المتصدق عليه، فإنه لولا أن له في ذلك منفعة وأجرًا و عوضاً لم يتصدق عليه، فصار كالذي يخدم الممالك بأجرة يأخذها من سيدهم ليس بمحسن إليهم.

وأيضاً فإن المصدق الله هو المنعم عليه بما يسره الله للإحسان إلى نفسه وعليه أن يشكر الله تعالى ويرى أن الله هو المحسن إليه، فإن نظر إلى الفعل فالله خالقه وإن نظر إلى غايته فهو يطلب جزاءه و عوضه من الله، وإن نظر إلى المحسن إليه فهو المحسن إلى نفسه، والله أحسن إليه أن جعله محسناً إلى نفسه لا ظالماً لها.

فلهذا كان منه على المخلوق ظلاً أبطل به صدقته والله هو المنعم على عباده حقيقة بالنعمة، والشكر عليها؛ إذ أعانهم على شكره وجعلهم شاكرين بنعمته، وبثواب الشكر، فكل ذلك تفضل منه وإحسان من غير أن يكون له على ذلك عوض يأخذه من غيره، لا من المحسن إليه ولا من غيره فهم المنعم حقيقة، وإن كان له في الإنعام حكمة يحبها ويرضاها، فتلك الحكمة منه، فما لأحد عليه منة وهو الجواد المحض وهو سبحانه ليس كمثله شيء.

وللناس كلام في الجود والإحسان ومن يفعل لحكمة ومقصود هل هو جواد أم ليس بجواد؟ أم يفرق بين من يطلب عوضاً من غيره فيحتاج إلى غيره فيكون جوده من

باب المعاوضة، وبين من لا يحتاج إلى غيره بل هو الجواد بالنعم وبالحكم كما قد بٌسط في غير هذا الموضع.

ولأنه لما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿١﴾ ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿التين﴾ وبين أن غير المؤمنين تزول عنه النعمة، فلو كان المؤمن كذلك لم يكن بينهما فرق (١) هـ.

﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَنْكَرُونَ﴾ ﴿١﴾ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾.

(وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي^(٢) في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ قال ابن عباس: خلق الأرض في يوم الأحد والاثنين، وبه قال عبد الله بن سلام والضحاك ومجاهد وابن جريج والسدي والأكثر، وقال مقاتل في يوم الثلاثاء والأربعاء.

قال: وقد أخرج مسلم^(٣) حديث أبي هريرة «خلق الله التربة يوم السبت» قال: وهذا الحديث مخالف لما تقدم، وهو أصح فصحح هذا لظنه صحة الحديث، إذ رواه مسلم، ولكن هذا له نظائر روى مسلم أحاديث قد عرف أنها غلط، مثل قول أبي سفيان لما أسلم: أريد أن أزوجك أم حبيبة، ولا خلاف بين الناس أنه تزوجها قبل إسلام أبي سفيان ولكن هذا قليل جداً، ومثل ما روى في بعض طرق حديث صلاة الكسوف أنه صلاها بثلاث ركوعات وأربع والصواب أنه لم يصلها إلا مرة واحدة بركوعين، ولهذا لم يخرج البخاري إلا هذا وكذلك الشافعي، وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه، وغيرهما، والبخاري سلم من مثل هذا فإنه إذا وقع في بعض الروايات غلط ذكر الروايات المحفوظة التي تبين غلط الغالط، فإنه كان أعرف بالحديث وعلله، وأفقه في معانيه من مسلم ونحوه، وذكر ابن الجوزي في موضع آخر أن هذا قول ابن إسحاق قال: وقال ابن الأنباري: وهذا إجماع أهل العلم.

وذكر قولاً ثالثاً في ابتداء الخلق: أنه يوم الاثنين. وقاله ابن إسحاق، وهذا تناقض. وذكر أن هذا قول أهل الإنجيل. والابتداء بيوم الأحد قول أهل التوراة، وهذا النقل غلط على أهل الإنجيل، كما غلط من جعل الأول إجماع أهل العلم من المسلمين وكان هؤلاء ظنوا أن كل أمة تجعل اجتماعها في اليوم السابع من الأيام

(١) الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٨٤ - ٨٧).

(٢) زاد المسير (٧/٢٤٣).

(٣) مسلم (٤/٢١٤٩).

السبعة التي خلق الله فيها العالم، وهذا غلط؛ فإن المسلمين إنما اجتماعهم في آخر يوم خلق الله فيه العالم وهو يوم الجمعة، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة) ١. هـ^(١).

﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴿٢﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٣﴾ .

(وكذلك أخبر عن خلق السموات والأرض فقال: ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴿٢﴾ قالوا: الجميع في أربعة أيام ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾: الدنيا: ﴿وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٣﴾ فَفَضَّنَهُنَّ سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا رَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٤﴾ فأخبر أنه استوى إلى السماء وهي دخان قيل: هو البخار الذي تصاعد من الماء الذي كان عليه العرش فإن البخار نوع من الدخان) ١. هـ^(٢).

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٣﴾﴾ (وخلق الله من بخار ذلك الماء هذه السماوات، وهو الدخان المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٣﴾ فَفَضَّنَهُنَّ سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ قال المفسرون: بخار الماء كما جاءت الآثار: «إن الله خلق السماوات من بخار الماء» وهو الدخان فإن الدخان الهواء المختلط بشيء حار، ثم قد لا يكون فيه ماء وهو الدخان الصرف، وقد يكون فيه ماء، فهو دخان، وهو بخار كبخار القدر. وقد يسمى الدخان بخاراً، فيقال لمن استجمر بالطيب تبخر، وإن كان لا رطوبة هنا، بل دخان الطيب سمي بخاراً قال الجوهري: بخار الماء ما يرتفع منه كالدخان والبخور بالفتح ما يتبخر به لكن إنما يصير الهواء ناراً بعد أن تذهب المادة التي انقلبت ناراً، كالحطب والدهن، فلم تتولد النار إلا من مادة، كما لم يتولد الحيوان إلا من مادة) ١. هـ^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٢٣٦ - ٢٣٧).

(٢) الصفدية (٢/٧٥ - ٧٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٥٩٩).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/٢٦٥ - ٢٦٦).

وقال رحمه الله: (في القرآن أنه: ﴿أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي بخار) ١. هـ^(١).
 وقال رحمه الله: (وقد أخبر سبحانه أنه ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
 وَالْأَرْضِ أَنْتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فخلقت من الدخان وقد جاءت الآثار
 عن السلف أنها خلقت من بخار الماء؛ وهو الماء الذي كان العرش عليه، المذكور في
 قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]
 فقد أخبر أنه خلق السموات والأرض في مدة ومن مادة، ولم يذكر القرآن خلق شيء
 من لا شيء بل ذكر أنه خلق المخلوق بعد أن لم يكن شيئاً، كما قال: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ
 مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، مع إخباره أنه خلقه من نطفة) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأخبروا أنه: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ أَنْتِنَا
 طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ والدخان فيما ذكره المفسرون هو البخار، وهو
 بخار ذلك الماء، فقد أخبروا أنها مخلوقة من مادة كانت موجودة قبلها، وتلك المادة
 يمكن أن تكون مخلوقة من مادة كانت قبلها، كما خلق الله الإنسان من مادة، وخلق
 المادة من مادة) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وأهل الملل متفقون على أن الله خلق السماوات والأرض في
 ستة أيام، وخلق ذلك من مادة كانت موجودة قبل هذه السماوات والأرض، وهو
 الدخان الذي هو البخار، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ
 أَنْتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وهذا الدخان هو بخار الماء الذي كان حينئذ
 موجوداً، كما جاءت بذلك الآثار عن الصحابة والتابعين وكما عليه أهل الكتاب، كما
 ذكر هذا كله في موضع آخر) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (أن المراد بذلك عمدته وقصده، وهكذا تأول هؤلاء قوله تعالى:
 ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ قالوا قصد وعمد.

وهذا تأويل طائفة من أهل العربية منهم أبو محمد عبد الله بن قتيبة، ذكر في كتاب
 «مختلف الحديث»^(٥) له: الذي رد فيه على أهل الكلام الذين يطعنون في
 الحديث) ١. هـ^(٦).

- (١) درء تعارض العقل (١/١٢٣). (٢) مجموع الفتاوى (١٨/٢٣٥ - ٢٣٦).
 (٣) الصنفية (٢/١٢٥). (٤) مجموع الفتاوى (٥/٥٦٤).
 (٥) طبع هذا الكتاب عدّة مرات، وأخذت فيه رسالة ماجستير في الجامعة الأردنية.
 (٦) مجموع الفتاوى (٥/٤٠٣).

وقال رحمه الله: (وقد روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رجل لابن عباس إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ قال: ﴿فَلَا أُسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقد كتّموا في هذه الآية وقال: ﴿أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، إلى قوله: ﴿دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ثم قال: ﴿أَيُنكِّمُ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَصَّعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [١] وَجَعَلَ فِيهَا رِيسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِئِلِينَ ﴿٢﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٣﴾ فذكر في هذه الآية خلق الأرض قبل السماء وقال وكان الله غفوراً رحيماً عزيزاً حكيماً سمياً بصيراً فكانه كان ثم مضى، فقال: لا أنساب في النفخة الأولى ونفخ في الصور فصعق من السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله فلا أنساب عند ذلك ولا يتساءلون ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم عليّ بعض يتساءلون وأما قوله ما كنا مشركين ولا يكتُمون الله حديثاً فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم قال المشركون: تعالوا نقل لم نكن مشركين فحتم على أفواههم فتنطق أيديهم فعند ذلك عرفوا أن الله لا يكتّم حديثاً وعنده ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الأرض ودحاها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلقت السماوات في يومين وكان الله غفوراً رحيماً سمي نفسه ذلك، وذلك قوله: أني لم أزل كذلك فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب فيه الذي أراد فلا يختلف عليك القرآن فإن كلا من عند الله هكذا رواه البخاري مختصراً ورواه البرقاني في صحيحه من الطريق الذي أخرجها البخاري بعينها من طريق شيخ البخاري بعينه بالفاظه التامة أن ابن عباس جاءه رجل فقال: يا ابن عباس إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ فقد وقع ذلك في صدري فقال: ابن عباس أتكذب فقال الرجل: ما هو بتكذيب ولكن اختلاف قال: فهلّم ما وقع في نفسك فقال له الرجل: أسمع الله يقول: ﴿فَلَا أُسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقد كتّموا في هذه الآية وفي قوله: ﴿أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ ﴿٧﴾ رَفَعَ سَعْتَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٨﴾ وَأَغْطَسَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا

﴿٢٠﴾ [النازعات] فذكر في هذه الآية (خلق السماء قبل الأرض) وقال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِلسَّائِلِينَ ﴿٢﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ أَيْنِيَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٣﴾ وقوله: وكان الله غفوراً رحيماً وكان الله عزيزاً حكيماً وكان الله سميعاً بصيراً وكأنه كان ثم انقضى فقال ابن عباس: هات ما في نفسك من هذا فقال السائل: إذا أنبأتني بهذا فحسبي، قال ابن عباس: قوله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فهذا في النفخة الأولى ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ثم إذا كان في النفخة الأخرى قاموا فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما قول الله ﷻ: ربنا ما كنا مشركين وقوله ولا يكتُمون الله حديثاً فإن الله تعالى يوم القيامة يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم لا يتعاطم عليه ذنب أن يغفره ولا يغفر شركاً فلما رأى المشركون قالوا: إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك تعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين فقال الله تعالى: أما إذا كتموا الشرك فأختم على أفواههم فيختم على أفواههم فتنتطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون فعند ذلك عرف المشركون أن الله لا يكتُم حديثاً فذلك قوله يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثاً وأما قوله ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ﴿٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٩﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿١٠﴾ [النازعات] فإنه خلق الأرض في يومين قبل خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين يعني ثم دحى الأرض ودحيتها أن أخرج منها الماء والمرعى وشق فيها الأنهار وجعل فيها السبل وخلق الجبال والرمال والآكام وما فيها في يومين آخرين فذلك قوله والأرض بعد ذلك دحاها وقوله: ﴿قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِلسَّائِلِينَ ﴿٢﴾ وجعلت السماوات في يومين آخرين وأما قوله وكان الله سميعاً بصيراً غفوراً رحيماً وكان الله عزيزاً حكيماً فإن الله جعل نفسه ذلك وسمى نفسه ذلك ولم ينحله أحد غيره وكان الله أي لم يزل كذلك ثم قال ابن عباس: احفظ عني ما حدثتك، واعلم أن ما اختلف عليك من القرآن أشباه ما حدثتك فإن الله لم ينزل شيئاً إلا أصاب به الذي أراد ولكن الناس لا يعلمون فلا يختلف عليك القرآن؛ فإن كلا من عند الله. وهكذا

رواه يعقوب ابن سفيان في تاريخه عن شيخ البخاري كما رواه البرقاني، وإنما يختلفان في يسير من الأحرف وما ذكره أئمة السنة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأخبر أنه سبحانه: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهُا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

فأخبر أنه سواهن سبع سماوات في يومين، وأن السماء كانت دخاناً وهو بخار الماء كما جاء تفسيره في عدة آثار: أنه خلق السماء من بخار الماء، والبخار دخان الماء، كما أن دخان الأرض دخان.

وإن أريد بالدخان دخان التراب فقط، أو دخان التراب والماء، فكل ذلك فيه إخبار الله أنه خلق الله السماوات السبع من مادة أخرى، كما أخبر أنه خلق الإنسان من مادة، وأنه خلق الجان من مادة.

وثبت في الصحيح: صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». وثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»، وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض»، وفي رواية صحيحة: «ثم خلق السماوات والأرض» فأخبر أنه كان بين تقديره وبين خلقه للسماوات والأرض خمسين ألف سنة، وهذه أزمئة مقدرة بحركات موجودة قبل وجود الأفلاك والشمس والقمر، وأخبر أنه كان عرش الرب إذ ذاك على الماء.

وقد جاءت الآثار المشهورة بأن الماء كان على وجه الأرض، وأنه خلق السماء من دخان ذلك الماء.

وكذلك في أول التوراة مثل هذا سواء أنه في أول الأمر خلق الله السماوات والأرض، وأنه كانت الأرض مغمورة بالماء، وكانت الريح تهب على الماء، وذكر

تفصيل خلق هذا العالم) ا. هـ^(١).

﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١١﴾﴾.

(و«القضاء» في لغة العرب: هو إكمال الشيء وإتمامه، كما قال تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أي أكملهن وأتمهن. فمن فعل العبادة كاملة فقد قضاها، وإن فعلها في وقتها) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وذكر البخاري أيضاً الحديث الذي في الصحيحين عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»^(٣)).

فقوله: «لما قضى الله الخلق» أي أكمله وأتمه كما قال: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ا. هـ^(٤).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾.

(والإقرار بالملائكة والجن عام في بني آدم لم ينكر ذلك إلا شواذ من بعض الأمم. ولهذا قالت الأمم المكذبة: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ حتى قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون، قال قوم نوح: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ ا. هـ^(٥).

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

(والهدى يكون بمعنى البيان والدعوة، وهذا يشترك فيه المؤمن والكافر كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ ا. هـ^(٦)).

وقال رحمه الله: (وهذا هو الهدى المذكور في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ

(١) درء تعارض العقل (٨/ ٢٨٧ - ٢٨٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٧).

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) بغية المرتاد (٣٠١).

(٥) المنهاج السنة (٥/ ٣٠٨).

(٦) النبوات (٢١).

فَأَسْتَحِبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴿١﴾ فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك وهو كالإنذار العام والتذكير العام، وهنا قد هدى المتقين وغيرهم، كما قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ١٧] هـ. (١)

﴿وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢﴾﴾

(وقد أخبر عن الجلود والجوارح إخبار مصدق لها أنها قالت: ﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فعلم أنه ينطق جميع الناطقين) هـ. (٢)

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾

(وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «اجتمع عند البيت ثقيفان وقرشي أو قرشيان وثقفي فتحدثوا بينهم بحديث فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع أن أعلن ولا يسمع إن أسرنا، فقال الثالث: إن سمع منه شيئاً فإنه يسمع كله، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤﴾﴾» هـ. (٣)

وقال رحمه الله: (في الصحيحين عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي أو ثقيفان وقرشي كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الثاني: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا فقال الثالث: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا) فأنزل الله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤﴾﴾ هـ. (٤)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْإِنْسِ وَجَعَلَهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٥﴾﴾

(١) مجموع الفتاوى (١٦ - ١٥٦).

(٢) منهاج السنة (١/٤٦٢).

(٣) بيان تلييس الجهمية (١/٣١١) والحديث في البخاري (٤٨١٦)، ومسلم (٢٧٧٥).

(٤) الرد علي المنطقيين (٥٢٤)، وقد كررت المقطع لاختلاف في بعض ألفاظ الحديث.

(وقد يعترض على ما كتبناه أولاً بأنه جاء أيضاً في غير الرفع بالياء كسائر الأسماء قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنْ أَلْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ ولم يقل (اللدان أضلانا) كما قيل في الذين إنه بالياء في الأحوال الثلاثة، وقال تعالى في قصة موسى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكَلِكُمْ لِحَدِيثِ ابْنَتِي هَتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧] ولم يقل هاتان وهاتان تبع لابنتي، وقد يسمى عطف بيان وهو يشبه الصفة كقوله: ﴿وَأِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ [الأعراف: ٧٣] لكن الصفة تكون مشتقة أو في معنى المشتق، وعطف البيان يكون بغير ذلك كأسماء الأعلام وأسماء الإشارة وهذه الآية نظير قوله: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَسَاحِرِينَ﴾ [طه: ٦٣].

وأما قوله: ﴿أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا﴾ فقد يفرق بين اسم الإشارة والموصول بأن اسم الإشارة على حرفين؛ بخلاف الموصول فإن الاسم هو «اللدان» عدة حروف، وبعده يزداد علم الجمع، فتكسر الذال وتفتح النون وعلم التشنية، ففتح الذال وتكسر النون والألف فقلت^(١) في النصب والجر؛ لأن الاسم الصحيح إذا جمع جمع التصحيح كسر آخره في النصب وفي الجر وفتحت نونه وإذا ثنى فتح آخره وكسرت نونه في الأحوال الثلاثة.

وهذا بين أن الأصل في التشنية هي الألف، وعلى هذا فيكون في إعرابه لغتان جاء بهما القرآن: تارة يجعل كاللذان، وتارة يجعل كاللذين ولكن في قوله: ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَتَيْنِ﴾ كان هذا أحسن من قوله: «هاتان» لما فيه من اتباع لفظ المثنى بالياء فيهما ولو قيل هاتان لأشبه^(٢) كما لو قيل: «إن ابنتي هاتان» فإذا جعل بالياء علم تابع مبين عطف بيان لتمام معنى الاسم؛ لا خبر تتم به الجملة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

قال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: فلم يلتفتوا عنه يمناً ولا يسرة^(٣) فلم يلتفتوا بقلوبهم إلى ما سواه لا بالحب ولا بالخوف ولا بالرجاء ولا بالسؤال ولا بالتوكل عليه بل لا يحبون إلا الله ولا

(١) يياض في الأصل. (٢) يياض في الأصل.

(٣) المرؤي عن أبي بكر معناه: أن لا تشرکوا بالله شيئاً، وعن عمر: استقاموا والله بطاعة الله ثم لم يروغوا وروغان الثعلب، هذا في الزهد لأحمد.

يحبون معه أنداداً ولا يحبون إلا إياه لا لطلب منفعة ولا لدفع مضرة ولا يخافون غيره كائناً من كان ولا يسألون غيره ولا يتشرفون بقلوبهم إلى غيره) ا.هـ (١).

﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٢٥).

(وقال تعالى: في الغضب: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ا.هـ (٢).

﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٦).

(وقال تعالى: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٦)، وفي الصحيحين (٣) عن سليمان بن صرد قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب هذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فأمر الله تعالى العبد أن يستعيذ من الشيطان عند القراءة وعند الغضب، ليصرف عنه شره عند وجود سبب الخير وهو القراءة، ليصرف عنه ما يمنع الخير، وعند وجود سبب الشر، ليمنع ذلك السبب الذي يحدثه عند ذلك) ا.هـ (٤).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْيَلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٣٧).

(وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْيَلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ نهى عن السجود لغير الله مطلقاً وأمر بالسجود له، فشرع المقابل للمنهى عنه) ا.هـ (٥).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٨).

(وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فأخبر أنها بعد الخشوع تهتز والاهتزاز حركة، وتربو، والربو: الارتفاع. فعلم أن الخشوع فيه سكون وانخفاض) ا.هـ (٦).

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٣٢ - ٣٣). (٢) الاستقامة (٢/٢٧٣).

(٣) البخاري (٤/١٢٤)، ومسلم (٤/٢٠١٥).

(٤) درء تعارض العقل (٣/٣١٢).

(٥) المستدرک على مجموع الفتاوى (تحت الطبع).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٢/٥٥٥).

وقال رحمه الله: (إن الله قادر على كل ما يمكن أن يكون مقدوراً لأي قادر كان، فما من أمر ممكن في نفسه إلا والله قادر عليه لا يتصور عندهم أن يقدر العباد على ما لم يقدر الله عليه، وهذا معنى قوله تعالى؛ ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) هـ.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَغْشَىٰ وَعْرَفَىٰ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤١﴾﴾.

قال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢) [يوسف]، وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَغْشَىٰ وَعْرَفَىٰ ۚ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، فهذا يتضمن إنعام الله على عباده، لأن اللسان العربي أكمل الألسنة وأحسنها بياناً للمعاني فنزول الكتاب به أعظم نعمة على الخلق من نزوله بغيره، وهو إنما خوطب به أولاً العرب ليفهموه، ثم من يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه، ثم من لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم، وكان إقامة الحجة به على العرب أولاً والإنعام به عليهم أولاً لمعرفة معانيه قبل أن يعرفه غيرهم) (٣) هـ.

وقال رحمه الله: (بل هو كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ولم يرد أنهم كانوا مؤمنين، فلما سمعوه صار هدى وشفاء، بل إذا سمعه الكافر فأمن به صار في حقه هدى وشفاء، وكان من المؤمنين به بعد سماعه) (٤) هـ.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ ﴿٤١﴾﴾.

قال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ﴾ (٤) يدل الكلام على أنه لا يظلم محسناً من إحسانه أو يجعله لغيره، ولا يظلم مسيئاً فيجعل عليه سيئات غيره بل لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (٥) هـ.

وقال رحمه الله: (وكذا قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ﴾ يدل الكلام على أنه لا يظلم محسناً، فينقصه من حسناته، أو يجعلها لغيره، ولا يظلم مسيئاً فيحمل عليه

(١) منهاج السنة (٢/٢٨٩).

(٢) الجواب الصحيح (٢/٦٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/١٧٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٨/١٤٢).

إساءة غيره بل ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٨] وهذا كقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ
بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا نَزَّرْنَا بِرِزْقٍ لَّهُمْ وَزَرَ نُوحًا ﴿٣٨﴾﴾ [النجم]
فليس على أحد وزر غيره ولا يستحق أحد إلا ما سעה وكلا القولين حق على
ظاهره) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ استلزم ثبوت العدل) ا.هـ^(٢).

﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ
أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾.

قال رحمه الله: (كما أن دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكثر من كل دليل على كل
مدلول، ولكل قوم، بل ولكل إنسان، من الدلائل المعينة التي يريه الله إياها في نفسه
وفي الآفاق ما لا يعرف أعيانها قوم آخرون قال تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي
أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، والضمير في ذلك عائد إلى القرآن عند المفسرين
والسلف وعامة العلماء كما يدل على ذلك القرآن بقوله: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي
أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾).

وقد قيل: إن الضمير عائد إلى الله والصواب: الأول كما قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وهذا هو القرآن ثم قال بعد ذلك: ﴿سَرَّيْهِمْ
ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، فأخبر أنه سيري الناس في أنفسهم وفي الآفاق من الآيات العيانية
المشهودة المعقولة، ما يبين أن الآيات القرآنية المسموعة المتلوة حق، فيتطابق العقل
والسمع، ويتفق العيان والقرآن، وتصدق المعانية للخبر.

وإذا كان القرآن حقاً لزم كون الرسول الذي جاء به صادقاً، وأن الله تعالى أنزله
وأنه يجب التصديق بما أخبر به والطاعة لما أوجبه وأمر به وذلك يتضمن إثبات
الصانع، وتوحيده، وأسماءه، وصفاته، وإثبات النبوات، وإثبات المعاد، وهذه هي
أصول العلم والإيمان التي علق بها السعادة والنجاة) ا.هـ^(٣).

(١) مختصر الفتاوى المصرية (١١٩).

(٢) الفتاوى (٧٦/٥).

(٣) الجواب الصحيح (١/٣٧٨ - ٣٧٩).

وقال رحمه الله: (وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ما يبين به أن القرآن حق كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٨﴾، أخبر سبحانه أنه سيرى عباده الآيات في أنفسهم وفي الآفاق حتى يتبين لهم أن القرآن حق فإن الضمير عائد إليه إذ هو الذي تقدم ذكره كما قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾، والضمير في (كان) عائد إلى معلوم.

يقول رأيتم إن كان القرآن من عند الله، ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد. فإنه على هذا التقدير، يكون الكافر في شقاق بعيد قد شاق الله ورسوله ولا أحد أضل ممن هو في مثل هذا الشقاق، حيث كان في شق والله ورسوله في شق كما قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ كَفَرُوا فَلَقْنَا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَسَبَيْنَاهُمْ اللَّهُ وَهُوَ الشَّعِيمُ الْكَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ [البقرة]، بين أن من تولى عن ذلك، لم يكن متبعاً للحق قاصداً له، فإن هذا الذي قلموه، لا يتولى عنه من أهل الكتاب من قصده الحق، وإنما يتولى عنه من قصده المشاقفة والمعاداة لهوى نفسه، وهذا يكفيك الله أمره.

والقرآن إن كان من عند الله ثم كفر به من كفر، فلا أحد أضل ممن هو في مثل حاله، إذ هو في شقاق بعيد، وإن قُدِّر أنه لم يعلم أنه حق فهو ضال. والشقاق قد يكون مع العناد، وقد يكون مع الجهل، فإن الآيات إذا ظهرت فأعرض عن النظر الموجب للعلم كان مشاقفاً ولهذا قال عقب ذلك: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، فأخبر أنه سيرى عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين أنه حق ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

فإن شهادته وحده كافيه بدون ما ينتظر من الآيات، كما قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] وشهادته للقرآن ولمحمد تكون بأقواله التي أنزلها قبل ذلك على أنبيائه كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَرَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّكَ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] وتكون بأفعاله وهو ما يحدثه من

الآيات والبراهين، الدالة صدق على رسله، فإنه صدقهم بها فيما أخبروا به عنه وشهد لهم بأنهم صادقون.

والقرآن - نفسه - هو قول الله، وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول، وإنزاله على محمد ﷺ وإتيان محمد به هو آية وبرهان وذلك من فعل الله، إذ كان البشر لا يقدر على مثله لا يقدر عليه أحد من الأنبياء، ولا الأولياء ولا السحرة ولا غيرهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء]، ومحمد ﷺ أخبر بهذا في أول أمره إذ كانت هذه الآية في سورة سبحان وهي مكية.

صدّرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس وقد أخبر خبراً وأكده بالقسم، عن جميع الثقيلين، إنسهم وجنهم، أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، بل يعجزون عن ذلك، وهذا فيه آيات لنبوته:

منها إقدامه على هذا الخبر العظيم، عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة بأنهم لا يفعلون هذا بل يعجزون عنه: هذا لا يقدم عليه من يطلب الناس أن يصدقوه، إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك، إذ لم كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر فيفسد عليه ما قصده، وهذا لا يقدم عليه عاقل، مع اتفاق الأمم: المؤمن بمحمد والكافر به، على كمال عقله ومعرفته وخبرته، إذ ساس العالم سياسة لم يسسهم أحد بمثلها.

ثم جعله هذا في القرآن، المتلو المحفوظ إلى يوم القيامة الذي يُقرأ به في الصلوات، ويسمعه العام والخاص، والولي والعدو دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر، وإلا لو كان شاكاً في ذلك، لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير، بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه، وهذا لا يفعله من يقصد أن يصدق الناس، فمن يقصد أن يصدق الناس، لا يقول مثل هذا، ويظهره هذا الإظهار، ويشيعه هذه الإشاعة، ويخلده هذا التخليد، إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه.

ولا يتصور أن بشراً يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة، هو من أعظم دلائل كونه معجزاً، وكونه آية على نبوته، فهذا من دلائل نبوته في أول الأمر، عند من سمع هذا الكلام، وعلم أنه من القرآن الذي أمر ببلاغه إلى جميع الخلق وهو وحده كاف في العلم بأن القرآن معجز.

دع ما سوى ذلك من الدلائل الكثيرة، على أنه معجز، مثل عجز جميع الأمم عن معارضته، مع كمال الرغبة والحرص على معارضته: وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة فلما كان دواعي العرب وغيرهم على المعارضة تامة عُلِمَ عجز جميع الأمم عند معارضته، وهذا برهان ثان يعلم به صدق هذا الخبر، وصدق هذا الخبر آية لنبوته غير العلم بأن القرآن معجز فإن ذلك آية مستقلة لنبوته، وهي آية ظاهرة باقية إلى آخر الدهر معلومة لكل أحد وهي من أعظم الآيات.

فإن كونه معجزاً يعلم بأدلة متعددة، والإعجاز فيه وجوه متعددة، فتنوعت دلائل إعجازه، وتنوعت وجوه إعجازه، وكل وجه من الوجوه، هو دال على إعجازه وهذه جمل لبسطها تفصيل طويل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْأَيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت] فهو كاف في الدعوة والبيان وهو كاف في الحجة والبرهان) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿سَتَرِيهَمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي إن القرآن حق ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فإن الله شهيد في القرآن بما أخبر به فأمن به المؤمن ثم أراهم في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدل على مثل ما أخبر به في القرآن، فبينت لهم هذه الآيات أن القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿سَتَرِيهَمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٦﴾﴾ أي أو لم يكف بشهادته المخبرة بما علمه وهو الوحي الذي أخبر به الرسول؛ فإن الله على كل شيء شهيد وعليم به فإذا أخبر به وشهد كان ذلك كافياً وإن لم ير المشهود به، وشهادته قد علمت بالآيات التي دل بها على صدق الرسول فالعالم بهذه الطريق لا يحتاج أن ينظر الآيات المشاهدة، التي تدل على أن القرآن حق، بل قد يعلم ذلك بما علم به أن الرسول صادق فيما أخبر به عن شهادة الله تعالى وكلامه) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿سَتَرِيهَمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ

(١) الجواب الصحيح (٥/٤٠٥ - ٤١١). (٢) مجموع الفتاوى (٧/٢٣٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/١٨٩ - ١٩٠).

لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿١﴾ أي أن القرآن حق فأخبر أنه سيرى عباده الآيات المشهودة المخلوقة حتى يتبين أن الآيات المتلوة المسموعة حق) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي أن القرآن حق، فهذه الآيات متأخرة عن نزول القرآن، وهو مثل ما فعل من نصر رسوله والمؤمنين يوم بدر، وغير يوم بدر فإنه آيات مشاهدة صدقت ما أخبر به القرآن ولكن المؤمنون كانوا قد آمنوا قبل هذا.

وقيل: نزول أكثر القرآن الذي ثبت الله به لنبيه وللمؤمنين ولهذا قال: ﴿أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فهو يشهد لرسوله بأنه صادق بالآيات الدالة على نبوته وتلك آمن بها المؤمنون ثم أنزل من القرآن شاهداً له ثم أظهر آيات معينة تبين لهم أن القرآن حق) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ثم قال: ﴿أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فالآيات التي يريها الناس حتى يعلموا أن القرآن حق هي آيات عقلية يستدل بها العقل على أن القرآن حق وهي شرعية دل الشرع عليها وأمر بها والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقلية التي يستدل بها العقل وهي شرعية لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فأخبر: أنه سيريهم الآيات المرئية المشهودة حتى يتبين لهم أن القرآن حق ثم قال: ﴿أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي بإخبار الله ربك في القرآن وشهادته بذلك) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فأخبر أنه سيريهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة لأن القرآن الذي أخبر به عباده حق فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانة ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول) ا.هـ (٥).

(١) مجموع الفتاوى (٢٤١/١٨). (٢) مجموع الفتاوى (٧٣/١٥).

(٣) النبوات (٤٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٩/٤) (١٨٢/١٣)، دره تعارض العقل (٤٠/٧).

(٥) منهاج السنة (٣٠٠/١ - ٣٠١).

وقال رحمه الله: (وإذا علم العبد من حيث الجملة أن الله فيما خلقه وما أمر به حكمة عظيمة كفاه ذلك، ثم كلما ازداد علماً وإيماناً ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله ويتبين له تصديق ما أخبر الله به في كتابه حيث قال: ﴿سَرُّيَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿سَرُّيَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي القرآن حق وقد تقدم ذكر القرآن في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت] فالله تعالى يري عباده من آياته المشاهدة المعاينة الفعلية ما يبين صدق آياته المنزلة المسموعة القولية) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (ومن تدبر الكتاب والسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ واعتبر ذلك بما يجده في نفسه وفي الآفاق علم تحقيق قول الله تعالى: ﴿سَرُّيَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، فإن الله تعالى يري عباده آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن القرآن حق فخبره صدق وأمره عدل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام] ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (ولا بد لهم من نسبة إلى الإسلام يظهر بها خلاف ما في قلوبهم فما جاء به الكتاب والسنة يشهد له ما يرينا الله من الآيات في الآفاق وفي أنفسنا قال تعالى: ﴿سَرُّيَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (ولهذا دعا الله الخلق إلى الاعتبار بالعقل المستند إلى الحس وبين أن ذلك موافق لما جاءت به الرسل من السمع قال: ﴿سَرُّيَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥١﴾﴾ فأخبر أنه سيرى الخلق من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين أن القرآن الحق فيتطابق السمع المنقول وما عرف بالحس المعقول) ا. هـ (٥).

وقال رحمه الله: (قال الله فيها: ﴿سَرُّيَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وهي من الميزان الذي أنزله الله تعالى) ا. هـ (٦).

- | | |
|-----------------------------------|----------------------------|
| (١) طريق الوصول (١٦٩ - ١٧٠، ٢٣٠). | (٢) الجواب الصحيح (٢٠٧/٣). |
| (٣) منهاج السنة (٥٤٢/٤ - ٥٤٣). | (٤) منهاج السنة (٤١٧/٦). |
| (٥) الصفدية (٢٢٧/١). | (٦) مجموع الفتاوى (٢٩٢/٦). |

وقال رحمه الله: (هو وطائفة معه يظنون أن الضمير في قوله: ﴿حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ عائد إلى الله [تعالى] ويقولون هذه جمعت طريق من استدل بالخلق على الخالق ومن استدل بالخالق على المخلوق.

والصواب الذي عليه المفسرون وعليه تدل الآية أن الضمير عائد إلى القرآن وأن الله يُري عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن القرآن حق وذلك يتضمن ثبوت الرسالة وأن يسلم ما أخبر به الرسول كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نُمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ آضُلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَأْتِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (١) هـ.

وقال رحمه الله: (ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي أو لم يكف بشهادته وعلمه التي أخبرهم عنها في كتبه) (٢) هـ.

(١) درء تعارض العقل (٣/١٤٣).

(٢) بيان تلبس الجهمية (٢/٥٣٩).

سورة الشورى

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

قال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وهو رد على الممثلة، وهو رد على المعطلة) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ نفي التشبيه من جميع الجهات وكل المعاني) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله) ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (هو «المثل» في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فإنه سبحانه لا يماثله شيء أصلاً فنفسه المقدسة لا يماثلها شيء من الموجودات، وصفاتها لا يماثلها شيء من الصفات، وما في القلوب من معرفته لا يماثله شيء من المعارف ومحبه لا يماثلها شيء، فله المثل الأعلى كما أنه في نفسه الأعلى) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على أهل التشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: رد على أهل النفي والتعطيل، فالممثل أعشى والمعطل أعمى: الممثل يعبد صنماً والمعطل يعبد عدماً) ا. هـ (٥).

وقال رحمه الله: (لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] أي لا شبيه ولا نظير ولا مساوي ولا مثل، أو لم تعلم أنه لما

(١) الجواب الصحيح (٤/٤٠٦) (١/٧١ - ٧٢) منهاج السنة (٢/١١١) (٢/٥٢٣) درء تعارض العقل (٦/٣٤٨) مجموع الفتاوى (٨/٤٣٢) الصفدية.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٣٨٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٣٩٨) (٢٨/٣٣) (٥/١٩٥) بيان تلبس الجهمية (١/٢٨٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/٢٥٠). (٥) مجموع الفتاوى (٥/١٩٦).

تجلى للجبل تدكدك لعظم هيئته؟ وشامخ سلطانه؟ فكما لا يتجلى لشيء إلا اندك: كذلك لا يتوهمه أحد إلا هلك. فرد بما بين الله في كتابه من نفسه عن نفسه التشبيه والمثل والنظير والكفو) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فهذا رد على الممثلة، ﴿وَهُوَ أَلْسَمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على المعطلة، فالممثل يعبد صنماً والمعطل يعبد عدماً) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، فبين بذلك أن الله لا مثل له ولا سمي ولا كفو فلا يجوز أن يكون شيء من صفاته مماثلاً لشيء من صفات المخلوقات، ولا أن يكون المخلوق مكافئاً ولا مساوياً له في شيء من صفاته ﷻ) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ معناه ليس مثله شيء، والكاف زائدة) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (ففي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: رد للتشبيه والتمثيل وقوله: ﴿وَهُوَ أَلْسَمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، رد للاحاد والتعطيل) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ أَلْسَمِيعُ الْبَصِيرُ جمعت هذه الآية بين الإثبات والتنزيه، ونسبة صفاته إليه كنسبة خلقه إليه والنسبة والإضافة تشابه النسبة والإضافة) ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (والتحقيق: أنه قد يحصل تمثيل وتخيل لبعض العالمين والمحبين، حتى يتخيل صورة المحبوب، وقد لا يحصل تخيل حسي، وليس هذا المثل من جنس الحقيقة أصلاً، وإنما لما كان العلم مطابقاً للمعلوم وموافقاً له غير مخالف له، كان بين المطابق والمطابق والموافق نوع تناسب وتشابه ونوع ما من أنواع التمثيل، فإن المثل يضرب للشيء لمشاركته إياه من بعض الوجوه، وهنا قطعاً اشتراك ما واشتباها ما، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] أنه هذا) ا.هـ^(٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٥١٥).

(٤) بيان تلبس الجهمية (١/٤٧٢).

(٦) مجموع الفتاوى (٤/٣٦٥).

(١) مجموع الفتاوى (٥/٦٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٥١٦).

(٥) مجموع الفتاوى (٣/٤).

(٧) مجموع الفتاوى (٢/٣٨٣ - ٣٨٤).

وقال رحمه الله: (و«سئل الجنيد» - ولم يسنده - عن التوحيد فقال: إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته: أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد، بنفي الأضداد والأنداد والأشباه، فلا تشبيه ولا تكيف، ولا تصوير ولا تمثيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾) ١. هـ^(١).

﴿لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧) ﴿١﴾.
قال رحمه الله: (وقوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق) ١. هـ^(٢).

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٧) ﴿١﴾.

(وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد»^(٣)) فدين الرسل كلهم دين واحد، وهو دين الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له بما أمر به وشرعه كما قال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ وإنما يتنوع في هذا الدين الشرعة والمنهاج كما قال: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] كما تتنوع شريعة الرسول الواحد) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ فأمر الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم وذكرهم الله في آيتين من كتابه: هذه السورة وفي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ مِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، فدين

(٢) شرح العمدة - الصيام (١/٩٣).

(١) الاستقامة (١/١٤٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/٤٩ - ١٥٠).

(٣) مرّ تخريجه.

(٥) الرد على المنطقيين (٢٩١).

المرسلين كلهم دين واحد، ويتنوع شرعهم ومناهجهم كتنوع شريعة الرسول الواحد فإن دين المسيح هو دين موسى وهو دين الخليل قبلهما ودين محمد بعدهما مع أن المسيح كان على شريعة التوراة ثم نسخ الله على لسانه ما نسخ منها وهو قبل النسخ وبعده دينه دين موسى ولم يهمل دين موسى.

كذلك المسلمون هم على دين المسيح وموسى وإبراهيم وسائر الرسل وهم الذين اتبعوا المسيح ولهذا جعلهم الله فوق النصارى إلى يوم القيامة) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، فالدين، دين رسل الله، دين واحد كما بينه الله في كتابه، وكما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وأن أولى الناس بابن مريم لأنا؛ إنه ليس بيني وبينه نبي» (٢) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، فقد دل كتاب الله ﷻ على من كبر عليه ما يحبه الله، وأنه مذموم بذلك في الدين، مسخوط منه ذلك، والذم أو السخط لا يكون إلا لترك واجب أو فعل محرم، وإذا كان غير الخاشعين مذمومين دل ذلك على وجوب الخشوع) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (أما قوله: ﴿وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَلَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾، فهذه الآية المذكورة بعد قوله تعالى: ﴿﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾﴾ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لفضى بينهم وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ﴾﴾ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل ءأمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم﴾.

(١) الجواب الصحيح (٣/ ٥٣ - ٥٥). (٢) مرّ تخريجه. (٣) الجواب الصحيح (٢/ ٣٤٧). (٤) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٥٣).

فقد أخبرنا أنه شرع لنا من الدين ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٦﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥١﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبوراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون].

ثم أخبر عن تفرق الذين أوتوا الكتاب كتفرق اليهود والنصارى وتفرق فرق اليهود و فرق النصارى كالنسطورية والبعقوية والملكية.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ - أولئك المفترقين - لَفِي شَكِّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ وهكذا توجد عامة اليهود والنصارى في شك من ذلك مرِيب (١) هـ.

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، أخبر سبحانه أنه شرع لنا ما وصى به نوحاً والذي أوحاه إلى محمد وما وصى به الثلاثة المذكورين وهؤلاء هم أولو العزم المأخوذ عليهم الميثاق في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وقوله: ﴿مَا وَصَّيْنَا بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ﴾ فجاء في حق محمد باسم «الذي» و بلفظ الإيحاء وفي سائر الرسل بلفظ الوصية.

ثم قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وهذا تفسير الوصية (وأن): المفسرة التي تأتي بعد فعل من معنى القول لا من لفظه كما في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ﴾ [النحل: ١٢٣] ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكُتُبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] والمعنى قلنا لهم: اتقوا الله فكذلك قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ في معنى قال: لكم من الدين ما وصى به رسلاً قلنا أقيموا الدين لا تتفرقوا فيه فالمشروع لنا هو الموصى به والموحى وهو: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ فأقيموا الدين مفسر للمشروع لنا الموصى به الرسل والموحى إلى

محمد فقد يقال: الضمير في أقيموا عائد إلينا ويقال هو عائد إلى المرسل ويقال هو عائد إلى الجميع.

وهذا أحسن ونظيره: أمرتك بما أمرت به زيداً أن أطع الله ووصيتكم بما وصيت بني فلان: أن افعلوا. فعلى الأول: يكون بدلاً من (ما) أي شرع لكم (أن أقيموا) وعلى الثاني: شرع (ما) خاطبهم (أقيموا) فهو بدل أيضاً وذكر ما قيل للأولين وعلى الثالث: شرع الموصى به (أقيموا).

فلما خاطب بهذه الجماعة بعد الإخبار بأنها مقولة لنا ومقولة لهم: علم أن الضمير عائد إلى الطائفتين جميعاً وهذا أصح إن شاء الله.

والمعنى على التقديرين الأولين يرجع إلى هذا فإن الذي شرع لنا: هو الذي وصى به الرسل وهو الأمر بإقامة الدين والنهي عن التفرق فيه؛ ولكن التردد في أن الضمير تناولهم لفظه وقد علم أنه قيل لنا مثله؛ أو بالعكس أو تناولنا جميعاً.

وإذا كان الله قد أمر الأولين والآخرين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه وقد أخبر أنه شرع لنا ما وصى به نوحاً والذي أوحاه إلى محمد فيحتمل شيئين:

أحدهما: أن يكون ما أوحاه إلى محمد يدخل فيه شريعته التي تختص بنا فإن جميع ما بعث به محمد ﷺ قد أوحاه إليه من الأصول والفروع بخلاف نوح وغيره من الرسل؛ فإنما شرع لنا من الدين ما وصوا به من إقامة الدين وترك التفرق فيه والدين الذي اتفقوا عليه: هو الأصول فتضمن الكلام أشياء:

أحدها: أنه شرع لنا من الدين المشترك وهو الإسلام والإيمان العام والدين المختص بنا؛ وهو الإسلام والإيمان الخاص.

الثاني: أنه أمرنا بإقامة هذا الدين كله المشترك، والمختص ونهانا عن التفرق فيه.

الثالث: أنه أمر المرسلين بإقامة الدين المشترك، ونهاهم عن التفرق فيه.

الرابع: أنه لما فصل بقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ بين قوله: ﴿مَا وَصَّيْنَا بِهِ نُوحًا﴾ وقوله: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أفاد ذلك.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَلْتَمَسُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بَيِّنًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] فأخبر أن تفرقهم إنما كان بعد مجيء العلم الذي بين لهم ما يتقون فإن الله ما كان ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأخبر

أنهم ما تفرقوا إلا بغياً والبغي مجاوزة الحد كما قال ابن عمر: الكبر والحسد؛ وهذا بخلاف التفرق عن اجتهاد ليس فيه علم ولا قصد به البغي كتنازع العلماء السائغ، والبغي إما تضييع للحق وإما تعد للحد فهو إما ترك واجب وإما فعل محرم فعلم أن موجب التفرق هو ذلك.

وهذا كما قال عن أهل الكتاب: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَا أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

فأخبر أن نسيانهم حظاً مما ذكروا به - وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به - كان سبباً لإغراء العداوة والبغضاء بينهم، وهكذا هو الواقع في أهل ملتنا مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة في أصول دينها وكثير من فروعها من أهل الأصول والفروع، ومثلما نجده بين العلماء وبين العباد ممن يغلب عليه الموسوية أو العيسوية حتى يبقى فيهم شبه من الأمتين اللتين قالت كل واحدة: ليست الأخرى على شيء كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال الظاهرة والمتصوف المتمسك منه بأعمال باطنة كل منهما ينفي طريقة الآخر، ويدعي أنه ليس من أهل الدين أو يعرض عنه إعراض من لا يعده من الدين فتقع بينهما العداوة والبغضاء) ١. هـ^(١).

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلِكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٥٦).

(ثم قال تعالى؛ ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ إلى الدين الذي شرعه لنا: ﴿وَاَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾، وهذا يتناول أهل الكتاب كما يتناول أهواء المشركين وقد صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة] ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ وهذا أيضاً

حال الأمة فيما تفرقت فيه واختلقت في المقالات والعبادات) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (ومثل هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لا خصومة، والحجة هي ما يحتج به الخصم وإن كان باطلاً فليس من شرط لفظ «الحجة» أن تكون حقاً، بل إذا كانت حقاً سميت بينة وبرهاناً ودليلاً) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى لنبية: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾، والعدل وضع كل شيء في موضعه، كما أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ هذه براءة منه لمن يخاطب بذلك من المشركين وأهل الكتاب كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس] ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَكُمْ مُخْلِصُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة] ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، فأمر الله نبيه أن يؤمن بجميع الكتب المنزلة وأن يعدل بين الناس كلهم فيعطي كل ذي حق حقه ويمنع كل مبطل عن باطله فإن القسط والعدل في جميع أمور الدين والدنيا فيما جاء به وهو المقصود بإرسال الرسل وإنزال الكتاب كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] ا.هـ (٥).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ حق، فإن الله أمره وجميع الخلق أن يؤمنوا بجميع ما أنزل الله) ا.هـ (٦).

وقال رحمه الله: (وأما قوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية، فهذا ليس خطاباً للنصارى خصوصاً بل هو خطاب للجميع وهؤلاء النصارى ظنوا أن معنى هذا لا

- | | |
|------------------------------------|---------------------------------|
| (١) الاستقامة (٢/ ٢٥٣ - ٢٥٤). | (٢) الصفدية (٢/ ٢١٦). |
| (٣) الاستقامة (١/ ٤٦٤). | (٤) الجواب الصحيح (٣/ ٥٧ - ٥٨). |
| (٥) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٤١ - ٣٤٢). | (٦) الجواب الصحيح (٣/ ٥٧). |

تحتاجوا أهل الكتاب، كما ظنوا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، أن معناه: لا تجادلوا أهل الكتاب - أي النصارى - إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا أي اليهود.

وهذا تحريف كلم الله عن مواضعه وهو شبيه بتحريفهم لما عندهم من التوراة والإنجيل والزبور وسائر النبوات فإنهم أعظم تسلطاً على تحريف معانيها منهم على تحريف معاني القرآن إذ كان القرآن له أمة تحفظه وتعرف معانيه وتذب عنه من يحرف لفظه أو معناه.

وأما تلك الكتب فليس لها من يذب عن لفظها ومعناها فهذا عظم تحريفهم لها وكان أعظم من تحريفهم للقرآن.

ومما يبين أن هذا الخطاب ليس مختصاً بالنصارى أن هذه السورة مكية والسور المكية كانت تناول من لا يقرأ الكتاب لا تختص بأهل الكتاب بل كانت تعم الأمم أو تختص بالمشركين.

والسور المدنية خطابها تارة لأهل الكتاب وتارة تختص بالمؤمنين وتارة تعم وقد قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى].

فالخطاب إما أن يعم المشركين وأهل الكتاب أو يخص المشركين وأهل الكتاب: اليهود والنصارى وبكل تقدير فلا وجه لتخصيص النصارى به.

وأما قوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ فهو نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَإِنَّا عَمَلْنَا وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَكُمْ مُخْلِصُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿فَإِن حَاجَّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهَ اللَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسَلْتُمْ إِنِ اسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، فالحجة اسم لما يحتاج به من حق وباطل كقوله: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠].

فإن الظالمين يحتجون عليكم بحجة باطلة كقول المشركين لما حولت القبلة إلى الكعبة قد عاد إلى قبلتكم فسوف يعود إلى ملتكم فهذه حجة داحضة من الظالمين ومما يبين ذلك بعد قوله بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَحُاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ

دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١١﴾ [الشورى]. فسامها حجة وجعلها داحضة وهؤلاء الذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له هم الكفار من المشركين، وأهل الكتاب.

فهم يحتاجون المؤمنين ليردوهم عن دينهم وقال عن النصارى: ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَدَلٍ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعَمَلِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران].

فكان الكفار يحتاجون المؤمنين حتى يردوهم عن دينهم كما يؤذونهم فهؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.

ومحتاجتهم للمؤمنين من باب الظلم لهم والعدوان عليهم وقول الباطل فأمره تعالى أن يقول: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي ليس لكم أن تظلمونا، وتعتدوا علينا بحجتكم الداحضة وليس المراد بذلك أنا نحن لا نحتاجكم وندعوكم إلى الحق بالحجج الصحيحة. فإنه تعالى قال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّ لَهُمْ بِأَلْسِنَتِكَ الْحَسَنَةَ﴾ [النحل: ١٢٥].

فأمره تعالى أن يجادل أهل دعوته مطلقاً من المشركين وأهل الكتاب بالتي هي أحسن.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فإن الظالم باغ معتد مستحق للعقوبة فيجوز أن يقابل بما يستحقه من العقوبة لا يجب الاقتصار معه على التي هي أحسن بخلاف من لم يظلم فإنه لا يجادل إلا بالتي هي أحسن.

وأهل الكتاب اسم يتناول اليهود والنصارى كما في نظائره في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥] الآية، وقوله: ﴿لَوْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ﴾ [البينة: ١].

وأمثال ذلك.

والظالم يكون ظالماً بترك ما تبين له من الحق واتباع ما تبين له أنه باطل والكلام بلا علم فإذا ظهر له الحق فعند عنه كان ظالماً.

وذلك مثل الألد في الخصام قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ

الَّذِيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ الَّذِي الْخَصَّو ﴿٢٤﴾ [البقرة]، قال: ﴿يَجِدُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ [الأنفال: ٦]، وقال: ﴿هَتَانِمْ هَتَوْلَاةٌ حَبَجَبْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِوَهُ عِلْمٌ فَلِمَ تُعَاجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِوَهُ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦] ١. هـ^(١).

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٧﴾﴾.

قال رحمه الله: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ فالكتاب هو النص والميزان هو العدل ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال ﷺ: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] و«الميزان» يفسره السلف بالعدل ويفسره بعضهم بما يوزن به وهما متلازمان وقد أخبر أنه أنزل ذلك مع رسله كما أنزل معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد أنزل مع رسله الكتاب والميزان، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصُرُّهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الحديد] وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾.

وقال رحمه الله: و«الميزان» قال كثير من المفسرين: هو «العدل» وقال بعضهم: هو ما به توزن الأمور، وهو ما به يعرف العدل وكذلك قالوا في قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن] الأمثال المضروبة والأقيسة العقلية التي تجمع بين المتماثلات وتفرق بين المختلفات وإذا أطلق لفظ الكتاب كما في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

دخل فيه الميزان لأن الله تعالى بين في كتابه من الأمثال المضروبة والمقاييس العقلية ما يعرف به الحق والباطل.

وهذا كلفظ «الحكمة» تارة يقرب بـ«الكتاب» كما في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وتارة يفرد بـ«الكتاب» كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] وإذا أفرد دخلت «الحكمة» في معناه وكذلك في لفظ «القرآن»

(١) الجواب الصحيح (٣/٦٨ - ٧٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/٢٨٨).

(٣) الرد على المنطقين (٣٧١).

و«الإيمان» قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى] وإذا أفرد لفظ «القرآن» فهو يدل على «الإيمان» كما أن «الإيمان» يدل على «القرآن» فهما متلازمان وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذا) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وضرب الأمثال مما يظهر به الحال، وهو القياس العقلي الذي يهدي به الله من يشاء من عباده. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر] وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت]، وهذا من الميزان الذي أنزله الله، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

و«الميزان» فسره السلف بالعدل، وفسره بعضهم بما يوزن به وهما متلازمان، وقد أخبر تعالى أنه أنزل ذلك كما أنزل الكتاب ليقوم الناس بالقسط، فما يعرف به تماثل المتماثلات من الصفات والمقادير هو من الميزان وكذلك ما يعرف به اختلاف المختلفات فإذا علمنا أن الله تعالى حرم الخمر لما ذكره من أنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة وتوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء ثم رأينا النبيذ يماثلها في ذلك، كان القدر المشترك الذي هو العلة هو الميزان الذي أنزله الله في قلوبنا لنزن به هذا ونجعله مثل هذا فلا نفرق بين المتماثلين فالقياس الصحيح هو من العدل الذي أمر الله به ومن علم الكليات من غير معرفة المعين فمعه الميزان فقط والمقصود بها وزن الأمور الموجودة في الخارج وإلا فالكليات لولا جزئياتها المعينة لم يكن بها اعتبار كما أنه لولا الموزونات لم يكن إلى الميزان من حاجة. ولا ريب أنه إذا حضر أحد الموزونين واعتبر بالآخر بالميزان كان أتم في الوزن من أن يكون الميزان وهو الوصف الكلي المشترك في العقل أي شيء حضر من الأعيان المفردة وزن بها مع مغيب الآخر.

ولا يجوز لعاقل أن يظن أن الميزان العقلي الذي أنزله الله هو منطلق اليونان لوجوه:

«أحدها»: أن الله أنزل الموازين مع كتبه قبل أن يخلق اليونان من عهد نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم، وهذا المنطق اليوناني وضعه أرسطو قبل المسيح بثلاثمائة سنة فكيف كانت الأمم المتقدمة تزن به؟

«الثاني»: أن أمتنا أهل الإسلام ما زالوا يزنون بالموازين العقلية ولم يسمع سلفاً بذكر هذا المنطق اليوناني وإنما ظهر في الإسلام لما عربت الكتب الرومية في عهد دولة المأمون أو قريباً منها.

«الثالث»: أنه ما زال نظار المسلمين بعد أن عرب وعرفوه يعيونه ويذمونه ولا يلتفتون إليه ولا إلى أهله في موازينهم العقلية والشرعية ولا يقول القائل ليس فيه مما انفردوا به إلا اصطلاحات لفظية وإلا فالمعاني العقلية مشتركة بين الأمم فإنه ليس الأمر كذلك بل فيه معاني كثيرة فاسدة.

ثم هذا جعلوه ميزان الموازين العقلية التي هي الأقيسة العقلية وزعموا أنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن أن يزل في فكره وليس الأمر كذلك فإنه لو احتاج الميزان إلى ميزان لزم التسلسل.

و(أيضاً) فالفطرة إن كانت صحيحة وزنت بالميزان العقلي وإن كانت بليدة أو فاسدة لم يزد بها المنطق إلا بلاءة وفساداً ولهذا يوجد عامة من يزن به علومه لا بد أن يتخبط ولا يأتي بالأدلة العقلية على الوجه المحمود ومتى أتى بها على الوجه المحمود أعرض عن اعتبارها بالمنطق لما فيه من العجز والتطويل وتبعيد الطريق وجعل الواضحات خفيات وكثرة الغلط والتغليب فإنهم إذا عدلوا عن المعرفة الفطرية العقلية للمعينات إلى أقيسة كلية وضعوا ألفاظها وصارت مجملة تتناول حقاً وباطلاً حصل بها من الضلال ما هو ضد المقصود من الموازين وصارت هذه الموازين عائلة لا عادلة وكانوا فيها من: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ [المطففين] وأين البخس في الأموال من البخس في العقول والأديان مع أن أكثرهم لا يقصدون البخس بل هم بمنزلة من ورث موازين من أبيه يزن بها تارة له وتارة عليه ولا يعرف أي عادلة أم عائلة^(١).

وقال رحمه الله: (والميزان التي أنزلها الله مع الكتاب حيث قال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ وقال: لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان، هي ميزان عادلة تتضمن اعتبار الشيء بمثله وخلافه فيسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين بما جعله الله في فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف.

فإن قيل: فإذا كان هذا مما يعرف بالعقل فكيف جعله الله تعالى مما أرسلت به الرسل؟ قيل: لأن الرسل ضربت للناس الأمثال العقلية الصحيحة التي يعرفون بها التماثل والاختلاف فإن الرسل دلت الناس وأرشدتهم إلى ما به يعرفون العدل ويعرفون الأقيسة العقلية التي يستدل بها على المطالب الدينية فليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيماً للعلوم النبوية بل الرسل صلوات الله عليهم بينت العلوم العقلية التي بها يتم دين الناس علماً وعملاً وضربت الأمثال فكملت الفطرة بما نبهتها عليه وأرشدتها مما كانت الفطرة معرضة عنه أو كانت الفطرة قد فسدت بما حصل لها من الآراء والأهواء الفاسدة فأزالت ذلك الفساد وبينت ما كانت الفطرة معرضة عنه حتى صار عند الفطرة معرفة الميزان التي أنزلها وبينتها رسله.

والقرآن والحديث مملوء من هذا يبين الله الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثال المضروبة ويبين طرق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين وينكر على من يخرج عن ذلك كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الجاثية] وقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٦٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [القلم] أي هذا حكم جائر لا عادل فإن فيه تسوية بين المختلفين وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص] ومن التسوية بين المتماثلين قوله: ﴿أَكْفَاكُ حَيْرٌ مِّنْ أَوْلَٰئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ نَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلُوعًا ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

والقرآن مملوء من ذلك لكن ليس هذا موضعه وإنما المقصود التنبيه على جنس الميزان العقلي وأنها حق كما ذكر الله في كتابه وليست هي مختصة بمنطق اليونان وإن

كان فيه قسط منها بل هي الأقيسة الصحيحة المتضمنة التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين سواء صيغ ذلك بصيغة «قياس الشمول» أو بصيغة «قياس التمثيل» وصيغ «التمثيل» هي الأصل وهي أكمل والميزان: القدر المشترك وهو الجامع وهو الحد الأوسط.

وإنزاله تعالى الميزان مع الرسل كإنزاله الإيمان وهو الأمانة معهم والإيمان لم يحصل إلا بهم كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ [الشورى] وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر. حدثنا «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن وعلموا من السنة» وحدثنا عن رفع الأمانة قال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجمل كجمر دحرجته على رجلك فنفظ فتراه متبرأ وليس فيه شيء»^(١) فقد بين في هذا الحديث أن الأمانة التي هي الإيمان أنزلها في أصل القلوب فإن الجذر هو الأصل وهذا إنما كان بواسطة الرسل لما أخبروا بما أخبروا به فسمع ذلك فألهم الله القلوب الإيمان وأنزله في القلوب.

وكذلك أنزل الله سبحانه الميزان في القلوب لما بينت الرسل العدل وما يوزن به عرفت القلوب ذلك فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التماثل والاختلاف وتضع من الآلات الحسية ما يحتاج إليه في ذلك كما وضعت موازين النقدين وغير ذلك وهذا من وضعه تعالى الميزان قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ [الرحمن] وقال كثير من المفسرين هو العدل وقال بعضهم: ما يوزن به ويعرف العدل وهما متلازمان) ١. هـ.^(٢)

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ ﴿١٥﴾﴾ .

(ويستدلون بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ قالوا: ومن اغتسل للتبريد والتنظيف لم يرد حرث الآخرة فيجب أن لا يخلص له.

ومعلوم أن هاتين الآيتين تدلان على وجوب العمل لله والدار الآخرة أبلغ من دلالتهما على وجوب نية العمل المعين لكن من نصر الوجه الأول قد يقول: نية النوع مستلزمة لنية الجنس: فإن من نوى العمل المعين فقد نوى العمل لله بحكم إيمانه كما تقدم) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ فقوله حرث الدنيا أي كسبها وعملها ولهذا وضع الحريري مقاماته على لسان الحارث بن همام لصدق هذا الوصف على كل أحد) ا.هـ (٢).

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَوُا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّحَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَوُا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ فإن الله شرع لعباده المؤمنين عبادات؛ فأحدث لهم الشيطان عبادات ضاهاها بها مثل أنه شرع لهم عبادة الله وحده لا شريك له فشرع لهم شركاء وهي عبادة ما سواه والاشراك به) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَوُا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ فمن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله أو أوجبه بقوله أو بفعله من غير أن يشرعه الله فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله ومن اتبعه في ذلك فقد اتخذ شريكاً لله شرع من الدين ما لم يأذن به الله) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وقد ذم الله المشركين على أنهم حللوا وحرموا وشرعوا ديناً لم

(١) مجموع الفتاوى (٣١/٢٦ - ٣٢). (٢) مجموع الفتاوى (٢٥٥/١٨). (٣) مجموع الفتاوى (٤٢٥/٣). (٤) اقتضاء الصراط المستقيم (٥٧٩/٢).

يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ (١) ا. هـ.

وقال رحمه الله: (وقد ذكر الله تعالى في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما ما ذم به المشركين حيث حرموا ما لم يحرمه الله تعالى كالبحيرة والسائبة واستحلوا ما حرمه الله كقتل أولادهم وشرعوا ديناً لم يأذن به الله فقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ ومنه أشياء هي محرمة جعلوها عبادات كالشرك والفواحش مثل الطواف بالبيت عراة وغير ذلك) ا. هـ. (٢).

وقال رحمه الله: (مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ فإذا لم يشرع الله استحباب الدعاء عند المقابر ولا وجوبه فمن شرعه فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله) ا. هـ. (٣).

وقال رحمه الله: (وقد قرنا في القواعد في قاعدة السنة والبدعة: أن البدعة هي الدين الذي لم يأمر الله به ورسوله فمن دان ديناً لم يأمر الله ورسوله به فهو مبتدع بذلك وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾) ا. هـ. (٤).

وقال رحمه الله: (ومن ترك شرع الأنبياء وابتدع شرعاً فشرعه باطل لا يجوز اتباعه كما قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ ولهذا كفر اليهود والنصارى لأنهم تمسكوا بشرع منسوخ) ا. هـ. (٥).

وقال رحمه الله: (وإطلاق القول: بأن الصوفي مع قلبه هو من جنس ما ذم به هؤلاء المتصوفة، حتى جعلوا من أهل البدع لأنهم أحدثوا في طريق الله أشياء لم يشرعه الله فكان لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾) ا. هـ. (٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٨٩/١٠).

(٤) الاستقامة (٥/١).

(٦) الاستقامة (٤١٤/١).

(١) مجموع الفتاوى (٣٧١/٢٧).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٦٨٢/٢).

(٥) جامع الرسائل (٢٨٤/١).

وقال رحمه الله: (وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظه الله ﷻ وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله والعبادة لا بد أن يكون مأموراً بها فما لم يثبت أنه مأمور به كيف يحكم عليه بأنه محذور ولهذا كان أحمد وغيره من فقهاء أهل الحديث يقولون: إن الأصل في العبادات التوقيف لا يشرع منها إلا ما شرعه الله وإلا دخلنا في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾، والعبادات الأصل فيها العفو فلا يحظر منها إلا ما حرمه وإلا دخلنا في معنى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ رِزْقِهِ فَجَعَلْنَاهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ [يونس: ٥٩] ولهذا ذم الله المشركين الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله وحرموا ما لم يحرمه في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعُمٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ لَا يُدْرُونَ أَسَدَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفْرَاءٌ عَلَيْهِمْ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ [الأنعام] فذكر ما ابتدعه من العبادات ومن التحريمات) ١. هـ^(١).

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٣٧﴾﴾.

(وكذلك في إيجاب المودة لهم غلط فقد ثبت في الصحيح عن سعيد بن جبيرة أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.

قال: فقلت: إلا أن تودوا ذوي قربي محمد ﷺ فقال ابن عباس: عجلت إنه لم يكن بطن من قريش إلا لرسول الله ﷺ منهم قرابة فقال: قل لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في القرابة التي بيني وبينكم^(٢).

فابن عباس كان من كبار أهل البيت وأعلمهم بتفسير القرآن، وهذا تفسيره الثابت عنه ويدل على ذلك أنه لم يقل: إلا المودة لذوي القربى ولكن قال: إلا المودة في القربى ألا ترى أنه لما أراد ذوي قربه قال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُمُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤٥]، ولا يقال: المودة في ذوي القربى وإنما يقال المودة لذوي القربى فكيف وقد قال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾!؟

ويبين ذلك أن الرسول ﷺ لا يسأل أجراً أصلاً وإنما أجره على الله وعلى المسلمين موالاة أهل البيت لكن بأدلة أخرى غير هذه الآية وليست موالاة أهل البيت من أجر النبي ﷺ في شيء، وأيضاً فإن هذه الآية مكية ولم يكن علي بعد قد تزوج بفاطمة ولا ولد له أولاد) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وهذا الاستثناء منقطع وكذلك الاستثناء في قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ كما فسر ذلك ابن عباس وحديثه في الصحيحين) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأما قوله: «وأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾».

فهذا كذب ظاهر فإن هذه الآية في سورة الشورى وسورة الشورى مكية بلا ريب نزلت قبل أن يتزوج علي بفاطمة ﷺ وقبل أن يولد به الحسن والحسين فإن علياً إنما تزوج فاطمة بالمدينة بعد الهجرة في العام الثاني ولم يدخل بها إلا بعد غزوة بدر وكانت بدر في شهر رمضان سنة اثنتين وقد تقدم الكلام على الآية الكريمة وأن المراد بها ما بينه ابن عباس ﷺ من أنه لم تكن قبيلة من قريش إلا وبينها وبين رسول الله ﷺ قرابة فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ إلا أن تودوني في القرابة التي بيني وبينكم^(٣) رواه البخاري وغيره.

(١) منهاج السنة (٤/٢٥ - ٢٧).

(٢) جامع المسائل (٤/٢٩٣)، وقوله الاستثناء في آية (٥٧) من سورة الفرقان.

(٣) مرّ تخريجه.

وقد ذكر طائفة من المصنفين من أهل السنة والجماعة والشيعة من أصحاب أحمد وغيرهم حديثاً عن النبي ﷺ أن هذه الآية لما نزلت قالوا: يا رسول الله من هؤلاء؟ قال: علي وفاطمة وابناهما وهذا كذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث.

ومما يبين ذلك أن هذه الآية نزلت بمكة باتفاق أهل العلم فإن سورة الشورى جميعها مكية بل جميع آل حم كلهن مكيات وعلي لم يتزوج فاطمة إلا بالمدينة كما تقدم ولم يولد له الحسن والحسين إلا في السنة الثالثة والرابعة من الهجرة فكيف يمكن أنها لما نزلت بمكة قالوا: يا رسول الله من هؤلاء؟ قال: علي وفاطمة وابناهما.

قال الحافظ عبد الغني المقدسي: «ولد الحسن سنة ثلاث من الهجرة في النصف من شهر رمضان هذا أصح ما قيل فيه وولد الحسين لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة» قال: «وقيل سنة ثلاث».

قلت: ومن قال هذا يقول: إن الحسن ولد سنة اثنتين وهذا ضعيف فقد ثبت في الصحيح أن علياً لم يدخل بفاطمة ﷺ إلا بعد غزوة بدر) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله راداً على الرافضة:

(أن تفسير الآية الذي في الصحيحين^(٢) عن ابن عباس يناقض ذلك ففي الصحيحين عن سعيد بن جبير قال: سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فقلت: أن لا تؤذوا محمداً في قرابته فقال ابن عباس: عجلت إنه لم يكن بطن من قريش إلا لرسول الله ﷺ فيهم قرابة فقال: لا أسألكم عليه أجراً لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم.

فهذا ابن عباس ترجمان القرآن وأعلم أهل البيت بعد علي يقول: ليس معناها مودة ذوي القربى لكن معناها: لا أسألكم يا معشر العرب ويا معشر قريش عليه أجراً

(١) منهاج السنة (٤/٥٦٢ - ٥٦٤) ويراجع ترجمة فاطمة في الإصابة (٨/٢٦٤) فقد ذكر زواجها كما ذكره شيخ الإسلام.

(٢) هو في البخاري فقط، والعجيب أن صاحب الدر عزاها للبخاري ومسلم ويبدو أن هناك معناً قريباً منه في مسلم أو أن القصور مني.

لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم فهو سأل الناس الذين أرسل إليهم أولاً أن يصلوا رحمه فلا يعتدوا عليه حتى يبلغ رسالة ربه .

الوجه الخامس: أنه قال: لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى لم يقل: إلا المودة للقربى ولا المودة لذوى القربى فلو أراد المودة لذوى القربى لقال: المودة لذوى القربى كما قال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] وقال: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الحشر: ٧].

وكذلك قوله: ﴿فَتَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الروم: ٣٨] وقوله: ﴿وَمَا آتَىٰ الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهكذا في غير موضع .

فجميع ما في القرآن من التوصية بحقوق ذوى قربى النبي ﷺ وذوى قربى الإنسان إنما قيل فيها: ذوى القربى لم يقل: في القربى فلما ذكر هنا المصدر دون الاسم دل على أنه لم يرد ذوى القربى .

الوجه السادس: أنه لو أريد المودة لهم لقال: المودة لذوى القربى ولم يقل: في القربى فإنه لا يقول من طلب المودة لغيره: أسألك المودة في فلان ولا في قربى فلان ولكن أسألك المودة لفلان والمحبة لفلان فلما قال: المودة في القربى علم أنه ليس المراد لذوى القربى .

الوجه السابع: أن يقال: إن النبي ﷺ لا يسأل على تبليغ رسالة ربه أجراً ألبتة بل أجره على الله كما قال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ (٨١) [ص] وقوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ (٨١) [ص] وقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبا: ٤٧]، ولكن الاستثناء هنا منقطع كما قال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٥٧) [الفرقان].

ولا ريب أن محبة أهل بيت النبي ﷺ واجبة لكن لم يثبت وجوبها بهذه الآية ولا محبتهم أجر للنبي ﷺ بل هو مما أمرنا الله به كما أمرنا بسائر العبادات .

وفي الصحيح عنه أنه خطب أصحابه بغدير يدعي خمًا بين مكة والمدينة فقال: «أذركم الله في أهل بيتي أذركم الله في أهل بيتي»^(١) وفي السنن عنه أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبونكم لله ولقرايتي»^(٢) فمن جعل محبة أهل بيته أجراً له يوفيه إياه أخطأ خطأ عظيماً ولو كان أجراً له لم نشب عليه نحن لأننا أعطيناه أجره الذي يستحقه بالرسالة فهل يقول مسلم مثل هذا؟! .

الوجه الثامن: أن القربى معرفة باللام فلا بد أن يكون معروفاً عند المخاطبين الذين أمر أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [ص: ٨٦] وقد ذكرنا أنها لما نزلت لم يكن قد خلق الحسن ولا الحسين ولا تزوج علي بفاطمة. فالقربى التي كان المخاطبون يعرفونها يمتنع أن تكون هذه بخلاف القربى التي بينه وبينهم فإنها معروفة عندهم كما تقول: لا أسألك إلا المودة في الرحم التي بيننا وكما تقول: لا أسألك إلا العدل بيننا وبينكم ولا أسألك إلا أن تتقي الله في هذا الأمر) ا. هـ^(٣).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا ۚ إِنَّ يَسِّرَ اللَّهُ يَسْرِ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا يَأْتِكُمْ بِهِ مِنْ غَيْرِ غَوْلٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَشَدِيدُ ۗ﴾ [٢٤]

فقوله تعالى: ﴿وَمَعَ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى﴾، كلام مستأنف ليس داخلاً في جواب الشرط فإنه لو كان معطوفاً على جواب الشرط لقال: ويحق الحق بالكسر لالتقاء الساكنين كما في قوله: ﴿وَرِ الْيَلِّ﴾ [المزمل: ٢].

فلما قيل: ويحق الحق بالضم دل على أنه جملة مستأنفة أخبر فيها أنه تعالى يمحو الباطل كباطل الكاذبين عليه ويحق الحق كحق الصادقين عليه فمحو الباطل نظير إحقاق الحق ليس مما علق بالمشيئة بل لا بد منه بخلاف الختم على قلبه فإنه معلق بالمشيئة ولا يجوز أن يعلق بالمشيئة محو الباطل كتعليق الختم بل يقذف بالحق على الباطل فيدمغه) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا ۚ إِنَّ يَسِّرَ اللَّهُ يَسْرِ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا يَأْتِكُمْ بِهِ مِنْ غَيْرِ غَوْلٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَشَدِيدُ ۗ﴾)

(١) مسلم (٢٤٠٨).

(٢) الترمذي (٣٧٥٨) وأحمد (٢٠٧/١) وفيه ضعف.

(٣) منهاج السنة (١٠٠/٧ - ١٠٣). (٤) الجواب الصحيح (٤٤٧/١).

قَلْبِكَ ﴿ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْعَ اللَّهِ الْبَطْلَ وَيُحْيِ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾ فقوله: ﴿وَمَنْعَ اللَّهِ الْبَطْلَ﴾ عطف جملة على جملة قالوا وليس من جواب الشرط، لأنه قال: ويحق الحق بالضم وهو معطوف على قوله: ﴿وَمَنْعَ اللَّهِ الْبَطْلَ﴾ بمحوه للباطل واحقاقه الحق خبير منه لا بد أن يفعله فقد بين أنه لا بد أن يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته فإنه إذا أنزل كلماته دل بها على أنه نبي صادق إذ كانت آية له وبين بها الحق من الباطل وهو أيضاً يحق الحق ويبطل الباطل بكلماته فإنه إذا أنزل كلماته دل بها على أنه نبي صادق إذ كانت آية له وبين بها الحق من الباطل وهو أيضاً يحق الحق ويبطل الباطل بكلماته التي تكون بها الأشياء فيحق الحق بما يظهره من الآيات وما ينصر به أهل الحق كما تقدمت كلمته بذلك كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبَادَتِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَكُلَّمٌ مِّنَ الْمَصْضُورِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصفات] وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] وقال: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ﴾ [التحریم: ١٢] وقال تعالى: ﴿أَفَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وأمره يتضمن ما يأمر به وهو الكائن بكلماته وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٧﴾﴾ [يسر] وكلماته صدق وعدل والعدل وضع الأشياء مواضعها فمن عدله أن يجعل الصادق عليه المبلغ لرسالته حيث يصلح من كرامته ونصره وأن يجعل الكاذب عليه حيث يليق به من أهانته وذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف] قال أبو قلابة^(١) هي لكل مفتر إلى يوم القيامة ومن أعظم الافتراء عليه دعوى النبوة والرسالة كذباً كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] وذكر في هذا الكلام جميع أصناف الكاذبين الذين يعارضون رسله الصادقين كما ذكر فيما قبله حال الكاذبين في قوله: ﴿وَمَا فَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ فَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَوهُ قَرَاتِيسَ يُبَدُّوهُا بُحْتُونَ وَتَحْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتَهُ مَا لَمْ يَلْمَسُوا أَنَّهُ وَلَا ءَابَاؤُهُمْ قُلْ اللَّهُ تَرَدَّدَهُمْ فِي حَوَاصِرِهِمْ يَلْبِغُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام] ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ

أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَلَمْ يُوحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴿١٩٣﴾ الآية [الأنعام: ١٩٣]، فإن الكاذب إما أن يقول أن غيري أنزل على وإما أن يقول أن أضف مثل هذا القرآن وإذا قال غيري أنزل على فإما أن يعينه فيقول أن الله أنزله على وأما أن يقول أوحى ولا يعين من أوحاه، فذكر الأصناف الثلاثة فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ فهذان نوعان من جنس ثم قال ومن لم يقل أو قال إذ كان هذا معارضاً لا يدعي أنه رسول فقال ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله وهؤلاء المعارضون قد تحداهم في غير موضع، وقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿١٩٤﴾﴾ [الإسراء] والرسول أخبر بهذا خبراً تاماً في أول الأمر وهذا لا يمكن إلا مع قطعه أنه على الحق، وإلى الآن لم يوجد أحد أنزل مثل ما أنزل الله وقوله من قال سأنزل ولم يقل أقدر أن أنزل، فإن قوله سأنزل هو وعد بالفعل وبه يحصل المقصود بخلاف قوله أقدر فإنه لا يحصل به غرض المعارض، وإنما يحصل إذا فعل فمن وعد بإنزال مثل ما أنزل كان من أظلم الناس وأكذبهم إذ كان قد تبين عجز جميع الثقلين الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وقوله: مثل ما أنزل الله يقتضي أن كل ما أنزله الله على أوليائه فهو معجز لا يقدر عليه إلا الله كالتوراة، والإنجيل، والزبور وهذا حق فإن في ذلك من أنباء الغيب ما لا يعلمه إلا الله وفيه أيضاً من تأييد الرسل بذلك ما لا يقدر على أن يرسل تلك الرسالة إلا الله فلا يقدر أحد أن ينزل مثل ما أنزل الله على نبيه فيكون به مثل الرسول ولا أن يرسل به غيره) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (فإن الله سبحانه لا يخلي الصادق مما يدل على صدقه. ولا يخلي الكاذب مما يدل على كذبه، إذ من نعته ما أخبر به في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ثم قال خبراً مبتدئاً ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ فهو سبحانه لا بد أن يمحق الباطل ويحق الحق بكلماته وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٩٥﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴿١٩٦﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأنبياء] كما أخبر في موضع أنه لم يخلق الخلق عبثاً، ولا سدى، وإنما خلقهم بالحق وللحق فلا بد أن يجزى هؤلاء وهؤلاء، بإظهار صدق هؤلاء، وإظهار كذب هؤلاء كما قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقد قيل آية الحاقة، وآية الشورى تبين أنه لو افتري عليه لعاقبه فهذه سنته في الكاذبين وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين وهو الاعتبار المأمور به في القرآن كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ يُوَفِّيهِمْ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران] ١. هـ^(١).

﴿وَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَبِزَيْدُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ .
 قال تعالى: ﴿وَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَبِزَيْدُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ أي يستجيب لهم يقال: استجاب واستجاب له) ١. هـ^(٢).

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿١٧﴾﴾ .
 (وما يصيب العبد من النعم فإن الله أنعم بها عليه؛ وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

أي ما أصابك من خصب ونصر وهدى فالله أنعم بها عليك؛ وما أصابك من جذب وذل وشر فبذنوبك وخطاياك وكل الأشياء كائنة بمشيئته وقدرته وخلقه فلا بد أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره؛ وأن يؤمن بشرع الله وأمره) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] أي ما أصابك من خصب ونصر وهدى فالله أنعم به عليك، وما أصابك من حزن وذل وشر فبذنوبك وخطاياك وكل الأشياء كائنة بمشيئته والله وقدرته وخلقه فلا بد أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره، وأن يوقن العبد بشرع الله وأمره) ١. هـ^(٤).

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢١﴾﴾ .
 (وقال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢١﴾﴾ إن يَسَأُ يُسْكِنُ الرِّيحَ فَيَظَلَّلَن رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢٢﴾﴾ أَوْ يُؤَيِّسُ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٢٣﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِصِّينِ ﴿٢٤﴾﴾ .

(١) النبوات (٢٤٩).

(٢) اقتضاء الصراط (٧٨٠/٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٤٢/٨ - ٢٤٣).

(٤) مجموع الفتاوى (٦٤/٨).

فأخبر أنه إن شاء أوبقهن فاجتمع أخذهم بذنوبهم وعفوه عن كثير منها مع علم المجادلين في آياته أنه ما لهم من محيص لأنه في مثل هذا الحال يعلم المورد للشبهات في الدلائل الدالة على ربوبية الرب وقدرته ومشيتته ورحمته إنه لا مخلص له مما وقع فيه كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [الرعد: ١٣] ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ١٣٧) إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيت لكل صبار شكور ﴿١٣٧﴾ أو يُوقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ﴿١٣٨﴾ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴿١٣٩﴾ لا سيما على أشهر القرائتين وهي قراءة النصب في قوله: (ويعلم) فإن ذلك من باب قولهم: لا تأكل السمك، وتشرب اللبن، ومثل هذا في الإعراب قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ ١٤٦ [آل عمران] ومعنى آية الشورى أنه سبحانه إن شاء أسكن فيظللن رواكد على ظهره وإن شاء أوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير ويعلم الذين يجادلون في آياتنا وهذا كله في جواب (إن يشأ) أي وإن يشأ يهلكهن بذنوبهم ويعف أيضاً عن كثير منها ويجتمع مع ذلك علم المجادلين في آياتنا بأنه ما لهم من محيص فهو إن شاء جمع بين أن يهلك بعضاً ويعف عن بعض وبين علم المجادلين في آياته حينئذ أنه ما لهم من محيص) ا. هـ^(٢).

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ١٣٧ ﴿أَوْ يُوقِنَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ ١٣٨.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوقِنَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ ١٣٨ ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ ١٣٩ ﴿عَلَى قِرَاءَةِ﴾^(٣) النصب) ا. هـ^(٤).

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ١٧٨.

(ولهذا لم يكن هؤلاء ممن يسأله، فلم يسأله قط لا معاذ ولا أبي ولا ابن مسعود، ولا من هو دونهم من الصحابة وإنما كان يستفتيه المستفتي كما يستفتي أمثاله من الصحابة وكان عمر وعثمان يشاورانه كما يشاوران أمثاله، فكان عمر يشاور في الأمور لعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبي موسى ولغيرهم حتى كان يدخل ابن عباس معهم مع صغر سنه.

(١) مجموع الفتاوى (١٩٣/٨ - ١٩٤).

(٢) بيان تلييس الجهمية (٤٥١/٢ - ٤٥٢).

(٣) درء تعارض العقل (٢١٠/١).

(٤) زاد المسير (٢٨٩/٧).

وهذا مما أمر الله به المؤمنين ومدحهم عليه بقوله: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُرَكَائِهِمْ﴾ (١) هـ. ١.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ثُمَّ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٢).

(قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ثُمَّ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٢) قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَنْتَصِرُونَ﴾ يمدحهم بأن فيهم همة الانتصار للحق والحمية له ليسوا بمنزلة الذين يعفون عجزاً وذلاً بل هذا مما يذم به الرجل والممدوح العفو مع القدرة والقيام لما يجب من نصر الحق لا مع إهمال حق الله وحق العباد والله تعالى أعلم) هـ. ١ (٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ثُمَّ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٢) قال النخعي: كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَنْتَصِرُونَ﴾ يمدحهم بأن فيهم همة الانتصار للحق والحمية ليسوا بمنزلة الذين يعفون عجزاً وذلاً بل هذا مما قد ذم به الرجل) هـ. ١ (٣).

وقال ابن مفلح الحنبلي: (وقال شيخنا إن في الآية المذكورة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ثُمَّ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٢) فائدة عظيمة، وهو أنه حمدهم على أنهم ينتصرون عند البغي عليهم كما أنهم هم يعفون عند الغضب، ليسوا مثل الذي ليس له قوة الانتصار وفعله لعجزهم أو كسلهم أو وهنهم أو ذلهم أو حزنهم، فإن أكثر من يترك الانتصار بالحق إنما يتركه لهذه الأمور وأشباهها، وليسوا مثل الذي إذا غضب لا يغفر ولا يعفو بل يتعدى أو ينتقم حتى يكف من خارج كما عليه أكثر الناس إذا غضبوا أو قدروا لا يقفون عند العدل، فضلاً عن الإحسان. فحمدهم على أنهم هم ينتصرون، وهم يعفون؛ ولهذا قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا، إلى أن ذكر (٤) الراويتين في دفع الإنسان عن نفسه، ثم قال: ويشبه أن لا يجب مفسدة تقاوم الترك أو تفضي إلى فساد أكثر. وعلى هذا تخرج قصة ابن آدم، وعثمان رضي الله عنه، بخلاف من لم يكن في دفعه إلا إتلاف مال الغير الظالم أو حبسه أو ضربه، فهنا الوجوب أوجه. وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَنْتَصِرُونَ﴾ فالانتصار قد يكون مستحباً تارة، وقد يكون واجباً أخرى، كالمرغرة سواء) هـ. ١ (٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/١٧٤).

(٤) أي شيخ الإسلام ابن تيمية.

(١) منهاج السنة (٨/٥٧ - ٥٨).

(٣) مختصر الفتاوى المصرية (٣١٤).

(٥) الفروع لابن مفلح (٦/١٤٩ - ١٥٠).

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤).

قال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤) قال الحسن البصري^(١) رحمه الله عليه: إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش: ألا ليقم من وجب أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا وأصلح) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال: وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فيقال: السيئة اسم لما سبق صاحبها فإن فعلت به على وجه العدل والقصاص كان مستحقاً لما فعل معه من السيئة وليس المراد أنها تسبق الفاعل حتى ينهى عنها بل تسبق المجازى بها ولفظ السيئة والحسنة يراد به الطاعة والمعصية ويراد به النعمة والمصيبة كقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] وقوله: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقوله: (وجزاء سيئة) لم يرد به كل من عمل ذنباً، وإنما المراد جزاء من أساء إلى غيره بظلم فهي من سيئات المصاب فجزاؤها أن يصاب المسيء بسيئة كأنه قيل: جزاء من أساء إليك أن تسيء إليه مثل ما أساء إليك وهذه سيئة حقيقة.

وأما الاستهزاء والمكر بأن يظهر الإنسان الخير والمراد شر، فهذا إذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرم، وأما إذا كان جزاء على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلاً حسناً قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (٤٤) الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ [البقرة] فإن الجزاء من جنس العمل وقال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرًا وَمَكْرُؤًا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠] كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) وَآكِدُ كَيْدًا (١٦) [الطارق] وقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ لِيُؤَسِّفَ﴾ [يوسف: ١٧٦] ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤)، فقد أخبر أن جزاء السيئة سيئة مثلها بلا عدوان وهذا هو القصاص في الدماء والأموال والأعراض ونحو ذلك ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾

(١) روي مرفوعاً عن الحسن عن عمران في شعب الإيمان (٧٤٥١) والموقوف أصح من المرفوع.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٦٤/٢٨). (٣) مجموع الفتاوى (٤٧٠/٢٠ - ٤٧١).

﴿وَقَدْ ذَكَرَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ لَمَّا ظَلَمَ فِي مُحَنَّتِهِ الْمَشْهُورَةَ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ حَتَّى حُلِّلَ مِنْ ظَلَمِهِ وَقَالَ: ذَكَرْتُ حَدِيثًا ذَكَرَ عَنْ مَبَارَكِ بْنِ فَضَالَةَ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مَنْادٌ: أَلَا لِيَقُمَ مِنْ وَجِبِ أَجْرِهِ عَلِيٌّ فَلَا يَقُومُ إِلَّا مِنْ عَفَا وَأَصْلَحَ» ١. هـ^(١).

﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ١. هـ^(٢).

(وذلك أن المظلوم وإن كان مأذوناً له في دفع الظلم عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ١. هـ^(٢) فذلك مشروط بشرطين: أحدهما: القدرة على ذلك.

والثاني: ألا يعتدي.

فإذا كان عاجزاً أو كان الانتصار يفضي إلى عدوان زائد لم يجز، وهذا هو أصل النهي عن الفتنة، فكان إذا كان المنتصر عاجزاً وانتصاره فيه عدوان فهذا هذا) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ١. هـ^(٢) فعلم أنه لا سبيل على الظالم للناس الباغي) ١. هـ^(٣).

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١. هـ^(٤).

(وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١. هـ^(٤) وَلَمَنْ صَبَرَ وَصَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ١. هـ^(٤) فالباغي الظالم يتقم الله منه في الدنيا والآخرة فإن البغي مصرعه قال ابن مسعود: ولو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكاً^(٤) ومن حكمة الشعر.

قضى الله أن البغي يصرع أهله وأن على الباغي تدور الدوائر

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٢٣] وفي الحديث: «ما من ذنب أحرى أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا من البغي وما حسنة أحرى أن يعجل لصاحبها الثواب من صلة الرحم»^(٥) فمن كان من إحدى

(١) مجموع الفتاوى (٣٠/٣٦١ - ٣٦٢). (٢) الاستقامة (٤٠/١ - ٤١).

(٣) الاختيارات (١٠٦).

(٤) في شعب الإيمان (٦٦٩٣) عن محمد بن إسحاق.

(٥) البخاري في الأدب المفرد (٦٧) والحاكم (٤/١٦٣) وشرح السنة (٣٤٣٨) وروى بلفظ «أجدر» رواه أبو داود (٤٩٠٢) والترمذي (٢٥١١) وابن ماجه (٤٢١١) وأحمد (٣٦/٥) وكلاهما صحيح.

الطائفتين باغياً ظالماً فليتنق الله وليتب ومن كان مظلوماً مبنياً عليه وصبر كان له البشرى من الله (قال تعالى: ﴿وَيَسِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] قال عمرو بن أوس: هم الذين لا يظلمون إذا ظلموا) وقد قال تعالى للمؤمنين في حق عدوهم: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّكُمْ يُضْرَكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقال يوسف عليه السلام لما فعل به إخوته ما فعلوا فصبر واتقى حتى نصره الله ودخلوا عليه وهو في عزه: ﴿قَالُوا أَيْنَكِ لَأَنْتِ يُونُسُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] [يوسف] فمن اتقى الله من هؤلاء وغيره بصدق وعدل ولم يتعد حدود الله وصبر على أذى الآخر وظلمه لم يضره كيد الآخر بل ينصره الله عليه) ا.هـ^(١).

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [٤٦].

(وقال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَلَمَن أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ [٤٦] إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوتِيَكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٤٦] وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ [٤٦]، فهناك في قول لقمان ذكر الصبر على المصيبة فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وهنا ذكر الصبر والعفو فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وذكر ذلك بعد قوله: ﴿وَلَمَن أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ [٤٦] إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فذكر سبحانه الأصناف الثلاثة في باب الظلم الذي يكون بغير اختيار المظلوم وهم: العادل والظالم والمحسن.

فالعادل من انتصر بعد ظلمه وهذا جزاؤه أنه ما عليه من سبيل فلم يكن بذلك ممدوحاً، ولكن لم يكن بذلك مذموماً وذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فهو لاء عليهم السبيل للعقوبة والاقتصاص وذكر المحسنين فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [٤٦] والقرآن فيه جوامع الكلم) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (فهذا من أحسن الكلام وأعدله وأفضله حيث شرع العدل فقال: ﴿وَجَزَّوْا سِنِينَ سِنِينَ بِتَأْتَمًا﴾ [الشورى: ٤٠].

ثم ندب إلى الفضل فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، ولما ندب إلى العفو ذكر أنه لا لوم على المنتصف لثلا يظن أن العفو فرض فقال: ﴿وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَن سَبِيلٍ﴾ (٤١) ثم بين أن السبيل إنما يكون على الظالمين فقال: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٢).

ثم لما رفع عنهم السبيل ندبهم مع ذلك إلى الصبر والعفو فقال: ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْرِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣)، فهذا أحسن شرع وأحكمه يرغب في الصبر والغفر والعفو والاصلاح بغاية الترغيب ويذكر ما فيه من الفضائل والمحاسن وحميد العاقبة ويرفع عن المنتصف ممن ظلمه الملام والعدل ويبين أنه لا حرج عليه ولا سبيل إذا انتصر بعد ما ظلم) ا. هـ (١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

(قد كتبت بعض ما يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْرِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣) فمدحهم على الانتصار تارة وعلى الصبر أخرى.

و«المقصود هنا» أن الله لما حمدهم على هذه الصفات من الإيمان والتوكل ومجانبة الكبائر والاستجابة لربهم وإقام الصلاة والاستواء في أمرهم وانتصارهم إذا أصابهم البغي والعفو والصبر ونحو ذلك: كان هذا دليلاً على أن ضد هذه الصفات ليس محموداً بل مذموماً فإن هذه الصفات مستلزمة لعدم ضدها فلو كان ضدها محموداً لكان عدم المحمود محموداً، وعدم المحمود لا يكون محموداً إلا أن يخلفه ما هو محمود ولأن حمدها والثناء عليها طلب لها وأمر بها ولو أنه أمر استحباب والأمر بالشيء نهي عن ضده قصداً أو لزوماً وضد الانتصار العجز وضد الصبر الجزع، فلا خير في العجز ولا في الجزع كما نجد في حال كثير من الناس حتى بعض المتدينين إذا ظلموا أو أرادوا منكرأ فلا هم يتتصرون ولا يصبرون بل يعجزون ويجزعون.

وفي سنن أبي داود من رواية عوف بن مالك أن رجلين تحاكما إلى النبي ﷺ فقال المقضى عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي ﷺ: «إن الله يلوم على العجز،

ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل»^(١) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن غلبك أمر فلا تقل لو أني كذا لكان كذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(٢) لا تعجز عن مأمور ولا تجزع عن مقدور.

ومن الناس من يجمع كلا الشرين فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله والأمر يقتضي الوجوب وإلا فالاستحباب ونهى عن العجز وقال: «إن الله يلوم على العجز» والعاجز ضد الذين ينتصرون والأمر بالصبر والنهي عن الجزع معلوم في مواضع كثيرة.

وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمر أمر بفعله فعليه أن يفعله ويحرص عليه، ويستعين بالله، والله ينجز، وأمر أصيب به من غير فعله فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه ولهذا قال بعض العقلاء ابن المقفع^(٣) أو غيره «الأمر أمران أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه» وهذا في جميع الأمور لكن عند المؤمن الذي فيه حيلة هو ما أمر الله به وأحبه له فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له إذ لا يكلف نفساً إلا وسعها وقد أمره بكل خير فيه له حيلة وما لا حيلة فيه هو ما أصيب به من غير فعله.

واسم الحسنات والسيئات يتناول القسمين فالأفعال مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلًا ۖ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا بِمِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ومثل قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتَ أَحْسَنْتَ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] ومثل قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾

(١) أحمد (٢٥/٦) وأبو داود (٣٦٢٧) والبيهقي (١٨١/١٠) وفيه بقية بن الوليد وهو مدلس وقد عنعن.

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) وهو عبد الله بن المقفع من أئمة الكُتّاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، أصله من الفرس، ولد في العراق مجوسياً (مزدكياً) وأسلم على يد عيسى بن علي (عم السفاح) وولي كتاب الديوان للمنصور العباسي، وترجم له «كتب أرسطوطاليس الثلاثة في المنطق وكتاب المدخل إلى علم المنطق المعروف (بايساغوجي) وترجم عن الفارسية كتاب (كلىة ودمنة) وله مصنفات كثيرة اتهم بالزندقة، فقتله بالبصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلب عام ١٤٢هـ.

[البقرة: ٨١] والمصائب المقدره خيرها وشرها مثل قوله: ﴿وَيَلَوْنَهُمْ بِالْمَسْئَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] إلى آيات كثيرة من هذا الجنس، والله أعلم^(١).

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ حَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ (٤٥).

(وقال تعالى: ﴿وَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَّةٍ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٤) وَرَزَقْنَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ حَفِيٍّ ﴿وقال تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ (١) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ (٢) تَصَلَّىٰ نَارًا كَالْحَيِّبَةِ﴾ (٣) تَشَقَّىٰ مِنْ عَيْنِ ءَانِيَةٍ﴾ (٥) [الغاشية] وهذا يكون يوم القيامة وهذا هو الصواب من القولين بلا ريب) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ومنه قوله تعالى: ﴿خَشِيعَةً أَنْصَرْتُمْ تَرْفَعُهُمْ ذَلَّةً﴾ [القلم: ٤٣]، وقوله: ﴿خَشِيعِينَ مِنَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ حَفِيٍّ﴾ وهو الانخفاض والسكون) ا.هـ^(٣).

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذَانِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَدِيمٍ﴾ (٥).

قال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ يتناول وحي الأنبياء وغيرهم كالمحدثين الملهمين كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم»^(٤).

وقال عبادة بن الصامت رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحى إليهم هذا الحديث الذي هو لهم خطاب وإلهام وليسوا بأنبياء معصومين مصدقين في كل ما يقع لهم فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من إحياء الرب بل من إحياء الشيطان وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء فهم الذين يفرقون بين وحي الرحمن ووحى الشيطان فإن الشياطين أعداؤهم وهم يوحون بخلاف وحي الأنبياء قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيُجَدِّلُواكَ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] ا.هـ^(٥).

(١) مجموع الفتاوى (٣٩/١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٥٥٧/٢٢).

(٣) تفسير آيات أشكلت (٤٢٦/١ - ٤٢٧).

(٤) مرّ تخريجه.

(٥) النبوات (١٦٧).

وقال رحمه الله: (وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَدْلٍ ﴾ فأخبر بأنه ليس لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا على هذه الوجوه الثلاثة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ فأخبر أنه يوحى إلى البشر تارة وحيًا منه وتارة يرسل رسولاً فيوحى إلى الرسول بإذنه ما يشاء) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال ﷺ: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ وقد خصت الآية البشر دون غيرهم ممن ليس من جنس البشر ولو كانت الآية عامة للبشر وغيرهم كان أبعد من الشبهة وإدخال الشك على من يسمع الآية أن يقول ما كان لأحد أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيرتفع الشك والحيرة من أن يقول ما كان لجنس من الأجناس أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ونزل أجناساً لم يعمهم بالآية فدل ما ذكرناه على أنه خص البشر دون غيرهم) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ ﴾ وأن الآية دلت على أن الله يحجب بعض المخلوقات دون بعض فعلم أنه لا يحتاج عن بعضهم) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (ولقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ ﴾ كما احتجت عائشة بهاتين الآيتين على انتفاء الرؤية في حق النبي ﷺ وإنما يدلان بطريق العموم) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وأيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ ﴾ يقتضى أن التكليم من وراء حجاب نوع غير الوحي وأن المكلم بذلك محجوب أن يرى الله لأن التكليم المسموع قد يكون مع رؤية المستمع للمتكلم، وقد يكون مع كونه محجوباً عنه بخلاف الوحي فإنه يقع في قلبه فلا يحتاج أن يجعل نوعين. ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه

(١) الفتاوى (التسعينية) (٤٥/٥).

(٢) بيان تلبس الجهمية (٤١٩/٢).

(٣) بيان تلبس الجهمية (٤٢١/٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٣/٢٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٥٢٦/١٧).

ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان» فلو كان الكلام المسموع هو شيئاً قائماً بالمستمع لا وجود له في الخارج لكان من جنس الوحي الذي لا يحسن أن يقال معه: من وراء حجاب فإن صاحب هذا لم يسمع شيئاً منفصلاً عنه يمكن مشاهدة المتكلم به تارة وحجب المستمع عنه أخرى والكلام على هذا مبسوط في موضعه) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذَانِهِ مَا يَشَاءُ﴾ ومعلوم أن تكليمه من وراء حجاب أفضل من تكليمه بالإيحاء وبإرسال رسول ولهذا كان من فضائل موسى ﷺ إن الله كلمه تكليماً وقال: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] وقال: ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ الآية، ففرق بين تكليمه من وراء حجاب - كما كلم موسى - وبين تكليمه بواسطة رسول كما أوحى إلى غير موسى قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

والأحاديث بذلك كثيرة في الصحيحين والسنن وفي الحديث المحفوظ عن النبي ﷺ حديث «التقى آدم وموسى قال آدم: أنت موسى الذي كلمك الله تكليماً لم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه»^(٣) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذَانِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَسِيمٍ﴾، فجعل «التكليم ثلاثة أنواع» الوحي المجرد والتكليم ومن وراء حجاب كما كلم موسى ﷺ والتكليم بواسطة إرسال الرسول كما كلم الرسل بإرسال الملائكة) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقد بين الله أنواع تكليمه لعباده في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذَانِهِ مَا يَشَاءُ﴾ فبين سبحانه أن التكليم تارة يكون وحياً وتارة من وراء حجاب كما كلم موسى وتارة يرسل رسولاً فيوحي الرسول بإذن الله ما يشاء) ا.هـ^(٦).

(١) درء تعارض العقل (١٠/٢١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/٦٧).

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) مجموع الفتاوى (١٢/٥٣٢ - ٥٣٣).

(٥) مجموع الفتاوى (١٢/٣٠٠).

(٦) مجموع الفتاوى (١٢/٢٧٩).

وقال رحمه الله: (كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ ولو كان الحجاب هو عدم الرؤية: لكان الوحي وإرسال الرسل من وراء حجاب) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾، ففرق بين التكليم من وراء حجاب - كما كلم موسى - وبين التكلم بواسطة الرسول كما كلم الأنبياء بإرسال رسول إليهم) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (والله سبحانه قد فرق بين المتكلمين فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ ففرق بين تكليمه من وراء حجاب كما كلمه موسى وبين تكليمه بإرساله رسولا يوحى بإذنه ذلك تكليم بلا واسطة وهذا تكليمه بواسطة) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا﴾ إلى آخر السورة فقد بين سبحانه أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة: إما وحياً وإما من وراء حجاب وإما أن يرسل رسولا يوحى بإذنه ما يشاء فجعل الوحي غير التكليم والتكليم من وراء حجاب كان لموسى.

وقد أخبر في غير موضع أنه ناداه كما قال: ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ الآية [مريم: ٥٢] وقال: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠] والنداء باتفاق أهل اللغة لا يكون إلا صوتاً مسموعاً فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيُنَا بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ ٧٦ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (إن الله فضل موسى بتكليمه إياه على غيره ممن لم يكلمه وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ الآية، فكان تكليم موسى من وراء الحجاب وقال: ﴿قَالَ يَمْؤُودُ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي

(١) مجموع الفتاوى (١٢/١٧٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/١٣٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/٥٤٢ - ٥٤٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١٢/٣٩ - ٤٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٤/٣٤٠).

﴿وَيَكَلِّمُهُ﴾ [الأعراف: ١٤٤] وقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤] والوحي هو ما نزله الله على قلوب الأنبياء بلا واسطة فلو كان تكليمه لموسى إنما هو صوت خلقه في الهواء لكان وحي الأنبياء أفضل منه؛ لأن أولئك عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة وموسى إنما عرفه بواسطة ولهذا كان غلاة الجهمية من الاتحادية ونحوهم يدعون أن ما يحصل لهم من الإلهام أفضل مما حصل لموسى بن عمران وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ﴾ ففرق بين إيحائه وبين تكليمه من وراء حجاب والأحاديث متواترة عن النبي ﷺ بتخصيص موسى بتكليم الله إياه دون إبراهيم وعيسى ونحوهما) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَسِيمٍ﴾ قال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ﴾ فبين أن الكلام للبشر على ثلاثة أوجه: منها واحد يكون بتوسط الملك.

ووجهان آخران ليس للملك فيهما وحي أين الملك من ليلة المعراج يوم الطور وتعليم الأسماء وأضعاف ذلك؟) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ يعم كل بشر: المسيح وغيره) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وذلك أن الله علم القرآن والإيمان قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وقال جندب بن

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٥١٥).

(٢) الرد على المنطقيين (٤٨٥).

(٣) الجواب الصحيح (٣/٣١٨).

(٤) الفتاوى (٥/٢٦٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٤/٣٧٥).

عبد الله وعبد الله بن عمر: «تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً» ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (وأيضاً فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ﴾ ففرق سبحانه بين الوحي وبين إرسال الرسول الذي يوحى بإذنه ما يشاء) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (ومثل هذا قوله في الآية الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ﴾ فإنه فرق بين الإيحاء وبين التكليم من وراء الحجاب وبين إرسال رسول يوحى بإذنه ما يشاء فدل على أن التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى أمر غير الإيحاء) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وسمى الله تعالى رسالته روحاً والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ فذكر هنا الأصلين وهما الروح والنور فالروح الحياة والنور النور) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ فما أوحاه الله إليه يهدي الله به من يشاء من عباده كما أنه ﷺ بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَى إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ: ٥٠] ا.هـ (٥).

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥١).

(قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ نظير قوله: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَى إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ: ٥٠] ففي هاتين الآيتين بين سبحانه أن الإيمان والهدى حصل بالوحي النازل لا بمجرد العقل الذي كان حاصلًا قبل الوحي) ا.هـ (٦).

وقال رحمه الله: (وقيل الضمير في قوله: ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾

- | | |
|-----|--------------------------------|
| (١) | جامع الرسائل (٢/٩٦ - ٩٧). |
| (٢) | الصفدية (١/٢٠٣ - ٢٠٤). |
| (٣) | مجموع الفتاوى (١٢/١٢٩). |
| (٤) | مجموع الفتاوى (١٩/٩٤). |
| (٥) | مجموع الفتاوى (١/٥). |
| (٦) | درء تعارض العقل (٧/٤٥٦ - ٤٥٧). |

يعود إلى الإيمان ذكر ذلك عن ابن عباس وقيل: إلى القرآن وهو قول السدي وهو يتناولهما وهو في اللفظ يعود إلى الروح الذي أوحاه وهو الوحي الذي جاء بالإيمان والقرآن) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وسمي الوحي النازل من السماء الذي به يحصل الإيمان ﴿تُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك إذا قيل: نوره أو هداه أو كلامه وسمي ذلك روحاً يحل في قلوب المؤمنين فهو بهذا الاعتبار والله قد سمي ذلك روحاً فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾) ١. هـ^(٣).

قال ابن القيم:

(قال شيخنا: والصواب أنه عائد على الروح المذكور في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ فسمى وحيه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح التي هي الحياة في الحقيقة ومن عدمها فهو ميت لا حي).

والحياة الأبدية السرمدية في دار النعيم هي ثمرة حياة القلب بهذا الروح الذي أوحى إلى رسوله ﷺ فمن لم يحيا به في الدنيا فهو ممن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا وأعظم الناس حياة في الدور الثلاث دار الدنيا ودار البرزخ ودار الجزاء أعظمهم نصيباً من الحياة بهذه الروح وسماه روحاً في غير موضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (٥٥) [غافر] وقال تعالى: ﴿يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (٦١) [النحل] وسماه نوراً لما يحصل به من استتارة القلوب وإضاءتها وكمال الروح بهاتين الصفتين بالحياة والنور ولا سبيل إليهما إلا على أيدي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والاهتداء بما بعثوا به وتلقي العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم وإلا فالروح ميتة مظلمة وإن كان

(١) مجموع الفتاوى (٧٣/١٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٦٤٩/٧).

(٣) الجواب الصحيح (٣٦٩/٤).

العبد مشاراً إليه بالزهد والفقه والفضيلة والكلام في البحوث؛ فإنَّ الحياة والاستنارة بالروح الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله وجعله نوراً يهدي به من يشاء من عباده وراء ذلك كله، فليس العلم كثرة النقل والبحث والكلام، ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها، وحقها من باطلها، وما هو من مشكاة النبوة، مما هو من آراء الرجال) ا.هـ^(١).

(١) اجتماع الجيوش (٣٩).

سورة الزخرف

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣).

قال رحمه الله: (وأولئك فسروا قوله: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بأنه جعله بائناً عنه مخلوقاً، وقالوا: جعل - بمعنى خلق - وهؤلاء قالوا: جعلناه سميناه كما في قوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: ١٩] وهذا إنما يقال: فيمن اعتقد في الشيء صفة حقاً أو باطلاً إذا كانت الصفة خفية فيقال: أخبر عنه بكذا وكون القرآن عربياً أمر ظاهر لا يحتاج إلى الإخبار ثم كل من أخبر بأنه عربي فقد جعله عربياً بهذا الاعتبار، والرب تعالى اختص بجعله عربياً فإنه هو الذي تكلم به وأنزله، فجعله قرآناً عربياً بفعل قام بنفسه وهو تكلم به، واختاره لأن يتكلم به عربياً - عن غير ذلك من الألسنة - باللسان العربي وأنزله به.

ولهذا قال أحمد: الجعل من الله قد يكون خلقاً وقد يكون غير خلق، فالجعل فعل، والفعل قد يكون متعدياً إلى مفعول مباين له: كالخلق وقد يكون الفعل لازماً وإن كان له مفعول في اللغة كان مفعوله قائماً بالفعل: مثل التكلم، فإن التكلم فعل يقوم بالمتكلم والكلام نفسه قائم بالمتكلم، فهو سبحانه جعله قرآناً عربياً فالجعل قائم به والقرآن العربي قائم به فإن «الكلام» يتضمن شيئين: يتضمن فعلاً: هو التكلم، والحروف المنظومة والأصوات الحاصلة بذلك الفعل ولهذا يجعل القول تارة نوعاً من الفعل، وتارة قسيماً للفعل، كما قد بسطت هذه الأمور في غير هذا الموضع والله أعلم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فتكلم في «الرد على الجهمية» على قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وبين أن «الجعل» من الله قد يكون «خلقاً» كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقد يكون فعلاً ليس بخلق وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ من هذا الباب) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُمْ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وهذا استفهام إنكار، أي لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر ونعرض عن إرسال الرسل ومن كره إرسالهم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي تكلمنا به عربياً وأنزلناه عربياً، وكذلك فسره السلف كإسحاق بن راهويه، وذكره عن مجاهد قال: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: قلناه عربياً، ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره عن إسحاق بن راهويه قال: ذكر لنا عن مجاهد وغيره من التابعين ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: إنا قلناه ووصفناه: وذكره عن أحمد بن حنبل عن الأشجعي، عن سفيان الثوري في قوله: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: بيناه قرآناً عربياً) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف] وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، فهذا يتضمن إنعام الله على عباده لأن اللسان العربي أكمل الألسنة وأحسنها بياناً للمعاني، فنزول الكتاب به أعظم نعمة على الخلق من نزوله بغيره، وهو إنما خوطب به أولاً العرب ليفهموه ثم من يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه ثم من لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم، وكان إقامة الحججة به على العرب أولاً والإنعام به عليهم أولاً لمعرفة معانيه قبل أن يعرفه غيرهم) ١. هـ^(٣).

﴿لَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُّقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

(وفي السنن عن علي أن النبي ﷺ أتى بدابة ليركبها وإنه حمد الله وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُّقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ ثم كبره وحمده ثم قال: سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك وقال إن الرب يعجب من عبده إذا قال اغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب^(٤) إلا أنا) ١. هـ^(٥).

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٤٩٥).

(٢) الجواب الصحيح (٢/٦٩).

(٣) أبو داود (٢٦٠٢) الترمذي (٣٤٤٦) أحمد (٩٧/١) والحديث صحيح.

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/٣١٣).

(٥) مجموع الفتاوى (١٦/٣٨٦ - ٣٨٧).

وقال رحمه الله: (وهذا كما أن ركوب الدابة لما اجتمع فيه أنه شرف من الإشراف، وأنه موضع نعمة، كان النبي ﷺ يجمع عليها بين الأمرين، فإنه قال سبحانه: ﴿لِئَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ﴿١٢﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾) فأمر بذكر نعمة الله عليه وذكرها بحمدها، وأمر بالتسبيح الذي هو قرين الحمد فكان النبي ﷺ لما أتى بالدابة فوضع رجله في الغرز قال: «بسم الله» فلما استوى على ظهرها قال: «الحمد لله» ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾) ثم «حمد ثلاثاً وكبر ثلاثاً» ثم قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، ظلمت نفسي فاغفر لي، ثم ضحك وقال: ضحكت من ضحك الرب إذا قال العبد ذلك يقول الله: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري».

فذكر بعد ذلك ذكر الإشراف وهو التكبير مع التهليل، وختمه بالاستغفار لأنه مقرون بالتوحيد، كما قد رتب إقتران الاستغفار بالتوحيد في غير موضع، كقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩] وقوله: ﴿أَلَا تَتَّبِعُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ زَلِيلٌ وَيَشِيرُ﴾ ﴿١٦﴾ وَإِنِ اسْتَغْفَرُوا رَبَّهُمْ ﴿١٧﴾ [هود] وقوله: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] فكان ذكره على الدابة مشتملاً على الكلمات الأربع الباقيات الصالحات مع الاستغفار) ١. هـ^(١).

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾

قال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ قال بعض المفسرين: ﴿جُزْءًا﴾ أي نصيباً وبعضاً، وقال بعضهم: جعلوا لله نصيباً من الولد وعن قتادة^(٢) ومقاتل^(٣): عدلاً وكلا القولين صحيح، فإنهم يجعلون له ولداً والولد يشبه أباه ولهذا قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ [الزخرف: ١٧] أي البنات كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ﴾ [النحل: ٥٨] فقد جعلوها للرحمن مثلاً، وجعلوا له من عباده جزءاً، فإن الولد جزء من الوالد، كما تقدم قال ﷺ: «إنما فاطمة بضعة مني»^(٤) وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠] قال الكلبي: نزلت في الزنادقة قالوا: إن الله وإبليس شريكان، فالله خالق النور والناس والدواب والأنعام

(١) مجموع الفتاوى (٢٤٠/٢٤ - ٢٤١).

(٢) ابن جرير (٥٦/٢٥).

(٣) لم أجده.

(٤) البخاري (٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩).

وإليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (قال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ يعني ولدًا) ا.هـ (٢).

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٧).

(وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي بما ضربوه للرحمن مثلاً والمثل الذي ضربوه له هو البنات وهو عندهم مثل سوء مذموم معيب فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠] ومن قال: إنه ولد الملائكة أو قال: إنه ولد العقول أو النفوس فإنه لا يؤمن بالآخرة فله مثل السوء والله تعالى له المثل الأعلى، فلا يضرب له المثل المساوي، إذ لا كفو له ولا ند، فضلاً عن أن يضرب له المثل الناقص ولا يكتفي في حقه بالمثل العالي بل له المثل الأعلى إذ هو الأعلى سبحانه والعلم به أعلى العلوم وذكره أعلى الأذكار ووجه أعلى الحب) ا.هـ (٣).

﴿أَوْمَنَ يُنَشِّئُوا فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾ (٨).

(كقوله: ﴿أَوْمَنَ يُنَشِّئُوا فِي الْحَلِيَةِ﴾ أي تجعلون له من ينشأ في الحلية) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (مواضع قال تعالى: ﴿أَوْمَنَ يُنَشِّئُوا فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ

مُبِينٍ﴾ قالوا: هي المرأة لا تتكلم بحجة لها إلا كانت عليها) ا.هـ (٥).

وقال رحمه الله: (الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ

مُبِينٌ﴾ (٥) أَرَأَيْتَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (١١) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ

مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٧) أَوْمَنَ يُنَشِّئُوا فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ

مُبِينٍ﴾ (٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنْتًا أَشْهَادُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ

وَسُئِلُونَ﴾ (٩)، فقال تعالى مقيماً للحجة مخاطباً باستفهام الإنكار المبين لبطلان ما

أنكره وامتناعه وأن ذلك مستقر في الفطر: ﴿أَرَأَيْتَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ

بِالْبَنِينَ﴾ (١١) فإنه لو قدر على سبيل الفرض أن يتخذ أولاداً أكان يتخذ مما يخلق بنات

ويصفيكم بالبنيين؟! أي يجعل البنين صافين لكم لا يشرككم في اتخاذ البنين، بل

تكونون أنتم مخصوصين بخير الصنفين وهو سبحانه مخصوص بالصنف المنقوص؟! ثم

(٢) بيان تليس الجهمية (١/٤٧١).

(٤) مجموع الفتاوى (٧٨/١٥ - ٧٩).

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٢٧١).

(٣) درء تعارض العقل (٧/٣٨٨).

(٥) بيان تليس الجهمية (٢/٥٠٣).

ذكر عنهم ما بين فرط نقص البنات عندهم فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ وهن الإناث، كما ذكر ذلك في سورة النحل أي بالذي جعله مثلاً للرحمن وهن البنات اللاتي جعل للرحمن مثلهن فضربه للرحمن مثلاً أي جعله له مثلاً حيث مثل به الملائكة الذين جعلهم بنات الله، فجعلهن يماثلن البنات اللاتي [جعل للرحمن مثلهن فضرب الرحمن أي جعل له مثلاً يماثل البنات اللاتي] إذا بشر أحدهم بها ظل وجهه مسوداً وهو كظيم.

ثم بين نقص النساء فقال: ﴿أَوْ مَن يُنَشِّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ وهن النساء تربين في الحلية ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ وهي المرأة لا تكاد تتكلم بحجة لها إلا كانت عليها، فبين أنهن من نقصهن يكملن بالحلية التي تزينهن في أعين الرجال وهي لا تبين في الخصام) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُم بِالْبَنِينَ﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٧٧﴾ أَوْ مَن يُنَشِّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿٧٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّبُ شَهِدَتُهُمْ وَيَسْتَلُونَ ﴿٧٩﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿٨٠﴾ وَمَنْوَةَ الْثَالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٨١﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٨٣﴾ [النجم] أي جائزة، وغير ذلك في القرآن.

فبين سبحانه: أن الرب الخالق أولى بأن ينزهه عن الأمور الناقصة منكم فكيف تجعلون له ما تكرهون أن يكون لكم وتستحيون من إضافته إليكم، مع أن ذلك واقع لا محالة ولا تنزهونه عن ذلك وتنفونه عنه، وهو أحق بنفي المكروهات المنقضات منكم؟) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أَرَأَيْتُمْ مَا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُم بِالْبَنِينَ ﴿٧٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٧٧﴾ أَوْ مَن يُنَشِّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿٧٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّبُ شَهِدَتُهُمْ وَيَسْتَلُونَ ﴿٧٩﴾، وهذا القدر الذي عابه الله على من جعل الملائكة بناته من العرب مع

كراحتهم أن يكون لهم بنات فنظيره في النصارى فإنهم يجعلون لله ولداً، وينزهون أكابر أهل دينهم عن أن يكون لأحدهم صاحبة أو ولداً فيجعلون لله ما يكرهونه لأكابر دينهم) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وكان المشركون يقولون: إن الملائكة بنات الله كما حكى الله ذلك عنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ وهم مع هذا يجعلون البنات نقصاً وعبياً ويرون الذكر كمالاً فقال لهم: كيف تصفون ربكم بأنقص الوصفين وأنتم مع هذا لا ترضون هذا لأنفسكم؟ فهذا احتجاج عليهم بطريق الأولى في بطلان قولهم: إنه له البنات ولهم البنين، لم يحتج بذلك على نفي الولد مطلقاً كما يقول من يفترى على القرآن.

قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَأَلُّو لَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَقْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْمَزِيدُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُحْسِنِينَ لَا جُرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل]، فبين سبحانه و[تعالى] أنهم يفضلون أنفسهم على ربهم، ويجعلون له ما يكرهون، ويقولون بوصفهم الكذب أن لهم الحسنى وأنهم يجعلون لأنفسهم ما يشتهون وأن ما جعلوا لله نظيره إذا بشر به أحدهم ظل وجهه مسوداً يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون. فبين سبحانه أن هذا الحكم حكم سيء) ا.هـ^(٢).

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

(وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى عن المشركين في سورة الأنعام والنحل والزخرف كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فبين أنه لا علم لهم بذلك إن هم إلا يخرضون) ا.هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٢/٤٤٠ - ٤٤١).

(٢) درء تعارض العقل (٧/٣٦٢ - ٣٦٣).

(٣) منهاج السنة (٣/٥٩).

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

(كقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي ملة) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (و«الأمّة» الملة والطريقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قريةٍ من نذيرٍ إلا قال متفوهاً إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ كما يسمى «الطريق» إماماً لأن السالك فيه يأتّم به، فكذلك السالك يؤمّه ويقصده.

و«الأمّة» أيضاً معلم الخير الذي يأتّم به الناس كما أن «الإمام» هو الذي يأتّم به الناس وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً وأخبر أنه «كان أمة» ا. هـ (٢).

﴿قُلْ أَوْلُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

(وذكر في سورة الزخرف قوله: ﴿أَوْلُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ وهذا يتناول من بين له أن القول الآخر هو أهدي من القول الذي نشأ عليه فعليه أن يتبعه) ا. هـ (٣).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾﴾ .

(وقال الخليل: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٦٧﴾﴾ والبراءة ضد الولاية وأصل البراءة البغض وأصل الولاية الحب وهذا لأن حقيقة التوحيد أن لا يحب إلا الله ويحب ما يحبه الله فلا يحب إلا الله ولا يبغض إلا الله) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وبين قول الخليل: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿٦٧﴾ وقوله: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء] بأن يقال: هنا نفي عبادة المجموع وذلك لا ينفي عبادة الواحد الذي هو الله والخليل تبرأ من المجموع وذلك يقتضي البراءة من كل واحد استثنى أو يقال: الخليل تبرأ من جميع المعبودين من الجميع فوجب أن يستثنى رب العالمين ولهذا لما وقع مستثنى في أول الكلام في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَإِنَّا بِكُمْ عَادِيٌّ مُّؤْتِمِرٌ ﴿١٦٠﴾﴾ [الممتحنة: ٤] لم يحتج إلى استثناء آخر) ا. هـ (٥).

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/٣٦٤)، جامع الرسائل (١/٢٨٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/٢٧٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/٣٢٧).

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/٥٩٨ - ٥٩٩).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/٤٦٥).

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ (٧).

(وقال الخليل عليه السلام): ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٧﴾ والبراءة ضد الولاية وأصل البراءة البغض وأصل الولاية الحب) ا. هـ (١).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٨).

(والطائف ومكة هما القريتان اللتان قالوا فيهما: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى عن المشركين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فأحبوا أن ينزل القرآن على من يعظمونه من أهل مكة والطائف قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ إِذْ تُنزَّلُ الْآيَاتُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] ا. هـ (٣).

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٩).

(وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أي عن الذكر الذي أنزلته قال المفسرون: يعش عنه فلا يلتفت إلى كلامه ولا يخاف عقابه. ومنه قوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وشاهده في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ [طه: ١٢٤] ثم قال: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنسِي﴾ (٩) [طه] فكل من عشا عن القرآن فإنه يقيض له شيطان يضلّه ولو تعبد بما تعبد.

و«يعش» روي عن ابن عباس: «يعمى» وكذلك قال عطاء وزيد بن أسلم، وكذلك أبو عبيدة قال: «تظلم عينه» واختاره ابن قتيبة ورجحه على قول من قال: يعرض، والعشا ضعف في البصر ولهذا قيل فيه يعش، وقالت طائفة: يعرض، وهو رواية الضحاك عن ابن عباس، وقاله قتادة، واختاره الفراء والزجاج (٤) وهذا صحيح من جهة المعنى فإن قوله: «يعش» ضمن معنى «يعرض» ولهذا عدي بحرف الجار عن كما يقال: أنت أعمى عن محاسن فلان إذا عرضت فلم تنظر إليها فقوله: «يعش» أي يكن أعشى عنها وهو دون العمى فلم ينظر إليها إلا نظراً ضعيفاً) ا. هـ (٥).

(١) جامع الرسائل (٨٤/٢).

(٢) الرد على الأخنائي (٥٨).

(٣) منهاج السنة (٨٩/٢ - ٩٠).

(٤) كل هذا الأقوال من زاد المسير (٣١٥/٧).

(٥) منهاج السنة (٤٣١/٥ - ٣٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٣٦﴾ وذكر الرحمن هو الذكر الذي أنزله على نبيه ﷺ ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٣٦﴾ أي عن الذكر الذي أنزله الرحمن) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٣٦﴾ فهؤلاء وهؤلاء عشوا عن ذكر الرحمن الذي أنزله وهو الكتاب والسنة، وعن الروح الذي أوحاه الله إلى نبيه الذي جعله الله نوراً يهدي به من يشاء من عباده، وبه يحصل الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ولم يفرقوا بين آيات الأنبياء ومعجزاتهم وبين خوارق السحرة والكهان) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٣٦﴾ وذكر الرحمن هو الذكر الذي بعث به رسوله ﷺ مثل القرآن فمن لم يؤمن بالقرآن ويصدق خبره ويعتقد وجوب أمره فقد أعرض عنه فيقضي له الشيطان فيقترب به قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ [طه] فدل ذلك على أن ذكره هو آياته التي أنزلها ولهذا لو ذكر الرجل الله ﷻ دائماً ليلاً ونهاراً مع غاية الزهد وعبده مجتهداً في عبادته ولم يكن متبعاً لذكره الذي أنزله وهو القرآن كان من أولياء الشيطان ولو طار في الهواء أو مشى على الماء فإن الشيطان يحمله في الهواء وهذا مبسوط في غير هذا الموضوع) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٣٦﴾ وذكر الرحمن هو الذي أنزله وهو الكتاب والسنة اللذان قال الله فيهما ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ بِهَا﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّتِنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] وهو الذكر

(٢) مجموع الفتاوى (١٧٣/٧).

(١) مجموع الفتاوى (٨٣/١).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧٢/١١ - ١٧٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢٢/١٣).

الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر] فمن أعرض عن هذا الذكر وهو الكتاب والسنة فيض له قرين من الشياطين فصار من أولياء الشيطان بحسب ما تابعه) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (فمن لم يعبد الرحمن عبد الشيطان ﴿وَمَنْ يَعْبُدْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٤١﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَاءَلُ الْقَرِينُ ﴿٤٨﴾ وذكر الرحمن يراد به الذكر الذي أنزله الله تعالى كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا يَقْبَلُوا الشَّرْكَ إِنَّهُ إِذِ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمَنَّ وَلَٰكِن يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ فَأَبِطُوا بِالنَّاصِيَةِ ﴿٤٩﴾﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَيَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿٥٠﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٥١﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿٥٢﴾﴾ [طه] فمن أعرض عن هدى الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه فلم يفرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه كان معرضاً عن ذكره المنزل فيفيض له شيطاناً يصدّه عن سبيل الله فيفرق بمجرد هواه ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ولو كان مثل هذا ذاكر لله ولم يشهد إلا القيومية العامة لم يشهد ما جاء به الكتاب المنزل من الفرق فإنه يكون من أعظم اتباع الشياطين) ا.هـ (٢).

﴿فَأَمَّا نَذَهَبَ بِكَ فَأَنَا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾

(فقوله: ﴿فَأَمَّا نَذَهَبَ بِكَ فَأَنَا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم وهذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴿٤٥﴾﴾ و﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الغاشية] ونحو ذلك وهو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر وذلك يستلزم قدرته عليهم) ا.هـ (٣).

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وقومه قريش ولا يمنع أنه ذكر لسائر العرب بل لسائر الناس؛ كما قال: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْذُومُونَ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الفلم]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٤٥١ - ٤٥٢). (٢) الاستغاثة (١٨٢ - ١٨٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٨).

وَمَا أَنَا مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ﴿٨١﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٨٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٩٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٩١﴾ وَمَا صٰجِرُكُمْ بِمَجْتُونٍ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴿٩٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٩٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٩٥﴾ فَأَيْنَ تَذٰهُبُونَ ﴿٩٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴿٩٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَعِيمَ ﴿٩٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعٰلَمِيْنَ ﴿٩٩﴾ [التكوير]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُوْلًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وهذا على أصح القولين، وأن المراد بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، أنه ذكر لهم يذكرونه فيهدتون به.

وقيل: أن المراد أنه شرف لهم وليس بشيء فإن القرآن هو شرف لمن آمن به من قومه وغيرهم وليس شرفاً لجميع قومه بل من كذب به منهم كان أحق بالذم كما قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦] بخلاف كونه تذكرة وذكرى فإنه تذكرة لهم ولغيرهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ [الأنعام: ٩٠] فعم العالمين جميعهم فقال: ﴿وَمَا تَشَاءُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ [يوسف: ١٠٤] هـ. ١. (١).

﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ ءِالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ﴿٤٤﴾.

(فإن الأنبياء جميعهم وأممهم كانوا مسلمين مؤمنين موحدين لم يكن قط دين يقبله الله غير الإسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ ءِالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُوْلٍ إِلَّا نُوحِيْٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٥﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُوْلًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوْتِ﴾ [النحل: ٣٦]، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي» (٢) وقد أخبر الله في القرآن عن جميع الأنبياء وأممهم من نوح إلى الحواريين أنهم كانوا مسلمين مؤمنين، كما قد بسط في موضع آخر) هـ. ١. (٣).

وقال رحمه الله: (أن لفظ الآية: ﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ ءِالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ ليس في هذا سؤال لهم بماذا بعثوا؟

(١) الجواب الصحيح (١/٤٤٢ - ٤٤٤).

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) الرد على المنطقيين (٢٩٠ - ٢٩١).

الخامس: أن قول القائل: إنهم بعثوا بهذه الثلاثة إن أراد أنهم لم يبعثوا إلا بها، فهذا كذب على الرسل وإن أراد أنها أصول ما بعثوا به، فهذا أيضاً كذب، فإن أصول الدين التي بعثوا بها: من الإيمان بالله واليوم الآخر وأصول الشرائع [أهم] عندهم من ذكر الإيمان بواحد من أصحاب نبي غيرهم، بل ومن الإقرار بنبوة محمد ﷺ فإن الإقرار بمحمد يجب عليهم مجملاً، كما يجب علينا نحن الإقرار بنبواتهم مجملاً لكن من أدركه منهم وجب عليه الإيمان بشرعه على التفصيل كما يجب علينا) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ ٥٥)؟ فبين أنه لم يشرع الشرك قط فهذان النصان قد دلا على أنه أمر بالتوحيد لكل رسول، ولم يأمر بالإشراك قط) ١. هـ^(٢).

﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ٥٤.

(وكل من يقبل قول هؤلاء فهو أحد رجلين: إما جاهل بحقيقة أمرهم وإما ظالم يريد علواً في الأرض وفساداً، أو جامع بين الوصفين وهذه حال اتباع فرعون الذين قال الله فيهم: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ﴾، وحال القرامطة مع رؤسائهم.

وحال الكفار والمنافقين في أئمتهم الذين يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ٤٤ [الأحزاب] إلى قوله: ﴿وَالْعَظِيمُ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخٰرِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧] ١. هـ^(٣).

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ اٰجْمَعِينَ﴾ ٥٥.

(﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي أغضبونا) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ٥٤) والخفيف هو السفیه الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه ويسط هذا له موضع آخر) ١. هـ^(٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠٧/٢٠).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣٣/١٢).

(١) منهاج السنة (١٦٩/٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣٨/٢ - ١٣٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٣٧/١٦ - ٣٣٨).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اُنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ عن ابن عباس: أغضبونا، قال ابن قتيبة: الأسف الغضب، [يقال: أسفت أسفاً أي غضبت] (١) ا.هـ (٢).

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ (٥١).

وقال رحمه الله: (والسالف: المتقدم، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ (٥١) ا.هـ (٣).

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧).

(فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) أي يضحون) ا.هـ (٤).

﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (٥٨).

(في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»^(٥)) ثم قرأ قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ا.هـ (٦).

وقال رحمه الله: (وكذلك لما أخبر الله أن الأصنام التي تعبد هي وعابدها حسب جهنم قاس ابن الزبيري^(٧)) قبل أن يسلم هو وغيره من المشركين عيسى بها وقالوا فيجب أن يعذب عيسى قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) ثم قال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٨) وبين تعالى الفرق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (٦١) [الأنبياء] بين أن من كان صالحاً نبياً أو غير نبي لم يعذب لأجل من أشرك به وعبده وهو برئ من إشراكهم) وأما الأصنام فهي حجارة تجعل حصباً للنار، وقد قيل إنها من الحجارة التي

(١) زاد المسير (٣٢٢/٧). (٢) منهاج السنة (٣٢٢/٥ - ٣٢٣).

(٣) تفسير آيات أشكلت (٦٩٤/٢). (٤) درء تعارض العقل (٥٥/٧).

(٥) الترمذي (٣٢٥٣) وابن ماجه (٤٨) وأحمد (٢٥٢/٥) والحديث حسن.

(٦) الرد على المنطقيين (٣٣٢) مجموع الفتاوى (٢٢٩/٩).

(٧) مر الإشارة إليه في سورة الأنبياء وراجع زاد المسير (٣٢٣/٧).

قال الله ﴿وَوَدُّهَا النَّاسُ وَالْحِجَابَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْفَالَسِيُّونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٠٥] هـ^(١).

وقال رحمه الله:

فصل

قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [٧] ﴿الزخرف﴾ يشبه قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [٥٧] وقالوا: «الْهَيْتَا خَيْرٌ أَرُّهُ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [٥٨] فيشبهه - والله أعلم - أن يكون ضرب المثل أنهم جعلوا المسيح ابنه، والملائكة بناته والولد يشبه أباه فجعلوه لله شبيهاً ونظيراً أو يكون المعنى في المسيح أنه مثل لآلهتهم لأنه عبد من دون الله.

فعلى الأول يكون ضاربه كضارب المثل للرحمن وهم النصارى والمشركون وعلى الثاني يكون ضاربه هو الذي عارض به قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فلما قال ابن الزبيرى^(٢) لأخصمن محمداً فعارضه بالمسيح وناقضه به كان قد ضربه مثلاً قال الآلهة عليه ويترجح هذا بقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ فعلم أنهم هم الذين ضربوه لا النصارى.

فإن «المثل» يقال على الأصل وعلى الفرع والمثل يقال على المفرد ويقال على الجملة التي هي القياس كما قد ذكرت فيما تقدم أن ضرب المثل هو القياس أما قياس التمثيل فيكون المثل هو المفرد وأما قياس الشمول فيكون تسميته ضرب مثل كتسميته قياساً كما بينته في غير هذا الموضع من جهة مطابقة المعاني الذهنية للأعيان الخارجية ومماثلتها لها ومن جهة مطابقة ذلك المفرد المعين للمعنى العام الشامل للأفراد ولسائر الأفراد فإن الذهن يرتسم فيه معنى عام يماثل الفرد المعين وكل فرد يماثل الآخر فصار هذا المعنى يماثل هذا، وكل منهما يماثل المعنى العام الشامل لهما.

(١) الرد على الأخنائي (٩٧ - ٩٨).

(٢) هو عبد الله بن الزبيرى بن قيس السهمي القرشي أبو سعد شاعر قريش في الجاهلية كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة فهرب إلى نجران فقال فيه حسان أبيتاً فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلّة مات عام ١٥ هـ.

وبهذا والله أعلم سمي ضرب مثل وسمي قياساً فإن الضرب الجمع والجمع في القلب واللسان وهو العموم والشمول فالجمع والضرب والعموم والشمول في النفس معنى ولفظاً، فإذا ضرب مثلاً فقد صيغ عموماً مطابقاً، أو صيغ مفرداً مشابهاً، فتدبر هذا فإنه حسن إن شاء الله.

ولك أن تقول: كل إخبار يمثل صورة المخبر في النفس فهو ضرب مثل لأن المتكلم جمع مثلاً في نفسه ونفس المستمع بالخبر المطابق للمخبر فيكون المثل هو الخبر وهو الوصف كقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] وقوله: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، ويسط هذا اللفظ واشتماله على محاسن الأحكام والأدلة قد ذكرته في غير هذا الموضع^(١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٩).

(أن الله أخبر المسيح أنه إنما فعل التصوير والنفخ بإذنه - تعالى - وأخبر المسيح ﷺ أنه فعله بإذن الله وأخبر الله أن هذا من نعمه التي أنعم بها على المسيح ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٩) ١. هـ^(٢).

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ (٦٠).

(ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ (٦٠) وقد قيل إن من هنا للبدل أي بدلاً منكم كما قالوا في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢] أي بدلاً من الرحمن وأنشدوا:

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيات

وقالوا معناه بدلاً من ماء زمزم) ١. هـ^(٣).

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلِيمٍ﴾ (٦٥).

(ثم قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، فاختلف اليهود والنصارى فيه ثم اختلفت النصارى فيه وصاروا أحزاباً كثيرة جداً، كالنسطورية، واليعقوبية، والملكية،

(٢) الجواب الصحيح (٤/٤٧).

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٤١).

(٣) الاستغاثة (١٦٥).

والباروية، والمريمانية، والسمياطية) ا.هـ^(١).

﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧٧﴾.

قال رحمه الله: (وقال: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧٧﴾، فالمخالفة إذا كانت على غير مصلحة الاثنيين كانت عاقبتها عداوة وإنما تكون على مصلحةتهما إذا كانت في ذات الله فكل منهما وإن بذل للآخر إعانة على ما يطلبه واستعان به بإذنه فيما يطلبه فهذا التراضي لا اعتبار به بل يعود تباغضاً وتعادياً وتلاعناً وكل منهما يقول للآخر لولا أنت ما فعلت أنا وحدي هذا فهلاكي كان مني ومنك) ا.هـ^(٢).

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٧٦﴾.

(وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾ ﴿٧٤﴾ لا يَقْدَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُّبْسُوتُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾، وهذا الظلم الذي نزه نفسه عنه: إن كان هو الممتنع الذي لا يمكن فعله فأى فائدة في هذا؟ وهل أحد يخاف أن يفعل به ذلك؟ وأي تنزيه في هذا؟ وإذا قيل: هو لا يفعل إلا ما يقدر عليه قيل: هذا معلوم لكل أحد وكل أحد لا يفعل إلا ما يقدر عليه، فأى مدح في هذا مما يتميز به الرب سبحانه عن العالمين) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله فيمن عاقبهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ بين أن عقاب المجرمين عدل لذنوبهم واتخاذهم الآلهة التي لا تغني عنهم شيئاً لا لأننا ظلمناهم فعاقبناهم لغير ذنب) ا.هـ^(٤).

﴿وَأَادَاؤُا يَمَلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ مَنَّكَوْتُ﴾ ﴿٧٧﴾.

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي يميئتنا وهكذا قال المفسرون^(٥) مثل: السدي وابن زيد وغيرهما.

قال السدي: يقضي علينا بالموت وقال ابن زيد القضاء ها هنا: الموت وكذلك قال سائر المفسرين وهذا، كقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِن عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] ا.هـ^(٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/١٢٨ - ١٢٩).

(٤) مجموع الفتاوى (١٨/١٤٣).

(٦) الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٧٣).

(١) الجواب الصحيح (٢/١٦٥).

(٣) منهاج السنة (٥/١٠٤).

(٥) القولين عند ابن جرير (٢٥/٩٩).

﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٨٠).

(وفي القرآن: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٨٠) فإنه يراد برؤيته وسمعه إثبات علمه بذلك وإنه يعلم هل ذلك خير أو شر فيثيب على الحسنات ويعاقب على السيئات) ١. هـ^(١).

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤).

(وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أي هو إله من في السموات وإله من في الأرض كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] كما فسره أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره إنه المعبود في السموات والأرض) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال ابن قتيبة: وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ فليس في ذلك ما يدل على الحلول بهما وإنما أراد إنه إله السماء ومن فيها وإله الأرض ومن فيها ومثل هذا من الكلام قولك هو بخراسان أمير وبمصر أمير فالإمارة تجتمع له فيهما وهو حال بأحدهما أو بغيرهما هذا واضح لا يخفى) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وهذا الإيمان الذي في القلوب هو «المثل الأعلى» الذي له في السموات والأرض وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، وقد غلط في هذه الآية طائفة من الصوفية والفلاسفة وغيرهم: فجعلوه حلول الذات واتحادها بالعاقد والعارف من جنس قول النصارى في المسيح وهو قول باطل كما قد بسط في موضعه) ١. هـ^(٤).

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨١).

(وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ - ثم قال - إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ فيه قولان: أحدهما أنه استثناء منقطع أي لكن من شهد بالحق تنفعه الشفاعة وتنفع شفاعته، كقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (لكن كانوا يشنون الشفاعة بدون أذنه فيجعلون المخلوق يملك

(١) مجموع الفتاوى (١٢٧/٥ - ٢٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥٠/١١).

(٣) مجموع الفتاوى (٤٠٦/٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٦٥/٥ - ٤٦٦).

(٥) الرد على الأخنائي (١٣٥).

الشفاعة وهذا نوع من الشرك فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ فالشفاعة لا يملكها أحد غير الله (١) هـ.

وقال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨١) فأخبر أنه لا يملكها أحد دون الله وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ استثناء منقطع أي من شهد بالحق وهم يعلمون هم أصحاب الشفاعة منهم الشافع ومنهم المشفوع له وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه سأله أبو هريرة فقال: من أسعد الناس بشفاعته يا رسول الله؟ فقال: «يا أبا هريرة لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك. لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعته يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» (٢) رواه البخاري فجعل أسعد الناس بشفاعته أكملهم إخلاصاً) (٣) هـ.

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ استثناء منقطع في أصح القولين) (٤) هـ.

وقال رحمه الله: (وقد ذكر البغوي وأبو الفرج ابن الجوزي وغيرهما في قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨١) قولين: أحدهما: أن المستثنى هو الشافع ومحل «من» الرفع والثاني: هو المشفوع له.

قال أبو الفرج: في معنى الآية قولان: أحدهما: أنه أراد بـ ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ آلهتهم ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة فقال: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وهو شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم قال: وهذا مذهب الأكثرين منهم قتادة.

والثاني أن المراد بـ «الذين يدعون» عيسى وعزيراً والملائكة الذين عبدتهم المشركون، لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وهي كلمة الإخلاص ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله خلق عيسى وعزيراً والملائكة وهذا مذهب قوم منهم مجاهد (٥).

وقال البغوي: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ هم

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١٢٢).

(٢) البخاري (١/٣٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/٤٣٩ - ٤٤٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/٢٨٠ - ٢٨١).

(٥) زاد المسير (٧/٣٣٤).

عيسى وعزير والملائكة فإنهم عُبدوا من دون الله ولهم الشفاعة وعلى هذا تكون (من) في محل رفع وقيل (من) في محل خفض وأراد بالذين يدعون: عيسى وعزيراً والملائكة يعني: أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق قال: والأول أصح^(١).

قلت: قد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة^(٢)، منهم ابن أبي حاتم، روى بإسناده المعروف على شرط الصحيح عن مجاهد قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ عيسى وعزير والملائكة يقول: لا يشفع عيسى وعزير والملائكة ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ يعلم الحق هذا لفظه جعل (شفع) متعدياً بنفسه وكذلك لفظ^(٣).

وعلى هذا فيكون منصوباً، لا يكون مخفوضاً، كما قاله البغوي فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم ويكون على هذا يقال: شفعت له كما يقال: نصحته ونصحت له و«شفع» أي صار شافعاً للطالب أي لا يشفعون طالباً ولا يعينون طالباً (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) أن الله ربهم.

وروى بإسناده عن قتاده ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الملائكة وعيسى وعزير أي أنهم قد عُبدوا من دون الله ولهم شفاعة عند الله ومنزلة.

قلت: كلا القولين معناه صحيح لكن التحقيق في تفسير الآية: أن الاستثناء منقطع ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقاً لا يستثنى من ذلك أحد عند الله فإنه لم يقل: ولا يشفع أحد ولا قال: لا يشفع لأحد بل قال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ وكل من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ألبتة.

والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله.

وسيد الشفعاء ﷺ لم يُعبد كما عبد المسيح وهو - مع هذا - له شفاعة ليست لغيره فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دُعي من دون الله دون من لم يُدع.

فمن جعل الاستثناء متصلاً فإن معنى كلامه: أن من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة إلا أن يشهد بالحق وهو يعلم أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله لم تذكر شفاعتهم لأحد وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه وسبب نزول الآية يبطله أيضاً.

(٢) ابن جرير (١٠٥/٢٥).

(١) البغوي (١٣٢/٤).

(٣) بياض في الأصل.

وأيضاً فقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ يتناول كل معبود من دونه ويدخل في ذلك الأصنام فإنهم كانوا يقولون هم يشفعون لنا.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨].

فإذا قيل: إنه استثنى الملائكة والأنبياء كان في هذا إطماع لمن عندهم أن يعبدوهم من دون الله يشفعون لهم وذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة.

فإنه إذا كان المعنى: أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان في هذا إثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم إذا كانوا صالحين والقرآن كله يبطل هذا المعنى ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَى﴾ [النجم] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلِداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢١﴾ لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُوَ مِنَ خَشِيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء] فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب فعلم أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه وأنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق.

وأيضاً فإن في القرآن إذا نفى الشفاعة من دونه: نفاها مطلقاً فإن قوله (من دونه) إما أن يكون متصلاً بقوله (يملكون) أو بقوله (يدعون) أو بهما فالتقدير: لا يملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفَعُوا وهذا أظهر لأنه قال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ فأخر «الشفاعة» وقدم «من دونه».

ومثل هذا كثير في القرآن ﴿يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ و﴿يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩] كقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَخُذْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦].

بخلاف ما إذا قيل: لا يملك الذي يدعون الشفاعة من دونه فإن هذا لا نظير له في القرآن واللفظ المستعمل في مثل هذا أن يقال: لا يملك الذين يدعون الشفاعة إلا بإذنه أو لمن ارتضى ونحو ذلك. لا يقال في هذا المعنى من «دونه» فإن الشفاعة هي من عنده. فكيف تكون من دونه؛ لكن قد تكون بإذنه وقد تكون بغير إذنه.

وأيضاً، فإذا قيل الذين يدعون مطلقاً دخل فيه الرب تعالى فإنهم كانوا يدعون الله ويدعون معه غيره ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ [الحجر: ٩٦].

والتقدير الثالث: لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه وهذا أجود من الذي قبله. لكن يرد ما يرد على الأول.

ومما يضعفهما: ﴿الشَّفَعَةَ﴾ لم تذكر بعدها صلة لها بل قال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ فنفى ملكهم الشفاعة مطلقاً وهذا هو الصواب وإن كل من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة فإن المالك للشيء: هو الذي يتصرف فيه بمشيئته وقدرته والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال ولا يقال في هذا إلا بإذنه إنما يقال ذلك في الفعل فيقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وأما في الملك: فلا يمكن أن يكون غيره مالكاً لها فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكاً لها بل هذا ممتنع كما يمتنع أن يكون خالقاً ورباً وهذا كما قال: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا] فنفى الملك مطلقاً ثم قال: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه لم يثبت أن مخلوقاً يملك الشفاعة بل هو سبحانه له الملك وله الحمد لا شريك له في الملك قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [١] الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَنْخِذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [٢] [الفرقان].

ولهذا - لما نفى الشفعاء من دونه - نفاهم نفياً مطلقاً بغير استثناء وإنما يقع الاستثناء إذا لم يقيدهم بأنهم من دونه كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَيْكَ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاوِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] وكما قال تعالى: ﴿وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَاوِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٧٠] فلما قال من دونه كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣].

فمن تدبر القرآن: تبين له أنه كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًا﴾ [الزمر: ٢٣] يشبه بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً ليس بمختلف ولا بمتناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وهو «مثاني» يثني الله فيه الأقسام، ويستوفيها.

والحقائق إما متماثلة وهي المتشابه وإما مماثلة وهي الأصناف والأقسام والأنواع وهي المثاني.

و«التثنية» يراد بها: جنس التعديد من غير اقتصار على اثنين فقط كما في قوله تعالى: ﴿أَرْجِعْ أَبْصَرَ كَرِيمٍ﴾ [الملك: ٨] يراد به: مطلق العدد كما تقول: قلت له مرة بعد مرة تريد جنس العدد وتقول؛ هو يقول كذا ويقول كذا وإن كان قد قال مرات كقول حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه: «جعل يقول بين السجدين: رب اغفر لي رب اغفر لي»^(١) لم يرد: أن هذا قاله مرتين فقط كما يظنه بعض الناس الغالطين بل يريد: أنه جعل يثني هذا القول ويردده ويكرره كما كان يثني لفظ التسييح.

وقد قال حذيفة رضي الله عنه في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: «إنه ركع نحواً من قيامة يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم»^(٢) وذكر أنه «سجد نحواً من قيامه يقول في سجوده: رب اغفر لي رب اغفر لي»^(٣).

وقد صرح في الحديث الصحيح «أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة والنساء وآل عمران»^(٤) فإنه قام بهذه السور كلها وذكر «أنه كان يقول: سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم سبحان ربي الأعلى سبحان ربي الأعلى»^(٥).

فعلم أنه أراد بتثنية اللفظ: جنس التعداد والتكرار لا الاقتصار على مرتين فإن الاثنين أول العدد الكثير فذكر أول الأعداد يعني أنه عدد هذا اللفظ لم يقتصر على مرة واحدة فالتثنية التعديد والتعديد يكون للأقسام المختلفة.

وليس في القرآن تكرار محض بل لا بد من فوائد في كل خطاب.

ف«المتشابه» في النظائر المتماثلة و«المثاني» في الأنواع وتكون التثنية في المتشابه أي هذا المعنى قد ثنى في القرآن لفوائد آخر.

ف«المثاني» تعم هذا وهذا وفاتحة الكتاب: هي «السبع المثاني» لتضمنها هذا وهذا وبسط هذا له موضع آخر.

(٢) مرّ تخريجه.

(٤) مرّ تخريجه.

(١) مرّ تخريجه.

(٣) مرّ تخريجه.

(٥) مرّ تخريجه.

المقصود هنا: أن قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ قد تم الكلام هنا فلا يملك أحد من المعبودين من دون إله الشفاعة البتة ثم استثنى ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهذا استثناء منقطع والمنقطع يكون في المعنى المشترك بين المذكورين فلما نفى ملكهم الشفاعة بقيت الشفاعة بلا مالك لها، كأنه قد قيل: فإذا لم يملكوها هل يشفعون في أحد؟ فقال: نعم ﴿مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١) هـ.

(١) مجموع الفتاوى (١٤/٤٠٠ - ٤٠٩).

سورة الدخان

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (١٩).

قال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾، بكاء كل شيء بحسبه، قد يكون خشية لله، وقد يكون حزناً على فراق المؤمن روى ابن أبي حاتم، عن ابن وهب، أخبرني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال: عمرو، يعني ابن دينار: إني ليلة أطوف بالبيت، إذ سمعت حنين رجل بين الأستار والكعبة وبكاهه وتضرعه، فوقفت لأعرفه، فذهب ليل وجاء ليل وهو كذلك حتى كاد يسفر فأنكشف الستور عنه، فإذا هو طاووس عليه السلام، فقال: من هذا، عمرو؟ قلت: نعم أمتع الله بك، قال: متى وقفت ههنا؟ قال: قلت: منذ طويل^(١). قال: ما أوقفك؟ قلت: سمعت بكاءك. فقال: أعجبك بكائي؟، قلت: نعم، قال: وطلع القمر في حرف أبي قبيس. قال: ورب هذه البنية إن هذا القمر ليبيكي من خشية الله ولا ذنب له، ولا يسأل عما عمل ولا يجازى به، فعجبت أن بكيت من خشية الله وأنا صاحب الذنوب، وهذا القمر يبيكي من خشية الله) ا. هـ^(٢).

﴿مَا خَلَقْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩).

قال رحمه الله: (﴿مَا خَلَقْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾)، وهذا يبين أن معنى قوله في سائر الآيات: (بالحق) هو لهذا المعنى الذي يتضمن حكمته كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ (٨٦) [الحجر].

وبعض الناس يظن أن قوله (هو الخلاق) إشارة إلى أنه خالق أفعال العباد فلا ينبغي التشديد في الإنكار عليهم بل يصفح عنهم الصَّفْحَ الْجَمِيلَ لأجل القدر! وهذا من

(١) كذا بالأصل، ولعله بتقدير «زمن» أو مثله.

(٢) جامع الرسائل (١/٣٧ - ٣٨)، وابن أبي حاتم في تفسير هذه السورة مفقود.

أعظم الجهل، فإنه سبحانه قد عاقب المخالفين له ولرسله، وغضب عليهم، وأمر بمعاقبتهم وأعد لهم من العذاب ما ينافي قول هؤلاء المعطلين لأمره ونهيه ووعده ووعيده. وقوله: ﴿فَأَصْفَحْ أَلْصَفْحَ الْجَبِيلِ﴾ [الحجر: ٨٥] تعلق بما قبله وهو قوله: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ فَأَصْفَحْ أَلْصَفْحَ الْجَبِيلِ﴾ فإن لهم موعداً يجزون فيه، كما قال تعالى في نظائر ذلك: ﴿تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿١٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿١٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية] وقوله: ﴿فَنُورِلَهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [الصفات] وقوله: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الزخرف].

ولم يعذر الله أحداً قط بالقدر، ولو عذره به لكان أنبياءه وأولياؤه أحق بذلك، وأدم إنما حج موسى لأنه لاهه على المصيبة التي أصابت الذرية فقال له: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ وما أصاب العبد من المصائب فعليه أن يسلم فيها لله ويعلم أنها مقدرة عليه كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال علقمة - وقد روى عن ابن مسعود -: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم: فالعبد مأمور بالتقوى والصبر، فالتقوى فعل ما أمر به ومن الصبر الصبر على ما أصابه، وهذا هو صاحب العاقبة المحمودة كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَقَّى وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْزِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقال: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران].

ولا بد لكل عبد من أن يقع منه ما يحتاج معه إلى التوبة والاستغفار، ويبتلى بما يحتاج معه إلى الصبر، فلهذا يؤمر بالصبر والاستغفار كما قيل لأفضل الخلق: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر] وقد بسط الكلام في غير هذا الموضع على مناظرة آدم وموسى؛ فإن كثيراً من الناس حملوها على محامل مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الأمة. ومنهم من كذب بالحديث لعدم فهمه له، والحديث حق يوجب أن الإنسان إذا جرت عليه مصيبة بفعل غيره مثل أبيه أو غير أبيه لا سيما إذا كان أبوه قد تاب منها فلم يبق عليه من جهة الله تبعة، كما جرى لآدم صلوات الله عليه، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ

وَهَدَىٰ ﴿١٣٦﴾ [طه] وقال: ﴿فَلَلْقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] وكان آدم وموسى أعلم بالله من أن يحتج أحدهما لذنبه بالقدر ويوافقه الآخر، ولو كان كذلك لم يحتج آدم إلى توبة، ولا أهبط من الجنة، وموسى هو القائل: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] وهو القائل: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١] وهو القائل: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقو القائل لقومه: ﴿فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فلو كان المذنب يعذر بالقدر لم يحتج إلى هذا، بل كان الاحتجاج بالقدر لما حصل من موسى ملام على ما قدر عليه من المصيبة التي كتبها الله وقدرها.

ومن الإيمان بالقدر أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فالمؤمن يصبر على المصائب، ويستغفر من الذنوب والمعائب، والجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه وسيئاته، ولا يعذر بالقدر من أساء إليه، ولا يذكر القدر عند ما يسره الله له من الخير، فعكس القضية، بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها وتفضل بها فلا يعجب بها ولا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها، وإذا عمل سيئة استغفر وتاب منها، وإذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدرة مقضية عليه، وهذا مبسوط في موضعه.

والمراد هنا أنه سبحانه بين أنه إنما خلق المخلوقات لحكمته، وهذا معنى قوله: (بالحق) وقد ذم من ظن أنه خلق ذلك باطلاً وعبثاً فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون] وقال: ﴿أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُدْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة] وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِي سَمَاءٍ وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ رَبُّهُمْ بِتَفَكُّرٍ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُنَا فَتَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران] فلا بد من جزاء العباد على أعمالهم، ولهذا قيل: ﴿فَأَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَبِيلِ﴾ [الحجر: ٨٥]. والله سبحانه في كل ما يخلقه حكمة يحبها ويرضاها، وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه، واتقن كل ما صنع، فما وقع من الشر الموجود في المخلوقات فقد وجد لأجل تلك الحكمة المطلوبة المحبوبة المرضية، فهو من الله حسن جميل، وهو سبحانه محمود عليه وله الحمد على كل حال، وإن كان شراً بالنسبة إلى بعض الأشخاص) ا.هـ^(١).

سورة الجاثية

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قال رحمه الله: (الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وإذا كان ما في الأرض مسخراً لنا جاز استمتاعنا به.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَعْبُدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مَحْرَمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥]، فما لم يجد تحريمه ليس بمحرم، وما لم يحرم فهو حل، ومثل هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٣]؛ لأن حرف: (إنما) يوجب حصر الأول في الثاني؛ فيجب انحصار المحرمات فيما ذكر، وقد دل الكتاب على هذا الأصل المحيط في مواضع آخر) ١. هـ^(١).

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

وقال رحمه الله: (وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ﴿أَسْتَعْثِمُ بِمُضَيِّطٍ﴾ [الغاشية] ﴿فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣] ﴿وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا﴾ [التغابن: ١٤] ﴿فَأَعْفُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٩] ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ ونحو هذا في القرآن مما أمر الله به المؤمنين بالعفو والصفح عن المشركين فإنه نسخ ذلك كله قوله تعالى: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] فنسخ هذا عفوهم عن المشركين) ١. هـ^(٢).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْعِزَّةَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَأَتَيْنَاهُم بَيْنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ

يَقْضَىٰ يَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ .

(قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ وَعَاتَبْنَاهُمْ بِبِنْتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنَّهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضَىٰ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٨﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾﴾، أخبر سبحانه أنه أنعم على بني إسرائيل بنعم الدين والدنيا، وأنهم اختلفوا بعد مجيء العلم بغياً من بعضهم على بعض .

ثم جعل محمداً ﷺ على شريعة شرعها له، وأمره باتباعها، ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وقد دخل في الذين لا يعلمون كل من خالف شريعته .

وأهواؤهم: هم ما يهونونه، وما عليه المشركون من هديهم الظاهر، الذي هو من موجبات دينهم الباطل، وتوابع ذلك فهم يهونونه وموافقتهم فيه، اتباع لما يهونونه ولهذا: يفرح الكافرون بموافقة المسلمين في بعض أمورهم، ويسرون به، ويودون أن لو بذلوا عظيماً ليحصل ذلك ولو فرض أن ليس الفعل من اتباع أهوائهم فلا ريب أن مخالفتهم في ذلك أحسم لمادة متابعتهم وأعون على حصول مرضاة الله في تركها وأن موافقتهم في ذلك قد تكون ذريعة إلى موافقتهم في غيره فإن من حام حول الحمى أوشك أن يواقعه وأي الأمرين كان حصل المقصود في الجملة وإن كان الأول أظهر) ١. هـ^(١) .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ .

(وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾﴾ فالشريعة التي جعله عليها تتضمن ما أمر به، وكل حب وذوق ووجد لا

تشهد له هذه الشريعة فهو من أهواء الذين لا يعلمون فإن العلم بما يحبه الله إنما هو ما أنزله الله إلى عباده من هداة) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقد بين ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ فقد أمره في هذه الآية باتباع الشريعة التي جعله عليها، ونهاه عن اتباع ما يخالفها، وهي أهواء الذين لا يعلمون) ا.هـ (٢).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ (وهؤلاء الذين تولوا الله فتولاهم الله، والذين يدينون لغير الله هم ظالمون بتولي بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾، ولا يتم لمؤمن ذلك إلا بأن يجمع بين ما جمع الله بينه، ويفرق بين ما فرق الله بينه، وهذه حقيقة الموالاتة والمعاداة، التي مبناها على المحبة والبغضة) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهذا التولي لهم جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب، عنه فلا يكون متقدماً عليه، وإن كان إنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله وإحسانه لكن تعلق بكونهم متقين وصالحين، فدل على أن هذا التولي هو بعد ذلك مثل كونه مع المتقين والصالحين بنصره وتأييده، ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين) ا.هـ (٤).

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

(كذلك قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٦﴾﴾ فإن هذا استفهام إنكار على من حسب أنه يسوي بين هؤلاء وهؤلاء فبين أن هذا الحساب باطل وأن التسوية ممتنعة في حقه لا يجوز أن يظن به بل من ظن ذلك فقد ظن بربه ظن السوء وذلك ظن أهل الجاهلية الذين

(١) الاستقامة (١/٢٥٣).

(٢) جامع الرسائل (٢/٢٠٧).

(٣) جامع الرسائل (٢/٣١٨ - ٣١٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/٤٤٥).

يظنون بالله ظن السوء فمن جوز ذلك على الله فقد ظن بربه ظن السوء (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١١) وهذا استفهام إنكار يقتضي الإنكار على من يحسب ذلك ويظنه وإنما ينكر على من ظن أو حسب ما هو خطأ باطل يعلم بطلانه، لا من ظن ظناً ما ليس بخطأ ولا باطل.

فعلم أن التسوية بين أهل الطاعة وبين أهل المعصية مما يعلم بطلانه، وأن ذلك من الحكم السيء الذي ينزه الله عنه.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (١٨) [ص] وقوله تعالى: ﴿أَفَجَعَلْنَا الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٢٥) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦) [القلم] وفي الجملة التسوية بين الأبرار والفجار، والمحسنين والظالمين، وأهل الطاعة وأهل المعصية حكم باطل يجب تنزيه الله عنه، فإنه ينافي عدله وحكمته (٢) هـ.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١١) بين أن هذا الحكم سيء في نفسه ليس الحكم به مساوياً للحكم بالتفاضل ثم قال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣٢) فأخبر أنه خلق الخلق ليجزي كل نفس بما كسبت، وأنه لا يظلم أحداً فينقص من حسناته شيئاً (٣) هـ.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٣).

(وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ فالمشرك يعبد ما يهواه، واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه، وقد وقع في الإنس والجن هذا كله) (٤) هـ.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ (٣٤) - إلى قوله - سَيِّئًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤] وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى

(١) النبوات (٢٣٣ - ٢٣٤).

(٢) منهاج السنة (٣/٨٨ - ٨٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/١٧٤ - ١٧٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/٨١).

من الله ولا برهان. وقال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رماه وعبد الآخر وقال الحسن البصري: ذاك المنافق نصب هواه فما هوى من شيء ركه. وقال قتادة: أي والله كلما هوى شيئاً ركه. وكلما اشتهى شيئاً أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى رواه ابن أبي حاتم وغيره (١) هـ.

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢)

(قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: إن الله يأمر الملائكة بأن تنسخ من اللوح المحفوظ ما كتبه من القدر ويأمر الحفظة أن تكتب أعمال بني آدم فتقابل بين النسختين فتكونان سواء، ثم يقول ابن عباس: أليست قوماً عرباً؟ وهل تكون النسخة إلا من أصل؟ (٢) هـ. (٣)

(١) الرد على الأختائي (٦٠) والآثار فيه مخرجة سابقاً.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٨٧/١٢).

(٣) ابن جرير (١٥٦/٢٥).

سورة الأحقاف

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَرَ مِنْ عَلِيمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

(كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَرَ مِنْ عَلِيمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾، وذلك لأن عبادة ما سوى الله تعالى قد يقال: إن الله أذن فيه لما فيه من المنفعة، فبين سبحانه أنه لم يشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الزخرف]، وهذا مبسوط في موضع آخر) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد طالب سبحانه من اتخذ ديناً بقوله: ﴿أَتُنْتَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَرَ مِنْ عَلِيمٍ﴾، فالكتاب الكتاب. والأثارة كما قال من قال من السلف: هي الرواية، والإسناد. وقالوا: هي الخط أيضاً: إذ الرواية والإسناد يكتب بالخط، وذلك لأن الأثارة من الأثر؛ فالعلم الذي يقوله من يقبل قوله يؤثر بالإسناد ويقيد بالخط فيكون كل ذلك من أثاره^(٢)) ١. هـ^(٣).

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ لِي إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٢﴾﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ لِي﴾ [الأحقاف: ٤٢]، وفي صحيح مسلم أنه قال لما قُتل عثمان بن مظعون، قال: «ما أدري والله وأنا رسول الله ما يُفَعَّلُ بي ولا بكم»^(٤)) ١. هـ^(٥).

(١) منهاج السنة (٣/٣٣٤).

(٢) يراجع زاد المسير (٧/٣٦٨) وابن جرير (٢/٢٦ - ٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/٣١٦).

(٤) الحديث وجدته في البخاري (٣٩٢٩) وقول (قُتل) هذا تحريف وأصلها (قُبل) لأن عثمان مات موتاً ولم يقتل.

(٥) منهاج السنة (٦/١٣ - ١٤).

وقال رحمه الله: (والمقصود أن الله قال لمحمد: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فبين أن هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال فهو معتاد في الآدميين وإن كان قليلاً فيهم. وأما من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولاً كقوم نوح فهذا بمنزلة ما يتديه الله من الأمور وحيثذ فهو يأتي بما يختص به مما يعرفون أن الله صدقه في إرساله فهذا يدل على النوع والشخص، وإن كان آيات غيره تدل على الشخص إذ النوع قد عرف قبل هذا. فالمقصود أن آيته وبرهانه لا بد أن يكون مختصاً بهذا النوع لا يجب أن يختص بواحد من النوع ولا يجوز أن يوجد لغير النوع) ١. هـ^(١).

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾

سأل رجل آخر:

عن قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ فقال: ما سمعنا بنص القرآن والحديث أن ما قبل كتابنا إلا الإنجيل، فقال: الآخر: عيسى إنما كان تبعاً لموسى، والإنجيل إنما فيه توسع في الأحكام تيسير مما في التوراة، فأنكر عليه رجل وقال: كان لعيسى شرع غير شرع موسى، واحتج بقوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، قال فما الحكم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِيْ اِسْرَائِيْلَ اِنِّيْ رَسُوْلُ اللّٰهِ اِيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ التَّوْرَةِ﴾ [الصف: ٦]؟ فقال: ليست هذه حجة.

فأجاب شيخ الإسلام رحمه الله:

قد أخبر الله في القرآن أن عيسى قال لهم ﴿وَلَأُحَدِّثَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] فعلم أنه أحل البعض دون الجميع، وأخبر عن المسيح أنه علمه التوراة والإنجيل بعلمه: ﴿وَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْاِنْجِيْلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]، ومن المعلوم أنه لولا أنه متبع لبعض ما في التوراة لم يكن تعلمها له منه، ألا ترى أننا نحن لم نؤمر بحفظ التوراة والإنجيل، وإن كان كثير من شرائع الكتابين يوافق شريعة القرآن فهذا وغيره يبين ما ذكره علماء المسلمين من أن الإنجيل ليس فيه إلا أحكام قليلة وأكثر الأحكام يتبع فيها ما في التوراة، وبهذا يحصل التباين بين الشرعتين.

ولهذا كان النصارى متفقين على حفظ التوراة وتلاوتها، كما يحفظون الإنجيل، ولهذا لما سمع النجاشي القرآن، قال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، وكذلك ورقة بن نوفل، قال للنبي ﷺ لما ذكر له النبي ﷺ ما يأتيه قال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى.

وكذلك قالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ [القصص: ٤٨] أي موسى ومحمد، وفي القراءة الأخرى: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي التوراة والقرآن.

وكذلك قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢] فهذا وما أشبهه مما فيه اقتران التوراة بالقرآن وتخصيصها بالذكر يبين ما ذكروه من أن التوراة هي الأصل، والإنجيل تبع لها في كثير من الأحكام، وإن كان مغايراً لبعضها.

فلهذا يذكر الإنجيل مع التوراة والقرآن في مثل قوله: ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران] وقال: ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ﴾ [التوبة: ١١١] فيذكر الثلاثة تارة، ويذكر القرآن مع التوراة وحدها تارة لسر: [وهو] أن الإنجيل من وجه أصل، ومن وجه تبع، بخلاف القرآن مع التوراة، فإنه أصل من كل وجه، بل هو مهيمن على ما بين يديه من الكتاب، وإن كان موافقاً للتوراة في أصول الدين، وكتبه من الشرائع، والله أعلم.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

(وقوله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» لا يناقض قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فإن المنفي نفي بقاء المقابلة والمعاوضة كما يقال بعت هذا بهذا، وما أثبت أثبت بقاء السبب، فالعمل لا يقابل الجزاء وإن كان سبباً للجزاء، ولهذا من ظن أنه قام بما يجب عليه وأنه لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه فهو ضال، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» وروى

«بمغفرته»^(١) ومن هذا أيضاً الحديث الذي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم»^(٢) (الحديث) ١. هـ^(٣).

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

(وعن عائشة قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ قط مستجعماً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه، فقلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيت عُرف في وجهك الكراهية؟. قال: «يا عائشة وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذب قوم بالريح، وقد أتى العذاب قوماً» وتلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرًا...﴾. أخرجاه في الصحيحين^(٤) ١. هـ^(٥).

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

(واحتجوا على أن المعرفة لا تحصل بمجرد العقل، بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وهذه الآية وأمثالها تدل على أن السمع والأبصار والأفئدة لا تنفع صاحبها مع جحده بآيات الله. فتبين أن العقل الذي هو مناط التكليف لا يحصل بمجرد الإيمان النافع، والمعرفة المنجية من عذاب الله. وهذا العقل شرط في العلم والتكليف لا موجب له) ١. هـ^(٦).

(١) البخاري (١٥٧/٧)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) أبو داود (٤٦٩٩) وابن ماجه (٧٧) وأحمد (١٨٢/٥) وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٤٥) والطبراني في «الكبير» (٤٩٤٠) والبيهقي في «السنن» (٢٠٤/١٠) وابن حبان في «الإحسان» (٧٢٧) والحديث حسن إن شاء الله.

(٣) مجموع الفتاوى (٢١٧/١). (٤) البخاري (٣٢٠٦)، ومسلم (٨٩٩).

(٥) مختصر الفتاوى المصرية (١٥٢ - ١٥٣) مجموع الفتاوى (١٧٦/٣٥) الجواب الصحيح (٤٧٢/٥).

(٦) درء تعارض العقل (١٩/٩ - ٢٠).

وقال رحمه الله: (فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٦﴾﴾، فأخبر بما مكنهم فيه من أصناف الإدراكات والحركات. وأخبر أن ذلك لم يغن عنهم حيث جحدوا بآيات الله، وهي الرسالة التي بعث بها رسله. ولهذا حدثني ابن الشيخ الحصري عن والده الشيخ الحصري - شيخ الحنفية في زمنه - قال: كان فقهاء بخارى يقولون في ابن سينا: كان كافراً ذكياً) ١. هـ^(١).

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

(والمراد هنا أن محمداً ﷺ أرسل إلى الثقلين الإنس والجن، وقد أخبر الله في القرآن أن الجن استمعوا القرآن وأنهم آمنوا به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾) ١. هـ^(٢).

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٠﴾﴾.

(وقد قال تعالى عن الجن: ﴿يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. فأمرُوا بإجابة داعي الله، الذي هو الرسول والإجابة والاستجابة هي طاعة الأمر والنهي، وهي العبادة التي خلق لها الثقلان كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات] ١. هـ^(٣).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُجِئِيَ الْمَوْفِقَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

(ولعل هذا الجاهل لم يفهم هذه الآية، فظن أن قوله: ﴿يَعَىٰ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ﴾ هو من الإعياء: الذي هو النصب واللغوب، وأن المعنى إذا كنا ما تعبنا في الخلق الأول، فكيف نتعب في الثاني؟ فإن كان هذا هو الذي فهمه من الآية، كما يفهم ذلك جهال

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/٣٣).

(١) مجموع الفتاوى (٩/٣٩ - ٤٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/٢٣٥).

العامه الذين لا يعرفون لغة العرب ولا تفسير القرآن، ولا يفرقون بين عبي وأعبا، فقد أوتي من جهة جهله بالعقل والسمع) ١. هـ (١).

﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ كَانْتَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢٥).

(ويجوز أن يكتب للمصاب وغيره من المرضى شيئاً من كتاب الله وذكره بالمداد المباح ويغسل ويسقى، كما نص على ذلك أحمد وغيره قال عبد الله بن أحمد: قرأت على أبي ثنا يعلى بن عبيد ثنا سفيان عن محمد بن أبي ليلى، عن الحكم؛ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إذا عسر على المرأة ولادتها فليكتب: بسم الله لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، ﴿كَانْتَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾. قال أبي: ثنا أسود بن عامر بإسناده هنا، وقال: يكتب في إناء نظيف فيسقى، قال أبي: وزاد فيه وكيع فتسقى وينضح مادون سرتها، قال عبد الله: رأيت أبي يكتب للمرأة في جام أو شيء نظيف.

وقال أبو عمرو محمد بن أحمد بن حمدان الحيري: ثنا الحسن بن سفيان النسوي؛ حدثني عبد الله بن أحمد بن شويه؛ ثنا علي بن الحسن بن شقيق؛ ثنا عبد الله بن المبارك؛ عن سفيان؛ عن ابن أبي ليلى؛ عن الحكم، عن سعيد بن جبير؛ عن ابن عباس قال: إذا عسر على المرأة ولادها فليكتب: بسم الله لا إله إلا الله العلي العظيم لا إله إلا الله الحليم الكريم؛ سبحان الله وتعالى رب العرش العظيم؛ والحمد لله رب العالمين، ﴿كَانْتَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢). قال علي: يكتب في كاغدة فيعلق على عضد المرأة، قال علي: وقد جربناه فلم نر شيئاً أعجب منه، فإذا وضعت تحله سريعاً ثم تجعله في خرقة أو تحرقه) ١. هـ (٣).

(١) درء تعارض العقل (٧/٣٨١).

(٢) ذكره القرطبي (١٦/٢٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/٦٤ - ٦٥).

سورة محمد

ومعنى إضلال العمل وبطلانه قال:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ①.

(قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ① وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ② ذَلِكَ يَأْتِي الَّذِينَ كَفَرُوا وَاتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ③﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يُبْطَلُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣٣] وقال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ ④ [الفرقان] وقال تعالى: ﴿لَا يُبْطَلُوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقًا وَالنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ مَفْجَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فبين أن المن والأذى يبطل الصدقة، فيجعلها باطلاً، لاحقاً، كما يبطل الرياء، وعدم الإيمان والإنفاق أيضاً وقد عمم بقوله: ﴿وَلَا يُبْطَلُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣٣] أي لا تجعلوها باطلة لا منفعة فيها ولا ثواب ولا فائدة.

وقد غلط طائفة من الناس من الاتحادية وغيرهم كابن عربي فأروا أن الحق هو الموجود فكل موجود حق فقالوا: ما في العالم باطل؛ إذ ليس في العالم عدم. قالوا: والكفر إنما هو عدم وجود الشريك مثلاً.

وإنما أتوا من جهة اللفظ المجمل.

فإن الشيء له مرتبتان: مرتبة باعتبار ذاته؛ فهو إما موجود، فيكون حقاً، وإما معدوم، فيكون باطلاً.

ومرتبة باعتبار وجوده في الأذهان واللسان والبنان، وهو العلم والقول والكتاب، فالاعتقاد والخبر والكتابة أمور تابعة للشيء، فإن كانت مطابقة موافقة كانت حقاً، وإلا كانت باطلاً، فإذا أخبرنا عن الحق الموجود، أنه حق موجود وعن الباطل المعدوم أنه

باطل معدوم: كان الخبر والاعتقاد حقاً، وإن كان بالعكس كان باطلاً وإن كان الخبر والاعتقاد أمراً موجوداً فكونه حقاً أو باطلاً باعتبار حقيقته المخبر عنها لا باعتبار نفسه.

ولا يجوز إطلاق القول بأنه حق لمجرد كونه موجوداً إلا بقرينة تبين المراد.

وهكذا العمل والقصد والأمر إنما هو باعتبار حقيقته المقصودة فإن حصلت وكانت نافعة: كان حقاً وإن لم تحصل أو حصل ما لا منفعة فيه: كان باطلاً.

وبهذين الاعتبارين يصير في الوجود ما هو من الباطل، كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع مع ما يوافق ذلك من عقل وذوق وكشف خلاف زعم هذه الطائفة الضالة المضلة.

قال الله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُۥ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٧﴾ ﴾ [الرعد]، شبه ما ينزل من السماء على القلوب من الإيمان والقرآن فيختلط بالشبهات والأهواء المغوية بالمطر الذي يحتمل سيله الزبد، وبالذهب والفضة والحديد ونحوه إذا أذيب بالنار، فاحتمل الزبد فقذفه بعيداً عن القلب، وجعل ذلك الزبد هو مثل ذلك الباطل الذي لا منفعة فيه، وأما ما ينفع الناس من الماء والمعادن فهو مثل الحق النافع، فيستقر ويبقى في القلب.

وقد تقدم قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ﴿١﴾ إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴾ ﴿٢﴾، فأخبر سبحانه أن سبب إضلال أعمال هؤلاء الذين كفروا حتى لم تنفعهم، وأن أعمال هؤلاء الذين آمنوا نفعتهم، فكفرت سيئاتهم وأصلح الله بالهم: أن هؤلاء اتبعوا الباطل قولاً وعملاً اعتقاداً واقتصاداً خيراً وأمراً وهؤلاء اتبعوا الحق من ربهم، ولم يتبعوا ما هو من غير ربهم، وإن كان حقاً من وجه.

وهذا تحقيق ما قلناه، فإن الخبر والعمل تابع للمخبر عنه، وللمقصود بالعمل فإذا كان ذلك باطلاً لا حقيقة له كان التابع كذلك، وإن كان موجوداً.

وكذلك ما تقدم من قوله: ﴿ لَا يُبْطَلُوا صِدْقَتِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقوله: ﴿ وَلَا يُبْطَلُوا أَعْمَالُكُمْ ﴾ ونحو ذلك من إبطال ما قد مضى ووجد، إنما هو عدم لعدم فائدته لا عدم ذاته فإن ذاته انقضت كما انقضت ما لم يبطل من الأعمال، فكيف يقال: لا باطل في

الوجود؟ ثم يجعل هذا ذريعة إلى أن ذلك الموجود الذي فيه الحق والباطل هو عين الله؛ لأنه هو الحق، ولا يميز بين الحق الخالق والحق المخلوق؟ فتدبر، كيف اشتمل مثل هذا الكلام على هاتين المقدمتين الباطلتين؟ وكيف استزلوا عقول الضعفاء بهذه الشبهة؟ ا. هـ^(١).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (٢).

(وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين) ا. هـ^(٢).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ (٣).

(وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فوصف المؤمنين بأنهم اتبعوا الحق من ربهم ومن اتبع الحق كان محققاً.

والمؤمنون اتبعوا الحق من ربهم، فهم أحق الناس بالتحقيق، وإذا كان المؤمنون هم المحققين، ومن نعتهم أنهم إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، كان الموصوفون بنقيض ذلك ليسوا من المحققين عند الله وعند رسوله بل من المحققين عند إخوانهم، كما أن اليهود والنصارى والمشركين، وكل طائفة من المحققين عند من وافقهم على أن ما يقولونه حق) ا. هـ^(٣).

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾.

(وقوله في القرآن: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ يقتضي فعل أحد الأمرين؛ وذلك لا يمنع تغيير هذا في حال وهذا في حال، كما في قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَوْنَ بِنَا إِلَّا إِحْدَىٰ الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرَبِّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] فترصد أحد الأمرين لا يمتنع بعينه إذا كان الجهاد فرضاً علينا بعض الأوقات فحينئذ يصيبه الله بعذاب بأيدينا، كما في قوله: ﴿قَتَلُوهُمْ يَءُدُّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ

(١) مجموع الفتاوى (٢/٤١٦ - ٤٢٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/١٩٨ - ١٩٩).

(٣) درء تعارض العقل (٥/٣٣٧).

عَلَيْهِمْ وَيَسْفُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴿التوبة﴾ ولهذا كان عند جميع العلماء قوله تعالى في المحاربين: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣] لا يقتضي أن الإمام يخير تخيير مشيئة) ا.هـ (١).

﴿وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيبِكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكْنَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ ﴿١٥﴾.

(وقال الله فيها: ﴿وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيبِكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ﴾ ثم لما فتحها النبي ﷺ صارت دار إسلام، وهي في نفسها أم القرى وأحب الأرض إلى الله) ا.هـ (٢).

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ زَبَبٍ كَنْ هُوَ خَلِيلٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ﴿١٦﴾.

(قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ فتغير الطعم استحالته من الحلاوة إلى الحموضة) ا.هـ (٣).

﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿١٧﴾.

(وفي مثل قوله: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿١٧﴾ فدل على أنهم لم يكونوا يفقهون القرآن) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية، فأخبر أنهم كانوا يقولون لأهل العلم: ماذا قال الرسول في هذا الوقت المتقدم فدل على أن أهل العلم من الصحابة كانوا يعرفون من معاني كلام رسول الله ﷺ ما لا يعرفه غيرهم، وهؤلاء هم الراسخون في العلم الذين يعلمون معاني القرآن محكمه ومتشابهه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [العنكبوت] فدل على أن العالمين يعقلونها وإن كان غيرهم لا يعقلها) ا.هـ (٥).

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٤٢٨ - ٤٢٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/١٤٣).

(٣) درء تعارض العقل (٤/٧٢).

(٤) منهاج السنة (٥/١٤١).

(٥) مجموع الفتاوى (١٧/٤٢٨ - ٤٢٩).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَعِجِ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِن عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَفَقُلْنَا أَوْلَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۗ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَاهُم تَقْوَاهُمْ ۗ﴾ (٧)، فذكر الذين أوتوا العلم وهم الذين يعلمون أن ما أنزل إليه من ربه الحق، ويفقهون ما جاء به، وذكر المطبوع على قلوبهم فلا يفقهون إلا قليلاً الذين اتبعوا أهواءهم: يسألونهم ماذا قال الرسول آنفاً وهذه حال من لم يفقه الكتاب والسنة بل يستشكل ذلك فلا يفقهه، أو قرأه متعارضاً متناقضاً، وهي صفة المنافقين.

ثم ذكر صفة المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ ۗ﴾ زيادة الهدى وهو ضد الطبع على قلوب أولئك وآتاهم تقواهم وهو ضد اتباع أولئك الأهواء.

فصاحب التقوى ضد صاحب الأهواء، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ﴾ [٤٠] فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿١﴾ [النازعات]، وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لَمَمِيَّةً حَمِيَّةً الْجَنَّةِيَّةَ فَنَزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦] ١. هـ^(١).

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (٨).

(قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ فبالتوحيد يقوى العبد ويستغنى ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، وبالاتسغفار يغفر له ويدفع عنه عذابه، ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فلا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد؛ فإنه لا بد له منه، وإذا لم يحصل له لم يزل فقيراً محتاجاً معذباً في طلب ما لم يحصل له والله تعالى: ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] وإذا حصل مع التوحيد الاستغفار: حصل له غناه وسعادته، وزال عنه ما يعذبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (كقوله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فالمؤمنون يستغفرون مما كانوا تاركيه قبل الإسلام من توحيد الله وعبادته وإن كان ذلك لم يأتهم به رسول بعد كما تقدم، والرسول يستغفر من ترك ما كان تاركه كما قال فيه: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] وإن كان

ذلك لم يكن عليه عقاب، والمؤمن إذا تبين له أنه ضيع حق قرابته أو غيره استغفر الله من ذلك وتاب وكذلك إذا تبين له أن بعض ما يفعله هو مذموم) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فتوبة المؤمنين واستغفارهم هي من أعظم حسناتهم، وأكبر طاعاتهم، وأجل عباداتهم التي ينالون بها أجل الثواب، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب) ا.هـ^(٢).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

(وكذلك قال في «سورة محمد ﷺ»: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ أي فبعداً لهم ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات] فحصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد) ا.هـ^(٣).

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا ﴿١٤﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا ﴿١٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَزِيَّتْ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء]، فإذا كان قد حض الكفار والمنافقين على تدبره: علم أن معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها فكيف لا يكون ذلك ممكناً للمؤمنين وهذا يبين أن معانيه كانت معروفة بينة لهم) ا.هـ^(٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ لَمْ يَعْلَمُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَذْبَحُوا بِحُلُوبِهِمْ فَوَجَدُوا فِيهَا غَوْلًا حَقًّا يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ يَكْبِتُونَ رُءُوسَهُمْ وَمِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَلَوْنَ كَيْبَهُمْ فِي يَدَيْهِمْ فَصَدَّقُوا بِاللَّذِّ إِذْ يَبْلُغُونَ الْأُمَّةَ هُوَ أَعْتَدَ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

(وكذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ لَمْ يَعْلَمُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَذْبَحُوا بِحُلُوبِهِمْ فَوَجَدُوا فِيهَا غَوْلًا حَقًّا يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ يَكْبِتُونَ رُءُوسَهُمْ وَمِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَلَوْنَ كَيْبَهُمْ فِي يَدَيْهِمْ فَصَدَّقُوا بِاللَّذِّ إِذْ يَبْلُغُونَ الْأُمَّةَ هُوَ أَعْتَدَ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾﴾ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿١٦﴾ فكيف إذا توفقتهم الملائكة بضربوت وجوههم وأذبتهم ﴿١٧﴾ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴿١٨﴾﴾، فقد أخبر

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/٥٣).

(١) مجموع الفتاوى (١١/٦٩٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/١٥٧ - ١٥٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٣٨).

سبحانه أن هؤلاء ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، وأن الشيطان سول لهم وأملى لهم أي وسع لهم في العمر وكان هذا بسبب وعدهم للكفار بالموافقة، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾، ولهذا فسر السلف هؤلاء الذين كرهوا ما نزل الله الذين كانوا سبب نزول هذه الآية بالمنافقين واليهود) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ وَالشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ ٢٥ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ٢٦)، وتبين أن موالاته الكفار كانت سبب ارتدادهم على أديبارهم، ولهذا ذكر في «سورة المائدة» أئمة المرتدين عقب النهي عن موالاته الكفار قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] ١. هـ^(٢).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ٢٧. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ٢٨ ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ مَا يَسْخَطُ اللَّهُ بِرِضَاةٍ وَعَمَلِهِ فَقَدْ آسَخَطَ اللَّهُ﴾ ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ فإنه يدل على أن أعمالهم أسخطته، فهي سبب لسخطه، وسخطه عليهم بعد الأعمال لا قبلها) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (والله تعالى يقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ فأخبر أن أفعالهم أسخطته) ١. هـ^(٥).

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلَمَرَفَنَّهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ٢٩. (وقال الله تعالى في صفة المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلَمَرَفَنَّهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فجعل للمنافقين سيما أيضاً) ١. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلَمَرَفَنَّهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ وهو جواب قسم محذوف أي والله لتعرفهم في لحن القول فمعرفة المنافق

(٢) مجموع الفتاوى (١٩٣/٢٨).

(١) منهاج السنة (٢٨٧/٥).

(٣) الاستقامة (١٢١/٢).

(٤) جامع الرسائل (١٥/٢) مجموع الفتاوى (٢٢٦/٦).

(٦) الاستقامة (٣٥٤/١).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣٣/١٢).

في لحن القول لا بد منها، وأما معرفته بالسيما فموقوفة على المشيئة) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فأخبر أنه لا بد أن يعرف المنافقين في لحن القول، وأن معرفتهم بالسيما معلقة بالمشيئة، والمنافق الكاذب يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فبين أنه في لحن قوله يعلم أنه كاذب) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (فإن الوسم علامة مقصودة للواسم وأما السيماء فهي علامة بنفسها لم يقصدها مثل سيماء المؤمنين وسيما المنافقين قال تعالى في المؤمنين: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال في المنافقين ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ وقال: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٌ﴾ [القلم] قيل له زمة من الشر يعرف بها أو منه سيماء المؤمنين يوم القيامة التي بها يعرفهم نبيهم وهو أنهم غر محجلون من آثار الوضوء) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فأقسم أنه لا بد أن يعرف المنافقين في لحن القول وعلق معرفتهم بالسيما على المشيئة لأن ظهور ما في نفس الإنسان من كلامه أبين من ظهوره على صفحات وجهه.

وقد قيل: ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فهو يعلم من السيماء ومن لحن القول ما لم يقصدوا الإعلام به) ا.هـ (٥).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ وقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فالمضمر للكفر لا بد أن يعرف في لحن القول، وأما بالسيما فقد يعرف وقد لا يعرف) ا.هـ (٦).

(١) مجموع الفتاوى (٤/١١٠).

(٢) الجواب الصحيح (٦/٤٨٦).

(٣) النبوات (١٨٦).

(٤) الفتاوى الأصبهانية (٥/٨٠ - ٨١)، والأثر هذا لعثمان بن عفان كما ذكرها شيخ الإسلام مراراً.

(٥) درء تعارض العقل (١٠/٢٠١ - ٢٠٢). (٦) منهاج السنة (٨/٤٧٤).

وقال رحمه الله: (وهي العلامة قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فمعرفة المنافقين في لحن القول ثابتة مقسم عليها، لكن هذا يكون إذا تكلموا، وأما معرفتهم بالسيما فموقوف على مشيئة الله؛ فإن ذلك أخفى) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (والله قد أخبر في القرآن أن ذلك قد يظهر في الوجه، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ فهذا تحت المشيئة، ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فهذا مقسم عليه محقق لا شرط فيه) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قيل ما يستقر في القلب من إيمان ونفاق، لا بد أن يظهر موجه في القول والعمل، كما قال بعض السلف: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها على صفحات وجهه، وفتلات لسانه)^(٣)، وقد قال تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال الله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾) ﴿١٩﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، فأخبر سبحانه أنه لو شاء لعرفهم رسوله بالسيما في وجوههم ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فأقسم أنه لا بد أن يعرفهم في لحن القول، ومنهم من كان يقول القول أو يعمل العمل، فينزل القرآن يخبر أن صاحب ذلك القول والعمل منهم كما في سورة براءة) ١. هـ^(٥).

﴿وَلَتَبْلُوَنَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوَنَا أَعْبَارَكُمْ﴾ ﴿٢١﴾

(وقد حكى القولين عن أهل السنة - في الإرادة - والسمع والبصر، أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي في كتاب «فهم القرآن» فتكلم على قوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾ ونحوه، وبين أن علم الله قديم؛ وإنما يحدث المعلوم.

إلى أن قال: وذلك موجود فينا، ونحن جهال وعلما محدث، قد نعلم أن كل إنسان ميت، فكلما مات إنسان قلنا: قد علمنا أنه قد مات، من غير أن نكون من قبل موته جاهلين أنه سيموت إلا أنا قد يحدث لنا اللحظ من الرؤية وحركة القلب إذا نظرنا إليه ميتاً، لأنه ميت والله لا تحدث فيه الحوادث.

(١) مجموع الفتاوى (١٧/١١٨). (٢) الاستقامة (١/٣٥٥٩).

(٣) هذا الأثر عن عثمان ذكره ابن كثير في تفسير سورة محمد.

(٤) مجموع الفتاوى (٧/٦٢٠). (٥) الصارم المسلول (٣٦٣).

إلى أن قال: وكذلك قوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧] وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [الإسراء: ١٦] وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ١٠١] هـ^(١).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ قال الحسن: بالمعاصي والكبائر، وعن عطاء: بالشرك والنفاق، وعن ابن السائب: بالرياء والسمعة وعن مقاتل: بالمن وذلك أن قوماً منوا بإسلامهم فما ذكر عن الحسن يدل على أن المعاصي والكبائر تحبط الأعمال^(٢). فإن قيل: لم يرد إلا أبطالها بالكفر.

قيل: ذلك منهي عنه في نفسه وموجب للخلود الدائم فالنهي عنه لا يعبر عنه بهذا بل يذكره على وجه التغليظ كقوله: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ [المائدة: ٥٤] ونحوها والله سبحانه في هذه وفي آية المن سماها إبطالاً ولم يسمه إحباطاً ولهذا ذكر بعدها الكفر بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَأْتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الآية [محمد: ٣٤]. فإن قيل: المراد إذا دخلتم فيها فأتموها، وبها احتج من قال: يلزم التطوع بالشروع فيه.

قيل: لو قدر أن الآية تدل على أنه منهي عن إبطال بعض العمل، فإبطاله كله أولى، بدخلوه فيها فكيف وذلك قبل فراغه لا يسمى صلاة ولا صوماً؟! ثم يقال: الإبطال يوجد قبل الفراغ أو بعده وما ذكره أمر بالإتمام والإبطال هو إبطال الثواب ولا نسلم أن من لم يتم العبادة يبطل جميع ثوابه، بل يقال: أنه يثاب على ما فعل من ذلك، وفي الصحيح حديث المفلس «الذي يأتي بحسنات أمثال الجبال»: ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ الإبطال هو بطلان الثواب، ولا يسلم بطلان جميعه بل قد يثاب على ما فعله فلا يكون مبطلاً لفعله) ا. هـ^(٤). ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْوِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَ أَعْمَالَكُمْ﴾. (وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ في النصرة لكم على عدوكم) ا. هـ^(٥).

(١) مجموع الفتاوى (٦/١٨١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٦٣٩ - ٦٤٠).

(٣) بيان تليس الجهمية (٢/٥٥١) درء تعارض العقل (٦/١٤٦).

(٤) هذا النقل من زاد المسير.

(٥) مجموع الفتاوى (٤/٦٦).

(وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿هَاتِنْتَهُ هَتُولَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْعَلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْعَوِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٧٨) فقد أخبر تعالى أنه من يتولى عن الجهاد بنفسه أو عن الإنفاق في سبيل الله استبدل به.

فهذه حال الجبان البخيل يستبدل به من ينصر الإسلام وينفق فيه فكيف تكون حال أصل [الإسلام]^(١) من ارتد عنه؟ أتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ إنهم من أبناء فارس^(٣) إلى غير ذلك من آثار رويت في فضل رجال من أبناء فارس) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وأن «لفظ» المثل و«المساوي» متفيان في لغة العرب عما ادعوا هم تماثلهما وتساويهما، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ فقد نفى التماثل عن صنفين من بني آدم نفى التماثل عن الحيوان، والإنسان، والفلك، والتراب أولى.

فعلم أنه ليس في لغة العرب أن يكون كل ما كان متحيزاً مماثلاً لكل ما هو متحيز، وإن ادعى بعض المتكلمين تماثل ذلك عقلاً فالمقصود أن هذا ليس مثلاً في اللغة.

والقرآن نزل بلغة العرب، فلا يجوز حمله على اصطلاح حادث ليس من لغتهم لو كان معناه صحيحاً فكيف إذا كان باطلاً في العقل؟! ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ فقد بين أنه يستبدل قوماً لا يكونون أمثال المخاطبين فقد نفى عنهم المماثلة مع اشتراكهم فيما ذكرناه) ا. هـ^(٦).

(١) هكذا ورد في المطبوع ولعل الصواب [إسلام] من حاشية مجموع الفتاوى.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٠١/١٨ - ٣٠٢).

(٣) الترمذي (٣٢٦١)، والطبري (٦٦/٢٦ - ٦٧)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/١ - ٣) والبيهقي في الدلائل (٣٣٤/٦) والحديث حسن إن شاء الله.

(٤) اقتضاء الصراط (٣٦٥/١ - ٣٦٦). (٥) درء تعارض العقل (٧/٦).

(٦) درء تعارض العقل (١١٦/١).

فهرس الجزء الخامس

الموضوع

الصفحة

تفسیر سورة الفرقان

- ٩ - ٥ الكلام على قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ...﴾
- ٥ الكلام على لفظ: (العبد) في القرآن
- ٩ - ٦ الكلام على معنى (الفرقان)
- ١٢ - ١٠ الكلام على قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرْتَهُ...﴾ الآيات
- ١٢ تفسير قوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾
- ١٢ تفسير قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾
- ١٣ - ١٢ تفسير قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾
- ١٤ - ١٣ الكلام على قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِسَلِّ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْسِيمًا﴾
- ١٤ بيان أن الله لم يعاقب المكذبين إلا بعد أن أقام عليهم الحجة
- ١٦ - ١٤ الكلام على قوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ...﴾
- ١٥ إذا أمر الله بشيء فعدل عنه العبد إلى ما يحبه هو كان عابداً لهواه
- ١٦ تفسير قوله: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾
- ١٨ - ١٦ الكلام على قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾
- ١٨ - ١٦ الرد على الرافضي في زعمه أن علياً هو المقصود بهذه الآية
- الكلام على الاستثناء في قوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلًا
- ١٨ رِيَّهُ سَبِيلًا﴾
- ١٩ - ١٨ تفسير قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمٰنُ فَسَأَلَ بِهِ جِبْرًا﴾
- ٢١ - ١٩ تفسير قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً...﴾
- ٢١ - ١٩ الكلام على التذکر والشكر
- ٢١ الكلام على قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَسْتَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...﴾
- الكلام على قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
- ٢٩ - ٢١ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾
- ٢٥ - ٢٢ قال الفقهاء: أكبر الكبائر الكفر ثم قتل النفس بغير حق ثم الزنا، تحرير ذلك

الصفحة

الموضوع

- ٢٢ بيان أن الظلم ثلاث مراتب
- ٢٨ - ٢٥ قوى الأفعال في النفس إما جذب وإما دفع
- ٢٦ - ٢٥ بيان أنقسام الأمم بحسب القوى الثلاث العقلية والشهوية والغضبية
- ٢٦ وباعتبار هذه القوى كانت الفضائل ثلاثاً
- ٢٧ - ٢٦ وباعتبار القوى الثلاث كانت الأمم الثلاث
- ٢٧ جنس القوة الشهوية الحب وجنس القوة الغضبية البغض
- ٢٨ - ٢٧ بيان أصل صدور فعل المأمور وترك المنهي عنه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٢٨ الكلام على المحبوب والمكروه في الطبع والشرع
- ٢٨ الكلام على الرزق والنصر
- ٢٩ - ٢٨ الكلام على المانع والمقتضى
- ٢٩ بيان عظم التقوى
- ٣٠ - ٢٩ الانحراف في المحبة
- تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ...﴾
- ٣٠ تفسير قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾
- ٣٣ - ٣٠ الكلام على النهي عن حضور أعياد المشركين
- ٣٣ - ٣٠ تفسير قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾
- ٣٣ تفسير قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ...﴾
- ٣٤ - ٣٣

تفسير سورة الشعراء

- ٣٥ الكلام على الكهان والشعراء
- ٣٦ تفسير قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾
- ٣٦ تفسير قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ﴾
- ٣٧ - ٣٦ الكلام على قوله: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِبَابِنَنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ﴾
- ٣٧ الكلام على قصة موسى وفرعون
- ٣٩ - ٣٧ بيان أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة
- ٤٤ - ٤٢ - ٤٠ - ٣٩ بيان أن قول فرعون ﴿وَمَا رَبِّي الْعَلَمِينَ﴾ استفهام إنكار وجحد
- ٤٤ - ٤١ - ٤٠ بيان أن اليقين بالخالق من العلوم الضرورية
- ٤٠ الكلام على اليقين
- ٤٢ إيراد إشكال والجواب عنه

- ٤٣ - ٤٢ لم يكن جحود الصانع ديناً غالباً على أمة من الأمم قط
- ٤٥ الكلام على قوله: ﴿وَأَلْفَى السَّحَرَةَ سَجِيدِينَ ﴿١٦٢﴾﴾
- ٤٥ الكلام على قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَوْنَا الْجَمْعَانَ قَالِ اصْحَبْ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُرُونَ ﴿١٦١﴾﴾
- ٤٥ بيان أن الإدراك هنا إدراك القدرة
- ٤٦ تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَى اللَّهُ بِقَلْبِ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾
- ٤٦ الكلام على قوله: ﴿إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّي الْعَلَمِينَ ﴿١٦٨﴾﴾
- ٤٧ الكلام على قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٥﴾﴾
- ٤٧ الكلام على تكذيب الأمم لرسولهم
- ٤٨ الكلام على قوله: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾
- ٤٨ أهل الرئاسة والشرف أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله
- ٤٩ - ٤٨ الكلام على قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٤﴾﴾
- ٤٩ تفسير قوله: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٣﴾﴾
- ٤٩ بيان أن الغيرة مستلزمة لقوة الغضب
- ٥٠ - ٤٩ تفسير قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٦﴾﴾
- ٥٠ الكلام على قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٦﴾﴾
- ٥٣ - ٥١ الكلام على قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٦٧﴾﴾
- ٥٩ - ٥٣ الكلام على قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿١٦٨﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١٦٩﴾﴾
- ٥٥ لا ينزل الشيطان على الصادق البار إنما ينزل على الكاذب الأثيم
- ٦١ - ٥٨ - ٥٥ الكلام على قوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَونُ ﴿١٦٩﴾﴾
- ٥٦ بيان أن الخطأ في الدين من الشيطان
- ٥٧ بيان أن كل من تكلم بلا علم فأخطأ فهو كاذب
- ٥٨ الذكر خلاف الشعر
- ٦٠ - ٥٨ الكلام على الشعر وأنواعه
- ٦١ - ٥٩ الكلام على الكاهن والشاعر
- ٥٩ بيان أن المحدث يجوز أن يقر على بعض الخطأ ويدخل الشيطان في أمنيته فلا ينسخ بخلاف النبي
- ٦٠ الغوي الذي يتبع هواه بغير علم، والضال الذي لا يعلم مصلحته
- ٦٣ - ٦٢ تفسير سورة النمل
- ٦٣ - ٦٢ الكلام على قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورِي أَنْ بُورِكِ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

- ٦٣ بيان أنه ناداه حين جاء، لم يكن النداء في الأزل
- ٦٤ - ٦٣ تفسير قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمٰنُ دَاوُدَ﴾
- ٦٤ تفسير قوله: ﴿وَأُوْتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾
- ٦٥ الكلام على قوله: ﴿قُلْ لَعَنَدُ لِلّٰهِ وَسَلٰمٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذِيْنَ اصْطَفٰٓهُ﴾
- ٦٥ الاصطفاء يقتضي التصفية وذلك لا يكون مع الإصرار على الذنب
- ٦٦ - ٦٥ تفسير قوله: ﴿ءَاَللّٰهُ خَيْرٌ اَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾
- ٦٧ - ٦٦ تفسير قوله: ﴿اَوَلَيْسَ مَعَ اللّٰهِ﴾
- ٦٧ تفسير قوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ الْغَيْبَ اِلَّا اللّٰهُ...﴾
- ٦٨ تفسير قوله: ﴿اِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ﴾
- ٦٨ الكلام على قوله: ﴿صُنِعَ اللّٰهُ الَّذِيْۤ اَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾

تفسير سورة القصص

- ٦٩ كل عمل لا يكون طاعة لله فهو باطل
- ٧٠ - ٦٩ الكلام على قوله: ﴿اِنَّ فِرْعَوْنَ عَلٰى فِي الْاَرْضِ﴾
- ٧٠ بيان أنقسام الناس في إرادة الفساد والعلو إلى أربعة اقسام:
- ٧٠ تفسير الإيحاء في قوله: ﴿وَاَوْحَيْنَا اِلَيْكَ اٰرَۤا مَوْسٰٓ﴾
- ٧١ - ٧٠ الكلام على اللام في قوله: ﴿فَاَلْقٰنٰهُۤ اِلَى الْفِرْعَوْنَ لِيَكُوْنَ لَهُمْ عَدُوًّا وَّحَرٰٓئِمًا﴾
- ٧١ تفسير قوله: ﴿وَاَصْبَحَ فُؤَادُ اٰرَۤا مَوْسٰٓ قَدْرًا﴾
- ٧١ الكلام على قوله: ﴿وَوَدَخَلَ الْمَدِيْنَةَ عَلٰى حِيْنَ غَفَلُوْا مِنْ اَهْلِهَا...﴾ الآية
- ٧١ الكلام على قوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ اَقْصَا الْمَدِيْنَةِ يَسْعٰٓ﴾
- ٧٥ - ٧٢ الكلام على قوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِيْنَةٍ وَجَدَ عَلَيْهِ اُمَّةً مِّنَ النَّكٰٓسِ...﴾
- ٧٥ - ٧٢ بيان أن صاحب مدين ليس بشعيب النبي ﷺ
- ٧٦ - ٧٥ الكلام على قوله: ﴿فَلَمَّا اٰتٰهَا نُودِيَ مِنْ شٰطِئِ الْوَادِ الْاَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ...﴾
- ٧٦ بيان أن نداءه سبحانه ومناجاته قائمة به ليس ذلك مخلوقاً منفصلاً عنه
- ٧٧ - ٧٦ الكلام على قوله: ﴿فَلذٰلِكَ بُرَهٰنٰنَا مِنْ رَبِّكَ﴾
- ٧٧ تفسير قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يٰٓاَيُّهَا الْمَلٰٓئِكَةُ﴾
- ٧٩ - ٧٨ الرد على من يقول أن فرعون في الجنة وبيان أنه داخل في آل فرعون الملعونين بلا نزاع
- ٧٩ - ٧٨ بيان أن لفظ (آل فلان) يدخل فيها ذلك الشخص
- ٨١ - ٨٠ الكلام على قوله: ﴿وَلَقَدْ اٰتَيْنَا مُوسٰٓ الْكِتٰبَ مِنْۢ بَعْدِ مَا اَهْلَكْنَا الْقُرُوْنَ الْاُولٰٓءِ...﴾

الموضوع

الصفحة

- الكلام على قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِمِائِنِ الْفَرِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ...﴾ ٨٢ - ٨١
- تفسير قوله: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهِرَا﴾ ٨٣ - ٨٢
- تفسير قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِمَّا أَتَيْتَهُ...﴾ ٨٣ - ٨٢
- تفسير قوله: ﴿فَإِن لَّرِيسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ...﴾ ٨٥ - ٨٣
- الأهواء هي إرادات النفس بغير علم، وأصل الهوى محبة النفس ٨٤ - ٨٣
- اتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات ٨٤
- الكلام على قوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ٨٥
- الكلام على قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ...﴾ ٨٧ - ٨٦
- بيان أن الاهتداء الذي في القلب لا يقدر عليه إلا الله ولكن العبد يقدر على أسبابه ٨٧
- تفسير قوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا...﴾ ٨٧
- الكلام على قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ٨٨ - ٨٧
- تفسير قوله: ﴿وَقِيلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ٨٨
- الكلام على قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ...﴾ ٨٨
- الاختيار في لغة القرآن يراد به التفضيل والاصطفاء ٨٩ - ٨٨
- قصة قارون ٩٠ - ٨٩
- الكلام على تفسير الثعلبي ٨٩
- بيان أن الثياب الحمر معيبة مذمومة ٩٠ - ٨٩
- تفسير قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْمَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا...﴾ ٩٠
- الكلام على قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ حَيْرٌ مِّمَّا نَهَا...﴾ ٩١ - ٩٠
- الكلام على قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ١٠٢ - ٩١
- لم يكن النبي ﷺ مشركاً قط لا سيما بعد النبوة ٩٣
- بيان أن معنى الآية: كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه ٩٦ - ٩٣
- الرد على الحلولية والاتحادية ٩٥ - ٩٤
- الكلام على استعمال لفظ (الهلاك) في القرآن ٩٧ - ٩٦
- اسم الوجه في الكتاب والسنة إنما يذكر في سياق العبادة له والتوجه إليه ٩٧
- بيان أن لفظ «الوجه» يشبه أن يكون في الأصل مثل الجهة ٩٨
- قول بعض الفقهاء: أن الوجه مشتق من المواجهة لا دليل عليه، وإنما المواجهة مشتق من الوجه ٩٩
- أما اشتقاق الوجه الذي هو المتوجه من الوجه الذي هو التوجه فهذا أشبه ٩٩

- ١٠٢ قد جاء الوجه في صفات الله في مواضع من الكتاب والستة
- ١٠٢ الحكم فيما لو قال لعبده: يدك أو رجلك حر، أو قال لزوجته: يدك أو رجلك طالق ..

تفسير سورة العنكبوت

- ١٠٣ تفسير قوله: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾
- ١٠٣ بيان أنه لا بد من الفتنة وهي الامتحان والاختبار
- ١٠٥ - ١٠٤ تفسير قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ...﴾
- ١٠٥ تفسير قوله: ﴿وَلْيَحْزَنْ أُنْفُسًا كَفَتْ بِهَا رَأْسُهَا وَأُنْفُسًا كَفَتْ بِهَا رَأْسُهَا﴾
- ١٠٥ ألفاظ العدد نصوص مع جواز ورود الاستثناء عليها كما قال: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمِينَكَ عَامًا﴾
- ١٠٥ تفسير قوله: ﴿وَأَنزَلْنَاهُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ...﴾
- ١٠٦ الكلام على قوله: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَنزِلُ الصَّلَاةَ﴾
- ١٠٩ - ١٠٦ الكلام على قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾
- ١٠٩ - ١٠٧ بيان أن ذكر الله في الصلاة أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر
- ١٠٩ - ١٠٨ بيان فضل الذكر
- ١١٣ - ١٠٩ تفسير قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ﴾
- ١١٠ بيان فضل القرآن الكريم
- ١١٠ الكلام على قوله: ﴿فِي صُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾
- ١١٣ - ١١١ الكلام على مجادلة اليهود والنصارى
- ١١٢ بيان أن قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ...﴾ الآية، ليست منسوخة
- ١١٣ الكلام على قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ﴾
- ١١٣ تفسير قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾
- ١١٤ الكلام على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾
- ١١٤ الكلام على شرع من قبلنا
- ١١٥ - ١١٤ الكلام على قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾
- ١١٥ - ١١٤ ربما كان الكاذب عليه أعظم إثماً من المكذب له، وكذلك في الصادق
- ١١٥ الكلام على قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾

تفسير سورة الروم

- ١٢٠ - ١١٦ الكلام على أول السورة، وقوله تعالى: ﴿... وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾

الموضوع

الصفحة

- ذكر مراهنه أبي بكر الصديق المشركين ١١٦ - ١٢٠
- قال شيخ الإسلام: وناظرهم أبو بكر قبل تحريم ذلك ١١٩
- بيان أن هذه المراهنة ليست من القمار ١٢٠
- تفسير قوله: ﴿أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ...﴾ ١٢٠
- الكلام على قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ ١٢٠ - ١٢١
- التنعم بالشيء في الآخرة لا يقتضي أن يكون مباحاً في الدنيا كالغناء ولبس الحرير ١٢١
- الكلام على قوله: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ نُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ ١٢١ - ١٢٢
- الصلاة أعظم التسييح ١٢١
- الكلام على قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ١٢٢
- الكلام على قوله: ﴿كُلُّ لَهٍ فَتَنُونَ﴾ ١٢٢
- تفسير قوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ١٢٣
- قياس الأولى والأخرى من المثل الأعلى ١٢٣
- الكلام على قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ ١٢٣ - ١٢٨
- بيان أن الله أحق بكل كمال من كل أحد ١٢٤ - ١٢٥
- بيان أن ملك الناس بعضهم بعضاً ناقص ١٢٦
- الكلام على الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية ١٢٦
- بيان أن الله تعالى هو الذي يجب أن يُرجى وأن يُخاف ١٢٧
- بيان أن الضر والنفع بيد الله وحده ١٢٧
- في معصية أمر الله تعالى الفساد الذي لا صلاح معه ١٢٧
- الكلام على قوله: ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ ١٢٨ - ١٨٥
- النفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية محبة له ١٢٨
- الكلام على الفطرة وبيان أنها الإسلام في الآية وفي قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» ١٢٨ - ١٣٧
- بيان أنه لا حجة للقدرية في قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة...» الحديث ١٣٢
- بيان معنى حديث: (الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً) ١٣٢ - ١٣٣ - ١٤٤ - ١٦٢ - ١٦٣
- بيان معنى قوله ﷺ: «أَوَ لَيْسَ خِيَارِكُمْ أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟» ١٣٣
- الحنيف في كلام العرب: المستقيم المخلص ١٣٥ - ١٣٦
- العلم القديم وما يجري مجراه لا يتغير ١٣٦

الصفحة

الموضوع

- الكلام على قوله: ﴿لَا بُدَّ لِي لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ ١٣٨ - ١٣٩
- تغيير ما خلق الله عليه عباده من الدين تغيير لخلقه ١٣٨ - ١٣٩
- الرد على القدرية في تأويلهم لحديث: «كل مولود يولد على الفطر» وبيانه أنه حجة عليهم من وجهين ١٣٩
- الكلام على حديث الحسن عن الأسود بن سريع في أولاد المشركين من كلام ابن عبد البر ١٤٠ - ١٤١
- بيان ضعف القول بأن معنى الفطرة البداءة ١٤٢ - ١٤٣
- كلام الإمام أحمد في تفسير الفطرة وبيان أنها الإسلام عنده ١٤٤ - ١٤٦
- المنقول عن الإمام أحمد في أطفال المشركين ١٤٦ - ١٤٧
- بيان أن أطفال المشركين يمتحنون مع من يمتحن في الآخرة ١٤٨ - ١٤٩ - ١٦٧
- النهي عن معارضة حق بحق إذ الواجب التصديق بهما جميعاً ١٥٠
- بيان أن أصل الاختلاف في القدر من رد بعض الحق ١٥١
- بيان أن الاختلاف في أطفال المشركين من ذلك أيضاً ١٥١
- ذم البغي ١٥٣
- ذم الكلام بغير علم، وبما يخالف الكتاب والسنة وبيان عاقبة ذلك ١٥٢ - ١٥٤
- وقيل: ومعنى قوله: «كل مولود يولد على الفطرة» أن الله فطرهم على الكفر والإيمان، بيان ضعف هذا القول ١٥٥ - ١٦٥
- بيان اختلاف الناس في حديث: (حج آدم موسى) وإيضاح الحق من ذلك ١٥٧ - ١٥٨
- الكلام على تفسير السدي ١٦٠
- الكلام على آية الميثاق والعهد الأول ١٥٩ - ١٦٠
- كفر الصبي المميز صحيح عند أكثر العلماء ١٦٢
- إذا ارتد الصبي المميز صار مرتداً ويؤدب على ذلك ولا يقتل حتى يبلغ ١٦٢
- يقتل الصبي الكافر إذا لم يندفع ضرره عن المسلمين إلا بالقتل ١٦٢ - ١٦٣
- الصبي يتبع أبويه في أحكام الدنيا ١٦٣ - ١٦٤
- ومتى سبي منفرداً عنهما صار تابعاً لسايه عند جمهور العلماء ١٦٤
- وإذا سبي منفرداً عن أحدهما أو معهما ففيه نزاع ١٦٤
- وقال أحمد وغيره: متى سبي منفرداً عن أبويه يصير مسلماً لحديث: «كل مولود يولد على الفطرة» ١٦٤
- بيان أن حكم الدار الآخرة غير حكم الدار الدنيا ١٦٥

الموضوع

الصفحة

- الكلام على الطفل إذا مات أبواه أو أحدهما، هل يحكم بإسلامه؟ ١٦٥ - ١٦٦
- تنازع الناس في أطفال المشركين على أقوال ١٦٦ - ١٦٧
- وقيل: معنى الفطرة المذكورة في المولودين ما أخذ الله من الميثاق، وهذا يحقق القول الأول ١٦٧ - ١٦٩
- الكلام على كفر الجحود ١٦٩
- بيان فساد منهج أهل المنطق والكلام ١٦٩
- وقيل: المعنى أن كل مولود يولد على السلامة خلقة وبنية ليس معها كفر ولا إيمان ١٦٩ - ١٧٠
- النفس بفطرتها قد يقوم بها من النظر والاستدلال ما لا يحتاج معه إلى كلام أحد ١٧٢
- بيان أن معرفة الله بالنسبة للطفل ضرورية لا محالة إذا لم يوجد معارض ١٧٣
- بيان أن في النفس قوة موجبة لحب الله والذل له وإخلاص الدين له ١٧٣
- بيان أن المحبة مشروطة بالعلم ١٧٤
- الحب للمحوبات جبلي فطري ١٧٤
- تقرير أصل الحنيفية التي خلق الله خلقه عليها وهي الفطرة ١٧٤
- بيان أنكار أهل البدع لما قاله العلماء في تأويل آية الميثاق ١٧٤
- أصل الدين الذي فطر الله عليه عباده: عبادة الله وحده، وحل الطيبات التي يستعان بها على المقصود ١٧٦
- الحنيفية السمحة هي أن نعبد وحده بفعل ما أحبه ونستعين على ذلك بما أحله ١٧٦
- تقرير منهج الفطرة وبيان أن بها قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة النافع ١٧٨
- بيان أن في الفطرة مرجحة للحنيفية ومقتضاها ١٧٨
- بيان بطلان كون موجب الفطرة لا يحصل قط إلا لمخاطب منفصل ١٧٨
- بيان أنه لا بد في الفطر ما يكون مستغنياً عن مخاطب منفصل في حصول موجب الفطرة ١٧٩
- بيان أن كثيراً من الناس يحتاج في تحصيل المعرفة إلى سبب معين للفطرة كالتعليم ١٧٩
- إذا لم يحصل مانع يمنع الفطرة وإلا استجابت لله ورسله لما فيها من المقتضي لذلك ١٨٠
- وبالجملة فحصول الفطرة قد يتوقف على سبب وقد لا يتوقف ١٨٠
- قد لا يحصل مقصود الفطرة لفوات الشرط أو وجود مانع ١٨٠
- تقرير أن في النفوس قوة تقتضي العلم والإرادة ١٨٠ - ١٨١
- بيان أنه لا بد للإنسان من مراد لنفسه وهو الإله الذي يأله القلب ١٨٢
- بيان أنه لا يمكن أن يكون مفطوراً على أن يأله غير الله لوجوه ١٨٢
- كما يمتنع أيضاً: أن يكون مطلوب النفس مطلق المألوه لا مألوهاً معيناً ١٨٢

- بيان أن الفطرة السليمة تقتضي معرفة الحق والعمل به ١٨٣
- بيان أن إسلام الوجه مستلزم لإسلام القلب ١٨٥
- تفسير قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) ١٨٥
- تفسير قوله: ﴿أَمْ أُنزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٥) ١٨٦
- تفسير قوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا...﴾ ١٨٦
- الكلام على قوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيئُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ ١٨٧ - ١٨٦
- بيان أن الربا نوعان: جلي وخفي ١٨٧ - ١٨٦
- الكلام على قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ ١٨٧
- تفسير قوله: ﴿فَأَقْرَهُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَئِيمِ...﴾ ١٨٧
- الكلام على قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٨٨ - ١٨٧
- بيان أن هذا الحق وغيره إنما جعله الله على نفسه ١٨٨
- الكلام على قوله: ﴿وَلَنْ كَانُوا مِن قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِغِينَ﴾ (٤٩) ١٨٩ - ١٨٨
- بيان أن إعادة الظرف ليس من التكرير المحض والتأكيد ١٨٩
- الكلام على قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ ١٨٩
- بيان أن النص الصحيح عن النبي ﷺ مقدم على تأويل من تأول من أصحابه ١٨٩
- تفسير قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ...﴾ ١٨٩
- تفسير قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ١٩٠
- تفسير قوله: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٦٥) ١٩٠
- تعريف اليقين ١٩٠

تفسير سورة لقمان

- تفسير قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِمَتَرٍ عَصِيْبٍ﴾ ١٩١
- تفسير قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَمْ يُسْتَخِرْ لَهَا مَن يَسْمَعُهَا...﴾ ١٩٢ - ١٩١
- بيان أن حجة الله قائمة بالممكنة، فليس من شرطها علم المدعوين بها ١٩١
- تفسير قوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ ١٩٣
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ١٩٣
- تفسير قوله: ﴿وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَن أَنَابَ إِلَيَّ﴾ ١٩٣
- بيان أن الأمة منيعة إلى الله فيجب اتباع سبيلها ١٩٣
- الكلام على قوله: ﴿يَبْنِي أَعْرَابَ الصَّلَاةِ وَأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾ ١٩٤ - ١٩٣

الموضوع

الصفحة

- بيان وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٩٣
- العادل من انتصر بعد ظلمه وليس بممدوح ولا مذموم ١٩٤
- يجب على الداعية أن يكون حليماً صبوراً وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح ١٩٤
- تفسير قوله: ﴿وَأَقْبِدْ فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ ١٩٤
- الكلام على قوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ ١٩٤ - ١٩٥
- طلب بالاستفهام تعيينه ولتقام عليهم الحجة ١٩٥
- الكلام على قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ...﴾ ١٩٥ - ١٩٦
- بيان أن كلام الله لا يتقضي ولا ينفد ولا نهاية له ١٩٦
- تفسير قوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ...﴾ ١٩٦

تفسير سورة السجدة

- الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا...﴾ ١٩٧ - ١٩٩
- بيان أن العرش خلق قبل خلق السماوات والأرض ١٩٧ - ١٩٨
- الكلام على قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الرَّبِّينِ﴾ ١٩٨ - ١٩٩
- الكلام على قوله: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ...﴾ ١٩٩ - ٢٠٠
- الكلام على قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي...﴾ ٢٠٠ - ٢٠١
- بيان أن القرآن من الله، منه بدأ وخرج ٢٠٠ - ٢٠١
- تفسير قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَمَرُوا سُجَّدًا...﴾ ٢٠١
- الكلام على قوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ ٢٠١
- الكلام على قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ...﴾ ٢٠١ - ٢٠٢
- حقيقة ما أعدّه الله لأولياته غيب عن الملائكة ٢٠٢
- الكلام على قوله: ﴿وَلَنُنذِرُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ ٢٠٣
- الكلام على قوله: ﴿وَحَمَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا...﴾ ٢٠٣ - ٢٠٤
- الإرادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر ٢٠٣
- إذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن سبباً لعلو الدرجة ٢٠٣
- بيان أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ٢٠٤
- الكلام على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ...﴾ ٢٠٤

تفسير سورة الأحزاب

- الكلام في عموم تفسير سورة الأحزاب ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢١٨

- جعل الله لمن جاهد فيه هداية جميع سبله ٢٠٥ - ٢٠٦
- فضل الجهاد في سبيل الله ٢٠٥ - ٢٠٦
- الكلام على غزوة الأحزاب وكيف تحزب أهل الكفر وأهل النفاق على المسلمين ٢٠٦ - ٢٠٨ - ٢١٥
- الكلام على قوله: ﴿فَيَطْمَعُ الْأَبْيَ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ ٢٠٧ - ٢٣٣
- المرض في القلب كالمرض في الجسد ٢٠٧
- لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه ٢٠٨
- بيان أن المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنبياء الصادقة التي توجب الأمن ... ٢٠٨
- الكلام على قوله: ﴿وَلَاذَ قَالَتْ طَافِيَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ ٢٠٨ - ٢٠٩
- مشابهة أعمال المنافقين زمان التتار بأعمال سلفهم زمان الأحزاب ٢٠٨ - ٢١٠
- الكلام على قوله: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ ٢١٠ - ٢١١
- الكلام على قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْرُوفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا...﴾ ٢١١ - ٢١٢
- الكلام على قوله: ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْحُوقُ رَأَيْتَهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ...﴾ ٢١٢
- بيان أن السلق بالأسنة الحادة من المنافقين يكون بوجوه ٢١٢
- تفسير قوله: ﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ ٢١٢ - ٢١٣
- الكلام على قوله: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا...﴾ ٢١٣
- الكلام على قوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾ ٢١٤
- الكلام على قوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ٢١٤ - ٢١٧
- الكلام على التتار وما جرى عليهم من الخزي ٢١٥ - ٢١٧
- من أعان ظالماً بلي به ٢١٧
- الرد على الرافضي في قوله: أن عمرو بن عبد ود لما قتل انهزم المشركون واليهود ٢١٨
- الكلام على عمرو بن عبد ود ٢١٨
- الكلام على قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ...﴾ ٢١٩
- الكلام على قوله: ﴿رَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ٢٢٠
- بيان كفاية الله لعبده المؤمن ٢٢٠
- الكلام على قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ٢٢٠ - ٢٢١
- بيان أن الولاء نظير النسب ٢٢١
- الكلام على قوله: ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ ٢٢١
- الشيخ والمعلم والمؤدب أب الروح والوالد أبو الجسم ٢٢٢

الموضوع

الصفحة

- لا يجوز للإنسان أن يطيع أباه في مخالفة معلمه الذي يأمره بما أمره الله ٢٢٢ - ٢٢٣
- أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين في الحرمة لا في المحرمية ٢٢٣ - ٢٦٥
- الأولوية المقتضية للميراث في قوله ﷺ: «فالأولى رجل ذكر» مشروطة بالإيمان ٢٢٣
- الكلام على قوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ...﴾ ٢٢٣
- بيان أن سائر ما أبيع للنبي ﷺ مباح لأتمته إلا ما خصه الدليل ٢٢٤ - ٢٢٦ - ٢٤٦ - ٢٤٧
- الفروج محظورة إلا بالتحليل الشرعي ٢٢٥
- بيان أن قوله: ﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ...﴾ يدل على أن الحجاب إنما أمر به الحرائر دون الإماء ٢٢٦
- بيان أن أموة المؤمنين لأزواجه دون سراريه ٢٢٦
- الكلام على قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ...﴾ ٢٢٧
- الكلام على قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُيُوتُ أَتَيْنَاكُمْ أَذْكَرُوا نِعْمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا...﴾ ٢٢٧ - ٢٢٨
- الكلام على قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عِنْدَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤْلُونَ الْأَدْبُرَ...﴾ ٢٢٨
- بيان أن عهد الله يدخل فيه ما عقده المرء على نفسه ٢٢٨ - ٢٢٩
- الكلام على قوله: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ...﴾ ٢٢٩
- الكلام على قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ ٢٢٩ - ٢٣٠
- الكلام على قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾ ٢٣٠ - ٢٣٢
- بيان ضعف قول من يقول: أن السراح والفراق صريح في الطلاق ٢٣٠ - ٢٣١
- استعمال القرآن لفظاً في معنى لا يقضي أن ذلك اللفظ لا يحتمل غير ذلك المعنى ٢٣٠
- القلب هو الأصل وإذا كان الأصل لم يعمل شيئاً لم يضر عمل الفروع دونه ٢٣١
- إذا حلف على شيء يظنه كما حلف تبيين بخلافه فهو من لغو اليمين ٢٣١
- ولو حلف على شيء في المستقبل ثم فعله ناسياً أو مخطئاً جاهلاً فكذلك ٢٣٢
- بيان أن من قال: لا لغو في الطلاق فلا حجة معه، بل عليه ٢٣٢
- تفسير قوله: ﴿بِنِسَاءِ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مِّنْ بَيْنِهِمْ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ...﴾ الآيات ٢٣٢
- الكلام على قوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ...﴾ ٢٣٣ - ٢٤٣
- الرد على الرافضي الخبيث ٢٣٣
- الأمر بالاستقرار في البيوت لا ينافي الخروج لمصلحة أمور بها ٢٣٣
- بيان أن الله تعالى أمر بطهارة القلب وطهارة البدن ٢٣٤

- لناس في تفسير (الآل) قولان مشهوران ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٩ - ٢٤٠
- بيان أن الصحيح أن أزواجه عليهم السلام من أهل بيته ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٧ - ٢٤٠
- وموالي أزواجه لا يدخلون في موالي آله ٢٣٥
- ذكر الخلاف في بني المطب؛ هل هم من آله الذين تحرم عليهم الصدقة ٢٣٥
- ليس في آية الطهارة إخبار بطهارة أهل البيت وذهاب الرجس عنهم وإنما فيها الأمر لهم
بما يوجب ذلك ٢٣٥ - ٢٣٧ - ٢٤١
- الكلام على أن حديث الكساء ليس دالاً على عصمة علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ٢٣٧
- بيان أن الإرادة في كتاب الله نوعان: شرعية وكونية ٢٣٨
- بيان أن علياً وفاطمة والحسن والحسين من أهل البيت وهم أخص بذلك من أزواجه ٢٣٩
- حديث «آل محمد كل مؤمن تقي» حديث موضوع لا أصل له ٢٣٥ - ٢٣٩
- بيان أن الأتقياء من أمته هم أولياؤه ٢٤٠
- أولياؤه المتقون بينه وبينهم قرابة الدين وهم أعظم من قرابة الطين ٢٤٠
- بيان أن أولياءه أعظم درجة من آله ٢٤٠ - ٢٤١
- بيان أن المفضول قد يختص بأمر ولا يلزم أن يكون أفضل من الفاضل ٢٤١
- بيان أن التطهير من الذنب يكون على وجهين ٢٤١
- الكلام على معنى (الرجس) ٢٤٢
- ليس من شرط المتقين أن لا يقع منهم ذنب ٢٤٣
- الكلام على قوله: ﴿وَيُطَهَّرُكَ تَطْهِيراً﴾ ٢٤٢ - ٢٤٣
- قد يكون من تمام تطهيرهم صيانتهم عن الصدقة ٢٤٣
- إذا دعا النبي صلى الله عليه وآله بدعاء أجابه الله بحسب استعداد المحل ٢٤٣
- الكلام على قوله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَشَاءُ فِي يَوْمِ يُبْعَثُونَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ ٢٤٣ - ٢٤٥
- بيان معنى الحكمة ٢٤٤ - ٢٤٥
- إذا ذكر لفظ الإسلام مع الإيمان تميز أحدهما عن الآخر ٢٤٥
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ ٢٤٥
- تفسير قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ ٢٤٥
- تفسير قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ ٢٤٥
- الكلام على قوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ ٢٤٧
- الكلام على أمر الله ٢٤٧
- تفسير قوله: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَةَ النَّبِيِّنَّ﴾ ٢٤٧

الموضوع

الصفحة

- تفسير قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ...﴾ ٢٤٨
- الكلام على قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٢٤٨ - ٢٥٠
- بيان أن السراج المنير أكمل من السراج الوهاج ٢٤٨ - ٢٥٠
- من دعا إلى غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع ٢٤٩
- بيان أن الشرك بدعة، والمبتدع يؤول أمره إلى الشرك ولم يوجد مبتدع إلا وفيه نوع من الشرك ٢٤٩
- بيان أنه لم يطرق الوجود شريعة أعظم من شريعته ﷺ ٢٥٠
- الكلام على قوله: ﴿وَلَا تَطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعَّ اٰذَنَهُمْ...﴾ ٢٥٠ - ٢٥١
- الكلام على قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ...﴾ ٢٥١
- بيان أن لفظ «السراج» و«الفراق» في القرآن مستعمل في غير الطلاق ٢٥١
- الكلام على العدة، وبيان أن فيها حق للآدمي ٢٥٢
- إذا خالف الخلفاء الراشدين غيرهم كان قولهم هو الراجع ٢٥٢
- ليس في القرآن طلاق بائن تباح فيه المرأة بعقد ولا يكون الزوج أحق به ٢٥٢
- الكلام على متعة المطلقة ٢٥٢
- الكلام على قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أٰمَلْنَا لَكَ اَزْوَاجَكَ...﴾ الآية ٢٥٢ - ٢٥٥
- التحريم بالرضاع ٢٥٣
- بيان أن من خصائصه ﷺ أن يتزوج الموهوبة بلا مهر ٢٥٣ - ٢٥٥
- وليس لغيره أن يستحل بضع امرأة إلا مع وجوب المهر ٢٥٣ - ٢٥٥
- يدخل في تحريم العمات والخالات عمات الأبوين وخالات الأبوين ٢٥٤
- وبالجملة تحرم عليه أصوله وفروعه وأصوله البعيدة دون بنات العم والعمات وبنات الخال والخالات ٢٥٤
- الكلام على قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ...﴾ ٢٥٥ - ٢٥٧
- الآية ٢٥٥ - ٢٥٧
- من نكح أزواجه ﷺ أو سراريه فعقوبته القتل، وكذلك شاتمه ٢٥٦
- بيان أن حكم من استحل حرمة النبي ﷺ القتل ٢٥٦ - ٢٥٧
- بيان أن النكاح ينعقد بدون فرض المهر أي بدون تقديره لا أنه ينعقد مع نفيه ٢٥٧
- الكلام على قوله: ﴿إِنَّ اَللّٰهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّوْنَ عَلٰى النَّبِيِّ...﴾ ٢٥٧ - ٢٥٨
- الكلام على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ اَللّٰهَ وَرَسُوْلَهُ لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾ ٢٥٨ - ٢٦٠
- هذه الآية توجب قتل من أذى الله ورسوله ٢٥٨ - ٢٦٠

- ٢٥٩ الكلام على اللعن
- ٢٥٩ لم يجئ إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار
- ٢٦٠ الكلام على قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا...﴾
- من آذى مؤمناً حياً أو ميتاً بغير ذنب فقد دخل في هذه الآية ومن كان مجتهداً لا إثم عليه
- ٢٦٠ ومن كان مذنباً فآذاه مؤذ فقد آذاه بغير ما اكتسب
- ٢٦١ - ٢٦٠ من آذى الرسول فقد آذى الله ومن آذى الله فهو كافر حلال الدم
- ٢٦١ - ٢٦٠ بيان تلازم الحقين حق الله وحق رسوله ﷺ
- ٢٦١ جميع الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة الرسول
- ٢٦١ من طرده الله عن رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلا كافراً
- الكلام على قوله: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُفِئُوا أُخِذُوا وَفُتِلُوا تَفْتِيلًا﴾ من جهة الإعراب
- ٢٦١ وبيان ما في ذلك من الدلالة
- ٢٦٢ قيل: إن اللعن إنما يستوجه من هو كافر، وليس هذا جيداً على الإطلاق
- ٢٧٠ - ٢٦٢ الكلام على اللعن باختلاف صورته وأنواعه
- الكلام على قول الله في القاذفين ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ مع أن مجرد القذف ليس بكفر
- ٢٧٠ - ٢٦٢ إذا توعد الله على الخطيئة زاجراً عنها فلا بد أن يذكر أقصى ما يخاف على صاحبها
- ٢٦٣ الكلام على قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَإِسَاءَةُ الْمُؤْمِنِينَ يَدْرِيكَ عَطِينٌ مِّنْ جَلِيلِينَ...﴾
- ٢٧٢ - ٢٧٠ تفصيل الكلام في الحجاب
- ٢٧٢ - ٢٧٠ بيان أن الحجاب هو ستر الوجه
- ٢٧١ بيان جواز نظر العبد إلى مولاته ولكنه ليس محرماً لها ويسافر بها ويختلي بها
- ٢٧١ قال ابن عمر: سفر المرأة مع عبدها ضيعة
- ٢٧١ للذميات رؤية الوجه واليدين وليس لهن أن يطلعن على الزينة الباطنة
- ٢٧٢ تعريف الجلباب
- ٢٧٢ الكلام على قوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُفِئُوا أُخِذُوا وَفُتِلُوا تَفْتِيلًا﴾
- ٢٧٣ بيان أن النفاق كان على ثلاثة أوجه
- ٢٧٤ - ٢٧٣ الكلام على من فجر بامرأة طوعاً منها أو كرهاً
- ٢٧٤ الكلام على سنة الله التي لا تبدل ولا تتحول

الموضوع

الصفحة

- بيان أن الله يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة ٢٧٤
- من اتبع السابقين الأولين كان منهم ٢٧٤
- الكلام على قوله: ﴿لَيْنَ لَرِ يَنْهَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾ ٢٧٦ - ٢٧٥
- تفسير قوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٧٧) ٢٧٨ - ٢٧٦
- الرد على السهووردي في استدلاله بهذه الآية على إلحاده ٢٧٧
- سنة الله تقتضي تماثل الأحاد وإن حكم الشيء حكم نظيره ٢٧٧
- تفسير قوله: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى...﴾ ٢٧٨
- تفسير قوله: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٧) ٢٧٩ - ٢٧٨
- الكلام على قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ...﴾ ٢٨٠ - ٢٧٩
- بيان أن الأصل في الإنسان إنه ظلم جهول ٢٨٠ - ٢٧٩
- التوبة غاية كل مؤمن ٢٨٠

تفسير سورة سبأ

- تفسير قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ...﴾ ٢٨١
- تفسير قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ...﴾ ٢٨١
- تفسير قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرِّ﴾ ٢٨٢
- يوجد في القرآن من أوزان الشعر ما لا يقصد به الشعر ٢٨٢
- تفسير قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى﴾ ٢٨٢
- الكلام على قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ ٢٩٧ - ٢٨٨ - ٢٨٢
- بيان انتفاء الوجوه الثلاثة التي يثبت بها حق الغير عن شركائهم ٢٨٨ - ٢٨٣
- الكلام عن الشفاعة وبيان انتفاء نفعها إلا لمن استثناه الله تعالى ٢٩٦ - ٢٩٥ - ٢٨٨ - ٢٨٣
- بيان فساد مذهب القبوريين وأصحاب الأضرحة والذين يدعون المخلوقين من دون الله .. ٢٨٥
- بيان أنه ما من سبب من الأسباب إلا وهو موقوف على أسباب أخرى ٢٨٥
- كلما كان الرجل أعظم إخلاصاً كانت شفاعته الرسول أقرب إليه ٢٨٦ - ٢٨٥
- من الشرك في الربوبية: أن يجعل العبد لغير الله معه تدبيراً ما ٢٨٦
- تفسير قوله: ﴿وَلِئَلَّا أَوْ يَتَاكُم لَعَلَّ هُدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٢٨٧ - ٢٨٦
- بيان انتفاء جميع وجوه الشرك ٢٨٨ - ٢٨٧
- تفسير قوله: ﴿حَقَّقْ إِنَّا فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ...﴾ ٢٩٧ - ٢٨٨
- بيان أن الله يتكلم بصوت ٢٨٩

- ذكر الأحاديث الواردة في تكلم الله تعالى بالوحي واستراق الشياطين السمع ٢٩٠ - ٢٩٤
- بيان فساد مذهب المتفلسفة من الصابئة ونحوهم وأتباعهم في كلامهم عن الملائكة ٢٩٥
- تفسير قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ...﴾ ٢٩٧ - ٢٩٨
- الكلام على قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُكَ أَهْلًا إِنَّكَ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾...﴾ ٢٩٨
- المشركون الذين وصفهم الله بالشرك أصلهم صنفان ٢٩٨
- تفسير قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيتُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ...﴾ ٢٩٨
- الكلام على قوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَلِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرْسِي إِلَيَّ رَبِّي...﴾ ٢٩٩
- بيان أن الإيمان والهدى حصل بالوحي لا بمجرد العقل ٢٩٩

تفسير سورة فاطر

- الكلام على قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ ٣٠٠
- بيان أن الرب سبحانه محمود حمداً مطلقاً وحمداً خاصاً ٣٠٠
- معنى الحمد ٣٠٠
- الكلام على قوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْتَمَعُ مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبْعًا يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ...﴾ ٣٠٠
- الرد على القشيري في استدلاله بقوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ على السماع المحرم ٣٠٠ - ٣٠١
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا...﴾ ٣٠١
- الكلام على قوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا...﴾ ٣٠١
- الكلام على قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ٣٠٢
- الكلام عن القول والعمل وبيان أن الإيمان قول وعمل ٣٠٢
- الكلام على قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عَمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ...﴾ ٣٠٢ - ٣٠٤
- الكلام على حديث: «من سره أن ييسر له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه» ٣٠٣ - ٣٠٤
- بيان معنى ما روي عن عمر: (اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيداً) ٣٠٤
- الكلام على علم الله ٣٠٤
- المحو والإثبات في صحفة الملائكة وأما علم الله فلا يختلف ٣٠٤
- هل في اللوح المحفوظ محو وإثبات؟ على قولين: ٣٠٤
- تفسير قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَوَ سَمِعُوا مَا أَسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ ٣٠٤
- بيان أن معاوية رضي الله عنه كان يعرف حق الحسين ويعظم قدره ٣٠٥
- تفسير قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ ٣٠٥
- الكلام على قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ ٣٠٥

الموضوع

الصفحة

- الكلام على قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ٣١٠ - ٣٠٥
- الخشية أبدأ متضمنة للرجاء كما أن الرجاء يستلزم الخوف ٣٠٦
- أهل الخوف والرجاء هم أهل العلم ٣٠٧ - ٣٠٦
- أصل السيئات الجهل وعدم العلم ٣٠٧
- العدم لا فاعل له، ولا يجوز أن يضاف العدم المحض إلى الله ٣٠٧
- بيان أن كل آدمي حارث وهمام ومتحرك بالإرادة ٣٠٧
- من لم يخش الله فليس من العلماء بل من الجهال ٣٠٨
- الكلام على قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ...﴾ ٣١٥ - ٣١٠
- قسم الله الأمة التي أورثها الكتاب واصطفها ثلاثة أصناف ٣١٠
- الكلام على الثلاثة أصناف ٣١٥ - ٣١٠
- الكلام على تقسيم الناس ههنا في «فاطر» وتقسيمهم في «الواقعة» و«المطففين»
و«الانفطار» ٣١١ - ٣١٢
- بيان أنه يدخل كثير من أهل الكبائر النار ولكن لا يدخل فيها أحد من أهل التوحيد ٣١٢
- بيان مخالفة المعتزلة والمرجئة للسنة المتواترة والإجماع في هذه المسألة ٣١٢ - ٣١٣
- من الشرك التعطيل للخالق ٣١٣
- بيان فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب ٣١٣
- الناس في الأموال كذلك: إما محسن وإما عادل وإما ظالم ٣١٣
- أولياء الله نوعان: المقربون السابقون والأبرار أصحاب اليمين ٣١٤
- المقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة بخلاف الظالم لنفسه ٣١٤
- تفسير قوله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَنْذِكُرْ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ ٣١٥
- التذكر اسم جامع لكل ما أمر الله بتذكيره ٣١٥
- الكلام على قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ
الْأَرْضِ...﴾ ٣١٥
- الكلام على قوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ٣١٥ - ٣١٧
- الرد على من يجعل الله يفعل بمجرد إرادة ترجع أحد المتماثلين بلا مرجح ٣١٧
- في قوله: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا...﴾ حجة للجمهور القائلين بالحكمة ٣١٧

تفسير سورة يس

- أول مدينة آمنت بالمسيح ﷺ هي أنطاكية ٣١٨ - ٣٢١
- الرسل المذكورون في سورة «يس» ليسوا أصحاب المسيح، وإنما كانوا قبل المسيح ٣١٨ - ٣٢٥

- الكلام على أول السورة ٣١٨
- الكلام على قوله: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤَهُمْ فَهُمْ غٰفِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ٣١٨
- الرد على النصارى في زعمهم أن النبي ﷺ بعث للأمة فقط ٣٢٠ - ٣١٩
- ليس في القرآن آية تنطق بأن الحواريين رسل الله ٣١٩
- بيان أن الذي صاهره موسى ﷺ ليس هو شعيباً النبي ٣٢٤ - ٣٢١
- لم يهلك الله بعد نزول التوراة مكذبي الأمم بعذاب من السماء، بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار ٣٢٢
- بيان أن رسل الرسل لا يتناولهم اسم رسل الله ٣٢٣ - ٣٢٢
- الكلام على قوله: ﴿قَالُوا طَٰغُوْا كُرْحَكُمْ مَعَكُمْ ءَإِن دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ٣٢٤ - ٣٢٣
- «طائرهم» هو أعمالهم وجزاؤها ٣٢٣
- تفسير قوله: ﴿ءَأَتِخَذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرَدِّنَ الرَّحْمٰنُ بِصُرِّ لَا تُعْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا...﴾ ٣٢٤
- الكلام على قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَٰجِدَةً فَإِذَا هُمْ خٰكِدُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ٣٢٤
- الكلام على قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا...﴾ ٣٢٥
- الكلام على قوله: ﴿وَالْقَمَرَ فَدَرَنَّهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ ءَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٦﴾﴾ ٣٥٨ - ٣٢٦ - ٣٢٥
- إطلاق اسم القديم على الله ﷻ ٣٢٥
- الكلام على قوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١) ٣٣٠ - ٣٢٦
- الفلك هو السموات عند أكثر العلماء ٣٢٩
- تفسير قوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَلْبَغِي لِمَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقَ النَّهَارِ﴾^(١) ٣٣٠ - ٣٢٩
- الكلام على قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ٣٣٠
- بيان أن الله خالق أفعال العباد ٣٣٠
- الكلام على قوله: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّي رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ ٣٣١ - ٣٣٠
- رؤية المؤمنين ربهم في الجنة ٣٣١ - ٣٣٠
- الكلام على قوله: ﴿أَلَمْ ءَاخِذْ ءِإِيكُمْ يٰبَنِي ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطٰنَ﴾ ٣٣١
- كانت عبادتهم الشيطان أنهم أطاعوه ٣٣١
- كل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان ٣٣١
- الكلام على قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَلْبَغِي لَهُ﴾ ٣٣١

(١) يراعى التقديم والتأخير في المنقول في تفسير هذه الآية.

الموضوع

الصفحة	الموضوع
٣٣٢	تفسير قوله: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾
٣٣٢	الكلام على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَنَا أَنْعَامًا﴾
٣٥١ - ٣٣٢	الكلام على قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ...﴾ الآيات
٣٣٥ - ٣٣٣	الكلام على قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾
٣٣٧ - ٣٣٥	الكلام على قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٧﴾﴾
٣٣٧ - ٣٣٦	احتج كثير من العلماء بهذه الآية على أن القرآن غير مخلوق
٣٣٦	بيان أن الله قادر على ما لا يفعله

تفسير سورة الصافات

٣٥٦ - ٣٣٨	الكلام على قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾
٣٣٨	الكلام على قوله: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا زَيْنَةَ الْكُرُوبِ ﴿٦﴾﴾
٣٣٩ - ٣٣٨	الكلام على قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿٧﴾﴾
٣٣٩	الكلام على قراءة (بل عجببت) بالضم
٣٤٢ - ٣٣٩	الكلام على قوله: ﴿اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾﴾
٣٣٩	المستمع للغيبة شريك المغتاب
٣٤١	الكلام على أعوان الظلمة
٣٤١	الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة
٣٤٢	بيان أن الآية وإن تناولت الظالم الذي ظلم بكفره فهي أيضاً متناولة ما دون ذلك
٣٤٤ - ٣٤٣	الذين اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً يكونون على وجهين:
٣٤٥	الكلام على قوله: ﴿وَقَفُّوا بِإِثْمِ مَسْئُولُونَ ﴿٢٨﴾﴾
٣٤٧ - ٣٤٦	ذكر حديث الرجل الذي جاء إلى ابن عباس يسأله عن أشياء تختلف عليه من القرآن
٣٤٧	تفسير قوله: ﴿وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾
٣٤٧	الكلام عن قوله: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾
٣٤٨	الكلام على قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٦﴾﴾ وبيان أن هذا من المعارض
٣٥١ - ٣٤٨	الكلام على قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾
٣٥١ - ٣٤٨	(ما) هنا بمعنى الذي ومن جعلها مصدرية فقد غلط
٣٥٠ - ٣٤٩	بيان أن هذه الآية تدل على أن الله خالق لأعمال العباد من وجه آخر
٣٤٩	الكلام على الواو في الآية وبيان أنها واو الحال
٣٥١	الكلام على قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٧﴾﴾

- الذيح هو إسماعيل على أصح القولين، بيان ذلك ٣٥٣ - ٣٥١
- الحكمة من أمر الله تعالى خليله إبراهيم بذبح ابنه ٣٥٤ - ٣٥٣
- الكلام على قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ٣٥٤ - ٣٥١
- سمى الله نفسه عليماً حليماً وسمى بعض عباده عليماً وسمى آخر حليماً ٣٥١
- بيان مناسبة صفة الحلم لصفة الصبر ٣٥٢
- تفسير قوله: ﴿فَكَالَ يَبُوءُ بِإِذَىٰ أَرْبَىٰ فِي الْمَنَارِ آتَىٰ أَذْيَحَكَ﴾ ٣٥٤
- رؤيا الأنبياء وحي معصوم ٣٥٤
- تفسير قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَمَّوْا وَقَالُوا لَلَّجَيْنِ﴾ ٣٥٤
- الكلام على قوله: ﴿وَقَدَّيْنَهُ بِذِيحٍ عَظِيمٍ﴾ ٣٥٤
- الحكم فيما لو حلف أو نذر أن يذبح ولده ٣٥٥ - ٣٥٤
- تفسير قوله: ﴿سَلَّمْ عَلَىٰ إِزْرِهِمَ﴾ ٣٥٥
- تفسير قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ مُّصِيبَاتٌ﴾ ٣٥٥
- تفسير قوله: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ آيَاتِيكَ الْبَيِّنَاتِ﴾ ٣٥٥
- تفسير قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا﴾ ٣٥٦
- تفسير قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَمْ يُعْلَمْ مَعْلُومٌ﴾ ٣٥٦
- تفسير قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْنَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ٣٥٨ - ٣٥٦
- تفسير قوله: ﴿سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ٣٥٩ - ٣٥٨
- جاءت الرسل ﷺ - في صفات الرب - بنفي مجمل وإثبات مفصل ٣٥٩

تفسير سورة «ص»

- الكلام على أوائل السورة وسبب نزولها ٣٦٠
- الكلام على قوله: ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابًا﴾ ٣٦٣ - ٣٦٣
- لم يثبت أن الركوع يسمى سجوداً بخلاف العكس ٣٦١
- السجود مخصوص بالأمر بالدعاء فيه ٣٦١
- ماذا يقول في سجود التلاوة؟ ٣٦١
- كل ساجد راكع وليس كل راكع ساجداً ٣٦٢
- ليس من شرط السجود مطلقاً أن يصل إلى الأرض ٣٦٢
- لو ركع في سجود التلاوة بدلاً عن السجود لم يجزه عند جمهور العلماء ٣٦٢
- إذا كانت السجدة في آخر السورة فله أن يكتفي بسجود الصلاة ٣٦٢

- ٣٦٢ وقيل: إن داود خرّ ساجداً بعدما كان راكعاً، وهو ضعيف
- ٣٦٣ سجود التلاوة من قيام أفضل ولعل داود ﷺ سجد من قيام
- ٣٦٣ السجود عبادة تفعل مجردة عن الصلاة كسجود التلاوة والشكر
- ٣٦٣ تفسير قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ عِنْدَنَا لُزْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾
- ٣٦٤ - ٣٦٣ تفسير قوله: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ الآية
- ٣٦٤ تفسير قوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾
- ٣٦٤ تفسير قوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ﴾
- ٣٦٥ - ٣٦٤ الكلام على قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾
- ٣٦٥ - ٣٦٤ كتاب المختار للضياء المقدسي خير من صحيح الحاكم
- ٣٦٦ تفسير قوله: ﴿سَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ ...
- ٣٦٧ - ٣٦٦ تفسير قوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِمِيزَانٍ﴾
- ٣٦٧ الكلام على قوله: ﴿وَعُذِّ بِيَدَيْكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْتَثْ﴾
- ٣٦٩ - ٣٦٧ الرد على من استدل بهذه الآية على جواز الحيل في الدين
- ٣٦٨ - ٣٦٧ بيان أن كفارة الأيمان لم تكن مشروعة في شريعة نبي الله أيوب ﷺ
- ٣٦٨ الواجب بالندر يحتذى به حذو الواجب بالشرع
- الرجوع في الأيمان إلى عرف الخطاب شرعاً أو عادة أولى من الرجوع فيها إلى موجب اللفظ في أصل اللغة
- ٣٦٨ تفسير قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصِرِ﴾
- ٣٦٩ المؤمن قوته في قلبه وضعفه في جسمه والمنافق قوته في جسمه وضعفه في قلبه
- ٣٦٩ لا بد في الإيمان من أصلين: التصديق بالحق والمحبة له
- ٣٧٠ تفسير قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾
- ٣٧١ تفسير قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾
- ٣٧١ تفسير قوله: ﴿إِلَّا إِلَيْسَ اسْتَكْبَر...﴾
- ٣٧٦ - ٣٧١ الكلام على قوله: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾
- ٣٧٦ - ٣٧١ الرد على متأولة الصفات
- ٣٧٦ - ٣٧١ بيان أن لفظ اليدين بصيغ التثنية لم يستعمل في النعمة ولا في القدرة
- ٣٧٦ - ٣٧٢ بيان فساد قول من قال أن قوله: ﴿بِإَيْدِي﴾ عنى به النعمة أو القدرة
- ٣٧٧ - ٣٧٦ الكلام على قوله: ﴿فِعْرَانِكَ لِأَعْوَابِهِمْ أَجْوِينَ﴾ إلا عبادك منهم المخلصين
- ٣٧٧ - ٣٧٦ الغي اتباع الأهواء والشهوات، وإذا أطلق تناول كل معصية

- الكلام على قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ ٣٧٧ - ٣٧٨
 العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر ٣٧٧
 إذا ملئت جهنم باتباع الشيطان لم يكن لغيرهم فيها موضع، وأتباعه من أطاعه ... ٣٧٧ - ٣٧٨
 لا يدخل الله النار إلا من عصاه ٣٧٨
 تفسير قوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ وبيان أن التذكير عام وخاص ٣٧٨

تفسير سورة الزمر

- الكلام على قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ ٣٧٩ - ٣٨٠
 بيان أن هذا القرآن منزل من الله فمنه بدأ ٣٧٩
 الكلام على قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ٣٨٠ - ٣٨٢
 تفسير قوله: ﴿يُكْفَرُ الْبَيْتَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْفَرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ ٣٨٢
 تفسير التزل ٣٨٢ - ٣٨٣
 الكلام على قوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ ٣٨٣
 الكلام على قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ...﴾ ٣٨٣ - ٣٨٤
 الكلام على قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَبِيضٌ مَاءً أَلْبَنٌ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ ٣٨٤ - ٣٨٥
 القنوت هو إدامة الطاعة ٣٨٤ - ٣٨٥
 الكلام على قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٣٨٥ - ٣٨٦
 الكلام على قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...﴾ ٣٨٦ - ٣٨٧
 المراد بالقول القرآن ٣٨٦
 فساد قول من استدل بهذه الآية على سماع الغناء وغيره ٣٨٧
 السماع الذي أمر الله به هو سماع الفقه والقبول ٣٨٨
 تفسير قوله: ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ...﴾ ٣٨٨
 تفسير قوله: ﴿أَمَّنْ سَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ ٣٨٨ - ٣٨٩
 تفسير قوله: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا...﴾ ٣٨٩ - ٣٩٢
 الحقائق إما متماثلة وإما مماثلة ٣٨٩
 الثنية يراد بها جنس التعديد من غير اقتصار على اثنين فقط ٣٨٩ - ٣٩١
 حديث حذيفة في الذكر بين السجدين بقوله: (رب اغفر لي رب اغفر لي) من هذا ٣٩٠
 ليس في القرآن تكرار محض ٣٩٠
 المتشابه في النظائر المتماثلة، والمثاني في الأنواع، وتكون الثنية في المتشابه ٣٩٠

الموضوع

الصفحة

- ٣٩٠ القرآن بعضه يفسر بعضاً
- ٣٩٢ - ٣٩٣ تفسير قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾
- ٣٩٣ الأمثال المضروبة هي الأقيسة العقلية
- ٣٩٣ تفسير قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رِجُلًا...﴾
- ٣٩٣ من لم يستسلم لله فهو مستكبر عن عبادته
- ٣٩٤ - ٣٩٨ تفسير قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾
- ٣٩٤ لو صدق الإنسان فيما يقوله ولم يصدق بالحق الذي يقوله غيره لم يكن ممدوحاً
- ٣٩٤ تفسير مجاهد أصح تفسير التابعين
- ٣٩٤ - ٣٩٨ تفسير قوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾
- ٣٩٨ - ٣٩٥ الرد على الرافضة في دعواهم إن هذه الآية نزلت في علي عليه السلام
- ٣٩٦ بيان أن هذه الآية عامة لا تخص أحداً دون غيره
- ٣٩٦ - ٣٩٨ الرافضة أعظم الطوائف افتراء للكذب على الله وأعظمهم تكديماً بالصدق
- ٣٩٦ أهل السنة المحضة ليس لهم هوى إلا مع الحق
- ٣٩٦ قوله: ﴿جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ اسم جنس لكل صدق
- ٣٩٧ نفس تكذيب الصادق هو من الكذب
- ٣٩٧ النصارى يكثر فيهم المفترون للكذب على الله واليهود يكثر فيهم المكذبون بالحق
- ٣٩٧ لا يستحق المدح إلا من كان آتياً بالصدق مصداقاً للصدق
- ٣٩٨ تفسير قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾
- ٣٩٨ تفسير قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾
- ٣٩٩ تفسير قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾
- ٣٩٩ - ٤٠٥ الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَابِعِهَا...﴾
- ٣٩٩ - ٤٠٠ المقبوض المتوفى هي الروح ثم يتبعها البصر
- ٤٠٥ - ٤٠٠ الكلام على حال الأرواح في المنام
- ٤٠٥ - ٤٠٤ - ٤٠١ الذكر عند النوم
- ٤٠٥ اختيار ابن القيم في تفسير هذه الآية
- ٤٠٥ - ٤١٦ الكلام على قوله: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ...﴾
- ٤٠٦ لا ييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت
- ٤٠٦ - ٤٠٧ بيان أن هذه الآية في حق التائبين

- أما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فلا يجوز أن تكون
 ٤٠٨ في حق التائبين
- ٤٠٨ من غفر له لم يعذب ومن غفر له عذب
- ٤٠٨ الأفعال الإلهية يعتبر فيها الحكمة والعدل
- ٤١٠ - ٤٠٨ لا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه ولا أن يقنط الناس من رحمة الله
- ٤٠٨ القنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له
- ٤٠٩ - ٤٠٨ الكلام على سبب القنوط من رحمة الله
- ٤٠٩ بيان أن التوبة ممكنة من كل ذنب لمن أَرادها
- ٤٠٩ إذا دخل المشرك الحرم أمر بالخروج منه
- ٤٠٩ لو زنا رجل بامرأة ثم تاب قبل أن ينزع ذكره منها ثم نزعه لم يكن مذنباً بالنزع، وهل هو وطء؟ فيه قولان
- ٤٠٩ إذا طلع الفجر وهو مجامع فللفقهاء في النزاع قولان
- ٤١٠ بيان أن الآية ليست على ظاهرها بل المراد أن الله قد يغفر الذنوب جميعاً
- ٤١٠ قد أخبر الله أنه يغفر جميع الذنوب ولم يذكر أنه يغفر لكل مذنب
- بيان أن الداعي إلى البدعة تقبل توبته كما تقبل توبة الداعي إلى الكفر ومن فتن الناس
 ٤١١ عن دينهم
- ٤١٢ توبة أصحاب البدع تحتاج إلى ضد ما كانوا عليه من الدعاء إلى الهدى
- ٤١٢ والجمهور على أن توبة قاتل النفس مقبولة
- ٤١٢ كل وعيد في القرآن مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس
- ٤١٢ التوبة تسقط حق الله تعالى ولا تسقط حقوق الآدميين
- ٤١٢ من تمام التوبة أن يكثر من الحسنات ليوفي غرماءه وتبقى له بقية يدخل بها الجنة
- ٤١٢ الكلام على قول ابن عباس: أن توبة القاتل لا تقبل
- ٤١٣ بيان أن قوله: ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾ عام في الذنوب مطلق في أحوالها
- ٤١٣ بيان أن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾
- ٤١٥ الفقهاء إنما يتنازعون في حكم الظاهر في قبول التوبة ممن تكررت رده أو توبة الزنديق
- ٤١٦ إذا جاء معترفاً تائباً هل يقام عليه الحد؟
- ٤١٦ تسقط العقوبة بالتوبة
- ٤١٦ تفسير قوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾
- ٤١٦ تفسير قوله: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِكَ عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي حُبِّ اللَّهِ...﴾
- ٤١٧ - ٤١٦

الموضوع

الصفحة

- ٤١٦ لا يعرف عالم أثبت لله جنباً نظير جنب الإنسان
- ٤١٧ ليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له
- ٤١٧ وإذا أضيف إلى الله ما هو صفة له وليس بصفة لغيره كان صفة له
- ٤١٧ تفسير قوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ...﴾
- ٤١٨ تفسير قوله: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي...﴾
- ٤١٨ تفسير قوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾
- ٤٢٤ - ٤١٨ الكلام على قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّىٰ قَدَرِهِ﴾ وبيان عظمة الخالق سبحانه
- ٤١٩ بيان أنه لا يجوز القول بأن الله تحت العالم أو تحت شيء منه
- ٤٢٣ لم يكن النبي ﷺ وأصحابه يصفون الله بالصفات السلبية المحضة
- ٤٢٤ كان ابن مسعود من أعلم الصحابة وأعظمهم اختصاصاً بالنبي ﷺ
- ٤٢٤ مكان ابن عباس أعلم الصحابة في زمانه
- ٤٢٤ وأصحاب ابن مسعود وابن عباس من أعظم التابعين علماً وقدرأ
- ٤٢٦ - ٤٢٤ الكلام على قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَوِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾
- ٤٢٥ الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة وحتى ملك الموت
- ٤٢٥ إطلاق اسم (عزرائيل) على ملك الموت
- ٤٢٦ قد أخبر القرآن عن ثلاث نفحات
- الاستثناء في الآية متناول لمن في الجنة من الحور العين وغيرهم فإن الجنة ليس فيها موت
- ٤٢٦ تفسير قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾
- ٤٢٧ تفسير قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا﴾
- ٤٢٧ الكلام على قوله: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِقَاتٍ مِن حَوْلِ الْعَرْشِ﴾
- ٤٢٧ هل لله تبارك وتعالى حد؟

تفسير سورة غافر

- ٤٢٩ - ٤٢٨ الكلام في عموم السورة
- ٤٢٩ - ٤٢٨ بيان أن فرعون من أكفر الخلق بالله، والرد على الضالين الذين يجعلونه مصيياً
- ٤٣٠ - ٤٢٩ الكلام على من شرب الخمر متأولاً من الصحابة
- ٤٣٠ تفسير قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَن حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ...﴾
- ٤٣١ - ٤٣٠ تفسير قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقَّتْ لَّهُمْ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسِكُمْ...﴾
- ٤٣١ تفسير قوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِي وَأُحْيَيْتَنَا أَتَيْتِنَا﴾

- النوم أخو الموت ٤٣١
- تفسير قوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ ٤٣١
- تفسير قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وبيان أنه دعاء العبادة ٤٣١
- تفسير قوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ٤٣٢ - ٤٣١
- تفسير قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ٤٣٣ - ٤٣٢
- تفسير قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ ٤٣٤ - ٤٣٣
- بيان شجاعة الصديق عليه السلام ٤٣٣
- الكلام على قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْفَعُ الْإِنِّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ بِمِثْلِ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٥﴾﴾ مِثْل
دَابِ قَوْو نُوجٍ...﴾ ٤٣٧ - ٤٣٥
- الكلام على معنى الداب ٤٣٧ - ٤٣٥
- بيان أن سنة الله مطردة لا تتفرض في إكرام مصدقي الرسل وإهانة مكذبيهم ٤٣٧
- الكلام على قوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ ٤٤٢ - ٤٣٨
- السلطان هو الكتاب المنزل من السماء وهو الحجة الآتية من عند الله ٤٤١ - ٤٣٨
- من جادل بغير سلطان من الله كان ممن ذمه الله ٤٤١ - ٤٣٨
- لا يجوز أن يعارض كتاب الله بغير كتاب الله ٤٤١ - ٤٣٨
- تفسير قوله: ﴿كَبْرٌ مَقْتًا﴾ وبيان معنى المقت ٤٣٩
- بيان أن قوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ مبتدأ، ليس بدلاً من قوله: ﴿مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ ٤٤٠
- وقد يقال: الآية تحتل الوقف وتحتل الابتداء ٤٤٠
- الكلام على حديث علي: ستكون فتن، قيل: فما المخرج منها؟ قال: كتاب الله ٤٤٠
- كل علم دين لا يطلب من القرآن فهو ضلال ٤٤١
- لم يكن السلف يتركون دلالة آية من كتاب الله إلا بما يسمونه نسخاً ٤٤١
- بيان أن معارضة القرآن بمعقول أو قياس إنما ابتدع لما ظهرت الجهمية والمعتزلة
ونحوهم ٤٤٢
- وقال هؤلاء: إذا تعارض العقل والشرع إما أن يفوض أو يتأول ٤٤٢
- الكلام على قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهَيْئُوا لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٦٦﴾﴾ ٤٤٢
- الكلام على أهل وحدة الوجود وبيان ما هم عليه من الضلال ٤٤٣ - ٤٤٢
- الاستدلال بهذه الآية على إثبات الفوقية لله تعالى ٤٤٣
- تفسير قوله: ﴿يَنْفَعُونَ أَسْفَلَ سَافِلِينَ الرَّشَادِ ﴿١٨﴾﴾ ٤٤٤ - ٤٤٣

الموضوع

الصفحة

- ٤٤٤ تفسير قوله: ﴿... وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٥٤﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ٤٤٤
- ٤٤٤ هذه الآية إحدى ما استدل به العلماء على عذاب البرزخ ٤٤٤
- ٤٤٤ الكلام على قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ ٤٤٤
- ٤٤٤ نصر الله نصر إكرام ومحبة ٤٤٤
- ٤٤٥ الكلام على قوله: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ ٤٤٥
- ٤٤٦ - ٤٤٥ الكلام على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقْعِرْ سُلْطَانِ أَدْنَاهُمْ﴾ ٤٤٦
- ٤٤٦ ليس تعليم الأنبياء مقصوراً على مجرد الخير بل هو جامع للأدلة العقلية والسمعية ٤٤٦
- ٤٤٧ - ٤٤٦ الكلام على قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾ ٤٤٧
- ٤٤٦ لفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ٤٤٦
- ٤٤٦ لا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه ٤٤٦
- ٤٤٦ من استسلم لله ولغيره فهو مشرك ٤٤٦
- ٤٤٧ الكبير المبين للإيمان لا يدخل صاحبه الجنة ٤٤٧
- ٤٤٨ - ٤٤٧ بيان أن الدعاء في الآية دعاء العبادة ودعاء المسألة ٤٤٨
- ٤٤٨ الكلام على قوله: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٤٨
- ٤٤٨ تفسير قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ ٤٤٨
- ٤٤٩ الكلام على قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ٤٤٩
- ٤٤٩ قال بعض أهل العلم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ٤٤٩
- ٤٤٩ قال بعض أهل العلم: إن هذه الآية تتناول الفلاسفة ٤٤٩
- ٤٥٠ - ٤٤٩ تفسير قوله: ﴿فَلَمْ يَكْ يَفْعَهُمْ إِيْنَهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا...﴾ الآية ٤٥٠

تفسير سورة فصلت

- ٤٥٠ - ٤٥١ الكلام في عموم السورة ٤٥٠
- ٤٥١ تفسير قوله: ﴿فَأَسْتَفِيئُوا إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُوهُ﴾ ٤٥١
- ٤٥١ عدم إتياء الزكاة وهو ما تزكو به النفوس ضد الاستغفار ٤٥١
- ٤٥٥ - ٤٥٣ ذكر خبر عتبة بن ربيعة ومحاجته النبي ﷺ ٤٥٥
- ٤٥٥ الكلام على قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتَرٍ مِمَّا نَدْعُونََ إِلَيْهِ﴾ ٤٥٥
- ٤٥٥ حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم ٤٥٥
- ٤٥٦ - ٤٥٥ تفسير قوله: ﴿... وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ٤٥٦
- ٤٥٥ أصل الزكاة التوحيد والإخلاص ٤٥٥

- ٤٥٦ الآية تتناول كل ما يتذكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة
- ٤٥٨ - ٤٥٦ الكلام على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٨﴾
- ٤٥٧ - ٤٥٦ بيان شذوذ من قال في معنى الآية: غير ممنون عليهم
- ٤٥٧ المتصدق في الحقيقة إنما أحسن إلى نفسه لا إلى المتصدق عليه
- ٤٥٨ - ٤٥٧ الكلام عن الجود والإحسان
- ٥٤٩ - ٤٥٨ الكلام على قوله: ﴿قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾ ﴿٨﴾
- ٤٥٨ الإشارة إلى ضعف حديث أبي هريرة: «خلق الله التربة يوم السبت»
- ٤٥٨ روى مسلم في صحيحه أحاديث قد عرف أنها غلط ولكن هذا قليل جداً
- كان البخاري إذا وقع في بعض الروايات غلط ذكر الروايات المحفوظة التي تبين غلط
- ٤٥٨ الغالط
- ٤٥٨ كان البخاري أعرف بالحديث وعلمه وأفقّه في معانيه من مسلم ونحوه
- ٤٦٤ - ٤٥٩ الكلام على قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ...﴾ ﴿٨﴾
- ٤٦٣ - ٤٦٠ - ٤٥٩ البخار نوع من الدخان
- جاءت الآثار عن السلف أن السماء خلقت من بخار الماء وهو الماء الذي كان العرش
- ٤٦٣ - ٤٦٠ عليه
- ٤٦٠ لم يذكر القرآن خلق شيء من لا شيء
- ٤٦٤ تفسير قوله: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ﴿٨﴾
- ٤٦٤ القضاء في لغة العرب هو إكمال الشيء وإتمامه
- ٤٦٤ من فعل العبادة كاملة فقد قضاها وإن فعلها في وقتها
- ٤٦٤ تفسير قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ...﴾ ﴿٨﴾
- ٤٦٥ - ٤٦٤ تفسير قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ...﴾ ﴿٨﴾
- ٤٦٥ الهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك
- ٤٦٥ تفسير قوله: ﴿وَقَالُوا لِبُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ...﴾ ﴿٨﴾
- ٤٦٥ تفسير قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ...﴾ ﴿٨﴾
- ٤٦٥ الكلام على قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنَّا مِنَ الْإِنْسِ...﴾ ﴿٨﴾
- ٤٦٦ الكلام على (الذين) في الرفع والنصب والجر
- ٤٦٧ - ٤٦٦ الكلام على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا...﴾ ﴿٨﴾
- ٤٦٧ - ٤٦٦ تفسير الاستقامة
- ٤٦٧ تفسير قوله: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ ﴿٨﴾

- ٤٦٧ تفسير قوله: ﴿وَمَا يَزْعُوكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾
- ٤٦٧ فائدة الاستعاذة في الخير والشر
- ٤٦٨ - ٤٦٧ تفسير قوله: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ الآية
- ٤٦٧ الخشوع فيه سكون وانخفاض
- ٤٦٨ الكلام على قدرة الله تعالى
- ٤٦٨ تفسير قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ...﴾
- ٤٦٨ اللسان العربي أكمل الألسنة وأحسنها بياناً
- ٤٤٩ - ٤٦٨ تفسير قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَمِيدِ﴾
- ٤٦٩ - ٤٦٨ بيان أن الله لا يظلم محسناً ولا مسيئاً
- ٤٧٥ - ٤٦٩ الكلام على قوله: ﴿سُئِرِيهِنَّ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ...﴾
- ٤٦٩ دلائل الربوبية أعظم وأكثر من كل دليل على كل مدلول
- ٤٧٠ الشقاق قد يكون مع العناد وقد يكون مع الجهل
- ٤٧٥ - ٤٧١ الكلام على إعجاز القرآن وصدق الرسول ﷺ
- ٤٧٤ دعا الله إلى الاعتبار بالعقل المستند إلى الحس

تفسير سورة الشورى

- ٤٧٨ - ٤٧٦ الكلام على قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
- ٤٧٦ في الآية رد على الممثلة والمعطلة
- ٤٧٦ الممثل يعبد صنماً والمعطل يعبد عدماً
- ٤٧٧ كما لا يتجلى سبحانه لشيء إلا اندك كذلك لا يتوهمه أحد إلا هلك
- ٤٧٧ الكاف في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ زائدة
- ٤٧٧ نسبة صفاته إليه كنسبة خلقه إليه
- ٤٨٢ - ٤٧٨ الكلام على قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا...﴾ الآية
- ٤٧٩ - ٤٧٨ دين الرسل كلهم دين واحد وهو الإسلام وإنما تتنوع شرائعهم
- ٤٧٩ وجوب الخشوع
- ٤٨٠ تفسير قوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِالَّذِينَ وَلَا نُنْفِرُوا فِيهِمْ﴾
- ٤٨٢ الكلام عن الاختلاف والتفرق المذموم
- ٤٨٦ - ٤٨٢ الكلام على قوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ...﴾ الآية
- ٤٨٥ - ٤٨٣ ليس من شرط لفظ الحجة أن تكون حقاً بل إذا كانت حقاً سميت بيئة وبرهاناً ودليلاً

- معنى العدل والظلم ٤٨٣
- تفسير قوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ ٤٨٣
- تفسير قوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ ٤٨٦ - ٤٨٥
- الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ ٤٩٠ - ٤٨٦
- تعريف الميزان والكلام على معناه ٤٨٧ - ٤٨٦
- القياس العقلي الصحيح من الميزان ٤٩٠ - ٤٨٩ - ٤٨٧
- بيان أن الميزان العقلي الذي أنزل الله ليس هو منطق اليونان من وجوه ٤٨٨ - ٤٨٧
- تعريف المنطق عند أهله ٤٨٨
- بيان فساد أداة هذا المنطق وفساد مادته ٤٨٨
- الكلام على حديث: إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ٤٩٠
- تفسير قوله: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ...﴾ ٤٩١ - ٤٩٠
- مقامات الحريري ٤٩١
- الكلام على قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾ ٤٩٣ - ٤٩١
- من ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله أو أوجبه من غير أن يشرعه الله فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله ٤٩١
- ومن اتبعه في ذلك فقد اتخذه شريكاً لله ٤٩١
- البدعة هي الدين الذي لم يأمر الله به ورسوله ٤٩٢
- تفسير قوله: ﴿قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ ٤٩٧ - ٤٩٣
- بيان المعنى الصحيح للآية ٤٩٦ - ٤٩٣
- جميع سور (حم) كلها مكية ٤٩٥
- الرد على الرافضة في زعمهم أن الآية نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين ٤٩٥
- عبد الله بن عباس أعلم أهل البيت بعد علي عليه السلام ٤٩٥
- تفسير قوله: ﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ ٥٠٠ - ٤٩٧
- حقيقة الاستدلال بسنة الله في خلقه هو اعتبار الشيء بنظيره ٥٠٠
- تفسير قوله: ﴿وَأَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ٥٠٠
- تفسير قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ٥٠٠
- تفسير قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ٥٠١ - ٥٠٠
- تفسير قوله: ﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَى بَيْنَهُمْ﴾ ٥٠٢ - ٥٠١
- الكلام على قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ثُمَّ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ٥٠٢

- الكلام على قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ٥٠٣ - ٥٠٤
- الجزء من جنس العمل ٥٠٣
- عفو الإمام أحمد عن ظلمه في محنته المشهورة ٥٠٤
- تفسير قوله: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ...﴾ ٥٠٤ - ٥٠٥
- عاقبة البغي ٥٠٤
- تفسير قوله: ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٢﴾﴾ ٥٠٥ - ٥٠٨
- بيان أن الله شرع العدل وندب إلى الفضل والصبر ٥٠٥ - ٥٠٦
- عدم المحمود لا يكون محموداً إلا أن يخلفه ما هو محمود ٥٠٦
- النهي عن الجزع ٥٠٦
- تفسير قوله: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ خَفِيٍّ﴾ ٥٠٨
- الكلام على قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ...﴾ الآية ٥٠٨ - ٥١٣
- قال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه ٥٠٨ - ٥١٢
- الكلام على المحدثين الملهمين ٥٠٨
- الاستدلال بالآية على انتفاء رؤية الله في الدنيا ٥٠٩
- تفسير قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ آمَنَّا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ...﴾ ٥١٣
- تفسير قوله: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ ٥١٣ - ٥١٥
- ليس العلم كثرة النقل والكلام ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها وحقها من باطلها ٥١٥

تفسير سورة الزخرف

- الكلام على قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ ٥١٦ - ٥١٧
- الكلام على الجعل ٥١٦
- تكلم الرب بالقرآن واختاره لأن يتكلم به عربياً وأنزله به ٥١٦
- الجعل من الله قد يكون خلقاً وقد يكون فعلاً ليس بخلق ٥١٦
- نزول القرآن عربياً أعظم نعمة على الخلق من نزوله بغيره ٥١٧
- تفسير قوله: ﴿أَفَنْصَرُبُ عَنْكُمْ أَلَّذِكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾ ٥١٧
- الكلام على قوله: ﴿لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ٥١٧ - ٥١٨
- دعاء ركوب الدابة والكلام عليه ٥١٧ - ٥١٨
- تفسير قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَّهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ ٥١٨ - ٥١٩

- تفسير قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ ٥١٩
لا يضرب لله المثل المساوي ولا يكتفي في حقه بالمثل العالي بل له المثل الأعلى ٥١٩
- تفسير قوله: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ ٥٢١ - ٥١٩
بيان أن المشركين يجعلون لله ما يكرهون ويتزهون أنفسهم عنه ٥٢١ - ٥٢٠
- ونظيره في النصارى فإنهم يجعلون لله صاحبة وولداً ويتزهون أكابر أهل دينهم عن ذلك ... ٥٢١
فهؤلاء جميعاً يفضلون أنفسهم على ربهم ٥٢١
- تفسير قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ...﴾ ٥٢١
تفسير قوله: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ...﴾ ٥٢٢
- الكلام على قوله: ﴿أَوْلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ...﴾ ٥٢٢
الكلام على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ لِإِيْبِهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢١﴾﴾ ٥٢٢
- البراءة ضد الولاية وأصل البراءة البغض وأصل الولاية الحب ٥٢٣
تفسير قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ ٥٢٣
- الكلام على قوله: ﴿وَمَنْ يَعْبُدْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ ٥٢٣ - ٥٢٥
ذكر الرحمن هو الكتاب والسنة ٥٢٤
- من لم يعبد الرحمن عبد الشيطان ٥٢٥
الكلام على قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ ٥٢٥
- تفسير قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُنصَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ٥٢٥ - ٥٢٦
تفسير قوله: ﴿وَسْتَلْ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ٥٢٦ - ٥٢٧
- لم يكن قط دين يقبله الله غير الإسلام ٥٢٦
تفسير قوله: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴿٢٤﴾﴾ ٥٢٧
- تفسير قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ ٥٢٧ - ٥٢٨
الخفيف هو السفيه الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه ٥٢٨
- تفسير قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ٥٢٨
تفسير قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٢٧﴾﴾ ٥٢٨
- تفسير قوله: ﴿وَقَالُوا ءَأَلْهَتَنَا خَيْرٌ أَرَّ هُوَ مَا صَرُّوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴿٢٨﴾﴾ ٥٢٨ - ٥٣٠
كل إخبار يمثل صورة المخبر في النفس فهو ضرب مثل ٥٣٠
- تفسير قوله: ﴿إِن هُوَ إِلَّا عِبْدٌ ﴿٢٩﴾﴾ ٥٣٠
تفسير قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكَ مَلَكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ٥٣٠
- تفسير قوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ﴿٣١﴾﴾ ٥٣٠ - ٥٣١

- الكلام على قوله: ﴿الْأَخْلَاقَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٧﴾ ٥٣١
- الكلام على قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْتَنَّهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٨﴾ ٥٣١
- تفسير قوله: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ٥٣١
- تفسير قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ ٥٣٢
- الكلام على قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ ٥٣٢
- الكلام على قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ ٥٣٢ - ٥٣٨
- لا يملك الشفاعة أحد غير الله بحال، ولا يقال في هذا (إلا بإذنه) ٥٣٣ - ٥٣٧
- أسعد الناس بشفاعته ﷺ أكملهم إخلاصاً ٥٣٣
- بيان أن الاستثناء في الآية منقطع على الصحيح ٥٣٢ - ٥٣٨
- بيان أن القرآن يشبه بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً ٥٣٦

تفسير سورة الدخان

- الكلام على قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ٥٣٩
- بكاء كل شيء بحسبه ٥٣٩
- الكلام على قوله: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ٥٣٩
- لم يعذر الله أحداً قط بالقدر ٥٤٠
- حج آدم موسى ﷺ لأنه لومه على المصيبة ٥٤٠ - ٥٤١
- الكلام على الإيمان بالقدر ٥٤١
- لله في كل ما يخلقه حكمة فما وقع من الشر الموجود في المخلوقات فلأجل تلك الحكمة ٥٤١

تفسير سورة الجاثية

- تفسير قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِثْمًا مِّنْهُ﴾ ٥٤٢
- الكلام على قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ ٥٤٢
- تفسير قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ٥٤٣
- بيان أن مخالفة المشركين في كل شيء أحسم لمادة متابعتهم ٥٤٣
- كل حب وذوق ووجد لا تشهد له هذه الشريعة فهو من أهواء الذين لا يعلمون ٥٤٣ - ٥٤٤
- تفسير قوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ٥٤٤
- تفسير قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ٥٤٤ - ٥٤٥
- تفسير قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ٥٤٥

تفسير قوله: ﴿هَذَا كَيْتَابُنَا يَنْطِقُ بِعَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ٥٤٦

تفسير سورة الأحقاف

تفسير قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ...﴾ الآية ٥٤٧

تفسير قوله: ﴿أَوْ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ خَشْبَةً حَسْرَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ٥٤٧

تفسير قوله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ ٥٤٧ - ٥٤٨

الكلام على قوله: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ ٥٤٨

أكثر الأحكام يتبع الإنجيل فيها ما في التوراة فالتوراة هي الأصل ٥٤٨

الكلام على القرآن والتوراة والإنجيل ٥٤٩

تفسير قوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ٥٤٩

بيان عدم مناقضة الآية لقوله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» ٥٤٩

من ظن أنه قام بما يجب عليه وأنه لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى فهو ضال ٥٤٩

الكلام على قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْمِئِنًّا﴾ ٥٥٠

الكلام على قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ...﴾ الآية ٥٥٠ - ٥٥١

بيان أن العقل لا يحصل بمجرد الإيمان النافع ٥٥٠

كان فقهاء بخارى يقولون في ابن سينا: كان كافراً ذكياً ٥٥١

الكلام على قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْعِجَنِ...﴾ الآيات ٥٥١

تفسير قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ سِمْيَةً﴾ ٥٥١ - ٥٥٢

الكلام على قوله: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرزِهِمْ مَا يُوعَدُونَ لَرَّ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ ٥٥٢

الاستشفاء بالقرآن بكتابته في إثناء نظيف وسقيه المريض ٥٥٢

ماذا يصنع بالمرأة إذا عسر عليها ولادتها ٥٥٢

تفسير سورة محمد

الكلام على قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْيُنُهُمْ ﴿١﴾﴾ ٥٥٣ - ٥٥٥

بيان فساد تعريف الاتحادية للحق والباطل ٥٥٣ - ٥٥٥

قالوا: كل موجود حق وليس في العالم باطل ٥٥٣

بيان أن الشيء له مرتبتان: مرتبة باعتبار ذاته ومرتبة باعتبار وجوده في الأذهان واللسان

والبنان ٥٥٣ - ٥٥٤

تفسير قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ ٥٥٥

تفسير قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ٥٥٥

الموضوع

الصفحة	الموضوع
٦٧١ - ٥٥٥	الكلام على قوله: ﴿فَأَمَّا مَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فَتَاةٌ﴾
٥٥٦	مكة أم القرى وأحب الأرض إلى الله
٥٥٦	تفسير قوله: ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنِ لَمْرٍ يَنْغَبِرُ طَعْمُهُ﴾
٥٥٧ - ٥٥٦	تفسير قوله: ﴿وَرِثَهُمْ مَنْ يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ...﴾
٥٥٦	أهل العلم من الصحابة كانوا يعرفون من كلام رسول الله ما لا يعرفه غيرهم وهؤلاء هم الراسخون في العلم
٥٥٧	صاحب التقوى ضد صاحب الأهواء
٥٥٨ - ٥٥٧	الكلام على قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾
٥٥٧	بيان فضل التوحيد وأنه به يقوى العبد ويستغنى
٥٥٧	من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله
٥٥٨	توبة المؤمنين واستغفارهم من أعظم حسناتهم وأكبر طاعاتهم
٥٥٨	حصر المؤمنين بالذين آمنوا وجاهدوا
٥٥٨	تفسير قوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ...﴾
٥٥٩ - ٥٥٨	تفسير قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَىٰ آذَانِهِمْ...﴾
٥٥٩	بيان أن موالة الكفار كانت سبب ارتدادهم على أديبارهم
٥٥٩	تفسير قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آتَبُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾
٥٦١ - ٥٥٩	الكلام على قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْسَلْنَاكُمْ فَلَمَرَفْنَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾
٥٦٠	ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفتلات لسانه
٥٦٢ - ٥٦١	الكلام على قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوا أَعْبَارَكُمْ﴾
٥٦١	بيان أن علم الله قديم، وإنما يحدث المعلوم
٥٦٢	الكلام على قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا يُبْطَلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾
٥٦٢	الإبطال هو بطلان الثواب
٥٦٢	تفسير قوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾
٥٦٣	الكلام على قوله: ﴿هَآئِنْتُمْ هَآؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُخْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْغِلُ...﴾
٥٦٣	الجبان البخيل يستبدل به من ينصر الإسلام وينفق فيه

انتهى بحمد الله فهرس الجزء الخامس



مفكرة



دار ابن الجوزي 8428146



161803